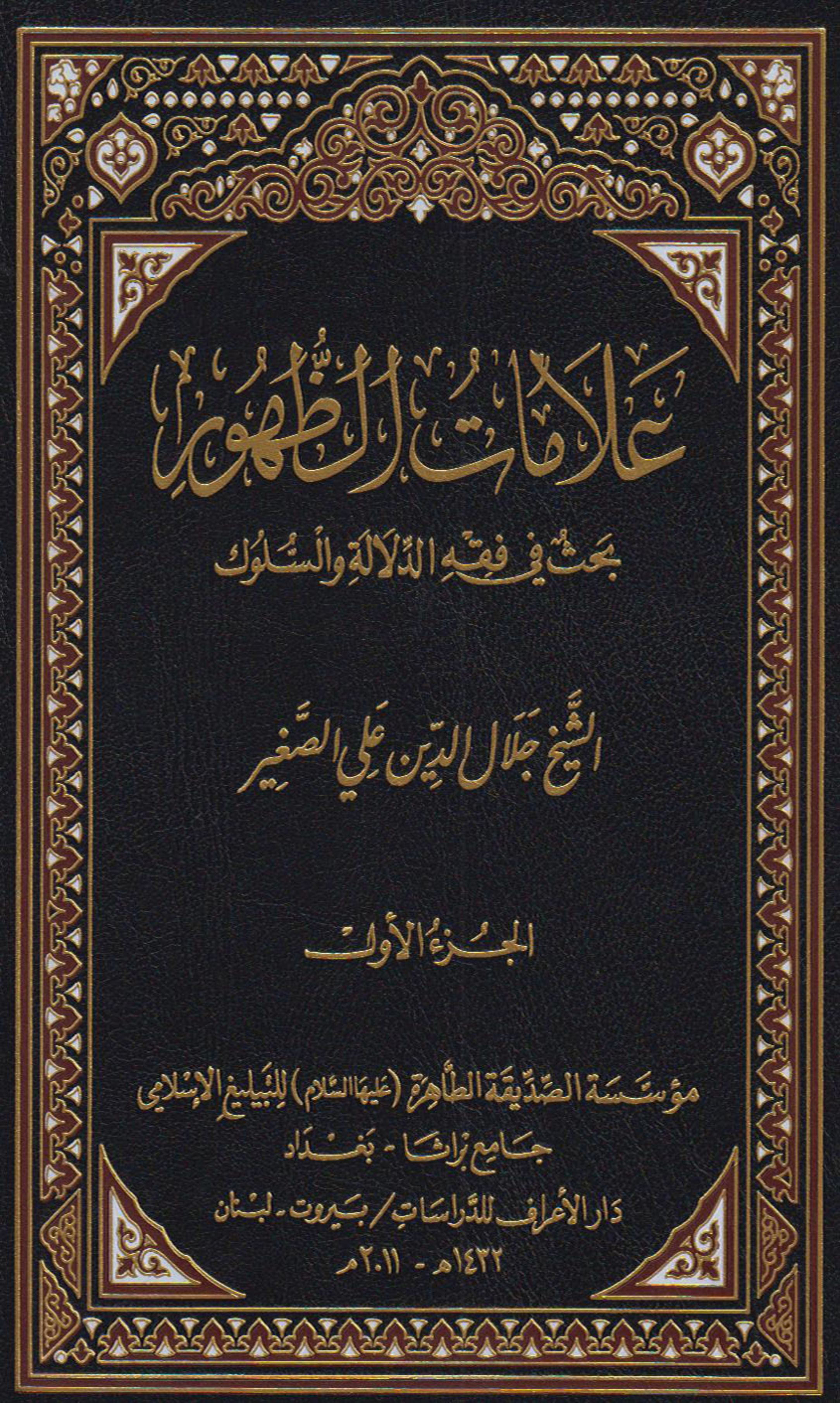
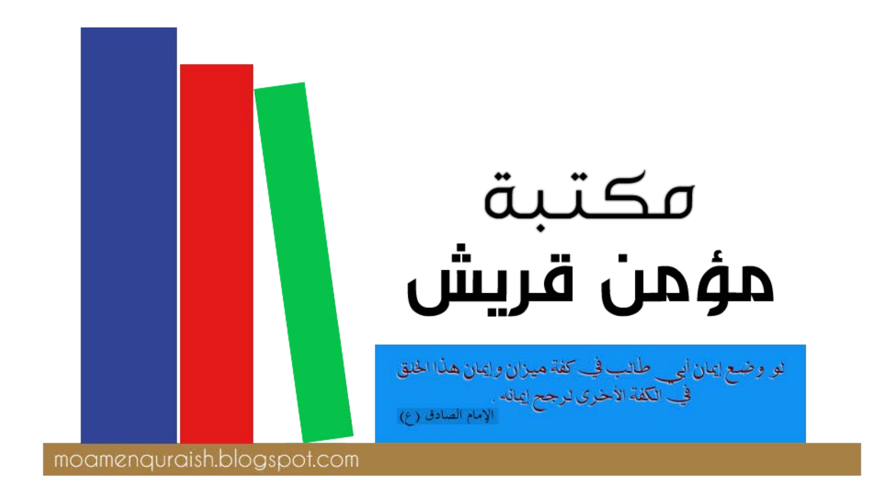


علامات الظهور
بحث في فقه الدلالة والسلوك
الشيخ جلال الدين علي الصغير
الجزء الأول
مؤسسة الصديقة الطاهرة (عليها السلام) للتبليغ الإسلامي
جامع براثا - بغداد
دار الأعراف للدراسات / بيروت - لبنان
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



علامات الظهور

بحث في فقه الدلالة والسلوك

عَلَامَاتُ الظُّهُور

بَحثٌ فِي فِقـهِ الدِّلالَةِ وَالسُّلُوك

الشَّيخ جَلَال الدِّين عَلِي الصَّغِير

الجُزءُ الأَوَّل

مؤسسة الصدّيقة الطّاهرة (عليها السلام) للتبليغ الإسلاميّ

جامع براثا - بغداد

دار الأعراف للدّراسات / بيروت - لبنان

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الطبعة الأولى ـ بغـداد وبيروت

١٤٣٢ـ٢٠١١

فاتحة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥]

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٧]

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم السلام على حبيب إله العالمين، سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد، وعلى الهداة الميامين من أهل بيته الطيبين الطاهرين، لا سيما بقية الله في الأرضين الإمام الحجة المنتظر المهدي عجل الله تعالى فرجه، واللعنة الدائمة على أعدائهم من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

تأخذ الأحاديث والروايات التي تتعلق بظهور الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه حيزاً ليس بالقليل في كتب الحديث عند جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، بل حتى في الكتب المتعلقة بغير المسلمين من أهل الكتاب.[1]

ومن الواضح أن وجود هذه الوفرة من التحدّث عن هذا الموضوع، بمقدار ما تعكس موقعاً عقائديا ووجدانياً متميزاً لموضوعها من قبل المتحدّثين عنها، فإنها لا تمثل عملاً عابثاً، كما إنها لا تأتي من فراغ، وإنما ترتبط هذه الوفرة بشكل جوهري مع أهداف السياسات التربوية والتثقيفية المعتمدة لدى هذه الفرق والمذاهب والأديان ومتطلباتها، وهو في نفس الوقت ويعكس حالة الاهتمام الفائقة لدى أئمة الفرق والمذاهب والأديان بموضوعها، والمتحدّثون عنها لا يتحدّثون لأغراض اعتباطية أو

١ يحتوي العهدان القديم والجديد كثيراً من الحديث عن الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، وعن علامات ظهوره وزمان الظهور وما يحصل فيه، ولعل إطلالة بسيطة على سفر أشعيا ورؤيا يوحنّا وسفر دانيال في العهدين ما يكشف النقاب عن هذه الحقيقة، وليس ذلك إلا لأنّ القضية المهدوية لا تتعلق بالمسلمين فقط حتى تكون حكراً عليهم، وإنما هي قضية كلّ الديانات، ولذلك تفصيل لا يسعنا ذِكره ضمن هذا البحث. وسنعرض له في بحثنا القادم عن المشروع الحضاري للقضية المهدوية.

ميثولوجية، كما إنهم لا يتحدّثون عنها لأغراض السرد القصصي أو الروائي في حبكته الأدبية الخالي من أهداف المتحدّث!

ولكن مع هذه الوفرة إلا أن حالة الاهتمام بهذا الأمر، وإن لوحظت بشكل كمّي موسّع، ولكنها مع ذلك ظلت ـ من الناحية الموضوعية ـ تعاني من تذبذات لدى المتلقي لخطابها، لا تتناسب ـ مع الأسف ـ وطبيعة هذه الأهمية، مما جعل التباين في اتجاهات هذا الاهتمام وطبيعة المواقف المترتبة عليها واضحاً، بصورة جعلت الموضوع يتراوح بين الموقف المتطرف في التعامل معها وبين الموقف المتشدد ضدها والمستخف بها.

وما بين هذا وذاك كان التلقي لدى الغالبية العظمى قد أخذ أشكالاً متعددة..

فمنهم: مَن قد انساق وراء هذه العلامات لأغراض تتعلق بالفضول أكثر من أي شيء آخر، وكلّ ذلك قد جرى بمعزل عن دقة تشخيص هذه العلامات، وربما نلمس هنا أن سجية إرواء حب معرفة المجهول وكشفه، وحركة المستقبل التي تثيرها هذه الروايات والأحاديث تشكل أحد أبرز دوافع هذا الفضول.

ومنهم: مَن راح يتلمس السلوى فيها؛ لكي يتخلص من الضغط النفسي الناشئ من سياسات العنت الاجتماعي والظلم والابتلاء التي يُعرَّض لها أو يمرّ بها، لا على سبيل اكتشاف المنهج الذي تطرحه هذه العلامات للتعامل مع هذه السياسات، وإنما لكي يقنع نفسه بانتفاء دوره في عملية التغيير، ولهذا راح يبحث فيها لغرض التماس الأعذار والمبررات لتعطيل دوره وإرادته في مواجهة استحقاقات الزمن المعاندة للحركة الرسالية.

ومنهم: مَن حاول أن يستلهم من هذه العلامات ما يمكن استلهامه في تمجيد هذا وذاك، من الأشخاص أو الأقوام أو الجهات، ولربما لِما يجد فيها بعضاً من السعي لإرضاء الذات، وهنا نلاحظ أن الأصل لدى هؤلاء هو الأخذ من علامات الظهور ما ينفعهم لتدعيم مخططات سياسية واجتماعية ونفسية آنية في غالب الأحيان، لا العكس، وقد لا ينتبهون لذلك لنشوة مخادعة تارة، أو لما يتم استغفالهم به من قبل غيرهم تارة أُخرى.[1]

---

١ بطبيعة الحال فإن هذا لا يعني أن العلامات لا علاقة لها بجماعة معينة أو شخص معين أو جهة معينة بشكل مطلق، بل على العكس، فإن التحدّث عن جماعة أو شخص أو ما إلى ذلك في هذا

ومنهم: مَن اتسم بسبيل مختلف وقد حاول من خلاله أن يكتشف أسرار الحركة المهدوية ومعالم الطريق إليها، وطبيعة الآثار الاجتماعية والسياسية المنعكسة منها أو المترتبة عليها، لا لشيء إلا من أجل النيل من المناهج التي تحاول أن تفعّل حركة التمهيد للظهور الشريف بالطريقة التي لا تنسجم مع مصالح هؤلاء وأغراضهم الخبيثة، وهذا هو دأب الطواغيت والفراعنة والجبابرة قديماً وحديثاً، ولا يستغربنّ المرء لو رأى في جهود الدول الكبرى والأجهزة المخابراتية العالمية[١] مسعىً جدياً في هذا الاتجاه[٢]!!

وثمة اتجاهان تقاسما الإفراط والتفريط في شأن الموقف من علامات الظهور، وقد أسهما إلى حد كبير في تحجيم الأثر المتوخى من هذه العلامات.

فاتجاه عمد إلى إغفال النظر في هذه العلامات وطبيعة ما توحيه من مناهج عمل، بما فيها من تحذيرات وإنذارات مسبقة، ومنارات هدى على الطريق، بل ربما نجد في بعض هؤلاء من يثير السخرية من هذه العلامات، والجدّي منهم كان يدّعي عدم

الحديث أو ذاك؛ إنما جاء ليعرب عن وجود هذه الجماعة وذلك الشخص، وسيأتي كلامنا في عدم قبولنا بمن يحاول أن يعنْون ذكر العلامات لشخص أو جهة معينة بالعنوان الرمزي ليخرج هذه العلامات من التحدّث عن الأشخاص إلى التحدّث عن الظواهر كما هو حال الّذين ذكروا أن الحديث عن الأعور الدجال ان صحت رواياته - مثلاً - إنما هو حديث عن ظاهرة، كالحضارة الغربية أو نظيرها، وليس عن شخص محدد، وافترضوا لذلك فرضيات وتمحلوا بآراء زعموا إنها أدلة وهي مما لم ينزل الله بها سلطاناً، أو أولئكم الذين رأوا إن السفياني هو ظاهرة سياسية وليس شخصاً محدد المكان والزمان، فبلغ بهم الحال أن تصوروا على سبيل المثال أن أمريكا هي السفياني وأن قتلاها هم في مقام من قتل بيد السفياني!.

١ للمخابرات البريطانية دورها المتميز جداً في استغلال الظاهرة المهدوية لتمرير أهدافها الاستراتيجية والتكتيكية في بعض الأحيان، ولو تأملنا دورها في نشأة الحركات التفريقية للأمة من جهة ودورها في تأسيس بعض هذه الحركات - كما هو الحال في تأسيسها للحركة الوهابية والقاديانية والبهائية وغيرها - لعرفنا جيداً كيف يمكن أن يتم استغلال القضية المهدوية في سياساتها.

٢ يمكن لإطلالة صغيرة على كتاب "النبوءة والسياسة" للكاتبة الأمريكية كريس هاليسل ما يمكن أن يكشف عن طبيعة الجهود الضخمة المبذولة من جهة الصهيونية العالمية وما يسمى بالحركة المسيحية الصهيونية في هذا الاتجاه، كما ويمكن في نفس الوقت أن يطّلع القارئ على مدى التأثير الذي تركته علامات الظهور لدى التيار اليهودي والمسيحي المتأثر بما ورد في العهدين القديم والجديد، ولا يهم هنا كون حديثهم مرتبط تارة بظهور المسيح المخلّص، وأخرى بعودة المسيح وفقاً لاختلاف الديانتين، باعتبار أن عودة المسيح عليه السلام ترتبط أساساً بظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وضوح أن العلامة الفلانية أو الفلانية متعلقة بزمنه أو لا، وهذا الكلام بقدر سلامته، إلا أنه ليس بمدعاة لترك المراقبة الجادة والملتزمة للمنهج الذي تطرحه هذه العلامات؛ لأن هذا الفرض لا ينفي عكسه أيضاً، ولا سيما لو وضعنا نصب أعيننا أن الأئمة صلوات الله عليهم كانوا في غاية الجدّية حينما تحدّثوا بمثل هذه الأمور، بل ربما عانوا الأمرّين بسبب حرصهم على مدّ رقعة الحديث في هذا المجال، نظراً لكثرة المصالح التي يرون تحقيقها من خلال نشر هذا المنهج.

فيما راح الاتجاه الآخر يعاكس هذا الاتجاه تماماً فراح يتعامل مع هذه العلامات وكأنها متعلّقة بزمنه حتماً، وبالنتيجة انغلق في أعماله وحركته على نمط من هذه العلامات التي قد تعطيه الفسحة في الانسحاب من ساحة العمل والانكفاء على الذات بدعوى وجود الرواية الفلانية التي دعت إلى ذلك، أو تعطيه المبرر للتحرك الثائر والمنتفض على أوضاعه بناء على روايات يتوهم منها ذلك، وكانت الحصيلة إفراط هذا وتفريط ذاك.

وقد اتخذ بعضهم ـ وهو ما نلمسه حالياً بشكل موسّع ـ اتجاهات مؤلمة، كمحاولة بعضهم للارتزاق السياسي والاجتماعي!! من خلال هذه العلامات، بل رام بعضهم عرض نفسه أو مجموعته بعنوانه أحد من تحدّثت عنهم هذه العلامات، والاستعانة بطيف كبير من الأكاذيب والادعاءات مع الإمعان في استغلال عواطف الناس البريئة التي قد يستهويها الحديث فتقع في محذور التعلّق بمثل هؤلاء الأشخاص.[١]

ومع تثبيت حقيقة أساسية وهي أن الأئمة صلوات الله عليهم، ومن سبقهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله على نبينا وآله وعليهم، وما حوته كتبهم وصحفهم ومزاميرهم حينما تحدّثوا عن علامات الظهور، لم يكونوا في صدد سرد قصة، أو التحديث برواية لمجرد السرد والتحديث، أو استعراض الفنون البلاغية والبيانية، أو مجاراة حالات جذب ثناء النقّاد الأدبيين، أو النأي عن انتقادهم، وإنما كان ذلك ضمن جهدهم الرامي لتوجيه ورسم المنهج الذي أرادوا لمتبعيهم أن ينتبهوا إليه

---

١ لا بُدّ من الإشارة هنا إلى حقيقة عمل كثير من الأجهزة الاستخباراتية - التي استهدفت اختراق الجو الديني لشيعة أهل البيت عليهم السلام - على استغلال هذه الحالة لسرعة تأثيرها على نفوس العوام، وقد استخدمت قديما وحديثاً، ولعل نظام المجرم صدام كان هو أكثر من استخدم هذه الحالة، ومن خلال هذا الاختراق ما زالت الساحة العراقية تعاني - وللأسف الشديد - من شذّاذ الآفاق هؤلاء.

ويأخذوا به أثناء مواجهتهم لحركة الطاغوت وتكريس حركة الإيمان..

أقـول: مع تثبيت هذه الحقيقة يرتسم لنا المنهج الذي يريد منا أهل البيت صلوات الله عليهم أن ننتهجه للتعامل مع علامات الظهور المذكورة في الروايات والأحاديث، ولهذا فالمطلوب هو أن تأخذ حركة علامات الظهور دورها الموجّه والراسم لمعالم مسار الحركة الرسالية في زمن غياب الإمام المعصوم صلوات الله عليه.

والسعي لاكتشاف هذا المنهج، ورسم آفاق التعامل مع هذا المنهج وتحديد ذلك، هو ما ستكون عليه مهمتنا في هذا البحث، الذي قد يجد القارئ الكريم في بعض طياته شيئاً من الجدة في طريقة التحليل، على الرغم من أن ما في طياته مطروح في الكتب، وأشتاته منتشرة في المصنفات، وسعينا هنا أن نحاول من خلاله أن نلِمّ بأهم مفردات التعامل مع قضية علامات الظهور، ولذلك سنتوقف عند محطات متعددة وجدت مجموعها جديراً برسم ما أبتغيه هنا..

فلقد تحدّثنا عن أهداف علامات الظهور، وآليات التعامل معها، كما أشرنا إلى استحقاقات الظهور وكيفية التعامل مع هذه الاستحقاقات، وتطرقنا إلى سبل الإعداد لعالم الظهور، وعلاقة زمننا المعاصر بعالم الظهور، ونظراً لخصوصية الأيام الأخيرة للظهور في هذا المنهج وخطورتها على المسار الإيماني فلقد فسحنا المجال للتأمل فيها، كما لاحظنا وجود ارتباط ما بين حركة الهدى المعاصرة مع أولويات الحركة المهدوية، ولذلك لم نفوّت الفرصة دون التحدث عن هذه الأولويات.

وختمنا حديثنا في ظاهرة أجد أنها من المعالم الأساسية في هذا المنهج، وهي ظاهرة الارتباط العضوي ما بين القضية المهدوية والعراق، والحديث هنا لم يكن عند الوطن والحدود المزعومة له، ولا علاقة له بالمسألة الوطنية العراقية، كما وأنه لم يك غافلاً عن وجود اهتمام كبير في أماكن أُخرى في هذه العلامات، وإنما كان حديثنا هنا عن الموقع شعباً ومكاناً، لارتباط هذا الموقع الجوهري بالحركة المهدوية.

على أن البحث تم التقديم له بما يمكن أن يكون واحداً من أهم المشاكل التي تعترض الحركة المهدوية، وأعني بذلك مسألة الزمان الطويل الذي مرّت وتمرّ به هذه الحركة المباركة، وما تكتنف هذه المسألة من شبهات، وما تولّده من عقد وصعوبات.

يبقى عليَّ أن أشير إلى أنني ـ هنا ـ لم أكُ في صدد الحديث الروائي عن علامات الظهور وحصرها وشرحها وكشف أسرارها، فهذه ـ على الرغم من أهميتها البالغة ـ إلا أنها تحتاج إلى حيز ومجال غير ما نحن فيه، ولو حصل وأوردت جملة من هذه العلامات كما هو الحال في استعراضنا لبعض هذه العلامات في الفصل السابع والثامن من الكتاب، فإن إيرادها إنما سيأتي بهدف ضرب المثل والتوضيح والاستشهاد على الفكرة المطروحة ليس إلا.

وإن جلّ اهتمامي سينصبّ على رسم منهج للتعامل السليم مع هذا الخزين الكبير من العلامات التي وردت في أحاديث أئمة أهل البيت صلوات الله عليهم، والتي اعتقد أن المؤمن العامل لو أخذ بما تفيض عليه من مناهج للعمل، وبما تضعه من منائر للهداية في طريق مواجهته للأزمات والمصاعب التي تكتنف حياة المؤمنين، لكان بإمكانه أن ينتخب الطريق الأكثر سلامة والأوفر حظاً في مسار حفظ العاقبة وسلامتها، وفي مسار التواصل مع الأهداف الربانية التي يجب على المؤمن أن يتفاعل معها باستمرار.

وأودّ من القارئ الكريم أن ينتبه إلى أن بعض فقرات الكتاب كتبت بشكل مركّز، كما أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي أشير إليها لها مساس مباشر بالفكرة المطروحة، وربما تشكل جزءاً من الفكرة المطروحة، لا تمثيلاً لها أو تدليلاً عليها، وحتى لا يضيّع القارئ فرصة تعرف الطرح العام للكتاب، أتمنى أن لا يمرّ على هذه الآيات الكريمة والروايات مرور من قرأ هذه الآيات والروايات قبل ذلك، وإنما يقرأها ضمن إطارها المطروح في الكتاب؛ لأنها ـ وكما أشرت آنفاً ـ قد تكون الجزء الرئيس من الفكرة المطروحة فيه، ومفروغ عنه أني لأرجو أن لا يمسك بالكتاب من يريد أن يقرأه لغرض القراءة الخالية من التأمّل والاستيعاب، أو لغرض الانتهاء من الكتاب لمجرد الوصول إلى نهايته.

وسأكون مسروراً أيّما سرور وممتنّاً لو أن القارئ الكريم لم يبخل عليَّ بملحوظاته النقدية والإكمالية، سواء من خلال المراسلة أو المشافهة، فلا أدّعي لنفسي العصمة، ولا أدّعي لنفسي القدرة التامة على استيعاب كلّ موضوعات الكتاب التي عالجتها أو طرحتها فيه، ومن المحتم عليَّ أني سآخذ بكلّ الملحوظات التي سأتلقاها بنظر الاعتبار، ولا ريب أني لن أفوّت الفرصة في الاستفادة منها في أية عملية إعادة لطبع هذا الكتاب، سائلاً الله العلي القدير أن يجعل من يتقدّم بذلك شريكاً في ثواب هذا الكتاب.

ولا بُـدّ لي أن أشير إلى أني حاولت أن أذكر أمثلة كثيرة من واقعنا المعاصر، منها ما أحسست به في سيرتي الذاتية والعملية، ومنها ما ألِفته في ساحة العمل التي كنت أعايشها وأتعايش معها، وليس غرضي في ذلك أنْ أتحدث بشؤون ترتبط بالشخص، وإنما أردت بذلك أن أعالج مسألة أشعر أنها مورد معاناة كبيرة في الشأن الفكري والثقافي، وهي أن القارئ حينما يقرأ سيرة الأئمة صلوات الله عليهم، أو ما يتعلق بأي شأن عملي آخر، لا يحتمل في نفسه أن يكون هو المخاطَب في كلّ ما يتم التحدّث عنه، بل يتصوّر أن الحديث والخطاب موجّه إلى غيره، أو متعلق بحقبة تاريخية لا تعنيه، ولهذا حاولت الاستعانة بذكريات وتجارب من الواقع المعاش؛ لكي نضع الخطاب في موضع حياتنا العملية المعتادة.

فلو تحدّثنا عن الأئمة عليهم السلام وأصحابهم شعر بعضهم أن الحديث عن المعصوم صلوات الله عليه وأفعاله لا علاقة له به؛ لأنه لن يرقى إلى ذلك المستوى، وأنه لن يدرك ما كان عليه الحال عند أصحاب الأئمة عليهم السلام، بينما المطلوب أن هذه الأحاديث موجّهة إلينا نحن كأفراد نعيش في هذا القرن، لأننا معنيون بها ـ حتماً ـ كما كان أصحاب الأئمة صلوات الله عليهم معنيين بها، هذا إن لم نقل بأن حديث الأئمة صلوات الله عليهم قد يكون موجه إلينا أكثر مما كان موجه لأصحابهم خاصة في مسألة علامات الظهور على إن حديث الأئمة صلوات الله عليهم لم يك حديثاً موجهاً إلى الأئمة أنفسهم، أو إلى فترة دون غيرها، بل هو حديث موجّه إلى شيعتهم في كلّ زمن.

فمن ذلك الحديث مَن يتّخذه طريقاً للاعتبار، ومنه مَن يجب عليه العمل به تأسياً واقتداءً وائتماماً، ولا سيما أحاديثهم المتعلقة بالظهور الشريف والتمهيد له، فهذا الحديث متعلّق بنا، فنحن إما أن نكون من الممهّدين للمجتمع الذي سيحظى بالظهور المباشر للإمام المنتظَر (روحي فداه)، وإما ـ وما يدريك ـ لعلنا نكون نحن المجتمع الذي سينال هذه الحظوة العظيمة والشرف الباذخ؟!

ثم إني في كثير من مباحث الكتاب، لم أتعمد أن ألعب دور المؤرخ أو الواصف للحدث التاريخي، بل سعيت جاهداً أن أدخل في الاجتماع السياسي لـمجتمع المنتظرين، تشريحاً وتحليلاً، وفي الواقع النفسي الذي يعيشه المنتظِر والممهّد للظهور الشريف، وقد جمعت ما بين سياسة التأشير على مكامن الخلل ومواطن القوة في جانبي الصراع من جهة، وثابرت من جهة أخرى على تقديم النصح في الطرق العملية في تحمل المسؤولية الملقاة على عاتق المنتظِرين، سواء على مستوى مواجهة

الاستحقاقات المترتبة على كونهم ينتمون إلى هذا المجتمع، أو على مستوى النوء بأعباء المهمة الرسالية العظيمة التي انتدبوا لأدائها.

ولهذا، فإني لا أنتظر من القارئ أن يجد في هذا الكتاب ثقافة من أجل الثقافة، بل لعل صفحات الكتاب مشحونة برؤى عملية ومناهج حركية أشعر بأنها مفيدة جداً للمنتظرين، وقد حرصت كلّ الحرص أن أجعلها مستقاة من الحياة العملية لمسيرة الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم، أو قريبة من ذلك.

وإني إن نسيت أمراً، فلا يمكنني أن أنسى الجهود الكبيرة والكريمة لأحد السادة الأفاضل دام عزه، الذي ظل يرافق كثيراً من مؤلفاتي تصحيحاً وتنبيهاً وتعليقاً ونقداً بإيثار الجندي المجهول الذي آثر أن يحظى بجائزة الآخرة والرضا عند الإمام صلوات الله عليه من أن يذاع له اسم في الدنيا، وإني لأجد في بياني كثيراً من العجز والعيّ من أن أُوفي شكره وإبراز امتناني العميق له، ولكني أبتهل إلى الله الكريم المنّان أن يتولى شكره وإيفاءه جزاء المحسنين، وأن يشمله برداء السلامة والعافية.

وأملي من كلّ ذلك أن أضع في هذا البحث الذي طولبت به كثيراً من قبل عدد كبير من طلبتنا الأعزاء، ما يمكن أن يكون شفيعي بين يدي الإمام المهدي المنتظَر (روحي وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء)، ومن الله جلّ وعلا أستمد العون، ومن أهل بيت العترة والنبوة أستجدي اللطف لعلّي أصل إلى مقصودي ومناي، سائلاً المولى العلي القدير أن يتقبل هذا العمل بجميل كرمه وواسع جوده، وأن يجعله ذخيرة لي ولوالدَيَّ وأهلي وذرّيتي ومَن يهمّني أمره من المؤمنين والمؤمنات يوم نلقاه.

هذا، وقد شرعت فيه في يوم ولادة الإمام الحسين صلوات الله عليه، الموافق للثالث من شعبان المعظّم عام ١٤٢٦ للهجرة، وكنت قد كتبت كثيراً منه في فسحة من الوقت رزقنيها الله تعالى وأنا راقد في المستشفى في فراش المرض[1]، في نفس الوقت الذي كان القلب يحترق لوعة من جرائم أعداء الإمام صلوات الله عليه بحق شيعة أهل البيت صلوات الله عليهم في العراق، والتي لا أشك أنها تأتي لتعرب بشكل واضح عن أنها لا تعدو إلا أن تكون من الإرهاصات المباشرة للظهور الشريف

---

١ توقفت لفترة طويلة عن الكتابة في بعض فصول الكتاب لأسباب عدّة؛ منها: الانشغال، ومنها: عدم فراغ البال واحتباس الفكرة، وسبحان الله الذي لا تنقطع آلاؤه، فحينما رقدت في نفس المستشفى للمرة الثانية بعد فترة من الزمن وجدت الأفكار تفيض مرة أخرى، فكتبت غالبية الفصل الخامس فيها، علماً أن المستشفى تحمل الاسم المبارك للإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف.

لأمل السماء والأنبياء والأولياء.

وقد انتهيت من مسودته النهائية في الأول من رجب المرجب عام ١٤٣٢ فلك الحمد ربي على جميل صنعك، وحكمة بلائك، ولطيف رحمتك، اللهم عوّض شيعة أهل بيت نبيك صلواتك عليه وعليهم بحفظ الإمام المنتظَر، والنأي به عن كلّ بلاء، وإصلاح الأمر له بشديد مكرك، فأنت خير الماكرين، وبعزيز قدرتك، وأنت المقتدر العزيز، اللهم وقرّ أعيننا بتعجيل فرجه، وامنحنا توفيق الانتصار له.

اللهم كن لوليك الحجة بن الحسن صلواتك عليه وعلى آبائه؛ في هذه الساعة، وفي كلّ ساعة، ولياً وحافظاً، وقائداً وناصراً، ودليلاً وعيناً، حتى تسكنه أرضك طوعاً، وتمتعه فيها طويلاً، برحمتك يا أرحم الراحمين. والحمد لله أولاً وآخراً، وصلواته وسلامه على محمد رسوله وآله أبداً.

بغداد - جامع بَرَاثا المقدّس

جلال الدين علي الصغير

www.sh-alsagheer.com

الرموز المستخدمة في الكتاب

استخدمت في الكتاب جملة من الرموز، ولا سيما في الهوامش، وبما أن هذه الرموز قد تختلف من كتاب لآخر، وقد يخفى شأنها على بعض القراء، لذا وجدت من الضروري أن أضع جدولاً بما ترمز إليه هنا، علما بأن غالبيتها سيكون في الهوامش وفي جدول المصادر والمراجع.

ب: الباب

ت: سنة الوفاة

ج: تارة تأتي لتشير إلى الجزء، كما هو الحال في كتاب بصائر الدرجات واختيار معرفة الرجال، وهي لا تشير إلى جزء آخر من الكتاب، وإنما لأن المصنّف قسّم كتابه الواحد إلى أجزاء، لذا تسهيلاً لمهمة الرجوع ونتيجة لاختلاف النسخ أشرنا إلى الجزء أيضاً، وهي أُخرى تأتي لتشير إلى المجلس، وهذه خاصة بكتاب أمالي الشيخ الطوسي في الجزء المتعلق بمجالس أبي علي ابنه في ما رواه عن أبيه.

ح: رقم الحديث.

خ: خاصة بنهج البلاغة، وتشير إلى رقم الخطبة.

ص: صفحة.

ط: الطبعة.

ف: الفصل.

ق.ح: خاصة بنهج البلاغة، وتشير إلى فصل قصار الحكم.

ك: خاصة بنهج البلاغة، وتشير إلى رقم الكتاب فيه.

م: المجلس، وهي حينما تأتي بمعية كتاب أمالي الطوسي، فإنها تشير إلى ما أملاه الشيخ الطوسي نفسه تمييزاً لما أملاه ابنه.

[]: العضادتان هذه تشيران ـ في الروايات المنقولة ـ إلى أن ما وضع بينهما إنما هو في إحدى نسخ الكتاب المنقول عنه، لا في كلّ النسخ، وهو في العادة إضافة تصحيحية من الناسخ أو المحقق للكتاب.

(٢ : ٤٤) وهذه تعني المجلد الثاني الصفحة ٤٤.

(٢٢ ـ ٣٥) وهذه تعني من ٢٢ إلى ٣٥، وبالتسلسل.

رقم: وتشيز إلى رقم ترجمة الرجال ـ مثلاً ـ إن كان المصدر المنقول عنه كتاباً رجالياً، أو رقم الخبر إن كان الكتاب المرجوع إليه قد تم ترقيم أخباره.

الإهداء

إلى عشّاق الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه وسهل مخرجه، والباحثين عنه.

إلى الّذين ظل التفكير بالإمام المنتظر أرواحنا له الفداء، والشوق إليه، يقضّ مضاجعهم، ويسهّد مراقدهم، لهفة للقياه، وشهقة لرضاه.

إلى الّذين ظلّت عيونهم شابحة تترقب مع طول الزمان وتقادم الأيام رؤية تلك الطلعة الرشيدة والغرّة الحميدة، فلم يشغلهم طول أمد ولا عنت عدو ولا شماتة مبغض ولا غفلة محبّ عن أن يسمّروا أعينهم على قارعة طريق الانتظار وهم يحلمون بتحقيق وعد السماء..

إليكم سادتي أقدم هذا المجهود علّي أن أكون لبنة تعبّد طريقكم المقدّس.

الفصل الأوّل

عَلَامَاتُ الظُّهُورِ فِي المُصْطَلَح

يعود مصطلح ((**علامات الظهور**)) في تسميته وإطلاقه إلى وفرة من الأحاديث التي استخدمته، وهذه الأحاديث تشير إلى جملة من الأحداث التي تحدّث عنها المتحدّث ولم تك قد حصلت بعد، وربطها بصورة أو أخرى بالظهور الشريف للإمام المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه، ولذلك تسميها عدد كبير من الكتب التراثية بالملاحم، وهذا المصطلح أكثر ما يستخدم لدى المصنّفين السُـنّة[١]، وإن كان بعض الخاصة يستخدمه أيضاً[٢]، ولكن الأعم الأغلب من مصنّفي الإمامية من القدامى والمتأخرين يستخدمون هذا المصطلح ـ أي العلامات ـ دون غيره، وفي ذلك دلالة مهمة سنشير إليها، ونلاحظ هنا أن مصطلح (الملاحم) لم يرد في أيّ نص ديني، بينما مصطلح العلامات قد ورد لفظاً ومعنىً في عديد من النصوص.

وبملاحظةٍ كلّيةٍ لجميع من تحدّث عن ظهور الإمام المنتظَر (روحي له الفداء)، قاصداً وغير قاصد، يمكن ملاحظة ثلاثة اتجاهات، هي:

أوّلاً: الحديث العامّ عن الظهور المرتقب للإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، وتوخّي الحديث ظهور الإمام (روحي فداه)، مباشرة وبقصد تامّ له.

ثانياً: الحديث المتوخّي في ظاهره علامات ظهور السيد المسيح عليه السلام،

---

١ كما هو الحال في كتاب "الفتن" لحنبل بن إسحاق بن حنبل، و "النهاية في الملاحم والفتن" لابن كثير الدمشقي، و "الملاحم" لابن المنادي، وغيرهم.

٢ كما هو الحال في كتاب السيد رضي الدين ابن طاووس الحلي رضوان الله تعالى عليه هو: "التشريف بالمنن في التعريف بالفتن"؛ إذ صرّح مؤلفه رحمه الله بهذا الاسم في كتابه، إلا أنه اشتُهر بعدة أسماء، أشهرها "الملاحم والفتن" دون اسمه الصحيح، وهي تسميات متأخرة عن زمان المؤلف، شاعت بين مَن ترجموا له، وعند بقية المؤلفين، كما في مقدّمة تحقيق الكتاب.

راجع: التشريف بالمنن في التعريف بالفتن: ٣١ - ٣٣ للسيد ابن طاوس، تحقيق: محمد الباقري ومحمد الحسّون، نشر: مؤسسة صاحب الأمر (عج)، أصفهان ١٤١٦ .

باعتبار تزامن الظهورين معاً[1]، وهذا ما تجده في العهدين القديم والجديد، أي في التوراة والإنجيل الحاليين[2]، ولكنه لدى العهد القديم يتعلق بظهور المسيح المخلّص، وفي العهد الجديد يتعلق بعودة المسيح عليه السلام، وتجد في بعض كتابات العامة لاسيما المتأثرة عموماً بالإسرائيليات جانباً من هذا الحديث.

ثالثاً: الحديث المتعلق بأشراط الساعة وعلامات القيامة؛ إذ حصل لبسٌ واسع الانتشار في كل كتب العامة في الأغلب مفاده تزامن ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه مع حيان يوم القيامة، ولذلك تم خلط كثيرٍ من الحديث عن الظهور الشريف مع الأحاديث المتعلقة بأشراط الساعة، وما من ريب في إن قسماً من هذا الخلط قد تم لأغراض طائفية ومذهبية بحتة، كما هو الحال بحديث الجسّاسة[3]، التي يصورونها كنموذج أُسطوري لحيوان سيظهر في آخر الزمان، وبظهور هذا الحيوان الأُسطوري يفسّرون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾[4]

---

١ يكون ظهور ونزول المسيح عيسى عليه السلام - كما تشير الروايات - من بعد ظهور الإمام صلوات الله عليه، وقبيل فتح بيت المقدس من قبل الإمام صلوات الله عليه.

٢ هناك نصوص عديدة في العهدين القديم والجديد تتحدث عن علائم الظهور، والظهور نفسه، بشكل مثير، وسنشير إلى بعض ذلك في الصفحات القليلة القادمة.

٣ ذكر النووي في شرحه على مسلم ذلك منسوباً إلى عبد الله بن عمرو بن العاص. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ : ٢٧، دار الكتاب العربي؛ بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧ .

وقد أسهب المباركفوري في شرحه لسنن الترمذي بوصف هذه الدابة في فكر القوم ورواياتهم، ومن جملة ما ذكره وهو يصفها: طولها ستون ذراعاً، وروي أن رأسها تبلغ السحاب، وعن أبي هريرة: ما بين قرنيها فرسخ للراكب، وأضاف ناقلاً عن الرازي قوله: إن لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان؛ وعن ابن جريج في وصف شكلها: رأس ثور وعين خنزير وأُذن فيل وقرن أيّل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنَب كبش وخفّ بعير؛ ثم نقل أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون إلى (طولها!!) فلا يخرج إلا ثلثها!!!

انظر: تحفة الأحوذي في شرح الترمذي ٩: ٣٣ للمباركفوري؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت ١٤١٠هـ.

أقول: وهناك أوصاف أخرى تثير عجب الإنسان من عقول تصدّق بذلك، وما وقعوا فيه إلا للرغبة في التنفيس عن طائفيتهم ومقتهم لأهل البيت عليهم السلام، ويكفي أن تجد أن صنّاع هذا الخبر هم أمثال تميم الداري اليهودي وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وعامر الشعبي، وحالهم في النصب سواء؛ ولربك في خلقه شؤون!!!..

٤ سورة النمل: ٨٢ .

ومن خلال التعامل الإجمالي مع هذه الأحاديث يمكن إجمال الملحوظات التالية:

أ ـ هناك أحاديث أشارت إلى أحداث حصلت بالفعل، وبعضها تمّ عنونته ضمن إطار علامات الظهور، وبعضها وَهِمَ المصنّفون فوضعوها ضمن هذا الإطار، في حين أنه لا يوجد في حديث المتحدّث ما يشعر بأنه كان في صدد التحدث عن الإمام المهدي صلوات الله عليه.

ب ـ هناك أحاديث عنت الظهور مباشرة، وهي على قسمين:

أوّلاً: بعضها تم حصوله قبل حيان غيبة الإمام عجل الله فرجه، بل حتى قبل ولادته صلوات الله عليه؛ وستأتي بعض الروايات التي تشير إلى أن بعض أحاديث الأئمة صلوات الله عليهم ـ في مثل هذه الأحاديث ـ لم تقصد الإمام الثاني عشر صلوات الله عليه، وإنما تحدثت عن قيام (القائم)، وربما (المهدي) بشكل مطلق، وواضح أن جميعهم صلوات الله عليهم يصح عليهم مصطلحَي: (القائم) وربما (المهدي)، ولكن ـ وكما تشير نفس هذه الروايات ـ لم يتحقق هذا الأمر لأسباب تذكرها؛ وسنذكر بعضها عما قريب.

ثانياً: بعضها متعلق بمرحلة غيبة الإمام (روحي فداه)، وهذه الطائفة من الأحاديث قد حصل قسم كبير منها، ولعله القسم الأكبر، ولـمّا يحصل القسم الآخر بعد.

ج ـ هناك أحاديث وصفت أُموراً وأحداثاً وأشارت إلى أنها من المحتوم، وهي لم تحصل بعد، وعلى الرغم من أنها عُنونِت في الروايات بوصف المحتوم، إلا أنها قد تسمى لدى بعض الباحثين بشرائط الظهور، تمييزاً لها عن علائم الظهور، وهذه ـ أي الشرائط ـ بمجموعها لم تحصل بعـد.

الفرق بين الملاحم والعلامات

ولتحديد مفهوم المصطلح بشكل دقيق، وتفريقه عما يقال بأنه من الملاحم، نشير إلى أن مصطلح العلامات هو الأوفق والأدق بقضية الظهور من مصطلح الملاحم، بل إن مصطلح الملاحم لا يتعلق إلا بجزء يسير من العلامات، فالملحمة والملاحم إنما تشير إلى الوقعة العظيمة في الفتنة، كما يشير إلى ذلك اللغويون[1]، بينما العلامات لا تتعلق بالضرورة بالوقائع العظيمة، فلقد تحدثت هذه العلامات عن أُمور كثيرة لا علاقة لها بما يدخل في إطار الملاحم، ولقد تحدث أصحاب الملاحم عن أُمور لا علاقة لها بما تدل عليه كلمة الملاحم.

بيد أن الأهم هو أن العلامات لا تتحدث عن نفسها، وإنما تدل على غيرها، فعلائم الطريق هي للدلالة على الطريق لا الوصول إليه، وبالتالي فهي كاشفة عن غيرها، وليست معربة عن نفسها، وهذا المعنى هو الذي يتلاءم مع السياسة المتوخاة منها، في أن تكون دليلاً للسالكين في طريق الظهور أو الباحثين عنه، يتخذون منها مَعلماً للوصول إلى غايتهم، ويسترشدون بها لو تعددت بهم السبل وادلهمت أمام أعينهم الآفاق.

وقد وجدت في بعض الكتب ما يشير إلى أن بعض المؤلفين قد يريد بلفظ (الملاحم) كلّ حديث عن الغيب والمستقبل، وبهذا فإن المستعظم لديه ليس هو ما يتم التحدث عنه، وإنما المستعظم عنده هو من يتحدث بهذه الأُمور، ولهذا ربما عنّ لبعضهم أن يعدّ الحديث بالملاحم وفق هذا المعنى من الأدلة على النبوة والإمامة، باعتبار أنه كاشف عن صدق المتحدث بأمر لم يكن قد حدث بعد.

وهذا الأمر ـ أي التحدث بالملاحم ـ وإن كان صحيحاً إجمالاً في كشفه عن صدق المتحدّث، إلا أنه غريب عن مفاد ما نتحدث عنه هنا، وله تفصيل لا يتسع له المجال هنا، فالعلامات لا تريد بالضرورة أن تنبئ عن صدق المتحدث، بقدر ما تريد أن تنبه على أن أمراً ما سيحصل، وحصوله كاشف ولا ريب عن صدق مَن تحدث به،

---

١ القاموس المحيط ٤: ١٧٤، ولسان العرب ١٢: ٥٣٧ .

ولكن حصوله يستبطن أُموراً عدة منها ما يتعلق بما قبل الحصول، ومنها ما يتعلق بوقته، ومنها ما يتعلق بما بعده.

على أن الغالب في مثل هذه الأُمور هو أن المتحدث الذي يريد أن يقيم حجة صدقه، عادة ما يتحدث عن أُمور تتعلق بزمنه أو بزمن قريب منه؛ لكي يتم الهدف المرتبط بصدقه.

ولهذا، فـ (الملاحم) إن أريد بها هذا المعنى، فهي ما يتم التحدث عنه بفترة قريبة من زمن الحديث، ولكن غالبَ ما يتمّ التحدث عنه في العلامات كان بعيداً جداً من الناحية الزمنية عن وقت التحدث عنها، والفرق بينهما كما هو الفرق بين قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [1]، وهو يكشف عن انكسار الروم الموحدين أمام الفرس الوثنيين، ثم انكسار الفرس من بعد ذلك، وهو أمر تبيّنه المؤمنون في عصر نزول الآية الشريفة أو قريب منه، وبين قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ؛ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [2]، وهو أمر سيتم في عهد الإمام المنتظر صلوات الله عليه؛ فتأمل!

*****

---

١ سورة الروم: ٢ - ٤ .

٢ سورة الإسراء: ٤ - ٧ .

الفرق بين العلامات والشرائط

ومن أجل الدقة في تحديد المصطلح أكثر، فإن المرء يسمع بين حين وآخر بمصطلحين؛

أولهما: علامات الظهور.

وثانيهما: شرائط الظهور.

والمصطلحان متأتيان من ورود ذِكرهما في الراويات الشريفة الواردة عن أهل البيت صلوات الله عليهم، فهناك مجموعة من الأحاديث وصفت بعضاً من الأحداث بأنها حتمية الوقوع، كما في مسألة بعض الحداث الاجتماعية كخروج السفياني واليماني والخراساني وقتل النفس الزكية في العشر الأواخر من ذي الحجة، أو في بعض المظاهر الكونية كما في علامة الدخان، وقضية خروج الشمس من المغرب، إضافة إلى الكسوف والخسوف في غير وقته، أو في ما نعبّر عنه بالشأن الملكوتي كما في قصة الصيحة في ليلة القدر الكبرى، .. وما إلى ذلك، وهي لهذا تسمى بالشرائط؛ لأنها يجب أن تحصل قبل الظهور، وهناك أحاديث كثيرة ذكرت علامات ستكون قبل ظهور الإمام المنتظَر صلوات الله عليه، ولكنها ليست من النمط الحتمي الذي يجب أن يَحدث، وإن كان بعضها ملاصق للعلامات الحتمية كما هو الحال في تلازم الأبقع والأصهب مع السفياني، أو تلازم السفياني مع نزول الترك الجزيرة، ولكن هذا التلازم ليس حتميا، اذ تتوقف هذه الاحداث على ما قبلها في العادة.

وقد تطلق بعض الروايات على المصطلحين تسمية أُخرى، وهي العلامات الموقوفة والمحتومة، وفقاً لما أشارت إليه رواية الإمام الباقر صلوات الله عليه، على ما يرويه الفضيل بن يسار، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: "من الأُمور أُمور موقوفة عند الله، يقدّم منها ما يشاء، ويؤخّر منها ما يشاء".[1]

وبلفظ آخر أشمل من ذلك قال الفضيل: سمعت أبا جعفر عليه السلام: "من

١ الكافي ١: ١٤٧ ح٧.

الأُمور أُمور محتومة كائنة لا محالة، ومن الأُمور أُمور موقوفة عند الله، يقدّم فيها ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء، لم يطلع على ذلك أحداً "[1]

وقد استفاد بعض الباحثين من كلام المعصوم صلوات الله عليه ووصفه إياها بأنها من المحتوم، أنّ سواها من غير المحتوم، أي يمكن حصوله ويمكن عدم حصوله، أي أنها كانت مقدّرة ولكنها لم تبرم إبراماً كما هو حال المحتوم منها، وهي من سنخ ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾[2]

ولهذا يقال: إن العلائم يمكن أن تقع ويمكن أن لا تقع، وتتفاعل في حصولها وعدمه عوامل عديدة؛ كالبداء، واللطف الإلهي، والدعاء، والصدقة وطبيعة جهد الإنسان، واتجاهات إرادته، والمصالح الإلهية في حركة العباد، وما إلى ذلك من الأُمور التي قد تعجّل من حدث وقد تمنع آخرَ.

ولذلك يسميها بعض العلماء بالعلامات المشترطة[3]، ولعل حديث الإمام الصادق صلوات الله عليه الذي يرويه أبو بصير يشير إلى نموذج من ذلك؛ قال: قلت له: ألهذا الأمر أمد نريح إليه وننتهي إليه؟ قال: بلى، ولكنكم أذعتم فزاد الله فيه[4]

أي أن هذا الأمر كان ليكون، ولكن تدخُّل أعمال العباد ـ وهو هنا إفشاء السر ـ وجعل العدوّ يتنبّه، قد أخّر حصول الحدث.

وفي حديث آخر عن أبي حمزة الثمالي، عن الإمام الباقر صلوات الله عليه، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن علياً عليه السلام كان يقول: إلى السبعين بلاء، وكان يقول: بعد البلاء رخاء، وقد مضت السبعون ولم نر رخاءً؟!

فقال: يا ثابت ـ وهو اسم أبي حمزة ـ ! إن الله تعالى كان قد وقّت هذا الأمر في السبعين، فلما قُتل الحسين عليه السلام اشتد غضب الله على أهل الأرض، فأخّره

---

١ تفسير العياشي٢: ٢٣٢ ح ٦٦؛ لمحمد بن مسعود العياشي؛ مؤسسة الأعلمي . بيروت.

٢ سورة الرعد: ٣٩ .

٣ قال الشيخ المفيد أعلى الله مقامه عن علامات الظهور: ومن جملة هذه الأحداث محتومة، ومنها مشترطة.

انظر: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ٣٧٠؛ للشيخ محمد بن محمد ابن النعمان العكبري؛ دار المفيد؛ بيروت.

٤ كتاب الغَيبة: ٤٢٧ ح٤١٦؛ لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي؛ مؤسسة المعارف الإسلامية؛ قم المقدّسة.

إلى أربعين ومئة سنة، فحدّثناكم، فأذعتم الحديث وكشفتم قناع الستر، فأخّره الله... الحديث.[1]

ولكن الشرائط حتمية الوقوع، أي أنها من الأُمور التي لا تتدخل فيها العوامل التي أشرنا إليها، لأنها أُبرمت إبراماً، ووقّتت بما ارتبط حتم حصولها، فبما أن الإمام (بأبي وأمي) سيظهر حتماً، فهي ستتحقّق قبله حتماً.

ومن خلال التتبع لاحظت ـ أيضاً ـ أن كلّ ما أُشيرَ إليه في المحتوم هو من الأحداث المرتبطة بشكلٍ مباشر بالظهور، أي في الفترة القريبة جداً منه، وقد تم تأطيرها بإطار ملفت يعبّر عنه الإمام صلوات الله عليه بـ: نظام كنظام الخرز يتبع بعضه بعضاً؛ كما سيأتي ذلك على لسانه المبارك صلوات الله عليه[2]، أي أنها تأتي بصورة متعاقبة متتابعة، وقد تم توقيت المدة بين وقوع الحتمي في بعض الأحيان وبين الظهور بفترة زمنية محددة..

فعلى سبيل المثال، تم تحديد قتل النفس الزكية ـ باعتباره من المحتوم ـ بخمسة عشر يوم قبل ظهور الإمام (بأبي وأُمي)، أو أن تكون الصيحة وآيتا الكسوف والخسوف في شهر رمضان تحديداً، أو أن خروج السفياني والخراساني واليماني في سنة واحدة في شهر واحد في يوم واحد[3] ومن المعلوم أن مدة ملك السفياني الى ظهور الامام عجل الله فرجه قد وُقّت بوقت محدد، هو حمل امرأة، كما في أغلب الروايات الشريفة[4] بينما لا تلتزم العلامات بالقرب الزمني من الظهور، فقد تتقدّم العلامات على ظهور الإمام (روحي فداه) بمئات السنين؛ فلاحظ!

ولعل التشديد على ذلك يعود إلى اشتداد الفتن وإطباق كلكلها على الناس كلّما اقتربت فترة الظهور، وهذه الفتن سيبرز في قسم منها مدّعون للمهدوية، وتكون وطأة قسم منها شديدة في المال والروح والولد والجسم، كما هو الحال في اقتحام السفياني (عليه لعائن الله) العراق.

---

١ غَيبة الطوسي: ٤٢٨ ح٤١٧ .

٢ كتاب الغَيبة: ٢٧٠ ب١٤ ح٢١؛ للشيخ ابن أبي زينب محمد بن إبراهيم النعماني؛ أنوار الهدى؛ قم المقدّسة ١٤٢٢، وهذا الكتاب، وكتاب "الغَيبة" الشيخ الطوسي، وكتاب "كمال الدين وتمام النعمة" للشيخ الصدوق، تعدّ من أهم مصادر الحديث في قضية الإمام المنتظَر (روحي فداه).

٣ كتاب الغَيبة: ٢٦٤ ب ١٤ ح١٣، كتاب الغَيبة للشيخ الطوسي: ٤٤٧ ح٤٤٣ .

٤ كتاب الغَيبة: ٣١٢ ب ١٨ ح٣، كتاب الغَيبة للشيخ الطوسي: ٤٦٢ ح٤٤٧ .

لذلك جاء التحدّث عن هذه الشرائط لتكون ـ في المثال الأول ـ دالّة للمؤمنين على إمام زمانهم؛ كي لا يُخدعوا بالمدّعين للمهدوية، فلو ادّعى أحدهم ذلك، فبالإمكان القول بأن أمام ظهور الإمام المهدي صلوات الله عليه شرائط ولـمّا تحصل بعد، وفي المثال الثاني: لكي تكون هذه الشرائط مسلّية للمؤمنين بأن هذا البلاء قد أزف زواله لقرب ظهور الإمام (روحي فداه) من هذا الحدث، ولذلك جاء غالبيتها مؤقّت بوقت محدد وقريب من ظهور الإمام (صلوات الله عليه)، كأن تكون الصيحة في ليلة القدر المباشرة قبل ظهور الإمام (بأبي وأُمي)، وكأن يكون قتل النفس الزكية قبل خمسة عشرة ليلة، وتحكم السفياني في العراق مدته أقل من تسعة أشهر قبل الظهور الشريف، وهكذا.

*****

الفصل الثاني

الزّمانُ في مدرسةِ الظّهور

القضية المهدوية والأمد الطويل من الزمن الذي ارتهنت به وتطاول بها، أثارت الكثير من التساؤلات حول مغزى هذا الارتهان وأسبابه ولا تزال، حتى قاد وسيقود كثيراً من الناس ـ جهلاً أو خبثاً ـ للحديث عن نكران القضية برمتها .

وفيما يلجأ الوهابيون ومن سواهم ممن توغل البعد المادي في تفكيرهم، وكذا غيرهم من نظرائهم الخارجين عن هذه الملة؛ لكثرة النقد لهذه القضية والاستخفاف بها بناءً على طول زمانها، فقد تحدثت الروايات الشريفة ـ أيضاً ـ عن وجود استحقاق لهذا الطول، مما سيؤدي إلى انحراف كثير ممن كان يؤمن بهذه القضية أساساً[1] كما نلحظ ذلك في حديث الإمام الصادق صلوات الله عليه وهو يتحدث عن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف: "أمَا والله ليغيبنّ سنيناً من دهركم، ولتمحّصنّ حتى يقال: مات (قتل) وهلك؛ بأيّ واد سلك، ولتدمعنّ عليه عيون المؤمنين. . ." الحديث[2]

ولهذا لا بُدّ من التوقف عند قضية الزمن وعلاقتها بعملية الظهور لمناقشتها من أكثر من بعد، وبداهة فإن عمر القضية من خلال عمر صاحبها صلوات الله عليه ستتصدر هذا الموضوع، فهل يمكن أن يكون عمر الإنسان بهذا الطول الذي نراه للإمام المهدي المنتظَر عجل الله تعالى فرجه؟ وهل تحتاج هذه القضية لكي تمر بكلّ هذا الزمن وبهذه الصورة؟!! حتى إننا نجد أن الأديان السابقة قد تحدّثت عن ذلك ولـمّا ينقضي هذا الزمن بعد؟!

---

١ ستتحدث عن ذلك في الفصل الخامس من الكتاب أثناء البحث عن استحقاقات الظهور ضمن المشكل العقائدي.

٢ الكافي ١ : ٣٣٦ ح٣؛ لثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني؛ دار الكتب الإسلامية، طهران، وما بين القوسين منه، وكتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة: ١٢٥ ح ١٢٥؛ للحسين بن بابويه القمي (والد الشيخ الصدوق رحمه الله)؛ منشورات مدرسة الإمام المهدي (عج)، قم.

وما هو موقف الإنسان المؤمن تجاه هذا الزمن؟

*****

المبحث الأول

عمر الإمام (صلوات الله عليه) الطويل

طُرحت مسألة عمر الإمام المنتظَر صلوات الله عليه كثيراً، قديماً وحديثاً؛ تارة بصورة جدية، وساخرة أُخرى[1] وما كان ذلك ليمثل مشكلة أمام العقل الإنساني لو لم تنطو هذه القضية تحديداً على بعد طائفي وسياسي ومذهبي، ولا سيما أن بداية طرح هذه المشكلة كانت والعقل البشري لـمّا يزل أكثر طواعية للعوامل الغيبية من الآن[2] مما يعني أنه كان بإمكانه أن يتقبل ذلك بأريحية، ولا سيما أن من نتحدث عنه كانت أدلة قبول الوثائق التاريخية المتعلقة بولادته صلوات الله عليه آنذاك مصدَّقة بشكل أكبر منها الآن[3]، ولكن الشأن الطائفي والسياسي في هذا القضية أدخلها كالمعتاد في أجواء تسمح بالتضبيب عليها والتشكيك بها، و تجعل الإنسان غير المتبحّر في هذه الأمور يصاب بكثير من العيّ والعجز.

ومن أجل العثور على جواب موضوعي وسط هذا الجو المشحون باللغط الطائفي والمذهبي، فلا بُدّ لنا في البداية أن نشير إلى أن عملية النفي لأمرٍ ما تحتاج إلى دليل على صدقية النفي، ومحض النفي دونما دليل يمثل عبثاً علمياً، بل وجهلاً، والتشكيك بمثل هذا الأمر - أيضاً - لا يمثل حالة علمية إن لم تقترن بأسباب حقيقية للشك، ولو لاحظنا ذلك في مسألة الإمام وطول عمره الشريف صلوات الله عليه، فإننا نجد أن الّذين نفوا والّذين شكّكوا إنما ساروا على نفس المنوال المشار إليه آنفاً، فلا يوجد بين يدي هؤلاء أي شيءٍ من وسائل البحث العلمي، إلا حالة نفسية

---

١ كما يفعل الوهابيون في كتاباتهم وأحاديثهم، ولعل اطّلاعة بسيطة على ما يجري في غرف النواصب ومنتدياتهم في الإنترنيت من سخرية وفحش وسباب للإمام (بأبي وأمي) ولأمه المزكّاة صلوات الله عليها، بشكل يومي، وهي مما يفجع القلب، ولكنه يوضح حقيقة موقف هؤلاء.

٢ بمعنى يمكن معها القول بأن الله سبحانه وتعالى شاء ذلك، وأن هذا الأمر مرتبط بقدرته جلّ وعلا، ولكون الأعمار بيده وليس بيد أحد آخر.

٣ لا لأنها فقدت موثوقيتها وصدقيتها العلمية، بل هي على حالها، ولكن طبيعة هجمة التشكيك والتكذيب والتجديف الطائفي المحض أسست لكثير من الشكّ والريبة في هذه الحقائق.

وذوقية، وهذه الحالة تضمحل وتنتفي كلّيةً أمام المعطيات الأساسية التي سنشير إليها عما قريب.

ولكن حينما نحلل الشبهات التي أُثيرت ضد مسألة طول عمر الإمام صلوات الله وسلامه عليه، سنجد ـ كما قلنا ـ تذرعاً بحجج ذوقية ونفسية ليس إلا ، كأن يتم التذرع بعدم معقولية هذا العمر الطويل؛ لأن العمر البشري المعتاد محدود ولا يمكن الوصول إلى ذلك، وقد يتذرع بعضهم بمسألة مكان المولود لو كان موجوداً، فيقال: حسناً لقد ولد، ولكن أين يعيش؟ وما هو شكله؟ وما إلى ذلك من أسئلة عادة ما ترافق مثلل هذه الأحاديث

ونظير هذه الذرائع التي لا تعدو كونها استفسارات مبنية على الذوق، لأن هؤلاء لم تستذوق عقولهم أن يكون للإنسان مثل هذا العمر، دون البحث عما إذا كان ممكناً أن يعيش الإنسان كلّ هذا العمر، وهل توجد نماذج تاريخية تصدّق وتؤيد هذا الإمكان؟

وباعتبار أن هذه المحاولات لم تسلك هذا السبيل فإن هذه الحجج في أحسن صورها لا يمكن لها أن تعبّر عن دليل علمي تام، أو حجة علمية حقيقية، ولهذا ستكون مهمة الباحث في بدايتها هي عملية التأكد من وجود إتمام لهذه الحجج، وتحويلها من المزاج والذوق إلى الدليل العلمي، أو يقدّم في بحثه ما يجعل هذا الذوق والمزاج خللاً من النافي والشاكّ، وتبياناً إلى أنه لم يُتم عملية البحث في المجالات العلمية!!!

وحتى نصل إلى أجوبة قاطعة على كلّ ذلك لا بُـدّ لنا من الإشارة إلى المعطيات التالية، وهذه المعطيات ستوجه إلى الفريقين، النافي لوجود الإمام صلوات الله عليه مطلقاً، لا في السابق ولا في المستقبل فضلاً عن الحاضر، والشاكّ بوجوده من دون أن ينفي القضية برمتها:

أولاً: هناك جملة من الآيات الشريفة طرحت مسألة الظهور بصورة لا تدع مجالاً للشك في أن حدثاً مستقبلياً سيحصل وهو يحقق مضمون الظهور من دون أن تشير إلى اسم الإمام على الرغم من أنها تعنون مواصفاته، وهي تطرحها في سياقات عدة، أذكر منها:

أ: أول هذه السياقات يتعلق بوجود ذكر لهذا الحديث ـ أي حديث الظهور ـ في

الزمن الغابر وفي الديانات الأُخرى السابقة لهذه الأمّة[1]، كما نلحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝﴾[2] فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن حدثاً ما سيحصل في المستقبل من بعد نزول القرآن الكريم، وبموجبه ستؤول حاكمية الأرض فيها إلى عباد الله الصالحين.

والتساؤل تارة يتعلق في مغزى أن يكون هذا الحدث مذكوراً في الكتب الدينية السابقة، ومن الواضح أن ذِكره في الزبور لا يعني أنه قد ذُكر فيه فقط دون غيره من الكتب السماوية، وإنما هو من باب ذكر الخاص ويراد به العام، أي أنه ذُكر في الكتب السماوية الأُخرى على الرغم من أنه لم يأت على ذِكرها، وهذا أمر مألوف في القرآن الكريم، ناهيك عن أن ما وصلنا من هذه الكتب يشير بدوره إلى هذا

---

١ لا بُدّ من أن نشير إلى أحد أساليب الإسفاف الفكري الذي بلغ إليه منتقدو الفكر الشيعي وألّفوا في ذلك كتباً وعقدوا فصولاً حينما يجدون في التشابه بين بعض الأفكار والمفاهيم التي يطرحها التشيع ونظيرها التي تطرح من قبل الأديان السماوية السابقة، حتى راحوا يتحدثون وبكلّ صفاقة فكرية عن أن التشيع أصله يهودي، وكلّ ما جاء به هؤلاء أن أفكاراً شيعية تشبه أفكاراً يعتقد بها اليهود، وقد طبّل لذلك أمثال إحسان إلهي ظهير وغيره من النواصب، من دون أن يعطيهم حقدهم مجالاً لأمرين هامين، هذا إن سلمنا بوجود هذا التشابه المزعوم، وفي بعضه كاذب لأنهم يقولون بأن عقيدة الشيعة في البَداء مأخوذة من عقيدة اليهود في البَداء، وهو كذب صريح أوضحناه في كتابنا القادم **(التشيع فكراً وتاريخاً)**، ولكن هل أن تشابه فكرةٍ ما بيننا وبين اليهود مدعاة للشتيمة؟! فما نقول لمسألة إيمانهم بالإله الواحد؟! وماذا نقول بإيمانهم بسلسلة الأنبياء الّذين يتحدث عنهم الإسلام؟! وماذا سنقول للمشتركات بين ديانتين سماويتين؟! هل سنرفضها وديننا يقول بأنه جاء ليتمم ويصحح انحرافات ونواقص هؤلاء؟!

أما الأمر الآخر، فإني أحسب أن هذا التجديف الفكري والسياسي يراد منه التغطية على حجم الإسرائيليات التي تنتشر على نطاق واسع في كتب القوم الحديثية والتفسيرية، وعلى رأسها البخاري ومسلم، مما يعدّونه من أصح الكتب لديهم بعد القرآن الكريم، وكان الأمر ليهون لو أن ما نقلوه من إسرائيليات أبي هريرة وعمر بن الخطاب ووهب بن منبه وتميم الداري وكعب الأحبار هو من المشتركات مع الفكر الإسلامي، ولكن ما بالك لو أن ما نقلوه مخالف لثوابت الفكر الإسلامي والحديث النبوي؟! أيريدون أن نذكّرهم بما يوجد في كتبهم عن قصص الأنبياء المنقولة مباشرة من التوراة المحرفة؟! أيعرفون ما يتحدثون به عن موسى ويوسف صلوات الله عليهما؟! والقائمة تطول وتعرض، ولعلنا نفصّل الحديث فيها في بحث مستقل، على الرغم من التفصيل السريع الذي مررنا عليه في كتابنا (التشيع تاريخاً وفكراً) وكذا كتابنا عصمة المعصوم عليه السلام وفق المعطيات القرآنية: ٤٤٢ - ٤٤٨

٢ سورة الأنبياء: ١٠٥ .

الذكر.[1]

١ تم التعرض لقضية الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه وعلامات ظهوره في كثير من أسفار العهدين القديم والجديد، ولضيق الحيز هنا فإني سأشير إلى بعض النماذج لهذا الذكر، والعجيب أن كثيراً منها يتشابه مع كثير من النصوص الإسلامية الواردة في هذا المجال، وقبل ذكرها أُشير إلى أن بعض الكُتّاب - ولا سيما من مفسّري العهدين - يتجهون إلى تفسير ذلك بظهور السيد المسيح عليه السلام، وهذا ليس بضائر من حيث المبدأ، باعتبار أن مهمتنا هنا هي توثيق أصل الإشارة، لا الخوض في تفاصيلها، فهذا شأن مباحث أخرى، وكذلك لطبيعة التسالم بين المسلمين بأن ظهور السيد المسيح عليه السلام يتزامن مع ظهور الإمام المهدي صلوات الله عليه.

أقول: ورد ذِكر الإمام صلوات الله عليه وعلامات ظهوره في مساحات واسعة من الكتب المقدسة، وسأذكر بعض ما راجعته على عجل على سبيل المثال لا الحصر، مع ضرورة التأكيد ولفت الانتباه إلى حقيقة أن العهدين لم يكتبا بلغة عربية، وترجمتهما إلى العربية صادرت بلاغتهما، واقترنت دوماً بالتصرف والانحياز من قبل المترجمين الكاثوليكيين أو الأرثذوكس أو البروتستانت والأقباط.

وبالنتيجة، فإن التدقيق في نصوصهما يحتاج إلى فهم معمق في طريقة كتابة العهدين وأساليبهما ودلالات رموزهما، ولكن مع ذلك لا يعدم الإنسان قدراً من فهم هذه الرمزية مع قليل من التأمل:

أولاً: العهد القديم (التوراة):

أ: سفر المزامير:

جاء في المزمور ٣٧: أما الآثمة فلا بُدّ يهلكون، ونسل الأشرار يُستأصلون، والأبرار يرثون الأرض ويسكنونها للأبد. (العهد القديم: ١١٦٥ سفر المزامير ٣٧: ٢٩؛ دار المشرق، بيروت ١٩٨٨).

ب: سفر أشعيا:

جاء في الأصحاح الحادي عشر من سفر أشعيا ما يلي: ويخرج غصن من جذع يسّي وينمى فرع من أصوله، ويحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، ويوحي له تقوى الرب، فلا يقضي بحسب رؤية عينيه، ولا يحكم بحسب سماع أُذنيه، بل يقضي للضعفاء بالبر، ويحكم لبائسي الأرض بالاستقامة، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويميت الشرير بنفس شفتيه، ويكون البر حزام حقويه، والأمانة حزام خصره، فيسكن الذئب مع الحمل، ويربض النمر مع الجدي، ويعلف العجل والشبل معاً وصبي صغير يسوقهما، ترعى البقرة والدب معاً إلى أن يقول: ويلعب الرضيع على جحر الأفعى، ويضع الفطيم يده في جحر الأرقم، لا يسيئون ولا يفسدون، في كلّ جبل قدسي، لأن الأرض تمشي من معرفة الرب، كما تغمر المياه البحر، وفي ذلك اليوم أصل يسّي القائم راية للشعوب، إيّاه تلتمس الأمم، ويكون مكان راحته مجداً، وفي ذلك اليوم يعود السيد فيمد يده ثانية ليفتدي بقية شعبه. (العهد القديم: ١٥٤٧ - ١٥٤٨؛ سفر أشعيا الأصحاح الحادي عشر ١ - ١).

ج: سفر دانيال:

جاء في الأصحاح السابع من سفر دانيال ما يعتبر حجة كبيرة لدى مفسري التوراة، ولدى من يفقه لغتها ورمزيتها، مع الإشارة إلى أن التوراة كثيراً ما تستخدم فيها كلّمة الحيوانات الكاسرة للإشارة إلى أمم أو الى الظلمة من الحكّام، فقد حكى دانيال وعلى شكل رؤيا رآها: كنت أنظر إلى رؤياي ليلاً، فإذا بأربع رياح، السماء قد هيجت البحر الكبير، فطلع من البحر أربع حيوانات عظيمة يختلف بعضها عن بعض، الأول: مثل الأسد وله جناحا عقاب، وبينما كنت أنظر إذ اقتلع جناحاه، ثم ارتفع عن الأرض وقام على رجليه كإنسان، وأُوتي قلب إنسان.

وإذا بحيوان آخر شبيه بالدب، فقام على جنب واحد، وفي فمه ثلاث أضلع بين أسنانه فقيل له: قم فكلْ لحماً كثيراً.

وبعد ذلك كنت أنظر، فإذا بآخر مثل النمر، وله أربعة أجنحة طائر على ظهره، وكان للحيوان أربعة رؤوس وأُوتي سلطاناً.

وبعد ذلك كنت أنظر إلى رؤياي ليلاً، فإذا بحيوان رابع هائل مريع قوي جداً، وله أسنان كبيرة من حديد، فكان يأكلّ ويسحق ويدوس الباقي برجليه، وهو يختلف عن سائر الحيوانات التي قبله، وله عشرة قرون، وكنت أتأمل القرون فإذا بقرن آخر صغير قد طلع بينها، وقلعت ثلاثة من القرون السابقة من أمامه، وإذا بعيون في هذا القرن كعيون إنسان، وفم ينطق بعظائم.

وبينما كنت أنظر؛ إذ نصبتَ عروش فجلس قديم الأيام، وكان لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار، وعجلاته ناراً مضطرمة، ومن أمامه يجري نهر من نار، وتخدمه ألوف ألوف، وتقف بين يديه ربوات ربوات، فجلس أهل القضاء، وفتحت أسفار.

وكنت أنظر بسبب صوت الأقوال العظيمة التي يتكلّم بها القرن.

وبينما كنت أنظر إذ قتل الحيوان وأبيد جسمه وجعل وقوداً للنار، وأما باقي الحيوانات فأزيل سلطانها، لكنها أُوتيت طول حياة إلى زمان ووقت!!

وكنت أنظر في رؤياي ليلاً، فإذا بمثل ابن الإنسان آت على غمام السماء، فبلغ قديم الأيام وقرب إلى أمامه، وأُوتي سلطاناً ومجداً وملكاً، فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه، وسلطانه سلطان أبدي لا يزول، وملكه لا ينقرض. (سفر دانيال: الأصحاح السابع ٢ - ١٤).

وجاء في الأصحاح الثاني عشر: وفي ذلك الزمان يقول ميكائيل الرئيس العظيم القائم لدى بني شعبك، ويكون وقت ضيق، لم يكن منذ كانت أُمة إلى ذلك الزمان، وفي ذلك الزمان ينجو شعبك كلّ من يوجد مكتوباً في الكتاب... إلى أن يقول: وكثير من الراقدين في أرض التراب يستيقظون، بعضهم للحياة الأبدية، وبعضهم للعار والرذل الأبدي، ويضيء العقلاء كضياء الجلد، والّذين جعلوا كثيراً من الناس أبراراً كالكواكب أبد الدهور، وأنت يا دانيال أغلق على الأقوال، واختم على الكتاب إلى وقت النهاية، إن كثيرين يتيهون ويزداد الإثم، إن كثيرين يتنقّون ويتبيّضون ويمحّصون، والأشرار يرتكبون الشر، ولا أحد من الأشرار يفهم، أما العقلاء فيفهمون، ومن وقت إزالة المحرقة الدائمة وإقامة شناعة الخراب ألف ومئتان وتسعون يوماً، طوبى لمن ينتظر، ويبلغ إلى ألف وثلاث مئة وخمسة وثلاثين يوماً، وأنت ذاهب إلى النهاية، وستستريح وتقوم لنيل نصيبك في نهاية الأيام.

(العهد القديم: ١٨٨٥ - ١٨٨٦، سفر دانيال: الأصحاح ١٢: ١ - ٤، ١٠ - ١٣).

د: سفر حبقّوق:

جاء في الأصحاح الأول من رؤيا النبي حبقّوق: فها أنا ذا أُثير الكلّدانيين الأمة المرّة المندفعة التي تطوف رحاب الأرض، لتمتلك مساكن ليست لها، إنها مرهوبة هائلة، ومنها يبرز حقها وتشامخها، وخيلها أخف من النمر، وأسرع من الذئاب في المساء، وفرسانها يثبون ويزحفون من بعيد، ويطيرون كالعقاب المنقضّ للافتراس، يأتون كلّهم للعنف، ووجوههم متجهة إلى الشرق، فيجمعون الأسرى كالرمل، إنه يهزأ من الملوك ويكون الزعماء أُضحوكة له، ويضحك على كلّ حصن، ويركم تراباً ويأخذه، حينئذ يمر كالريح، ويعبر أثيم يجعل من قوته إلهه...

ثم يشير إلى شكوى ثانية للنبي فيقول: ألست أنت الرب منذ القدم؟! إلهي وقدّوسي فلا تموت! يا رب إنك للحق جعلته، وللتأديب صخرة أسسته، عيناك أطهر من أن ترى الشر، ولست تطيق النظر إلى الإثم، فلِمَ تنظر إلى الغادرين؟! ولِمَ تصمت عندما يبتلع الشرير من هو أبر منه؟! وتعامل البشر كسمك البحر، كزحافات لا قائد لها، إنه يرفعهم جميعا بشصّه، ويجرهم بشبكته، ويجمعهم في شركه، فلذلك يفرح ويبتهج، ولذلك يذبح شبكته ويحرق البخور لشركه، لأنه بهما سمّن نصيبه ودَسِم طعامه، أفبسبب ذلك يستلّ سيفه، ولا يزال يقتل الأمم ولا يرحم؟!!

على محرسي أقف، وعلى مرصدي أنتصب، وأُراقب لأرى ماذا يقول لي وماذا يجيب عن معاتبتي؟ فأجابني الرب وقال: اكتب الرؤيا وانقشها على الألواح حتى يسرع في قراءتها، فإنها أيضاً رؤيا للميقات، تصبو إلى أجلها ولا تكذب، إن أبطأت فانتظرها، فإنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر، النفس غير المستقيمة غير أمينة، أما البار فبأمانته يحيا. (العهد القديم: ١٩٨٣ - ١٩٨٥ سفر حبقّوق: الأصحاحان الأول والثاني).

ثانياً: العهد الجديد (الإنجيل):

أ: إنجيل متّى:

جاء في الأصحاح الرابع والعشرين قوله: فإذا رأيتم المخرّب الشنيع الذي تكلّم عليه النبي دانيال قائماً في المكان المقدّس، فليهرب إلى الجبال من كان عندئذ في اليهودية، ومن كان على السطح فلا ينزل ليأخذ ما في بيته، ومن كان في الحقل فلا يرتدّ إلى الوراء ليأخذ رداءه، الويل للحوامل والمرضعات في تلك الأيام، صلّوا لئلا يكون حربكم في الشتاء أو السبت، فستحدث عندئذ شدة عظيمة لم يحدث مثلها منذ بدء الخليقة إلى اليوم، ولن يحدث ولو لم تقصر تلك الأيام لمَا نجا أحد من البشر، ولكن من أجل المختارين ستقصّر تلك الأيام.. فإذا قال لكم عندئذ أحد من الناس: ها هو ذا المسيح هنا، بل هنا، فلا تصدقوه، فسيظهر مُسحاء دجالون وأنبياء كذابون، يأتون بآيات عظيمة وأعاجيب حتى إنهم يضلون المختارين أنفسهم...

إلى أن يقول: وعلى أثر الشدة في تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يرسل ضوءه، وتتساقط النجوم من السماء، وتتزعزع قوات السماوات، وتظهر عندئذ في السماء، آية ابن الإنسان، فتنتحب جميع قبائل الأرض، وترى ابن الإنسان آتياً على غمام السماء في تمام العزة والجلال، ويرسل ملائكته ومعهم البوق الكبير، فيجمعون الّذين اختارهم من جهات الرياح الأربع، من أطراف

السماوات إلى أطرافها الأخرى... فإذا رأيتم هذه الأمور كلّها فاعلموا أن ابن الإنسان قريب على الأبواب، الحق أقول لكم: لن يزول هذا الجيل حتى تحدث هذه الأمور كلّها، فأمّا ذلك اليوم وتلك الساعة فما من أحد يعلمها لا ملائكة السماوات ولا الابن، إلا الآب وحده.. لذلك كونوا أنتم أيضاً مستعدين، ففي الساعة التي لا تتوقعونها يأتي ابن الإنسان. (العهد الجديد: ١٠٣ - ١٠٥، إنجيل متّى ٢٤: ١٥ - ٤٤).

ب: إنجيل لوقا:

جاء في الأصحاح الثاني عشر قوله: ولتكن أوساطكم مشدودة، ولتكن سرجكم موقدة، وكونوا مثل رجال ينتظرون رجوع سيدهم من العرس، حتى إذا جاء وقرع الباب يفتحون له من وقتهم، طوبى لأولئك الخدم الّذين إذا جاء سيدهم وجدهم ساهرين، الحق أقول لكم إنه يشدّ وسطه ويجلسهم للطعام، ويدور عليهم يخدمهم، وإذا جاء في الهزيع الثاني أو الثالث ووجدهم على هذا الحال فطوبى لهم، وأنتم تعلمون أنه لو عرف رب البيت في أية ساعة يأتي السارق لم يدع بيته ينقب، فكونوا أنتم أيضاً مستعدين، ففي الساعة التي لا تتوقعونها يأتي ابن الإنسان. (العهد الجديد: ٢٣٨؛ إنجيل لوقا: الأصحاح ١٢: ٣٥ - ٤٠).

وفي الأصحاح الحادي والعشرين قوله وهو يتحدث عن الهيكل: هذا الذي تنظرون إليه ستأتي أيام لن يترك منه حجر على حجر من غير أن ينقض!!

فسألوه: يا معلم ومتى تكون هذه الآيات؟ وما تكون العلامة أن هذه كلّها توشك أن تحدث؟

فقال: إياكم أن يضلكم أحد، فسوف يأتي كثير من الناس منتحلين اسمي، فيقولون: أنا هو، قد حان الوقت؛ فلا تتبعوهم، وإذا سمعتم بالحروب والفتن فلا تفزعوا، فإنه لا بُدّ من حدوثها أوّلاً، ولكن لا تكون النهاية عندئذ.

ثم قال لهم: ستقوم أُمة على أُمة، ومملكة على مملكة، وتحدث زلازل شديدة وأوبئة ومجاعات في أماكن كثيرة، وستحدث أيضاً مخاوف تأتي من السماء وعلامات عظيمة...

إلى أن يقول: فإذا رأيتم أورشليم قد حاصرتها الجيوش، فاعلموا أن خرابها قد اقترب، فمن كان يومئذ في اليهودية فليهرب إلى الجبال، ومن كان في وسط المدينة فليخرج منها، ومن كان في الحقول فلا يدخلها، لأن هذه الأيام أيام نقمة يتم فيها جميع ما كتب.

ثم قال: وستظهر علامات في الشمس والقمر والنجوم، وينال الأُمم الكرب في الأرض، وقلق من عجيج البحر وجيشانه، وتزهق نفوس الناس من الخوف، ومن توقع ما ينزل بالعالم لأن أجرام السماء تتزعزع، وحينئذ يرى الناس ابن الإنسان آتياً في الغمام في تمام العزة والجلال، وإذا أخذت تحدث هذه الأُمور، فانتصبوا قائمين وارفعوا رؤوسكم لأن افتداءكم يقترب. (العهد الجديد: ٢٦٤ - ٢٦٦ إنجيل لوقا؛ الأصحاح الحادي والعشرون: ٦ - ٢٨).

ج: إنجيل يوحنّا:

جاء في الأصحاح الخامس قوله: لا تعجبوا من هذا، فتأتي ساعة فيها يسمع صوته جميع الّذين في القبور، فيخرجون منها، أما الّذين عملوا الصالحات فيقومون للحياة، وأما الّذين عملوا السيئات فيقومون للقضاء. (العهد الجديد: ٣٠٣ إنجيل يوحنّا؛ الأصحاح الخامس: ٢٨).

والثاني: ما هي هوية هؤلاء العباد؟ ومن هم الّذين وسموا بالصلاح ونعتهم الباري جل وعلا بمثل هذا الوصف؟ فالقضية هنا لا تطرح على المستوى التنظيري وإنما تشير إلى وجود تنجز سيحصل حتما في التاريخ، وهذا التنجّز سيحصل من خلال حكم عباد لله صالحين، وهؤلاء العباد لا بُـدّ أن تكون شخصياتهم المادية والمعنوية بالغة الأهمية بالنسبة إلى الله تعالى بحيث يحرص على ذِكرهم في جميع كتبه السماوية.

والثالث: يتعلق بوقت ظهور هؤلاء العباد، فالآية تتحدث عن المستقبل، وعلى الباحث أن يقترب من تشخيص هذا المستقبل.

والرابع: سيتعلق بالعمل الذي سيقوم به هؤلاء العباد؟ فالقرآن ذكر أن الأرض ستورث من قبلهم، مما يعني أن هؤلاء العباد يريدون أن يحققون إرثاً، والكلام هنا ممن سيرثون؟ وماذا سيرثون؟ ومن الذي سبق وان اغتصبه هذا الإرث.

وهذه الأسئلة يمكن أن تُـفكّك ويجاب عنها عبر عدة محاور:

المحور الأول: لا بُـدّ أن عملية التوريث لهؤلاء العباد ـ المشار إليها في الآية الشريفة ـ تضفي عليهم طابعاً في غاية الأهمية، وهي كفيلة لتدلّنا على مواصفات ومؤهلات هؤلاء العباد، وهي التي حلّت إشكال المراد بالصلاح ومداه، فكلمة الصلاح ـ كما هو معروف ـ يمكن أن تكون نسبية، فبعض المؤمنين يخلط عملاً صالحاً مع آخر سيئاً، كما هو مفاد الآية الشريفة: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [1]، أو كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ [2]،

د: رؤيا يوحنّا:

جاء في الأصحاح الثاني عشر وهو يتحدث بطريقته الرمزية عن امرأة وتنّين، وهي طريقة مألوفة في العهدين حين الإشارة إلى الظَلمة والمارقين عن الدين قال: ثم ظهرت آية عظيمة في السماء: امرأة ملتحفة بالشمس والقمر تحت قدميها، وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً، حامل تصرخ من ألم المخاض، وظهرت في السماء آية أخرى تنين كبير اشقر.. الى أن يقول: ووقف أمام المرأة التي توشك أن تلد، حتى إذا وضعت ولدها ابتلعه، فوضعت ابناً ذكراً، وهو الذي سوف يرعى جميع الأمم بعصا من حديد، وخطف ولدها إلى حضرة الله إلى عرشه...

إلى أن يقول: فغضب التنّين على المرأة، ومضى يحارب سائر نسلها الّذين يحفظون وصايا الله وعندهم شهادة يسوع المسيح.. (العهد الجديد: ٨١٦ – ٨١٧؛ رؤيا يوحنّا ١٢: ٣ – ١٨).

١ سورة التوبة: ١٠٢ .

٢ سورة آل عمران: ٦٩ .

ولكنها يمكن أن تقترب من حد الكمال أو تصل إلى الكمال المطلق.

وبالرجوع إلى القرآن العزيز نجد أن درجة الصالحين قدّمت بوصفين تاريخيين[١] أولهما قد أشار إلى عدد كبير من الأنبياء ووصفهم بالصالحين، كما هو الحال مع نوح وإبراهيم ويحيى وزكريا وموسى وإسحاق ويعقوب وعيسى وإلياس وداود وسليمان وأيوب ويوسف وهارون وإسماعيل واليسع ويونس ولوط وإدريس وذي الكفل صلوات الله وسلامه على نبينا وآله وعليهم.

وآخر قد أشار إلى مقعد خاص في الجنّة أُدخل ضمن إطار ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ كما نلاحظ ذلك في الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[٢]

وبلحاظ وجود ألف لام العهد في كلمة الصالحين في الآية فإن هؤلاء العباد الصالحين هم من صنف المصطلح المطلق، أي أن صلاحهم كاملاً وليسوا من متدرّجي الصلاح، ويدلّنا وباطمئنان كامل إلى هذا المعنى قوله تعالى في آية الوارثين، فهذه الآية تشير إلى نفس هؤلاء العباد، ففي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾[٣] فهؤلاء سيرثون الأرض بعد الاستضعاف الذي يعمّها، وأولئك هم الذي سيورّثون الأرض كما أشارت الآية السابقة.

وهنا تطرح أُمور عدة..

الأمر الأول: يتعلق بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾، وهذا القول هو مفاد النعمة الإلهية، مما يجعل هؤلاء الصالحين من الّذين أنعم الله عليهم التي أُشير إليهم في الآية الكريمة السابقة[٤]، أي من الطبقة المخصوصة عند الله والتي وصفت بأنهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

والأمر الثاني: هو اعتبارهم أئمة، واختيار كلمة الجعل[٥] هنا ذو مغزى في غاية

---

١ أي بمعنى أنه تحدث عن مصاديق تاريخية للصالحين، بعيداً عن طبيعة الصالحين وخصوصياتهم التي تطرح كثيراً في كثير من الآيات القرآنية.

٢ سورة النساء: ٦٩ .

٣ سورة القصص: ٥ .

٤ سورة النساء: ٦٩ .

٥ الجعل لغة: الأجر والثمن لقاء عمل أو أمر يؤديه إلى الجاعل فيحصل منه على جُعالة.

الأهمية، لأن الجعل إنما يأتي من بعد استحقاق من المجعول له لقاء ما جُعل له، كما أن هذا الجعل إنما يأتي من جاعل، أي بجعلٍ من الله سبحانه وتعالى، مما يستدعي أن يكون المسمّي لهؤلاء والناصّ عليهم هو الله جلّ وعلا، وهذا هو الذي كان مدار الحوار الرباني مع إبراهيم صلوات الله على نبينا وآله وعليه وآله حين تشير إليه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [1]

فلقد طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يجعل ذريته أئمة، وعلى الرغم من أن فيهم كإسحاق وإسماعيل ويعقوب، إلا أن التشدد الرباني في إبقاء هذه الصلاحية خاصة بالله سبحانه وتعالى، لأنها تتحدث عن عهده وليس عهد البشر، مما يجعل هؤلاء هم نفس الفئة التي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله المبارك: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [2] وكذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [3]؛ فلا يفوتنّك التعمّق في هذه الكلمات، ولا تمرّ بها من دون أن تسبر أغوارها[4]

ومن كلّ ذلك نعرف أن الوارثين هم صفوة الخلق الإلهي، وهو الذي حدد أشخاصهم، وأن لهم ملاكات خاصة في العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى، وسيأتي في البحث مزيد تفصيل عن ذلك[5]

المحور الثاني: سيتعلق بموضوع الإرث المشار إليه في الآية الشريفة، ففي الآيتين الكريمتين تحدّث القرآن الكريم عن الإرث، ومن الطبيعي فإن المرء يتساءل عما هو الموروث؟ وما هي طبيعة هذا الإرث؟

ولا يعسر على المرء أن يعرف أن المورّث هو الله تعالى، فهو الذي كتب أنهم سيرثون، وهو الذي جعلهم وارثين، مما يعني أن مفردات مثل: خليفة الله، وعهد

---

١ سورة البقرة: ١٢٤ .

٢ سورة الانبياء: ٧٣ .

٣ سورة السجدة: ٢٤ .

٤ نوصي بالرجوع إلى كتابنا: "الإمامة ذلك الثابت الإسلامي المقدّس"، وإلى محاضراتنا في الخطبة الأُولى لصلاة الجمعة في مسجد براثا، المتعلقة بالنظرية السياسية في الإسلام، والتي قد تطبع مستقلة إن شاء الله تعالى.

٥ بحثنا ذلك بشكل مفصل في كتابنا: "الخلافة الربانية"؛ فراجع.

الله، وأمانة الله، والإمامة، والميثاق مع الله، وأمثالها، هي التي ستكون مورد هذا التوريث، لأن هذه المفردات هي التي تحدّث عنها الله سبحانه وتعالى بشكل اختصاصي، ولم يتحدث عن أنها أوليت بالاستقلال إلى غيره، بل رأينا كيف تحدثت الآيات الكريمة عن كلمات: ﴿عَهْدِى﴾، ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾، وهي كلّها راجعة في اختصاصها إلى الله جلّ وعلا.

وبالنتيجة، لا بُـدّ من وجود مصداق اجتماعي تاريخي لمن سيرث ذلك بعد إتمام مرحلة النبوة؛ لأنه لا يعقل أن يتحدث القرآن بكلّ هذه الأُمور ويترك مصداقها في الهواء الطلق من دون أن يحدد الوجهة التي تناط بالمؤمن لكي يتابعها، ولا سيما أن حديثه يأتي بعد أن يكون المؤمن مستضعَفاً، كما أشارت إليه الآيات الشريفة.

وفي البداية لا يبدو العثور على المصداق ـ كاسم وتاريخ ـ سهل المنال قرآنياً، ولكن يمكن السير باتجاه تعـرّفه من خلال ما طرح من شروطه الشخصية التي تتناسب في أن يكون مورداً للتوريث الإلهي، ولئن لاحظنا أن هذا الشخص يجب أن يكون مورد نصّ إلهي، أي أنه لا بُـدّ من وجود نصّ فيه، فإن ملازمات التوريث طرحت مبدأ العصمة بشكل واضح، من خلال نعته بالإمام، وقد عرفتنا الآية الكريمة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنه لا يرقى إلى هذا المقام إلا من كان معصوماً، والوصف الإلهي لكونه من الصالحين أيضاً دلّنا على هذه الخصوصية، فضلاً عما دلّتنا عليه مواصفات التوريث، كالأمانة والخلافة والولاية، وما إلى ذلك من وجوب أن يكون المورِّث معصوماً حتى يقوم بواجبات ومستلزمات الإرث، فالموروث عاصم، فكيف يرثه من لا عصمة له؟!

إذن، إن ما تدعونا إليه الآية هو شخص منصوص عليه يخرج في وقت متأخر من عصر الرسالة ويتسم بالعصمة، وسنحاول أن نفتّش في البداية عن زمنه تحديداً، ولعل الآية الكريمة الآتية ما ستميط عنا بعضاً من لثام هذه المرحلة الزمانية.

ب: في بداية سورة الإسراء نجد حديثاً مثيراً عن أوضاع بني إسرائيل وما ستؤول إليه أوضاعهم، ولهذا الحديث مغزى عظيم جداً في طبيعة ما نبحث عنه ونروم الوصول إليه، وفيه يقول جلّ من قائل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم

بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾[1]

وفي هذه الآيات الشريفة يشار إلى فارق ما بين نمطين من العباد الّذين تعاملوا مع بني إسرائيل..

فالصنف الأول تعامل مع ديار بني إسرائيل وجاس خلالها[2]، أما الثاني فإن معركته معهم ستكون ذات بعد ديني وحضاري بشكل حاسم حتى إنه يتوجه نحو المسجد، وكانت غايته دخول المسجد وتدمير كلّ ما يمثل حضارة بني إسرائيل مما حمّلوه على الدين تحريفاً وتدنيساً، بشكل نهائي حتى إنهم يتبّروا ما علوا وطغوا تتبيراً[3] والتساؤل البديهي هنا متى سيحصل هذا الأمر؟ ومن الذي سيتولاه؟

إن الآيات الكريمة تشير إلى أن بني إسرائيل سيحظون بطغيان مالي وبشري وسياسي كبير جداً، وواضح أن الكلام عن تدمير كلّ ذلك إنما يتعلّق بأمر لم يحصل بعد، على الرغم من أن الطغيان المشار إليه في الآية نعيشه اليوم بكلّ وضوح.

إذن، نحن سنواجه مستقبلاً نمطاً من العباد الرساليين الذي سيأخذون على عاتقهم تدمير كلّ ما يرمز إلى طغيان بني إسرائيل، وبلحاظ الخصوصية العالمية التي يحظى بها بنو إسرائيل حالياً، وهي التي مكّنتهم من أن يسيطروا على أكثر منافذ القرارات الدولية حساسية، فإن عملية التدمير هذه لكيانهم الحضاري، لا بُدّ وأن تأتي ضمن نطاق عالمي وليس عبر مجرد معركة تقتصر على إسرائيل، ومن يربح معركة كهذه، لا بُـدّ أن يكون قوياً بالشكل الذي يجتاز فيه كلّ مركز قوىً عالمي، ولعل ذلك هو المطابق الموضوعي والعملي للآية السابقة التي أشارت إلى وراثة الأرض؛ فتأمل!!

إذن، فإن الإضافة التي تطرحها هذه الآية على معطيات ما خرجنا به من الآية السابقة لها هو أن هؤلاء العباد ـ الّذين وُصفوا في الآية السابقة بالعصمة، وضرورة أن يكون النصّ عليهم صادراً ـ لم يأن دورهم الحضاري بعد، فهل سنجد النصّ عليه، وبالشكل المتناسق مع كلّ هذه الصفات والمواصفات والحيثيات؟!

---

١ سورة الإسراء: ٤ - ٧.

٢ جاس خلال الديار: توسطها وداس عليها.

٣ التتبير: الإهلاك.

ج: في قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [1] ما يجب أن يتوقف عنده الباحث في هذا المجال، فثمة وعد إلهي هنا يجب أن لا نفوّت التمعّن والتأمّل اللازمين به، فهو وعد لنا ونحن ـ كمسلمين ـ معنيون به، وحين يكون وعداً إلهياً فمن هو أوفى بعهده من الله تعالى؟!

وخلاصة هذا الوعد يتعلّق بالاستخلاف لصفوة من عباده، وهذا الاستخلاف ليس تكوينياً، بل هو من النمط التشريعي، بدليل أنه يتحدّث عن تمكين الدين، وهذا التمكين لن يكون إلا بعد إقصاء وغربة عنه وعن الالتزام به، وأن يبدلهم بعملية التمكين هذه الخوف الناجم عن الظلم والاضطهاد لقواعد هذا الدين، ثم لتحقيق العبودية الخالصة التي لا يزاحمها وجود أصنام طاغوتية، وهذا الوصف يؤدي لا محالة إلى التساؤل عن هذه الصفوة، من حيث الهوية وزمان وجودها.

ومن الواضح أن زمن هذا الوجود مرتبط بفترة مستقبلية قياساً لعهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، كما أن من الواضح أن هؤلاء هم من الصفوة التي وصفتهم آية الاستخلاف في سورة البقرة. [2]

وبالنتيجة: فإن ذلك يستدعي منّا أن نفتش عن صفوة رقى بها إيمانها حتى إنها لا تشرك بالله شيئاً طرفة عين، وهذا ما يستدعي أن يكون الحديث عن الّذين آمنوا

---

١ سورة النور: ٥٥ .

٢ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٠]، وقد أشرنا في بحثنا المستفيض عن هذه الآية في كتابنا: **"الخلافة الربانية"** أن الملائكة عرفت أن الاستخلاف الرباني يقتضي أن يكون المستخلَف من النمط المسبّح والمقدّس وأن يكون خلياً من النوازع التي تؤدي به إلى الفساد وسفك الدماء بمعنى أن يكون بدرجة العبودية الخالصة لله جل وعلا، ولذلك عرضت نفسها، لأنها لم تك مطّلعة على ما لم يبلغ إليه علمها، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وهذا الجواب الرباني المسكت لا بُدّ أنه قد أشار إلى أنها مدعوة إلى أن تنتبه لأسباب الجواب الإلهي الرافض الذي سيأتيها على مقترحها هذا، ولهذا لا تمضي الآيات سريعاً حتى نجد إذعانها على ما لاحظته من أسماء قد عرضت عليها، ولذلك استسلمت قالت: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾. . .

وقد استفدنا في بحثنا ذاك على أن هذه الأسماء هي لجهة لا بُدّ من تميزها بالعصمة والقدرة العالية على التسبيح والتقديس بالشكل الذي فاقت نفس الملائكة في عبوديتها لله تعالى.

وعملوا الصالحات هي صورتها الكاملة والمطلقة، أي أن هذه الصفوة المتحدّث عنها لا بُدّ أن تكون معصومة، وإذا كانت معصومة فلا بُدّ من نص إلهي يدلّ عليها، لكي تلتقي من بعد في المواصفات الخاصة بنفس مواصفات المذكورة في الآية السابقة، ومن واجب المسلم أن يتساءل عن هذه الصفوة ومتى ظهورها؟ لأن الله تعالى إنما تحدّث عن أمر سيكون في المستقبل حتماً.

د: على الرغم من الاختلاف الواضح في منهج الأخذ بحديث الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله بين المسلمين، إلا أن من المؤكد أن هذا الاختلاف لم يؤثر على جزم المسلمين ـ على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ـ بتواتر الحديث عن ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في زمن متأخر، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ولذلك يقول الشوكاني في "**الفتح الرباني**" على ما نقله عنه المباركفوري: الذي أمكن الوقوف عليه من الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر خمسون حديثاً، وثمانية وعشرون أثراً.

وبعد أن أوردها وناقش فيها قال: وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر، كما لا يخفى على من له فضل اطّلاع.[١]

وقال الذهبي في "**سير أعلام النبلاء**" وحاله في النصب في الحديث ورجالاته معروف جداً: الأحاديث عن النبي في التنصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة.[٢]

وقال شمس الحق العظيم آبادي في **(عون المعبود)**: وخرّجوا أحاديث جماعة من الأئمة، منهم: أبو داود والترمذي وابن ماجة والبزّار والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة، مثل: علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأم حبيبة وأمّ سلمة وثوبان وقرة بن إياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث، وإسناد أحاديث هؤلاء بين صحيح وحسن وضعيف، وقد بالغ الإمام المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون المغربي[٣] في **(تاريخه)** في تضعيف أحاديث المهدي كلّها، فلم يصب، بل أخطأ.[٤]

---

١ تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي ٦: ٤٠٢ .

٢ سير أعلام النبلاء ١٢: ٣٥١؛ للحافظ الذهبي؛ مؤسسة الرسالة ط٩، بيروت ١٤١٣هـ.

٣ قد تعسف ابن خلدون في (مقدمته) بشكل عجيب من أجل رفض الأحاديث المهدوية.

٤ عون المعبود شرح سنن أبي داود ١١: ٢٤٣؛ لمحمد شمس الحق العظيم آبادي؛ دار الكتب

ولهذا فقد ذُكرت الأحاديث المتعلقة به مباشرة صلوات الله عليه بصورة أو أُخرى، بطرق عديدة، وبألفاظ متعددة، وبشكل موسع جداً في غالبية الكتب المعنية بالحديث.[1]

وبالجملة: فإننا نلحظ أن هناك اتفاق على ثوابت متعددة في غالبية هذه الأحاديث، تتركز على أن ظهور المهدي صلوات الله عليه هو نبوءة محمدية لمستقبل هذه الأُمّة بعد أن يمتد الظلم والجور ويشمل كلّ الأرض، ليظهر وينهي كلّ ذلك،

العلمية ط٢، بيروت ١٤١٥هـ.

١ أذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر - ومن كتب العامة، وعلى لسان أئمتهم فقط -: أحمد بن حنبل في مسنده في مواضع عديدة ٣: ٢٧ - ٢٨ و٣٦ - ٣٧ و٥٢ و٧٠، وابن حجر العسقلاني في فتح الباري في مواضع عدة ٦: ٣٩٧ و١٣: ١٣ - ١٤ و٧١ و١٨٤، وأبا داود في سننه ٢: ٣١٠، وفي عون المعبود شرح سنن أبي داود ١١: ٢٤٧، وابن أبي شيبة في المصنف ٨: ٦٧٨ - ٦٧٩، والترمذي في سننه ٣: ٣٤٣ ح٢٣١٣ و٢٣٣٣، وفي تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي في مواضع عديدة ٦: ٤٠٣، والحاكم النيسابوري في مستدركه على الصحيحين ٤: ٤٦٤ و٤٦٥ و٥٥٧ وهنا قال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه، وقد تابعه الذهبي في تلخيصه للمستدرك في جميع هذه المواضع، وابن حبان في صحيحه ١٥: ٢٣٦ و٢٣٨، وأبا يعلى الموصلي في مسنده ٢: ٢٧٥، والطبراني في المعجم الصغير ٢: ١٤٨، والأوسط ٢: ١٥ و٥٥ و٩: ١٧٩، وفي الكبير في مواضع عدة ١٠: ١٣٤ و١٣٥ و١٩: ٣٢ و٣٣، والسيوطي في الجامع الصغير ٢: ٤٠٢ و٤٣٨ و٦٧٢، وفي الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦: ٥٧ و٥٨، والمناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٤٦٦ و٥: ٤٢٣ و٦: ٣٦٢، وابن الهيثمي في مجمع الزوائد في مواضع عدة ٧: ٣١٣ قال: ورواه الترمذي وغيره باختصار كثير، ورواه أحمد بأسانيد وأبو يعلى باختصار كثير ورجالهما ثقات، والأصبهاني في دلائل النبوة ٦: ٢٦٦، والذهبي في تذكرة الحفاظ ٣: ٨٣٨، وفي سير أعلام النبلاء ١٥: ٢٥٣ و٢٥٤، وفي ميزان الاعتدال ٢: ٨٧ و٢٤٩، وابن ماجة في سننه ٢: ١٣٦٨، والهيثمي في موارد الظمآن: ٤٦٤، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ٤٧٨، والمتقي الهندي في كنز العمال في مواضع كثيرة ١٤: ٢٦١ - ٢٦٢ و٢٦٤ - ٢٦٨، والحافظ الأصبهاني في ذكر أخبار أصبهان ٢: ١٦٥، والمقريزي في النزاع والتخاصم: ٣٥، والعقيلي في ضعفائه ٢: ٧٦ وقال: وفي المهدي أحاديث صالحة الأسانيد، وفي ٣: ٢٥٤ قال: وفي المهدي أحاديث جياد، والمزي في تهذيب الكمال ٩: ٤٣٧، ونعيم بن حماد في الفتن: ٢١٣، والبخاري في التاريخ الكبير ٨: ٤٠٦، والقرطبي في تفسيره ٢: ٧٩ و٨: ١٢٢ وقال: إن الأخبار تواترت على أن المهدي من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وابن كثير في تفسيره ٢: ٣٣ و٣: ٣٠٢، وفي البداية والنهاية ١٠: ١٦٢، والطبري في تفسيره أيضاً ١: ٥٠١، والشوكاني في فتح القدير ١: ١٣٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٣: ٤٢٨، والآلوسي في روح المعاني ٧: ١١١ و٩: ٢٠٧ و١٣: ١٧١ إلى آخره مما لا أجد مجالاً لاستقصاء من ذكره من أئمة القوم ومحدثيهم.

وليعم العدل والقسط بدلاً عنه، وبالتالي هو نص ظاهر وجلي، وأنه من عترة النبي وأهل بيته عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وأنه من وُلد فاطمة صلوات الله عليها، وهذه المواصفات تتفق تماماً مع ما تتحدث عنه مدرسة أهل البيت صلوات الله عليهم.

د: يبقى الكلام في هوية محمد المهدي ابن فاطمة الزهراء صلوات الله عليهم أجمعين، هل أنه وُلِد قبل هذا الوقت فامتد به العمر كلّ هذه المدة؟ أم أنه سيتولّد من بعد ذلك؟

وهنا سيكون من معيب النقاش مجرد النفي من دون دليل، بل هو إلى التهريج أقرب منه إلى أي شيء آخر، كما فعل غير واحد من هؤلاء، فلقد قال شمس الحق العظيم آبادي: لا شك أن ما زعمت الشيعة من أن المهدي المبشّر به في الأحاديث هو محمد بن الحسن العسكري القائم المنتظر، وأنه مختف وسيظهر، هي عقيدة باطلة لا دليل عليها.[1]

والرجل مثله مثل غيره، لم يقدّم أي دليل على كلامه هذا، ولم يقل لنا ما هو وجه البطلان الذي أشار إليه، الذي يبدو أنه كان جازماً به، وإنما جاء كلامه جزافاً، وهو إنْ لم يكن مبنياً على موقف مبدئي بتكذيب الشيعة في معتقداتهم كيفما اتفق لمجرد التكذيب ـ وهو أمر شائع كثيراً في كتب القوم، ومعيب جداً ـ، فإنه يبقى في أحسن الفروض مستنداً إلى وقائع ذوقية ونفسية ليس إلا، وغالبية هذه الوقائع تستند في واقع الحال إلى التصاق ممجوج بالفكر المادي وإنْ لم يعلن ذلك أصحابه، ولهذا يجدر بنا أن نتوقف عند هذه الوقائع لنختبر جدّية ثباتها أمام معطيات البحث العلمي المجرد.

---

١ عون المعبود شرح سنن أبي داود ١١: ٢٤٧ .

المبحث الثاني

القابلية البشرية للعمر الطويل

ولمعالجة شأن هذه الوقائع يجب أن نتجه عبر عدة محطات، وأُولى هذه المحطات يجب أن تتقفى الإمكانية البشرية للعمر الطويل، ولا ريب أن أول ما يثبت في مثل هذه المحطة هو أنه لا يوجد أمر يعصى على الله تعالى، فالله تعالى ـ في الأمور التكوينية ـ لو أراد أمراً إنما يقول له كن فيكون، ولهذا فلا حديث لأحد لو أن الإرادة الإلهية تدخلت لتطويل عمر فلان، أو تقصيرها لعمر آخر، فهذه كلّها لله تعالى.

وبإمكاننا ملاحظة أن ثمة منهج رباني هنا يعمد إلى عدم الركون لخيارات الطبيعة المادية إطلاقاً حتى لو كان المرء يعتقد أن هذه الخيارات كلّها بيد الله تعالى.

فمن مجموع النظر إلى الآيات المتعلقة بمثل هذه الأُمور نجد أن الله تعالى طرح عدة قضايا في الحياة والموت بشكل تداخلت ظروف متعددة فيها، فمثلاً تطرح قضية عيسى صلوات الله على نبينا وآله وعليه كنموذج لنظام إيلاد لا يتسم بالحالة المتوافقة مع الطبيعة المادية، وتطرح قضية ناقة صالح أيضاً كنموذج لا يعتمد على النظام المادي في الإيلاد، ولو نظرنا إلى قضية صاحب الحمار الذي توفّاه الله مئة عام ثم بعثه، وقصة بقرة بني اسرائيل وحياتها، فإنها تمنحنا بعداً جديداً بعيداً عن النظم الطبيعية المألوفة، وهكذا الأمر في قصة أصحاب الكهف، وغيرها، لتشعرنا بضرورة عدم الاستسلام لمنطق واحد في مسائل الحياة والموت، والاستعداد دوماً لتلقّي أُموراً أكبر من قدرة العقل البشري لو ركن للظروف المادية فقط.

أو دعني أقولها بطريقة أُخرى: لتشعرنا بوجود نمط من القوانين التي تتحكم في كثير من المسائل من دون أن يجد العقل البشري سبيلاً إليها لو ارتهنت آليات تفكيره ضمن ظروف العقل المادي، وفي ذلك تفصيل لا يسع المجال لذكره هنا.[1]

---

١ يمكن الرجوع لبعض التفصيل إلى كتابنا: "الولاية التكوينية الحق الطبيعي للمعصوم عليه السلام" وهو مطبوع.

وكيفما يكن، يبقى الكلام في حدود القابلية البشرية وإمكانية العمر الإنساني على أن يكون طويلاً، فإن القرآن الكريم ـ من جهته ـ لا يضع حدّاً صارماً من الناحية الزمنية لحدود العمر الإنساني، حتى يمكن أن يقال بأن العمر لا يمكن أن يتعدى هذا الزمن أو ذاك، بل إننا نجده يطرح الأمر ضمن أطر ثلاثة، هي:

أ: الإطار العقائدي:

والقرآن الكريم في هذا الشأن ضمن البنية العقائدية التي يدعو إلى الإيمان بها فإنه يرجع كلّ الأمور إلى الله سبحانه وتعالى، بما في ذلك قوانين العلة والمعلول، ووفق هذه البنية العقائدية يأتي التأكيد على أن قدرته سبحانه وتعالى لا تتوقف على شيء، ولا يوقفها أو يعجزها شيء، ولا تنثني عند شيء، فهو على كلّ شيء قدير فعال لما يريد، وبالتالي فإن مسألة الحياة والموت تبقى بيده جلّت وتعالت قدرته، وهو الذي يوقّت بداية كلّ شيء ونهاية كلّ شيء، ولهذا فلا يبقي أي مجال للشك بأن طول عمر أي مخلوق وقصره لا يمكن أن يتخلّف عن الإرادة الإلهية.

كيف لا؟! وهو الخالق للحياة والموت، فضلاً عن هذا المخلوق.

وعليه: فلا يوجد أي مانع أو قاهر من توجيه قصر العمر أو طوله في الوجهة التي يريدها الله تعالى، وقد طرح القرآن إطالة عمر إبليس عليه لعائن الله بطريقة كأنها تختلف عن بقية أعمار الجن، وإلا لما طلب الرجيم من أن ينظره الله إلى يوم يبعثون، ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾[1] واستجابة الله في إبقائه إلى يوم الوقت المعلوم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾[2] دليل على أن أعمار نظراء إبليس في الخلق ليست متناسبة مع عمره الفعلي لعنة الله عليه، مما يقود إلى القول ـ من الناحية العقائدية ـ بأن إرادة خاصة من الله تعالى جعلت عدوّه بهذا العمر الطويل، هي ذاتها لا تمانع وبنفس السياق من عمر طويل لوليه، ومصلحة ذلك واضحة للعيان.

وبقول آخر: فإن أية علة مانعة للطول العمري لا وجود لها، فالعلة الفاعلة قادرة وغير ممانعة، ويبقى الكلام في العلة القابلة، هل تستطيع أن تتحمل قدرة العلة الفاعلة، أو لا؟!

---

١ سورة الأعراف: ١٤ - ١٥ .

٢ سورة الحجر: ٣٧ - ٣٨ وسورة ص: ٧٩ - ٨٠ .

بـ: الإطار العلمي البيولوجي:

وإذا كانت العلة المانعة منتفية من خلال قدرة العلة الفاعلة، فهل يا ترى ستتحمل العلة القابلة ذلك؟ وبقول آخر: إذا كانت إرادة الله لا تحول دون منع ذلك، لأن الله على كلّ شيء قدير، فهل بعد ذلك يمكن للجسم الإنساني أن يتحمل ـ من الناحية البيولوجية ـ علمياً الطول العمري لخلاياه الجسمانية؟ وهو ما نعنيه هنا بالعلة القابلة.

وثمة حديث في القرآن الكريم لا ينظر إليه في العادة بشكل يتناسب مع شمولية النص القرآني وعمق معانيه، وعادة ما يختلط حابل المفسرين له بنابل الرواة ليخرجوا بحصيلة شوهاء تماماً تصيب المرء بغثيان قد يصل إلى حالة الشعور بأنه نص مهمل، وهذه الحالة ـ التي تتشابه فيها نصوص عديدة من جهة إهمال المفسرين والرواة وللأسف الشديد معها ـ يفترض أن تثير لدى المتدبّرين في القرآن الكريم نهماً معرفياً كبيراً للتخلّص من هذا الجهل والتسطيح الفكري والثقافي الذي فرضه المفسرون ـ ومن يقف وراءهم من المحدّثين والقصاصين ـ على عقلية متابعي تفسير الآيات الكريمة.

وقد وددت أن أتخذ هذا الحديث مثلاً يتعلّق بشكل مباشر بمبحثنا هنا، تاركاً المجال لإثارة الموضوع بشكل تفصيلي لمحاولات بحثية أُخرى إن شاء الله، وسيتركز الحديث عند قوله تعالى عن الطبيعة الخاصة لجنّة آدم عليه السلام: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [1].

فكما هو ملحوظ لكلّ من يراجع الكتب التفسيرية، يجد أن غالبية المفسرين ان لم يك جميعهم قد وقعوا وأوقعوا القارئ في حالة من الفوضى للتملّص من الصورة الحقيقية التي لم تُفقه من قبلهم، فاكتفى غالبيتهم العظمى ـ للهروب من ذلك ـ بالقول بأن هذه أحوال الجنّة التي لا يجوع فيها المرء ولا يعرى، في حال أن أول الكلام في هذه الآيات الشريفة هو أن الحديث لا يجري في الجنّة المعهودة؛ لوضوح أن الجنّة المعهودة فيها صفات أساسية تم التغافل عنها بشكل مثير للدهشة، وكلّها تنفي أن تكون الجنّة المتحدَّث عنها هي الجنّة التي وُعد المؤمنون بها في الآخرة.

فمن المسلّم أن الشيطان لا يدخل الجنّة، فكيف نجده في هذا النص داخلاً

---

١ سورة طه: ١١٧ - ١١٩ .

فيها؟! بل وناشط فيها!!

ومن المسلّم أن الداخل للجنّة الموعودة لا يخرج منها أبداً، فكيف خرج آدم وزوجه عليهما السلام؟!

ومن المتيقّن أن الجنّة لا أوامر تشريعية فيها حتى لو كانت من سنخ الأوامر الإرشادية، فكيف نجد الأمر التشريعي هنا متسيّداً عليها وإن كان بصيغة الأمر الإرشادي لا المولوي؟![1] وهو الذي يتمثل بقوله تعالى ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ وكذا قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[2]!!

بناء عليه فقد كانت روايات أهل البيت صلوات الله عليهم تؤكد أنها جنّة من جنان الدنيا، وعن ذلك يقول الحسين بن ميسر: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن جنّة آدم عليه السلام؟ فقال: جنّة من جنان الدنيا، تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً.[3]

ولا يخلّ بذلك ورود أمر ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾[4] فعلى الرغم من أنه لا يوجد أي دليل حصري يدل على إن الجنّة الموعودة في الآخرة هي في السماوات العلى، بل تشير بعض الروايات إلى أنها ستكون في الأرض بعد تحويل الأرض إلى صورة أُخرى، مع وجود روايات أخرى تتحدث عن جنة السماوات، وإمكانية الجمع ما بين الروايات ليست عسيرة..

أقول: على الرغم من ذلك، فإن الهبوط لا يعني بالضرورة النـزول من الأعلى إلى الأسفل حتى يقال بعد ذلك بإنهما كانا في الجنان العليا ثم هبطا منها إلى الأرض الدنيا؛ لوضوح أن القرآن الكريم استخدم كلمة الهبوط بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر، كما في قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[5]، فإذا كان الحال هو هكذا، فإن من المسلّم إذاً هو أن الحديث عن جنّة آدم عليه السلام لا علاقة له بجنة المأوى إطلاقاً، وإنما هي جنّة من جنان الأرض.

---

١ ولا أريد هنا أن أدخل في بحث أسباب ذلك وتفاصيله، لوضوح الأمر من جهة، ولأن المجال لا يتسع هنا، ولربما نوفق لذلك في أبحاثنا التفسيرية.

٢ سورة البقرة: ٣٥ .

٣ الكافي ٣: ٢٤٨ ح٢ .

٤ سورة طه: ١٢٣ .

٥ سورة البقرة: ٦١ .

وفي هذه الحال، فإن الآيات ستضع أمامنا تساؤلات جدية ـ وهي في الواقع محل استشهادنا في هذا البحث ـ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ يطرح عدة موضوعات أساسية لا يمكن أن نمرّ عليها مرور الكرام، وهو بيت قصيد أساسي في مبحثنا هنا، فالحديث هنا كلّه عن ظواهر جسمانية بحتة، وهذه الظواهر لصيقة الارتباط بأوضاع الجسم مع مختلف أحوال الطبيعة.

فالجوع والعري وما يستتبعه من التعرض للبرد والعطش والتعرّض لحرارة الشمس والجفاف والتيبّس، كلّها مظاهر لما يمكن أن يتعرض له الجسم في مقوماته الحياتية في الحياة الدنيا، سيّان في ذلك البدن الخارجي أو الخلايا الداخلية للجسم مهما صغرت ودقّت، فكلّها لها نظام معين في التعامل مع هذه الأُمور، ولكنها بأجمعها تخضع وتتأثر بهذه العوامل التي أشير إليها في الآية الكريمة، ووفق معدلاتها تحيا وتهرم وتموت الخلايا الداخلية للجسم كالخارجية منها.

وهذا أمر بات من الواضح بيولوجياً بما لا مجال للشك فيه أو الطعن فيه، مما يعني وفق الآية القرآنية أن ظرفاً ما، ووفق نظام ما، يمكن أن يحفظ البدن وخلاياه من حالات الجوع والعطش والتجمّد والتسخين والجفاف، وما إلى ذلك من العوارض التي تطرأ نتيجة لعوارض الدنيا المعهودة، وكلّ هذه الحالات لها ارتباط مباشر ببقاء أو عدم بقاء خلايا البدن، الأمر الذي يؤكد أن قابلية البدن الإنساني متوفرة لو عاش هذا الإنسان في ظرف معين وتم فيه حفظ خلاياه الداخلية من أن تُعـرَّض للعطب، وبالتالي يتمكن أن يعمّر ما شاء الله ما لم يُعـرَّض لعارض خارجي؛ لأن توفّر هذا الأمر لآدم عليه السلام يحكي قابلية بدن آدم النوع، لأن هذا الأمر وإن حمل اسم آدم الشخص عليه السلام ولكنه يحكي قابلية البدن الآدمي من حيث التكوين البيولوجي البحت، وبدنه ـ كما هو واضح ـ لا يختلف بالمرة عن أي بدن آخر من أبدان أبنائه.

وكي أعطي الأمر مثالاً حياً تعيشه المنظومة الكونية حالياً، أقول: ما تعاني منه الكرة الأرضية اليوم من ظاهرة التغير الحراري (The Phenomenon of Global Warming and Climate change) التي تستفحل يوماً من بعد آخر، والناجمة من اتساع الخلل في طبقة الأوزون الجوية (The Stratospheric Ozone layer) نتيجة للاستفادة السيئة والضارة من المواد الغازية الكيمياوية المسببة لتحلل هذه الطبقة وضعفها، أو ما سمي بثقب الأوزون (Ozone hole)، وقد أدى هذا الاتساع ـ على سبيل المثال ـ إلى اقتحام كميات غير معتادة على المناخ العالمي من أنواع الأشعة، كأشعتَي كاما

وبيتا اللتين كان الغلاف الجوي يحفظ الأرض من دخولهما، مما تسبب بجملة كبيرة من الاختلالات في النظام المناخي العالمي حتى أدى إلى ارتفاع معدلات درجة الحرارة في العالم، ولا سيما ضمن مجموعة من التأثيرات الخطيرة التي تسببت في هذه الظاهرة، ومن جملتها فقد كان بدن الإنسان أحد المتأثرين بشدة بذلك، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع معدلات الإصابة بالسرطان ولا سيما سرطان الجلد، وما يستتبع ذلك من مؤثرات جمّة ولا سيما في المناطق القريبة من القطب الشمالي؛ إذ يتركز خلل الطبقة المذكورة في هذه المنطقة.

ولعل ما نراه من قدرة تطور الأوبئة الفايروسية التي نشاهدها خلال هذه الفترة، كما هو الحال في جنون البقر وإنفلونزة الطيور وإنفلونزة الخنازير، وما إلى ذلك، يمثل أحد تداعيات ذلك، وببساطة يمكننا ملاحظة أن كلّ هذه التداعيات كانت ناجمة ـ ظاهراً ـ من تدخل عوامل خارجية على المناخ العالمي، مما فسح المجال لمثل هذه التداعيات الخطيرة التي ما زالت في كلّ يوم تفضي إلى إفرازات جديدة خاصة، وإن دخولها الى المنظومة الغذائية للمخلوقات ميسر جداً، ولكن هذه العوامل الخارجية كانت بعيدة جداً عن التأثير على مناخ الأرض لكونه كان محمياً بطبقة الأوزون، ولكن عمل الإنسان على الإخلال بهذه الطبقة فتح بوابة جهنم ـ إن صح التعبير ـ على الطبقة الحامية للمناخ العالمي، مما نجم عنه كلّ هذا الاختلال.

وبتعبير فلسفي، فإن الطبقة الجوية كانت تمثل علة مانعة للمؤثرات الخارجية من أن تنفذ علتها الفاعلة، ولكن عمل الإنسان على رفع المانع الذي كانت تحتفظ به الطبقة الجوية، جعل الأرض قابلة لعملية استقبال المؤثر الخارجي، مما فعّل قدرتها التي كانت مشلولة قبل ذلك بفضل النظام الجوي.

ولو عدنا إلى موضوعنا الأصلي سنجد ـ من الناحية الفلسفية ـ أن هذه القضية تدلل على أن العلة القابلية في طول العمر الإنساني غير منتفية، فالله سبحانه وتعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [1]، ومن جملة ذلك الخلية الإنسانية، التي أحسن خلقها في جملة كلّ ما أحسن خلقه في هذا الكون، والكلام عن إحسان الخلق يتعلق بالطبيعة الذاتية للخلق، لا بما يعترضه من عوامل خارجية أو مؤثرات تخل بعالم الخلقة هذا، بل هي ـ على مستوى الإمكان الفلسفي ـ موجودة وكامنة ولا تحمل نواة تدميرها بذاتها، وإلا لما

---

١ سورة السجدة: ٦ و ٧ .

قال ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، غاية ما هنالك طبيعة الظرف الذي يمر به البدن الإنساني وتفاعلاته البيولوجية هي التي تعطي للإنسان قوة خلاياه الداخلية أو ضعفها.

عندئذ حين يرتفع مانع العلة القابلة، بعد ارتفاع مانع العلة الفاعلة، سيبقى الكلام في العلة المادية، وقد طرح القرآن الكريم مبدأ عدم طاعة الشيطان أو الانسياق وراء وسوسته وألاعيبه ومكره كأحد الآليات التي تتيح لآدم (العلة المادية) أن يستمر في حياةٍ لا تُعرَّض خلاياه الجسمانية وبدنه إلى كلّ الحالات التي تؤدي إلى ضعفها ونضوب دفق الحياة فيها، والتي يشار إليها بكلمة: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ في الآية الكريمة موضع البحث؛ إذ من الواضح أن الشقاوة المطروحة هنا لا علاقة لها بالشقاوة المعنوية التي تؤدي إلى خسران رحمة الله، وإنما هي شقاوة البدن التي تقابل عافيته من الجوع والعري وما إلى ذلك، مما يعطينا تأكيداً على أن العلة المادية هي الأُخرى متوفرة ولا ممانعة من جهتها للطول العمري للبدن، غاية ما في الأمر أن آدم وزوجه هما اللذان أخلا بشروط الآلية المطروحة قرآنياً للموضوع البيولوجي، ولا دليل على أن هذه الآلية هي الوحيدة التي تعطي العلة المادية فاعليتها، بدليل وجود حالات تعمير بشرية متفاوتة، مما يؤكد أن كلّ ما يمكن فيه حفظ الخلايا الإنسانية من العطب أو النضوب أو الضعف ـ سواء كان مادياً كالعري والجوع وما إلى ذلك، أو معنوياً كطاعة الشيطان أو الاغترار به وفقاً لما أشارت إليه الآية الكريمة من آليات ـ سيؤدي إلى إدامة الحياة ما لم يك هناك عارض خارجي، كالقتل وما إلى ذلك، مع العلم أن العلم الحديث لا يجد أية ضرورة علمية وحتمية بيولوجية تدعو الخلية الحية إلى الانتحار، أو أن يكون لها عمر نهائي لا تتعداه، بل إنه يؤكد نفس ما ذهبنا إليه؛ إذ إن كلّ الدلائل العلمية تشير إلى أن الخلية الحية لا تحمل معها مواد فنائها بطريقة كامنة.

وعلمياً، فإن عوامل متعددة تدعوها إلى الموت، وعوامل متعددة أُخرى تدعوها إلى القوة والحياة، والخيارات متاحة في الحالتين لأي إنسان، غاية ما في الأمر إن الظروف الصحية والبيئية والأمنية والاجتماعية والنفسية، وما إلى ذلك، هي التي تلعب الدور الأساسي في تفعيل القوة والضعف في هذا المجال.

وفي موضوعنا ـ هنا ـ لو أردنا تطبيقه على حياة الإمام المنتظر عجل الله فرجه، وحينما نتحدث عن عصمة الإمام المهدي عليه سلام الله في نفس الوقت، إنما نكون قد تحدثنا سلفاً عن وفرة العلة المادية وجاهزيتها كي يطول عمره؛ لأنه مصان من قوة الشيطان بدليل آية التطهير التي جعلت أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين بعيدين كلّ البعد عن أي نمط من أنماط الرجس.

وكذا، بدليل إقرار الشيطان الرجيم نفسه حينما تحدث عن حدود قدرته، وبدليل القدرة الذاتية للشيطان الرجيم، التي يشير إليها الله سبحانه وتعالى تارة بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [١] إذ إن قدرته في الإغواء ليست ذاتية في الإنسان، وإنما مَن يعطي الشيطانَ قابلية إغوائه فإن الشيطان سيتحرك لإتمام ما يسعى إليه، وتارة من خلال إقرار الشيطان نفسه بأنه لا يستطيع أن يؤثر على عباد الله المخلَصين، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [٢] ومن هو أخلص لله تعالى من إمام الزمان روحي فداه؟!

وهذا في واحد من الآليات التي طرحها القرآن الكريم، فما بالك بالآليات الأُخرى؟! سواء من خلال طبيعة ما يأكل ويلبس ويشرب وطبيعة ما يتعرض له، لا سيّما أن لديه علمه الخاص بطبيعة ما يمكّنه من البقاء، هذا ناهيك عن طبيعة نأيه عن أن يكون معروفاً بسبب غيبته، فإنه يجعله بعيداً عن المؤثرات الأمنية والاجتماعية إلى حد كبير، كلّ ذلك وغيره هو الآخر يعطي الإمام صلوات الله عليه سبباً علمياً وبيولوجياً موضوعياً لطول العمر؛ فلا تغفل!

ولعل آية جنة آدم وتفاصيلها العلمية التي أشرنا إليها هي أحد أسرار قول الإمام الحسن صلوات الله عليه بما ينقله عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما منّا إلا مقتول أو مسموم". [٣]

وكذا قول الإمام الرضا صلوات الله عليه لأبي الصلت الهروي: "ما منّا إلا مقتول شهيد". [٤]

لأن حياتهم صلوات الله عليهم من حيث البنية المعنوية متشابهة نوعياً مع حياة إمام الزمان عليه السلام، وهي ذاتها التي وصفها القرآن الكريم في حديث جنة آدم عليه السلام التي كان شرط ديمومتها عدم اتباع إغراءات الشيطان[٥] لكن مع التأكيد بأن ذلك لا علاقة له بالمؤثرات الخارجية كالكوارث الطبيعية والحوادث الاجتماعية، فهذا شأن آخر؛ ولهذا فتأمل!

---

١ سورة الحجر: ٤٢ .

٢ سورة ص: ٨٢ - ٨٣ .

٣ كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ٢٥٧ ح٩٨ .

٤ من لا يحضره الفقيه ٢: ٥٨٥ ح٣١٩٢ .

٥ لمتابعة الشبهات التي أطلقت على عصمة آدم عليه السلام ننصح بمراجعة كتابنا: "عصمة المعصوم عليه السلام وَفق المعطيات القرآنية"، ففيه بلغة للمستزيد، فضلاً عن المرتاب.

فما بالك لو أن الحكمة الإلهية هي الأُخرى تقتضي أن يبقى كلّ هذه الفترة، كما اقتضت أن يبقى نوح صلوات الله عليه، بل كما اقتضت أن يبقى عدو الله إبليس (عليه لعائن الله) إلى ميقات يوم معلوم؟!!

وهو يعني أن العلة الغائية قد دخلت شريكاً منسجماً ومتناغماً مع العلل الأُخرى، فأي حديث خلاف العقل هذا الذي يتحدث عنه المرجفون حينما يتحدثون عن أن الطول العمري شأن خلاف العقل؟!

وأي عقل يجد أن العلة الفاعلية، والعلة القابلية، والعلة المادية، والعلة الغائية، لا تتعارض في أمر واحد ـ كما وجدناه هنا ـ ولا يحكم بحصوله إن لم نقل بضرورة حصوله؟!

ولقطع الطريق أمام بعض من قد يتوهم أن حديثنا عن الموضوع العلمي لا علاقة له بما لو أن الله سبحانه وتعالى أراد أمراً آخر، لأن قدرة الله تعالى فوق كلّ قدرة، والعلم هو أحد تجليات هذه القدرة، فلا تغفل وتتوهم بأن هذا الموضوع يعني الخلود المنافي لقوله تعالى بأنه هو وحده الذي يبقى، فهذا مما لا يقول به أحد.

ج: الإطار التاريخي:

بعد كلّ الذي مرّ، هل يا ترى بإمكاننا أن نعثر على المصاديق التاريخية على ما تم تعقّله على مستوى التنظير؟

بادئ ذي بدء لا بُدّ من العودة إلى الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ـ وبغية تخليص الإنسان من أن يبقى أسيراً للمنطق المادي، الذي من شأنه أن يضيّق عليه الآفاق الفكرية والعملية ـ، فإنه لم يضع نظاماً للعلية المادية إلا وقد وضع إلى جنبه نظاماً على الصعيد الروحي يناظره شكلاً ويتفوّق عليه مضموناً، فلقد رأينا نظام الإيلاد الطبيعي قد وضع إلى جنبه نظام إيلاد آخر يختلف كلّية ـ شكلاً ومضموناً ـ عن النظام المادي المبني على أساس التلاقح بين الذكر والأُنثى، فكانت خلقة النبي عيسى صلوات الله عليه مثالاً لذلك، فمن حيث الشكل لدينا عملية إيلاد أنتجت كائناً حياً بالمواصفات الطبيعية الكاملة لأي كائن حي مماثل، ولكن من حيث المضمون كانت عملية الإيلاد متفوقة جداً مما عليه عملية الإيلاد المعتادة.

ويجب علينا هنا لفت الانتباه إلى أن أي حالة من الحالات التي تصوّر وكأنها معجزة لا يمكن القول بأنها حالة متفردة لن تتكرر بعد ذلك، فالفعل وإن بدا وكأنه

تدخلاً إلهياً مباشراً، ولكن مادة الفعل ومساحته كانت بشرية، وكلّ ما صلح لبشر واحد صلح لبقية البشر كما أسلفنا من قبل.

ولهذا فإن الظفر بنموذج واحد يعطينا إمكانية جازمة لحصول نماذج أُخرى، وهي قد لا تحصل بالضرورة، ولكنها تبقى ضمن مساحة الإمكان الفلسفي والعلمي، وقد أشرنا في غير موضع أن ما يشار إليه بأنه معجزة قد لا يشار إليه كذلك لدى العالِمين به، فمثلما يتصور الإنسان البسيط أن سكب مادة حامضية ـ كالليمون ـ على حجر كلسي كـ (بيكاربونات الكالسيوم) سيؤدي إلى حصول فوران ظاهري في الحجر، فيقول بأن هذا سحر أو معجزة، وهو في الواقع ليس إلا تفاعلاً طبيعياً بين الحجر الكلسي والمادة الحامضية، وبالنتيجة ليس بسحر ولا بمعجزة، كذلك من يمتلك علماً أكبر يبقى يظهر قدرة ربما بدت سحرية أو إعجازية لدى من هو أجهل منه، ولكنه يعدّها نمطاً علمياً من أنماط التعامل المعتاد مع القوانين وعللها.

فلو تأملنا في قوله تعالى في قصة عرش بلقيس: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فسنجد أنه قد قام بعمل إعجازي لا تقوى عليه أية تكنلوجية متصوّرة للمستقبل، فضلاً عن الواقع الحاضر، ناهيك عما كان في الماضي، ولكنه تحدث عنها بطريقة لا توحي بأنه يريد أن يستخدم إعجازاً، وإنما كانت أوصافه أن لديه علماً، وهذا العلم هو الذي مكّنه من أن يتحدّث عن قابلية ذاتية عبّر عنها بقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ﴾ فلا شك ولا ريب أن له قوانينه وآلياته، بصورة أن مَن يحصل على ذلك النمط من العلم يستطيع أن يكرر ما قام به وصي سليمان عليهما السلام، وقد أراد سليمان عليه السلام أن يظهر آليات علمية ليست مألوفة من الناحية المادية، ولكنها من الناحية الفعلية كانت في مجال الإمكان الفعلي، ولهذا حينما طرح سؤاله: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ [1] فإنه لم يطرحه لغاية التعجيز، لأنه عبث، وحاشاه من ذلك.

وهو حينما يوجه الخطاب إلى كلّ الملأ كأنه يريد أن يشير إلى أن إمكانات مثل هذا العلم كانت متوفرة على نحو مألوف[2]، ولكنه لم يتحدّث إلا كبير الجن، فتحدّث عن إمكانات مادية في عالم الجن ـ كما يبدو[3] ـ وعلى الرغم من إغراء

---

١ سورة النمل: ٣٨ .

٢ ترى كيف كان علم سليمان نفسه في قبال وصيه؟!.

٣ لأنه لو تحدّث عن الإمكانات المعنوية ربما وجدنا عرضه لا ينسب إلى كونه كبير الجن، وإنما ينسب لصفة علمية أو معنوية، بينما كان حديث الذي عنده علم من الكتاب مبتنياً على خصيصتين،

العرض الذي قدمه كبير الجن قياساً إلى إمكانياتنا التكنلوجية المعاصرة ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ (١) إلا أن سليمان عليه السلام لم يقبل ذلك، وفضّل الطرح الآخر الذي قدمه مَن وُصف بأن عنده علم من الكتاب، وهو مفضّل لعدة أُمور، منها: أنه أسرع وأقوى من عرض عفريت الجن ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (٢)، ومن جهة أُخرى لأنه ارتهن إلى علم من الكتاب، وقد أراد ان يظهر سليمان علم الكتاب وطبيعته وطبيعة وصيه، وإلا كان بإمكانه أن يقوم هو بنفسه بذلك لولا هذه الالتفاتة المتعلقة بالهداية الربانية وإتمام الحجة الإلهية على الناس.

ولهذا يقول الإمام الهادي عليه السلام ـ حينما أجاب يحيى بن أكثم ـ قال: سألتَ عن قول الله عز وجل في كتابه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فهو آصف بن برخيا، ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف، لكنه أحب أن يعـرّف أُمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله، ففهّمه الله ذلك، لئلا يختلف في إمامته ودلالته، كما فهّم سليمان في حياة داود ليعرض إمامته ونبوته من بعده؛ لتأكيد الحجة على الخلق.(٣)

والمشكلة هنا أننا لا نعلم هذا العلم ولا كنهه ولا طبيعة قوانينه وسننه، فبدت لنا علومه وكأنها إعجازية، وهو لا يحسبها كذلك في نفسه لأنه يعلم أسرارها وقوانينها، بل هي ممارسة بدت طبيعية جداً لديه للاستفادة من علم تسلّط عليه، فتأمل على أننا سنعود لحديث أكثر تفصيلاً عن ذلك في فصل لاحق.

إن هذه القاعدة تسري هي الأُخرى في مجال الطول العمري عبر التاريخ، والتاريخ هنا حدث منجّز، وليس فكرة تصورية كما إنه ليس شأناً تجرّدياً تنظيرياً، وقد وجدنا أن تاريخ الأعمار البشرية سمحت دوماً بوجود فوارق كبيرة بين الناس، وعلى الرغم من أن هذه الفوارق قد تكون حالة استثنائية، ولكنها بما أنها حصلت مرة، فيمكن أن تحصل ملايين المرات، شريطة توفر الظرف البيئي والحياتي الملائم، فما قد يبدو أن التاريخ المعاصر قد تحدّث عن معدل معتاد للعمر الإنساني، ولكنه قبل

أولهما: إن (عنده علم من الكتاب)، والثانية كونه وصي سليمان صلوات الله عليهما، ولكنه بصفةِ ما لديه من علم الكتاب نراه تحدّث عن ذاتية كبيرة غير منسلخة عن إرادة الله تعالى، ولكنها مرتبطة بهذا العلم بإمكانات تفوق ما لدى كبير الجن؛ فتأمل!.

١ سورة النمل: ٣٩ .

٢ ارتداد الطرف: حركة رمش العين.

٣ الاختصاص: ٩٣ .

بحالة الاستثناء بشكل واضح، فما بين أيدينا ظاهرة عمر نوح عليه السلام التي يعبّر عنها الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [١] فهنا أشار القرآن إلى حدث تاريخي ناجز تمثل في أن العمر الرسالي لنوح عليه السلام في فترة ما قبل الطوفان قد بلغ هذه المدة، يضاف لها فترة ما بعد الطوفان؛ إذ من المسلّم أنه قضى مدة أخرى. [٢]

أقول: ما بين عمر نوح عليه السلام وما بين قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [٣] وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [٤]، نلحظ أن الفاصل ما بين النموذجين والذي ترك مفتوحاً يعدّ كبيراً جداً، إذاً من حيث الإمكان الخلقي لا توجد مشكلة في أن يعمّر الإنسان طويلاً بشكل يفوق الحدود الطبيعية للعمر الطبيعي، والمسألة هنا لم تطرح بعنوانها معجزة خارج النطاق الكوني، [٥] على الرغم من أنها كانت بإرادة من الله تعالى، وإنما طرحت لتبين قابلية العمر الإنساني ومداه.

على أن هذا الأمر لا يتعلق بالأنبياء فحسب، فهذا الخضر عليه السلام وهو ليس بنبي، وإنما هو عبد صالح بلغ به العمر وما زال، ما يمكن أن يشكل ظاهرة أكبر معمّر في هذه الدنيا من بعد إبليس عليه لعائن الله، فلقد كان في زمن موسى عليه السلام وما زال، والروايات لدى الطرفين تشير إلى أنه سيخرج مع الإمام المهدي صلوات الله عليه، فلماذا لا يُستغرب ذلك؟ وإنما يتم تلقيه بطريقة طبيعية في أبحاث وكتابات الإسلاميين، بينما تقام الدنيا وتكاد لا تقعد كلّما تحدث شيعي عن عمر الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه، والفصل في كلّ هذا الاستغراب والاستقبال في الحالتين لا يعود إلى العلم، وإنما يعود إلى التعصب المذهبي ليس إلا.

فالعجيب أن المعترضين بمثل هذه الاعتراضات يعانون من ازدواجية معايير

---

١ سورة العنكبوت: ١٤ .

٢ تشير بعض الروايات إلى أنه عمّر بعد الطوفان ٣٥٠ عاماً.

٣ سورة النحل: ٧٠ .

٤ سورة الحج: ٥ .

٥ سيأتي الحديث عن حقيقة المعجزة بشكل مسهب في مبحث الاعجاز وعلامات الظهور في الفصل الرابع من الكتاب.

عجيبة في هذا المجال، فهم يقبلون بمثل روايات رووها بأن الأعور الدجال أو المسيح الدجال كان حيّاً في زمن رسول الله صلوات الله عليه وآله، ولربما هو في رواياتهم كان موجوداً قبل الرسول صلوات الله عليه وآله وسيبقى حتى أشراط الساعة، ولا يقبلون أن يمتد عمر الإمام المهدي المنتظر (بأبي وأمي) بأقل من ذلك، وفي الأقل فإن ثمة قصتين لشخصيتين تتداولها أصح الكتب لديهم وهي تتحدث عن شخصية الأعور الدجال!! وكيف تحدّث الرسول صلوات الله عليه وآله معه، أو كيف تحدّث عن الرسول في زمان وجوده؟!

وبإمكان من يراجع قصة ابن صائد[1] والتي تروى على نطاق واسع في كتب القوم، يجد أن علماءهم ما بين مَن قبل بأنه هو الأعور الدجال الذي التقى به الرسول مع صحابته، وبين من بقي متردداً بينه وبين شخصية الدجال المعروضة في قصة الجسّاسة.[2]

---

١ انظر على سبيل المثال: البخاري في صحيحه ٧: ١١٣ - ١١٤، ومسلم في صحيحه أيضاً ٨: ١٩٠ - ١٩٤، وأبا داود في سننه ٣: ٣٢١ - ٣٢٢، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة منها ٣: ٣٦٨، والترمذي في سننه ٣: ٣٥١، وابن حبان في صحيحه ١٥: ١٨٧، والبزار في مسنده ٩: ٣٩٦، والطبراني في المعجم الأوسط ٨: ٢٤٢، وفي المعجم الكبير ٣: ١٣٥، والداني في السنن الواردة في الفتن ٦: ١١٩١، والسيوطي في الديباج على مسلم ٦: ٢٣٩

٢ عرضت قصة الجسّاسة لشخصية وُصفت بأنها هي شخصية الأعور الدجال، وأن الجسّاسة في واحدة من شخصيتيها الأسطوريتين بأنها كانت تبحث عن الدجال ولقيته، ضمن قصة طويلة تجدها مفصلة أو مختصرة في غالبية كتب القوم الحديثية، ومنها: مسلم في صحيحه ٨: ٢٠٤، وقد أشار إليها النووي في شرحه على مسلم في عدة مواضع منها: ١٨: ٤٧ - ٤٨، والسيوطي في ديباجه على مسلم ٦: ٢٣٧ و٢٦١، وأحمد في مسنده في مواضع عديدة منها ٦: ٣٧٣ - ٣٧٤، وابن ماجة في سننه ٢: ١٣٥٥، والنسائي في سننه ٢: ٤٨١، وأبو داود في سننه ٢: ٣١٩ - ٣٢١، والعظيم آبادي في عون المعبود ١١: ٣١٥، وأبو داود الطيالسي في مسنده: ٢٢٩، والترمذي في سننه ٣: ٣٥٥، والمباركفوري في تحفة الأحوذي ٦: ٣٤٤ و٤٢٢، وابن حجر العسقلاني في فتح الباري ١٣: ٢٧٥، والحميدي في مسنده ١: ١٧٧، وابن أبي شيبة في مصنفه ٨: ٦٥٨ و٦٧٥، وابن راهويه في مسنده ٥: ٢٢٠ - ٢٢٢، والضحّاك في الآحاد والمثاني ٦: ٥ . ٦، وابن حبان في صحيحه ١٥: ١٩٤ - ١٩٨، وأبو يعلى في مسنده ٤: ١١ - ١٢٠ و١٢٩، والطبراني في الأحاديث الطوال: ١٢١ - ١٢٣، وفي المعجم الأوسط ٥: ١٢٥، وفي المعجم الكبير ٢: ٥٥ و٢٤: ٣٨٦ - ٤٠٥، وأبو نعيم الأصبهاني في مسند أبي حنيفة: ٢٥٦، والقرطبي في تفسيره ١١: ٤٢، والزمخشري في الفائق في غريب الحديث ٢: ٩٨، والأصبهاني في دلائل النبوة: ٦٧ - ٦٨، وغيرها كثير.

وكيفما يكن فإن الأصل أنهم التزموا بوجود الدجال في ذلك الزمن[1]، والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا: هو لماذا التوقف في شأن ولادة الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه واستبعاد ذلك؟! ما دام أن الشأنين العقلي والنقلي لا يستبعدان إمكانية حدوث هذا الأمر، وما دام أنهم قبلوا لعدو الله الأعظم في تصوّرهم ـ وأعني الدجال ـ أن يعيش كلّ هذه المدة ويبقى مختفياً دونما أي هدف لوجوده، فدوره ـ في الأقل ـ ليس كما هو دور إبليس اللعين، ولكن لوجود إبليس هدف معلوم وغاية مقصودة، أما الأعور الدجال، فلو صحت رواياته فإن دوره في آخر الزمان، فلماذا هو موجود ـ في أقل التقادير ـ منذ قرابة ١٤٣١ سنة، وسيبقى حتى أشراط الساعة وليس الظهور فحسب في زعم هذه الروايات، هذا على الرغم من أن دواعي بقاء ولي الله الأعظم (روحي فداه) بيّنة، ومسألة اختفائه راجحة عقلاً؟!!!

من كلّ ذلك يتبين لنا أن النفي التشكيكي والذوقي ـ إذا أحسنا الظن بأصحابه ـ لم يقدّم أية أدلة مقنعة، بل كان واهن العرى وساقط الحجة، ولا شك أن كثيراً من النفي الذي نقرأه في الكتب كان الموقف المذهبي المعاند لمذهب أهل البيت صلوات الله عليهم ـ حتى في أوضح الواضحات ـ هو المتسيّد على رقعة النافين لمثل هذا الإمكان والمعترضين عليه، وسواء كان موقف النافين ينطلق من نية حسنة أو من نـيّات النصب والعداء لأهل البيت عليهم السلام، فمما لا شك فيه أنّ ما بيّـنّاه يجعله مما لا يمكن أن يكون مورد اعتماد للبحث العلمي الدقيق هنا.

نعم، القضية فيها غرابة من جهة السياق العام للحياة البشرية، ولكن كم من

---

١ من جملة هذه القصص: يروي حنبل بن إسحاق بن حنبل في كتابه "الفتن" عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه أبي بكرة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قوله: يمكث أبو الدجال ثلاثين عاماً لا يولد لهما، ثم يولد لهما غلام أعور، أضر شيء وأقله نفعاً، تنام عيناه ولا ينام قلبه، ثم نعت رسول الله أبويه فقال: أبوه رجل طوال، ضرب اللحم، كأن أنفه منقار، وأمه امرأة فرضاخية طويلة الثديين!!

قال أبو بكرة: فسمعنا بمولود ولد في اليهود في المدينة، قال: فذهبت أنا والزبير ابن العوام حتى دخلنا على أبويه، فإذا نعت رسول الله (ص) فيهما، فقلنا: هل لكما ولد؟ فقالا: مكثنا ثلاثين سنة لا يولد لنا، ثم ولد لنا غلام أعور، أضر شيء وأقله نفعاً، تنام عينه ولا ينام قلبه؛ فخرجنا من عندهما، فإذا به منجدل في قطيفة في الشمس له همهمة، قال: فكشفت عن رأسه، فقال: ما قلتما؟ قال: فقلنا: هل سمعت ما قلنا؟ قال: نعم، إنه تنام عيناي ولا ينام قلبي.

راجع: الفتن: ١٥٠ - ١٥١ ح٤٠ لحنبل بن إسحاق بن حنبل؛ دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٩٩٨.

القضايا الغريبة عن السياق العام يقبل بها الإنسان لأن مقوماتها المنطقية قائمة بشكل متين، وفي القرآن عشرات القصص الغريبة في صورتها المادية الأولى، كعصا موسى عليه السلام، وكملاكات سليمان العلمية في تكليم الطير، وولادة عيسى عليه السلام، ونفس عمر نوح عليه السلام، ناهيك عن فلق البحر وانبجاس الحجر اثنتا عشر عيناً ومطر الضفادع والقمّل والدم على بني إسرائيل، فضلاً عن قضية الإسراء والمعراج، وما إلى ذلك من شواهد كثيرة جداً استعرضها القرآن، والعقدة المستحكمة هنا هو انشداد الإنسان للمنطق المادي والانسداد العقلي والفكري أمام الظواهر المادية، وهو ما أكّد القرآن الكريم كثيراً على تفاهته.

المبحث الثالث

سبل التأكد من ولادة الإمام عليه السلام

يبقى علينا أن نشير إلى ما يمكن اعتماده من آلية للتعامل للتأكّد من ولادة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف بعد أن تجاوزنا المانع العقلي والتشريعي والبيولوجي والتاريخي في أن يكون عمر الإمام طويلاً، وبين أيدينا عدة موضوعات وأسئلة أساسية هنا، وهي:

أولاً: وجوب ولادة الإمام عليه السلام مبكّراً

هل من الواجب أن يولد الإمام صلوات الله عليه مبكّراً؟

وما هي مسوّغات هذا الوجوب لو كان الأمر كذلك؟

وهل كان بالإمكان عدم دفع الأُمور باتجاه غيبة الإمام بعد ولادته، بحيث لا يتسبب الأمر في كلّ هذه الحيرة والغموض، ناهيك عن الأسئلة الكثيرة التي تحفّ بهذا الموضوع؟

إن حديثنا هنا سينصب على البحث في ضرورة أو عدم ضرورة وجود إمام حجةٍ على هذا الخلق من قبل الله تعالى، وهذا سيكون مبنياً على المعطيات القرآنيّة التي تدخل في هذا المجال من جهة، وكذا على ما يمكن تفكيك الإبهام حول ما إذا كانت الحجة الربانية انتهت برسول الله صلوات الله عليه وآله، وإن الإبلاغ الرسولي قد انتهى بإعلان النص القرآني أو لا؟ أم أن تمامية الحجة الربانية لن تكتفي بالنص القرآني؛ لأن الحجة ليست هي قراراً يصدر دونما توفير البيئة الاجتماعية العامة لتأمين تربية على كلّ الصعد على هذه الحجة وما يترتب عليها من التزامات، فالقرارات ربما تفهم من طبقات النخبة، أمّا عامة الناس فإنها تحتاج إلى جهد كبير من أجل أن تستوعب ما يطلب منها، ومن دون هذا الاستيعاب ـ ولو على نحو ارتكازي ـ لا يمكن الحديث عن تأمين هذه الحجة؛ لأن الله تعالى لا يكلّف نفساً إلا وسعها، ومن مصاديق الوسع هو استيعاب ما هو مطلوب على وجه الدقة.

ومن هنا لنا أن نستشعر مدى السخف في تفكير بعض الباحثين والكتّاب حينما يتصوّرون بأن المهمة انتهت بتمام النص القرآني، فلقد تم النصّ واكتمل وهو نص مصان ومعصوم ولا شك، ولكن سرعان ما انتقض على رسول الله صلوات الله عليه وآله، وسورة التوبة شاهدة كبيرة على أن الأُمّة كانت في واد ورسول الله (بأبي وأمي) وكتابه الكريم في وادٍ آخر، أما رزية الخميس التي حصلت بعد سورة التوبة، فلقد كانت خير شاهد على هذا الانتقاض.[1]

وهذا الاختلاف والهوان الذي وَسَم أُمّة الإسلام وتاريخها شاهد على أن الحجة الربانية لم يُعمل بها، في وقت يحس القطاع الأعظم من المسلمين أنهم هم ممثلو هذه الحجة! وكيف ذلك والأُمّة على واقعها المتردي التي هي عليه؟! وهو أمر يتناقض مع تمامية الحجة الربانية التي كفلتِ يأس الّذين كفروا منها، مما يعطينا دليلاً قاطعاً على أن التعامل مع هذا الأمر تمّ بسطحية مبالغة بها إلى حد التعمّد.

ومن الخرف العقلي وسذاجة الوعي بعدئذ أن يقبل المرء الحريص على إسلامه ورسوله الأكرم أن يخضع ويخنع لمثل هذا التفكير، بل لا بُـدّ من التفتيش عن المؤسسة التي تسهر على تجسيد هذا النص، وتعمل على تكريسه في الواقع الاجتماعي بكلّ منتدياته وآفاقه، وتدافع عنه وتصونه، ومن نعم الله أن الوعي المعاصر ما عاد ليتهاون مع هذه الأُمور، فهو يدرك أن الدساتير والقوانين والمشاريع السياسية إنْ لم تكن لها مؤسستها التي تحميها فستبقى حبراً على ورق ليس إلا، أو تكون مطية بيد المتحكّمين بمقاليد الأُمور ليطوّعوها كيف يشاؤون وأنّى يشاؤون، وقصة ما بعد وفاة الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله مصداق واضح جلي على صحة ذلك.

و لن أتوسع هنا كثيراً في ذلك إلا بمقدار حاجتنا للإجابة عن أسئلة البحث المتعلّق بوجوب إطالة عمر الإمام صلوات الله عليه، تاركاً التفصيل لكتبنا الأُخرى[2]

---

١ تحدّثنا في كتابنا: رزية الخميس وآهات رسول الله صلى الله عليه وآله، بشكل مسهب وموسع عن رزية الخميس التي يرويها البخاري ومسلم وكلّ كتب القوم، والتي تم الإعلان فيها عن رفض سُنّة الرسول صلوات الله عليه وآله، من خلال إعلان عمر بن الخطاب بكفاية كتاب الله عن طلب رسول الله (بأبي وأمي) حينما نادى: حسبنا كتاب الله!.

٢ يراجع مبحث إمامة الوجود في كتاب: "الإمامة ذلك الثابت الإسلامي المقدس"، ومبحث ارتباط الوجود الكوني بوجود المعصوم عليه السلام في كتابنا: "الولاية التكوينية"، وكذا كتابنا: "الخلافة الربانية".

لذا سأكتفي بالتوقف وبشكل مختصر وسريع في البداية عند بعض الآيات القرآنية الكريمة ذات الدلالة الخاصة في هذا المجال، وسأنتقل بعدها للحديث عن جانب من دلالات السُنّة النبوية الشريفة، لكونها الأصل الثاني من أُصول التشريع، وباختصار شديد أيضاً، وهي:

أولاً: معطيات القرآن الكريم

أ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴿٣٠﴾﴾.[1]

ففي هذه الآية تم طرح مبدأ خلافة الله تعالى، ومن خلال ما نلاحظ من إرادة الله تعالى لجعل خليفة له على هذه الأرض، يمكننا أن نشعر بأن الله سبحانه وتعالى يعدّ وجود هذا الخليفة ضرورة، ولذلك بادرت الملائكة لإبراز هواجسها وطموحاتها في نفس الوقت، فقد طرحت مسألة الفساد في الأرض كهاجس رئيس، وبالنتيجة فإنها أشارت إلى أن حكمة الله تعالى إنما توخت عدم وقوع هذا الفساد على هذه الأرض ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ ، وإن الخليفة يجب أن يكون بمواصفات عالية من العبودية لله لكي يستطيع أن يتحمل هذه المسؤولية، مما دعاها لكي تطمح بالقيام بهذا الدور لأنها رأت أنها مؤهلة لذلك بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ .

ولكن الجواب الإلهي عن تلك الهواجس والطموحات، كان جواباً مثيراً، فلقد كان من صنف الجواب المسكت!!﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، والجواب المسكت طبيعته إما أنه ينطلق من جهل المجيب فيعمد لجواب مسكت، وهذا محال على الله تعالى، أو أن الجواب جاء ليشدّ الانتباه ترقباً لزمان الجواب الحقيقي، وهذا ما حصل بالفعل، فقد كانت النتيجة أن الملائكة سحبت هواجسها وطموحاتها دفعة واحدة حينما قالت: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .[2]

ولست هنا بصدد الحديث عما علمته الملائكة بالشكل الذي نجد تراجعها السريع عما سبق لها أن طرحته، ولا لكي نسلط الضوء على طبيعة الأسماء التي عُرضت عليها، وإنما في صدد توجيه الانتباه إلى السر الذي دعاها إلى الإعراب عن خوفها على فساد الأرض من جهة، وعلى رغبتها الجادة في تولّي مثل هذا الأمر بنفسها!!

---

١ سورة البقرة: ٣٠ .

٢ سورة البقرة: ٣٢ .

من الواضح أن الآية الكريمة كانت تشير إلى ثلاثة أُمور متلازمة، وهي: وجود خليفة لله على هذه الأرض، والعمل على منع الإفساد في الأرض، ومواصفات المستخلَف، وهذه حالات دائمة لا يمكن القول بأن وجود إحداها يمكن أن يكون ظرفياً لوقت معين ثم ينتفي، وإنما يتلازم وجود الثلاثة.

والكلام الآن في هوية هذا الخليفة في يومنا هذا؟

من الطبيعي أن كثير من المفسرين والمتكلّمين توقفوا عند طبيعة هذا الخليفة، وذهب الأغلب منهم إلى أن المقصود به هو الإنسان بصورة عامة، ولكن هذه الإجابة لا تعالج أصل الموضوع لو بقيت على عموميتها، فمن هو هذا الإنسان الذي يستخلفه الله نيابة عنه على مخلوقاته؟

إذا كان الحواب عن عموم الإنسان، فإن الآية تردّ على ذلك بوضوح، فمن بين فئات هذا الإنسان من شكت منه الملائكة سلفاً، فهو الذي يفسد فيها ويسفك الدماء!!

وإذا كان الجواب سيتعلق بنمط خاص من هذا الإنسان، فإن الآية الشريفة تطرح نموذجاً عالياً من المواصفات المطلوبة له، لأن تنـزيه مثل الملائكة وتسبيحها وتقديسها لم يفسح المجال لها لكي تحصل على شرف التكليف الإلهي لها بتنفيذ هذه المهمة، مما يعني أن المطلوب هو تنـزيه وتسبيح وتقديس أعلى مما كانت عليه الملائكة، وهذا ما يعني أننا بحاجة لنموذج فريد من العباد لكي يتحملوا القيام بهذه المسؤولية، وأن لا يكون وجود هذا النموذج الفريد منحصراً بوقت معين، وإنما يستوعب كلّ زمان عملية الاستخلاف، مما يستلزم وجود من يتولى هذه المهمة دوماً؛ لأن عدم وجوده في فترة يعني انتفاء وجود الاستخلاف، مما يعني انتفاء وجود الأرض؛ فتأمل!!

وليس من باب الصدفة أننا حين نفتش في خفايا هذه الآية الشريفة نجد أن النص على الخليفة، وأن يكون هذا الخليفة معصوماً هو من مستلزماتها الأساسية، ثم بعد ذلك لنلتقي بنفس المواصفات السابقة التي أشرنا إليه في مباحث الآيات السابقة.

ب: قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ .[1]

١ سورة الأحزاب: ٧٢ .

وهذه الآية بدورها تشير إلى نفس ما أكّدته سالفتها، فثمة أمانة عُرضت من قبل الله مباشرة، فمن الذي التزم بها في زماننا هذا؟

ولا أقصد هنا البعد التكويني في التزام الأمانة، فكلّ إنسان تعلقت به هذه الأمانة، ولكن كلامي في طبيعة البعد التشريعي، أي في مَن حمل هذه الأمانة بشكل يليق مع العرض الرباني الذي اشترط أن لا يكون الحامل لها ممن وُسم بالظلم أو الجهل!! ولا يمكن تصور أن الالتزام بهذه الأمانة ظرفي، أي لوقت محدد، وإنما هذا العرض هو عرض تكويني يتلازم مع وجود الأمانة، أي أن وجود الأمين المؤتمن لازم لوجود الأمانة، فمن له صلاحية هذا الحمل في زماننا هذا؟

ولا يحتاج المرء إلى عسير جهد كي يعرف أن ذات المواصفات التي تعلقت في الآية الأولى تتعلق هنا أيضاً، بالرغم من إن الخلافة أعم من الامانة، إذ لا خلافة من دون أمانة، ولكن النص مطلوب على مَن حمل هذه الأمانة، لأن المعروض عليه اقترن بصفة العصمة (الخلو من الظلم والجهل والخطأ والنسيان... إلى آخره)، مما يستلزم أن يشير إليه نفس المؤتمِن (بكسر الميم الثانية)؛ فلا تغفل!!

إن الآيتين الكريمتين أشارتا بمعية كثير من الآيات القرآنية الكريمة إلى وجود مبدأ قرآني يتعلق بالتلازم بين وجود الحجة الإلهية ووجود الكون، إذ إن انتفاء الحجة يؤدي إلى انتفاء الكون، وذلك لتكون الحجة الإلهية بالغة كما وعد الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [1].

ح: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [2].

ثمة إشارة طريفة في هذه الآيتين الكريمتين لكلّ ما أشرنا إليه من قبل[3] وبعيداً عن تفاصيل ما في الآيتين الكريمتين من مباحث ومطالب، لكن ما يهمني هنا هو

---

١ سورة الأنعام: ١٤٩ .

٢ سورة الحج: ٨٧ و ٨٨ .

٣ انظر للتفصيل: كتابنا: "مَن عنده علم الكتاب"، وفصل الإمامة الشاهدة في كتاب: "الإمامة ذلك الثابت الإسلامي المقدّس".

كلامه تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فمن هو المقصود بهذه الشهادة على الناس من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟

ولا يخالجن خلد أحدٍ بأن المعنيّ بذلك هم المسلمين عموماً؛ لأن الآية الكريمة لها شأن أبعد عمقاً من ذلك، فالرسول صلوات الله عليه وآله شاهد على جميع الأُمم، فلماذا خُصّصت شهادته هنا على هؤلاء بعد أن عُمّمت على غيرهم، وتركت شهادة هؤلاء على الناس لتكون حاكمة عليهم؟

وبلحاظ أن الشاهد لا بُدّ من أن يكون أميناً في شهادته، فالقول بأن المقصود بهؤلاء الشهداء هم المسلمين عموماً خطأ محض.

ولكن أن يَعُدّهم القرآن الكريم في هذا المقام ـ أي الشهداء ـ، فإن خصوصيتهم على مَن سواهم هي في عصمتهم عن الإخلال بشؤون الشهادة، مما يترتب عليه أن يلحق بهم النصُّ على شخصياتهم، وكان القرآن أكثر صراحة في الإعراب عن شخصيات هؤلاء الشهداء؛ لأنه أعطاهم حدّين:

أولاً: في كونهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله على نبينا وآله وعليهما.

وثانياً: في كونهم من اللاحقين بعصر شهادة الرسول صلوات الله عليه وآله.

وبلحاظ ديمومة الشهادة، فمَن الذي سيلي الرسول (بأبي وأمي) في شهادته على الأُمم في زمننا هذا في الأقل؟

بإمكان المرء أن يتذكر هنا جانباً من أقوال الرسول صلى الله عليه وآله عن المهدي المنتظر عجل الله فرجه، التي ذكرناها من قبل، فماذا سيجد؟ وماذا ستعني له عندئذ كلمة: المهدي من عترتي؟ أو: من أهل بيتي؟ أو: من وُلد فاطمة؟

المنصف الطالب للحقيقة وحده هو من سيكون موفقاً للجواب!!

د: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.[1]

لا أعتقد أن الآية الكريمة بحاجة إلى توضيح في توجهات دلالتها على وجوب وجود حجة هادية من الله لكلّ قوم، بالرغم من إن أغلبية المفسرين مروا عليها

---

١ سورة الرعد: ٧ .

سراعاً، وكأنهم يخشون من فضح النهايات الموضوعية والمصداقية لدلالاته ذلك!، ولا يحتاج المرء إلا أن يسائل نفسه: هل أن الزمن الذي نعيشه مشمول بهذه الآية؟ فلو أنعم بالجواب، فعليه أن يبحث عن هادي زمانه! ولكن شريطة أن يتأمل كثيراً في طبيعة هذا الهادي، فليس كلّ من تكلّم بالهدى هو من الهداة، وإنما نحن في صدد رجل استوعبت شخصيته كلّ حركة الهداية، وهذا ما يعني حتمية عصمته؛ لأنها ضمان ديمومة عملية الهداية، وحين يكون الأمر بهذه الصورة فإن من المحتّم آنئذٍ أن يتم النصّ عليه؛ لأنه سيكون مكلّفاً بأداء استحقاقات الإنذار بين يدي الرسول صلوات الله عليه وآله، فالهداية هنا ليست حركة مستقلة عن الإنذار الرسولي، بل هي لازمة لتحققه.

ثانياً: معطيات السُنّة النبوية الشريفة:

من خلال السُنّة النبوية ـ المجمع عليها بين الفريقين ـ يمكن لنا أن نتوصل إلى نفس ما توصلنا إليه في المبحث المتقدم في شأن القرآن الكريم، وهذا أمر طبيعي؛ لأنهما يصدران من منهل واحد، فالرسول الأمين صلوات الله عليه وآله لا ينطق عن هواه، ولا يتكلّم كما يصوّره بعض كذبة الرواة بأنه يقول في الغضب والرضا كما يقول بقية البشر في غضبهم ورضاهم، وليس هذا فحسب، بل هو (بأبي وأمي) لا يُمضي شيئاً أو يقرّه إلا بناءً على مقتضيات الوحي؛ لأنه ـ ببساطة ـ كما وصفه القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾ .[1]

ولن أتوسع في الحديث هنا، فمجال التوسع ليس في مثل هذا الكتاب، ولكن سأقف عند بعض محطات السُنّة النبوية التي لها دلالة خاصة هنا، ولا أقصد الأحاديث التي تتناول موضوع الإمام عليه السلام بشكل مباشر، فهو أمر سيأتي لاحقاً، ولكني أقصد الأحاديث التي أشارت إلى ضرورة امتداد الحجة الربانية وديمومتها ما دامت السماوات والأرض.

فالحجة ليست مجرد كلمة تقال أو بياناً يلقى، وإلا ما وجدنا الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله يعمد لتكوين الدولة الراعية والحامية للمشروع الرباني، وهكذا الأمر ببقية المؤسسات، كمؤسسة الزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمنحى اللاربوي في التعاملات المالية وسائر المنظومة الاجتماعية

---

١ سورة النجم: ٣ - ٥ .

والقانونية، ويضحي ـ كلّ ما عرفنا من تضحياته الجسام وما عرفنا إلا القليل منها ـ من أجل السهر على ذلك، وحينما استرخص حياته في معاركه وفي سائر ما قام به في قبال أعداء الدين من الكفار والمشركين والمحاربين من أهل الكتاب، فإن هذا الاسترخاص الذي دعاه الله سبحانه وتعالى إليه، ودعا هو (بأبي وأمي) أصحابه وأتباعه إليه، لا يفهم بأنه كان لمجرد النصوص الربانية التي جاء بها، وإنما لأنه كان مصرّاً على صيانة ذلك بالمؤسسة الراعية والحامية لهذه النصوص وما تروم إقامته من نظم في مناحي المجتمع كافة.

وهذا هو ما فهمه منه كلّ أعداء الدين، ولو كان غير ذلك ما كان ليقلقهم النص حينما يجرّد من السيف الذي يقاتل دونه، ولم يكن ليربكهم الدين حينما يجرّد من مؤسسته التي تجسّده، والعقيدة التي تصوغ فكر المجتمع ومعنوياته، وذلك ما نلاحظه تماماً كيف أن كثيراً من الأنظمة الطاغوتية والعلمانية عملت وما زالت تعمل بنفسها على طباعة القرآن الكريم والحديث النبوي، ولكن بعد أن عرفت أن المصحف الشريف والحديث قد بات مجرداً من المؤسسة التي تجسّد مفاهيمه وقيمه على شكل منظومات قيمية واجتماعية وسياسية وتشريعية.[1]

١ يشير المستشار طارق البشري - بكلام دقيق - إلى عدد من مظاهر تخلف الواقع الإسلامي ونمو الواقع العلماني في المجتمع المصري على سبيل المثال، وأمثلته تصلح لكلّ مجتمعاتنا، فيقول - وهو يتحدث عن نظام الأسرة كمثال -: إن الفهم الاجتماعي لدور مثل هذه المؤسسات يقتضي إدراك عناصر الدعم أو الإضعاف لها من الوجه الاجتماعي، ولا يكفي في هذا الشأن بيان الأحكام الشرعية التي تنظمها، ولا يكفي الوعظ بأهميتها، إنما يتعين أن نتفهم تأثيرها وتأثرها بعوامل الإنتاج مثلاً، وأوضاع السكن والمعيشة، واقتراح الأوضاع التي تدعمها أو تضعفها عند الانتقال من الريف إلى المدينة مثلاً، أنّ سد الذرائع أو فتحها لا يتعلق في ظني بتكاليف فردية فقط، ولكنه منهج يقوم في مجال علوم الاجتماع بمهام اجتماعية جديدة.. وإنّ غياب هذا الفهم الاجتماعي لعمل المؤسسات الاجتماعية التقليدية التي يحضّ عليها الإسلام - شرعية أو حضارية - قد ترك المجال للمذاهب العلمانية أن تنشط فيها وحدها تقريباً، وكان الإسلاميون يُفاجأون دائماً بأن مؤسسة اجتماعية مما أشرت إليه قد ذبلت أو تفسخت، ويُفاجأون بأنها قد تخطاها الواقع، ويصعب كثيراً إنكار ما جرى من تباين بين أوضاع الواقع وبينها، ولا يفسر ذلك إلا أن الفكر الإسلامي الاجتماعي لم يفهم (كذا) الواقع الاجتماعي جيداً، ولم يستطع التحكم في حركته، أو التأثير فيها، أو على الأقل توقع التحرك الاجتماعي في اتجاه دون اتجاه.

انظر: الحوار الإسلامي العلماني: ٤٠ - ٤١، طارق البشري؛ دار الشروق. بيروت ١٩٩٦، ط١ .

أقول: وفي الواقع أن الفكر الإسلامي الاجتماعي لم يخطئ الفهم كما أشار إليه الكاتب؛ لأنه

وأعتقد أن هذا الأمر الذي عملت كلّ الأنظمة التي تعاقبت من بعد الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله على تعميق وجوده في المجتمع، حتى بات المجتمع يتفنن في كيفية حفظ النص في الذهن، من دون أن يراعي أي جهد يبذل من أجل تكريسه في أرض الواقع، بل ربما تمرّد على كلّ من يريد أن يحفظ هذا النص في الواقع السياسي والاجتماعي، ونظرة سريعة على مجريات الأحداث تكشف أن جرح القرآن الأكبر وألم الرسول (بأبي وأمي) الأعظم كان يتمثل في تسطيح وعي أُمّته، والسهر الكبير الذي تم من أجل أن تبقى سادرة بالجهالة التي وضعت على وعيها، ولهذا تم تجليل حافظ النص الذي يقرأه لمجرد القراءة، ولكن حافظ النص الذي كان يسهر على تطبيقه كان يُقتل أو يعزل اجتماعياً بأشكال العزل كافة، وأهونه أن يسجن ويعذّب!! وأعدّ هذه ـ بحق ـ إحدى أهم الجراحات الكبرى التي أنهكت هذه الأُمّة وعملت على وهنها وتوهينها.

فكر معصوم ولعل بيانه قد خانه، وإنما أخطأ القائمون على فهم هذا الفكر الواقعَ، وفي ما خلا هذا الإشكال فإن كلام المستشار البشري دقيق على المستوى الاجتماعي والحضاري، ولو كان كذلك فهل لنا أن نتساءل: إذا كانت مؤسسة الأسرة قد تضعضعت في داخل مجتمع ما زالت كثير من بيئته الفكرية ومنظومته العقائدية تتكئ بطريقة أو أخرى على الإسلام، وتنتصر عليها العلمانية بسبب إمساكها بقدرة المؤسسة القائمة عبر الدولة والإعلام والتربية، وما إلى ذلك مما أفلح العلمانيون بالإمساك به، فكيف لعمري يمكن أن نتصور تسامح الرسول صلوات الله عليه وآله في شأن ذلك وهو في مجتمع ما زالت رواسب الجاهلية هي الأصل فيه؟!

ويمكن لمراجعة بسيطة لسورة التوبة في تقسيماتها للأوضاع الاجتماعية التي كان مجتمع الصحابة قد توزع عليها عشية احتضار الرسول الأكرم ان تفصح عن ذلك، ومع انه ما زال كثير من العشائر والقبائل تحمل في دواخلها مشاعر عنيفة للثأر من هذا الدين، وفيه كثير مما يغري الطامعين واللاهثين وراء الدنيا التي يرونها عبر تحاليل بسيطة لمآل الأمور الجارية.

وعلى أية حال فإن ذلك الواقع فيه كثير مما يجدر أن يأخذ الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله حذره منه، ولهذا لا غرابة من أن يتكرر قوله عن الهدى الدائم والضلال الدائم في أواخر أيامه، وفي كلّ الأحوال كانت هذه الأقوال ترتبط بالتمسك بالمؤسسة التي اختارها، فلقد ورد لفظ: (ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً) في عدة أحاديث متفق على أن الرسول صلوات الله عليه وآله قالها في أواخر أيامه، كحديث الثقلين، والغدير، ورزية الخميس، وكتاب رسول الله في آخر أيامه.

ولكن لعمري حينما حصلت الأمة على كلّ هذا الضلال، والذي يعبّر عنه تيهها المعاصر عن هدى الرسول (بأبي وأمي) بكلّ وضوح، فهل ثبت لدى الجميع أن الأُمة قد تنكبت عن خطى الرسول التي أشار إليها؟! أم ما زال بعضهم راكباً رأسه ليقنع نفسه وغيره بأن الأُمة على الهدى، على الرغم من أن أذل خلق الله قد أذلها وأسامها الذل والصغار؟!

وبناءً عليه، فإن ما نحن بأمسّ الحاجة إليه حين التعامل مع النص النبوي، هو أن نفهمه ضمن الغايات والمناهج الرسولية، لا كما يحلو لنا أن نفهمه، فالحديث النبوي كلّ لا يتجزأ، ولا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يتناقض[1] ولا يعقل أن يفسّر النص بعيداً عن المبتغيات الرسولية الممنهجة ضمن برنامج الوحي الإلهي ونصّه المقدّس، كما ولا يعقل أن لا يبحث عن خطط الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله ومناهجه وأهدافه ضمن أقواله وأحاديثه وسُنته.

وعليه، فإن التعامل مع السُـنّة الشريفة بعد أن يحرز ثبوت صدورها عن مشرّفها صلوات الله عليه وآله، يجب أن يتم وفق دقة متناهية وحرص بالغ، ولا يصح ما حاول بعضهم أن يهرب منه بإيجاب عدم السؤال عن الحديث إن لم يفهم! كما فعل أبو حامد الغزّالي في كتابه "**إلجام العوام عن علم الكلام**" قال: إن كلّ مَن بلغه حديث من هذه الأحاديث يجب عليه سبعة أُمور: التقديس، ثم التصديق، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساك، ثم الكفّ، ثم التسليم لأهل المعرفة.. وأمّا السكوت: فأن لا يسأل عن معناه، ولا يخوض فيه، ويعلم أن سؤاله عنه بدعة، وأنه في خوضه فيه مخاطر بدينه، وأنه يوشك أن يكفر!! لو خاض فيه من دون أن يشعر... وأمّا الكفّ: فأن يكفّ باطنه عن البحث عنه والتفكّر فيه.[2]

بل الحق هو ما يجب على كلّ مسلم أن ينصت لحديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ويبحث عن كلّ مداليله، ويحاول أن يتعرف كلّ حيثياته، فإن لم يستطع ذلك بإمكاناته العملية الذاتية فلا أقل من الذهاب للسؤال ممن له معرفة بذلك، أما ادّعاء بدعة السؤال، وإبلاغ ذلك حدَّ الكفر!! فلعمري ما ذلك إلا عين الابتداع، وإلا لم دعانا الله تعالى إلى التدبر والتفكر؟!

---

١ من المجزوم به أني أتحدث هنا عن الحديث النبوي الصحيح، وليس عن كلّ ما يروى عن الرسول الأكرم صلوات الله عليه وعلى آله، فكثير مما يروى عن النبي (بأبي وأمي). وللأسف الشديد. عار عن الصحة، أو أنه منقول بالمعنى، مما يعني إمكانية وقوع الخلل فيه، أو أنه منقول بفهم الراوي، وهو ليس بدقيق الفهم، أو أنه مقتطع الأجزاء، أو أنه تجميع ما بين نصوصٍ مختلفة رتبها الراوي بطريقة تتناسب مع حفظه لا مع طبيعة النص، وهذه أُمور وغيرها أسست لها سياسة منع التدوين للحديث النبوي، التي عمل بها الخليفة الأول واستمرت حتى زمن عمر بن عبد العزيز، وقد تحدثنا بتفصيل عنها في بحثنا: محاصرة السُنّة النبوية وتطويعها؛ فراجع.

٢ إلجام العوام عن علم الكلام: ٤ – ٥؛ محمد بن محمد الغزّالي، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٩٩٨.

إني أؤكد أن التعامل مع الحديث النبوي الشريف يجب أن يتم بناء على أساس أن الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله يقصد كلّ حرف فيه، وأن كلّ كلمة فيه لا تلقى على عواهنها، وإنما هي مفردة أساسية من مراد الرسول صلى الله عليه وآله، وإنّ كلّ الأحاديث تنتظم في هدفية خاصة يكمل بعضها بعضاً، ويترابط بعضها مع بعضها الآخر دون أي تناقض، ودونما أي عبثية في القول، وإنّ كلّ ذلك يدخل في نطاق الوحي المعصوم، ووفق ذلك سنحاول في مبحثنا هذا أن نتعقّب الالتزامات التي تترتب على الأحاديث؛ كي لا نقع في مطبّ الجدل المذهبي، فهذه الأحاديث مثلها مثل أي شأن آخر لها التزامات، ومن غير المعقول أن يقبل الإنسان الحديث ولا يقبل بالتزاماته واشتراطاته!!

وفي الواقع إن الأحاديث الشريفة التي لها دلالات كبيرة في ما نبحث عنه كثيرة جداً، ولكن سأكتفي هنا بذكر بعضها وبمقدار ما تكوّن لنا صورة معطيات السنة الشريفة في موضوع بحثنا، وأجد ان من جملة الأحاديث التي تتعلق بموضوعنا آنف الذكر ما يلي:

أ: **حديث الثقلين**: لا أريد هنا أن أدخل في تفاصيل حديث الثقلين من حيث سنده وثبوته ـ وهو متواتر على أي حال لدى الطرفين ـ، وكلّ ما فيه من فقه الدلاله، ولا عن حيثياته وطبيعة المواقف التي اتخذت منه، فلقد استوعب عدد كبير من الباحثين ذلك بالتفصيل، وأحيل المستزيد إلى كتابنا "**عصمة المعصوم عليه السلام**"، فسيجد كثيراً من هذه الأبحاث قد تم بحثها بشكل مستفيض[1] ولكن كلّ ما يهمني إنما هو طبيعة الدلالة الكبيرة التي تحملها كلمات الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله في هذا الحديث لبحثنا هذا

فوَفق النص الذي نقله الحافظ محمد بن عيسى بن سروة الترمذي في سننه المعروفة باسمه بروايته عن زيد ابن أرقم: "إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علَيَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما"

قال: هذا حديث حسن غريب.[2]

---

١ عصمة المعصوم عليه السلام وفق المعطيات القرآنية: ١٩٠ - ٢٧٨، وقد أخرجنا هناك طرقه ومصادره وألفاظه بشكل تفصيلي.

٢ سنن الترمذي ٥: ٣٢٩ ح ٣٨٧٦ .

وكذا ما رواه الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري في "**المستدرك على الصحيحين**" وهو يتحدث عن حديث الغدير: "إني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، ثم قال: إنّ الله مولاي، وأنا مولى كلّ مؤمن، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: مَن كنت مولاه فهذا وليه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه".

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بطوله[1]؛ وقد أيّد الذهبي صحّة الحديث.[2]

وعلينا هنا أن نحلل الحديث..

فهو (بأبي وأمي) يتحدث هنا أولاً عن تركة، وهذه التركة مقرونة بالهدى الدائم، بمعنى أن هذه التركة لا توصف بالثروة المادية، فالإنسان لا يترك ثروته المادية لكلّ الناس، والأنبياء صلوات الله عليهم ليسوا استثناء من ذلك، وما روي من أن الرسول صلوات الله عليه وآله قال: إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث؛ لو صحَّ فهو ناظر إلى هذه القضية بالذات؛ لأنّ الإرث المادي الشخصي لعوائل الأنبياء عليهم السلام أقرّه القرآن الكريم بوضوح بقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُۥدَ﴾[3]، ولا يجوز ـ بأي شكل من الأشكال ـ التحدث عن تناقض بين القرآن الكريم والسُنّة النبوية الصادقة المصدّقة[4]، كما أنه لا معنى للإرث المادي مع مسألة الهدى الدائم.

---

١ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٩، وضمير يخرجاه عائد إلى البخاري ومسلم.

٢ تلخيص المستدرك للحافظ الذهبي، وهو مطبوع في هامش المستدرك، ومعلوم أن موافقة الذهبي للحاكم ترقى بالحديث لدى القوم إلى مراتب الصحاح.

٣ سورة النمل: ١٦ .

٤ وهنا قد يتحدث بعض مبتدعة القول بأن هذه الآية نسختها السُنّة، ولعلهم يستندون إلى ما فعله الخليفة الأول مع الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، أو يحاولون بذلك تسويغ فعله لمّا اغتصب أموال الزهراء صلوات الله عليها في فدك وغيرها، وهو أمر فصّلنا الحديث عنه في كتابنا: "**فاطمة الزهراء صلوات الله عليها فريدة الدهر**".

ولكن هناك أدلة عدة على فساد ذلك القول، فمن جهة لم يتحدث أحد ممن يعتد بهم بنسخ الآية، وعلى تقدير نسخها وصحة ذلك فسنجد عندئذ أن أبا بكر وزوجات النبي صلوات الله عليه وآله قد ارتكبوا مخالفات كبرى في هذا المجال، فلو صح زعمهم هذا فلماذا تم تمليك بيت الرسول صلى الله عليه وآله لزوجاته، على الرغم من أن العقار لا يملك بالإرث للزوجة؛ هذا من جهة.

ومن جهة أخرى كان على أبي بكر أن يأخذ من فاطمة الزهراء عليها السلام ممتلكات بيتها مما

ثم هو صلى الله عليه وآله يتحدث ثانية عن اقتران الهدى الدائم بالتمسك بهذه التركة، مما يعني أن التركة متعلقة بشرعةٍ ومنهاج، وأن التمسك بهذه التركة يبقى ثابتاً من ثوابت الهدى الدائم إلى يوم القيامة، وهو دليل التمسك بهذه الشرعة والمنهاج، وأي افتراق عنها يؤدي إلى الضلال الدائم.

وبالنتيجة، تكون هذه التركة هي الحجة الربانية الملقاة إلى الناس من بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله، ووفقها يتم حساب الناس وجزاؤهم، فلو قدّر لبني إسرائيل أن يعلّق إيمانهم على قولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾ [1]، أو كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [2]، فكيف لا يعلّق إيمان الأمّة على تركة توصف بهذه المواصفات العظيمة وفيها كلّ هذه الدلالات الخطيرة؟!

ثم يشير (روحي فداه) إلى أن التركة ذات شقّين، أحدهما حبل ممدود بين الأرض والسماء، وهو القرآن الكريم وإطاره وسوره وعصمته وحفظه قد كفلت في عهد الرسول صلوات الله عليه وآله، ولكن العترة لم يتحدث عنها بمثل هذا الحديث، مما جعلها مصداق التركة الاجتماعي، مع تشديد القول بأن العترة والقرآن لن يفترقا حتى يوم القيامة، يوم الورود على حوضه (بأبي وأمي)، واستفزاز وعيهم في شأن كيفية التعامل مع هذه التركة.

ولو قدّر أن التعامل الظاهري مع النص القرآني يتمثل بتعاهد القرآن والالتزام بآدابه، فإن التعامل الحقيقي معه لا يمكن أن يتم بالاكتفاء بذلك، وإنما لا بُدّ من وجود المصداق الاجتماعي الذي يمثّل هذا القرآن، ولهذا جاء التأكيد على العترة في التزامها بالقرآن بأنهما لن يفترقا حتى يردا على حوض الرسول صلوات الله عليه وآله.

أعطاه النبي ونحلها إياه، فلو صح أخذ ما في يدها من مزارع العوالي وفدك ومما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب بعنوانها أموالاً تدخل في أملاك الدولة، فمعناه كلّ ما نحله الرسول مما دقّ أمره وصغر شأنه فإنه يدخل في هذه الأموال، وهذا الأمر يدخل فيه خلق كثير من الصحابة الّذين وهبهم أو نحلهم الرسول صلوات الله عليه وآله، ولكنهم لم يجردوا أحداً من ماله إلا فاطمة الزهراء صلوات الله عليها؛ لشأن لا يخفى على حصيف! مما يثبت بطلان ما زعم هؤلاء؛ فلا تغفل!

وأعجب ما في الأمر أن يقال: إن السُنّة تنسخ الكتاب الجليل، وما كانت السُنّة إلا شارحة ومبيّنة فكيف تكون ناسخة؟!!

١ سورة البقرة: ٥٨ .

٢ سورة البقرة: ٢٤٩ .

وبالدلالة الالتزامية، فإن هذه التركة ـ الكتاب والعترة ـ هي ما سيبقى بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله إلى يوم القيامة، فهل من حقّنا أن نفتش عن مصاديق ذلك؟ ولو فتشنا عن مصاديق ذلك فهل سنصل إلى قناعة بأن أعمار هؤلاء يجب أن تكون ممتدة بمجموعها إلى يوم القيامة؟ وإلا كان حديث الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) غير دقيق!! وحاشاه من كلّ ذلك!!

إذن كلّ كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليس مجرد كلام تجريدي، لا علاقة له بواقع الحجة الربانية والتزاماتها واحتياجات عملية تبلغها، وإنما يبتنى بالضرورة على أساس وجود مصداقي وموضوعي لهذه التركة ـ بعنوانها الحجة الربانية من بعد الرسول صلوات الله عليه وآله ـ أمام الأمّة؛ لكي تتم مقاضاة الأمّة ومحاسبتها والشهادة لها أو عليها، وهذا الوجود ليس افتراضياً، وإنما هو وجود اجتماعي تاريخي تحقق من بعد الرسول بأبي وأمي، ودلائل ذلك موجودة حتى في كتب الجمهور، وما حديث الحوض إلا أحد هذه الدلائل..

فعن أبي هريرة، عن الرسول صلوات الله عليه وآله، قال: بينا أنا قائم فإذا زمرةٌ، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلمّ! فقلت: أين؟! قال: إلى النار والله! قلت: ما شأنهم؟! قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى! ثم إذا زمرةٌ حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلمّ! قلت: أين؟! قال: إلى النار والله! قلت: ما شأنهم؟! قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى! فلا أراه يخلص منهم إلا مثل هَمَلِ[1] النَّعَم.[2]

وسؤالنا الكبير هنا: من هو هذا الرجل الذي يخرج بين رسول الله والقادمين عليه من أصحابه وأمته؟[3] فهو هنا آمِرٌ، بدليل قوله: هلمّ! وهو هنا قاضٍ، بدليل قوله: إلى النار والله! وهو هنا شاهد أمام رسول الله صلوات الله عليه وآله على أُمّته، وشهادته على الأُمّة بدليل قوله: إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى! وهذه الشهادة تدلّ على علم تفصيلي بها، وحديث الرجل في يوم القيامة دليل على أن له شأنية عظمى، وإلا مَن يمتلك القدرة على الكلام يومذاك؟! وهو لا يتكلّم فقط، وإنما يحاسب ويحكم ويأمر!!

---

١ همل النعم: شواردها أو مهملات الإبل لجرب أو عرج مما يهمل، بمعنى أنه لن يبقى من هؤلاء إلا القلة!!

٢ البخاري ٧: ٢٠٨ .

٣ فصلنا الحديث عن ذلك في بحثنا: من هو هذا الرجل؟

وكلّ ذلك يجري أمام الحوض، ذلك الحوض الذي قال الرسول صلوات الله عليه وآله عنه بأن العترة لن تفترق عن الكتاب حتى يردا عليه، وحديثه يوم القيامة بهذه الطريقة دليل على عصمته؛ لأن القرآن لا يعطي حق الكلام يوم القيامة للروح أو الملائكة ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ .[1]

ومن الواضح أن الروح أو الملائكة لا يقولون إلا الصواب، مما يجعل المقصود غيرهم من المخلوقات التي أعطيت خيار الصدق والكذب وكانت مدار التكليف الشرعي وإلا لَما وضع الاستثناء، وهل ترى بعدئذ أن ثمة تداخل بين قول رسول الله: "فانظروا كيف تخلفوني فيهما؟!" وبين نتائج حديث الحوض المطروحة هنا؟

ومن بعد كل ذلك هل لك أن ترى أن هذا الرجل هو من نفس الصنف الذي عبّرت عنه الآية القرآنية الكريمة في سورة الحج: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [2]؟

فشهادته هنا هي عين شهادته المشار إليها في خبر البخاري المتقدم، وبالتالي هل يعني لك شيئاً أن يتحدث القرآن الكريم عن جهة اجتباها الله تعالى تنتمي إلى أبيها إبراهيم عليه السلام، وتكون شاهدة لرسول الله على الناس من بعده، ولم يجعلها الله تعالى في حرج من الدين، لأنها لا تفارقه؟!

بعد كلّ ذلك أثمة شك في أن تكون العترة المشار إليها في حديث الثقلين هي نفسها المشار إليها في هذه الآية، وأن ذلك الرجل هو أحد مصاديق هذه الجهة وتلك العترة؟!

وبنفس هذه الطريقة نقترب من هذه المضامين، ولكن بدلالات أكثر تأكيداً نلاحظ قوله صلوات الله عليه وآله في ما يعرف برزية يوم الخميس، ففي يوم الخميس ٢٤/ صفر، الذي سبق يوم وفاته (بأبي وأمي) بخمسة أيام، يجتمع في بيت الرسول صلوات الله عليه وآله عدد من الأصحاب[3] والرسول في حال الاحتضار، إذ يروي البخاري في ستة مواضع عن ابن عباس قوله وبألفاظ عدة، منها:

---

١ سورة النبأ: ٣٨ .

٢ سورة الحج: ٧٨ .

٣ من المعلوم أن الرسول صلوات الله عليه وآله استنفر كلّ أصحابه ما عدا أمير المؤمنين للخروج في جيش أسامة بن زيد، الذي انتدبه لحرب الروم، ووصل به المقام إلى لعن من يتخلف عن

قال: لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم[١] وجعه قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده؛ قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع! وعندنا كتاب الله حسبنا! فاختلفوا وكثر اللغط؛ قال: قوموا عني! ولا ينبغي عندي التنازع! فخرج ابن عباس يقول: إن الرزيئة كلّ الرزيئة ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كتابه.[٢]

وروى عن ابن عباس قوله: يوم الخميس وما يوم الخميس؟! ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء،[٣] فقال: اشتد برسول الله وجعه يوم الخميس، فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً؛ فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: هجر[٤] رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال: دعوني! فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه؛ وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أُجيزهم، ونسيت الثالثة[٥]!!!

وفي الرواية الثالثة قال ابن عباس ـ وذكر الحديث ـ وفيه: ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى... إلى أن قال: لا تضِلّوا بعده أبداً؛ فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما له؟! أهجر؟! استفهموه! فقال: ذروني! فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه؛ فأمرهم بثلاث، وذكر نحو ما ذكره، إلى أن قال: والثالثة إمّا أن سكت عنها وإمّا أن قالها فنسيتها.[٦]

وفي رواية أُخرى ثمة تفاصيل جديدة، قال ابن عباس: لما حُضِر[٧] رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هلمّوا

الجيش، ووجود هؤلاء لدى الرسول صلى الله عليه وآله دليل على حالة العصيان والتخلف عن الأمر الرسولي في هذا المجال؛ فلا تغفل!

١ الصلاة البتراء عن ذكر الآل هي من خصائص البخاري وكتبه مع إنه هو أحد من روى الصلاة الإبراهيمية.

٢ البخاري ١: ٣٧ .

٣ الحصباء: الحصى.

٤ هجر في القول: هذى وتكلّم بما لا يعقل، كما يتكلّم من به حمى لا يفقه ما يقول!! بأبي وأمي ونفسي يا رسول الله! ألمثلك يقال ذلك وأُمّتك لا تلتفت إلى عظم الرزية؟!!

٥ البخاري ٤: ٣١ .

٦ البخاري ٤: ٦٦ .

٧ أي بدأ يحتضر بأبي وأمي.

أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده! فقال بعضهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله! فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده؛ ومنهم من يقول غير ذلك!! فلما أكثروا باللغو والاختلاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا!! قال عبيد الله[١]: فكان يقول ابن عباس: إن الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب؛ لاختلافهم ولغطهم.[٢]

وفي رواية أُخرى ذكر ابن عباس تفصيلاً أكثر، قال: لما حُضِر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب.. وساق الحديث إلى أن قال: فقال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله؛ فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً لن تضلّوا بعده؛ ومنهم من يقول ما قال عمر! فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا![٣]

ولست في وارد التحدّث عن رزية الخميس، فلقد أشبعناها حديثاً في موضع آخر من أبحاثنا[٤]، ولكن يجب أن تستوقفنا هنا أكثر من محطة مفيدة جداً في بحثنا هذا، وما من ريب أن أُولى هذه المحطات هو حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن كتاب لا يضلون من بعده أبداً، وهو حديث كان الطلب فيه بسيط جداً، ببساطة أن يأتوه بكتف ودواة[٥]، فيما كان العرض ـ بمنطق أهل الإيمان ومن يهمّه أمر الحجّة الربانية ـ عظيماً جداً ومغرياً جداً بإغراء أن لا يضلّوا أبداً.

وللقارئ الحصيف أن يجمع أولاً بين العبارتين الواردتين في حديث الثقلين والغدير وما ذكر هنا، فالعرض واحد، ولكن تم التحدث في الثقلين بوضوح، وفي الغدير بتخصيص أكثر عن طبيعة النهج الذي لا ضلال معه، ولكن هنا تم إطلاق العرض فماذا كانت النتيجة؟!

---

١ هو: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، راوي الخبر عن ابن عباس.

٢ البخاري ٥: ١٣٧ - ١٣٨ .

٣ البخاري ٧: ٩ .

٤ انظر بحثنا: رزية الخميس وآهات رسول الله صلوات الله عليه وآله.

٥ باصطلاح اليوم طلب أن يأتوه بقلم وورقة، والكتف هو كتف البعير وعظمه، إذ كانوا يكتبون عليه آنذاك ما يريدون تخليده.

فكلّ روايات البخاري[1] ومسلم وغيرهما ـ وهي متواترة ـ تؤكد وقوع النزاع واللغو والاختلاف بين من اجتمع في ذلك البيت، ما بين فريقين، أحدهما يريد العمل بما قاله الرسول صلى الله عليه وآله، وبين آخر يتزعمه عمر بن الخطاب لا يريد تنفيذ ذلك، وكلّ ذلك أمام أنظار رسول الله (بأبي وأمي) وهو في حال الاحتضار، وكلا الحجتين المقدمتين من الفريق المعارض أدهى من الأخرى وأمرّ، فالحجة الأولى أن النبي (بأبي وأمي) يتكلّم بما لا يوحى إليه، فهو في قوله يهجر، أو يشك بأنه يهجر، أو قد غلبه الوجع، وفي كلّ الأحوال كان يهذي بالقول، والثانية الاكتفاء بالقرآن دون قول النبي صلى الله عليه وآله.

فإذا كان هذا الوضع أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في حال الاحتضار، فكيف سيكون الحال من بعد الوفاة؟!! فيا ترى كم خالف القوم المواقف الشرعية القرآنية الواضحة في جلسة واحدة؟! فرفض قول الرسول صلى الله عليه وآله، وعدم طاعته، والنزاع بينهم، واللغو في الحديث، وقولهم بأن الرسول (بأبي وأمي) يهجر والحكم بهذيانه، وكبت الفريق المؤيد لرسول الله صلى الله عليه وآله، ومن بعد كلّ ذلك إيذاء الرسول صلى الله عليه وآله وهو في حال الاحتضار.

وعلى الرغم من أن الإيذاء في حال الاحتضار وفي غيره سيان من حيث الحكم الشرعي، ولكن لا شك أنها من الناحية الوجدانية والمعنوية والقيم الإنسانية المعتادة تقدم نمطاً أخلاقياً متردياً جداً، وكلّ ذلك يجري من قبل علية القوم كما يُدعى، الّذين يصفونهم بأنهم المقرّبون من الرسول صلى الله عليه وآله، فما بالك بغيرهم؟! ولك أن تتصور حجم أذى الرسول (بأبي وأمي) حينما يطردهم ويخرجهم من بيته، وألفاظ ذلك متعددة، فتارة يروون قوله: قوموا عني! وهو الأشهر، والآخر: دعوني! فإن ما أنا فيه خير مما تدعونني إليه! ومن بعد ذلك تخيل كيف أن سيد العرب يطرد أحداً من بيته، وهو من سما في مكارم الأخلاق فكان على خلق عظيم كما وصفه القرآن، والعرب لا تطرد أحداً من بيوتها، إلا أن يأتي بموبقة كبرى، فما بالك بسيد العرب؟! وما بالك بمن أُمر بخفض جناحه للمؤمنين؟!

لا شك أن حجم الأذى كان هائلاً، وإلا لما وجدنا ابن عباس يبكي حتى يبلّ بدموعه الحصى، فبكاؤه مطلوب إن كان لتفويت الفرصة على رسول الله صلى الله

---

١ تعمدت الاكتفاء بروايات البخاري؛ لأنه أكثر حجة لدى القوم من غيره من الكتب، وهو في مقام أصح الكتب من بعد كتاب الله عندهم.

عليه وآله بأن يكتب هذا الكتاب، وبكاؤه مطلوب أيضاً إن كان على حجم ما تأذى به الرسول صلى الله عليه وآله، وفي كلا الحالتين إذا كان سائغاً له أن يتألم، فلعمري كيف كان حال ألم رسول الله صلى الله عليه وآله؟؟!

أما لو عرضت كلّ ذلك على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [١]، فماذا سيخرج به الباحث من بعد ذلك بنتيجة؟ والأهم من كلّ ذلك ماذا سيستخلص الرسول صلى الله عليه وآله من كلّ ذلك، إما في تشخيص واقع أصحابه؟ أو في تشخيص المآل الذي ستؤول إليه أمور سُنّته وطبيعة المواقف منها؟ أو في مجال صيانة الحجة الربانية وحمايتها؟ وهو في كلّ ذلك يراهم لم يعبؤوا بكلّ ذلك أمامه في حضوره وفي حال احتضاره!!

ولا أريد أن أسترسل في هذا الحال، ولكن علينا أن نعود لسؤالين مركزيّين، هما:

ماذا كان يريد الرسول صلى الله عليه وآله أن يكتب؟

ولماذا كلّ هذه المعارضة لما يريد أن يكتب؟

لا أعتقد أن مغزى كلّ ذلك صعب على من يريد أن يفكر بعقل حرّ وقلب متحمّس محب لرسول الله صلى الله عليه وآله دون غيره، ولكن ما يعنينا هو أن الرسول صلى الله عليه وآله ربط هذا الكتاب والعمل به بعدم الضلال الدائم حين قال: "لا تضلوا بعده أبداً"، وهو على أي حال لن يفترق عن حديث الثقلين وحديث الغدير في مغازيه في هذا المجال، غير إننا نعتقد أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يعرف أن النتيجة ستكون كذلك، فمما لا شك فيه أن الوحي أبلغه عن ذلك سلفاً، فهل تراه قد استسلم لإرادة القوم؟!

مما لا ريب فيه أن إرادته صلوات الله عليه وآله هي إرادة الوحي، وهي إرادة لا تتوقف عند ما يريده الناس مهما كبر شأنهم وتعاظم خطرهم؛ لأنه معني بقيادة الناس نحو الهدى، فإن أصرّ الناس على الضلال فذلك لا يفرغ ذلك الرسول صلى الله عليه وآله عن المسؤولية، فهو معني بالمضي مع الوحي لما يريده الله تعالى، ولما خططه

---

١ سورة الأحزاب: ٥٦ - ٥٨ .

رب العزة والجلالة، ولعل في الآية الكريمة الآتية ما يشار إلى أن الله سبحانه وتعالى أوضح أن شأن الهداية سيسير بطريقة طويلة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (١) كذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (٢) وهو من أوضح الأمور.

فإذا كان من يصفونهم بأنهم من أقرب مقرّبي رسول الله صلى الله عليه وآله قد تصرفوا معه بهذه الطريقة التي لا تناسب آحاد الناس، فكيف يراد لنا بعدئذ أن نقتنع أن شأن الهداية مجرد كلمات تلقى، وتُقابَل بقبول الطرف المقابل، من دون أن تتحول هذه الكلمات إلى نظام عقائدي يحكم كلّ سلوكيات الإنسان؟!

وها نحن اليوم نرى أن فلاسفة التربية مجمعون على أن المناهج التربوية تحتاج - على بساطتها قياساً إلى دين شامل - إلى وقت طويل حتى تتغلغل في الأفراد وتتحكم بهم، فما بالك بعموم المجتمع؟! وهو الذي تتدافع فيه عوامل متعددة منها ما هو داخلي وكثير منها خارجي، مما يمكن أن يطيح بعمل هذه المناهج أو يعقّدها بصورة يجعلها تحتاج إلى أجيال.

ولو لم يك هذا الأمر هو الشان الطبيعي في العملية التربوية لمَا وجدنا الله سبحانه وتعالى يرسل نبياً تلو آخر، ويلقي بالحجة تلو الأُخرى، وينـزل الآية تلو الآية، ويلقي بالنذر تلو النذر، ولم يرق المجتمع الإنساني في الشأن التربوي إلى ما كان الله سبحانه وتعالى قد خلقه له، لذا من غير المعقول القول بأن الرسول قد اطمأن على الحجة الربانية بمجرد أن انتهت حياته، وهو يلاحظ كيف تصرف أصحابه معه في قضية يفترض أنها تمثل عشقاً سرمدياً لهم إنْ كانوا يزعمون أنهم يريدون الهدى الدائم، وإذا بها تمثل بالنسبة لهم صدّاً مستميتاً لم يتخلَّ حتى عن نزع آخر أردية الحياء منه (بأبي وأمي).

وعليه، فإن نفس الأسئلة والاستنتاجات التي خلصنا لها في حديث الثقلين ما زالت تطرح هنا وبشكل أعمق، فهل يعقل أن يترك الرسول الحجة الربانية بلا مؤسسة راعية لها، وعاملة من أجل تكريسها وتحقيقها على وجه الأرض؟!

إذا كان هذا الكلام يجابه بالنفي القاطع، فإن الصورة ستكون أكثر وضوحاً لو

---

١ سورة القصص: ٥٦ .

٢ سورة المائدة: ١٠٥ .

قرنت بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله المتواتر بألفاظ عديدة: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني ـ أو: من أهل بيتي ـ يواطئ اسمه اسمي". ويضيف بعضهم إليه: "يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً"[1]، أو كما قال في رواية أخرى: "يملأُها عدلاً كما ملئت جوراً"[2]

أو قوله صلى الله عليه وآله المتواتر أيضاً: "المهدي من عترتي من وُلد فاطمة"[3]

صحيح أن هذه الأحاديث ربما لا تشير إلى أنه وُلد قبل ذلك العهد، ولكن التأكيد على العترة، يجري بنفس المنحى الذي أشرنا إليه سابقاً، ولا يعقل أن يخلو الزمان من العترة ما دام أنه صلى الله عليه وآله علّق الهدى الدائم على الالتزام بها؛ فتأمّل!

ب: **حديث الاثني عشر**: بادئ ذي بدء لا بُـدّ من أن نقرر بأن ما نقصده بالأئمة والخلفاء هنا ليس هو ما يفهم بالزعامة السياسية، فالزعامة السياسية أصغر بكثير من مقام الإمامة والخلافة، بل ما نتحدث عنه هو إمامة الدين بكلّ متعلقاته وارتباطاته ضمن قيود الحديث النبوي: "إلا أنه لا نبي بعدي"، ومنها الشأن السياسي لهذا الدين.[4]

---

١ سنن أبي داود ٣: ١٠٦ ح٤٢٨٢ وهو مذكور بشكل مكثف في كتب القوم، لا أجد المجال حالياً لاستعراضها، وسأفعل لاحقاً إن شاء الله تعالى.

٢ سنن أبي داود ٣: ١٠٧ ح٤٢٨٣ .

٣ سنن أبي داود ٣: ١٠٧ ح٤٢٨٤ .

٤ لا نقصد ما نشأ من أوضاع سياسية من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكلّ ما حصل إنما هو انقلاب على الشرعية السياسية الدينية، بل إن الدين لم يك مصدراً من مصادر الانقلاب، فكلّ الوثائق الموجودة عن مجريات السقيفة لا تشير - لا من قريب ولا من بعيد - باستفادة أي طرف من أطراف الخصام من النص الديني؛ لأنهم كانوا في عالم آخر، وكلّ ما قيل في شأن السقيفة من بعد ذلك هي تعليلات لتمرير ما حصل، ولكن لعل قول عبد الله بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب نفسيهما في وصف ذلك هو أحد أدق التعابير عما جرى، والتي أطّروها بقول الأول المشهور: إن بيعتي كانت فلتة وقى الله شرها.

انظر: السقيفة وفدك: ٤٦ و٧٢ للجوهري.

أما قول عمر، وهو الأشهر والأدق، فمن بعدما سمع باجتماع منى، الذي جمع أكابر الصحابة من أمثال سلمان وعمار وغيرهم وتخطيطهم لإعادة الشرعية السياسية إلى مقامها الذي أراده الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، خطب في الناس حال رجوعه إلى المدينة فقال: بلغني أن قائلاً منكم يقول: لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترّنّ امرؤ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، ألا وإنها

ونفس هذا الأمر يسري على مصطلح الخلفاء، فخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله التي تأتي من بعد خلافة الرسول صلى الله عليه وآله لله تعالى ليست من يليه بالسلطة والكرسي[١] بل هي الأخرى أكبر من ذلك، فهي خلافة بكلّ ما كان يمثله الرسول صلى الله عليه وآله في هذا الدين، غاية ما في الأمر أنه لا نبي من بعده.

وعين ذلك يسري على الأمير من بعد الرسول صلى الله عليه وآله، فالإمارة هي إمارة المؤمنين وولاية أمرهم، وهي أكبر من مجرد كرسي أو منصب أو عرش، بل هي كلّ ما كان الرسول صلى الله عليه وآله ولياً فيه على المؤمنين من بعد ولاية الله سبحانه وتعالى عليه.

فالرسول صلى الله عليه وآله ـ ببساطة ـ لم يك مجرد قائدٍ سياسيّ حِظي بولاية الأُمور نتيجة غلبته على الآخرين، حتى نتصور أنّ من يليه في الأمر هو القائد السياسي الذي يحظى بالكرسي ضمن إحدى الطرق المألوفة للحصول على هذا الكرسي أو ذاك المنصب، بل إن الأمر كلّه كان نتيجة تنصيب من الله تعالى وجعل منه، فهو رسول الله بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى ومترتّبات، وأي خروج عن هذا المعنى يُعَدّ استخفافاً بالوصف القرآني الخاص بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؛ إذ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ .[٢]

أما غير ذلك التفسير فهو غريب تماماً عن الدين، ولعل أصرح مَن صرح به هو أبو سفيان حينما رأى جيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة، فأشار إلى العباس بن عبد المطلب واصفاً عظمة المشهد بأن ذلك هو الـمُلك، ولعل القوم ساروا على هذا الفهم في نتائج تفسيراتهم لحياة رسول الله صلى الله عليه وآله.

على أية حال، فإن هذا هو أحد الأحاديث المتواترة والتي وردت بألفاظ متعددة، وبطرق كثيرة، ذكرتها جميع الصحاح بلا استثناء، استخدم فيها مرة لفظ "الأئمة" وأخرى "الخلفاء" وثالثة "الأمراء"، وكلّها تحكي واقعاً واحداً مع الإجماع على أن

كانت كذلك، إلا أن الله عزّ وجلّ وقى شرها.

انظر: مسند أحمد بن حنبل ١: ٥٥ ومصنف عبد الرزاق ٥: ٤٤١ و٤٤٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٨: ٥٧٠ - ٥٧١. وللقوم تعليقات على ذلك تضحك الثكلى.

١ من المعلوم أن مصطلح "خلافة الرسول" أو "خليفة الرسول" قد صادرته السلطة الانقلابية ضمن محاولتها لمصادرة الأسس الشرعية التي يقوم عليها البناء السياسي الإسلامي.

٢ سورة الأحزاب: ٤٠ .

كلّهم من قريش، ولا يبتعد من حيث الدلالة عن حديث الثقلين كثيراً، غاية ما في الأمر أنه يشخّص رقماً محدداً، وبالرغم من أن للقوم تخرصات عجيبة في تعريف هذا العدد، بل وحيرتهم في كيفية ترتيبه، لذا تجد نقاشاتهم فيه كالذي وقع في حيص بيص، ويكفي مراجعة ما كتبه شرّاح البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود لتعرف حجم المشكلة التي تسبب بها هذا الحديث لهم.

إلا أننا بلحاظ الخلفيات التي مرت بنا، والحيثيات التي تطرقنا إليها في خصوص التزامات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تجاه العملية الربانية، لا يمكن لنا أن نركن لمزاعم هي للجدل المذهبي المتعصّب أكثر مما هي لأي شيء آخر، فلو جمعت الأمر ما بين ما ترتب على حديث الثقلين من الإصرار على لفظ "العترة" بعنوانها العمود الثاني في الدين بعد القرآن، وإذا ما وجدت أن خاتمة هؤلاء هو المهدي صلوات الله عليه، وإذا ما وجدت هذا الحديث، وجمعت كلّ ذلك بما استوحيناه من القرآن الكريم، فإنّ الحقيقة ستتضح بوضوح الشمس في رابعة النهار؛ إذ لا بُـدّ من وجود من يؤتمن على هذا الدين بغياب رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأعود لأؤكّد بأن الوجود المتحدّث عن الرسول صلى الله عليه وآله ومَن يقوم مقامه لا ينحصر بجهة دون أُخرى من جهات الحياة، ونتيجة لطبيعة النظام التكاملي الإسلامي، فإن افتقاد عنصرٍ ما بسبب عدم التمكين الاجتماعي، أو لأي سبب آخر، لا يلغي بقية العناصر، ناهيك عن وجود الأمانة الكونية والخلافة الكونية، وهذه الأُمور لا علاقة لها بطبيعة الحراك الاجتماعي، وإنما هي أكبر من الوضع الاجتماعي، ولا يقوم بها إلا مَن تسنّم منصب الأمانة الكونية من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1]، وكذا هو مَن تسنّم مقام الخلافة الربانية بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]

---

١ سورة الأحزاب: ٧٢ .

٢ سورة البقرة: ٣٠ .

هذا وقد عالجنا مفهوم الخلافة الربانية والأمانة الكونية بشكل مستقل في بحثينا: الخلافة الربانية في المفهوم القرآني، والأمانة الكونية في القرآن الكريم.

من خلال كلّ ذلك اعتقد أنه أصبح من السهل بمكان الادّعاء بأن وجود حجة لله بالغة في كمالاتها الرسالية في كلّ أوان وزمان هو أمر لازم وضرورة، لا غنىً عنه عقائدياً وعقلياً وفق المنطق القرآني، ولا ينفع الكلام عن عدم الانتفاع بوجود إمام لا يظهر للناس، كما يروّج لذلك عدد من النواصب والمبتدعة؛ لأن هذا الإشكال نفسه يمكن أن يطرح على غيبة الأنبياء صلوات الله عليهم عن أُممهم، فهل يعني ذلك أن نبوتهم ملغاة أو أنها ـ ولو لفترة الغَيبة ـ كانت بلا ضرورة؟!

فإن الأمر ـ كما أشرنا من قبل ـ لا يتوقف عند الحاضر الاجتماعي فحسب، بل هناك إمامة الوجود التي هي إحدى مقتضيات الخلافة الربانية والأمانة الكونية.[١]

على أنّ ذلك لا يعني أن الإمام المنتظَر (روحي فداه) لا يتفاعل مع الحاضر الاجتماعي، ولكنه يتفاعل بشكل أكيد ضمن ظروف الغَيبة ودواعيها وأهدافها، إنه ـ بالضبط ـ كتفاعل مَن لا يعلن اسمه عندما يتسبب بفعل، أو يحرك ظاهرة اجتماعية ما، ولا سيما وأنه يعلم أن زمان حضوره الاجتماعي المعلن لم يحن بعد، ولهذا ما من ضرورة يتوخاها لنسبة الأفعال إلى نفسه.

والمثال الذي يضربه الإمامُ المنتظرُ نفسُه صلوات الله عليه دقيق جداً في وصف حال الغَيبة، فهي غَيبة مماثلة لغياب الشمس وراء السحاب، فهي تغيب عن العين ولكن آثارها مما لا يمكن التخلي عنها أو التنكر لها، بل لا يمكن تصور انتفاء وجودها.

يقول (بأبي وأمي) في جوابه عن رسالة إسحاق بن يعقوب حينما سأله عن غَيبته: "وأما وجه الانتفاع بي في غَيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيّبتها عن الأبصار السحاب، وإني لأمان لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء".[٢]

---

١ راجع لتفصيل أكثر كتابنا: الولاية التكوينية الحق الطبيعي للمعصوم: ١٦٣ - ١٦٨، وكذا فصل إمامة الوجود في كتابنا: الإمامة ذلك الثابت الإسلامي المقدّس: ١٨٤ - ١٩٨ .

هذا، وقد أشرت إلى أننا أفردنا لذلك بحثين مستقلين، هما الخلافة الربانية، والأمانة الكونية؛ نأمل أن يريا النور قريباً بإذنه تعالى.

٢ كمال الدين وتمام النعمة: ٤٨٥ ب٤٥ ح٤، وغَيبة الشيخ الطوسي: ٢٩٢ ح٢٤٧ .

ثانياً: هل هو موجود فعلاً؟

بعد الحديث النظري والفكري، تظهر لنا جملة من الآيات القرآنية الأُخرى تنجّزاً فعلياً لوجود إمامٍ حجّةٍ على الخلق من قبل الله تعالى، ففي الآيات التي سلفت كان الحديث عن ضرورة وجود هذه الحجّة على المستوى العقلي، إلا أنّ حديثنا هنا سيشير إلى تحقق هذه الضرورة وتنجّزها تاريخياً.

ليلة القدر تكشف القصة!

سأكتفي للتدليل على ذلك بذكر آية واحدة فقط، وهي حديث القرآن الكريم عن جانب من جوانب ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ فمن الواضح جداً أن ليلة القدر تحصل في كلّ عام، ولا يوجد من فقهاء أهل البيت صلوات الله عليهم مَن يقول بأنّ الليلة كانت خاصة بزمن دون آخر، بل هي تدوم إلى يوم القيامة، وغالبية العامة على ذلك، وقد روى البيهقي في «سننه الكبرى» أنها: في كلّ رمضان[1]، وفي رواية: إلى يوم القيامة.[2]

وقد حكى النووي عن الشاذ[3] من المفسّرين والمحدّثين من العامة، اعتماداً على رواية وردت في البخاري، عن عبادة بن الصامت، قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم[4] ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى[5] رجلان من المسلمين، فقال: خرجت لأُخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة.[6]

ومع أن هذه الرواية لا توحي بالرفع، بل هي إلى التأكيد أكثر منها للنهي، وإلا لَما قال النبي صلى الله عليه وآله: «فالتمسوها»! ومن الأكاذيب العجيبة ومهازل الدهر أن النووي ينسب للقاضي عياض قوله بأنّ الرفع ـ أي حصر الليلة بزمن رسول

---

١ سنن البيهقي الكبرى ٤: ٣٠٦ ح٨٣٠٩ .

٢ سنن البيهقي الكبرى ٤: ٣٠٦ ح٨٣٠٨ .

٣ شرح النووي على صحيح مسلم ٨: ٥٨ .

٤ الصلاة البتراء من مختصات أغلب العامة، ونقلها عنهم حفاظاً على نصوصهم، لا إيماناً بها، أو التزاماً بمنهجهم فيها.

٥ تلاحى فلان مع فلان: تنازعا.

٦ البخاري ٢: ٢٥٥ .

الله صلوات الله عليه وآله ـ هو قول الروافض!!.[1]

وعلى الرغم من أن المجال هنا لا يتسع لبحث معمّق في السورة وتفاصيلها[2]، ولكن يجب أن نتوقف عند أُمور ثلاثة أساسية تطرحها الآية المباركة، فبموجب الآية تطرح الأسئلة الحاسمة التالية:

مَن هو المتنـزّل في هذه الليلة؟

ما هو المتنـزّل في هذه الليلة؟

وعلى مَن تتنـزّل الملائكة والروح في هذه الليلة؟

وبادئ ذي بدء، لا بُدّ من الإشارة إلى أننا حينما نتحدث عن هذه الآية دون كامل السورة ضمن بحثنا هنا، لكي نحصر حديث النـزول بما يتنـزل فيها، لا بما نزل فيها، كما أشارت إليه الآية الأُولى منها ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، فالنزول هنا خاص بالقرآن الكريم، أمّا في الآية موضع البحث فهو شأن آخر، ولهذا فإنّ حديثنا عن التنـزيل هنا لا علاقة له بنـزول القرآن الكريم.

ولأوّل وهلة لا بُدّ أن المتابع لكلّ تفاسير العامة وأحاديثهم[3] في مجال أسئلتنا الثلاثة المتقدمة، يحار كيف كُتبت هذه التفاسير؟! وبأي عقلية كُتبت؟! ولن يخرج إلا بنتيجة أساسية هي فقدان المعايير والضوابط التي يتم التعامل فيها مع النص القرآني الكريم، فحديثهم صاخب في طبيعة ما نزل، واختلافهم فاحش جداً بصورة تجعل المرء يتساءل: كيف بنوا أجوبتهم؟! ومن أين أتوا بها؟!

ففي بعض الأحيان قد تجد فيها كلمة: "وقيل" تتردد لأكثر من سبع مرات دون أن تعرف الأُسس التي بنيت عليها هذه الكلمة غير الآراء الشخصية أو التخيلات؛ فعلى سبيل المثال فإن الآلوسي يتحدث في (**روح المعاني**) عن الروح، وبعد أن يذكر الاحتمالات في هذا المجال يقول في تعريفه: "وقيل: مَلَك عظيم لو ألقم السماوات

---

١ المجموع ٦: ٤٦١.

٢ يراجع تفسيرنا للسورة المباركة في بحثنا المستقلّ عنها.

٣ ولعل زعمي دقيق في أني راجعت الغالبية العظمى من هذه الكتب، وبشكل دقيق فإني قد راجعت ١٥٩ مصدراً أساسياً وفرعياً من مصادر التفسير والحديث ممن تحدث في الآية موضع الحديث.

والأرض كان ذلك له لقمة واحدة"!![1] وكأن أهميته متعلقة بحجمه لا بخصوصية ما يكلّف به!!

ولك أن تسمع الضحّاك يروي في نفس الصدد معرّفاً ـ كخلفه صاحب روح المعاني ـ: فيقول: "لو فتح فاه لوسع جميع الملائكة، فالخلق إليه ينظرون، فمن مخافته لا يرفعون طرفهم إلى من فوقه"[2]!

وبمعزل عن لغة تجسيم الله، سبحانه وتعالى عما يصفون، التي تنتشر في كلامهم هذا، من خلال التحدث بلغة الفوق والتحت، كأن المخافة من عذاب النار ومن هول يوم القيامة، فضلاً عن جلالة الله تعالى وهيبته، لا وجود لها بقدر وجودها مِن هذا الذي يسميه بالملَك، فإن كان الأمر يعتمد على أحاديث نبوية صحيحة! فكيف نجد هذه الأحاديث بأجوبة مختلفة تماماً عن بعضها بعضاً؟

ومن الواضح أن النبي صلوات الله عليه وآله لا يتناقض في كلامه، بل لا تتعدد أجوبته في الموضوع الواحد إن كانت في عرض واحد، فكيف ونحن نجد في بعض الأحيان أن هذه الأجوبة قد تأتي متناقضة في ما بينها؟!

وإن أي مراجعة إلى تفسير الروح الواردة هنا، أو إلى تفسير سبب التنزّل ستلاحظ بوضوح أن الجمع في صخب عجيب.

أمّا إذا كان الحديث هو عبارة عن اجتهادات في الرأي، وأجوبة مبنية على الأمزجة الشخصية، فإن ذلك بمحضه يمثل كبيرة من الكبائر التي ترتكب بحق القرآن الكريم؛ لتواتر حديث الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله بين الفريقين بلعن من فسّر الكتاب الكريم برأيه، لقوله: "من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار".[3]

ولهذا، دعنا من كلّ ذلك وتعال لنفكر بطريقة تنسجم مع طبيعة المعطيات القرآنية وما تفضي إليه، حتى لا توقعنا المطبّات المذهبية أو الاجتهادات الشخصية في أتونها، بطريقة تجعل الحقيقة معمّاة وسط صخب الجدل المذهبي، وهنا لا بُدّ من أن نذعن إلى خصوصية قصوى وتميّز لهذه الليلة يجعلها تختلف عن أي ليلة من ليالي السنة، وإلا لَما كانت خيراً من ألف شهر، مما يعني أن ما يحصل فيها لا بُدّ من أن

---

١ روح المعاني ٣: ١٩٤ .

٢ الحبائك في أخبار الملائك: ٦٢؛ للسيوطي.

٣ تفسير الرازي ٧: ١٥٥ .

نلمس فيه وجودَ هذا التميّز الخاصّ وسرّه.

وللأسف فإنك لا تعثر في أجوبة المفسّرين وآرائهم إلا على كثير من الغفلة عن هذا الجانب، وسط اضطراب في الأقوال لا يسمن بمجموعه من جوع ولا يغني من عوز، وقد بلغ بهم الحد من الأجوبة المتهافتة أن عدد كبير منهم جعل سرّ التميّز عائداً إلى رغبة الملائكة بالاعتذار للمؤمنين مما سلف لهم أن قالوه بحق الناس في قوله تعالى عن لسانهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [1]، ولهذا ينـزلون يستغفرون للمؤمنين[2]!!

بل كثير منهم قال بأن جبرئيل عليه السلام يريد أن يسلّم على المؤمنين، فمن سلّم عليه دخل الجنّة! حتى إن النيسابوري قال: "قال المفسّرون: إن الرسول (صلوات الله عليه وآله) خاف على أُمّته أن يصيروا مثل أُمّة موسى وعيسى، فقال الله تعالى: لا تهتمّ بذلك، فإني وإن أخرجتك من الدنيا، إلا أني جعلت جبرئيل خليفة لك ينـزل إلى أُمّتك كلّ ليلة قدر ويبلغهم السلام مني"[3]!!

هذا، ناهيك عن جملة من الأقوال بأن الملائكة تنـزل لكي تؤمّن على دعاء المؤمنين، أو أنها تحيطهم بأجنحتها، أو أنهم ينـزلون بالرحمة والمغفرة لمن يحيي هذه الليلة، وأنهم ـ كما يحكي ابن كثير ـ يتنـزّلون عند تلاوة القرآن، يحيطون بحلق الذِكر ويصفّون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له[4]، أو كما يتحدث ابن عطية بأن سبب التميّز هو نزولهم بالرحمة والمغفرة والفواضل[5]، والبقية على هذا المنوال، ولكن غالبيتهم يتحدثون بلفظة «قيل»، وليس عن قطع ويقين.

ويمكنني القول بدقة: إن من يطالع كلّ ما تحدث به هؤلاء سيجد أنّ الجواب الوحيد الذي سيظفر به هو أن الليلة متميزة لأنها متميزة، دون أن يجد ما يشفي غليله أبداً، ومع أن كلّ ما ذُكر أو بعضه لا مانع فيه من حيث الأصل، ولكنه ـ قطعاً ـ ليس هو السبب الحقيقي الذي يمكن للمرء أن يشعر بعظمة هذه الليلة وتميّزها من خلاله، كما وأن من المحال أن يقتنع الإنسان بأن التنزّل المعروض في الآية الكريمة تجيب

---

١ سورة البقرة: ٣٠ .

٢ تفسير الرازي ٣٢: ٣٢ وهو نفس رأي الخازن في تفسيره ٧: ٢٤٧ .

٣ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢: ٤٦٠ .

٤ تفسير ابن كثير ٤: ٥٣٢ .

٥ المحرّر الوجيز ٥: ٥٠٥ .

عليه الأقوال والآراء المطروحة من قبل هؤلاء، وسنعرض لكلّ ذلك باختصار تاركين التفصيل لمحله.

ووفق الآيات القرآنية، فإن ثمّة تنـزّل من السماء على أهل الأرض يحصل في كلّ ليلة قدر من كلّ عام، والسؤال الجوهري الذي يجب أن يقف عنده الإنسان بجدية هو: على من تنـزّل وفود السماء المشار إليها في الآية الكريمة ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾

لقد ذكرتُ في ما سبق أن من يقرأ ما كتبه كثيرٌ من المفسّرين والمحدّثين لا يخرج إلا بيد خالية، فجلّ العامة منهم ـ إن لم يكن جميعهم ـ قد أشاروا إلى أن الملائكة تتنـزل على أهل السماء الدنيا بالآجال والأرزاق وأقدار السنة وما إلى ذلك..

أو كما قال النحّاس: "من كلّ أمر فيه الرزق والأجل والحجّ لمن يحجّ وغير ذلك"[١]..

أو "للسلام على المؤمنين والدعاء لهم".[٢]

أو كما قال السلمي في تفسيره: "لاسترواح قلوب الصائمين"[٣]..

أو كما روى الثعلبي: "يصلّون ويسلّمون على كلّ عبد قائم أو قاعد يذكر الله سبحانه".[٤]

ولكنّ هؤلاء في الواقع حينما يتحدّثون عن ليلة القدر بهذه الطريقة فإنهم ـ كما أشرنا من قبل ـ يسلبونها خصوصية ما يتنـزّل فيها، فالذي يتنـزل لا بُدّ أن يكون خاصاً جداً، لكي تتحول هذه الليلة من ليلة عادية إلى ليلة هي خير من ألف شهر، والأرزاق والآجال وما إلى ذلك كلّه أمر عادي يحصل يومياً عبر ملائكة مخصوصين لكلّ أمر، فضلاً عن أن وجود الملائكة في كلّ شبر من الأرض والسماء، كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: "وليس في أطباق السماوات موضع إهاب[٥] إلا وعليه ملك ساجد، أو ساع حافد[٦] يزدادون على طول الطاعة بربهم علماً، وتزداد

---

١ إعراب القرآن ٥: ٢٦٨ .

٢ تفسير الطبري ٣٠: ٢٦٠ .

٣ تفسير السلمي ٢: ٤٠٩ .

٤ تفسير الثعلبي ١٠: ٢٥٧ .

٥ الإهاب: الجلد قبل دبغه.

٦ أي سريع الطاعة.

عزة ربهم في قلوبهم عظما"[1]، وقد سلّم به المفسّر الرازي بالقول: "لا يوجد فيها موضع إهاب إلا وفيه ملك"[2]، وتؤكده كثير من الروايات الواردة في هذا المجال.

والأنكى من كلّ هذا، فإن الجميع يتغافلون عن جواب جادٍ يتعلّق بسرّ كلّ هذا الاهتمام الذي يجعل الملائكة والروح تتنـزّل، إذن لا بُـدّ من أمرٍ ما يجعل الاهتمام الملكوتي يبلغ هذا الحد، بطريقة تعجز عنها أقوال المفسّرين وأقاصيص المحدّثين من أن تعطي جواباً يشبع نهم المتدبّر في السورة المباركة، ولو قُدّر أن ما يشبه إجماعهم في القول بأنهم يتنـزلون بالأقدار لكلّ إنسان في هذه الليلة صحيحٌ، إلا أنه لا يجيب على مَن تتنـزل؛ إذ لا يعقل أن يقال: إنها تتنـزل على كلّ مؤمن وتبلغه بقدره وما سيجري عليه في هذا العام، فهذا لم ولن يحصل، ولو قُدّر حصول ذلك فماذا عن غير المؤمن؟! وهل إطلاق مفردة ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ يتعلق بأقدار الناس مؤمنين وغيرهم فقط، أم أن الإطلاق الشامل هنا يشمل الناس وكلّ شيء في الدنيا؟! ومن الواضح أن أيَّ تقييد يُطرح هنا هو تقييد بلا مقيّد، فالحديث الإلهي صريح بأنّ ما يتمّ تنـزيله يتعلق بكلّ أمر، وبعد الكلّ لا توجد جزئية يمكن أن لا تدلّ في هذا الكلّ.

ولعلّ أول ما يلفت الانتباه ـ بعد حالة التمايز المثارة في الآية السابقة ـ أن نزول الملائكة والروح يجري وفق سياق فيه كثيرٌ من الإثارة، فإذا كان المراد بالتنـزّل كلّ ما ذكره هؤلاء، فلماذا نجد صفة التنزّل، ولا نجد صفة النـزول؟!

فالتنـزّل يحصل بشكل تدريجي، بينما النـزول يحصل بشكل دفعي، والتدريج في التنـزّل ـ هنا ـ لا يكون من عيّ أو عجز أو عدم قدرة لأسباب مادية قطعاً، فكلّ ذلك ما لا يتحدث به عاقل؛ إذ نحن هنا نتحدث عن عظماء الملائكة والمتنـزلين بأمر ربهم، وعليه فإن التنـزّل إما أن يكون لجلال الموقف وهيبته، وإما لعظمةِ ما يتم التنـزّل به، أو لجلالة وهيبة من يتم التنزّل عليه، ولا سيّما مع وجود إضافة الروح إلى الملائكة؛ فتأمل!

وحتى نستطيع أن نستجلي الموقف بشكل أوضح لا بُـدّ من أن ننتهي من تشخيص المراد بـ (الروح) هنا، وكما هي العادة فإن صخب المفسّرين هنا يعلو مرة أُخرى، لتجد تفسيرات متعدّدة لا يكاد يجمعها جامع، وإن كان أغلبهم يشير إلى أنه جبريل عليه السلام، إلا أن غالبيتهم يذكر إلى جنب ذلك أُموراً أُخرى، كأن يقال بأن الروح

---

١ نهج البلاغة: خ٩١ .

٢ تفسير الرازي ٣٢: ٣٣ .

هم: طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة[1]!، أو كما يقول الماوردي بأن الروح هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله[2]، أو قول القاضي عياض بأن الروح هو: عالم أُخرى وُلّيّ حفظه على الملائكة، كالملائكة حفظة على بني آدم.[3]

ولعل مختصر الكلام في هذا المجال هو ما يقدّمه أبو حيان الأندلسي بقوله: "تقدم الخلاف في الروح، أهو جبرئيل، أم رحمة ينـزل بها، أم ملَك غيره، أم أشرف الملائكة، أم جند من غيرهم، أم حفظة على غيرهم من الملائكة"[4]؛ وهذا المختصر ـ الذي لم يقدّم فيه كلّ الاحتمالات ـ يعطينا صورة واضحة بأن ما يتحدث عنه القوم في شأن التفسير لا يمكن أن يكون من خلال حديث الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله، وحتى لو كانوا قد أخذوه من الصحابة والتابعين فالأمر واضح بأن جميعه ـ في الأقل ـ لا يمثل الرسول (بأبي وأمي)، وبالتالي فإنه يعطينا صورة عن سر العجز لدى هؤلاء جميعاً بشأن التوصل إلى أجوبة حقيقية.

وهنا يبقى الكلام في معنى "الروح" وما المراد منه في هذه الآية، وأول ما يجب الانتباه إليه استخدام واو العطف بين الملائكة والروح، وهذا الاستخدام يشير إلى ثنائية المتنـزّلين، لا إلى أُحاديتهم، ولا ينفع بعض المفسّرين حينما يشير إلى أن ذلك من باب عطف الخاص على العام، كما فعل ابن كثير مثلاً[5]؛ لأن ذلك يحتاج إلى قرينة، والقرائن الحافّة كلّها تشير إلى الثنائية وليس إلى الأُحادية ليقال من بعد ذلك: إن الروح هنا جبريل عليه السلام؛ لأنه كبير الملائكة خُصّص من بين عموم الملائكة، ولولا ما أحسّ به غالبية المفسّرين لَما ذهبوا أبعد من جبرئيل عليه السلام، مما جعلهم يطرحون أُموراً عدة، أحدها جبرئيل، بل إننا نراهم اخترعوا مقولة إنّ هناك ملائكة لا تراهم بقية الملائكة ومن بينهم جبرئيل إلا في هذه الليلة، وما كانوا ليتكلّفوا كلّ ذلك لو أنهم تمكنوا من القول بأن الملائكة والروح هما جنس واحد.

---

١ تفسير الثعلبي ١٠: ٢٥٨، ونقله الزمخشري في الكشّاف ٤: ٧٨٦ وابن عطية في المحرّر الوجيز ٥: ٥٠٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٩: ١٩٣، وقد حكاه في اللباب في علوم الكتاب عن القشيري ٢٠: ٤٢٦ .

٢ النكت والعيون ٦: ٣١٣، وقد نسبه السيوطي في الحبائك لمقاتل بن حيان؛ انظر: الحبائك: ٦٣ .

٣ مشارق الأنوار على صحاح الآثار ١: ٣٠٢ .

٤ البحر المحيط ٨: ٤٩٣ .

٥ تفسير ابن كثير ٤: ٥٣٢ .

ولعلّ وجود كلمة ﴿فِيهَآ﴾ الخاصة بالروح يعطينا قرينة مهمة بهذه الثنائية، فهو ـ هنا ـ المكلّف بالأمر الرباني، والملائكة جاءت مرافقة لجلال وهيبة الموقف برمّته.

وبالنتيجة، فإنّ عودة كلمة ﴿فِيهَآ﴾ على الروح يجعل جملة ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ عائدة على ما جاء به الروح؛ لأنه هو المكلّف، مما يعني أن كلّ ما قاله المفسّرون في شأن الملائكة وطبيعة تعاملهم مع المؤمنين في ليلة القدر غريباً عن الموضوع وسذاجة منهم؛ لأن علاقة الملائكة مع المؤمنين علاقة يومية، ولا تحتاج إلى ليلة استثنائية للسلام عليهم وطلب الرحمة بهم والغفران لهم، وأية حاجة إلى ليلة استثنائية لمثل هذه الأُمور ما دام المؤمنون يرفلون بالفيوضات والرحمات الإلهية المترتبة على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾، وهذا العرض الإلهي يومي وليس في ليلة واحدة من ليالي السنة، وهو أعظم بكثير مما ذكره هؤلاء بأن جبرئيل عليه السلام ينـزل والملائكة ليسلّموا على المؤمنين ويستغفرون لهم؛ فتنبّه!

وأسخف من كلّ ذلك مَن قال بأن الملائكة ينـزلون ليعتذروا من المؤمنين نتيجة لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

وفي الواقع إني لخجل للرد على مثل هذه الأقوال لتفاهتها، ولكن لأنها ذُكرت في كتب القوم وجدت نفسي مضطراً لإيرادها هنا، ووجه التفاهة يعود أولاً إلى أن الملائكة لم يقترفوا ذنباً حتى يعتذروا عنه، فهم تحدّثوا إما عن تجربة بشرية سبقت الاعلان عن جَعْل الخلافة الربانية، وإما لطبيعة التكوين الإنساني المبني على التنافس بين شقّيه الروحي والمادي وسط إغراءات الواقع الموضوعي الكبيرة التي تثري بطبيعتها الواقع المادي للإنسان، فمن جانب شيطان يوسوس، ومن جانب آخر طبيعة تغري بالتنافس للتملك والإثراء، ومن ثالث طبيعة النفس التي خلقت بفجورها وتقواها.

و على أية حال، فإنهم ـ أي الملائكة ـ لم يطّلعوا على سرّ إلهي كبير خصّصه لمقام الخلافة قبل خلق الملائكة، ولذلك طرحوا أنفسهم كبديل؛ لأن الخلافة الربانية لا يتحمّلها ولا يحملها إلا من عرف الله حق معرفته، وتمحّض في العبودية المطلقة له، ولذلك اتصف عرضها الخاص بالتسبيح والتقديس الخاص بها، لأنها عرفت أن هذا العرض هو المطلوب، ولكنها حينما عرفت بوجود مَن هو أعلى منها في درجة العبودية لله سبحانه وتعالى تراجعت عن عرضها، واعترفت بعدم معرفتها

بوجود أنفسٍ لها مواصفات أعلى من مواصفاتها.

ويمكن لمتابعة هذا الموضوع، التأمل في الجواب الرباني المسكت لعرضهم ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ، ومن العرض الرباني في مقابل عرضهم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ ، فلولا وجود هذه النفس ما كان ليكون جوابه عن الإنباء بأفعال الأسماء التي عرضت عليهم من دون تسميتهم، وكلامه عن صدق الملائكة ليس في مقابل الكذب ـ حاشاهم من ذلك، والله أعلم بحالهم منا في هذا المجال ـ، ولكن في مقابل مصداقية ما عرضوه بأنهم أنفس عابدة ومسبّحة ومقدّسة؛ إذ بيّن لهم أن هناك مَن هو أعلى مصداقية في العبودية منهم، ولذلك جاء الجواب الثاني للملائكة بمنزلة سحب عرضهم والاعتراف بمصداقية العبودية لدى هذه الأسماء ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ ، ولذلك حينما اعترفوا بها ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [1]

ثم إذا كان المطلوب هو الاعتذار فلمن يعتذرون يا ترى؟! فالمؤمنون بعيدون عن قصد الملائكة، والناس ما زالوا يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء أو يساهمون في ذلك، والغالبية الصامتة العظمى منهم تميل كلّما مالت ريح هؤلاء.

وأكتفي بهذا القدر ولا أطيل لوضوح المقصود.

من هو الروح وما هو؟

لو لاحظنا ألف ولام العهد التي تقدّمت على كلمة ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لأيقنّا أن المقصود بالروح ليس هو جبرئيل عليه السلام؛ لأنّ ألف ولام العهد تشمل كلّ الملائكة، وهو منهم، وعندها لا بُدّ لنا من البحث عن معنى الروح في مجال آخر غير مجال جبرئيل عليه السلام؛ لأنه من الملائكة، وهو مشمول باسمهم، فالروح شيء آخر غير الملائكة، ولهذا تجد تردّد المفسّرين والمحدّثين في ما يروونه هنا في قبول كون المقصود بذلك هو جبرئيل عليه السلام، بل جعلوه أحد الاحتمالات، وعلى الرغم من أن كثيراً منهم تحدّث عن صنف آخر من الملائكة، ومنهم من رأى أن

---

١ سورة البقرة: ٣٠ - ٣٣، وعلى أي حال سبق أن أشرنا إلى أننا فصّلنا الكلام عن ذلك وغيره في كتابنا عن الخلافة الربانية؛ فراجعه.

هؤلاء لديهم الولاية على بقية الملائكة بما فيهم أعظم الملائكة كجبرئيل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل عليهم السلام، وغير ذلك مما أشرنا إلى بعضه آنفاً.

ولو أحسنّا الظن بهؤلاء ـ ولو بتعسف شديد ـ لقلنا بأنهم تسامحوا أو تغافلوا ـ حين فسّروا الروح بجبرئيل عليه السلام ـ عن آيات كثيرة تحدثت بمنطق آخر وفهم آخر، ولذلك ترى الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه ينبّه غاضباً إلى هذه الحالة، ويشير إلى ضرورة تفسير القرآن بالقرآن قبل أي شيء آخر، ففي حديث سعد الإسكاف، قال: أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح، أليس هو جبرئيل؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: جبرئيل عليه السلام من الملائكة، والروح غير جبرئيل؛ فكرر ذلك على الرجل فقال له: لقد قلت عظيماً من القول، ما أحد يزعم أنّ الروح غير جبرئيل! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنك ضالٌّ تروي عن أهل الضلال، يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ والروح غير الملائكة صلوات الله عليهم.[1]

ولهذا، وبنظرة فاحصة وسريعة للآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن الروح وطبيعة عمله ومواصفاته، سنجد أن الأمر هو عين ما أشرنا إليه، وأن لا علاقة له بجبرئيل ولا بغير جبرئيل من الملائكة عليهم السلام، إذ كلّما قرن اسمه بالملائكة تم تمييزه عنهم، وقد تم ذلك في أربعة مجالات..

واحدة منها هي آيتنا موضع البحث..

والأخرى في سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾[2]

والثالثة في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[3]..

والرابعة في سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾.[4]

وببساطةِ تأملٍ يمكن لنا تثبيت ملاحظة أساسية هنا، وهي: إن الملائكةعليهم

---

١ الكافي ١: ٢٧٤ ح٦ .
٢ سورة النحل: ٢ .
٣ سورة المعارج: ٤ .
٤ سورة النبأ: ٣٨ .

السلام قد تقدم ذِكرها على الروح في الأُمور التي يكون فيها طلب إلهي معين، ويتم ذكرها كأنها حافّةً به ومرافقةً له، وليس لأنها مكلّفة بعمل آخر في عرض عمله وما يُكلّف به، ولكن في الحال التي تطلب الحضور بين يدي الله تعالى يتقدّم هو عليها كما هو الحال في الآية الأخيرة، لأنه أكثر خصوصية بالله تعالى.

ولو دققنا في آية سورة النحل المتقدمة، نجد أن الاقتران هنا ليس اقتران عطف، وإنما نزلت الملائكة بالروح مِن أمر الله، وجمعنا ذلك بما نستخلصه من آية سورة غافر: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[1]، وشفعّناها بآية سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[2]، وأردفنا كلّ ذلك بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[3]، لنجد في النهاية أن الروح هو المكلّف بالأمر الإلهي المباشر، والملائكة إنما تنـزل معه تعظيماً للأمر الإلهي وتشريفاً لمن يتم التنزّل عليه.

وهذه الآيات ـ بمجموعها ـ لو أضفنا إليها الآيات المتعلقة بالروح التي أُرسلت إلى مريم عليها السلام، والمشار إليها في الآيات التالية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴿١٧١﴾﴾[4]، والآية الكريمة: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[5]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[6]، ومثله قوله سبحانه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[7].

ومثل ذلك، الحديثُ عن التأييد الرباني المعنون بالروح القدس، الذي ذُكر في الآيات الكريمة التالية: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴿٨٧﴾﴾[8]، ومثله قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ

---

١ سورة غافر: ١٥ .
٢ سورة الشورى: ٥٢ .
٣ سورة الإسراء: ٨٥ .
٤ سورة النساء: ١٧١ .
٥ سورة مريم: ١٧ .
٦ سورة الأنبياء: ٩١ .
٧ سورة التحريم: ١٢ .
٨ سورة البقرة: ٨٧ و ٢٥٣ .

أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴿١١٠﴾﴾[1]، ونظيره قوله لرسول الله صلوات الله عليه وآله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [2]

وشأن الروح ـ وَفقاً للآيات الكريمة ـ لا يتوقف عند الأنبياء صلوات الله عليهم، وإنما يمتد ليشمل المؤمنين إلى الآيات الأُخرى التي تتحدث عن الروح المؤيدة للمؤمنين المشار إليها في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ﴾ [3]،وكذا التي أُشير إليها في الآية الكريمة: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴿٨٧﴾﴾[4]، بل يمتد إلى عامة الناس، كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ [5]، فإن الحديث عن الروح نجده دائماً منسوباً إلى الله تعالى، وعلى ارتباط مباشر مع خلقه.

وكلّ ذلك يضعنا أمام حقيقتين، **أولهما** -: أن الروح شيء أعظم من الملائكة؛ لأنها هي بنفسها بحاجة إليه، ولذلك ترى المفسرين يتنقلون في الاحتمالات التي تحكي حقيقة واحدة، وهي تصوّرهم بأنه أعظم من الملائكة، فتارة يقولون بأنه أشرف الملائكة وأقربهم من الله، وأُخرى يقولون بأن الروح طائفة لا تراها الملائكة إلا في ليلة القدر، وثالثة بأنه هو مَن يتولى حفظ الملائكة، وغير ذلك من الأقوال، ولكنّ بعضهم أعلن بأنه من غير الملائكة، كما فعل الماوردي[6] والعزّ بن عبد السلام في تفسيره؛ إذ وصفه من جند الله من غير الملائكة.[7]

وحديث أهل البيت صلوات الله عليهم يؤكد هذه الحالة، ولدينا روايات متعددة في هذا المجال، ففي موثوقة أبي بصير، قال الإمام الصادق عليه السلام في وصفه: "خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل"[8]، وفي حديث آخر يتمّ الإمام عليه السلام

---

١ سورة المائدة: ١١٠ .

٢ سورة النحل: ١٠٢ .

٣ سورة المجادلة: ٢٢ .

٤ سورة يوسف: ٨٧ .

٥ سورة السجدة: ٧ - ٩ .

٦ النكت والعيون ٦: ٣١٣ .

٧ تفسير العزّ بن عبد السلام ٣: ٤٧٣ .

٨ الكافي ١: ٢٧٣ ح٤ .

ليقول: "وهو من الملكوت".[1]

أمّا الحقيقة الثانية، فإنّ ما يبدو واضحاً أنّ تعدّد المهام التي يقوم بها الروح - التي تمّ استعراضها في الآيات القرآنية آنفاً - لا يشير إلى تعددية الروح في العرض، وإنما يشير إلى تعدّدها في الطول، بمعنى أن الروح مقامات ربانية وألطاف إلهية في طول واحد، كدرجات السلّم كلّما اقترب العبد من ربه كلّما رقى إلى ما هو أعلى مما كان فيه، وأولها روح الحياة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ ، وهذه متاحة لكلّ المخلوقات،لكنّ أعظم هذه المقامات هو مقام روح القدس، وقد ورد هذا المعنى في جملة من الأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة صلوات الله عليهم.

ففي حديثه عن الآية الكريمة: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ السَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰٓئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [2] قال الإمام الصادق صلوات الله عليه لجابر بن يزيد الجعفي - في حديث طول كان من جملته -: فالسابقون هم رسل الله عليهم السلام وخاصّة الله من خلقه، جعل فيهم خمسة أرواح: أيّدهم بروح القدس، فبه عرفوا الأشياء، وأيدهم بروح الإيمان، فبه خافوا الله عزّ وجلّ، وأيدهم بروح القوّة، فبه قدروا على طاعة الله، وأيدهم بروح الشهوة، فبه اشتهوا طاعة الله عزّ وجلّ وكرهوا معصيته، وجعل فيهم روح المدرج، الذي به يذهب الناس ويجيئون.

وجعل في المؤمنين وأصحاب الميمنة: روح الإيمان فبه خافوا الله، وجعل فيهم روح القوّة فبه قدروا على طاعة الله، وجعل فيهم روح الشهوة فبه اشتهوا طاعة الله، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجيئون.[3]

وبتفصيل آخر، يقول جابر بن يزيد الجعفي: سألته - الضمير عائد إلى الإمام الباقر صلوات الله وسلامه عليه - عن عِلم العالِم؟ فقال لي: يا جابر! إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوّة، وروح الشهوة؛ فبروح القدس - يا جابر - عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى، ثم قال: يا جابر! إن هذه الأربعة أرواح يصيبها الحدثان إلا روح القدس،

---

١ الكافي ١: ٢٧٣ ح٣ .

٢ سورة الواقعة: ١٠ و١١ .

٣ الكافي ١: ٢٧١ -٢٧٢ ح١ .

فإنها لا تلهو ولا تلعب.[1]

وبعمق آخر، يسأل المفضّلُ بن عمر الجعفي الإمامَ الصادق صلوات الله وسلامه عليه عن عِلم الإمام؟ فقال: يا مفضّل! إنّ الله تبارك وتعالى جعل في النبي صلى الله عليه وآله خمسة أرواح: روح الحياة فبه دبَّ ودرج، وروح القوّة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه آمن وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوّة، فإذا قُبض النبي صلى الله عليه وآله انتقل روح القدس فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو[2]، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به.[3]

ومن خلال سبر الآيات القرآنية آنفة الذكر تتضح عدة جوانب من مهمات الروح، وهذه المهمة تتعلق تارة بالعلم الإلهي، وأُخرى تتعلق باللطف الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.[4]

ويجب ملاحظة ارتباط التأييد بالروح القدس بما كان يحظى به النبي عيسى صلوات الله عليه من علم ومن قدرة ومن تسديد، وهذا العلم والحكمة وهذه القدرة حينما نراها تتفاوت لدى الأنبياء والرسل عليهم السلام، فذلك بمقدار قربهم من الباري تعالى، فلو لاحظت الفرق بين العلم الإلهي لدى أنبياء الله إبراهيم وموسى والرسول الأكرم صلوات الله عليهم وآلهم المطروحة في القرآن، لعرفت ما أعنيه هنا.

فالعلم الإلهي في أحد مصاديقه لدى إبراهيم عليه السلام تمَّ تبيانه عبر قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[5]، فإبراهيم عليه السلام احتاج لكي يرى ملكوت السماوات والأرض إلى تدخل مباشر،

---

١ الكافي ١: ٢٧٢ ح٢.
٢ الزهو: الرجاء الباطل.
٣ الكافي ١: ٢٧٢ ح٣.
٤ سورة المائدة: ١١٠.
٥ سورة الأنعام: ٧٥.

فنسبت الرؤية إلى غيره.

وكذلك الأمر لدى موسى عليه السلام، ففي معرض تعداد الآيات الربانية التي أُودعت لديه تمَّ تعليلها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ .[1]

بينما كان الرسول صلوات الله عليه وآله وهو يرتع في عالم الملكوت الرباني الأعلى ـ وهو مقام لم يصل إليه أحد ـ قد رأى أعظم بكثير مما رآه إبراهيم وموسى صلوات الله عليهما، ولكن نَسَبَ فِعل الرؤية إلى الرسول صلوات الله عليه وآله مباشرة، فقال عنه سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[2]، وقد حصل كلّ ذلك حين رقى به مقامه العبودي إلى الدرجة التي جعلته يعرج إلى الأفق ﴿ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾[3]، فكانت رؤية الرسول صلوات الله عليه وآله لعالم لا يمكن أن يقاس بملكوت السماوات والأرض، ولكن هذه الرؤية إنما كانت بعد أن وصل إلى مقامه الروحي العظيم الذي تصفه الآيات المتقدمة.

وما من شك فإن كلّ ما يتاح من لطف وعلم هو من الله تعالى، ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى المبذولة لكلّ أحد تنتظر المستقبِل والحامل لها، وكلّ امرئ يحمل بمقدار قابليته، فالباذل هو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كلّ شيء، والمشكلة تبقى في الإنسان وقابليته لكي يغترف من هذه الرحمة.

وبتعبير فلسفي، ليست المشكلة بالعلة الفاعلة ـ والله سبحانه هنا هو العلة الفاعلة ـ، ولكن المشكلة بالعلة القابلة ـ وهو الإنسان ـ، وإذا ما كانت العلة الفاعلة قد أذنت بكلّ شيء، يبقى الأمر منوطاً بالعلة القابلة التي يجب أن تبرهن عن استعدادها، وكلّ حسب استعداده، كمن يذهب إلى النهر، فهناك من يحمل بمقدار قدح، وهناك من يحمل بمقدار صهريج، وهناك من يحمل بمقدار أنابيب ضخمة ممدودة إلى مخازن كبيرة، فالكلّ يأخذ، والنهر يبقى مبذولاً، ولكن كلّ واحد من هؤلاء يأخذ حسب سعة وقدرة الوعاء الذي يحمله لجلب الماء؛ فتأمّل!

---

١ سورة طه: ٢٣ .

٢ سورة النجم: ١١ - ١٨ .

٣ سورة النجم: ٧ - ١٠ .

وعليه، فإن الروح المسددة والمؤيدة متاحة، ولكن قابلية الإنسان الإيمانية هي التي تجعله يرقى لها، ولهذا فهي ليست حصراً بالأنبياء والرسل، وإنما هي متاحة لكلّ من يوفّر فرص الحصول عليها، ومن هنا تجد حديث القرآن الكريم عن الروح المؤيدة للمؤمنين كما ذكرنا في الآيات السابقة، بل من هنا تعلم لِم كان الرسول صلوات الله عليه وآله يقول لمثل حسان بن ثابت: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"[1]، فحسان لم يؤيَّد في لسانه من قبل روح القدس إلا بشرط منافحته عن الله وعن رسوله، ومن دون ذلك فلن يجد شيئاً، وهنا حالة الشرط والجزاء هي عينها حالة القابل والفاعل.

الآن وقد اتضحت الصورة، علينا أن نرجع إذاً إلى أسئلتنا الأساسية، فمن الواضح بعد كلّ ذلك أن كلّ ما أورده المفسّرون من تعليلٍ لتنـزّل الملائكة والروح ـ على فرض صحته ـ فإنه يبقى مجرد جزئيات يومية في عمل الملائكة، ولكنه لا يمكن بأي حال أن يتناسب مع الحقائق الكبرى التي أوردناها، وأهمها على الاطلاق أنّ التنزّل بحاجة إلى القابل الذي يتحمل ما يتمّ التنـزّل به، فإن كان حديث القرآن الكريم عن أنّ التنـزّل فيه ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ فإنّ القابل الذي نحتاجه هنا يجب أن تتوفر فيه مؤهلات هذا التنـزّل، وإلا لا معنى لعملية التنـزّل هذه، ولا سيما حينما نراها وهي تحمل الثقل العظيم الذي تمثله جملة ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ ، وبما أن التنـزّل حاصلٌ، إذن لا بُـدّ من وجود القابل، ولا يوجد مَن يجرؤ على القول بأن روح القدس يمكن أن يتنـزّل على أيّ كان، وكيفما كان؛ فالعملية مدارة من قبل الله تعالى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ولا يمكن أنّ تكون عابثة أو بلا هدف، عندئذ مَن سيكون مِن البشر مؤهلاً لهذا القابل؟ ومَن ذاك الذي تتنـزّل عليه الملائكة والروح في كلّ عام في ليلة القدر؟

ما نحتاجه هنا هو رجل له تمحّض في العبودية لله، ويكون خليفة لله على أرضه، لا تلك الخلافة التي تعني منصباً سياسياً، وإنما تتناسب مؤهلاتها مع حجم المهمة المناطة به، والتي وجد أعاظم الملائكة أن أحداً لا يمكن أن يقوم بها إلا من يسبّح ويقدّس على طريقتهم، فأسكتهم الله ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، ثم لـمّا اطّلعوا على شيء من سرّ الأسماء التي أنبأهم بها آدم عليه السلام سحبوا اقتراحهم وقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ .

---

١ صحيح مسلم ٤: ١٩٣٦ ح٢٤٩٠، وتهذيب الآثار (مسند عمر بن الخطاب) للطبري ٢: ٦٣٠ ح٩٢٩، وصحيح ابن حبان ١٦: ١٩٧ ح٧١٤٧، وقد ذكره أحمد في مسنده بلفظ آخر ٦: ٧٢، والترمذي ٥: ١٣٨ وغيرهم كثير.

ونحتاج إلى رجل يقوم بالمهمة التي تحدّث عنها القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [1]، فمن هو الهادي في زماننا هذا؟

ونحتاج إلى رجل يحمل الأمانة الربانية من بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله إلى آخر الزمن، تلك الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض وأُشير إليها في الآية الكريمة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [2]، فالأمانة حينما عرضت إنما عرضت تكريماً للإنسان الكامل الذي ابتعد عن الظلم والجهل، ولكنه بسبب ظلمه وجهله يبتعد عن أداء هذه الأمانة ومستلزماتها، فيُحرِم نفسه من الكرامة التي أرادها الله تعالى له، ولا يُعبأ بمقولة بعضهم بأنّ الإنسان كان ظلوماً جهولاً لأنه قبل حمل الأمانة! فهذا إلى الجهل أقرب منه إلى أي شيء آخر.

ونحتاج إلى رجل يكون شاهداً لرسول الله في زماننا هذا، وفق ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [3]، وهنا من الواجب أن ننبّه إلى جهل مركّب وقع فيه أهل التفسير من العامة، حينما تصوروا أنّ كلمة ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المذكورة في الآية تعني أن أُمّة الإسلام بعمومها هي الشاهدة لرسول الله صلوات الله عليه وآله، ولم يدركوا أن ذلك يخالف أبسط بديهيات القرآن.

فالقرآن يميّز ما بين مرحلتين، أولهما الإسلام والثانية الإيمان، ولا يقبل من أهل الإسلام أن يقولوا بأنهم من أهل الإيمان حتى يتغلغل الإيمان في القلب فيصبح سلوك المرء حاكياً عن إسلامه، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [4]، بينما تلك الآية تتحدث عن إيمان عميق، والتزام تام به، حتى بلغ هؤلاء درجة التسليم لله تعالى، وهي درجة أعلى بكثير من درجة المؤمنين، وقد كانت عناية القرآن كبيرة في هذا المجال إذ كنّى عن هؤلاء الشهداء بأن إسلامهم مقرون بإسلام إبراهيم عليه السلام، أو أنه نتيجة لدعاء إبراهيم لذرّيته ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾ [5].

---

١ سورة الرعد: ٧ .

٢ سورة الأحزاب: ٧٢ .

٣ سورة الحج: ٧٨ .

٤ سورة الحجرات: ١٤ .

٥ سورة البقرة: ١٢٨ .

ونحتاج إلى الرجل الذي يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [1] وحاشا لله أن يدّعي دعوى من دون مصداق يجسّدها، وهذا الادعاء عظيم جداً، فعملية تسخير ما في السماوات وما في الأرض تشمل كلّ شيء فيهما، وهي أحد مصاديق الأمانة الربانية، فمن هو يا ترى الذي يستطيع أن يدّعي أنه رجل هذه الآية في زماننا هذا؟ ليكون الشاهد لله على ذلك.

فإن قيل: يمكن أن يكون رسول الله صلوات الله عليه وآله هو رجلها.

قلنا: آمنا بالله وهو أعظم رجالها، ولكن هل توقفت الآية في زمن الرسول بحيث إنّ لا مصداق لها في زماننا هذا، ولقد رأينا وصياً لسليمان عليه السلام قال القرآن عنه بأنه يمتلك بعضاً من عِلم الكتاب قد قام بما قام ليظهر قدرته على التصرف بالأشياء ومقدار ما سُخرت له أُمور الأرض والسماء، فهل عدمت أُمة الإسلام هذا الرجل؟! أم ماتت الآية وتوقفت؟! أم أن هذا الرجل هو نفس الرجل الذي أوصلتنا إليه آية القدر؟!

وهكذا هو حال عديد من الآيات القرآنية التي تنتهي دلالاتها عند ذِكر مقامات لا بُدّ من تحققها في كلّ زمن لتأمين الحجة الربانية، وكلّ هذه المقامات تحتاج إلى رجل معصوم، وليس لأي رجل، وإلا لَما وجدنا آيات الخلافة الربانية والأمانة الربانية والشهادة على الناس وغيرها مقيدة بشرط العصمة.

ومع قليل من التجرّد لله تعالى ستكون الحقيقة واضحة أمامنا وضوح الشمس في رابعة النهار؛ إذ لا يعقل عدم وجود جهة مخصّصة لكلّ هذه المقامات، وغيرها كثير، ولا يعقل أن الآيات القرآنية حينما تطرح مصاديق المفاهيم أن لا نبحث عن هذه المصاديق؛ لأن عدم العثور على هذه المصاديق سيجعل المفاهيم نفسها ضبابية جداً.

إذن مَن هي هذه الجهة من بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله لكلّ هذه الأُمور؟

ومن هي الجهة التي تحظى بهذه المنزلة في عصرنا هذا؟

هل سيلجئنا العناد الطائفي والمذهبي لنقول بانتفاء وجود ليلة القدر؟! أم سنعود إلى عملية التسطيح والتجهيل الفكري التي سيطرت على عقول الناس وحذرتهم من الاقتراب من أعماق الأفكار المطروحة في القرآن والحديث، لنعيد ونصقل ما سبق

---

١ سورة لقمان: ٢٠ .

للمفسّرين أن رسّخوه جهلاً وعناداً في رؤوس الناس؟!

وفي مسك الختام، ما زال أمامنا سؤال محيّر لم يُجب عنه كلّ أهل التفسير، بل مرّوا عليه دونما أيّ التفات لائق بحدث له كلّ هذه الأهمية عند الله سبحانه وتعالى بحيث يخصها بسورة منعزلة عن غيرها، وجوابه هو الآخر يدفعنا بشكل جدي نحو ما انتهينا إليه آنفاً، والسؤال يتعلق بالأسباب التي أدت إلى أن تسمّى ليلة القدر بهذا الاسم.

صحيح أنّ المفسّرين ذكروا أنها الليلة التي تتنـزّل فيها الملائكة والروح بالآجال والأرزاق وما إلى ذلك، ولكن نقطة الغفلة تكمن في أنهم عنوا القضاء، بينما يتحدّث القرآن عن القدر، وبينهما فرقٌ جوهري وحاسم، فالقدر كما هي الخريطة للمهندس، والقضاء تنفيذ هذه الخريطة وتجسيدها.

وعليه، فلنا أن نسأل: ما السر في تنـزيل الأقدار إلى ما يسمّيه بعض المفسّرين بالسماء الدنيا؛ يقول أبو جعفر النحّاس: ينـزلون بأمر الله الذي فيه الآجال والأرزاق إلى السماء الدنيا من كلّ أمر[1]، أو إلى الأرض كما تردّد بعض المفسّرين بينها وبين السماء الدنيا[2]، ففي لغة هؤلاء لا توجد جهة محددة تنتهي إليها عملية التنـزّل.

إذن لماذا تنـزّل الأقدار إلى هذا المكان أو ذاك وفق ما قالوه؟!

وما الحكمة في كلّ هذه العملية؟!

وقد ذهبت محاولة مقاتل بن سليمان دونما جدوى حينما قال: «ينـزلون فيها بالرحمة وبكلّ أمر قدّره الله وقضاه في تلك السنة»[3]، فلقد أراد علاجاً لعينها فسملها؛ لأنه جمع ما بين القضاء والقدر، وما من ريب أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يقضي الأمور ويقدّرها، ولكن لماذا تتنـزّل الملائكة والروح بالأقدار، وليس بالقضاء؟!

وحين التدقيق ـ وبلحاظ وجود الروح المتلازم مع العلم الإلهي ـ يمكن القول بأنّ نزول الأقدار إمّا لأجل إعلام المتنـزّل عليه بما سيجري في هذا العام وإحاطته بذلك، وإمّا بهدف إحاطته برغبة تدخّله وشفاعته ولطفه بالمؤمنين، وإما بالأمرين معاً ولهذا

---

١ إعراب القرآن ٥: ٢٦٨ .

٢ تفسير البيضاوي ٥: ٥١٣، وتفسير النسفي ٤: ٣٥٠ .

٣ تفسير مقاتل بن سليمان ٣: ٥٠٣ .

لم تُسَمّ الليلة بليلة القضاء، وإنما سمّيت بالقدر وأُعطيت كلّ هذه الخصوصية؛ لأنّ القضاء يأتي من بعد تقدير الأقدار، وتبرم الأُمور عندئذ إبراماً، وفي كل الحالات يعدّ الأمر تعظيماً للمتنـزّل عليه، ولهذا طولب أهل الإيمان بالاجتهاد بإحياء هذه الليلة؛ لأنها الليلة التي تنتهي فيها عملية تقدير الأقدار؛ فلا تغفل[1]!

ولو نقّب الباحثون أعماق الأرض وسبروا أغوارها، ورقوا إلى السماء ليجدوا أجوبة حقيقية لكلّ هذه الأسئلة لَما عثروا عليها إلا بالإقرار بشأن حياة الإمام المنتظر صلوات الله عليه الفعلية والمنجّزة.

وأنا أنصح طلاب الحقيقة، والراغبين في معرفة الأُمور على حقيقتها، أن لا يستعجلوا في محاولة الوصول إلى النتائج، وإنما يجب عليهم أن يؤسّسوا لأنفسهم فهماً لكيفية التعرّف على مواصفات وشروط الموضوع المبحوث عنه قبل الخوض في تفاصيله، واسمحوا لي أن أسمّي ذلك من باب التوضيح بنظرية (حذاء سندريلا)، ففي هذه القصة الطفولية يطرح مؤلفها مبدأً عقلياً مهماً للغاية، فمع كثرة النساء وخفاء عنوان سندريلا كان لا بُدّ من الاستعانة بحذائها لاكتشاف أيّ قدم يمكن أن تتناسب معها لكي يتم التعرف من خلال هذا التناسب على الأُمور المبحوث عنها.

وقد حثّنا القرآن الكريم على التدبّروالتفكّر في آياته، ولكنه حذّرنا سلفاً من أن نفس القرآن فيه ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[2]، وأكّد على وجود صنفين من الناس الذين يتعاملون معه، صنف تداخل الزيغ في قلوبهم فكانوا من أصحاب الذنوب والآثام، فراحوا يستغلون المتشابهات إما لابتغاء الفتنة، وإما لابتغاء التأويل، ولكن تداخل الزيغ في قلوب هذا الصنف بشقيه منعهما من الوصول إلى حقائق الكتاب الكريم، ولكنه مع ذلك تحدّث عن صنف آخر سمّاهم بالراسخين في العلم، وحينما يكونون بهذه الصفة، فمعناه أنهم من أصحاب القلوب الطاهرة التي لم يتداخلها الزيغ، وإلا لحسبهم من الصنف الأول، الّذين قال عنهم بأنهم يبتغون التأويل ولكن لا يصلون إليه، عندئذ يكون الله تعالى قد طرح الشرط والمؤهل، وما على الإنسان إلا أن يفتش عن القلوب التي يتيقن من طهارتها لكي يعرف أنها راسخة في العلم، ومن هو أصدق من الله تعالى في وصف قلوب أهل

---

١ ولا أريد أن أتوسّع أكثر من ذلك، فلقد تركنا التفصيل لتفسيرنا لليلة القدر، ولكتابنا (علم المعصوم عليه السلام)، وأعتذر للقارئ الكريم من الإسهاب.

٢ سورة آل عمران: ٧ .

البيت عليهم السلام بالطريقة التي عرضها في سورة الأحزاب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [1] لنتيقن بعدها أنهم هم الراسخون في العلم، ومن ثم لنفهم السر الذي يكمن وراء جعل الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله عترته بمنزلة تركته من بعد القرآن الكريم، التي إنْ تمَّ الالتزام بها لن يتغلغل الضلال في هذه الأُمّة.

من بعد كلّ ذلك، ألا يدلّ ذلك على وجوده وحياته صلوات الله عليه؟!! أعتقد أنّ مقداراً بسيطاً من الإنصاف كافٍ لمعرفة الحقيقة.

*****

---

١ سورة الأحزاب: ٣٣ .

ثالثاً: متى وُلِد؟

بعد أن رفعنا كلّ الموانع العقلية والعلمية والنفسية من إمكان طول عمر الإمام (روحي فداه)، وبعد أن عرفنا بوجود حجج عقلية وشرعية تحتّم ضرورة وجوده (بأبي وأمي) في زمننا هذا، نأتي الآن لندخل مباشرة في مسألة تحديد موعد ولادة الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

ولتحديد ذلك لا يوجد أمامنا وسيلة أفضل وأهم من شهادة أهل بيته صلوات الله عليهم حول هذه الولادة، فهي من جهة تمثل منطق أهل الدار وهم أدرى بالذي فيه، ومن جهة أُخرى كونها ترتّب حقوقاً مادية على نفس أهل الدار، من قبيل مسائل الإرث وما إلى ذلك، فالوليد وليدهم وسيترتب على وجوده مقاسمتهم في كلّ أرث يدخل هو في سياقه، ومن جهة ثالثة نظراً لطبيعة ومواصفات الوليد التي سبق للرسول صلوات الله عليه وآله أن تحدّث عنها، وشاع الحديث عنه بشكل دخل كلّ جزء من أجزاء هذا المجتمع، فإن من الطبيعي بمكان أن يكون حديثهم عنه بمنزلة تحمّل المسؤولية الأمنية باهضة الكلفة في قبال نظام حاكم كان يتعقب بمنتهى الجدية والقسوة كلّ ما يتعلق بالمولود؛ لأنه يمثل تهديداً جدياً لها وفق ما تحدّثت عنه النبوءة المحمّدية، ولا سيما أن تلك الفترة كانت تشهد عداءً دامياً ما بين البيت العباسي الحاكم، وبين العلويين، بشكل عام وأهل البيت عليهم السلام بشكل خاص، ولا يوجد من يخالف في حدّة نصب بني العباس وبغضهم للعلويين من المؤرخين أحد، حتى قال أبو عطاء السندي، وهو يصوّر إجرام بني العباس في تلك البرهة مع أهل البيت صلوات الله عليهم وشيعتهم وغيرهم، حتى إنه يتمنى دوام ظلم بني أُمية لهم، قياساً لما لاقوه من بني العباس:

يا ليت جور بني مروان دام (عاد) لنا   وليت عدل بني العباس في النار[1]

وهذا الأمر ـ أي عملية كشف ولادة الإمام صلوات الله عليه والتحدّث عنها ـ يسري أيضاً على شيعة العلويين، ولذلك لا قيمة للمحاولات التي ترمي للتشكيك بصدقية كلام أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، تارة من خلال الشك في طرق الوصول إليهم واعتماد منهج الجرح والتعديل السنّي للجرح والتعديل لرواة الشيعة، بالشكل الذي لا يبقي على طريق سليم واحد، لأن ذلك المنهج قائم على

---

١ الشعر والشعراء ١: ١٦٥، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦).

أساس القدح بالراوي لشيعيته حتى لو كان صدوقاً.[1]

وأُخرى من خلال التشبث ببعض الأكاذيب التي كانت تصوّر الإمام الحسن العسكري صلوات الله عليه بأنه كان عقيماً!

أو من خلال التعامل مع بعض الروايات الورادة في صدد إبعاد نظر السلطة العباسية التي كانت تتقفى أثر ولادة الإمام (بأبي وأمي) بكلّ السبل.

أو من خلال التمسك بادعاءات بعض المبطلين الّذين راموا سوء الاستفادة المالية والاجتماعية من خلال نكران ولادة الإمام المهدي صلوات الله عليه كما في أحداث ادعاء جعفر ابن الإمام الهادي صلوات الله عليه!

ومن خلال ملاحظة منهج أهل البيت عليهم السلام في حديثهم عن ولادة الإمام صلوات الله عليه، نلحظ ثلاثة خطوط:

الأوّل: كثرة الحديث عن أنّ الأئمة اثنا عشر آخرهم المهدي المنتظر، وبعضها يسميه باسمه أيضاً.[2]

فقد وردت عن الإمام الجواد عليه السلام رواية طويلة فيها شهادة الخضر عليه السلام، وفيها يعدّد شهادته بالأئمة، وأن اللاحق هو القائم على أمر من سبقه، إلى أن يقول: "وأشهد على الحسن بن علي أنه القائم بأمر علي بن محمد، وأشهد على رجل من وُلد الحسن، لا يكنّى ولا يسمّى حتى يظهر أمره، فيملأها عدلاً كما ملئت

١ تحفل مناهج الجرح والتعديل المعتمدة في المدارس المناهضة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام بكثير من العبارات التي تشير إلى وثاقة الراوي أو صدقه لولا تشيعه، وحسنه لولا رافضيته، وهذه التهمة كافية لإسقاط الراوي وروايته؛ تراجع على سبيل المثال ترجمة عباد بن يعقوب الرواجني وجابر بن يزيد، وعبيد الله بن موسى وأجلح بن عبد الله الكوفي عبد السلام بن صالح الهروي المعروف بأبي الصلت الهروي ونظرائهم، بل إن بعضهم كالقطان والبخاري أسقطوا رواية الإمام الصادق (بأبي وأمي) لنفس العلة.

انظر: ذِكر من تُكلّم فيه وهو موثّق ١: ٦٠؛ لابن قايماز الذهبي؛ مكتبة المنار - الزرقاء.

٢ من الواضح أن روايات كثيرة وردت في مقام النهي عن تسميته، وبعضها قد يشير إليه بالأحرف دون التسمية، وهذه لا تتناقض مع الروايات التي سمّته صلوات الله عليه؛ لأن مقام الحديثين يختلف من الناحية السياسية ومن ناحية المتلقي للحديث، فمع الأمان والاطمئنان من أن المتحدث لن يفشي سرّ الإمام عليه السلام لم يجد الأئمة صلوات الله عليهم غضاضة من التصريح، ومع عدم الاطمئنان - لسبب أو آخر - يأتي الحديث عن النهي.

جوراً". [1]

وعن أبي بصير، عن الإمام الباقر عليه السلام: "يكون تسعة أئمة بعد الحسين بن علي، تاسعهم قائمهم". [2]

الثاني: حديث الأئمة عليهم السلام ـ الكثير أيضاً ـ عن أن الإمام المهدي صلوات الله عليه لم يولد بعد، كما في حديث إسحاق بن محمد بن أيّوب، الذي يقول فيه: سمعت أبا الحسن علي بن محمد بن علي ابن موسى عليهم السلام يقول: "صاحب هذا الأمر مَن يقول الناس: لم يولد بعد". [3]

وقد يُسألون مِن قبل أصحابهم عما إذا كانوا هم المعنيّين بمصطلح الإمام القائم أو المهدي الموعود، فمع إن المصطلح يشمل جميع الأئمة صلوات الله عليهم إلا إنهم يشيرون بالنفي حين التخصيص، مع التأكيد على حقيقة أنه سيكون آخرهم؛ كما في حديث عبد الله بن عطاء، عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: قلت له: مَن صاحبنا؟ قال: "انظروا من عمي على الناس ولادته فذاك صاحبكم". [4]

وكذا حديث أيوب بن نوح، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: إني أرجو أن تكون صاحب هذا الأمر، وأن يسوقه الله إليك بغير سيف، فقد بويع لك، وضُربت الدراهم باسمك! فقال: "ما منّا أحد اختلفت إليه الكتب، وأُشير إليه بالأصابع، وسئل عن المسائل، وحملت إليه الأموال، إلا اغتيل أو مات على فراشه، حتى يبعث الله لهذا الأمر غلاماً منّا خفيّ الولادة والمنشأ، غير خفيّ في نسبه". [5]

الثالث: حديث الإمام العسكري صلوات الله عليه وأصحابه من أنّ الإمام (بأبي وأمي) قد وُلد فعلاً[6] ونفس حديث الرجل بأن له ولداً كاف في الدلالة، فما بالك أن

---

١ الكافي ١: ٥٢٥ ح١ .

٢ الكافي ١: ٥٣٣ ح١٥ .

٣ الإمامة والتبصرة من الحيرة: ١٠ ب٢٨ ح٩٤ .

٤ الكافي ١: ٣٤٢ ح٢٦ .

٥ الكافي ١: ٣٤١ ح٢٥ .

٦ وهذا لا تقدح به بعض الروايات التي تحمل بعضها على محمل التقية من نفي الإمام عليه السلام للولادة، نتيجة لشدة طلب بني العباس للمولود المبارك، أو أن تحمل على عدم حصول الولادة فعلاً حين السؤال.

يكون هذا الرجل مثل الإمام العسكري وهو يتحدث عن ولد مثل الإمام المنتظر صلوت الله عليهما؟ فعن أبي غانم الخادم، قال: وُلد لأبي محمد عليه السلام وَلد سمّاه محمّداً، فعرضه على أصحابه يوم الثالث، وقال: "هذا صاحبكم من بعدي، وخليفتي عليكم، وهو القائم الذي تمتد إليه الأعناق بالانتظار، فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً، فملأها قسطاً وعدلاً".[1]

وعن محمد بن علي بن بلال، قال: خرج إلي من أبي محمد قبل مضيّه بسنتين يخبرني بالخلف من بعده، ثم خرج إلي من قبل مضيّه بثلاثة أيام يخبرني بالخلف من بعده.[2]

وعن أبي هاشم الجعفري، قال: قلت لأبي محمد عليه السلام: جلالتك تمنعني من مسألتك، فتأذن لي أن أسألك؟ فقال: سل، قلت: يا سيدي هل لك ولد؟ فقال: نعم، فقلت: فإن حدثَ بك حدثٌ فأين أسأل عنه؟ فقال: بالمدينة.[3]

وعن عمرو الأهوازي، قال: أراني أبو محمد ابنه وقال: "هذا صاحبكم من بعدي".[4]

وعن حمدان القلانسي، قال: قلت للعمري[5]: قد مضى أبو محمد؛ فقال لي: قد مضى ولكن خلّف فيكم من رقبته مثل هذا؛ وأشار بيده.[6]

وعن عبد الله بن جعفر الحميري، وذكر رواية طويلة فيها توثيق الإمام الهادي عليه السلام للعمري بمحضر بعض أصحابه، منهم أحمد بن اسحاق، إلى أن يقول وهو ينقل ما أخبره به أحمد ابن إسحاق من أنّه سأل أبا محمد عليه السلام عن العمري، فقال له: العمري وابنه[7] ثقتان، فما أدّيا إليك فعنّي يؤدّيان، وما قالا لك

---

١ كمال الدين وتمام النعمة: ٤٣١ ب٤٢ ح٨؛ للشيخ الصدوق علي بن الحسين بن بابويه القمي؛ نشر الحوزة العلمية - قم المقدسة.

٢ الكافي ١: ٣٢٨ ح١. وقوله: "خرج إلي" أي أرسل إليه رسالة أو ما شاكل.

٣ الكافي ١: ٣٢٨ ح٢.

٤ الكافي ١: ٣٢٨ ح٣.

٥ هو: عثمان بن سعيد العمري، بوّاب الإمامين الهادي والعسكري صلوات الله عليهما، وأول نائب للإمام الحجة عجل الله فرجه من نوابه الأربعة، وسيأتي الحديث عن وثاقته العالية عند الإمامين صلوات الله عليهما.

٦ الكافي ١: ٣٢٩ ح٤. وقوله: "مَن رقبته مثل هذا"؛ إشارة إلى استوائه صلوات الله عليه.

٧ ابنه هو الشيخ محمد بن عثمان وهو النائب الثاني للإمام الحجة من النواب الأربعة.

فعنّي يقولان، فاسمع لهما وأطعهما، فإنهما الثقتان المؤمونان، فهذا قول إمامين قد مضيا فيك.

قال: فخرّ أبو عمرو ساجداً وبكى، ثم قال: سل حاجتك؟

فقلت له: أنت رأيت الخلف من بعد أبي محمد عليه السلام؟

فقال: إي والله، ورقبته مثل ذا ـ وأومأ بيده ـ.

فقلت له: فبقيت واحدة!

فقال لي: هات.

قلت: فالاسم؟

قال: محرّم عليكم أن تسألوا عن ذلك، ولا أقول هذا من عندي، فليس لي أن أُحلل ولا أُحرّم، ولكن عنه عليه السلام، فإنّ الأمر عند السلطان أنّ أبا محمد مضى ولم يخلّف ولداً، وقسّم ميراثه، وأخذه من لا حق له فيه، وهو ذا عياله يجولون ليس أحد يجسر أن يتعرف عليهم أو ينيلهم شيئاً، وإذا وقع الاسم[1] وقع الطلب، فاتقوا الله وأمسكوا عن ذلك.[2]

ولهذا لا يبقى مجالٌ للشكّ بوقوع الولادة، ولا سيما أنه لا يستطيع أحدٌ أن يقف في وجه كلّ هذه الأدلة على الولادة، على الرغم من أنه يكفي أن يقول الأب: وُلد لي ولد، ويراه شاهدان، لكي يثبت وقوع الولادة، وهو كما ترى ما كان ليحتدم عليه الجدل لولا خصوصية المولود المذهبية!

هذا، والحال هو في حدود شهادة أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم عليها، فما بالك لو أن المتحدثين عن ولادة الإمام صلوات الله عليه هم من الطرف المناهض لأهل البيت عليهم السلام؟!

وسأكتفي هنا بذِكر بعض الشهادات، تاركاً التفاصيل والمزيد منها للكتب المتخصصة في هذا المجال.

---

١ الكافي ١: ٣٣٠ ح١ .

٢ أي إذا أُشيع الاسم وأمره.

قال الحافظ والمؤرخ والرجالي شمس الدين بن قايماز الذهبي[١] وهو يترجم للإمام المهدي المنتظر صلوات الله عليه في كتابه "**سير أعلام النبلاء**": الشريف، أبو القاسم، محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن زين العابدين بن الحسين الشهيد بن الإمام علي بن أبي طالب، العلوي، الحسيني، خاتمة الاثني عشر سيداً، الّذين تدّعي الإمامية عصمتهم، ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة، وأنه صاحب الزمان، وصاحب السرداب بسامراء، وأنه حي لا يموت حتى يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً...

وبعد أن يسرد جملة من شبهاته وتخرّصاته، ويتعرض لمسألة اعتقال أُمّ الإمام صلوات الله عليها من قبل المعتضد العباسي وبقائها معتقلة في قصره إلى حين وفاتها في أيام المقتدر العباسي، قال: قلت: ويزعمون أن محمداً دخل سرداباً في بيت أبيه، وأُمّه تنظر إليه، فلم يخرج إلى الساعة منه، وكان ابن تسع سنين، وقيل دون ذلك.[٢]

وكان قد ذكره في كتابه "**العبر**" ضمن ذكره لأحداث سنة ٢٦٠، في ترجمته للإمام العسكري عليه السلام، قال: "وهو والد المنتظر محمد، صاحب السرداب".[٣]

وقال في أحداث سنة ٢٦٥: "وفيها[٤] محمد بن الحسن بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، العلوي، الحسيني، أبو القاسم، الذي تلقّبه الرافضة الخلف الحجّة، وتلقبه بالمهدي، والمنتظر، وتلقّبه بصاحب الزمان، وهو خاتمة الاثني عشر ـ إلى أن يقول: ـ وكان عمره لـمّا عدم تسع سنين أو دونها".[٥]

وقال أيضاً في كتابه "**تاريخ الإسلام**" ضمن ترجمته للإمام العسكري صلوات الله عليه: "وهو والد منتظر الرافضة ـ إلى أن قال: ـ وأما ابنه محمد بن الحسن،

---

١ وهو ممن يعدّه بعضُ أهل السُنّة من النواصب، فما بالك بغيرهم؟!

٢ سير أعلام النبلاء ١٣: ١١٩ - ١٢١ رقم ٦٠.

٣ العبر في خبر من غبر: ١: ٢٣٤؛ لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي؛ دار الفكر؛ بيروت ١٩٩٧.

٤ أي وُلد فيها.

٥ العبر في خبر من غبر ١: ٢٣٨.

الذي يدعوه الرافضة القائم الحجة، فوُلد سنة ثمان وخمسين، وقيل: سنة ستّ وخمسين". [1]

وقال المؤرخ علي بن عبد الواحد المعروف بابن الأثير الجزري أثناء ذكره لأحداث سنة ٢٦٠: "وفيها توفي أبو محمد العلوي العسكري، وهو أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية، وهو والد محمد الذي يعتقدونه المنتظر". [2]

وقال المؤرخ أحمد بن محمد بن أبي بكر المعروف بابن خلّكان في ترجمة الإمام صلوات الله عليه: "أبو القاسم المنتظر: أبو القاسم، محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد المذكور قبله[3]، ثاني عشر الأئمة على اعتقاد الإمامية، المعروف بالحجة، وهو الذي تزعم الشيعة أنه المنتظر والقائم والمهدي، وهو صاحب السرداب عندهم، وأقاويلهم فيه كثيرة، وهم ينتظرون ظهوره في آخر الزمان من السرداب بسرّ من رأى!

قال: كانت ولادته يوم الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومئتين، ولـمّا توفي أبوه ـ وقد سبق ذكره ـ كان عمره خمس سنين، واسم أمه خمط، وقيل: نرجس[4]، والشيعة يقولون: إنه دخل السرداب في دار أبيه، وأُمّه تنظر إليه، فلم يعد يخرج إليها، وذلك في سنة خمس وستين ومئتين، وعمره يومئذ تسع سنين.

وذكر ابن الأزرق في **(تاريخ ميافارقين)** أنّ الحجة المذكور وُلد تاسع شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين ومئتين، وقيل في ثامن شعبان سنة ست وخمسين، وهو الأصح، وأنه لـمّا دخل السرداب كان عمره أربع سنين، وقيل خمس سنين، وقيل: إنه دخل السرداب[5] سنة خمس وسبعين ومئتين، وعمره سبع عشر سنة، والله أعلم

---

١ تاريخ الإسلام ١٩: ١١٣ .

٢ الكامل في التاريخ ٥: ٣٧٣؛ لعز الدين علي بن عبد الواحد، المعروف بابن الأثير الجزري؛ دار الفكر؛ بيروت ٢٠٠٣ .

٣ أي ترجم له سابقاً.

٤ من الواضح أن هناك تسميات متعددة لاسم أمه صلوات الله عليه وعليها، وقد تسمّى صقيل، والصحيح هو نرجس، ولا سيما أن الأشراف كانوا يسمون الإماء اللاتي يشترونهن بأسماء الورود وغيرها إكراماً لهنّ، وتطييباً لأنفسهنّ، ولربما يدخل تعدد الأسماء في عملية متعمدة الهدف؛ لغرض التعمية على هوية أُمّه الحقيقية التي كانت موضع نظر جواسيس السلطان والقابلات ترقباً لولادته صلوات الله عليه.

٥ السرداب هو الموضع المعروف حالياً على يمين مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام،

أيّ ذلك كان، رحمه الله تعالى".[1]

وقال صاحب "**شذرات الذهب**": "والإمام محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد ابن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، العلوي، الحسيني، أبو القاسم، الذي تلقبه الرافضة بالخلف والحجة، وبالمهدي، وبالمنتظر، وبصاحب الزمان، وهو خاتمة الاثني عشر إماماً عندهم، ويلقبونه أيضاً بالمنتظر، فإنهم يزعمون أنه أتى السرداب بسامرا فاختفى، وهم ينتظرونه إلى الآن، وكان عمره لـمّا عدم تسع سنين أو دونها".[2]

ويقول الحافظ ابن حجر الهيثمي في خاتمة ترجمته للإمام العسكري عليه السلام: "ولم يخلّف غير ولده أبي القاسم محمد الحجة، وعمره عند وفاة أبيه خمس سنين، لكن آتاه الله فيها الحكمة، ويسمّى القائم[3] المنتظر، قيل: لأنه سُتر بالمدينة وغاب فلم يعرف أين ذهب".[4]

ويقول الشيخ محيي الدين بن عربي وهو يتحدث عنه صلوات الله عليه: "وهو من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله) من فاطمة (رضي الله عنها)، جدّه الحسين بن علي بن أبي طالب، ووالده حسن العسكري ابن الإمام علي النقي ابن الإمام محمد التقي ابن الإمام علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي

وقد كان جزءاً من بيت الإمام العسكري عليه السلام، ولقد نسجت العامة والنواصب -تعمداً أو جهلاً، بخبث ومن دونه - كثيراً من القصص الخيالية حول طبيعة ارتباط الشيعة به.

والصحيح أن السرداب هو أحد المواضع التي اختفى الإمام (روحي فداه) فيه، ومعلوم أن مواضع اختفائه كما هي مواضع ظهوره أكثر من أن تعد، والقول بأن الشيعة ما زالوا ينتظرون خروجه من السرداب على الطريقة التي ينسجها النواصب لا صحة له على الإطلاق، وربما اشتهرت قصة السرداب ضمن مسعى الإمام عجل الله تعالى فرجه لإفقاد الأمل لدى السلطة العباسية بوجوده، لِما في وضع السرداب من إيحاءات تتقارب مع القبر، وما إلى ذلك.

١ وفيات الأعيان وأنباء الزمان ٤: ١٧٦ رقم ٥٦٢؛ لابن خلّكان؛ دار الثقافة - بيروت.

٢ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١: ١٥٠؛ لعبد الحي بن أحمد ابن العماد الحنبلي الدمشقي؛ دار الكتب العلمية - بيروت.

٣ في النسخة المطبوعة من المصدر: «القاسم»، وهو تصحيف بيّن لما أوردناه.

٤ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة: ٢٠٨ الفصل الثالث من الباب الحادي عشر؛ للحافظ أحمد بن حجر الهيتمي المكي؛ مكتبة القاهرة ١٩٦٥ط٢ . علماً بأن هذا الكتاب إنما ألّفه الهيتمي للرد على الشيعة وعقائدهم في شأن أهل البيت عليهم السلام.

ابن أبي طالب (رضي الله عنهم)".[1]

هذه شهادات كبار مؤرخيهم، ولكن يبقى ثمة تساؤل يعتلج أمام هذا الموضوع، وهو لماذا لا نجد رأياً عاماً وقاطعاً لدى المسلمين جميعاً من غير شيعة أهل البيت صلوات الله عليهم بشأن ولادة الإمام (روحي فداه)؟! ولا سيما أن الإمام المهدي (بأبي وأمي) له من الأهمية والخصوصية لدى جميع المسلمين ما يفرض أن يكون الجميع متأهبين لمعرفة حدث الولادة هذا، فضلاً عن بقية تفاصيل حياته!!

ولو كان يعسر ذلك.. فلماذا لا نجد شريحة العلماء والمحققين - في الأقل - مجمعة على ذلك، أو تقترب قناعاتها من تشكيل رأي يقترب من الإجماع؟!

والحقيقة أن ذلك يمثل أحد ظلامات أهل البيت صلوات الله عليهم، وهذه الظلامة لا تتعلق بالإمام المهدي (بأبي وأمي) فحسب، وإنما تمتد إليهم بأجمعهم، إذ يفترض بأُمّة كلّفت - في الأقل - بمودّتهم لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2]، أن تهتم بكلّ ما يتعلّق بهم، ولكن هذه الأُمّة سارت في الاتجاه المعاكس، مبدية لأهل البيت عليهم السلام من البغضاء ما لم تبده لأحد غيرهم، فقتلت منهم من قتلت، وسبت من سبت، وشرّدت من شرّدت، وحاربت من حاربت، وسجنت من سجنت، وعذبت من عذبت، وهَجَرت من هَجَرت، وقَلَتْ من قَلَتْ، وأفقرت من أفقرت، فمِن مناد ينادي: اقتلوهم ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية، ومن يقسم ويقول: والله لو وليتها لأفنين آل أبي طالب، ومن يرعد ويزبد فيقول: حتام أصبر على آل أبي طالب، والله لأقتلنّهم ولأقتلنّ شيعتهم.[3]

ولا أبالغ في القول بأن الله تعالى لو كان قد أمرهم بأن يبغضونهم ويحاربونهم، بدلاً من موادّتهم لما زادوا على ما فعلوا شيئاً في طاعته بهذا الشأن!!

وكم كان الشاعر دعبل الخزاعي صادقاً في تصوير مأزق هذه الأُمّة مع أهل البيت صلوات الله عليهم، حينما قال راثياً الإمام الرضا صلوات الله عليه بعد قتله من قبل المأمون العباسي:

---

١ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ٢: ١٤٣؛ لعبد الوهاب الشعراني، نقلاً عن الفتوحات المكية لابن عربي، الباب: ٣٦٦؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٩ .

٢ سورة الشورى: ٢٣ .

٣ الأغاني ٥: ٢٢٥، والقول لهارون العباسي الملقب بالرشيد.

لم يبق حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمانٍ ولا بكرٍ ولا مضرِ

إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزرِ

قتلاً وأسراً وتخويفاً ومنهبة ... فِعل الغزاة بأهل الروم والخزرِ

أرى أُمية معذورين إن فعلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذرِ[1]

وقد صدق الشاعر في تصوير ما صبّه بنو العباس من ظلم على أهل البيت عليهم السلام في قوله:

تالله ما فعلت أُمية فيهم ... معشار ما فعلت بنو العباسِ

ولهذا لا غرابة من تحقق أمرين:

أولهما: اعتماد أهل البيت صلوات الله عليهم وشيعتهم على مبدأ التقية، الذي يعني أن يمارسوا شؤونهم بعيداً عن أنظار العامة من الناس، ولا سيما مَن كان له عمل مع السلطان الأموي أو العباسي، وهذا ما يستدعي أن تكون أخبارهم في ساحة الخاصة من الناس، ولا تجد لها طريقاً إلى الرواة والمحدّثين والمؤرّخين الّذين كانت السلطة تثني لهم وسائد التحديث والتدوين والخطابة وما إلى ذلك، وهؤلاء كانوا ما بين أمرين: فإما أن يكونوا من الخائفين على حبوة السلطان إياهم أو نقمته عليهم، لذلك لا يتحدّثون بأي حديث له علاقة بأهل البيت عليهم السلام، وإما كانوا من النواصب أساساً ممن كانوا لا يألون جهداً في الكذب والافتراء عليهم والوقيعة بهم.

ولعل كتاباً ككتاب **"صحيح البخاري"** مثلاً، وهو الذي يفترض أنه كان معنياً بحديث الرسول عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، ما يقدّم لنا مثالاً عملياً على كلّ ذلك، فهذا الرجل لم يترك ناصبياً أو خارجياً إلا ووثّقه وروى له في كتابه، كعمر بن سعد وعمران بن حطان وحريز بن عثمان ونظرائهم، ولكنه بخل في أن يروي عن أئمة أهل البيت صلوات الله عليهم إلا ما لا يعدو ـ لبعضهم ـ أصابع اليد، ولو روى فإنه كان يروي عنهم ما يشينهم ويصدّق مقولة أعدائهم، ولقد كان معاصراً للإمامين الهادي و العسكري صلوات الله عليهما فلم يذكرهما إطلاقاً في جميع كتبه، ولهذا لا

---

١ الأغاني ١٨ : ٥٧ ؛ لأبي الفرج الأصفهاني؛ دار الفكر . بيروت؛ وكتاب الأمالي: ٣٢٦ م٣٨ رقم ١٠ ؛ للشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان، دار التيار الجديد ودار المرتضى؛ بيروت، لبنان، واللفظ منه.

ننتظر منه أن يروي شيئاً عن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه، وها أنت ترى أنه على الرغم من تواتر الحديث عن الإمام المهدي (روحي وأرواح العالمين له الفدا) إلا أنه لم يرو أيَّ حديث يتعلق به!!

فإذا كان هذا شأن إمام الرواة لديهم، فما بالك بالبقية؟!

والثاني: إن ملاحقة سلاطين بني العباس لهم كانت من أوضح البديهيات وأشدّها وطأة عليهم، وقد غلب على حياة الأئمة الأطهار ـ من الإمام الصادق حتى آخرهم صلوات الله عليهم ـ في زمن بني العباس أنهم إمّا كانوا مِن المغيَّبين لسنين طويلة في السجون العباسية، وإما كانوا موضوعين تحت رقابتهم المباشرة في قصورهم، أو في محلات عساكرهم، أو التجسس عليهم في مجالسهم والتلصص عليهم في بيوتهم ومداهمتها المستمرة، ولهذا فمن الطبيعي أن نلحظ شدّة تكتم الأئمة عليهم السلام في كلّ المسائل الحساسة والمصيرية.

وهذا الأمر يتأكّد في قضية كقضية ولادة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، فهذه القضية تلحظ تارة من خلال كونها نبوءة محمدية يجزم بصحتها سلاطين بني العباس، ويعرفونها كمعرفتهم أنفسَهم، وبالتالي يعون طبيعة التداعيات السياسية والأمنية المترتبة على هذه المقولة، وتارة في كونها تمثل خطراً محتملاً وجاداً في كونه معنياً بتدمير الطغيان والظلم والجور.

وهذه الأُمور قد لا يعرف التاريخ ماذا فعل بنو العباس منها، بقدر ما كان بنو العباس يعرفونه أنفسهم! ولهذا كانت مراقبتهم الجادة والمتواصلة لبيت الإمام العسكري صلوات الله عليه، وسجن الإمام (بأبي وأمي)، وإرسالهم العيون من الرجال والنساء لتقصّي أخبار المولود المنتظر، في حياة الإمام العسكري صلوات الله عليه، ومن بعد شهادته مسموماً من قبل المعتمد العباسي (عليه لعائن الله)، ثم سجن أُمّ الإمام السيدة نرجس صلوات الله عليها الذي دام قرابة السنتين.

ولعل الصورة التي ينقلها لنا سعد بن عبد الله الأشعري (رضوان الله تعالى عليه)، عمّن حضر وفاة الإمام العسكري صلوات الله عليه، ما تبين لنا حقيقة الحال، إذ يقول وهو يصف الهجوم على بيت الإمام من بعد شهادته (بأبي وأمي): وبعث السلطان إلى داره من يفتّشها ويفتّش حجرها، وختم على جميع ما فيها، وطلبوا أثر ولده، وجاؤوا بنساء يعرفن بالحبل، فدخلن على جواريه فنظرن إليهنّ، فذكر بعضهنّ

أن هناك جارية بها حمل، فأمر بها فجعلت في حجرة ووكّل بها نحرير الخادم[1] وأصحابه ونسوة معهم.

ثم قال: فلمّا دُفن وتفرّق الناس اضطرب السلطان وأصحابه في طلب الولد، وكثر التفتيش في المنازل والدور.. ولم يزل الّذين وكّلوا بحفظ الجارية التي توهّموا عليها الحبل ملازمين لها سنتين حتى تبيّن بطلان الحبل.[2]

ومن هنا وجدنا شدة الإجراءات التي اتخذها الإمام العسكري صلوات الله عليه وكذا أُمّ الإمام عليها السلام في هذا المجال[3]، وهي إجراءات يذكّرنا بعضها بإجراءات أُمّ النبي موسى صلوات الله عليه، ولهذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: "في القائم منا سُنّة من موسى بن عمران وهو خفاء مولده وغيبته عن قومه".[4]

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله الصادق صلوات الله عليه، قال: سمعته يقول: "في القائم عليه السلام سُنّة من موسى بن عمران عليه السلام؛ فقلت: وما

---

١ نحرير الخادم هذا هو الذي كان الإمام العسكري عليه السلام مسجوناً في داره من قبل ذلك.

٢ كمال الدين وتمام النعمة: ٤٣؛ للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه؛ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.

٣ من الخبر أعلاه وأيضاً من رواية أخرى لأبي الأديان خادم الإمام العسكري عليه السلام، قال ضمن حديث طويل عن بعض شؤون جعفر الكذاب: فدخل جعفر بن علي على المعتمد وكشف له ذلك - أموال جاءت إلى الإمام عليه السلام، وأراد جعفر أن يستولي عليها - فوجّه المعتمد بخدمه فقبضوا على صقيل الجارية - وهو أحد أسماء السيدة نرجس عليها السلام - فطالبوها بالصبي فأنكرته، وادّعت حبلاً بها لتغطي حال الصبي، فسُلّمت إلى ابن أبي الشوارب القاضي، وبغتهم موت عبيد الله بن يحيى بن خاقان فجأة، وخروج صاحب الزنج بالبصرة، فشغلوا بذلك عن الجارية. (كمال الدين وتمام النعمة: ٤٧٦ ب٤٣ ح٢٥).

أقول: من هذه الرواية ومن غيرها نستفيد أن جملة من التحركات التي اعتمدت من قبل بيت الإمام عليه السلام، ولا سيما من أُمّ الإمام المنتظر عليهما السلام وبعضها عن أُمّ الإمام العسكري عليهما السلام ما يشير إلى وجود مخطط من شأنه أن يحفظ الإمام من خلال إيجاد جو اجتماعي بالتعويل على طلب جعفر الكذاب للمال والإرث وتصوير الأمور وكأن مشكلة إرث كانت تدور في بيت الإمام العسكري عليه السلام، بحيث إن والدته عليها السلام قد أقبلت من المدينة للمطالبة بهذا الإرث، وواضح أن الوضع كان قد أزّمه فسوق جعفر الكذاب واستفاد منه بيت الإمام عليه السلام للتعمية على الموضوع الأهم، وهو حفظ الإمام (روحي فداه).

٤ الخرائج والجرائح: ٩٣٤؛ لقطب الدين الراوندي، منشورات مدرسة الإمام المهدي(عج)؛ قم المقدسة.

سُنّته من موسى بن عمران؟ فقال: خفاء مولده، وغيبته عن قومه".[1]

وبناء عليه فلا تستغرب أن لا تجد خبر الإمام عليه السلام وولادته في غالبية كتب القوم، فالتدبير من جهتين، جهة أهل البيت عليهم السلام الّذين حرصوا أن لا يصل الخبر إلى بني العباس وسائر النواصب، حفاظاً على حياة الإمام صلوات الله عليه وأهل بيته، وجهة الرواة والمحدّثين والمؤرخين الّذين كانوا لا يكتبون إلا ما تمليه رغبة توددهم للسلطان[2]؛ هذا إن عرفوا بتحقق الولادة بعد زوال الخطر؛ لأنه لو وصلهم الخبر، فإنه سيصل بعد أشهر إن لم يك سنوات؛ لأن الأئمة صلوات الله عليهم لم يكونوا يحدّثون بذلك إلا خاصّة الشيعة، هذا فضلاً عما يعنيه التحيّز المذهبي الذي يسم هذه الكتب بشكل عام، بل الفاحص المدقق يعرف حجم الكذب الهائل الذي سوّقوه في كتبهم.[3]

على أن هذا كلّه لا يضير في عملية توثيق خبر الولادة وتحققها، ولا ينفع التخاجج بأن طرق مَن ذكروا الولادة من علماء السُنّة أو الشيعة كانت غير واضحة[4]، أو غير صحيحة من حيث السند؛ لأن هذه الحادثة إنما هي حدث تاريخي، وليس شأنا تشريعياً، ولا تعتمد الأحداث التاريخية بالضرورة من أجل توثيقها على منهج التشدد في السند على شاكلة ما تحتاجه في الأحاديث والأخبار المتعلقة بالتشريع، والفرق بين الأمرين ظاهر تماماً، باعتبار أن التشريع حتى يكون تشريعاً، فلا بُدّ من إثبات كونه حجة من المشرّع سبحانه وتعالى على الإنسان.

ولهذا فإن ثمة تدابير متشددة تتخذ في عملية جرح وتعديل متون الأخبار ورواتها، التي تتعلق بالأحكام التشريعية، تبنى أساساً على التشدد في محاكمة وثاقة رجال أسانيد هذه الأحاديث، من حيث صدقهم وضبطهم ودقتهم؛ ومتونها من حيث متانتها وعدم تعارضها، وما إلى ذلك من شؤون ضبط النصوص التشريعية وفهم مرادها، ولا

---

١ الإمامة والتبصرة من الحيرة: ١٠٩ ب٢٨ ح٩٥، وكمال الدين وتمام النعمة: ١٥٢ ب٦ح١٤

٢ من المناسب الإشارة إلى أن غالبية فضائح السلاطين لا تجدها في الكتب الرسمية، أو التي كتبت بإشراف الأنظمة آنذاك، وإنما قد تجدها في الكتب الأدبية والشعرية، أو الكتب التي كتبت بعيداً عن أعين السلاطين!!

٣ بين يدينا كتاب: "التشيع فكراً وتاريخاً" وما زال لما يكتمل بعد، ولكنّا بيّنّا فيه حجم الأكاذيب التي تم افتراؤها على الشيعة وأئمتهم (بأبي وأمي).

٤ طرق الشيعة في هذا المجال واضحة، وكثيرة جداً، ومتقنة في موثوقيتها وصحتها، ولكن كلامنا أعلاه إنما هو حديث غير الشيعة عن طرقنا الروائية.

سيما أنّ الأخبار والأحاديث المتعلقة بالتشريع إنما تلقى على نخبة اجتماعية محددة، وتحتاج في إدراكها إلى مستوى عقلي معين، وتستعين بعلوم متعددة لفهمها وإدراكها.

أما الموضوع التاريخي فلا يحتاج لمثل هذا التشدد؛ لأن الحدث التاريخي يشهده الموثوق وغيره، والصادق ومَن سواه، والجاهل والعالم، والصغير والكبير، وغالباً ما يمكن التوثّق من صحته بطرق لا تعتمد بالضرورة على نقلة الخبر أنفسهم، فالتطابق في الخبر وحيثياته مع حدث يقيني معيّن، ومراقبة القرائن الحافّة بالخبر، وعدم التعارض الذاتي للخبر، أو عدم تعارضه مع تلك القرائن والحيثيات، يمكن أن يولّد - في العادة - قناعات لها نفس القدرة على التوثيق والاطمئنان من حصول الحدث وعدمه.

والتاريخ المعاصر أمامنا يدلّنا بوضوح على ذلك أثناء عملية تدوينه، التي تقوم بها أدوات تدوين الخبر وتناقله، فلا يوجد الآن عاقل يطلب من الوكالات الخبرية والتلفزيونية والصحافية - مثلاً - أن تعتمد على منهجية متشدّدة في الأسانيد والمصادر الناقلة للأخبار، كما أن سيرة العقلاء والحكماء اعتمدت أساساً في قبول التاريخ وما نعرفه عنه، بمنهجية ابتعدت عن منهج التشدّد السندي في قراءة التاريخ، ولو أنها اعتمدت ذلك - أي اعتماد منهج التشدّد - فمن الواضح جداً أن البشرية ستكون بلا تاريخ؛ لوجود انقطاعات تاريخية هائلة في الحقب التاريخية لا يمكن مَلْؤها بالأسانيد والتوثّق من رجالاتها؛ فتأمّل!!

المبحث الرابع

أسباب الطول الزمني للقضية المهدوية

لماذا كلّ هذا الزمن الذي مرّت به القضية المهدوية؟

وهل هي بالفعل بحاجة إلى كلّ هذا الطول؟

لو نظرنا إلى النبوءة المحمدية، ومعها الآية القرآنية الشريفة لوجدنا أنهما متّحدتان في التحدّث عن هدف واحد لهذه القضية، فالأولى تتحدث عن القضية كونها هادفة إلى: ملء الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والثانية تتحدث عن نفس المضمون: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ ، بمعنى أنهم القاعدة التي كانت تتسلّط عليها صور الظلم والجور، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ، أي كي يتحول ذلك الظلم والجور المسلّط عليهم إلى حالة العدل والقسط من خلال إيجاد الحكم العادل، والكلام يبقى باتجاه الكيفية التي يمكن فيها تحقيق هذا الهدف؟

بادئ ذي بدء لا بُـدّ لنا من أن نلتفت إلى وجود كلمة: ﴿وَنُرِيدُ﴾ الإلهية، فالله تبارك وتعالى هو الذي يريد أن يتحقق مثل هذا الهدف، فأيّ نوع تنتمي إليه هذه الإرادة الإلهية، لأننا نجد في القرآن لغة إرادة مؤجّلة وأُخرى معجّلة، فهناك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [1] أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [2] وواضح أن هذا النمط من الإرادة هو من النوع الذي لا يؤخّر، ولهذا يسمى هذا النوع من الإرادة بالإرادة التكوينية؛ إذ إنّ هذا النمط من الإرادة متعلق بالله سبحانه وتعالى، ولا علاقة له بإرادات أُخرى، فيما نلمس نمطاً آخرَ من الإرادة الإلهية، يتعلّق بإرادة أُخرى، ولهذا يسمّى بالإرادة التشريعية، أي أنّ إرادة التشريع الإلهية أرادت من الإرادة الأُخرى أن تنفّذ المراد الإلهي، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [3]، أو قوله

---

١ سورة يس: ٨٢ .

٢ سورة هود: ١٠٧ .

٣ سورة النساء: ٢٦ .

تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [1] فالأمر من الله تبارك وتعالى، ولكن إرادة الإنسان هي متعلّق هذا الأمر، والكلام هنا هل أن الإرادة الإنسانية مجبرة؟ بحيث إنّ أي أمر يصدر إليها يكون من سنخ الإرادة التكوينية، أم أنها مخيّرة، وبالتالي تستطيع أن تنفّذ الأمر الإلهي، ويمكن لها أن تعصيه؟!

من الواضح أن القرآن تحدّث عن نمطين من الإرادة التشريعية، الأول منها: نمط ترك بشكل كامل للإنسان كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فهذه الإرادة يستطيع الإنسان أن يعصيها حتى يموت، كما أنه يمكنه أن يمتثل لها، ومثَلُها مثل الطبيب حينما يأمر المريض بأن يفعل الأمر الفلاني والقضية الفلانية، وللمريض أن يفعل أو لا يفعل، فيتحمل وزر ترك الفعل، أو يتأثر بمردودات امتثاله للأمر.

أما النمط الثاني، فقد ترك بشكل نسبي للإنسان، ولكن إرادة الله تعالى تتدخل على شكل سُنّة حتمية مؤجّلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾ .[2]

ونلحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى تحدث عن إرادته في إهلاك قرية ما، ولكنه شرط عملية الإهلاك هذه بفسق أهل القرية، ولهذا فإنّ القرية إذا ما تجنبت عملية الفسوق، فإنها بطبيعة الحال لن تدمّر بفعل السُنّة الإلهية الحتمية المشار إليها، وهي الصورة التي لاحظناها في قصة قوم يونس عليه السلام وفي قصة قوم لوط عليه السلام، ففي القصة الأولى اتجهت قرية يونس عليه السلام باتجاه الدمار نتيجة لفسوقها، ولكنها أوقفت الدمار الذي حاقت نذره بها من خلال توبتها، ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[3]، بينما دُمّرت القرية الثانية نتيجة لاصرار مترفيها على الفسوق فدُمّرت تدميراً ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾﴾ .[4]

ونلاحظ هنا أن فسوق الأمم وسبل تدميرها واستئصالها تتفاوت من أُمّة إلى أُخرى، ولكن النتيجة تبقى دائماً باتجاه حاكمية السُنّة التاريخية الإلهية على مستقبل

---

١ سورة الإسراء: ٧٨ .

٢ سورة الإسراء: ١٦ .

٣ سورة يونس: ٩٨ .

٤ سورة هود: ٨٢ .

حركة الأمم، فلو أحسنت الأمم طريقها نحو العدالة لغنمت مردودات هذه الحاكمية ومغانمها، والعكس صحيح أيضاً، وهو الأمر الذي نتلمسه بصورة رائعة في الآيات الكريمة، ففي الشق الأول نلحظ المعادلة الإلهية تقدّم بهذا الشكل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ ، ولكن في الشق الثاني نجد المعادلة تتجه بشكل معاكس تماماً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1]

بناء على كلّ ذلك يجب أن تُفهم القضية المهدوية ضمن هذا السياق، فالطول والقصر في زمانها ليس هو الأصل، وإنما توافر الشروط المتعلقة بتحقيق أهدافها، وعدمها هو الذي يقف وراء طول أو قصر مداها الزماني، وتُبرز لنا الآيتان الكريمتان السابقتان أن هذه القضية كان يمكن لها أن تتحقق عقب شهادة الرسول الأعظم (بأبي وأمي)، ولكن الأمّة التي تخلّت عن التزامها بما أبلغها به الرسول صلوات الله عليه وآله، ونكرانها لحق الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه، واعتدائها عليه، أدى بها إلى أن تمتد لغرض تأمين الشروط الموضوعية لتحقيق مسيرة العدل، ولهذا امتد زمن الغَيبة لمدة أطول كما تظهر لنا الروايات الشريفة؛ لتكون المحطة المرتقبة هي خروج الإمام الحسين عليه السلام.

ولكن الخلل الشنيع الذي ارتكبته الأُمّة بالتخلي عن الإمام الشهيد صلوات الله عليه أدى إلى قفزة زمانية أطول امتدت حتى عهد لاحق، ولكنّ استفحال الضلال والطغيان، وتهاون الأُمّة في التمسك بالحق أدى إلى أن تطول المدة بالصورة التي رأينا، وفي هذا يقول الإمام الباقر عليه السلام لأبي حمزة الثمالي رضوان الله عليه: "يا ثابت! إن الله تعالى كان وقّت هذا الأمر في السبعين، فلمّا أن قتل الحسين صلوات الله عليه اشتد غضب الله تعالى على أهل الأرض فأخّره إلى الأربعين ومئة، فحدّثناكم فأذعتم الحديث فكشفتم قناع الستر، فلم يجعل الله له بعد وقتاً عندنا ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ .[2]

---

١ سورة المائدة: ٦٦و٦٨ وما يجب أن يلتفت إليه القارئ الكريم هو أن الآيتين الكريمتين تحفان بآية: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴿٦٧﴾﴾ ، لتكون دلالتهما في غاية الوضوح في الحثّ على الالتزام بما سيبلّغه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا الشأن وعلاقة هذا الالتزام وعدمه من انتشار العدل أو الظلم.

٢ الكافي ١: ٣٦٨ ح١، ومشابه للفظه في غيبة الطوسي: ٤٢٨ ح٤١٧، والآية في سورة الرعد: ٣٩ .

وعن عثمان النوّا، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "كان هذا الأمر فيَّ، فأخّره الله، ويفعل بعد في ذرّيتي ما يشاء".[1]

وعن أبي بصير، قال: قلت له ـ أي للإمام الصادق عليه السلام ـ: ما لهذا الأمر أمد ينتهي إليه ويريح أبداننا؟ قال: "بلى، ولكنكم أذعتم فأخّره الله".[2]

ومن كلّ ما تقدّم نستطيع القول بأنه يمكن ملاحظة ثلاثة عوامل حاسمة في طول هذه القضية أو قصرها، وهذه العوامل هي:

أ: طبيعة الساحة المناصرة للإمام صلوات الله عليه، ومدى استجابتها لواقع المناصرة ومتطلباتها، وهذه الساحة تتفاوت بتفاوت تعقيد المعركة ضد الباطل ومدى قرب الهدف، ففي عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأثناء غدر السقيفة، طلبَ أربعين رجلاً لكي ينصروه ويأتوه محلّقين، ولكن مع تعقّد الحال نلاحظ الإمام المنتظر (روحي فداه) يحتاج إلى ثلاثمئة وثلاثة عشر، وبمواصفات خاصة جداً، ومن ساحةٍ عُركت بالفتن والبلاء عرك الأديم.

ب: طبيعة الساحة المعادية للإمام صلوات الله عليه، ومدى متانة قوتها واستحكام بنيانها.

ج: العامل الإلهي المحيط بدقائق الأُمور والعالم بخفاياها.

هذه العوامل هي التي تتحكم بموعد ظهور الإمام عجّل الله فرجه، فهذا الموعد ليس موعداً حدّياً، على الرغم من أنه في علم الله تعالى له حدّيته الخاصة، ولكنه ضمن معايير حركة التغيير الاجتماعي يبقى خاضعاً لظروف العملية واشتراطاتها، وتسري عليه قاعدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[3]، ولهذا فإن هذه القضية تبقى من سنخ المواعيد الإلهية التي يجري فيها التبدّل والمحو والإثبات، ولهذا نجد كثرة الحث على الدعاء للإمام (بأبي وأمي) بتعجيل الفرج له[4] والتصدق

---

١ غيبة الطوسي: ٤٢ ح٤١٨ .

٢ غيبة النعماني: ٢٨٨ ب١٦ ح٢ .

٣ سورة الرعد: ١١ .

٤ لا شك أن إحدى جوانب الحث على الدعاء للإمام صلوات الله عليه ترتبط بإيجاد العلقة العاطفية بين الإنسان وإمامه وتعظيمها، ولكن هذا لا يعني أن الدعاء له (روحي فداه) لا قيمة اعتبارية له في جهة مطلوب الدعاء للإمام صلوات الله عليه حفظاً وتسرية له ودفعاً للبلاء عنه، وما إلى ذلك.

نيابة عنه، وما إلى ذلك من الأُمور التي تشير إلى تأثير هذه القضايا الجدّي على موعد خروجه الشريف.

مسؤولية الإنسان المؤمن مع الطول الزمني

وحتى نتعـرّف ذلك لا بُـدّ لنا من أن نتوقف قليلاً عند النظرة الفلسفية لأهل البيت صلوات الله عليهم الخاصة بالزمان وكيف يتعاملون معه؛ لأن تعرف ذلك سيغنينا عن طرح مزيد من الأسئلة، وحين نتفحص ذلك سنجد أن الزمان في منهج أهل البيت عليهم السلام ليس قيمةً مهملةً، ولا هو بالقضية العابثة، كما أنه لا يمثّل قيمةً مطلقةً، سواء في ما يطرحه الوجوديون بأنه مرعبٌ في إطلاقه، أو كما يتخيّله بعضهم بأنه مفرحٌ في المطلق، كما حاولت المدارس البشرية المختلفة أن تصوره وتتعامل معه وفقاً لهذه المحطات، وإنما نهجت مدرسةُ أهل البيت صلوات الله عليهم منهجاً واقعياً ووسطاً بين كلّ المدارس التي احتدم نقاشها وصراعها في تحديد الموقف من الزمن.

فلم يعد هذا المنهج ـ الزمن والوجود الإنساني ـ في هذا العصر، وجوداً عابثاً خلياً من الهدف، كما حاول أهل الجاهلية أن يصوّروه بالطريقة التي عبّرت عنها الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [1].

كما لم يعطه صفة الإطلاق الذي يتحكم بكلّ شيء، كما حاول الشعر الجاهلي القديم أن يصوّره، فلقد كان اعتقاد أصحابه وهم نخبة القوم راسخاً بأنّ الدهر أو الزمان هو الشيء المتخفّي وراء قناع الموت، إذ يسلطه على الموجودات ويحيلها إلى عدم، أو أنّ الدهر هو القوة الهائلة التي تسبب الكوارث الطبيعية وترتبط بأنواع الشرور الموجودة في الطبيعة[2].

وقد حاولت الوجودية أن تصوّره ـ في بُعد من أبعاد نظريتها ـ بذلك، حتى إنك تجد رعباً مهولاً في نفوس هؤلاء من الزمن المستقبلي على وجه التحديد، بالشكل الذي قد يصل إلى الآمال المتحطمة عند "صخرة سيزيف"[3]، أو كما يصوّره جان بول سارتر بالسيف الذي يلهب الظهر وهو يتحدث عن شراسة المستقبل.

---

١ سورة الجاثية: ٢٤ .

٢ الزمان في الفكر الإسلامي: ١٩٧؛ للدكتور إبراهيم العاتي؛ دار المؤرخ العربي - بيروت.

٣ انظر قصة ألبير كامو اسطورة سيزيف.

وبنفس الوقت يمتد منهج أهل البيت عليهم السلام إلى رفض تعطيل محورية الزمن، كما حاول فلاسفة الجبر بمجموعهم أن يعطلوه، من خلال تعطيل الإرادة الإنسانية.[1]

وفي الواقع ينطلق منهج أهل البيت صلوات الله عليهم ـ باعتبارهم المجسّد الأصيل والوحيد للإسلام المحمدي ـ من طبيعة نظرة الإسلام للزمن، وهذه النظرة التي تعد جزءاً لا يتجزّأ من منظومتها الجادة في سبيل تحقيق عملية الهداية الربانية، تقوم على أساس استخدام الزمن كقوّة إيجابية من خلال تحويله إلى عنصر أساس لشحذ سير الإرادة الإنسانية وتوجيهها، دون أن تتخلى عن التحذير من مغبة التمادي في التراخي أمام الزمن، ثم تعمل على توظيف الزمن كقوّة رادعة للإرادة الإنسانية إذا ما تمادت بعيداً عن مسار الأهداف المطلوبة منها، أو تقاعست عن تحمّل استحقاقات تجسيد هذه الأهداف، ونراها هنا تُستخدم كقوة جاذبة ورادعة في نفس الوقت.

ومرتكز هذه النظرة قائم على أساس أن الإنسان حينما خلقه الله سبحانه وتعالى، فإنه لم يخلقه لكي يكون قيمة مهملة في التاريخ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[2]، وإنما خلق لكي يقوم بأعظم الأدوار وأشرفها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[3].

ولهذا فمنذ البداية عرض القرآن لتيارين، أحدهما يحاول أن يجعل الزمن والخلق عابثاً، من خلال الدفع باتجاه عدم تحمل أي مسؤولية تجاه هذا الزمن وهذا الخلق ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾[4]، والثاني يحاول أن يستفز كلّ مكامن الإرادة الإنسانية بشكل إيجابي لتقوم بكامل دورها ومسؤوليتها تجاه هذا الزمن والخلق ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾[5]، وحين صوّرَ التيارَ الأول بأنه تيار مضرّ

---

١ راجع للتفصيل كتابنا: "اتجاهات الدفاع الاجتماعي في الإسلام": ٧١ - ٧٢ دار البلاغة - بيروت.

٢ سورة القيامة: ٣٦ .

٣ سورة الأحزاب: ٧٢ .

٤ سورة الأنعام: ٢٩ .

٥ سورة غافر: ٣٩ - ٤٠ .

وسيّئ، أبرزَ التيارَ الثاني باعتباره الأُنموذج الصالح الذي يجب أن يُقتدى به ويسعى للحاق به.

ومن الواضح هنا أن القرآن الكريم لم يجزّئ الزمن أو يقتطع بعض فصوله، بل إنه اعتمد عملية تصوير الزمن بإطاره الكامل، وعاب على الآخرين أن لا يفعلوا ذلك، فهو لم يلغ النظر إلى مرحلة ما بعد الموت وهي مرحلة أساسية من الزمن في التصوير القرآني، ولم يَعُدّها أمراً منفصلاً عن الحياة الدنيا، بل عدّهما محطتين متكاملتين تؤدي أولاهما إلى الثانية حتماً، كما ولم يعدّ مرحلة ما بعد الموت بعيدة عن تأثيرات مرحلة ما قبل الموت، بل على العكس إذ نجده ربطهما بوثاق ارتباط الجزاء والشرط والمقدمة بالنتيجة، فقد جعل تشكيل صورة الثانية منوطاً بطبيعة جهد الإرادة الإنسانية واتجاهاتها في المرحلة الأولى، وجعل الأولى مؤدية إلى الثانية حتماً، وإلا لما تحدّث بمنطق الثواب والعقاب وبمنطق الدنيا والآخرة، وتحدّث في عين الوقت عن رفض مقولة جزافية الإردة الربانية التي تبنّتها الأشاعرة، وهي المقولة التي يتحدّث أصحابها عن إمكانية أن يدخل الله الأبرار جهنم، ويدخل الفجّار الجنة لأنه لا يسأل عما يفعل، وهو فعّال لما يريد، وقد فاتهم ان الله جلّت قدرته حكيم في فعله ووفي فيما يعد به.

ولهذا نجد أن محور إطار هذا التصوّر يسير ما بين الحد الأول الذي يتبين لنا من نصوص كثيرة، خلاصتها قول الإمام علي صلوات الله عليه: "إياكم وحُبّ الدنيا فإنها رأس كلّ خطيئة، وباب كلّ بلية، وقران كلّ فتنة، وداعي كلّ رزية"[1]، وما بين الحد الثاني الذي نستخلصه من قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه حينما سمع رجلاً يذمّ الدنيا، فلامه وقال: "إنّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنىً لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنّة".[2]

أقول: ما بين هذا الحد الذي يسلّط الضوء على ناحيتها الإيجابية، وذاك الذي يحدد ناحيتها السلبية، فقد تلخصت نظرة أهل البيت عليهم السلام بما وصف الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه موضع الدنيا من الإسلام، فقال: "الدنيا مضماره،

---

١ تحف العقول: ٢١٥ .

٢ نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٣١ .

والآخرة حلبته، والجنّة سبقته". [1]

ولم يكتف الإسلام بذلك، وإنما راح يشير إلى أن الأُمّة شريكة في نتائج خيارات الإرادة الإنسانية، فهذه الخيارات وإن انطلقت من الذات وقرارها الفردي، ولكن لها مصبّان في الواقع، أحدهما: نفس الإنسان بواقعه ومستقبله وسائر متعلقاته، والآخر نفس الأُمّة الذي يحيا فيها هذا الإنسان، فهو لا يعيش في جزيرة مستقلة، وإنما لكلّ عمل من أعماله ارتباط بالمسار العام للأُمّة، وبالنتيجة لا يحمّله مصير نفسه فقط، وإنما يحمّله مصير الأُمّة والأجيال التي ستلحق من بعد أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [2]، أو قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [3] مما يؤسس لزخم كبير في عملية رقابة ذاتية للذات، وهذا من شأنه أن يجعله مرتبطاً دائماً بمسؤوليته.

ولكن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا تكتفي بهذا القدر؛ لأنها تعرف بأن العنصر الفكري وحده لا يفعّل أمرَي الارتباط الدائم بالمسؤولية ورقابة الذات بالشكل المطلوب، ولهذا عملتْ على زجّ أمرين هامّين جداً مع العنصر الفكري:

أوّلهما: عنصر الرقابة الموضوعية، وهذا العنصر سوف يعمل جنباً إلى جنب رقابة الذات ويعمّقها، وذلك من خلال تجسيد المعنى الخارجي للآية القرآنية آنفة الذكر: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ ، فهذه الرؤية التي تطرحها الآية الشريفة للأعمال ليست مَجازية، وهي ليست خاصة بقوم دون آخرين، بل هي حقيقية وشاملة لكلّ الأقوام، ولهذا كان طرح مبدأ: العرض المستمر والفعلي للأعمال على رسول الله والأئمة من أهل بيته صلوات الله ه وعليهم[4]، وفي ذلك وردت روايات كثيرة جداً، والغالبية منها ما بين الصحيحة والحسنة والموثّقة.

---

١ الكافي ٢: ٥٠ ح١ .

٢ سورة الأنفال: ٢٥ .

٣ سورة التوبة: ١٠٥ .

٤ وهذا الأمر يؤكده القرآن الكريم من خلال ديمومة حركة الشهادة على أعمال الأُمّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاء شَهِيدًا﴾ [النِّسَاء: ٤١]. وعديد آخر من الآيات المماثلة.

ومنها: ما رواه المعلّى بن خنيس عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: "هو رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة، تُعرَض عليهم أعمال العباد كلّ خميس".[1]

ومنها: ما رواه أبو بصير رضوان الله عليه، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: تُعرَض الأعمال على رسول الله صلى الله عليه وآله، أعمالُ العباد كلّ صباح، أبرارها وفجّارها، فاحذروها، وهو قول الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴿١٠٥﴾﴾ وسكت[2]، ومنها: ما روي عن الحسن بن علي الوشّاء رحمه الله، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: "إنّ الأعمال تُعرَض على رسول الله صلى الله عليه وآله، أبرارها وفجّارها".[3]

وهذه الروايات طرحت مبدأ عرض الأعمال من حيث المبدأ، ولكن الأئمة صلوات الله عليهم لم يكتفوا بذلك، وإنما راحوا يشدّدون على الدور المطلوب من عملية الرقابة المطروحة هنا، إذ نلاحظهم في روايات أُخرى يؤكدون على خطين أولهما: التحذير من العمل السيّئ، والآخر: بث روح الأمل وتشديد الزخم العاطفي والمعنوي الداعم للعمل الصالح، وهذا ما نلمسه مما رواه عبد الله بن سنان رحمه الله، عن أبي عبد الله الصادق صلوات الله عليه، قال: "إنّ أعمال أُمّة محمد صلى الله عليه وآله تُعرَض على رسول الله صلى الله عليه وآله في كلّ يوم خميس، فليستحي أحدكم من رسول الله أن تعرض عليه القبيح"!!.[4]

ومثلها ما رواه سماعة بن مهران رضوان الله عليه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: "ما لكم تسوؤون رسول الله صلى الله عليه وآله؟!" فقال رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: "أما تعلمون أنّ أعمالكم تُعرَض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك! فلا تسوؤوا رسول الله وسرّوه".[5]

ومنها: ما رواه القاسم بن محمد الزيات، عن عبد الله بن أبان الزيات ـ وكان مكيناً عند الرضا[6] ـ، قال: قلت للرضا عليه السلام: ادع الله لي ولأهل بيتي! فقال:

---

١ بصائر الدرجات: ٤٤٦ ج٩ ب٥ ح٢، وفي معناها أحاديث كثيرة.

٢ الكافي ١: ٢١٩ ح١.

٣ الكافي ١: ٢٢٠ ح٦. وبصائر الدرجات: ٤٤٥ ج٩ ب٤ ح٧

٤ بصائر الدرجات: ٤٤٦ ج٩ ب٤ ح١٢

٥ الكافي ١: ٢١٩ ح٣.

٦ في نسخة البصائر: وكان يكنى عبد الرضا. ومن الواضح إن النسخة الحروفية من البصائر فيها

"أوَلستُ أفعل؟! والله إنّ أعمالكم لتعرض عليَّ في كلّ يوم وليلة".[1]

وهكذا يطرح هذا الأمر ليشكل عنصراً مهماً في تشديد مهمة الرقابة على الذات، مما يعزز من مهمة العنصر الفكري الذي ثبّت جانب المسؤولية وفق ما أشرنا إليه آنفاً.

أمّا الأمر الثاني، فهو التداعيات المنعكسة على وجدان الإنسان من مسألة إيمانه بوجود الإمام عجل الله تعالى فرجه وانتظاره، فهذه التداعيات تتشابك وبشكل مذهل مع خطوط عديدة لها أعمق التأثير في إثراء البعد الوجداني لدى الإنسان المنتظر، مما يعكس تناغماً مطلوباً جداً مع الجانب الفكري الذي أشرنا إليه، ومن الواضح جداً أن هذا التناغم لو تحقق فإنه سيولّد إرادة جادة لدى الإنسان على العمل بمقتضيات الأهداف التي تقف وراء هذا الفكر، فقد يؤمن الإنسان بفكرة ولكنه لا يندفع للالتزام بما يترتب عليها من سلوكيات، ولكنه قد يتفاعل وجدانياً مع قضية لا يؤمن بجدواها الفكرية من حيث الأصل، فتراه يشطّ بإرادته بعيداً جداً عما يؤمن به من أفكار ومُثُل[2]، وهذا هو الذي يجعل المرء يقع في الإشكال العميق الذي تطرحه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾.[3]

ومن هنا يمكن لنا أن نسلّط الضوء على الأهمية الوجدانية لمفهوم انتظار الإمام (روحي فداه)، فالمرء الذي يجد أن يوماً ما سيأتي فيه الفرج لهذا الكون مهما استفحل فيه الظلم والجور، ومهما عتا به الزمن، ليحلّ بدلاً عنه القسط والعدل، والمرء الذي دفعت به العوامل العقائدية المتعددة للظفر برضا الإمام صلوات الله عليه عنه، ونيل ألطافه، وهو يكابد أمواج الحياة بتقلباتها ومصاعبها، وهي نفسها التي تدعوه لكي يؤمّن مقبولية له يوم القيامة، وشكّلت جمالية قيم وفضائل الإمام (بأبي وأمي) وموقعه الديني المقدّس، ما يجعله يحث الخطى للقائه والتشرّف بالنظر إليه ونيل رضاه، كلّ هذه العوامل ونظرائها ستكون بمنزلة الزخم الوجداني المطلوب لكي

تصحيفات كثيرة.

١ الكافي ١: ٢١٩ ح٤، وبصائر الدرجات: ٤٤٩ ج٩ ب٦ ح٢ .

٢ كالذي يحتدم فيه الغضب أو الحقد أو السخط أو الحنق، وما إلى ذلك، ليصل حداً يجعل من تصرفاته تتجه - وربما في غاية الشدة - باتجاه أُمور لا يؤمن بصحتها فكرياً لو سكن عنه الغضب أو زال عنه الحقد، بل ربما تعاكس توجهاته، كما لحظنا ذلك - على سبيل المثال - في موقف قابيل بن آدم، أو إخوة يوسف عليه السلام.

٣ سورة الصف: ٢ - ٣ .

يندفع باتجاه العمل بواجباته المترتبة على عقيدته بالإمام صلوات الله عليه على الأصعدة كافة.

وبهذا ستتحلل واحدة من المشاكل الرئيسة أمام المؤمن المنتظِر في قضية طول البعد الزمني، والناجمة من القلق من أن لا يوصله عمره إلى عهد الإمام صلوات الله عليه، وفق ما مرّ ذكره ما بات الأصل لديه هو ظهور الإمام عجل الله فرجه، وإنما العمل بتكليفه الشرعي تجاه الإمام صلوات الله عليه، وهو التكليف الذي لا يضع مسألة ظهور الإمام فيه كأصل للأمور، لأن هذه المسألة منوطة بعوامل عديدة، لا تتعلق بإرادة ورغبة هذا المؤمن أو بذاك فقط، وإنما تمتد لكلّ حركة الأُمّة وطبيعة ارتباطات هذه الحركة بالارادة الربانية، مما يرتب عليه أثراً في وجوب الابتعاد عن كلّ ما يساهم في عرقلة حركة الأُمّة باتجاه تحقيق الظهور، وهذا عنصر في غاية الأهمية لأنه سيفعّل كلّ عناصر المثابرة لديه لكي يحوز على موقف سليم من حركة الإمام (روحي له الفدا)، ويعزّز من كلّ عناصر المراقبة الذاتية والموضوعية لديه لكي لا تشطّ به إرادته بعيداً عن الطريق.

والرائع في هذا الأمر أن منهج أهل البيت صلوات الله عليهم لا يدع أيَّ إمكانية لعوامل اليأس أو الإحباط الناجمة من مشاعر القلق التي قد تكتسح الإنسان من إمكانية عدم الظهور في هذا الزمن، ومن إمكانية موت هذا الإنسان ولا يتمكن من رؤية ظهور الإمام عليه السلام، فهو ـ أي المنهج ـ لا يكتفي من تثبيت المسؤولية عند حدّ رضا الإمام صلوات الله عليه بعمل هذا الإنسان، وإنما يعمد للتلويح له بفرصة عظيمة ستجعل إقباله على العمل بمسؤولياته يتجاوز الزمن، وذلك من خلال قضيتين؛ **أولهما**: مسألة الجزاء الأخروي، وأنّ العمل لظهور الإمام صلوات الله عليه لا يخلّ بقيمة الجزاء الأخروي حتى لو لم يقترن هذا الانتظار بظهور الإمام (روحي فداه)، ولدينا في ذلك روايات كثيرة جداً متواترة الصحة..

ومن ذلك ما رواه العلاء بن سيابة، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: "من مات منكم على هذا الأمر منتظراً له كان كمن كان في فسطاط القائم عليه السلام". [1]

وعن عبد الحميد الواسطي، قال: "قلت لأبي جعفر عليه السلام: أصلحك الله، والله لقد تركنا أسواقنا انتظاراً لهذا الأمر، حتى أوشك الرجل منا يسأل في

---

١ المحاسن (كتاب الصفوة والنور والرحمة): ١٧٣ ب٣٨ ح١٤٧ .

يديه.

فقال: يا عبد الحميد! أترى من حبس نفسه على الله لا يجعل الله له مخرجاً؟! بلى والله ليجعلنّ الله له مخرجاً، رحم الله عبداً حبس نفسه علينا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا.

قال: فقلت: فإن متّ قبل أن أدرك القائم؟

فقال: القائل منكم: إن أدركت القائم من آل محمد نصرته، كالمقارع معه بسيفه، والشهيد معه له شهادتان". [1]

وعن الفيض بن مختار، قال: "سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من مات منكم وهو منتظر لهذا الأمر كمن هو مع القائم في فسطاطه؛ قال: ثم مكث هنيئة ثم قال: لا، بل كمن قارع معه بسيفه؛ ثم قال: لا والله كمن استشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله". [2]

ومثلها ما رواه إسماعيل بن محمد الخزاعي، قال: "سأل أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام وأنا أسمع، فقال: تراني أدرك القائم عليه السلام؟ فقال: يا أبا بصير! ألست تعرف إمامك؟ فقال: إي والله وأنت هو ـ وتناول يده ـ؛ فقال: والله ما تبالي يا أبا بصير ألا تكون محتبياً بسيفك في ظل رواق القائم صلوات الله عليه". [3]

وعن الفضيل بن يسار، قال: "سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية، ومن مات وهو عارف لإمامه لم يضرّه تقدّم هذا الأمر أو تأخر، ومن مات وهو عارف لإمامه كان كمن هو مع القائم في فسطاطه". [4]

ومن الواضح أيّ زخم وجداني يمكن أن يترشح من هذه المفاهيم، وأيّ دفعة للإرادة الفاعلة في سبيل أهداف الظهور أن تترتب عليها، ولا سيما مع هذا التركيز الواضح على أن الظهور ليس هو الهدف، وإنما أهدافه وغاياته هي المطلوبة.

---

١ المحاسن: ١٧٣ ب٣٨ ح١٤٨ .
٢ المحاسن: ١٧٤ ب٣٨ ح١٥١ .
٣ الكافي ١: ٣٧١ ب١٤٢ ح٤ .
٤ الكافي ١: ٣٧١ - ٣٧٢ ب١٤٢ ح٥ .

ولكن الأئمة صلوات الله عليهم لم يكتفوا بهذا الأمر فحسب، بل تقدموا بعرض آخر يجعل عملية العمل لتحقيق هذه الأهداف لا يتعلق بالجزاء الأخروي فقط، وإنما يشمل حتى الجزاء الدنيوي ـ وهو ما تهفو إليه نفوس كثيرة ـ من دون أن يجعل للعمر قيد في الاشتراك بهذا الجزاء، من خلال ربط مسألة الانتظار بمبدأ الرجعة[1]، وهذا ما يثري من زخم الإرادة لدى المنتظِرين كثيراً، كما أنه لن يجعلهم يتراخون إزاء ظنهم بأنّ جهدهم لن يلتقي بشكل مباشر بعملية الظهور، فالزمن ـ بقصره أو بطوله ـ سوف لن يقف عائقاً دون الاشتراك بعملية الثأر المهدوية وتحقيق الأهداف الإمامية، وفي ذلك روايات كثيرة تتواتر في صحتها.

فعن عمار بن مروان اليشكري رضوان الله تعالى عليه، قال: سمعت أبا عبد الله

---

١ ونعني بهذا المبدأ ما تعارفت عليه الإمامية من رجعة بعض من مات إلى الدنيا، وهذا المبدأ من مبادئ القرآن الكريم، وقد تحدّث عنه البارئ عزّ وجلّ بعدة سياقات، تارة من خلال طرحه كإمكان عملي من الناحية المفهومية، فالله سبحانه وتعالى بيده الحياة والموت وهو المحيي والمميت، ولا يوجد أي حاجز يحجزه عن فعل ما يريد وهو القادر على كل شيء، كما نلحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عَبَس: ٢١-٢٢].

وأخرى من ناحية التحديث بما حصل فعلاً وعملاً كواقع تاريخي وتحول إلى حادثة تاريخية وليس لمجرد الفرض التجريدي، وذلك من خلال الآية الكريمة في سورة البقرة في قصة العزير عليه السلام ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البَقَـرَة: ٢٥٩].

هذا، ناهيك عن تصريح الله سبحانه وتعالى بأن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله (سورة آل عمران: ٤٩).

وثالثة من خلال طرح الموضوع بما سيحصل قبل يوم القيامة كما صوّره في سورة النمل بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ٨٣﴾ [النَّمل: ٨٣]، وواضح أن هذا الحشر يختلف عن حشر يوم القيامة، لأن حشر القيامة سيكون لكلّ الأمم من دون استثناء، بينما هنا نلاحظ وجود استثناء لغالبية كلّ أُمّة من الحشر، لأن حشر الفوج يستلزم القلة منهم وليس الكثرة.

أضف إلى ذلك ما تشير إليه الآية من حصول ذلك على نحو التدرّج وليس الدفع، وواضح أن حشر القيامة دفعي، بمعنى أن كلّ المحشورين يأتون دفعة واحدة، بينما نلحظهم هنا أنهم يأتون على نحو التدرّج.

والعجيب بل المضحك المبكي في آن؛ أن هذا الوضوح القرآني لم يمنع القوم من أن يعدّوا من يؤمن بالرجعة وفق هذه المقاييس رافضياً وينعتونه بـ "الرافضي"، وهي التسمية التي لو أطلقت على أحد لأسقطت دينه في نظرهم، وأباحت منه ما لا يستباح من أهل الأديان الأخرى، وللحديث عن ذلك مجال آخر يراجع في الكتب العقائدية المختصة.

عليه السلام[1] يقول، وذكر حديثاً طويلاً في أحوال ما يعاينه المؤمن عند الموت، إلى أن قال: "ثم يقال له: نم نومة العروس على فراشها، أبشِر بروح وريحان وجنة نعيم ورب غير غضبان؛ ثم يزور آل محمد في جنان رضوى، فيأكل معهم من طعامهم، ويشرب معهم من شرابهم، ويتحدّث معهم في مجالسهم، حتى يقوم قائمنا أهل البيت، فإذا قام قائمنا بعثهم الله، فأقبلوا معه يلبّون زمراً زمراً".[2]

وعن المفضّل بن عمر[3]، قال: "ذكرنا القائم عليه السلام ومَن مات من أصحابنا ينتظره، فقال لنا أبو عبد الله عليه السلام: إذا قام أُتي المؤمن في قبره فيقال له: يا هذا، إنه قد ظهر صاحبك، فإن تشأ أن تلحق به فالحق، وإن تشأ أن تقيم في كرامة ربك فأقم".[4]

هذا، فضلاً عما يشار هنا في شأن أحاديث الرجعة التي تشير إلى أنها خاصة بمن محّض في الإيمان محضاً ومحّض في الكفر محضاً، مما يعني تشويقاً للمؤمن المنتظر في أن يكون سبّاقاً ومتميّزاً في عمله في مجال الانتظار، كي يكون ممن ينال درجة أن

---

١ في الكافي: "قال: حدّثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام" مما يجعل سند الحديث مجهولاً، ولكن يبدو أنّ الصحيح كما نقلناه عن نسخة الحسين بن سعيد رضوان الله عليه؛ لأنّ عمار بن مروان رحمه الله إنما يروي عن الإمام الصادق عليه السلام بلا واسطة.

على أن الشيخ الحسن بن سليمان الحلي روى في "المحتضر" جانباً من الرواية وبسند مغاير هو نسخة الفضل ابن شاذان، وفيه: "عمار بن مروان، عن زيد الشحّام"، ولا يخلّ ذلك بأصل المطلب، وعلى الرغم من أن سند الكليني في الكافي، وسند الفضل بن شاذان، لا يقع فيهما الحسين بن سعيد، إلا أن من الواضح أن نسخة الحسين بن سعيد أعلى الله مقامه أكثر دقة من نسخة الكافي، وأكثر قرباً من نسخة الفضل بن شاذان رحمه الله، باعتبار أن الحسين يروي بواسطة رجل واحد هو محمد بن سنان رضوان الله عليه، بينما تروى نسخة عمار في الكافي عبر عدة وسائط، وبواسطتين في كتاب الفضل؛ فلا تغفل!

هذا، وكنّا قد أثبتنا وثاقة وعلو شأن محمد بن سنان في غير كتاب من كتبنا المحققة، فلا نعيد.

٢ الزهد: ١٢٨ ب١٥ح٢١٩؛ للحسين بن سعيد؛ تحقيق وتعليق: جلال الدين علي الصغير؛ دار الأعراف للدراسات والنشر - بيروت ١٩٩٣ ط١، والكافي ٣:١٣٢ ب٨٤ ح٤، والمحتضر: ٥؛ للحسن بن سليمان الحلي؛ منشورات المطبعة الحيدرية. النجف الأشرف ١٩٥٠ ط١

٣ ذكرنا وثاقة وعلو شأن المفضّل بن عمر الجعفي رضوان الله تعالى عليه في غير موضع من كتبنا التحقيقية، فلا نعيد.

٤ غيبة الشيخ الطوسي: ٤٥٩ ح٤٧٠، وفي دلائل الإمامة - بتفاوت يسير، ولكن برواية سيف بن عميرة عن الإمام الباقر عليه السلام -: ٢٥٣، وفي منتخب الأنوار المضيئة: ٦٧ من دون إسناد.

يرجع في عهد الإمام عجل الله فرجه، ولا يخفى ما لهذا من عظيم الأثر على مسارات إرادته واتجاهاتها..

وفي ذلك ما رواه محمد بن مسلم الثقفي رضوان الله عليه، قال: سمعت حمران بن أعين وأبا الخطّاب يحدّثان جميعاً ـ قبل أن يُحدِث أبو الخطّاب[1] ما أحدث ـ أنهما سمعا أبا عبد الله عليه السلام يقول: "إنّ الرجعة ليست بعامة، بل هي خاصة، لا يرجع إلا من محض الإيمان محضاً، أو محض الشرك محضاً".[2]

ومن خلال كلّ ذلك نستطيع أن نتبين بأن الطول الزمني لا يتضمن أيّ إخلال بمسؤولية الإنسان المؤمن، ولا يترتب عليه أي تنصل عنها، بل بالعكس من كلّ ذلك، فهو إن لم يعطِه دفعاً باتجاه العمل، وشوقاً باتجاه تحمّل المسؤولية، فإنه ـ في الأقل ـ لا يلغي لديه أيّ جانب من جوانبها؛ لأنّ الزمن ـ طولاً أو قصراً ـ يبقى بالنسبة للمؤمن المنتظِر فرصة عليه أن يستنفدها.

---

١ أبو الخطّاب: هو محمد بن أبي زينب مقلاص الأسدي، كان من كبار الأصحاب ولكنه سرعان ما انحرف وصدر فيه لعن مشدد من قبل الإمام الصادق عليه السلام؛ لادّعائه الغلو وإتيانه الفواحش، والخبر لا يقدح به بسبب وجود هذا اللعين في روايته لعدة أسباب، منها: إن الطائفة اتفقت على الأخذ بروايته قبل انحرافه، ونبذت ما جاء من بعد انحرافه، ومنها: وجود حمران بن أعين رضوان الله عليه وروايته مستقلاً عن أبي الخطّاب، ومنها: إنّ محمد بن مسلم - وهو من يعلم جيداً أيّ وضع لأبي الخطّاب - لا يعقل أن لا يسأل الإمام الصادق عليه السلام وهو من كبار أصحابه عن هذا الخبر وطبيعته.

٢ مختصر بصائر الدرجات: ١٠٧ ح٧٧؛ للحسن بن سليمان الحلي؛ تحقيق: مشتاق المظفر، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة للحوزة العلمية في قم؛ ١٤٢١ ط١، ومن الواضح هنا أن «البصائر» المشار إليه هو «بصائر» سعد بن عبد الله الأشعري، وليس «بصائر» محمد بن الحسن الصفار أعلى الله مقامهما.

الفصل الثالث

أهداف علامات الظهور

باديء ذي بدء لا بُـدّ من أن نقرر حقيقة أن حشداً كبيراً من الروايات الشريفة التي تدخل ضمن إطار أحاديث علامات الظهور قد تم روايتها والتحديث عنها بشكل مستفيض من قبل الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

ولا شك ولا ريب أن الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم حينما ذكروا هذه العلامات، لم يك في قصدهم أن يعربوا عن رغبتهم في التكلّم عن هذه القضايا لمجرد الرواية واستعراض القصة، فليس هذا شأنهم، ولا يتناسب مع دورهم وشخصياتهم الرسالية، ولا لمجرد أن يعرف الناس ومن يتّبعهم أنّ لديهم علماً بالمستقبل، فعلى الرغم من أهمية ذلك في إقامة الحجة، إلا أنه لا يشكل هدفاً بحد ذاته لهذا الأمر، ولهذا يجب أن نبحث عن أهداف ذلك بالشكل الذي يتناسب مع أهمية الظهور وأهداف الظهور.

وبما أنّ حياتهم صلوات الله عليهم لم تك إلا تعبيراً عن ذوبانهم الكامل في المهمة الربانية التي أوكلت إليهم[١]، ولهذا فإنّ من الطبيعي بمكان أن نلاحق أسباب روايتهم وتحديثهم بهذا الكم الكبير من خلال مسؤوليتهم الرسالية في تحقيق المهمة الربانية التي كلّفوا بها، وهذا ما يجب أن يكون القاعدة الأولى والأساسية في كلّ عملية تحاول أن تفهم حركة الأنبياء والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم، بأيّ صورة من الصور، وفي أيّ موضوع من موضوعات هذه الحركة؛ فلا تغفل[٢]!!

١ ولا سيما لو كان الحديث متعلقاً بالنبي الأعظم محمد وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، باعتبار أنهم التجسيد الكامل والخالص للعبودية لله تعالى، من دون اختلال هذا الفهم مع بقية الأنبياء عليهم السلام، ولكن كلّ بمقامه ومنزلته وما أوكل به وأرسل إليه.

٢ حاول بعض المنحرفين منذ مدة من الزمن أن يجرد الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم من خصوصياتهم، وراح يحاول تعميم فهم سطحي عن حركتهم بناء على المعطيات الذاتية في فهم حركة الآخرين وإن كانوا من الأنبياء، فيوسف عليه السلام لا يعقل - وهو يواجه هذا الإغراء الكبير من امرأة العزيز - إلا أن يستثار وتتحرك فيه الغريزة، وسليمان عليه السلام يمارس الحركة العابثة مع

ولهذا، فإن ملاحقة أهداف علامات الظهور ومحاولة فهمها يجب أن تنطلق بشكل يتناسب وموقع عملية الظهور من المهمة الربانية، كما يجب أن يتم النظر إلى هذه الأهداف بشكل تكاملي مع كلّ منظومة المهمة الربانية، لا أن تؤخذ بشكل منفصل عن هذه المنظومة، ولا أن تلحظ بشكل تجزيئي مع بعض مفردات هذه المنظومة، فهذه المنظومة تضم الهدف، ومن وضع الهدف، ومن أؤتمن على تحقيق الهدف، وفيها الإنسان المدعو للوصول إلى هذا الهدف، وتضم أيضا الاستراتيجيات المرحلية وما هو أكبر منها، كما أن فيها الصيغ والبدائل المطروحة لتحقيق الهدف؛ هذا، فضلاً عن كيفية تنظيم وإدارة الحركة (التكتيك) المطلوبة لتنفيذ تلك الصيغ والبدائل.

وحينما تكون الأُمور بهذه الصورة فإن من البداهة القول بأن أول ما تتوخاه علامات الظهور هو ربط الإنسان بمخطط التربية الربانية وبمنهاجها التربوي، فمن الواضح أن تشخيص الهدف بالنسبة لأي تحرك له الأثر البالغ في عملية التحريك

خيوله فتنسيه الصلاة فيرتد ليقتل هذه الخيول، ونوح عليه السلام تأخذه عاطفة الأبوة فينسى نبوته وينحاز إلى مقتضيات هذه العاطفة، وإبراهيم عليه السلام تأخذه تألقات القمر وحجم الشمس وحركة النجوم المزهرة ليلاً فينسى توحيده، ويونس عليه السلام يخرج مغاضباً من ربه لأنه لم يستجب له، والرسول صلوات الله عليه وآله يعبس في وجه عبد الله ابن أُمّ مكتوم على الرغم من أنه جاء ليتزكى، وأمثال هذا كثير.

ولهذا راح أمثال هؤلاء يفسرون ما يسمى بآيات هفوات الأنبياء عليهم السلام بطريقته في فهم بقية البشر، مع العلم بأن القلوب الطاهرة والمعصومة لا يمكن أن تحاكَم بما يفهمه الناقصون في طهارة قلوبهم ونفوسهم، فهذه الآيات وإن سميت مجازاً بهفوات الأنبياء ولكنها لا تتحدث عن هفوةٍ لهم بمقاييس النفوس المذنبة، وإنما تتحدث عن واقع آخر بيّنّاه بشكل مسهب في كتابنا **"عصمة المعصوم عليه السلام في المعطيات القرآنية"**.

ونحن لا نضع الأنبياء عليهم السلام فوق خصائصهم البشرية قطعاً، ولكن هذه الخصائص حينما تتمثل بالمحتوى الداخلي الذي وصل إليه الأنبياء عليهم السلام، فإنها ليست في معرض فهم وقدرة من لا يملك من المحتوى ما يصل إلى مقامهم، وبالتالي فإن تفسير حركتهم وفق المعطيات القرآنية هو الذي يمكن التعويل عليه عندئذ؛ لأنه يصدر من جهة عالمة بمحتواهم الداخلي. فالقرآن حينما يقول في قصة يوسف عليه السلام: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ لا يمكننا قراءة قلب يوسف عليه السلام بأنه همّ بالمعصية لمجرد تشابه اللفظ، أو لمجرد أن هذا الإغراء لا يمكن أن يقاومه ويثبت أمامه شابّ في ريعان فتوته؛ لأن هذه هي الصورة الطبيعية لبعض البشر، في وقت تذهب المعطيات القرآنية بعيداً عن ذلك تماماً حينما تشير إلى إخلاص يوسف عليه السلام وبراءته مما نسب إليه وَفق شهادتَي الطفل وامرأة العزيز نفسِها؛ فتأمّل!.

الموضوعي للإرادات الساعية لتحقيق هذا الهدف، ومن الملاحظ أن علامات الظهور لا تشخّص الهدف وإنما تحدد رؤية استشرافية لحركة المستقبل، وهذه الرؤية تتعلق أساساً بحركة الهدف نفسه، مما يعطي لديمومة عملية التحريك تلك زخماً كبيراً وهائلاً من الفاعلية على صعد شتى.

إن من الواضح أن العلمية التغييرية ترتبط إلى حد كبير بعوامل متعددة، أهمها:

أ ـ الهدف:

وهذا الهدف كلّما كان واضحاً ومقنعاً ـ أي منسجماً مع الواقع التكويني والكوني ـ، وواقعياً لا خيال فيه ـ أي قابلاً للتحقق ـ، وشمولياً بحيث يمتد مع الآفاق الزمانية والمكانية، كلّما أمكن استثماره في حشد أكبر للطاقات التغييرية، فقد يتوفر هدف ما، فيه الوضوح، وفيه قدرة الإقناع ولكنه ليس شمولياً مما يجعل المسيرة إلى هذا الهدف محدودة الهمّة.

فلقد لاحظنا في ثورة سبارتكوس[1] لتحرير العبيد على سبيل المثال، ما أمكنها أن تثير عزم العبيد، فالهدف كان واضحاً ومقنعاً وواقعياً، ولكنه لم يستطع أن يستوعب شمولية الحركة التاريخية، فقد سارع الترهلُ إلى حركته وقضى عليها، فالعبيد ما إن ثاروا وحققوا مآربهم الأُولى حتى أكلوا ثورتهم وأهدافها، مما أدى بهذه الحركة أن تسقط وتنتهي بمجرد أن ينتهي قائدها، وليس بعيداً عنها مثال الثورة الفرنسية ١٧٨٩م على الرغم من البون الشاسع ما بين الثورتين، ولكن طلاب الحرية الّذين ثاروا في الباستيل، سرعان ما تحولوا إلى الديكتاتوية وعلى يد أكثر ألسنتهم حماساً للحرية، أعني بذلك روبسبير ونظراءه، وكلّما كان الهدف قادراً على إبداء الزخم لمريديه وجاذباً إليهم لأي سبب كان، كلّما أمكن الحركة المتجهة إليه أن تكسب ديمومة أكبر.

وعلى الرغم من أن الظهور الشريف لا يمثل هدفاً نهائياً بحدّ ذاته لمسيرة الهداية الربانية، ولكنه يمثل محطة كبرى وجوهرية في مسيرة هذا الهدف، ولهذا فإن تلك الخصائص لو لاحظناها من خلال مرقاب علامات الظهور لوجدنا أنّ هذه العلامات تقدم خدمات هائلة على أكثر من صعيد، فهي علاوة على ما تمنحه للسائر باتجاه هذا الهدف من قدرة على إبقاء الهدف حيّاً في فكره، وتعمل على تقريبه منه وجذبه إليه،

---

١ قتل قريباً من ٧١ ق.م.

فإنها في نفس الوقت تعمل على الإبقاء على جذوة شموليته بالشكل الذي يجعل الإرادة المتحركة نحوه معبأة بشكل مستمر.

هذا، ناهيك عن أن علامات الظهور تعمل على تبسيط الهدف من خلال تحويل نفسها إلى علامات دالة على طريق الهدف، وهذه العلامات علاوة على كونها تمنح هذه الإرادة ما تحتاجه من أمل لديمومة المسيرة، فإنها في نفس الوقت تجعل مراحل السير نحو الهدف مرئية، مما يجعل الهدف بسيط المؤونة دوماً.

ولو أنـا مثّلنا لهذا الأمر بمثال، فأعتقد أنّ تصور كتاب ضخم بلا تقطيع في الأبواب والفصول، يجعل مهمة قراءته صعبة وعسيرة وتثير الخمول في كثير من النفوس، ولكن كتاباً مقطّع الفصول والأبواب، وتكثر فيه العناوين الجانبية يجعل مهمة قراءته سهلة وميسورة؛ لأن الوصول إلى مقطع يشجع الهمة في السعي للوصول إلى المقطع التالي، فمع تحقق واحدة من العلامات فإنها تشحذ الهمم وتتجدد للاستمرار.

وسنلمس أثناء حديثنا عن الدور الذي تلعبه علامات الظهور في الأُمّة المتحركة لتحقيق الهدف، كثيراً مما يوضح لنا صورة ما أشرنا إليه هنا، ولعل هذا الأمر يمكن تبيّن قيمته من حيث التقييم السوسيولوجي بشكل أتمّ وأفضل حين نلحظ أن الإنسان المعنـيّ بعلامات الظهور غالباً ما يكون معبّـأ ومجهّزاً بعقيدة عملية مؤداها العمل بالتكليف الإلهي وحمل المسؤولية الدينية على أيّ حال.

ب ـ القائد:

تلعب شخصية القائد دوراً كبيراً ـ وفي بعض الأحيان الدور الأكبر ـ في عملية التغيير الاجتماعي، فكم من مشروع كبير للتغيير طرح عبر التاريخ انتهى بانتهاء قائده، والعكس صحيح أيضاً، فالقائد بلا مشروع وقاعدة جماهيرية يتحول الى رجل - في أحسن الظروف - يعيش زماناً غير زمانه، ولهذا فقد أولت البحوث الاجتماعية والسياسية والإنسانية ـ ولا سيما أبحاث الثورة والإدارة والتنظيم والتغير الاجتماعي وغيرها ـ شخصية القائد ودوره اهتماماً وعناية فائقتين، ومن الواضح أن علامات الظهور الشريف عُنِيَت هي الأُخرى بالدلالة على مسألة القيادة والقائد وواجبات الانقياد بشكل كبير، وقد ارتدّت فوائدها باتجاهات عدة؛

فتارة توجهت إلى محور القيادة الأصلي وتأصيله فكرياً وعقائدياً، وهذا المبحث

وإن لم يك من مختصات علامات الظهور، ولكن لكثرة ما أشارت هذه العلامات إلى مسألة انحراف القيادة وحذّرت من كثرة المدّعين للمهدوية، فإنّ ردة الفعل الطبيعية لدى المعنِيّين ستكون باتجاه العثور على البنية العقائدية لمسألة القيادة والتمسك بها.

وأُخرى: عملت هذه العلامات على توثيق وتعميق الارتباط العقائدي والوجداني والشرعي بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في المستويات كافة، بعنوانه القائد الأعلى والأساس لهذه الأمّة، وهذه تُلحظ في موارد كثيرة، كمسألة المداومة على زيارة الإمام عجل الله تعالى فرجه، ودوام ذِكره، والتصدّق نيابة عنه، وانتظاره، والتثقف والارتباط بكلّ ما له علاقة ووصل به صلوات الله عليه... إلى آخره.

وثالثة: عملت هذه العلامات بمعية عوامل تشريعية أُخرى على ضبط المحاور القيادية للأمّة في حالة غيبة الإمام عجل الله تعالى فرجه، وهذه لها أهمية قصوى في ضبط حركة الأمّة وتوجيهها باتجاه الهدف وإبقائها ضمن الخط القيادي ومنهاجه، فغَيبة القيادة ستربك أيَّ مجموعةٍ تغييرٍ، ولا سيّما أنّ عملية التغيير ـ بطبيعتها ـ ستجابه من قبل القوى الرافضة للتغيير، مما يعني إمكانية مرور هذه المجموعة بكثير من الظروف الخانقة سياسياً واجتماعياً وفكرياً، مما يستدعي الحضور القيادي الفاعل لمجابهة هذه الظروف في كلّ ما تعكسه من سلبيات في ساحة التحرك داخلياً وخارجياً[١]، وعدم ترك المجموعة من دون محور قيادي.

فمع الإشارة المكررة لكثرة من سيدّعي البابية[٢] والنيابة والمهدوية، ومع التنبيه

---

١ ثمة سلبيات ستتولد بشكل تلقائي نتيجة الصدمات الاجتماعية أو السياسية أو الفكرية على الصعيد الداخلي للمجموعة، كأن يبرز بعض القافزين على الظروف لمصالحهم الخاصة، كما حصل في أزمة الواقفة في عهد الإمام الرضا عليه السلام بعد شهادة والده الإمام الكاظم صلوات الله عليه.

أو يبدأ تيار الانفعاليين بهذه الصدمات بالإمساك بدفة المجموعة نكوصاً وانهزامية، كما هو حال المجاميع التي كانت في جيش الإمام الحسن عليه السلام..

أو تقحّماً وتهوراً، كما هو الحال في كثير من حركات العلويين أيام بني العباس، وما إلى ذلك.

وكذا على الصعيد الخارجي، إذ يمكن لأعداء هذه المجموعة أن يستثمروا ظروف الصدمات وما يترتب عليها في داخل الجماعة، من سلبيات أو تضعضع، لكي يمعنوا في إضعاف الجماعة المؤمنة، كما هو الحال بعد صلح الإمام الحسن صلوات الله عليه.

٢ لا نقصد بها عقيدة البابية المعروفة، وإنما نقصد ادّعاء شخصٍ ما بأنه باب للإمام عجل الله تعالى فرجه وموصِل إليه، أي يلتقي به ويأتي منه بأمر أو أوامر، ويبلغه مطالب شيعته.

بوجود خط محدد للقيادة والمرجعية دون غيره قد اعتُمد من قبل الإمام (روحي فداه) نفسِه في حال غيابه، والمشار إليه بتوقيعه الشريف: "وأما الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله عليهم"[1]، إلا أننا نلحظ هنا بأن عملية تولية الأُمور من بعد الإمام (روحي فداه) مثلما أنهالم تترك عائمة، فإنها ـ كذلك ـ لم تكن سائبة بحيث تكون بطريقة عرضية في موازاة قيادية ومرجعية الإمام (روحي فداه)، وإنما تمّت بطريقة طولية تكون فيه، أي مرجعية مقيّدة بقيد التبعية للإمام صلوات الله عليه، أيْ أنّ أيَّ محور قيادي تبقى مشروعيته مرتبطة بقدر ما يمثله من ارتباط بالإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، وليست منفكة عنه.

ففي هذا الحديث الشريف تحدّث (بأبي وأمي) بأنهم حجته وأنه حجة الله عليهم، فلم يفصل بينهم وبينه، ولم يقطع سبيل مسؤولياتهم، وإنما أبقاها معلقة به صلوات الله عليه، ولهذا فإنّه لن يبقى أيّ مجال أمام المنتظرين في أن تكون لهم الخيرة من أمرهم في شأن القيادة والالتزام بها.[2]

وفي نفس الوقت، فإن بقاء المنتظِر ضمن الإطار الشرعي الذي أوجب الإمام (روحي فداه) البقاء ضمنه، يتيح للمرء سرعة الانتقال وطواعيته إلى قيادية الإمام صلوات الله عليه فيما لو حصل الظهور؛ إذ إننا نلحظ جملة من روايات وأحاديث علامات الظهور وهي تتحدث عمّن حُسب على دائرة الإيمان ولكنه يلتزم ـ في عصر الإمام المنتظَر (روحي فداه) ـ قيادات أُخرى ستأتي وتدّعي المهدوية، أو تدّعي مقاماً يماثل دور مقام الإمام المهدي صلوات الله عليه، ونظراً لبعدها عن الإمام (بأبي وأمي) فإنها ستقف ضده، وربما تقاتله، عندئذ سيقع من لم يحسب للأمر القيادي في غياب الإمام (روحي فداه) حسابه الجاد في فتنة عظيمة، وقد يسقط في أتونها ولا

---

١ كتاب الغيبة: ٢٩١ ح٢٤٧؛ للشيخ الطوسي، وكمال الدين وإتمام النعمة: ٤٨٤ ب٤٥ ح٤ واللفظ له، الاحتجاج ٢: ٥٤٣ رقم ٣٤٤؛ للشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي؛ دار الأُسوة للطباعة والنشر - إيران.

٢ من الواضح جداً أن نظام الوكلاء لم يبتدئه الإمام صلوات الله عليه نفسه، وإنما كان نظام الوكالة معتمداً من قبل جميع الأئمة عليهم السلام، إلا أننا بدأنا نلحظ تطوراً في هذا النظام منذ عهد الإمام الكاظم عليه السلام، تمثل في أن الوكيل كان يمارس وكالته مع وجود الإمام صلوات الله عليه نفسه، كما هو الحال في وكالة محمد بن أبي عمير رضوان الله عليه، ولكن مع وجود وكلاء آخرين، ومع زمن الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام بدأنا نلحظ تركيزاً في نظام الوكالة، بحيث تحدّد مرجعية خاصة للوكيل، مع عدم التوسع في تعددية الوكالة، ومن بعدها انحصر هذا النظام في السفراء الأربعة دون غيرهم واحداً من بعد آخر.

يجد مجالاً للخروج من تعلّقه بهذه القيادات المزيّفة، وبالنتيجة يتحول إلى القتال ضد الإمام (بأبي وأمي).

فالقيادات المزيّفة أو القابلة للانحراف يمكن أن تضع حُجُباً على عقول متّبعيها، أو تأسرهم بروابط روحية وعاطفية وسياسية جمة، وإن كانت مزيّفة في مضمونها وواقعها، أو تبتدأ وهي سليمة الطرح والمشروع، ولكن تصاريف الدهر وعروض الدنيا بإغراءاتها وبوعيدها قد تطيح بهذه السلامة ولا تبقيها، وقد لا ينتبه المرء في البداية إلى خطورة ذلك، أو يتسامح في قبول هذه القيادة أو تلك، دون الرجوع إلى الموازين الشرعية الدقيقة في هذا المجال، ولكن يمكن مراقبة الأمور مع مسار الأيام وحينما ينصهر المرء ضمن هذه الجماعات وتتشابك مصالحها مع مصالحه، ويغدو الخروج منها أمراً فيه كثيرٌ من التعقيد، مما يجعله في بعض الأحيان ممن يعمل على مناقضة مبادئه وأهدافه لدخوله في أتون العقل الجمعي، أو لخضوعه لعملية تزييف شاملة في الوعي، أونتيجة لارتهانه لعوامل عاطفية ووجدانية تكوّنت لسبب أو لآخر مع هذه الجماعات[١]، وهذا ما أشارت إليه روايات عدة، ولعل ما ورد عن الإمام الباقر صلوات الله عليه ما يعبّر عن ذلك بوضوح، إذ يقول وهو يتحدث عن دخول الإمام المنتظر (روحي فداه) إلى الكوفة: "ويسير إلى الكوفة، فيخرج منها ستة عشر ألفاً من (البترية)[٢] شاكِين[٣] في السلاح، قراء القرآن، فقهاء في الدين، قد قرّحوا جباههم، وسمّروا ساماتهم، وعمّهم النفاق، وكلّهم يقولون: يا ابن فاطمة، ارجع لا حاجة لنا فيك!!! فيضع السيف فيهم" انتهى.[٤]

١ من المهم هنا دراسة ظاهرة الواقفة في عهد الإمام الرضا صلوات الله عليه، فرؤوس هؤلاء كانوا من وكلاء الإمام الكاظم صلوات الله عليه، كعثمان بن عيسى الرؤاسي، وزياد بن مروان القندي، وابن البطائني، ونظرائهم، ولكن أغراض الدنيا أزالت عنهم إيمانهم وجعلتهم لا يذعنون للإمام الرضا عليه السلام فحسب، بل يتحركون ضده (بأبي وأمي).

٢ البترية: فرقة كانت على عهد الأئمة زين العابدين والباقر والصادق صلوات الله عليهم، كانوا يعرفون جانباً من الحق ويبترون الباقي، وغالبيتهم آنذاك من الزيدية أو من المتأثرين بهم، ويعدّ من كبارهم: الحسن بن صالح ابن حي، والحكم بن عيينة، وكثير النوا، وسلمة بن كهيل، وأضرابهم، وهذه الفرقة لم يعد لهم وجود بهذا الاسم، ولكن في الواقع الملموس يمكن القول بان الكثير من الناس يشابهونهم بالفعل والمضمون، بل يمكن ملاحظة إن هذا النمط من التفكير موجود في كلّ زمان.

٣ شاك السلاح: من تجهّز به وأبرز استعداده لاستعماله.

٤ دلائل الإمامة: ٢٣٩؛ لأبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الإمامي؛ مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٩٨٨، ط٢ .

فهؤلاء ـ ومن خلال الوصف الأوّلي لبيئتهم الثقافية ـ يفترض أنهم كانوا من المعتقدين بالإمام عليه السلام، المحبين له، ولكن انحرافهم عن مسارات القيادة الربانية او تسامحهم في الالتزامات العملية المترتبة على هذه القيادة وتهاونهم في ذلك، وضعهم في طريق سيف الإمام صلوات الله عليه، فهم مع وجود تلك البيئة ولكنهم لم يعصوا الإمام (بأبي وأمي) فقط، بل راحوا يحددون له ويملون عليه مسارات العمل والسلوك، مما جعلهم طعمة لسيف الإمام صلوات الله عليه.

ولهذا حرصت تعليمات أهل البيت عليهم السلام على أن يبقى المنتظِر في مسار الأُطر الشرعية المعدّة لهذا الغرض ولا يخرج منها، وهذا هو سرّ التشدد الذي نلاحظه في إرجاع المنتظِر إلى هذه الأُطر دون سواها، وفي هذا الصدد يمكننا ملاحظة التشدد الكبير الذي أولاه الإمام المنتظَر ومن سبقه من الأئمة صلوات الله عليهم لمسألة تبعية الشيعة لوكلائهم وعدم السماح لهم بالمساس بهؤلاء الوكلاء، ولا سيما في قضية موقف بعضهم من النواب الأربعة، ومن أبرزها الموقف المعروف بلعن محمد بن نصير النميري وأحمد بن هلال الكرخي وابن أبي العزاقر الشلمغاني والبراءة منهم، لأنهم أرادوا أن يأخذوا موقع النواب، أو وضعوا أنفسهم في موضعهم، فكان موقف الإمام (روحي فداه) متشدداً جداً في ذلك بالدرجة التي وصلت إلى لعنهم والبراءة منهم[١]، وما هذا إلا تحصيناً للموقع القيادي وواجهاته.

ورابعة: تعاملت هذه العلامات بطرق متعددة من أجل ضبط سلوكيات العلاقة مع القائد ومشروعه القيادي، فحين تعطي هذه العلامات ـ بمعية عوامل عقائدية عديدة ـ زخماً هائلاً للتعلّق بالإمام (روحي فداه)، فمن الطبيعي أن نرى أن الخط التربوي المثار في هذه العلامات وغيرها سيتم تفعيله بطاقاته العليا، فهذه العلامات حين تثير أمام عشّاق الإمام المنتظَر صلوات الله عليه أن ظهوره الشريف ـ وبمقدار ما يتعلق بالظروف الموضوعية[٢]ـ مرتبطٌ ـ تأخراً وتقدماً ـ بطبيعة استعدادات ذاتية وموضوعية لدى المنتظِرين، فإن ردة الفعل الطبيعية ستكون منعكسة بشكل إيجابي على طبيعة

---

١ يمكن مراجعة مواقفهم في كتب التراجم، ولعل ما في كتاب غيبة الشيخ الطوسي ما يكفي لمعرفة جانب من أحوالهم، فلقد أدرج جانباً من أخبارهم في فصل: ذِكر المذمومين الّذين ادعوا البابية والسفارة كذباً وافتراءً لعنهم الله: ٣٩٧ .

٢ باعتبار أنّ العامل الإلهي له دوره الحاسم في عملية الظهور، وهذا العامل وإن ارتبط بالظروف الموضوعية للمجتمع والتي تثار في القرآن الكريم على طريقة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [الرّعد: ١١]، إلا أن بعضاً من استحقاقات تفعيله تبقى خفية بيد الله تعالى.

المنهج الذي يريده الإمام (روحي فداه)، وحينما يلاحظ المنتظِر أن تقرير أعماله يُعرض على الإمام صلوات الله عليه بصورة دورية لا تتجاوز الأسبوع، فإن كثيراً من عوامل التحفيز باتجاه السلوكية المطلوبة، وعوامل الإعاقة ضد السلوكية المنبوذة ستتفعّل في داخله، مما يتيح للبرنامج التربوي انسيابية سلسة في التطبيق والتنفيذ.

وخامسة: أشارت منبهة إلى القيادات الخطرة التي ستعمل بشكل مضاد، كما هو الحال في التنبيه على خطورة حركات السفياني والشيصباني ومصري ويماني يخرجان قبل السفياني[1]، وأمثالهم، وقد كان سبب التنبيه مرتبط تارة بخطورة هذه القيادات على الجماهير المنتظِرة للخلاص، وأُخرى بخطورة برامجها المضادة لعملية الانتظار، ولا سيما أن بعض الروايات قد توحي بأنّ برامج هؤلاء تحمل في طياتها إمكانات ضخمة في تضليل الناس والتغرير بهم.

ج ـ الأُمّة المتحركة لتحقيق الهدف:

ما من شك بأن الأُمّة التي ستضطلع بدور التمهيد المباشر لعملية الظهور الشريف، ثم تلك التي ستقوم بحمل أعباء الحركة المظفّرة لما بعد الظهور الشريف، تحتاج إلى مواصفات فذة واستثنائية، ولهذا لا غرابة من أن نلحظ العناية البالغة لعلامات الظهور في إعداد هذه الأُمّة كي تتسلم مهامها وتتحمل الأعباء التي شرّفها الله بها في هذا المجال، ولا سيما أن هذه الأُمّة ستمر بمخاضات عسيرة، وستتجهمها الدنيا بكلّ ما أوتيت فيها قوى الشر والظلم من قدرة وقوة، وكيف لا؟! ومواصفات دنيا ما قبل الظهور تتميز بكونها مملوءة بالظلم والجور.

إنّ الملاحِظ بدقة ولا سيما المتخصص في التربية الاجتماعية يعرف أنّ أحاديث علامات الظهور نهجت في هذا المجال نهجاً تربوياً خاصاً يحيط المنتظِر ومجاميع

---

١ المقصود باليماني هنا ليس هو راية الهدى المشخصة في الروايات، وإنما هو راية ضلال قبل ظهور السفياني، تقترن بشخصية من اليمن، وأخرى ـ حسب الظاهر ـ من مصر، كما هو مفاد رواية محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام: «يخرج قبل السفياني مصري ويماني» انظر: غيبة الطوسي: ٤٤٧ ح٤٤٤ .

ولو صحَّ إمكان تطبيق هذه الرواية على عصرنا هذا، فلعل أقرب الإسقاطات المعاصرة على ذلك هو تنظيم القاعدة الذي يقوده يماني هو (ابن لادن)، ومصري هو (أيمن الظواهري)؛ وما يساعد عليه إن أثرهما الكبير في تأسيس حركة التكفير في بلاد المسلمين وتحويل التكفير الى حركة مسلحة موغلة بالدم والفساد يجعلهما من أئمة الضلال الكبار، ومثل هؤلاء عادة ما يشار اليهم في الروايات. والله العالم.

المنتظِرين بثلاثة خطوط من التربية، وهي خطوط تكاملية وليست تراتبية، أي أنّ واحدها يكمل الآخر، لا أن ينتظر واحدها اكتمال سواه، وكلّها تنزع إلى رفع مستوى التزامه بالمسؤولية بالشكل الذي يتناسب مع حجم المهمة التي أُنيطت بالمنتظِرين، وهي:

أ- وعي الذات: فالأُمّة التي لا تعي ذاتها، والإنسان الذي لا يعي ذاته، لن يقبل على تحمل المسؤوليات الكبرى، وسيبقى محاطاً بالهموم الصغيرة التي تصغر به عن مستواه الحقيقي الذي أراده الله له، مما يجعل منه أرضية صالحة لكي تنبت فيها كلّ العوامل التي تسقطه في ساحة الانتظار وتخرجه من هذه الساحة، فقد تسحق قيمة هذه الذات: فتسير في مسار التبعية للآخرين، والخضوع لقرارهم، وأُخرى قد تضخّم هذه القيمة فتخرج الذات عن طورها الطبيعي إلى الطور المتجبّر.. مما يقوي لديها عنصر الاعتداء على حقوق الآخرين.[1]

ب - تربية الذات: يمكننا أن نشبّه مرحلة تربية الذات كمن يوضع على قارعة الطريق المتجه نحو الهدف، بعد أن يعرّف قيمة الهدف، وقيمته هو كسائر باتجاه هذا الهدف، وهو في هذه المرحلة سيعرف أنّ الرحلة نحو الهدف ستقترن بكثير من الصعوبات والأخطار والموانع التي ستعمل على إعاقة المسير، وبشكل أدق ستعطيه قدرة على تحمل مسؤولياته بجدية عالية، مما سيعطي لتربيته لذاته كثيراً من الزخم لكي يمضي من دون أن تفتّ في عضده هذه الموانع وتلك الأخطار.

ج - رقابة الذات: وثالوث هذه المراحل هو شأن رقابة الذات، وهنا يلعب عديدٌ من المفردات التثقيفية في ساحة الانتظار دوراً كبيراً في نشأة رقابة داخلية على الذات، فلو أخذنا مفردتين من مفردات هذه الثقافة كمفردة الانحراف ومفردة التشرف بلقاء الإمام (روحي فداه)، سنجد أنّ المفردة الأُولى تعطي زخماً كبيراً من التشدد السلوكي في عالم الانتظار كي لا يقع المنتظِر في دوامة الانحراف، فيما تمنح الثانية المنتظِر شوقاً كبيراً في رقابة الذات ونموها كي يلتقي بمعشوقه!

ولعل خير تمثيل لهذا النهج هو مجموعة الروايات التي تحدّثت عن طبيعة البلاء الذي سيُبتلى به أهل الانتظار، وما أكثر هذه الروايات! وأذكر - من جملتها - ما رواه الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، قال: "والذي نفسي بيده ما

---

١ اتجاهات الدفاع الاجتماعي في الإسلام: ٧٠؛ لجلال الدين علي الصغير؛ دار البلاغة. بيروت ١٩٩٣ ط١ .

ترون ما تحبون حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض، وحتى يسمّي بعضكم بعضاً كذّابين، وحتى لا يبقى منكم [من شيعتي] إلا كالكحل في العين، والملح في الطعام، وسأضرب لكم مثلاً وهو مثل رجل كان له طعام[١]، فنقّاه وطيّبه، ثم أدخله بيتاً وتركه فيه ما شاء الله، ثم عاد إليه، فإذا هو قد أصابه السوس[٢]! فأخرجه ونقّاه وطيّبه، ثم أعاده إلى البيت فتركه ما شاء الله، ثم عاد إليه، فإذا هو قد أصابته طائفة من السوس، فأخرجه ونقّاه وطيّبه وأعاده، ولم يزل كذلك حتى بقيت منه رزمة كرزمة الأندر[٣]، لا يضره السوس شيئاً، وكذلك أنتم تميّزون حتى لا يبقى منكم إلا عصابة لا تضرها الفتنة شيئاً". [٤]

وعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "والله لتكسّرنّ تكسّر الزجاج، وإن الزجاج ليعاد فيعود كما كان، والله لتكسّرنّ تكسّر الفخار، وإن الفخار ليتكسّر فلا يعود كما كان، ووالله لتغربلنّ، ووالله لتميّزنّ، ووالله لتمحّصنّ حتى لا يبقى منكم إلا الأقل، وصعّر[٥] كفّه". [٦]

وبين هذه وتلك يمكن لنا مراقبة الخطوط التربوية الثلاثة ومساراتها وطبيعة تداعياتها في ساحة المنتظِرين.

وقد نلمس تطبيقات عملية من خلال محطات عدة، ربما نلاحظ بعضها من خلال العناية الخاصة التي نجدها في أقوام محددين دون سواهم، كما هو الحال في شيعة العراق، ولا سيما في الملتحقين بحركة اليماني الموعود أو الحسني وما يعرف بعصائب أهل العراق، وكما نلحظ الحال في شيعة إيران، ولا سيما بالملتحقين براية الخراساني وشعيب بن صالح وبأهل طالقان[٧] على وجه الخصوص، وفي أبدال الشام، ونجباء مصر (كنانة)، وفي مَن يلتحق مِن أهل الجزيرة بحركة الإمام (روحي فداه) بعد التئام جمع أصحابه الثلاثمئة وثلاثة عشر.

وهذا الحديث الذي اقترن بتمييز هؤلاء بالمدح والثناء والتمجيد لمواقفهم

١ الطعام هنا هو الحنطة أو الشعير.
٢ نوع من أنواع الدود يضرب الحبوب، ولا سيما الحنطة والشعير وما شاكلهما.
٣ الأندر: القبضة من القمح خاصة.
٤ غيبة النعماني: ٢١٧ - ٢١٨ ب١٢ ح١٧ .
٥ صعّر يده: أمالها.
٦ غيبة النعماني: ٢١٥ ب١٢ ح١٣ .
٧ لو صحّت رواية طالقان.

المناصرة بصورة أو أُخرى، يمنح أفراد هذه المجتمعات فرصة مهمة للالتحاق بهذا الركب، وينبّههم إلى طبيعة الدور الموكول إليهم لكي يقوموا به في مهام التمهيد للظهور وما بعده، مما يجعلها أكثر قابلية لتحمل الأعباء التربوية والروحية المرتبطة بعملية التمهيد والنصرة، سواء أكان على مستوى الفرد أو الجماعة، ولا سيما أنّ هذه الجماعات ستكون هي نفسها في معرض البلاء والتمحيص الشديدين، وهي ـ لهذا وغيره ـ مهددة بخيار الانحراف؛ لأنّ كثيراً من الانحراف سيحصل ـ كما تشير هذه الروايات ـ في نفس مناطق هذه الجماعات، مما يجعل وسائل التحفيز نحو أن تكون هي الجماعة المختارة، وكذا وسائل الردع من أن تُحرَم من ذلك، فاعلةً بدرجةٍ كافيةٍ لكي تمكّن من إعداد الفرد وتأهيله لهذه العملية.

علاوة على ذلك، فإنّ ما يُلحظ في هذه الروايات أن ثمة تأكيد كبير على حجم البلاء الهائل الذي سيصيب هذه المجتمعات، ولا سيما في ما يتعلق بالعراق، وهذه الخصوصية تعود إلى طبيعة ما يحتله العراق في حركة الظهور، باعتباره عاصمة الدولة المهدوية المنتظَرة، وباعتبار خصوصيته ضمن جيش الإمام عجل الله فرجه، وكذا لما يقوم به البلاء من صقل لوعي الأُمّة وتهذيبها وتشذيبها، وهذا ما لحظناه في البلاء الإلهي الشديد الذي عمّ المجتمع الشيعي إبّان مقتل الإمام الحسين عليه السلام، وهو البلاء الذي ربما تصوّره السياسة الأموية التي تلخصت بهذا الشعار الذي رفعوه يوم كربلاء: اقتلوهم ولا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية!! ولكننا نعلم الآن جيداً كم كان هذا البلاء الشديد سبباً في أعظم نعمة في الوعي والتربية منحها الله عبر دم الإمام الحسين (روحي فداه) إلى الشيعة.

ولهذا لا يكاد المرء يجد نمطاً من البلاء في التأريخ إلا وتحدثت الروايات أنه سيصيب العراق في الفترة التي تسبق ظهور الإمام عجل الله تعالى فرجه، ولعل الرواية التالية توضح جانباً من جوانب حركة تربية الأُمّة عبر البلاء..

فعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: "يُزجَر الناس قبل قيام القائم عليه السلام عن معاصيهم بنار تظهر في السماء، وحمرة تجلل السماء، وخسف ببغداد، وخسف ببلدة البصرة، ودماء تسفك بها، وخراب دورها، وفناءٍ يقع في أهلها، وشمول أهل العراق خوف لا يكون لهم معه قرار".[1]

---

١ الإرشاد ٢: ٢٤٩ للشيخ محمد بن محمد بن النعمان البغدادي العكبري، الملقب بالشيخ المفيد، ضمن سلسلة المؤلفات الكاملة للشيخ المفيد، دار المفيد - بيروت، ط٢ .

والروايات التي تتحدث عن شدة البلاء الذي سيحيق بشيعة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جداً، وهي لم تك مجرد تنبيهات من الأئمة عليهم السلام لشيعتهم بترقب هذه النتيجة من أجل أن يعملوا على تحسين خياراتهم فقط، وإنما هذه الأحاديث بطبيعتها تعمّق مِن تعلُّق الأُمّة بأئمتهم عليهم السلام؛ لأنها أثبتت دوماً صدق الأئمة صلوات الله عليهم، مما يعطي لمنهج الأئمة عليهم السلام التربوي قدرة فائقة على التغلغل في أعماق النفوس ليؤصل من جدّيتها في حمل أعباء الهدف.

ومثال الشعب العراقي اليوم في غاية الوضوح، فالبلاءات التي صبّت عليه وإن كانت في مرارتها وقسوتها مما يعجز البيان عن توضيحه، ولكنها عملت ـ في الاتجاه الآخر ـ على تحصين الواقع الشيعي بصورة مذهلة، وأمَدّته بزخم هائل من الوعي والتماسك مما يندر حصوله في مجتمعات أُخرى لو أنها عانت من بعض ما عانى منه الشعب العراقي.

وهي في نفس الوقت الذي تثير فيه مرارة البلاء وواقعه الضاغط، فإنها تمنح الشيعة شحنة من الأمل الكبير نتيجة للشعور المتولد بأن خطوة نحو المستقبل الواعد قد قُطعت وانقضى شوطها، مما يبدد كثيراً من الضغط النفسي الناجم من ذلك البلاء، وهذا الخط يبرز بشكل واضح وصريح في حديث يرويه علي بن يقطين رضوان الله عليه عن الإمام الكاظم صلوات الله عليه، قال: "قال لي أبو الحسن عليه السلام: يا علي! إن الشيعة تُربّى بالأماني".[1]

ولعل إطلالة بسيطة على الواقع المعاصر ـ الناجم من بعد سقوط النظام الصدّامي المجرم ـ الذي يعيشه شيعة أهل البيت عليهم السلام في العراق من جراء عملية التكفير التي يتسلح بها مجرمو البعث والمجاميع الوهابية ومن يقف ورائهم من الأجندات الاقليمية والدولية، والتي راح ضحية أحقادها الطائفية عشرات الآلاف من الشيعة، تكفي لمعرفة طبيعة التداعيات التي نجمت من تسلّح هذه الأُمّة بمقتضيات التربية التي تشترك فيها علامات الظهور.

د: خريطة الطريق نحو الهدف:

التخطيط السليم للوصول إلى الهدف أحد أهم العوامل في نجاح أيّ مشروع قيادي، وبالنسبة للعمليات التغييرية الكبرى ربما تكون عملية بقاء الهدف حياً في

---

١ غيبة الطوسي: ٣٤١ ح٢٩٢ .

أذهان الساعين إليه، وديمومة الأمل بتحققه، أحد أبرز العناصر المساهمة في عملية الوصول، فكم من مشروع تغييري ارتكب القائمون عليه أخطاءً جوهرية في تشخيص خارطة الطريق نحو الهدف وأولوياتها، لتكون ـ هذه الأخطاء ـ بعد ذلك عاملاً حاسماً في عدم تحقق الهدف، أو تعقيد عملية الوصول إليه، إن لم يكن القضاء عليه كلّية، ومن يتابع علامات الظهور وطبيعة الأحاديث المروية في هذا الاتجاه لا يعدم الفرصة دون ملاحظة تأكيد روايات أهل البيت عليهم السلام الكثيرة على ضرورة التأني في اختيار مفردات الوصول إلى الهدف المرجو، مع تأكيد آخر يعتمد على ضرورة عدم إحراق المراحل.

وقبل تفحّص مقوّمات السير في هذه الخريطة وفقاً لما تبديه علامات الظهور، لا بُـدّ من أن نلحظ أن علامات الظهور لا توقّت الأحداث[١]، وإنما تشخّصها ـ كلاً أو جزءاً ـ أو تعيّن ملامحها ومواصفاتها وشروطها في بعض الأحيان، وبالتالي فإنّ المتتبع لها سيكون محاطاً بإطارها التربوي والتعبوي، حتى لو كان بعيداً فعلاً عن ساحة أحداثها.

ولهذا، فإن خريطة الطريق التي نتحدث عنها لا نعني بها محطات الأحداث الزمانية أو المكانية، فهذا ليس من اختصاصنا؛ ومشتبه جداً، بل ومتقحّم جداً من يحاول أن يضع تفاصيل لهذه المحطات مبنية على أساس ما يراه في الواقع المعاصر، وقد باءت كلّ المحاولات التي اعتمدت من قِبل كُـتّاب مرموقين، وآخرين مغمورين ومغامرين على حد سواء، بكثير من الخدش بمصداقية ما ذهبوا إليه في آرائهم.

وما يُخشى هنا أن القدح قد لا يكون في صدقية تحليل الأشخاص، بل ربما يمتد حتى إلى نفس الأخبار، بل لما هو أكبر من هذه الأخبار، ومن خلال تتبعي للعديد من الكتابات في مصر[٢] ـ على سبيل المثال ـ التي حاولت أن تضع جداول زمنية

---

١ بمعنى أنها لا تحدد في أيّة سنة أو في أيّ يوم من أيّة سنة ستحصل هذه الأحداث، وحتى لو تحدثت ببعض التوقيت فإنها تهمل الكلام عن التوقيتات الأخرى التي تجعل عملية التشخيص دقيقة، فقد تشير إلى أن الصيحة ستكون في ليلة القدر ولكنها لا تتحدث في أيّة سنة، وقد تتحدث عن قتل النفس الزكية بنمط من التوقيت الناصّ على أن الحدث سيكون قبل ظهور الإمام عجل الله فرجه بخمسة عشر يوماً، أو أنها قالت بأن الإمام (روحي فداه) سيظهر في يوم الجمعة في العاشر من المحرم ولكنها لم تشر إلى أيّة سنة.

٢ مصر من الساحات الناشطة جداً في الكتابة عن الإمام المهدي المنتظر عليه صلوات الله، وعلامات الظهور، ومنذ أن ظهر كتاب الصحفية الأمريكية كريس هاليسل حول معركة هرمجدون،

للأحداث، أو تسقطها على وقائع معاصرة، أن ارتدّت على شكل عزوف من قِبل القراء والمتابعين ليس عن الكتاب أو الكاتب فحسب، بل حتى عن الفكرة المهدوية نفسها.

ولو أردنا تفحّص خارطة الطريق نحو الهدف، فإننا نلحظ أن هذه الخارطة قد طُرحت ضمن بعدين، أحدهما يتعلق بالإنسان المنتظِر، والآخر يتعلق بالجماعة المنتظِرة، وبطبيعة الحال فإن أكثر من خط للتقاطع والتشابك بين المسارين.

وفيما نلحظ أن خارطة طريق الإنسان المنتظِر تتعلق بتنجيز مسؤوليته الشرعية في ساحة الانتظار، وأخذ دوره ضمن الجماعة المنتظِرة بقدر الإمكان، إلا أن هذه الخريطة تهدف في ساحة الجماعة المنتظِرة إلى ما هو أكبر من ذلك من خلال حثّها على رفع الأسباب الموضوعية المتعلقة بغيبة الإمام (روحي فداه)، وذلك مبني على أساس أن الإمام عجل الله فرجه إنما غاب في البعد الموضوعي المتعلق بالمجتمع، بسبب قلة الجماعة الناصرة، وهيمنة الجماعة الظالمة، مما يحدد مسؤوليات تلقائية على الجماعة المنتظِرة تتعلق بإيجاد الجماعة الأولى وتقويتها وحمايتها ورعايتها، وتحجيم الثانية وتهميش دورها بأيّ قدر ممكن.

وعلى الصعيدين لا بُـدّ لنا من الالتزام بحقيقة أنّ العمل في مجاليهما يمثل عملاً تكاملياً وليس تراتبياً، بمعنى أنّ أيّ عمل يمكن أن يقدّم خدمة في مجاليهما يكون مطلوباً من دون ارتباط ذلك بعمل آخر لا بُـدّ من تنجيزه أولاً، ولهذا فإن حدود الممكن من العمل من دون تقصير سيكون هو حدود المسؤولية العامة للمنتظِرين، وهذا ما يعطيهم قدراً من الاستقرار النفسي والروحي، بأنّ أمراً ما لا يفوتهم لو قَصُرت أو عجزت إمكاناتهم، فهم مسؤولون تاريخياً وشرعياً عن هذا الممكن وليس أكثر منه.

المسمى بـ «النبوءة والسياسة»، الذي ترجمه الدكتور محمد السمّاك، حتى دخلت الساحة المصرية جدلاً واسع النطاق في هذه العلامات، وقد حدا الحماسُ بعضَ الكُتّاب أن أخذوا يسقطون كثيراً من علامات الظهور على الواقع المعاصر بكثير من التعسّف، مما جعل موجة مضادة من الحماس تقابلهم، ومن ثم ليدخل الجميع في مناقشات لا طائل من ورائها، بل امتد بعضها إلى نفي فكرة الإمام المنتظَر عجل الله فرجه نفسها، لا لدوافع وهابية بالضرورة، وإنما لطبيعة نقاش ابتدأ بمقدمات خاطئة فانتهى إلى نتائج مماثلة!

على أنّ هذا الأمر لا يخص مصراً وحسب، وإنما شهدت الساحات الشيعية، فضلاً عن غيرها، في أماكن كثيرة من العالم تداعيات مشابهة لذلك.

ذلك على خلاف بعض المدارس الفلسفية التي حولت إنسانها إلى دوامة من القلق والفزع نتيجة لعدم قدرته باللحاق بالمستقبل، وأخص بالذكر منها التيارات الوجودية التي جعلت حرية إرادة الإنسان بمنـزلة السوط اللاهب الذي يتلوى على ظهر الإنسان وهو يستحثه لكي يؤمّن ـ وبكلّ الطرق والأساليب ـ حضوراً أفضل في المستقبل، وسط قيم مادية متجردة من كلّ بعد إنساني!! مما جعل هذا الإنسان يتوسل بكلّ الوسائل ـ شريفها وخبيثها ـ من أجل تحقيق هذا الهدف.

إنّ هذه التكاملية في منهج خارطة الطريق تؤمّن جذباً مهماً لكلّ ممكن من العمل لكي يكون في محصّلة خدمة المسيرة، بحيث إنّ الإنسان لا يستخف بكلّ عمل مهما بدا صغيراً، وما هو الأهم من ذلك فإنه ينمي لديه حسّ الانتماء للجماعة المنتظِرة، فهو بهذا يرمي إلى تحويل عمله إلى رافد ـ ولو صغر ـ ليصب في نفع النهر الأكبر للجماعة التي يشكل كلّ واحد من أفرادها رافداً بقدر عمله.

وهذا التكامل ـ كما نلاحظ هنا ـ قد أُسس لأُولى محطات هذه الخارطة، فلقد تبدى بشكل واضح دور المسؤولية الذاتية للفرد والجماعة كمنتظِرين تجاه عملية الانتظار وأهدافها، وما يمكن لهذا الشعور من أن يبلور واقع الانتماء إلى فكرة الانتظار بكلّ ما يعني هذا الانتماء من انعكاسات عملية وفكرية ووجدانية.

وما يعين المنتظِر والجماعة المنتظِرة في إنجاز هذه المهمات، هو طبيعة الخارطة المكانية والزمانية المطروحة في علامات الظهور، ففي هذه الخارطة يشار إلى مفاصل زمانية ومكانية محددة، هي التي تجعلهم دائماً منشَدّون إلى طبيعة هذه المهمات ومنجذبون إليها، ويتأكد هذا البعد كلّما اقترب عصر الظهور؛ إذ تتخصص العلامات في بعديها الزماني والمكاني لتقترب من عهد الشرائط، الذي سيكون الزخم المتولّد فيه والناجم من ظهورها بمنـزلة الأمل الكبير الذي يشحذ الهمم ويبقي النفوس ثابتة على الرغم من شدة البلاء في وقتها.

هـ ـ المؤسسة الراعية للهدف:

لا يمكن لأيّ مشروع تغييري أن ينهض بالمهمة من دون وجود المؤسسة الراعية والساهرة على تجميع عناصر القوة ودعمها وتوظيفها من أجل خدمة المشروع، وقد أنتجت التجربة البشرية كثيراً من أنماط هذه المؤسسات، ولكن ما يلاحظ عليها أن جميعها صعد بالتدريج إلى ذروة أمره، ثم ـ ولأسباب متعددة ـ سرعان ما ذوى بريقه وانتهى زخمه.

ولو لاحظنا الحالة الإسلامية، لوجدنا أن المؤسسة التي أنشأها الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله، والمتمثلة بمجموعة ضوابط الولاء، والتي تبلورت بشكل اجتماعي عبر بوابة الغدير، ما أن تـمَّ الحجر عليها واستبدالها بمؤسسة الخلافة المنبثقة من وقائع السقيفة، حتى وجدنا الزخم الإسلامي الذي كانت مؤسسة الرسول صلوات الله عليه وآله تضخ فيه كثيراً من عناصر القوة والاندفاع، يضعف بالتدريج، لتحل بدلاً عنه فتوحات السلطة ورغبات التأسيس للقدرات المادية، بمعزل عن المعاني الإسلامية، وبالانفصال عنها.

هذا، ولم يك المفكر الجزائري مالك بن نبي دقيقاً جداً حينما شخّص أنّ العهد الإسلامي الأول، الذي ابتدأ الزخم التغييري أو الحضاري، أخذ يتجه للانحدار ـ بسبب الانفصال بين العنصر الروحي والعنصر السياسي، بين الدولة والفكرة الدينية ـ كان قد ابتدأ من حرب صفّين[1]؛ بل إنّ حرب صفّين كانت نتاجاً لمراحل سبقت، وهذه المراحل لا يمكن أن تكون بشكل منهجي لتفوّت حدثاً كالسقيفة وإفرازاتها الاجتماعية والسياسية.

إن البذرة التي وُضعت يوم الغدير، سرعان ما ستعمل لتشكيل التيار الذي سيأخذ بعهدته التأسيس للمؤسسة الراعية، وكان الزخم المتولد من مظلومية الزهراء (بأبي وأمي)، ثم ما أعقبه في محطات حكم الإمام أمير المؤمنين وصلح الإمام الحسن وخروج الإمام الحسين صلوات الله عليهم، والتي بمجموعها أفرزت الجماعة المؤمنة بهذا الخط.

ثم لنجد هذه الجماعة تطوّر أداءاتها بفضل توجيه الأئمة اللاحقين صلوات الله عليهم، وهذا التطور بدأ يفرز مظاهر المؤسسة الراعية من خلال حلقات التدريس الذاتية ومجالس إحياء ذِكر أهل البيت صلوات الله عليهم في عهد الإمام زين العابدين عليه السلام.

ثم انطلقت باتجاه تأسيس نظام الوكالة عن الأئمة عليهم السلام، والذي شهدنا بوادره في عهد الإمام الباقر صلوات الله عليه ليتوسع بشكل كبير في عهد الإمام الصادق عليه السلام، ومن ثم ليتخذ صورة المرجعية الفقهية في أطوارها الأُولى في نهاية أيام الإمام الصادق وفي بدايات أيام الإمام الكاظم عليهما السلام، وكانت متمثلة بمواقع أبان بن تغلب وزرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وحمران بن أعين

---

١ ميلاد مجتمع: ١٠٦؛ لمالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر. دمشق ٢٠٠٦ .

ومحمد بن أبي عمير، وكذا المرجعية الكلامية والعقائدية المتمثلة بالهشامين والميثمي ومؤمن الطاق وحمزة الطيار والمفضّل بن عمر الجعفي وأمثالهم.

ثم وجدنا الأمر يتطور على شاكلة مجالس العزاء على الإمام الحسين (بأبي وأمي)، والذي أخذ منحىً كبيراً في عهد الإمام الرضا عليه السلام، ليتطوّر الأمر في عهد الأئمة الجواد والهادي والعسكري صلوات الله عليهم على شكل تثقيف مكثف في أحوال الإمام وخصائصه ومواصفاته وصفاته، بعد أن كان جلّ الحديث قبل ذلك يتركز على إثبات الإمامة والأفضلية للأئمة على مَن سواهم[1]، وهنا يبرز دور يونس بن عبد الرحمن ومحمد بن سنان وعبد العظيم الحسني وعبد الله بن جعفر الحميري والحسن والحسين ابنا سعيد الأهوازي وابنا مهزيار علي وإبراهيم ومحمد بن الحسن الصفّار والأشعريون ولا سيما أحمد بن محمد بن عيسى وسعد بن عبد الله.

وكلّ هذه الظواهر ابتدأت بسيطة الشكل ولكن في ظلّ رقابة قمعية في غاية الشدة، وبساطتها مكّنت من توسّعها بانسيابية كبيرة في الأوساط الاجتماعية، فعلى سبيل المثال نجد في تلك الفترة تشويقاً كبيراً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، وتكفي مراجعة بسيطة لكتاب "**كامل الزيارات**" لابن قولويه ـ وهو من أجلّ الكتب ـ ليجد الباحث أن هذا التشويق الذي ينفّذ بكثافة في عهد الإمامين الصادقين عليهما السلام، يضع المرء أمام مؤسسة تعبوية هائلة تدفع باتجاه التنمية والنظم الاجتماعي الذاتي من جهة، وباتجاه التحصين الكبير الذي تطلقه تجاه المدّ المضادّ تحت شعارين تم طرحهما ببساطة، ولكن مدلولاتهما كانت عميقة جداً، وأعني بذلك شعار: "إني سلم لمن سالمكم، وولي لمن والاكم" وشعار: "إني حرب لمن حاربكم، وعدوٌّ لمن عاداكم"، وكلّ ذلك مغذّىً بدفع معنوي هائل يتمثل بتلك الأحزان والدموع الغزيرة والآلام المتأججة التي كان للإمام زين العابدين صلوات الله عليه والصدّيقة الحوراء زينب عليها السلام الدور الأكبر في تجسيدها وتكريسها في الواقع الاجتماعي الخاص نتيجة لواقعة الطفّ، والذي منه انطلقت للفضاء العام، وجرّت معها كلّ الأحايث التي تتعلق بمظلومية أهل البيت عليهم السلام.

ولو لوحظت كلّ هذه الأمور بعين الفحص العلمي والموضوعي، فسنجد أنّ هذه

---

١ لعل إطلالة متعمقة على الزيارة الجامعة التي وردت عن الإمام الهادي عليه السلام، وكذا على كتاب "بصائر الدرجات" لمحمد بن الحسن الصفّار، الراوي عن الأئمة الجواد والعسكريَّين عليهم السلام، ما يعطينا صورة مهمة في تبيان هذا الأمر.

الأمور سوف لن تبقى تعيش عالمها المجرّد، بل سرعان ما تحوّلت هذه المظاهر إلى مؤسسات لها أعظم التأثير ليس في الواقع الداخلي للشيعة، بل امتدت إلى أكثر من ذلك، فنظام الوكلاء تحوّل إلى نظام المرجعية الكاملة، التي أخذت زمام الأمور بشكل فاعل منذ زمان الإمام العسكري صلوات الله عليه، وجاء دور النواب الأربعة لكي يبلور النظام على شكل مؤسسة متكاملة، وقد مشت هذه المؤسسة متزامنة مع مؤسسة أخرى أُطلق عليها فيما بعد اسم "الحوزة العلمية" بما فيها من نظم دراسية وعلمية، فيما أفرزت مسألة إحياء أمر أهل البيت والوجدانيات المتعلقة بها مؤسسة ضخمة تدار بشكل عفوي، ولكنها ذات تأثير عارم، وأعني بذلك مؤسسة الشعائر الحسينية، ومعها انبثقت ظاهرة الحسينيات، التي سرعان ما تحولت إلى منتدىً اجتماعي ضخم، لديه القدرة على ضبط الإيقاع الاجتماعي وتوجيهه، ومع الحسينيات كان المنبر الحسيني يلعب أخطر الأدوار في التوعية والتوجيه الاجتماعيين، وسرعان ما تشعّب المنبر إلى شعبتين، واحدة كانت خاصة بالشعر، والثانية كانت خاصة بالحديث والكلام، وكلاهما تحوّلا إلى رافدين يصبّان في النهر العام لحركة التنمية والنهضة الخاصة بمشروع التغيير المهدوي، ومن بعد ذلك وجدنا الأُمور تتحول إلى عالم الكتابة والفن بكلّ أصنافه، إلى أن وصل الأمر إلى وسائل الاتصال الجمعي ابتداءً من الراديو والتلفزيون وصولاً إلى الإنترنيت والإرسال الفضائي.[1]

وبمتابعة هذه الأُمور ووضعها في إطار الفاعلية الاجتماعية سنلاحظ العناصر التالية:

أولاً: تأمين النخبة والكادر الاجتماعي

فعبر مفردة الحوزة العلمية ومؤسساتها المختلفة، يمكننا القول بأن التشيع بقي يضخ في الحياة الاجتماعية ـ وبفاعلية مناسبة ـ الكوادر اللازمة على الرغم من حجم الهجمة التي عُرِّضَت لها هذه المؤسسة عبر الأزمان، وظل نظام المرجعية ـ مستعيناً بنظام الخُمس الذي يمثل أحد أعمدة استقلالية ونجاح هذه المؤسسة ـ يحافظ على هذا المنهج، ويوزع هذه الكوادر على المناطق بالطريقة التي تعالج الحاجة الاجتماعية ومتطلباتها، وهو بهذا قد أمّن طرق النسق الصاعد والنازل بينه وبين الأُمّة بطريقة انسيابية؛ غير معلنة ودونما انفعال، فالمرجع يوجّه، ووكيله في المنطقة ينقل

---

١ سنتوسع في الحديث عن ذلك في الفصل السادس ان شاء الله.

هذا التوجيه إلى أهل المنطقة، وعبره يتم نقل كلّ ما يتعلق بهذه المنطقة في مختلف المجالات إلى المرجع، وقد ساعدت مسألة إنشاء الحسينيات ـ دوماً ـ على إيجاد المحل المناسب للّقاء بين الوكيل وبين أفراد الأُمّة، وبدوره فإن الوكيل سرعان ما يشرع بعملية مد المنطقة بالعِلم الذي يعطيهم رشفة من الوعي، وهو ما يؤسس لنمط من أنماط الطاعة والولاء في وسط الأُمّة، وقد ظل هذا الوعي يتزايد يوماً بعد آخر، حتى تحوّل كثيرٌ من الوكلاء إلى فعالية أوسع من مناطقهم، وأشمل في العطاء والجذب.

ثانياً: تعميق الانتماء الاجتماعي

عاش التشيع كتجمع صغير في وسط محيط اجتماعي كبير لا يكنّ له الود، بل لقد عُرِّض التشيع عبر تاريخه العريق إلى أعتى الهجمات وأشرسها في كلّ أدواره التاريخية، وعبر مختلف الحكومات التي تعاقبت على حكم المناطق التي يكون فيها، فما هو سر بقائه؟! مع العلم بأن غيره لو عُـرِّض لبعض ما عُـرِّض له، لكنّا شهدنا انقراضه من الوجود!

ويكمن السر في ذلك إلى طبيعة المؤسسة التي نظّمت آليات وبدائل من شأنها أن تحفظ المجتمع الشيعي وتمنعه من الذوبان في المجتمعات الأُخرى، مع إتاحة المجال لسياسة احتواء كبيرة في نفس الوقت، ولهذا فهي من خلال وضع قاعدة التولّي والتبرّي كفرع أساس من فروع الدين، وراحت تربط هذه العملية بالمنظومة الفكرية والمعيارية لها، إنما كانت قد أسست لمنظومتين في آن واحد، واحدة تحصن الجدار الخارجي للمجتمع الخاص، والأُخرى تعمل على تنميته من الداخل لتدفع بسورها الخارجي إلى الأمام؛ إذ إنّ التولّي يهدف إلى تمتين الواقع الاجتماعي الخاص، والتبرّي يعمل على تحصينه من الخارج، وقد وُضعت ديناميكية خاصة لتوليد الزخم المطلوب حتى لا يتسرب الملل واليأس إلى داخلها.

وهذه الديناميكية المتجددة تتمثل في أن التولّي والتبرّي وُضع بناء على الموقف من أهل البيت عليهم السلام، وقد استأثرت مظلوميتهم ـ بشكل خاص ـ بالقسط الأكبر من هذه المهمة، مما جعل حجة التولّي والتبرّي تتمتع بمصداق فكري من جهة، ومصداق معنوي وتاريخي من جهة أُخرى، مما ولّد الزخم المطلوب للديمومة الاجتماعية.

ومما لا شك فيه أن سياسة الاحتواء والرغبة بعدم الصدام مع الآخر جهد

الإمكان، من خلال مبدأ التقية من جهة، وطبيعة قوة الفكر الشيعي من جهة أخرى، قد أهّلته إلى أن يستقطب أعداد غفيرة من المعتنقين للمذهب بانسيابية لم تستفز الآخرين إلى حد الانفجار الطائفي في غالبية الأحيان.

وقد استتبع هذه القاعدة وجود منظومتين رُبطتا بقواعد فقهية صارمة من شأنها أن تحافظ على الاستقلالية بشكل موضوعي، أُولاهما تتعلق بالاستقلالية في القضاء، وربط الأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والإرث وما إلى ذلك، وكذا ربط المسائل المتعلقة بالحسبة الشرعية المتعلقة بالمصالح العامة، فأيّ حكم يصدر في شأنهما من خارج المنظومة الفقهية الخاصة يكون باطلاً ولا قيمة له من الناحية الشرعية، مما أمكن الإمساك حتى بالّذين لا يتدينون بالأحكام العامة، فهم مجبرون بحكم الواقع الاجتماعي من جهة، وبحكم الواقع الشرعي من جهة أُخرى على العودة إلى الانتماء وفروضه.

وأما الثانية، فإنها تتعلق بمسألة الحقوق الشرعية وتداولها، ووضع الأُمور المتعلقة بمصارفها بيد الحاكم الشرعي، أو ما نطلق عليه بنظام الخمس، فهي وإن جوبهت كثيراً بالتكاسل وعدم المبالاة بها وعدم الاكتراث لها من قبل كثيرين من المنتمين إلى المذهب، ولكن مع هذا القدر المدفوع منه فقد أسهمت ـ بصورة عامة، وعلى نحو كبير ـ في حفظ استقلالية المذهب ومؤسساته، ولو قُدّر أنّ الاهتمام الاجتماعي كان أكبر مما رأيناه، لوجدنا ـ إذاً ـ خلو البيت الشيعي من الفقر بشكل كامل، ولسادت منظومة التكافل الاجتماعي بطريقة رحبة، ولكن للأسف ظل الأغنياء ومن في حكمهم من الناحية الشرعية إما غير واعين لخطورة القضية، وإما غير مبالين بالالتزام بجوانبها، مما ضيّع حق الفقراء.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا هو خطر كبير أراه من خلال اندفاع بعضهم وراء الزهد في الصرف على البنية الأساسية للمؤسسة الراعية، وتوجيه الصرف لتلبية الأغراض الاجتماعية التي تعاني من الجدب، كما هو الحال في الصرف على الأيتام والأرامل والفقراء، وهذا الكلام كلام حق وأخشى أن يراد منه باطل كبير، ولا سيما أنه قد صدر من جهات كان تاريخها معانداً بحجة التنوير، ومماريا بحجة التصحيح، فالأموال التي وُضِعت ضوابطُ صرفها من قبل الأئمة عليهم السلام وهي تشمل ـ ولا شك ـ الطبقات الفقيرة والمحتاجة، ولكن لا بُدّ من ترتيب الأولويات اللازمة.

فلو قدّر أن المرجع وضع أمامه فقير يتعفف ويطلب العلم، وفقير لا علاقة له

بالعلم، فمن هو الأَوْلى في هذا المجال؟ إذ إن المجتمع لا يحيا بملء المعدة أولاً، وإنما يحيا بسبب وجود الوعي والنخبة التي تدير عملية الوعي وتؤسس له، وهذه المسؤولية أخص، ولا سيما أن تلك المسؤولية ـ أعني تلبيـة حاجات الفقراء ـ هي مسؤولية الجميع، ابتداءً من الدولة الحاكمة حتى الوسط الاجتماعي، أما المنظومة التربوية الخاصة، فإنّ ارتباطها بالدولة يقتلها ويقضي على استقلالية المؤسسة.

بلى، هناك موارد صرف ربما تكون غير منضبطة لدى بعضهم، وربما هناك من تزيّى بلباس طلبة العلم ممن هو غير جدير بهم، ولكن هذه الأُمور التي يتحرّج المرجع أساساً من الصرف عليها لا تقضي على هذه الأولوية وتصرفها عن مسارها، والعلاج الحقيقي هو إيجاد الوعي الخاص بأهمية تأدية الحقوق الشرعية من الجميع، وعندئذ ترتفع حاجة الجميع.

فلو أن دولة ما تلكأ الناس فيها عن تأدية الضرائب المالية المترتبة عليهم، فإن من الطبيعي بمكان أن يظهر تلكؤ الدولة في إبراز الخدمات المطلوبة للمحتاجين، لأنها معنية أيضاً بأولويات في الصرف؛ فتنبّه!

ثالثاً: تأمين الزخم الروحي والمعنوي

إنّ الأفكار والنظم الاجتماعية والأُطر القانونية ما لم تصاحبها منظومة لإثارة الزخم المعنوي، فإنها تبقى مهددة بالتآكل والذوبان في خضم الأحداث المعتادة التي يواجهها المجتمع، وكلّما كانت منظومة الإثارة هذه لها ديمومة أكثر، كلّما ساعدت في إبقاء المجتمع حيّاً، وأمّنت نفاذه من الصعاب والتحديات التي يواجهها، وقد أوجدت مدرسة أهل البيت عليهم السلام ـ بعد تأمين الجانب الفكري والتنظيمي ـ منظومة معنوية كبرى تمثلت بمحورين: الأول هو الأمل بالفرج لقائم آل محمد صلوات الله عليه وعليهم، والثاني هي المشاعر المتوقدة بين مظلومية أهل البيت عليهم السلام وبين مناقبهم، فواحدة تدفع باتجاه الهدف، والأُخرى تجر إليه، وهذا ما تنبّه إليه الفيلسوف الفرنسي هنري كوربان في مناقشاته مع العلامة الطباطبائي (قدّس سرّه).

والحق يقال: إنّ الشيعة قد أتقنوا إلى حد بعيد الاستفادة من هذا الأمر على الرغم من أنهم دفعوا أثماناً باهضة جداً، ولكنهم أعطوا للعالم درساً ذا مصداقية كبيرة بقيمة ما يمتلكون، فلو تأملت وظيفة إحياء أمر أهل البيت عليهم السلام، التي طرحها الأئمة عليهم السلام، كما في رواية الفضيل بن يسار، عن أبي عبد الله عليه السلام،

أنه قال لفضيل: "تجلسون وتحدّثون؟

قال: نعم، جعلت فداك.

قال: إن تلك المجالس أُحبها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا.

يا فضيل! من ذَكَرنا أو ذُكِرنا عنده، فخرج من عينه مثل جُناح الذباب، غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر".(1)

وكذا في رواية عبد الحميد الواسطي، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام، قال: قلت له: "أصلحك الله، لقد تركنا أسواقنا انتظاراً لهذا الأمر.

فقال عليه السلام: يا عبد الحميد! أترى من حبس نفسه على الله عز وجل لا يجعل الله له مخرجاً؟! بلى والله ليجعلنّ الله له مخرجاً، رحم الله عبداً حبس نفسه علينا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا.

قال: قلت: فإن متّ قبل أن أدرك القائم؟

قال: القائل منكم أن لو أدركت قائم آل محمد نصرته، كان كالمقارع بين يديه بسيفه، لا بل كالشهيد معه".(2)

وبالنظر إلى أن ما مطروح من شؤون الثواب وغفران الذنوب وما إلى ذلك في مثل هذه الروايات، وهي من شؤون الآخرة، ولكنها في انعكاساتها الاجتماعية تشكل تشويقاً وترغيباً للقيام بهذه الأمور، فإن المستحصل لدينا هو الاندفاع باتجاه الاحتفاء بكلّ مناسبة تخص أهل البيت عليهم السلام، ولهذا تجد الشيعة يتنقلون من مناسبة إلى أُخرى، ومن الفرح إلى الحزن وفق طبيعة المناسبة، في وقت تشكل الخريطة الزمانية لهذه المناسبات حضوراً مستمراً طوال أيام السنة، مع أن فيها من المناسبات ما يجري الاستعداد لها قبل عدة أيام كما هو الحال في ولادة الإمام أمير المؤمنين والإمام الحسين والإمام المهدي عليهم السلام وعيد الغدير، وكما هو الأمر في مناسبات عاشوراء وأربعين الإمام الحسين عليه السلام ووفاة الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله واستشهاد الإمام الكاظم عليه السلام، مما يجعلهم في حالة مستمرة من ذِكر أهل البيت عليهم السلام وعلى مدى السنة.

---

١ قرب الإسناد: ٣٦ ح١١٦ .

٢ كمال الدين وتمام النعمة: ٥٨٤ ب٥٥ ح٢ .

ومن الحماقة أو الغفلة أو الخباثة بمكان تصوّر أن الاهتمام بهذه الأُمور يتم لرغبة في جلد الذات كما يحاول بعض السذّج فهم ذلك في حالة الشعائر الحسينية، أو الابتهاج الذاتي الذي يعوّض حالة الظلم كما في حالة الأفراح، فالمسألة أبعد من ذلك بكثير، بل لا تمتّ إلى ذلك بصلة، فحينما تلحظ الأمور بمرقاب الفاحص الاجتماعي تجد أنك في قبال منظومة لإيقاد البعد المعنوي، والتذكير بالمعايير الفكرية والأخلاقية التي نادوا بها كما في حديث عبد السلام بن صالح الهروي، قال: سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: رحم الله عبداً أحيا أمرنا. فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا.[1]

صحيح أن شكل الممارسة قد يبدو بسيطاً جداً، أو قد تبدو الممارسة أقرب إلى أوضاع العامة منها إلى النخبة، وهذا الأمر صحيح في نفسه، ولكنه ينطوي على مغالطة واضحة، فهو صحيح من جهةٍ باعتبار واقعية مدرسة أهل البيت عليهم السلام في تعاملها مع المجتمع، فهي لا تفترض أن المجتمع ـ بعنوانه ـ حكراً على النخبة، بل إن الواقع يشير إلى أن النخبة هي الشريحة الأكثر ندرة في المحيط الاجتماعي، ولهذا طرحت الأُمور بطريقة يمكن أن يستوعبها عامة الناس وبسطائهم، ولا يعافها في نفس الوقت من ينتمي إلى الشرائح الاجتماعية الأكثر علماً، وهذا هو وجه المغالطة، وإلا لَما وجدنا هذه المناسبات تحيا من جميع الشرائح الاجتماعية على حد سواء[2]، وهي على أيّ حال تستهدف إخراج الإنسان من الحالة البسيطة إلى حالة متقدمة في الوعي، وقد أثبتت التجربة التاريخية صحة ذلك إلى حد بعيد.

ونلحظ من بعد كلّ ذلك أن هذه المنظومات تعمل بشكل مستمر ودؤوب على التعبئة الاجتماعية الخادمة للهدف، في نفس الوقت الذي عملت فيه على الاعداد المستمر للمنتظِرين لكي يواجهوا التحديات والمصاعب الجسام التي تدهمهم نتيجة لظروف الصراع بين الحق والباطل.

*****

---

١ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧٥ ب٢٨ ح٦٩ .

٢ فصّلنا الحديث عن ذلك في دراستنا: دور الوجدان في حركة الأُمّة (الشعار الحسيني نموذجاً).

الفصل الرابع

آليات فهم علامات الظهور

كيف نفهم علامات الظهور؟

وما هي الآليات التي يمكن أن تساهم في عملية فهم هذه العلامات؟

ربما لا يُعنى بهذا البحث كثيرون، ولعل هذا الحشد الكبير من الكتب التي تتبعَتْ هذه العلامات والمتحدّثين عن مثل هذه الأمور توحي بأن هذه العملية هي أمر ميسّر ومتاح لكلّ من يمسك قلماً ويعرف مكان الأحاديث التي تحدّثت عن علامات الظهور! ولكني أحسب أن المتخصصين علمياً في مثل هذه المجالات يعانون الأمرّين ويبتلعون غصّة من بعد أخرى نتيجة لما يرونه في تنكب كثير من هذه الكتب والأحاديث عن الطريق الذي يتناغم مع آليات التحقيق العلمي الدقيق، وهذه الغصص هي عينها التي أفضت إلى سقوط كثير من التحليلات التي وسمت كلّ هذه الكتب في إسقاطات غير مناسبة، بل ربما مضرة جداً بالقضية المهدوية، مع أنه مما لا شك فيه أننا لا نعلم من أصحاب كثير من هذه الكتب والأحاديث عما ينبئ عن سوء طوية ـ والعياذ بالله ـ، بل هم إلى طيب النية والهدف أقرب منهم إلى أيّ شيء آخر.

ثمة موقف حصل في جلسة كنت فيها مع المرحومين البارّين الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم وعميد المنبر الحسيني الشيخ الوائلي (رضوان الله تعالى عليهما) وبعض من الشخصيات، ولعلها كانت في أواخر الشهر الحادي عشر من عام ١٩٧٩، في أوائل أيام هجرتنا من العراق إن لم تخني الذاكرة، وذلك في بيت المرحوم الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم في منطقة المزة بدمشق، وبعد انتهاء موسم الحج بأيام، وفي وقتها كانت حركة هاتك الحرم المكي الشريف التكفيري جهيمان العتيبي قد أخذت مداها من حيث الاستحواذ على الرأي العام، فقال أحد الجالسين ـ وما زال حياً في محافظة جنوبية ـ وكان ولازال ممن قد يشار إليه من قبل الناس آنذاك علمياً وسياسياً!!، وهو يثني على حركة جهيمان العتيبي ويقول: انتظروا في عاشوراء[1]

١ باعتبار أن الروايات الشريفة تؤكد أن موعد الظهور الشريف يكون في يوم عاشوراء.

هذا العام سيظهر الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه في هذه الحركة الممهدة[١]!!

وقد فوجئنا بحديثه هذا وفي طريقة تعامله المستخف والساذج مع علامات الظهور بهذه الشاكلة وبهذه الكيفية، حتى إنه تخلّى عن أبسط قواعد التعامل مع قضية صغرى فما بالك بكبرى كقضية الظهور الشريف، وراح نتيجة للضغط العاطفي الساذج[٢] الذي تولّد نتيجة لعملية جهيمان العتيبي تلك يتصوّر مثل هذه التصوّرات الشنيعة، ولكن هذه المفاجأة أشارت في نفس الوقت إلى حجم الخلل الكبير الذي كان ينتشر وسط قطاعات كبيرة من رجال الدين و المثقفين فضلاً عن غيرهم في التعامل مع هذا الموضوع، وأحسب أنه لا زال كذلك.

وليس من العسير ملاحظة أن غالبية المتعاملين مع الأحاديث المتعلقة بعلامات الظهور يعانون من ارتباك كبير في طريقة التعامل، ولعلك في كثير من الأحيان تجد فقدان المعايير العلمية التي تضمن سلامة التشخيص تسيد كثيراً من الكتابات أو الأحاديث المتعلقة بهذا الشأن، بل لعله ليس من المبالغة في شيء أن تجد أن العاطفة الشخصية هي المتحكمة في هذه الطريقة، ولعل قراءة عشوائية ـ ومن دون انتقاء ـ لكثير من الكتب المعاصرة التي تحدثت عن تحليل هذه العلامات تكشف مدى التباين بين الكُتّاب والباحثين في طرق التواصل والمعايير المعتمدة للتعامل مع نصوص العلامات، مما قد يكشف عن وجود أمر هو أقرب إلى الفوضى منه إلى التعامل السليم مع هذه العلامات.

فقد تجد من يُعلي شأن قوم ما انتصاراً لهم، دونما وجه وجيه، ومنهم من يسقط هذه العلامات على زمن معين بصورة قسرية، كما حصل على سبيل المثال عند انتصار الثورة الإسلامية المباركة في إيران عام ١٩٧٩، أو ما حصل حينما حدثت أحداث مركز التجارة العالمي في نيويورك في أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١، وأحداث العراق من بعد سقوط الطاغية صدّام، وما بينهما حينما كشف عن تفاصيل معركة هرمجدون المشار إليها في سفر حزقيل في العهد القديم، أو يتمسك برواية معينة ويحاول أن يطبقها ـ ولو بليّ عنقها وتقطع أوصالها ـ على البلد الفلاني أو العلاني أو المجموعة الفلانية أو الشخص الفلاني، كما يحصل ذلك في الحديث عن الجزيرة الخضراء أو

١ هذه الجماعة من التكفيريين الوهابيين وقد قدّموا شخصاً باسم محمد بن عبد الله القحطاني بعنوانه هو المهدي المنتظر!!

٢ يمكن أن يقال إن سبب الضغط العاطفي كان ناجماً من الموقف المضاد لحكّام السعودية، ولكنه في نفس الوقت جعله ينسى أن التكفيريين هم أشد عداوة!

شخصية الأعور الدجال أو يأجوج ومأجوج أو السفياني[1] أو الخراساني أو الحسيني أو اليماني وهكذا...

ومع تسليمنا بحقيقة أن علامات الظهور الشرف إنما ذُكرت من قبل الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم فلأنها ستحصل في المستقبل، وبالتالي فإن من الطبيعي بمكان أن يتم إسقاطها على الأحداث التاريخية، ومقايستها بها، لأن بعضاً مما يحصل في هذه الفترة أو تلك، إنما هو بالفعل تصديق لمن ذَكر هذه الأحداث من قبل، وهذا مما لا اعتراض عليه بالمرة، ولكن ما يجب أن نذكّر به هو أن يتحصّن البحث والكلام في مثل هذه الموضوعات بكمال الدقة والمراعاة للضوابط التي تحكم هذه العلامات وتفسيرها؛ لأن هذه العلامات إنما ذُكِرت فلأنّ مَن ذَكَرها من الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم كان في صدد تحقيق أهداف عملية الهداية الربانية، والتي تدخل ضمنها عملية غَيبة الإمام المنتظَر (روحي وأرواح العالمين له الفدا)..

ونعتقد إن من نافل القول التأكيد على حقيقة إن من تحدثوا بهذ الكم الكبير من الروايات عن قضية كبرى كقضية الظهور الشريف لا بد وأن يضعوا في مصاف هذه الأحاديث وضمن طياتها المنهج الذي من شأن الالتزام به أن يخرج هذه الأحاديث عن إطار اللغة الملغّزة التي وسمت في غالبية الأحيان نصوصهم الملقاة في هذا المجال، لأن عدم وضع مثل هذا المنهج لن يتيح للنص عملية تبليغ المراد، وهذا ما يجعل النص قاصراً في الوصول إلى ما يبتغيه الناص الشريف وهذا محال، ويستتبع ذلك إن عملية تفكيك ألغاز هذه العلامات وفهمها إن لم تسر وفق هذا المنهج لا يمكن لها أن تصيب الهدف أو تفلح في مسعاها.

وبالنتيجة، فإن وضع هذه العلامات في غير موضعها أثناء التفسير قد يقود الناس إلى عكس مبتغيات هذه العملية، كما حصل في كثير من الأحيان التي تم تصوير أو تطبيق الحدث الفلاني أو الشخص الفلاني على حدث معين أو شخص محدد، ولكن مع الأيام تبدّد وهج الحدث الفلاني أو مات الشخص الفلاني، فعاد على بعضهم بالإحباط المرير.[2]

---

١ بكلّ أسف صدر كتاب في الفترة الأخيرة عن أحد دور النشر المعروفة باتزانها يتحدث عن أن السفياني هو أمريكا! ومن ثم ليجعل مثل المجرم صدّام شهيداً على يد السفياني!

٢ كان أحد الإخوة يعتقد بأن أحد العلماء الأبرار (رضوان الله تعالى عليه) هو اليماني، وكان متعلّقاً به أيّما تعلّق، وقد نظم أموره كلّها بناء على أنه هو اليماني، ولكن هذا التعلّق قد تحوّل إلى إحباط مرير وانزواء عجيب حينما توفى الله تعالى ذلك العالم إلى واسع رحمته ورضوانه، ومن

ولملاحقة آليات التعامل مع هذه العلامات يجب أن نمسك بثلاث مفردات أساسية، ونحسن التعامل مع كثير من القرائن والحيثيات المرتبطة بها الحافّة بموضوعها، فهذه العلامات تم ذكرها عبر الآليات الطبيعية لحديث العقلاء، إذ إنها جاءت عبر نص حوى خطاباً محدداً من قبل جهة هادفة من كل حرف قالته، وفيها مخاطَب هو الذي تم توجيه الخطاب إليه وهو ليس حاضراً في غالبية الأحيان، وفيها مخاطِب هو الذي حدد غايات هذا الخطاب، وقد جاء الخطاب بالنتيجة ضمن نصّ، وناصّ ، ومنصوص له؛ وأيّ فصل ما بين الجهات الثلاث وعدم مراعاة الالتزامات المترتبة عل ذلك سيعطينا فهماً مبتوراً للغاية من هذه العلامات، وبالنتيجة لن يحقق الغاية المرجوة منها.

وقد يضاف إلى ذلك في بعض الأحيان وليس في جميعها ظروف النص من حيث المكان والزمان، وطبيعة المخاطِب والمخاطَب زمانياً ومكانياً، فعلى الرغم من أن زمن النص ومكانه يسهمان بشكل كبير في فهم مراد النصّ ومراد الناصّ، ولكن في موضوع علامات الظهور، ما من ضرورة لتحكّم الزمان والمكان في طبيعة هذا المراد دوماً[1]، فالحديث فيه دوماً هو حديثٌ عن المستقبل، وبالتالي فإن ظرف النصّ الزمني لا يتحكم فيه ـ بالضرورة ـ ؛ إذ إنّ النص وضع لزمن غير زمان صاحبه، وعين الأمر يسري على المكان الذي تحدّث فيه صاحب النصّ عن هذه العلامات، فهو الآخر لا يتحكم بالضرورة به، نعم يمكن لزمان النصّ ومكانه، أن يحكم شكل النصّ من حيث الإجمال والإطناب، والتفصيل والإيجاز، والتصريح والمجاز، ولكن من ملاحظة عامة النصوص الواردة في هذا الجانب يمكن القول بأن ظروف الزمان

الواضح أن الخلل لم يكن إلا في طبيعة الآلية التي استخدمت وقادت هذا الأخ إلى نتائج خاطئة.

١ يستثى من ذلك ما إذا كان الحديث وصيغته يمكن أن يؤثر في ظروف ذلك الوقت كالحديث عن السفياني واختلاف بني العباس وما إلى ذلك في زمن العباسيين، إذ في مثل هذا الحال كان الحديث تتم فيه مراعاة ظروف الزمان تارة، وطبيعة المتلقي تارة أخرى، وهذا هو أحد الأمور الأساسية التي جعلت الإمام الباقر صلوات الله عليه على سبيل المثال يكثر من الحديث عن علامات الظهور وخصوصاً في شأن خراب الشام وظهور السفياني في أوساط عامية، ولذلك ظهرت كمية كبيرة من روايات الإمام الباقر عليه السلام بألسن عامية وفي كتب العامة، حتى في بعض الأحيان قد تبزّ ما موجود في كتب الشيعة كما هو الحال في الأحاديث المتعلقة بخراب الشام، لطبيعة المنافع والمصالح العقائدية والمردودات الاجتماعية المتوخاة في إنتشارها على ألسن رواة العامة وكتبهم من جهة، وكذا لطبيعة المصلحة الاجتماعية والأمنية في تجنيب رواة الشيعة من المخاطر المتوقعة من جراء ذلك.

والمكان لم تتحكم دوماً في النصّ، ولعل هذا هو السبب الذي يجعلنا نرى أنّ الناصَّ قد يتحدّث مرة بإيجاز وأُخرى بتفصيل، ومرة بكناية وأُخرى بتصريح، وهكذا.

ولأن أحاديث هذه العلامات خرجت من قبل جهة واحدة، وهي الجهة المعنية بالاستخلاف الرباني ومسؤولة عن شأن الهداية الربانية، فإن معايير التعامل معها يجب أن تكون واحدة، ولو اختلفت ـ جدلاً ـ في مرة من المرات، فالمفروض أن هذا الاختلاف المعياري يتم وفق سياق علمي وضابطة علمية دقيقة، لا أن نجد تعدداً في المعايير من دون ضابطة علمية لهذا التعدد تفسّره وتُعلِّله وتسوِّغه.

بعد تثبيت هذه القواعد يجدر بنا الشروع بذِكر الآليات المطلوبة لانجاز ذلك، مع التأكيد على ضرورة الإلتزام بمقتضى أن هذه الآليات تحتاج لمتخصصين في التعامل معها، فهذه مَثلها مثل أيّ علم آخر تحتاج إلى عالم بأُمورها وضليع بفنها، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ التخصص المطلوب هو حصري بهذا النمط من العلم، وهذا التخصص هو خليط من علوم عدّة، ولهذا قد تجد متخصصين في الفقه والأُصول، بل ربما وصلوا في مجال الفقه والأُصول إلى شأوٍ سامق ولكنهم قد لا يستطيعون الارتقاء بهذه المفردات قيد أنملة[1]! وقد تجد ضليعين في حفظ الرواية وطرقها وجرحها وتعديلها، ولكنهم لا يستطيعون التعامل مع غايات هذه الروايات وإدراكها،

---

١ أذكر هنا – للعبرة – أني كنت ماشياً مع أحد العلماء الأفاضل ممن يشاد بعلمهم، باتجاه حرم السيدة زينب صلوات الله عليها فسألني حينها عن سر اعتمادي الكثير على روايات **«كتاب بصائر الدرجات»** في أبحاثي العقائدية، فسألته مستغرباً: ولم لا؟! فمؤلفه من أكابر علماء عصره، وقد عاصر الأئمة الجواد والهادي والعسكري صلوات الله عليهم أجمعين، وأحاديث الكتاب في أعمها الغالب ما بين الصحيح والحسن والموثوق، فقال لي: لا أتحدث عن شأنية المؤلف، وإنما أتحدث عن محتوى الكتاب، فما له والعقائد؟! ولشدّ ما أثارني قوله هذا، ولكني تمالكت نفسي وقلت له: مولاي، هل رأيتم الكتاب من قبل؟ فقال لي: لا! ولكن غالبية ما فيه هو فقهي! فقلت: إن الكتاب كلّه عقائد، ونادراً ما توجد فيه إشارة فقهية، وإن وُجدت فهي عارضة، فقال مندهشاً: عجيب ما تقول! فقلت له: الكتاب من عشرة أجزاء، وكلّ أحاديثه تدخل في الإطار العقائدي. فقال ضاحكاً: كثيراً ما أرجع إلى وسائل الشيعة ومستدرك الوسائل وأجد العلمين يشيران إلى الكتاب في هامش الأحاديث التي يذكرونها بقوله: وذكر محمد بن الحسن الصفار مثله! فتصورت أنه كتاب فقهي، بعد أن اكتفينا بالوسائل والمستدرك؛ لأنهما جمعا كلّ الكتب التي تهم مباحثنا الفقهية.

إن مورد الشاهد هو أن التخصص في أمر لا يعني التخصص في ما سواه، فالرجل مما يُشهَد له بالعلم والفضل في مجال الفقه، وهو من مدرسي البحث الخارج، ولكنه متخصص في مجال الفقه، بينما العقائد والحديث والرجال والتاريخ وأمثالهما لها فنها الآخر وهي علوم مستقلة بذاتها وتحتاج إلى تخصص مستقل حتى إنه قد لا يلمس بعضها عند كثير من الفقهاء.

وليس ذلك استخفافاً بهذه العلوم وأصحابها فلهم فضل عظيم وأي فضل، ولكن هذا الفن ليس من سنخ تلك العلوم، ويحتاج إلى الكثير من الجهد والخبرة وسعة الاطلاع حتى يستطيع المرء أن يناله، ولا بد لي هنا من أن أهمس في آذان الكثيرين الذين يخوضون في هذه الروايات ولا باع لهم فيها، أن ينتبهوا إلى كونهم يتعاملون مع حديث أهل البيت عليهم السلام، ولا يحسن بالمرء أن يتعامل مع هذا الحديث بطريقة لا تليق بأصحابه!.

ويمكن لنا إيجاز الحديث عن هذه الآليات عبر التالي:

المبحث الأول

هوية النص وحجيته

نحن نتعامل مع نصوص لها أهميتها القصوى في مجال هذا البحث، ولهذا لا بُدّ أن تكون خطواتنا متأنية جداً في المضي في هذه المهمة، ولهذا فإن المبحث الأول الذي يجب أن يتم إيلاؤه أهمية خاصة هو التثبت من هوية النص، وفي ذلك عدة أبحاث أساسية:

أ: التأكد من أن النص ينسب للمعصوم صلوات الله عليه، فالكتب تعجّ بكثير من الأحاديث، وهذه الأحاديث ربما تنسب للمعصوم عليه السلام، وربما تنسب لغيره، ولا شك أن العبرة في تأكيد النسبة للمعصوم عليه السلام تكمن في حجيته، فحديثه هو الذي يعنينا؛ لحجيته، لا حديث غيره الذي يفتقر إلى الحجية، وهنا نلمس ـ وللأسف ـ بأن كثيراً ممن كتبوا في علامات الظهور خلطوا بين هذا وذاك، بالطريقة التي ألبسوا فيها على قارئهم بأنّ كلّ ما يذكرونه هو حديث المعصوم صلوات الله عليه، والأدهى أن المتتبع يجد أن جانباً مما تم سوقه للثقافة العامة تداخل فيه حديث المعصوم مع حديث غيره من أصحابه أو من غيرهم، وبلغ الأمر حتى لما يذكره الكهنة والسجّاع!

فعلى سبيل المثال ذكر الشيخ المجلسي في "**بحار الأنوار**"[1] عن الحافظ رجب البرسي في كتابه "**مشارق أنوار اليقين**"، في خبر عن كعب بن الحارث، عن سطيح الكاهن قال: ثم يخرج ملك من صنعاء اليمن، أبيض كالقطن، حسين أو حسن، فيذهب بخروجه غمر الفتن، فهناك يظهر مباركاً زكياً، وهادياً مهدياً، وسيداً علوياً.[2]

ونظير ذلك ما رواه ابن المنادي في «الملاحم» وهو من علماء العامة، عن

١ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام ٥١: ١٦٣ .

٢ مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام: ١٣٠ .

سطيح، قال: ثم يظهر رجل من اليمن، أبيض كالشطن[1]، يخرج من صنعاء وعدن، يسمى حسيناً أو حسن، يذهب الله على رأسه الفتن.[2]

وعلى الرغم من وضوح أن الرواية لم ترد عن لسان المعصوم صلوات الله عليه، إلا أنه يتم اعتماد هاتين الروايتين على نطاق واسع في أبحاث الكُتّاب عن اسم ومكان اليماني الموعود، دون الانتباه إلى أن الراوي لا علاقة له بالمعصوم لا من قريب ولا من بعيد، وبالنتيجة لا حجية للخبر، ولا يمكن الركون إليه في أي عملية تحليل وتدقيق!

وعليه، فإن أُولى المحطات المطلوبة في مجال تحديد هوية النص هي النظر إلى هوية صاحبه، فالأصل الذي يجب أن نتقيّد به، هو النص الصادر عن المعصوم، وإلا كان يمكن لكتابات أمثال نوستراس داموس، وأشعار محيي الدين بن عربي، وبعض أسفار العهد القديم والجديد وما تحدث به أبو هريرة وكعب الأحبار وسطيح الكاهن، وغيرها، أن تكون حجة علينا، فهذه الكتابات والأقوال مهما كانت صائبة إلا أنها لا تعطينا اليقين الذي نحتاج إليه في هذا المجال، ولا تحمّلنا أية حجّية في التزاماتنا، أما حديث المعصوم عليه السلام، فعلى العكس فهو يعطينا الأمرين معاً.

ب: التأكد من دقة النسبة للمعصوم صلوات الله عليه، فلا شك بأن كلّ حديث روي عن المعصوم عليه السلام لا يدل على أن نسبة روايته للمعصوم عليه السلام دقيقة، لكثرة ما كُذب عليهم صلوات الله عليهم، وبالتالي فإنّ مهمتين خطرتين للغاية تكمن أمام الباحثين والمدققين، وأعني بهما مهمة التأكد من السند، ومن الطريق إلى هذا السند، ففي هذا المجال تكمن أحد المشاكل في الكتاب الناقل للخبر ومدى دقة النسبة لمؤلفه، وما إذا كان المؤلف معروفاً يمكن الوثوق إليه، أو ليس بمعروف، مما يضع علامة استفهام على درجة الدقة.

وبعبارة أُخرى نجد أنّ كثيراً من الكُتّاب والكتب على سبيل المثال قد تناقلوا خبر الجزيرة الخضراء عن العلامة المجلسي (رضوان الله عليه) ونسبوه إليه، وانهمك بعضهم بتحليل للخبر وبنى عليه كثيراً من الاستنتاجات، من دون أن يلتفت هؤلاء إلى طبيعة الخبر المنقول في "**البحار**"، بل ولا حتى إلى تعليقة العلامة الشيخ المجلسي

---

١ الشطن: الحبل، ولعله أراد أنه طويل نحيف.

٢ الملاحم: ٥٣ ح١٠ - ١؛ للحافظ أحمد بن جعفر، المعروف بابن المنادي البغدادي (ت ٣٣٦هـ)؛ تحقيق: عبد الكريم العقيلي.

عليه، فلقد نقله وقدّم لخبره هذا بما يحفظ الأمانة العلمية فقال: "وجدت رسالة مشتهرة بقصة الجزيرة الخضراء في البحر الأبيض، وأحببت إيرادها لاشتمالها على ذِكر من رآه (أي الإمام عجّل الله تعالى فرجه)، ولما فيها من الغرائب، وإنما أفردت لها باباً **لأني لم أظفر به في الأُصول المعتبرة**".[1]

فهنا مع أن الخبر لا يروى عن المعصوم، ولكن جرى فيه ذِكر الإمام عليه السلام بشكل موسع، حتى دخل في مخيلة بعضهم أنها قصة حقيقية، وراح بعضهم يرتب الأثر عليها، في الوقت الذي لا تمتلك القصة أية صدقية علمية عليها، فراوي الخبر فضل بن يحيى الطيبي، ومؤلف الرسالة علي بن فاضل المازندراني، وكلاهما مجهولان لا تعرف لهما هوية ولا ذِكر مِن قَبل نقل الخبر في هذه الرسالة، والتي لا يعرف لها صاحب حقيقي!! ومع ذلك تجد لها انتشاراً واسعاً في كتب ما بعد تأليفها المنسوب إلى عام ٦٩٩ هـ! وكان يفترض آنذاك أن علم الرجال قد تطوّر بشكل كبير وأصبح يحظى باهتمام المدققين والمحققين، ولكن لا يوجد أي مستند علمي يوثّق أو يعرّف أصحاب هذه القصة.

أما بالنسبة لنا، ففي مبحث الآليات فإن المهمة الأُولى هي معرفة الكتاب المتحدث عن العلامة الفلانية أو العلانية، هل هو موثوق الصدور أو لا؟ فنحن لم نقبل **«الكافي»** لأنه يُنسب إلى ثقة الإسلام الشيخ الكليني (عليه رضوان الله)، وإنما قبلنا نسبته للشيخ الكليني لأنه وصلنا بطريقة موثوقة عن الشيخ الكليني ضمن ما نسميه بالطريق إلى الكتاب، وقد يبدو هذا الأمر سهلاً، ولكنه في واقع الحال يحتاج إلى عميق دراية بأحوال المؤلفين، وما ألّفوا، ومَن روى عنهم وهكذا، وبحمد الله فإن هذه المؤونة قد كفيت اليوم نتيجة للجهد المبذول سلفاً من قبل العلماء الأعلام، ويمكن من خلال الرجوع إلى كتاب الشيخ النجاشي (رضوان الله عليه) المنعوت بـ "**رجال النجاشي**"، أو كتاب "**الفهرست**" لتلميذه الشيخ الطوسي (أعلى الله مقامه)، أو إلى كتاب "**الذريعة إلى تصانيف الشيعة**" للشيخ آقا بزرك الطهراني (رحمه الله) مثلاً، للتعرُّف على الجهد المبذول هنا، ولكن لا يُعدّ الجهد في هذا المجال كاملاً، وإنما يبقى المحقق بحاجة دوماً إلى التأكد مما يمكن أن يعدّه مصدراً للأخذ بالروايات التي يذكرها.

وسأضرب هنا مثلاً بما نسب للشيخ الفضل بن شاذان (رحمة الله عليه) في شأن

---

١ بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩ .

الرسالة المسماة: **مختصر إثبات الرجعة**، وهي رسالة حوت عدداً من الأحاديث المتعلقة بالإمام المنتظر عجّل الله فرجه، وقد وُجدت منسوخة من قبل الشيخ الحر العاملي (رضوان الله عليه) على ما أفاد المحقق الفاضل للرسالة[1]، فمثل المؤلف وهو من أعاظم الرواة، ومثل الناسخ وهو من أعاظم أصحاب الجوامع الحديثية، ما يمكن أن يثير الطمأنينة في القلوب، ولكن طبيعة الدقة العلمية تقتضي عدم الاستسلام لمحض ذلك، بل لا بُـدّ من العثور على أجوبة لأسئلة كثيرة، فهل يوجد للفضل بن شاذان مثل هذا الكتاب أساساً؟

ولو وجد له مثل هذا الكتاب، فهل الطريق الذي يمتد من عصر المؤلف إلى عصر الناسخ مأمونة الجانب من التلاعب والدس؟

وهل أن ما كان بين يدي الناسخ هو عين الكتاب المشار إليه؟

وهنا لو قدر الخروج بجواب بوجود مثل هذا العنوان في فهرست كتب المؤلف، فهل نقل عنه الرواة الّذين رووا كتب الفضل بن شاذان؟

وهل نقل عنه المتقدمين على الشيخ الحر العاملي؟

ولهذا فأنت ترى أن عملية التدقيق وهي في مراحلها الأُولى تحتاج إلى كثير من البحث، وعدم الاستسلام إلى الأجوبة الجاهزة.

أو خذ مثلاً في ما رواه الشيخ الصدوق (رحمه الله) في كتابه (**كمال الدين وتمام النعمة**) بسند هو المعتمد في الطريق الى ثقة الاسلام الكليني (قدّس سرّه) كما أشار الى ذلك في مشيخة الفقيه،[2] قال: محمد بن محمد بن عاصم (والصحيح عصام)، عن محمد بن يعقوب وهو الكليني الى آخر السند، وقد روى بهذا السند في موضعين من كتابه[3]، ومع ان الطريق بين الشيخ الصدوق وبين الشيخ الكليني صحيح، إلا ان الكلام وقع فيما بعد ذلك في ما إذا كان الشيخ الكليني قد روى هذه الرواية، أو لا؟ وقد ناقشنا ذلك بشكل مستفيض في كتابنا (**راية اليماني الموعود**) وقد انتهينا الى ان عدم وجود الرواية في **الكافي** يستلزم إما أن يكون للكليني كتاب آخر غير الكافي

---

١ انظر: مختصر إثبات الرجعة؛ منسوب للفضل بن شاذان، مجلة تراثنا، العدد ١٥، تحقيق باسم الموسوي.

٢ من لا يحضره الفقيه ٤: ٥٣٤ .

٣ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٢٧ - ٣٢٨ ب ٣٢ ح ٧ . ونفسه في: ٣٣١ ب ٣٢ ح ١٦ .

وصل الى الشيخ الصدوق ولم يصلنا، أو إن وهماً حصل في نسبة الرواية الى الشيخ الكليني.[1]

وها أنت ترى كيف يتم التعامل مع الروايات في أول مراحل التعامل معها؟ من أجل التأكد مما اذا كان ما ينقل هو عن المعصوم صلوات الله عليه أو انه من غيره.

هذا، وقد أضافت ـ وللأسف الشديد ـ عملية التحقيق التي تجري الآن وبشكل متسارع للكتب التراثية وعلى رأسها الكتب الحديثية، وفي كثير من الأحيان بطريقة عشوائية، عبئاً جديداً على المحققين والباحثين، فمع أن بعض أعمال التحقيق كانت من المتانة والنـزاهة بصورة سهّلت المؤونة على هؤلاء، إلا أننا نلحظ في نفس الوقت أن عملية التحقيق بدأت تتلاقفها أيدٍ لا علاقة لها بدقة علم التحقيق، بقدر ما لديها هَمُّ إنهاء الكتاب لأنه مصدر استرزاق لها، ولهذا نلحظ أن بعض الكتب التي تحقق الآن قد جرى فيها التلاعب بشكل لم يعد ثمة مجال أمام الباحث إلا معاودة مراجعة النصوص غير المحققة للتأكد مما بين يديه، خصوصاً أن بعض من عملوا بالتحقيق، لم يفرّقوا ما بين تدخلات النسّاخ وشروحاتهم وتعليقاتهم، وبين نصوص المؤلفين الأصليين، وقد جرت العادة أن يضع أهل التحقيق أية كلمة مضافة إلى النسخة الأصلية بين معقوفتين، والمؤسف أننا نرى أن من يأتي بعدهم ليحقق نفس الكتاب يحذف المعقوفتين، فيتصورها القارئ بأنها جزء من النص الأصلي، ومن الواضح أن بعض النصوص من الحساسية بمكان بحيث إن أية كلمة مضافة أو محذوفة يمكن أن تؤدي إلى تفرّع طريق البحث إلى فرع لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة التي توخاها صاحب النص.

هذا على مستوى الطريق إلى السند، ولكن تبقى المهمة الأُخرى وهي لا تقل خطورة وأهمية عن الأُولى، بل هي الأهم؛ وهي مسألة صحة السند الذي يوجد في هذا الكتاب أو في ذاك، فهنا لا يكفي أن نجد المؤلف قد ربط بينه وبين صاحب النص بسلسلة من الرجال لنقول بأن السند متصل وصحيح؛ إذ تدخل هنا جملة من العناصر الأساسية، فلو قال المؤلف على سبيل المثال بأنه سمع فلاناً يروي عن فلان، وهو يروي عن ثالثٍ، يروي عن الرابع، عن المعصوم عليه السلام، فهل نقبل القول بناء على الاكتفاء بهذه السلسلة؟.

من المؤكد أن محض هذا القول لا يكفي في هذا المجال، فمع الإشارة إلى أن

---

١ راية اليماني الموعود أهدى الرايات: ٥٥ - ٥٩ .

مدرسة أهل البيت صلوات الله عليهم ـ وعلى عكس المدارس المناهضة لها ـ لا يوجد بين يدي علمائها كتاب تام العصمة، بحيث إنها تقبل كلّ ما فيه ما عدا القرآن الكريم؛ ولهذا فبقية الكتب وإن قال مؤلفوها بأنهم لم يرووا إلا عن ثقة؛ كما هو حال علي بن ابراهيم في تفسيره، والشيخ الكليني في كتاب **الكافي**، والشيخ الصدوق في كتاب **من لا يحضره الفقيه**، والشيخ ابن قولويه في كتاب **كامل الزيارات**، والشيخ النعماني في كتاب **الغيبة**، والشيخ الطبري في كتاب **بشارة المصطفى لشيعة المرتضى**، فهذه الوثاقة ملزِمة لمؤلفيها، ولكنها غير ملزِمة بالضرورة لغيرهم من أهل الفن والتخصص في علم الحديث[1]، وبالتالي فإن مهمة المحقق في علامات الظهور لا بُدّ من أن تتسم بالاطمئنان بصحة صدور الخبر عن المعصوم صلوات الله عليه، بمعزل عن الكتاب الذي روى الخبر، حتى لو كان لدينا اطمئنان تام بمؤلف الكتاب الذي أورد الخبر.

وهنا سنقف أمام مناهج متعددة في التعامل مع الروايات التي تبحث في شأن علامات الظهور الشريف:

فمنهم من يتسامح في التعامل مع الأسانيد التي تروي هذه الروايات، بحجة أنه ليس في مهمة استنباط حكم شرعي مما يستدعي التشدد في التدقيق بالأسانيد بما يعرف بمنهج التشدد السندي، ولهذا تراه يأخذ من كلّ من هبّ ودبّ.

ومنهم من يتشدد في التدقيق بالأسانيد جرحاً وتعديلاً بحجة أن هذه الروايات وإن لم تكن في صدد تبيان أحكام شرعية، إلا أنها تتصل بمسائل عقائدية حساسة مما يستلزم التدقيق في صحة الصدور المعتادة عبر منهج التشدد السندي..

ومنهم من تراه يعمل بلا معايير محددة، فلا هو يأخذ بالمنهج المتشدد ويلتزم به، ولا هو بالذي يتسامح منهجياً ويلتزم به، فتراه متشدداً مرة متسامحاً أُخرى دونما معيار واضح في سبب التشدد أو التسامح الذي التزم به.

وأعتقد أن هذه المناهج كلّها لا يمكن أن تدلّنا بأمان على طريق الصواب، فمنهج التشدد ومنهج التسامح لا يلبّيان أغراض ما نحن فيه، فلا منهج التشدد مطلوب دائماً، لأن المتن قد يكون دالاً على صحّة صدور النص، وإن كان السند غير مصان

---

١ تحدثنا في مقدمة تحقيقنا لكتاب كامل الزيارات بشكل مفصل عن مسألة التوثيق العام لروايات كامل الزيارات وعرضنا لآراء العلماء والمحققين المؤيدين والمعارضين، فراجع ان شئت التفصيل.

من الجرح والقدح، وباعتبار أن مثل هذه الأُمور ليست في مجالات التنصيص التشريعي، ويمكن الاستدلال على صحتها من خلال القرائن الحافة بها، ومن طبيعة ارتباطها بعوامل تاريخية واعتقادية متعددة يمكن الاستدلال عليها بطرق غير طريق السند، ولا منهج التسامح السندي بكافٍ، لأن من المتيقن أنه جرى التلاعب في الروايات وأسانيدها ومتونها بشكل لا شبهة فيه، ومحض ورود الرواية عن المعصوم صلوات الله عليه لا يكشف عن صحة صدورها عن المعصوم، إذ لا بُـدّ من عِلم ـ ولو بالإجمال ـ عن كونها قد وردت عن المعصوم، وإن كان بالاعتماد على السياقات الأُخرى التي أشرنا إليها آنفا، ولا سيما أن كثيراً من الروايات قد تداخلت بين كتب العامة والخاصة.

ولهذا، فإن المطلوبَ قدرٌ من التشدد لا يضيّق الخناق، وقدرٌ من التسامح لا يؤدي إلى الانفلات، ما دام هناك إمكانية للوصول إلى دقة النص الذي تضمّن علامات الظهور، فلسنا هنا في معرض استنباط الأحكام الشرعية، أو في صدد التعامل مع القضية الفتوائية، حتى نحتاج إلى كلّ هذه الدقة والتمحيص الذي يتسم بها منهج التشدد السندي، وإنما نحن أمام قضية يتشابك فيها الموضوع العقائدي (العقدي)، مع الموضوع التاريخي بشكل دقيق، مع موضوع النصوص، مما يستوجب علينا اعتماد منهج التوازن في التعامل مع مصدرية الروايات، فلا التشدد بنافعٍ، وليس التراخي بمجدٍ.[1]

وهنا يجب أن نلاحظ أمرين هامَّين:

أولهما: إن حديث علامات الظهور جرى في بعض الأزمان ضمن ظروف بالغة القسوة على المتحدثين بها، سواء كانوا ممن أطلق النص، أو كانوا رواةً له، ولهذا فإن هذه الظروف يجب أن تُلحظ مستلزماتها وما يترتب عليها بشكل كامل حين محاكمة النص والسعي لفهم مراد صاحبه، فصاحب النص لن يكون مفسوحاً له المجال ليتحدث بما يريد ضمن هذه الأجواء، ولهذا تلحظ فيه عوامل الرمزية في التحديث، والتكنية دون التصريح، والإجمال دون الإطناب، والرواة قد ينسبون الكلام إلى غيرهم، أو يحاولون التعمية على المستمع غير المأمون، وهكذا مما يشاع

١ منهجنا في التعامل مع علامات الظهور والذي اعتمدناه في أبحاثنا، أن نلتزم بورود أصل العلامة في الأحاديث المعتبرة، أما تفاصيل هذه العلامة أو ما يتعلق بها فقد تسامحنا في أدلة السنن في حال وجود قرائن جابرة لضعف السند، وهذا خاص بالتفاصيل التي لا أثر لها في العقيدة، أما ما له اثر فقد التزمنا بالتشدد. والله المسدد.

في العادة في مثل هذه الظروف.

ثانيهما: إننا يجب أن نفرّق بين الحديث الذي يوسَم بالضعف بإسناده، لعلة في رجاله، وبين صحة الحديث، ففي مثل هذه الأحاديث ربما نجد حديثاً يوسَم بالضعف، ولكن الضعف لا يستلزم أن يكون الحديث غير صحيح، وهنا لدينا أكثر من مثال:

الأول: أن يقال إنّ هذا الحديثَ مرسلٌ، كأن نجد الرواي قد ترك فراغاً في رجال الإسناد، أو ذكر الرواية من دون سند متصل، أو قال: روى لي رجلٌ، أو روى فلان عن رجل، من دون أن يشخّص اسماً، والإرسال علامة دالة على الضعف في الروايات بلا شك، ولكن هذا الضعف ليس دليلاً على عدم الصحة، فقد يكون الحديث في أصله صحيح، ولكن الراوي لسبب أو لآخر قد أرسل الحديث، وهذا أمر لا يقدح في الراوي، فقد يكون قد تحدّث في مجلس لم يجد فيه ضرورة لكي يتحدث بطريقة الرواة الدقيقين، ولا ضرورة لكي يتم القدح بالرواية نتيجة لذلك، ولهذا فإن محض أن نجد أن الحديث ضعيف من هذا الوجه في مجال علامات الظهور، لا يوجب القدح بالرواية بالضرورة.

الثاني: أن يكون في سلسلة الرواية رجل مجهول لا يعرف له حال، أو أنه معلوم ولكنه مهمَل عن التعريف، ولم تبدر فيه إشارة تفيد التوثيق أو القدح، ولهذا فإن هذا الضعف وإن كان قادحاً في مجال الروايات التي تقنن لأحكام الحلال والحرام، ولكنه في مجال البحث الخاص بنا ليس بقادح بالضرورة، فقد تكون حقيقة حاله موثوقة، ولكن لم يصل خبره إلى المعتمَدين في هذا الفن، ولهذا حكم عليهم بالمجهولية.

الثالث: أن يكون في السند رجل لم يوثّق، وهو كثير، وهذا يمكن أن يكون قادحاً بالسند في الأمور الفتوائية، ولكن في حديث علامات الظهور وما أشبه، لا يكون هذا دليلاً كافياً لرفض الحديث.

وعدم الرفض لا يعني بالضرورة القبول، ولكن كلّ ما أريد التأكيد عليه هنا هو أن المعايير في توثيق النصوص ومحاكمتها في المبحث التاريخي والعقائدي وأمثالهما يختلف كلّية عن المعايير التي تحكم النصوص الفقهية والتشريعية، وتختلف أيضاً عن المعايير التي تحكم النصوص الأخلاقية والوجدانية، ففيما تتسم النصوص الفقهية بالحاجة إلى معايير التشدد في محاكمة السند بكلّ مفرداته، وتتسم الأخيرة بإمكانية

التسامح في أدلة السنن، إلا أن الأُولى وهي التي ترتبط بالنصوص ذات المحتوى العقائدي والتاريخي ـ كما هو مبحث علامات الظهور ـ فتتداخل فيها معطيات عديدة لا تستند بالضرورة إلى التشدد بالسند، ولكنها لا تتخلى عنه بدرجةٍ ما في نفس الوقت.

ومن جملة العوامل التي يمكن الركون إليها في مثل هذه المباحث، أُشير ـ مثلاً ـ إلى مبدأ عدم التعارض مع النصوص المتفق على صحتها، فقد يأتي الحديث عن نص سنده فيه خلل مشخَّص عن السفياني الملعون ـ مثلا ـ ولكن النص يتحدث بطريقة لا تتناقض مع مرويات متفق على صحتها، ولكن بتفصيل غير مخل بمحتوى ما هو صحيح، وإنْ لم يذكر في النص الصحيح، عندئذ لا توجد غضاضة من اعتماد هذا التفصيل، وإنْ لم يأت من خلال حديث متفق على صحته.

وبطريقة معاكسة يمكن التعامل أيضاً حينما يكون لدينا نص بسند صحيح، ولكنه يتعارض مع ما هو مجمع على صحته مضموناً، كأن يأتي نص بخروج الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف أول ظهوره من مكان غير المسجد الحرام، فهنا صحة السند لا يعوّل عليها بقدر ما يعوّل على مخالفته لمضمون متفق عليه، وهو خروج الإمام صلوات الله عليه من البيت الحرام.

المبحث الثاني

محتوى النص

إذا ما انتهينا من التأكد من حجية الخبر أو النص، أي كونه صدر من جهة لها حجيتها الحاكمة هنا، فإن المهمة الأُخرى التي يجب أن يتم التنبه الشديد لها والتعامل معها بحذر كبير هي كيفية فهم محتوى النص المتعلق بعلامات الظهور ووعي مراد المنصوص، وكيفية التعامل مع هذا النص، فهل نتعامل معها كما نتعامل مع النص الفقهي؟ وبنفس آليات التعامل مع هذا النص؟ أم أنها تختلف وبالتالي تحتاج إلى آليات أُخرى؟

الفرق بين النص الفقهي والنص التاريخي:

من بديهي القول إن آليات التعامل مع النصوص المتعلقة بعلامات الظهور تختلف عن مثيلتها في النصوص الفقهية، فعلى سبيل المثال نجد أن النص الفقهي يتم التعامل معه وفق ملاحقة كلّ القرائن المتعلقة بالنص وبشكل مجرّد، ففي كثير من الأحيان لا تخرج هذه الملاحقة عن حدود النص نفسه، فحينما يقول النص الفقهي: "كلّ شيء لك طاهر حتى تعلم بنجاسته"، فإن الفقيه لا يبحث في حيثيات النجاسة كواقعة تاريخية، وإنما يبحث في شأن مواصفات النجاسة بشكل مجرّد، وهذه المواصفات متى ما تحققت في شيء حُكِم بنجاسته، وهو لا يبحث ـ أيضاً ـ في مسألة الطهارة إلا من خلال مواصفات الطهارة وشروطها، لا بعنوانها مجرد واقعة تاريخية.

بينما في النصوص المتشابهة مع نصوص علامات الظهور، فإن النص لوحده لن يكون كافياً لفهمه، وإنما تتداخل عوامل متعددة في فهم النص ومراده؛ إذ يجب ملاحقة ظروف صاحب النص من جهة، ومراده وفق هذه الظروف من جهة أُخرى، وطبيعة الظرف الذي صاحب النص ويصاحب مضمونه من جهة ثالثة، فصاحب النص قد يكون محاطاً بظروف سياسية خانقة في وقت التحديث بالنص، وقد لا يكون، ولكلّ ظرف من هذه الظروف لغة يجب أن تُدرَك قبل مطالعة النصوص، فالنص هنا

تتداخل فيه واقعة تاريخية هي وقت إنشاء النص ومكانه وما يتعلق بهذا النص من إيراد لواقعة تاريخية ستحصل لاحقاً، وهنا نلاحظ أن هذه الواقعة لصيقة بهذا النص، ولا يمكن تفكيكها عنه.

وسأضرب مثالين هنا، فتارة يأتي لفظ بني العباس كثيراً في الروايات التي تتحدث عن بغداد في الأيام القريبة جداً من عصر الظهور الشريف، هنا عصر صاحب النص اقتضاه ولأسباب عديدة أن يعنون الأمر ببني العباس، ومن دون فهم ظرف صاحب النص فإننا سنواجه انحساراً كبيراً في قدرة فهم النص، بل إلى استحالة فهمه مما قد يؤدي بنا إلى رفضه تماماً حينما نجد أن عهد بني العباس قد انقضى منذ عدة قرون وأصبح في خبر كان، بينما عملية فهم ظرف النص وصاحبه تعطينا القابلية لفهم أقرب لهذا النص، فقد يكون ذكرهم ـ كمثال ـ لأن الظرف السياسي يحرّم عليه أن يتحدث بنفي وجود بني العباس الّذين يحكمون ظرف زمن النص، أو لأن المتلقي للنص آنذاك لا يستوعب أن ينتهي هذا الحكم ليأتي حكم آخر من بعده، أو لأن الحاجة لنشر النص تتطلب التحدث بهذه الطريقة، ومن ثم ليخرج فهم النص من ظاهره، وليتحول إلى أن المراد هو حاكم بغداد في وقت العلامة المتحدَّث عنها وقد تم التكنية عنه باسم بني العباس، دون أن يعني ذلك أنه منهم.[1]

وتارة يتحدث النص عن حركة اليماني الموعود في الزمن القريب من الظهور، فهذه الحركة لا يمكن فهمها إلا بربطها بكلّ ما يتعلق بقرائن التحرك التاريخية، فهذه الحركة هي حركة راية، والراية تحتاج تارة إلى قاعدة اجتماعية تنطلق منها وتتقوى بها، وهذه القاعدة لن تأتي بمحض الصدفة أو الفجأة، وأُخرى تحتاج إلى الأرض التي تتحرك عليها وتبرز منها وتنمو فيها، وثالثة إلى القائد الذي تنمو مقبوليته القيادية مع ظرف اجتماعي وسياسي خاص بنمو القيادات في الوسط الشيعي، ومع كلّ واحدة من هذه الأُمور نجد أن القرائن تتمدد لتمحور فهم النص، فهذه القاعدة الاجتماعية فيها مواصفات أمنية واقتصادية وعقائدية هي التي تستفز جيش السفياني الملعون والذي ينبري لمجابهته اليماني الموعود، ومع ورود ذِكر السفياني هنا ستنبثق عشرات القرائن الأُخرى على مساحة الأرض والزمن الذي سيتحرك فيه اليماني.

ونلحظ هنا انه على الرغم من أن النص لم يتحدث ـ في الغالب ـ عن الدعم اللوجستي لحركة اليماني ومصادره ومكانه، ولكن لا يحتاج الخبير إلى ذِكر هذا الأمر

---

١ وقد جرى التكنية بهم عن حكام دول عربية متعددة دو اختصاص ببغداد.

في لفظ النص؛ لأنه من المستلزمات الطبيعية لحركة راية عسكرية، ومن ملاحقة هذه القرائن بمجموعها يمكن رسم خارطة جغرافية لحدث تاريخي لم يشر فيه ـ على سبيل المثال ـ إلى موقعه الجغرافي.[1]

ونلحظ هنا أن النص الخاص بعلامات الظهور يتعامل مع مرحلتين زمانيتين ومكانيتين؛ الأوليين وقت ومكان إلقاء النص، والأُخريين وقت ومكان ما يتحدث عنه النص، ولهذا تغدو العملية أكبر من مهمة مطالعة النص بشكل مجرد.

فالفقيه لا يشترط فيه أن يكون ملمّاً بشكل دقيق في الموضوع التاريخي أو الجغرافي (الزمان والمكان)؛ لأنه لا يتعامل في الغالب مع نص يتحكّم به الموضوع التاريخي أو الجغرافي، وإنما هو يستخرج الأحكام الفقهية من النصوص، ويترك لظروف الزمان والمكان أن تحدد نمط الحكم المختار من مجموع الأحكام الفقهية، ولهذا نشأ لدينا هنا ما نسميه بالفقه الاحتمالي، فهذا الفقه يطلق احتمالاً أو عشرات الاحتمالات لواقعة ما، وهذا الاحتمال قد يبقى طيّ الكمون ولا تتحقق الواقعة مطلقاً، ولكن ظروف الزمان والمكان حينما تحرر ما هو كامن لتجعله حاضراً في الواقع، يكون الفقه الاحتمالي جاهزاً لتحديد أُطر التعامل مع هذا الواقع.

بينما الباحث في علامات الظهور فمن واجبه أن يكون ملمّاً بشكل عام في الأقل ـ إن لم يكن تفصيلياً ـ بظروف الزمان والمكان؛ لأنه يتعامل مع واقعة تاريخية تتأطر بزمانها ومكانها، والفقيه ليس معنياً بالبحث في طبيعة الأماكن، بينما الباحث هنا سيكون معنياً بشكل جاد في معرفة الأماكن وخريطة الأحداث.

فمثلاً، مَن يراجع النصوص الواردة بشأن السفياني ـ كعنوان ـ يجد امتداداً كبيراً في خريطة حركة السفياني، فهي تشمل مناطق كثيرة في إيران الحالية ـ على سبيل المثال ـ، ولهذا فإن متابعة الحدث ضمن ظروفه الكاملة ستعطي هذه النصوص بالنسبة لمن يريد فهمها خريطة مختلفة لحركة السفياني المقترن وجوده بوجود اليماني والخراساني، مما يجعلنا نجزم مباشرة أن الروايات - لو صحّت - تحدثت عن أكثر من سفياني في أكثر من زمان؛ وذلك لأن السفياني يبتدئ عملية دخول العراق في وقت متزامن مع دخول الخراساني إلى العراق من البصرة، وكونهما يتسابقان تسابق فرسَي الرهان، مما يعني أن السفياني لن يصل الحدود الإيرانية وما يليها، بل ستبقى حركته في هذا المقطع الجغرافي، محدودة بأماكن لا تبتعد كثيراً عن منطقة الكوفة،

١ للتفصيل يُراجَع كتابنا: راية اليماني الموعود أهدى الرايات.

ومن ثم لنجد أن السفياني الذي يجرم بحق أهل البصرة[1] والأهواز وإصطخر، وما إلى ذلك لو صحت الروايات التي تحدثت عن ذلك، هو غير السفياني الذي يتحرك من الشام باتجاه قرقيسياء ثم إلى الدجيل وعقرقوف وبغداد، ثم إلى الكوفة والنجف وضواحيهما، ليرتكب جرائمه التي تتحدث عنها الروايات.

على أن الفقيه قد يستدعيه فهم النص ـ في بعض الأحيان ـ إلى ملاحقة بعض ظروف صاحب النص بشكل عام، كما في النصوص الصادرة في حال التقية مثلاً أو النصوص التي صدرت لواقعة بعينها، أو لكي يميّز أسباب التعارض ـ على سبيل المثال ـ بين النصوص لو حصلت، أو لكي يرد متشابه الأحداث الى محكمات الفقه ولكن هذه الملاحقة لتثبيت طبيعة النص، حتى إذا ما ثبت اتجاه النص يتم التعامل معه بشكل مجرد[2]، بينما الباحث في علامات الظهور يجب عليه أن يتفحص هذه

---

١ غالبية الروايات التي تحدثت في هذا الباب ضعيفة السند، وفي بعضها جرى تصحيف البصرة بدلا من البصيرة، وهي الاسم المعاصر لبلدة قرقيسياء القديمة.

٢ أُشير هنا إلى شبهة وجدت كثيراً من العلمانيين المعاصرين يروّجون لها بطرق متعددة، وقد يكونون ضحية لفهم خاطئ تروّج له التيارات السلفية ونظراؤها، وهي التصور بأن التعامل بشكل مجرد مع النص الفقهي يعني تطبيق النص بمعزل عن الظرف التاريخي الذي صدر فيه، وهذا الخلط الذي تسبب به العقل الجامد والمتحجر والفوضوي للتيارات السلفية التي تحبس نفسها عند النص دون فهم حركة الحياة ومتطلباتها لتطبيق النص المنسجم مع طبيعة هذه الحركة.

فهؤلاء حينما يتحدثون عن حد السيف في التعامل مع الآخر المضاد فإنهم يجمدون عند نصوص لم تنزل مجردة عن تعلقها بظرف تاريخي واجتماعي محدد، فحد السيف يتعلق بظرف والنزوع إلى السلم يتعلق بظرف آخر، ومن الخطأ بمكان الجمود عند النص من دون مراعاة ما يتعلق به، فالسلم لم يستخدمه الرسول صلوات الله عليه وآله دوماً، والحرب لم يك أُسلوبه المختار دوماً، والعنف لم يك هو أُسلوباً ضرورياً دائماً كما هو الحال في التسامح، والحدود لا تطبّق بمعزل عن الظرف الاجتماعي، فلقد أُوقفت حدود السرقة في أعوام الجوع، وحد المسافر في الزنا ليس كحد المقيم، وحد المحصن غير حد غير المحصن، وأحكام المضطر ليست كأحكام المختار، وصاحب الشبهة ليس كصاحب الحجة، وهكذا، وما كان ذلك إلا بسبب اعتماد الرسول صلوات الله عليه وآله للنص الفقهي كنص ملزم إن توافرت متعلقاته التاريخية.

هذه الشبهة التي تُلاحَظ كثيراً في كتابات نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون وهاشم صالح والطيب تيزيني ونظرائهم، يتم الترويج لها إما بسبب سوء فهم - وبعض هؤلاء ضحية لإجراءات صدرت بحقهم كما يلمس المرء في مثال الدكتورة نوال السعداوي -، وإما بسبب تعميم ما رأوه من تجربة خاضوها هم أو حوادث مرت بهم أو بنظرائهم، فعمّموها على كلّ الإسلام، وراحوا يأخذون ما لدى المتأسلمين ليضعوه على كاهل الإسلام نفسه، وهذا خطأ منهجي فاحش، ففي الأقل لا ترى مدرسة

الظروف في الزمانين المترتب عليه حديث العلامات، أي زمان إلقاء النص، وزمن ما يطرحه النص.

كيف نبني الواقعة التاريخية؟

وعليه، فإن واحدة من مستلزمات فهم محتوى النص تكمن في قدرة الباحث على بناء الواقعة ضمن المعطيات التي تنسجم مع هذه الواقعة وبشكل لا يتعارض مع النص نفسه، فمن الواضح أن النصوص لا تعطي تفصيلات في كثير من الأحيان، ولكننا نعتقد أن هذه التفصيلات كامنة داخل النص من خلال كونها من اللوازم اللاحقة والموضوعية لما ذكره النص وصاحب النص.(١)

والقدرة على البناء ـ المشار إليها ـ قد تعطي تارة تصوّرات للأُمور (سيناريوهات) احتمالية، وقد تعطي تصوّراً أشبه باليقين تارة أُخرى، فمثلاً تتحدث الروايات عن حركة كونية غير مألوفة، وتتمثل بطلوع الشمس من المغرب وببروز آية الدخان وبحالة معكوسة لظاهرة الخسوف والكسوف في شهر رمضان، ولفهم هذه النصوص التي جاءت مقتضبة تماماً ولكن ضمن إطار نصي شديد التأكيد عليها، حينما وصفت هذه العلامات بأنها من المحتومات، لذلك تكمن هنا مهمة الخبير في كيفية بناء هذه الواقعة وتحديد أُطرها التقريبية في الأقل.

وعلى الرغم من النص المقتضب الذي أشار إلى الكسوف والخسوف مثلاً، إلا أن مهمة الباحث هنا ستتحمل مسؤولية تجسيم حدث الكسوف والخسوف بالطريقة الموضوعية التي يحصل فيها مثل هذا الحدث، وإخراج النص من صياغته اللفظية إلى إسباغ الحيوية المطلوبة في عملية التجسيم هذه، ومن بعد ذلك يشرع بعملية بناء

أهل البيت صلوات الله عليهم هذا الرأي، وهي تلتزم بأن النص الفقهي الحاكم على واقعة معينة ضمن ظرف تاريخي معين، تكمن سلطته في حدود تلك الواقعة وظرفها، ولهذا فقد تنتفي هذه السلطة في واقعة أخرى وضمن ظرف تاريخي آخر، فالإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه أوقف كثيراً من الحدود؛ لأن الظرف الاجتماعي لم يك طبيعياً مع أصحاب الجنايات التي ارتكبوها في ذلك الظرف، فلقد أوقف حد السرقة أن يقام على سارقين في عهد عمر؛ لأن العام كان عام جوع، وهكذا أوقفت مدرسة أهل البيت عليهم السلام العمل بالحدود في حال عدم توفر البيئة الكاملة التي تقطع حجة الجناة، ضمن تفصيل يمكن الرجوع إلى بعضه في كتابنا: اتجاهات الدفاع الاجتماعي في الإسلام.

١ـ سيأتي الحديث عن ذلك في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

الواقعة المشار إليها بصورة مقتضبة.[1]

وأي تقصير في بعض الأحيان في فهم الباحث لطبيعة صاحب النص وحركته سيضفي على مهمته هذه صعوبة في البداية؛ إذ يمكن لبعضهم أن يتخلص من هذه المهمة بسهولة بالقول بأن إعجازاً كونياً سيحصل هو الذي سيؤدي إلى هذه الظواهر، بينما فهم طبيعة صاحب النص تبدد مثل هذه السهولة، فأسلوب الإعجاز الكوني - وهو ما سنفصّل الحديث عنه لاحقاً - لا وجود له في حركة ما قبل ظهور الإمام صلوات الله عليه، ولهذا يجب أن نبقى في إطار التفسير ضمن المظاهر والأسباب الطبيعية للنظام الفلكي، وهذه هي المهمة الأولى لنا.

إن كون الأحداث هذه قد وُصفت بأنها من المحتومات؛ وكنا قد أشرنا في غير موضع إلى أن المحتومات من العلامات - وقد أسميناها سابقاً بشرائط الظهور - إنما تحدث بشكل قريب جداً من زمان ظهور الإمام صلوات الله عليه؛ ولهذا فإن هذا القرب الزمني قد يجعل الأحداث الثلاثة مترابطة، أي أن حدثاً معيناً ضمن النظام الفلكي يمكن أن يؤدي إلى حصول هذه الأحداث بالتتابع، وبما أنّ حالتَي الخسوف والكسوف المعكوستين ستحصلان في شهر رمضان، فإن المدة الزمانية يمكن أن تتقارب من فترة خروج الرايات الثلاث للخراساني والسفياني واليماني، وهو الذي سيحصل بعيداً عن ظهور الإمام المهدي صلوات الله عليه بمدة تسعة أشهر، ويمكن أن تكون سابقة بفترة وجيزة للصيحة التي ستحصل في ليلة القدر.

وهنا على مفترض هذا السيناريو، فإنها ستحصل في الفترة الممتدة بين خروج الرايات الثلاث وبين الصيحة[2]، وبهذا نكون قد أتممنا المهمة الثانية، وهي تحديد زمان الواقعة، خاصة وان الخسوف والكسوف المشار اليهما يحصلان في شهر رمضان.

ويمكن للمهمة الثالثة وهي تحديد شكل الواقعة أن تنطلق من خلال افتراضنا لسيناريو تقريبي، هو دخول جرم ما إلى داخل المنظومة الشمسية - وهو أمر محتمل في ذاته، ويجري الحديث عنه كثيراً في الأروقة العلمية الفلكية المعاصرة - ليحجب رؤية الشمس إلى وقت الغروب ليكون بزوغها في وقت المغرب، ثم تعقب عملية

---

١ سنعود إلى مزيد تفصيل في هذه القضية في مبحث: الملاحقة الموضوعية للأحداث.

٢ لمزيد التفصيل في ذلك يمكن الرجوع إلى كتابنا: راية اليماني الموعود أهدى الرايات، في المطلب الثاني من الفصل الخامس: ١٩٩، ط١ .

دخول هذا الجرم إما تفاعلات مناخية ضخمة تؤدي إلى أمثال ظاهرة النينو أو النانو ـ على سبيل المثال ـ لتكون أحد أوصاف الدخان، أو أن دخول الجرم يؤدي إلى تشظٍّ كبير داخل الجرم نتيجة للتجاذبات المغناطيسية التي تتحكم بحركة المنظومة فيطلق ما يوصف بأنه دخاناً، ثم ليعقب المرور العكسي للجرم داخل المدار الشمسي إلى حجب معكوس للقمر والشمس عن الأرض لتحصل ظاهرة الكسوف والخسوف المتعاكستين.

إن هذا الوصف هو وصف تقريبي لما يمكن أن يحصل، وما من ضرورة لحصوله بهذا الوصف، ولكن على شاكلته يمكن أن يتشكل شأن بناء الواقعة، ومن الطبيعي أن تكون هناك إمكانيات لسيناريوهات تقريبية أُخرى.

وقد تعطينا النصوص المقتضبة جداً قدرة على الوصول إلى ما يقرب من اليقين ـ إن لم يك يقيناً بشكل مطلق ـ من خلال نفس الطريقة، فالروايات الشريفة الواردة عن المعصوم صلوات الله عليه ـ على سبيل المثال ـ لم تحدد هوية اليماني الموعود، ولكننا من خلال جملة من الملاحقات الموضوعية لمستلزمات حدث اليماني توصّلنا إلى تفاصيل مهمة ـ على ما أعتقد ـ في كتابنا: "**راية اليماني الموعود أهدى الرايات**"[١]، وهي تفاصيل تخالف المتبادر الأول في الثقافة الشعبية عن الرجل[٢]، وهذه التفاصيل التي كانت مخالفة للمشهور على نطاق واسع إنما حصلنا عليها من ملاحقة القرائن والمستلزمات التي حفّت بكلمات قليلة جداً عن الولي الصالح اليماني الموعود.

ويمكن أن نجمل هنا مطلبنا المتقدم بضرورة الخروج من ظاهر النصوص الواردة في علامات الظهور، ومحاولة الغوص داخل هذه النصوص من أجل تفكيك عقدة الاقتضاب الذي وَسَمَ كثيراً من النصوص الحساسة، والتي شكّلت عقدة فهم لدى الكثير من الباحثين، فإن كانت علامات الظهور هي دلالات أساسية على حدث الظهور الشريف، ويتوقف على هذا العلامات كثيرٌ من سبل الهداية، فلماذا تحدّث المعصوم صلوات الله عليه بطريقة الاقتضاب عن قضايا يُفترض أن يكون لدينا فيها علم تفصيلي كي نستدل عليها؟!

١ انظر: راية اليماني الموعود: ٤٧ ف ٢ فما بعده في الطبعة الأولى.

٢ غالبية ما في الثقافة الشيعية عن هذا اليماني الموعود مستقاة من مصادر عامية وللأسف الشديد.

وقد فات هؤلاء أنّ واحدة من الأسباب التي جعلت المعصوم صلوات الله عليه يتحدّث بهذه الطريقة تعود إلى أن الإمام (بأبي وأمي) ليس في صدد سرد قصة ما، وإنما عملية الذِكر الإجمالي لها هي مهمة الإمام عليه السلام، أما مهمة التثبت من التفاصيل فهي مهمة المتلقي، ولأن طبيعة مفردات وعي المتلقي في زمن الإمام صلوات الله عليه لا يمكن لها أن تفقه تفاصيل ستحصل في المستقبل الغائر بالنسبة له، وليس هو المعني تفصيلاً بمثل هذه النصوص، ولهذا اكتفى المعصوم عليه السلام بذِكر المجمل والمقتضب لتكمل هذه المهمة طبيعة وعي المتلقين لاحقاً.

فلو أن الإمام الباقر صلوات الله عليه حينما تحدّث عن مسألة نزول الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه في الكوفة قادماً إليها بسبع قباب من نور[1]، كان قد تحدّث عن وسائل النقل الجوي المعاصرة أو ما يشبهها، كما يومئ إليها في هذه الرواية، وبطريقة كما نألفها الآن، لما تم وعي وفهم ما أراد من قِبل متلقي عصره، ولربما يتسبب ذلك بضرر لصاحب النص نتيجة لما قد ينشأ من عدم فهم كلامه، ويجعل حديثه مساعداً لاتهامه من قبل الآخرين بشتى أنواع الاتهامات التي تمس صدقية حديثه.

هذا، ناهيك عن أُمور الرعاية منه لشيعته، ومقتضيات التربية لهم، والحفاظ على أسرار التحرك المهدوي، وما إلى ذلك، الذي يقتضي في بعض الأحيان الكلام المقتضب والمجمل من دون أن تتكشف أسراره مبكراً، ولا سيما أنّ هذا الخطاب لم يكن يستهدف في باطنه زمن النص، ولكن هذا الاقتضاب جرى بطريقة لا تمنع المتابعين الخاصين لهذه النصوص من الوصول إلى التفاصيل التي يريدونها دون عناء كبير، كما أنّ هذا الاقتضاب محكوم بظرف صاحب النص والمتلقي؛ إذ إننا سنلمس عندئذ أمراً مختلفاً تماماً عن الاقتضاب، إذا كانت أجواء الحديث الزمانية والمكانية، فضلاً عن موثوقية المتلقين، تسمح بذلك.

الرمزية والكناية في النص:

واحدة من مشكلات فهم النص في علامات الظهور تعود إلى الحديث المرمّز في هذه الروايات، واستخدام أُسلوب التكنية فيه بدلاً من التصريح في بعض الأحيان، فمن الواضح أن عهد المعصومين صلوات الله عليهم قد شهد كثيراً من العنت الفكري

---

١ تفسير العياشي ١: ١٠٣ ح٣٠١ و٣٠٣ .

والسياسي والاجتماعي الذي جوبه به أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهذا العنت كان يرتبط ـ في الأغلب ـ بطبيعة ما يتحدّثون عنه، فضلاً عن طبيعة ما يحملونه من عقائد، وما يحتلّونه من مقام في وجدان الأُمّة، وما يفضي كلّ ذلك من مخاوف وهواجس في قلوب حكام وطواغيت زمانهم وأعوانهم، وحال كهذا ما كان ليدعهم يتحدثون بطريقة مباشرة، أو بطريقة تبعدهم عن اللجوء إلى محاولة تغليف الحديث بما يبعد عنهم الضغوط المترتبة على ذلك.

وهذا الأُسلوب لم يحكم حديثهم صلوات الله عليهم دوماً، فنحن نجد أن الحديث ظل يتراوح بين المباشرة وبين الرمزية والكناية وفقاً لطبيعة الظروف التي كانت تمر بهم (بأبي وأمي)، وعليه فإن التعامل مع هذه الروايات يجب أن يتم وَفق فهم لأساليب الكناية والرمزية من جهة، ووَفق معرفة مَن يعنون بهذه الكناية والرمزية أساساً، ولا شك أنّ الربط بين النصوص الواردة في شأن حادث معين من حوادث هذه العلامات يمكن أن يسهم بشكل جدي في تفكيك حالة الرمزية، أو في الوصول إلى مرامي الكناية، ولكن مهما يكن من أمر فإن الانكفاء على ظاهر النص فقط دون مراقبة هذه الحالة، يمثّل ـ ولا ريب ـ تخلياً عن الجدية في التعامل مع النص ومراد النص.

ولكن هذه الرمزية يجب أن لا تكون سبباً في اعتمادها في تفسير كلّ شيء، حتى وجدنا كثيراً من الكُتّاب يعتمدونها في تفسير العلامات بطريقة تنمّ عن تخلٍّ فاضح عن المعايير العلمية والموضوعية التي يجب أن تُعتمد في مثل هذه الحالات، حتى وجدنا شخصيات ـ مثل: السفياني والدجّال لو صحّت أحاديثه، وأمثالهما ـ تتم محاكمتهم وفق مبدأ الرمزية والكناية، ولهذا غدا السفياني في عُرف بعضهم أمريكا! وغدا الدجال في عُرف بعض آخر يمثل تارة الحضارة الغربية، وأُخرى المادية، وما إلى ذلك مما حفلت به كتب بعضهم، وهو خطأ كبير ولا شك.

ولعل أحد الضوابط المهمة التي يمكن لها أن تساهم في معرفة الحديث الرمزي عمّا سواه، هو متابعة كلّ النصوص الواردة في شأن الرمز وما يحفّ به، فحينما تُدرس حالة السفياني ـ على سبيل المثال ـ ونجد أن النصوص الواردة فيها من الوصف الدقيق لشخص محدد بمكانه وعشيرته، فكيف يمكن أن نحوّل هذا الشخص إلى جهة محددة المعالم إن لم ندرك بقية القرائن والحيثيات؟! ولا سيما أن بعضهم يلجأ إلى الإحالة إلى هذه الجهات وفق معطيات نظرتنا إليها هذه الأيام، وكأنّ السفياني أو الدجّال أو غيرهما هم بالضرورة موجودون اليوم، وبالتالي علينا أن

نجدهم بهذه الطريقة، حتى لو لم تكتمل الصورة المتشكلة من مجموعة الحيثيات والقرائن!

وهذا أحد الأسباب التي أدت إلى إرباكات متعددة في كتابات وتحليلات بعض الكُتّاب والمؤلفين، في الوقت الذي نعلم بأننا ممنوعون عن التوقيت، وأنّ لا دليل لدينا على أنّ هذا الزمان هو زمن هذا أو ذاك!

نعم، لو اكتملت الصورة بقرائنها كافة وما يترتب عليها، فإنها يمكن أن تعطينا صورة أقرب إلى الواقع، إن لم تمكنّا من إصابة الواقع بشكل دقيق.

على أي حال، يمكننا أن نلاحق شأن الرمزية حينما يشار إلى اسم السفياني، بأنه عثمان بن عنبسة، وأنه يخرج من الوادي اليابس وفي عنقه صليب، وَفقاً لجملة من الروايات مثلاً، فإنّ من واجبات الدقة أن نتوقف لندقق في طبيعة هذا الاسم، فهل الرجل اسمه الواقعي الحقيقي هو: عثمان بن عنبسة، وبهذا اللفظ؟ أم أن الاسم المذكور أخفى وراءه اسماً آخرَ وكُنّي عنه بهذه الطريقة؟ وهل أن لقب السفياني يرتبط بطبيعة انتسابه إلى آل أبي سفيان؟ أو لأنه ينتسب لبني كلب عموماً؟ أو لأن سلوكه يحاكي أفعال بني أُمية؟

وهل أن الوادي اليابس هو منطقة بهذا الاسم؟ أم أنه وصفٌ لمنطقة تتصف بهذا الوصف؟ وهل أن هذا الوصف يكون سابق لظهور السفياني بحيث إن المنطقة تعرف بذلك؟ أم أنه وصف يرتبط بحالة ظرفية في وقت السفياني خصوصاً؟ إذ الأعوام القريبة من الظهور مباشرة توصف بأنها من أعوام الجفاف من جهة المياه، وما عاد ليخفى على أحد أن أزمة المياه وجفاف الأنهر في سوريا والعراق أصبحت من الأُمور الراجحة.

وهل أن الصليب المشار إليه يشير إلى أن السفياني مسيحي؟ أم أن هذا الصليب في العنق يشير إلى تعاهده مع المسيحيين وبيعته لهم؟ أم أنه يشير إلى نمط من أنماط الاقتران مع المسيحيين؟ كأن يكون اقتران زواج أو ما شاكل!

وهنا نحن أمام احتمالين أساسيين، فإما أن نأخذ الأُمور بطريقتها المباشرة ونقول إن الرجل اسمه عثمان ابن عنبسة، وإن محل خروجه هو الوادي اليابس ـ وهو اسم لمناطق عدة في بلاد الشام ـ، وإمكانية حمله على أنه مسيحي شبه عسيرة؛ لأن المسيحيين لا يسمّون مواليدهم بهذا الاسم في العادة، ولكن يمكن القول بأنه يرتبط

بولاء وعهد لدولة مسيحية، إما بطريقة العمالة لها، وإما بطريقة التجنّس فيها، ومن الواضح أن قوانين التجنس هناك هو القسم بالولاء للملك أو الملكة، وما أشبه ذلك.

وإما أن نحمل الأُمور على أن هذه التسمية والأوصاف رمزية، ولكن يسمى باسمه الأول إما نسبة لبيت من بيوت بني كلب يطلق عليه اسم عثمان، أو أنه يحاكي وصفاً من أوصاف عثمان كالترف والدلال والعنف وفقاً لقواعد التبادر اللفظي، وعندئذ يكون اسم عنبسة وصف للقبه العائلي لا العشائري، أو للعشائري والعائلي معاً، واسم عنبسة من أسماء العرب البدوية عموماً، ومعناه ـ وفق ما يذكر علماء اللغة ـ يشير إلى عدة معانٍ، فعنبسة اسم للأسد؛ لأنه عبوس ـ كما يقول ابن منظور في لسان العرب ـ، أو لكونه ابن أمة، أو أنه ذليل لأمر ما، أو لأنـه خرج من مكمنه، أو لأنه ينتسب إلى العنابس، وهم أولاد أمية بن عبد شمس، ويمكن لهذه الأوصاف جميعاً أن تشترك في النسبة.[1]

وهكذا الأمر بالنسبة للوادي اليابس، فقد يكون تكنية عن الأرض لا اسماً لها، وقد يكون وصفاً لحالتها في ظرف خروج السفياني.

أما لقبه، فما من ضرورة أن يكون حاملاً نفس اللقب ـ أي السفياني ـ، على الرغم من أن بلاد نجد والأردن ـ وربما في سوريا أيضاً ـ يتم تداول هذا اللقب فيها، ولكن ربما لأنه من بني كلب، وسلالته تنتهي لبيت أبي سفيان، وهنا يشير نعيم بن حماد إلى كونه من نسل خالد بن يزيد بن أبي سفيان في رواية ينسبها للإمام علي صلوات الله عليه[2]؛ وغير ابن حماد يشير إلى إنه من أولاد عتبة ابن أبي سفيان ولهذا لقّب بالسفياني.[3]

ولكن يجب أن ننبه إلى أمر جوهري ولازم، وهو أن الرمزية مهما كان أمرها فهي تحتاج إلى قرائن صحيحة تكون دالة عليها؛ لأن الرمز من دون دليل يدل عليه يبقى مبهم المراد، وعليه يكون التحديث به عابثاً، وفي مثال السفياني فقد تم إحاطة شخصية اللعين وحركته بأوصاف كثيرة، ووصف زمانه بشكل دقيق، وأُشيرَ إلى أماكن قتاله وطبيعة أفعاله بصورة مسهبة، وعليه فإن التوجّه نحو الرمزية من دون وجود دال يدل عليها سيكون مدعاة للتكلّف، والحمل بما لا يُحمل، ولا يؤدي بالنتيجة إلى

---

١ لسان العرب ٩: ٤١٥ وقد تحدثنا بالتفصيل عن ذلك في الفصل السابع من الكتاب.

٢ الفتن: ١٥٦ ح٤ و ص ٣٨٨ ح١٠ .

٣ سيأتي تفصيل ذلك في الفصل السابع من الكتاب إن شاء الله.

الدقة في التشخيص؛ فلا تغفل!

وننبّه هنا إلى أن القرينة الصحيحة لا يشترط توفرها بكثرة في الروايات، فلربما قرينة واحدة صحيحة يمكن لها أن تكشف معطيات كثيرة في شأن الرمزية المشار إليها.

يبقى علينا أن نشير إلى أن الموضوع يمثل قضية علمية تحتاج إلى كثير من الاحتراف الفني في موضوعها، فالإغراق في الرمزية قد يبعدنا عن الصور الواقعية وتشكلاتها، كما أن التسامح فيها يفضي بنا إلى نفس المصير.

التعددية:

وهذه واحدة أُخرى من الأُمور المهمة التي يجب أن يراقبها الباحث في هذا المجال، فكثيراً ما يشار إلى أفعال تتعدد أوصافها في مكان واحد، وتُذكر أسماء ومدى ما يشار إلى أفعالها وتحركاتها وعمرها، يبدو واسع وكبير جداً، بل ربما نجد في بعض الأحيان ما يشبه التناقض في ذِكر بعض العلامات، فهل ذلك يعزى لخلل في الرواية أو الراوي؟ أم أن الأمر ينطوي على خلفية أُخرى مختلفة تماماً عن أجواء الخلل؟

في الحقيقة لا يعود ذلك ـ بالضرورة ـ إلى خلل لا في الرواية، ولا في الراوي، بل إن طول الزمان الذي تتعامل معه علامات الظهور، وتعدّد الأجيال التي ستلاحق عملية الظهور، وطبيعة الأغراض التربوية للممهّدين ـ على تعدّد أجيالهم وأماكنهم وظروفهم ـ من جهة، وطبيعة الظروف الأمنية التي يمر بها الملقي للنص والمتلقّي له، والتي لم تسمح بتشخيص الأوقات والأماكن بدقة، أدت إلى أن يتحدّث المعصوم صلوات الله عليه بلغة الجمع بين الأزمان والأماكن والشخصيات ولا تفرّق بينهم ظاهراً، وهو في واقع الأمر لا يريد بها وحدة الزمان والمكان والشخص أو الجهة، إنما يريد بها التعدّد في الزمان والمكان والشخص والجهة، حتى يكون محققاً للأغراض آنفة الذكر، ولهذا ينبغي أن نتقن فن التفريق بين كلّ ذلك لنتمكن من الوصول إلى فهم أدق.

وعملية التعدّد هذه ينبغي أن تلاحَظ في عدة مستويات، فتارة يأتي التعدّد في الزمن، فيتحدث المعصوم صلوات الله عليه عن علامةٍ أو أُخرى بطريقة ربما توهِم بأنه إنما يتحدث عن زمن واحد، وهو لا يريد في الواقع إلا حصول هذه العلامات في

أزمان متعددة تقترب أو تبتعد فيما بينها، كما هو الحال حينما نجد أكثر من نفس زكية يتم التحدث عنها.

وأُخرى، يحصل التعدّد في المكان، فقد يشار إلى مكانٍ ما ليكون مورد حديث العلامات بصورة تبدو وكأنه من الصعب تصوّر حصول كلّ هذه العلامات في هذا المكان وفي وقت واحد، مثل ان نجد السفياني الذي تشير الروايات إلى أماكن كثيرة لحركته في نفس الوقت الذي تطرح فيه عمراً قصيراً جداً لهذه الحركة بالشكل الذي يجل المرء لا يتعقّل أن تتم كل هذه الحركة فوق كل هذه الأماكن، بينما هو المطروح التعدد في شخصية السفياني وأزمنته.

وثالثة، يحصل التعدّد في الشخص، فيذكر المعصوم عليه السلام اسماً ذا أفعال كثيرة جداً، وفي أماكن عديدة جداً، في وقت هو يريد أشخاصاً متعدّدين، ولربما في أزمان متعدّدة، ولكن عدم التفريق يؤدي إلى رسم خارطة لأحداث هذا الاسم بطريقة تبدو وكأنها لشخص واحد، ومثاله نفس المثال اعلاه.

ورابعة، يكون التعدّد في الحدث، ولكنّ المتحدّث لا يشير إلى تعدّد زمان الحدث، فيتصور المتلقي البسيط أن الحدث إنما هو واحد، في وقت يريد المعصوم صلوات الله عليه أحداثاً عدة ولكنها تطرح من دون تشخيص التعدّد.

ويمكن أن نلاحظ مستويات أُخرى من ظاهرة التعدّد هذه؛ لأنها ـ وبحق ـ إحدى مزايا حديث المعصوم صلوات الله عليه.

وللتطبيق، نشير ـ على سبيل المثال ـ إلى طبيعة الحديث عن شخصية النفس الزكية ومقتلها، والذي يجري بطرق مختلفة، فمرة يشار في الروايات إلى النفس الزكية التي تُقتل في المدينة قرب أحجار الزيت[١]، وثانية يشار إلى النفس الزكية التي تُقتل في ظهر الكوفة في سبعين من الصالحين[٢]، وثالثة أُخرى يشار إلى النفس الزكية التي

---

١ دلائل الإمامة: ٢٤٣، ومقاتل الطالبيين: ١٦٧ .

٢ مختصر بصائر الدرجات: ١٩٩ .

ولعلّ المراد به هو قتل شهيد المحراب آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم (قدس سره) من قبل عصابات البعثيين والتكفيريين في عام ٢٠٠٣، في عملية التفجير التي حصلت عقب صلاة الجمعة في باب القِبلة لمرقد الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وأدت إلى سقوط عشرات من الشهداء مما يصح عليهم وصف السبعين، الذي تطلقه العرب - عادة - على الكثرة؛ والله العالم.

تُقتل بين الركن والمقام في البيت الحرام[1]، مما قد يوقِع بعضهم في الارتباك في فهم المراد، أو قد يلجأ البعض الآخر إلى رفض الروايات في هذا المجال لزعمه إنها متناقضة.

فمَن لا يفرّق بين شخصيات هذه الروايات التي اتحدت في الوصف فقط، لكنها لم تتحد في الاسم والحدث والمكان والزمان، يقع في أوهام كثيرة جداً، وقد رد بعضهم هذه الروايات سفهاً بغير علم لمحض تشابه الأسماء وتعدّد المواقع!! بينما كان بالإمكان تصور أن الإمام صلوات الله عليه يتحدث عن أوصاف شخصية، ولكنه لم يتحدث عن تطابق الأسماء التي تطابقت أوصافها، وهذا أمر طبيعي جداً في لغة علامات الظهور، فكما لا يمنع تعدّد الأسماء بألفاظها ولكن يراد بها شخصيات عدّة، كما في حالة تسمية العلامات لعدة شخصيات في الشام والحجاز باسم عبد الله، كذلك لا يمنع تعدّد الأسماء في أزمان متعدّدة، كما في حال وصف قتل النفس الزكية في زمن العباسيين، وقتل النفس الزكية قبل ظهور الإمام صلوات الله عليه بخمس عشرة ليلة.[2]

وكذلك لا يمنع التلقيب بوصف ويراد منه أسماء متعددة وفي أماكن متعددة، كما هو الحال في اسم السفياني، فمن يقرأ أفعال السفياني يتصوّر خريطة معاركه كبيرة جداً، مما يحتاج إلى زمان أطول من الزمان المتاح له، الذي جاءت به الروايات، ولكن تصوّر وجود أكثر من شخص، في أكثر من عصر، في أكثر من مكان، يلقب بهذا اللقب، إما لطبيعة أفعاله، وإما لطبيعته العشائرية، هو ما يسهّل عملية فهم الروايات، ولا حاجة لأي إرباك في الموضوع هنا.

والعبرة في ذلك كلّه أن الأئمة صلوات الله عليهم لَـمّا لم يشيروا إلى زمن واحد، فمن الطبيعي أن نحتمل دوماً في وصف الأحداث أو ذكر الأسماء حالةَ إمكانيةِ التعدّد في الوصف أو المكان أو الاسم. وبالتالي لِـنَعُدَّ هذه العلامات هي علامات متعدّدة وليست علامة واحدة، ويبقى لصاحب المعرفة في هذا المجال قدرة القطع بهذه الحالة أو بتلك.

---

١ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٣١ ب٣٢ ح١٦ .

٢ غيبة الشيخ الطوسي: ٤٤٥ ح٤٤٠ لقول صالح بن ميثم التمار (رضوان الله عليهما) بأنه سمع الإمام الصادق عليه السلام يقول: ليس بين قيام القائم عليه السلام وقتل النفس الزكية إلا خمس عشرة ليلة؛ وفي رواية أُخرى ذكرها الشيخ المفيد عن صالح روى الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام.

ظروف الظلم:

أشرتُ سابقاً إلى طبيعة الظروف التي يمرّ بها صاحب النص، منشئاً كان أو راوياً له، وتداخل هذه الظروف في صياغة النص، فلقد مرّ بالأئمة عليهم السلام من ظروف الظلم والعنت الاجتماعي والسياسي ما لو مرّ بعضه بغيرهم لما بقي لهم ذِكر، ولتركوا ما هم فيه، ولكن طبيعة المنهج الرباني الذي سار عليه أهل بيت العصمة والطهارة (بأبي وأمي) جعلهم أُمثولة في التضحية والصبر ونكران الذات من أجل المبدأ، وبطبيعة الحال فقد امتد هذا العنت إلى أصحابهم وكلّ مَن يقول بقولهم، وتعدّدت أشكال هذا العنت حتى إنها لم تنحصر في الإجراءات السلطوية المعادية، ولكن التربية على مضادتهم ونصب العداوة لهم صلوات الله عليهم أوجدت في كثير من الأحيان بيئة اجتماعية كانت مستعدة لفعل أي شيء فيه إثارة الشحناء ضدهم، أو وعدم السماح للأئمة (بأبي وأمي) بتمرير أفكارهم وحديثهم.

ولئن رأينا مثل هذا العنت في أيام حكم أمير المؤمنين صلوات الله عليه في قضية صلاة التراويح، وهي صلاة يُجمَع على أنها بدعة ابتُدِعت في زمن عمر، ولا علاقة لها برسول الله صلوات الله عليه وآله، ولا بأبي بكر، وقد سماها بالبدعة الحسنة[١]، وحاول أمير المؤمنين صلوات الله عليه أن يمنعها فانتفض عليه الناس وهم ينادون: وا سُنّة عمراه![٢]، فما بالك لو كان الجو الحاكم ـ سلطة ومذاهب وأتباعاً ـ ضدهم؟!

وعليه، فإن من الخطأ بمكان تصور أن الأجواء المضادة كانت في سياسة الحكّام فقط، وإنما كان الجو العام الاجتماعي لا يتحمل حديثهم وأفكارهم (بأبي وأمي)، ومن هنا كان الإصرار على العمل بمبدأ التقية، ليس من أجل أن ينعزل الأئمة صلوات الله عليهم وأتباعهم من الساحة الاجتماعية أو السياسية، وإنما لأنّ سبل الحوار العقلي في الرأي الآخر لا وجود لها في الساحة السياسية والاجتماعية، أو أن فرصها أشبه بالمنعدمة، أو أن التحدّث بأفكارهم سيؤدي إلى وضع المتحدث في أجواء المتابعة والمراقبة وتضيّق ساحة العمل عليه، وهي على أي حال كانت تعرّضهم

---

١ انظر: صحيح البخاري ٢: ٢٥٢، وفتح الباري ٤: ٢١٩، وسنن البيهقي الكبرى ٢: ٤٩٣، ومصنف عبد الرزاق ٤: ٢٥٩، وتحفة الأحوذي في شرح الترمذي ٣: ٤٥٠، وصحيح ابن خزيمة ٢: ١٥٥ .

٢ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ٢: ٢٨٣ .

لمظالم كثيرة.

ولك أن تعرف حجم ذلك من خلال ملاحظة أن السبب المباشر لأمر هارون العباسي باعتقال الإمام موسى بن جعفر صلوات الله عليه بغية اغتياله وتصفيته، هو جهر الإمام صلوات الله عليه بواحدة من أكثر البديهيات الاجتماعية، فحينما دخل هارون العباسي إلى قبر الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وأراد أن يتفاخر بنسبه وقرباه من رسول الله صلوات الله عليه وآله، لِما في ذلك من تأثير على عامة الناس، وبالتالي يكرّس وضع سلطانه من الناحية الشرعية كما يتوهمها عامة الناس[1]، فسلّم على رسول الله بالقول: السلام عليك يا ابن عم؛ عندئذ سلّم الإمام موسى بن جعفر صلوات الله عليه على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: السلام عليك يا أبه، فتغير وجه الرشيد وتبين الغيظ فيه.[2]

ولهذا فمن الطبيعي بمكان أن نجد سياسة احتواء هذا الظلم ومحاولة الإفلات من خناقه تتداخل بشكل فاعل في صياغة حديثهم، وبالنظر لطبيعة الحساسية التي ينطوي عليها حديث الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف عندئذ، باعتبار أن الحديث عن الإمام (بأبي وأمي) ينطوي على البعد السياسي المباشر، ولهذا كانت أعين العباسيين تترصد هذا الحديث بشكل شرس جداً[3]، إن كان ينطوي ـ في فهمهم

---

١ إنّ كثيراً من النزاعات السياسية التي خاضها بنو العباس مع خصومهم، كانت تستند إلى مبدأ التنازع بين السلطة وبين الشرعية، وبشكل خاص إنْ كان الأمر يتعلق بالمتأثرين بأهل البيت عليهم السلام بصورة أو أُخرى.

وفي الواقع، فإن هذه المسألة تقف وراء غالبية النزاعات السياسية في العالم، فحينما تكون السلطة مبنية على أساس التناقض مع الشرعية، بسبب الغلبة وفرض الأمر الواقع أو غير ذلك، أو أن شرعيتها غدت مورداً لإثارة الشك فيها، فإنها في نفس الوقت تفتح باب التنازع والصراع ضدها، وتثير مكامن النقض عليها من قبل الآخرين الّذين إما أن يجدوا أنفسهم أحق منها بالسلطة إن كانوا يستندون لأمر شرعي، أو - في الأقل - لا يرون خصوصية لها في مجال الطاعة والولاء، فلو تمكنوا من الثورة لانتفضوا وثاروا، وعلى ذلك تجري كثير من الصراعات السياسية سابقاً وحالياً، ولا نقصد بالشرعية هنا الشرعية الإسلامية في حدودها وآفاقها وآلياتها، وإنما نقصد الصورة القانونية لتكييف الاستيلاء على السلطة أو تداولها.

٢ الإرشاد ٢: ٢٣٤ - ٢٣٥ .

٣ وهذا هو الذي يفسّر لنا الأسباب التي جعلت الغالبية العظمى من حديث علامات ظهور الإمام المهدي صلوات الله عليه تطلق في عصر خلافة السقيفة وعهد بني أمية اكثر من عصر بني العباس، اذ إن اكثر رواياتنا في هذا المجال واردة عن الإمام أمير المؤمنين والامامين الحسين والباقر صلوات الله عليهم.

ـ على أنه ذو مساس بواقعهم المباشر، ولهذا فإن من الطبيعي بمكان أن نجد هذه الحساسية تنعكس بشكل أخص على صياغة هذا الحديث، مما يجب ملاحظته عندئذ ومراعاته في فهم مراد حديثهم عن العلامات.

وقد انجر كلّ هذا الظلم على حديثهم صلوات الله عليهم، ولهذا يجب على المتابع لمرادهم من هذه الأحاديث والباحث فيها أن يتقن إدراك انعكاس تلك الظروف على هذا الحديث أو ذاك، فمثلاً ـ وكما أشرنا من قبل ـ فقد تم تعميم الحديث عن بني العباس في كثير من الأحاديث من دون أي إشارة إلى أن حكمهم إلى زوال، وقد تصوّر بعض الباحثين أن الروايات التي تم التحدث فيها عن بني العباس قد تحققت، والتي لم تتحقق تعدّ في حكم اللاغية أو الموضوعة أو التي جرى فيها البَداء، في الوقت الذي كان بالإمكان حمل ما لم يتحقق، أو الذي تأخر عن بني العباس على هذا المحمل، ليجعل الحديث عنهم حديث النوع وليس الشكل، أي أن كلّ ظالم يوصف بهذا الوصف، كما يلقب بالفرعونية كلّ طاغوت ومستبد، ليبتعدوا عن كلّ هذا التمحّل.

وبطبيعة الحال فإنّ كلّ الأحاديث التي تتشابه مع حديث العامة وتتقاطع في ظاهرها مع حديث أهل البيت صلوات الله عليهم، تعود في الغالب إلى هذا الأمر، كما في بعض الروايات التي ترد في تسمية الإمام صلوات الله عليه وفق تسمية بعض العامة له، لروايتهم عن الرسول صلوات الله عليه وآله: اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، والحديث وان كان معتلاً بشدة سنداً ومتناً، وهو غير صحيح على أي حال، وقد تم اقحام جملة: واسم ابيه اسم أبي لأغراض لا تخفى، إلا انه - جدلاً - لا يمنع من تسمية نفس اسم محمد بن عبد الله، فالإمام العسكري صلوات الله عليه هو عبد لله تعالى، ولهذا فإن رد الرواية لمجرد التشابه مع رواية العامة لا ضرورة له إذا ما حملت على هذا المحمل وإن كانت هي غير صحيحة لديهم وفق مقاييسهم ايضاً؛ فلا تغفل!

على أي حال، فإن ظروف الظلم أعطت للحديث ولطريقته كثيراً من الملامح والسمات التي يجب أن تُلاحَق، فعلاوة على مبدأ التقية وما يترتب عليه في الحديث، كان الإمام صلوات الله عليه يلحظ عدة اعتبارات في عدم التحدث بشكل مسهب ومباشر في هذه العلامات مثلاً، فتارة كان يلحظ مجالسيه ومَن كان يستمع إلى الحديث، والمجالسون له صلوات الله عليه قد يندسّ فيهم من هو ضدهم، أو مَن لا يملك نفسه في التحدث بما سمع لسبب أو آخر وإن كان من الموثوقين، أو ممن لا

وعي له بطبيعة الظرف الذي كان يعاني منه الإمام وخواص الشيعة، أو ما ماثل ذلك، وهنا يراعي ظرفه وظرفهم وظرف القاعدة الشعبية الخاصة به.

وتارة أُخرى ينظر صلوات الله عليه إلى ما يمكن لحديثه أن يحقق انتشاراً بشكل انسيابي في وسط قواعده الشعبية، ولهذا يطرح الحديث بطريقة لا استفزاز بها للأوضاع الظالمة أو بما يكون ـ لسبب أو آخر ـ مورد إثارة لحساسيتهم، لكي يكون هذا الحديث طليقاً في الساحة العامة، دون قيود تذكر، ولهذا تجد كثرة من حديث الإمام الباقر صلوات الله عليه ـ بصورة أخص ـ لدى العامة من الرواة.

وثالثةً ينظر إلى ظروف من يتحدث عنه، فعلى سبيل المثال نجد في حديثهم صلوات الله عليهم عن شخصيتين أساسيتين كالخراساني واليماني تفاوتاً شاسعاً، ففي حين جرى التحدث بحساسية أقل عن سبل كشف شخصية الخراساني، فهو من رجل بني هاشم، في يده اليمنى خال[١]، ولديه سلطان، وهو يأتي من إيران، وما إلى ذلك من تفاصيل تتوافر في الحديث عنه، إلا أن الحديث عن اليماني اتسم بالاقتضاب الشديد، والعمل على خفاء شخصه، رغم تفوق أهمية مقامه على الخراساني[٢]، وما ذلك إلا لطبيعة الظرفين المختلفين الذي سيعيشاه اليماني والخراساني، فمن الواضح أن الخراساني لا يعيش مشكلة أمنية خانقة، ولهذا جرى الإفصاح عن جانب مهم من شخصيته، ولكن الظرف الأمني الخانق الذي يحوط باليماني جعل الإمام صلوات الله عليه يحيط حديثه بالعمومية وعدم التشخيص.

ومما لا شك فيه أن الإمام صلوات الله عليه يراعي ـ أيضاً ـ مقتضيات العملية التربوية لشيعته في عصر ما قبل ولادة الإمام صلوات الله عليه؛ إذ لم يكن مشخَّصاً إلى حد كبير في نظر الناس، من هو المقصود بالإمام المهدي عليه السلام؟ فلقد كانوا يتمنّون مع كلّ إمام أن يكون هو المقصود بوعد الرسول صلوات الله عليه وآله في ملء الأرض قسطاً وعدلاً، أو في عصر ما بعد الولادة المباركة، أو في عصر الغَيبة، خوفاً من استغلال ذلك من قبل الأفاكين والمنحرفين وأصحاب الأهواء.

طبيعة المتلقي وقابليات الوعي:

لدينا هنا ثلاثة مجالات يتأثّر بها الحديث ويؤثّر بها، بل إن الحديث ما كان

---

١ أي: علامة.

٢ ننصح بمراجعة كتابنا: راية اليماني الموعود أهدى الرايات.

ليكون لولا السعي للتأثير بها، وأقصد بهذه المجالات: شخص المتلقي وأعني به مَن يُلقى عليه الحديث، وبيئة الوعي العام، والظرف الموضوعي الذي يعيشه صاحب الحديث.

ففي المجال الأول يتحكم عنصر الذكاء الشخصي، والفطنة الذاتية، والالتزام بما يترتب على العلم المتلقّى، وما إلى ذلك من أمور، تجعل صاحب الحديث يتحفّز أو يُحبَطَ وفقاً لمقادير هذه العناصر، فإن كان مَن يتلقّى الحديث بليد الفهم، عند ذلك لا جدوى للتحدث معه بعلم هو أعلى مِن وعيه منـزلة ودرجة، كما إن مَن كان لديه الذكاء الوقّاد، لا يصلح أن يتلقّى بسيط الأمور العلمية، ولك أن تتأمل في حال أمير المؤمنين صلوات الله عليه حينما يقول: سلوني قبل أن تفقدوني؛ فيقوم له أحدهم ليقول له: كم شعرة في لحيتي؟ في قبال أحاديث كثيرة يكون المتلقّي في شهية لمزيدٍ من العلم، فيأخذ من المعصوم صلوات الله عليه المزيد، وهناك روايات كثيرة نجد فيها المتلقّي يستخدم فيها كلمة: زدني؛ وكلّما قالها يجد تلبية لطلبه، اللهم إلا أن يكون المتلقّي لا يمكنه حمل ما يريد حمله، عندئذ يمسك المعصوم صلوات الله عليه عن الكلام.

ونقصد بالمجال الثاني ما هي عليه بيئة الوعي العام، ففي كثير من الأحيان يكفي جاهل واحد ليثير زوبعة كبيرة في وسط تعليمي؛ لأنه يستطيع أن يوجِد جواً من العقل الجمعي الذي يتأثر به ويسير خلفه، فما بالك لو كانت بيئة الوعي متناغمة أساساً مع حركة الجهل هذه، والتي قد ترقى لتكون جهلاً مركّباً؟!

ويمكن للمرء مراجعة أسباب ضرب ثم قتل الحافظ النسائي في دمشق، فلقد دفع الرجل ثمن تأليفه لكتاب "**خصائص الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه**"[1] وجاء إلى محيط بيئة كان وعيها بالمستوى الذي جعلهم يضربونه ضرباً شديداً مات على أثره، مع أنه صاحب "**السنن**" المعروف، وهكذا جرى للحافظ

---

١ يقول ابن خلّكان: إن النسائي خرج إلى دمشق مفارقاً لمصر: فسُئل عن معاوية وما روي من فضائله، فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضّل؟! وفي رواية أخرى: ما أعرف له فضيلة إلا: لا أشبع الله بطنك! وكان يتشيع! فما زالوا يدفعون في حضنه حتى أخرجوه من المسجد؛ وفي رواية أُخرى: يدفعون في خصييه، وداسوه، ثم حُمل إلى الرملة فمات.

انظر: وفيات الأعيان ١١ : ٧٧ رقم ٢٩. وقريب من ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ ٢: ٦٩٩ - ٧٠٠ .

الحاكم النيسابوري صاحب "**المستدرك على الصحيحين**"[١]، ولهذا لا تعدو مهمة إلقاء العلم مرتبطة فقط بالملقي والمتلقي، وإنما طبيعة امتداد ذلك لبيئة الوعي العام، وكلّما كانت البيئة سليمة كلّما تحفّزت قابليات العلم، وكلّما كانت بعيدة عن السلامة تحولت عملية التحفّز المشار إليها إلى حالة من النكوص أو الإحجام.

وما نقصده بالمجال الثالث، هو ما يمكن للظرف الموضوعي العام الذي يعيشه صاحب الحديث، كالوضع الأمني أو الاجتماعي، وما إلى ذلك، أن يلعبه في مقدار العلم الذي يلقيه، وفي طبيعته وفي مقداره، فعالم محاصَر اجتماعياً أو أمنياً أو سياسياً لا يجد تلك القاعدة التي يمكن له أن يغذيها بالعلم عادة، بينما الجاهل إن كان لديه أمنه الاجتماعي والسياسي الخاص ربما يغدو كبير العلماء، ويحضر لديه آلاف التلاميذ، وهو يلقي إليهم بالهراء، وهم يسبّحون بحمد علمه وعظمة إدراكه، كما كان يفعل الكهّان والعرّافين في بعض المجتمعات وهم يعدّونهم أعظم من لديه العلم والحكمة، في وقت أنهم لا يملكون من ذلك نقيراً.

وعلى الرغم من أننا أشرنا إلى جانب من هذا الحديث في الفقرة السابقة، إلا أنني ـ هنا ـ في صدد البحث في أثر المتلقي على حديث الإمام صلوات الله عليه، فلقد كان الأئمة صلوات الله عليهم معدن العلم وينبوع الحكمة، ولكن معاناتهم الكبيرة كانت تكمن في مَن يصلح لتلقي علومهم، ولديه قابلية استيعاب حكمتهم، ولشدّما طال تأثير هذه المشكلة على حديثهم، مما أجبرهم في بعض الأحيان على صياغة علومهم بطريقة معينة، في باطنها علم عميق، وفي ظاهرها كلّمات قليلة قيلت في هذا الأمر أو ذاك، وقد عبّروا (بأبي وأمي) عن هذه المشكلة بطرق عدّة، منها قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «إن أمرنا صعب مستصعب، لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة وأحلام رزينة، أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر

---

١ ذكر الذهبي في «**سير أعلام النبلاء**» عن ابن طاهر: كان . يعني: الحاكم . شديد التعصب للشيعة في الباطن، وكان يظهر التسنن في التقديم والخلافة، وكان منحرفاً عالياً عن معاوية . أي ذِكر ما يترضى على معاوية . وعن أهل بيته، يتظاهر بذلك ولا يعتذر منه، فسمعت أبا الفتح سمكويه بهراة، سمعت عبد الواحد المليحي، سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: دخلت على الحاكم وهو في داره، لا يمكنه الخروج إلى المسجد من أصحاب أبي عبد الله بن كرام، وذلك أنهم كسروا منبره ومنعوه من الخروج، فقلت له: لو خرجت وأمليت في فضائل هذا الرجل . يقصد معاوية . حديثاً لاسترحت من المحنة؛ فقال: لا يجيء من قلبي، لا يجيء من قلبي.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٣: ١٠٥ رقم ٣٧١٤ .

برجلها فتنة تطأ في خطامها، وتذهب بأحلام قومها».[1]

ويقول صلوات الله عليه في الخطبة المعروفة بالغـرّاء: "لو صادفت قلوباً زاكية، وأسماعاً واعية، وآراءً عازمة، وألباباً حازمة".[2]

وفي حديث الإمام الباقر عليه السلام بيانُ المقصودِ من ذلك بما يرويه سلمة بن محرز، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: "إنّ من عِلم ما أُوتينا تفسير القرآن وأحكامه، وعِلم تغيير الزمان وحدثانه، إذا أراد الله بقوم خيراً أسمعهم، ولو أسمع مَن لم يسمع لولّى معرضاً كأن لم يسمع؛ ثم أمسك هنيئة، ثم قال: ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا، والله المستعان".[3]

نلاحظ هنا أن شرط بث العلم هو وجود المتعلّم الذي يتحمل مسؤولية هذا العلم بكلّ ما يترتب عليه من أعباء ومسؤولية، وقد بيّنتْ أحاديثُهم صلوات الله عليهم هذه المشكلة بطريقة واضحة ضمن مجالاتها الثلاثة التي أشرنا إليه آنفاً، وبناء عليه فإن حديث الإمام صلوات الله عليه يجب أن يُفهم ضمن أخذ هذه الحيثيات كلاً أو جزءاً، فهو حين يلقي بالحديث ـ ومنها أحاديث الظهور ـ يلحظ مثل هذه الأُمور وغيرها، وهنا يكمن أحد أسرار الاقتضاب والإيجاز والتفصيل والشرح والتكنية والتصريح التي تسم بعض أحاديثهم في الأمر الواحد، فلكلّ حال مقال.

ولأنّ الواقع الاجتماعي وظروفه لا تأسر المعصوم صلوات الله عليه من أن يمضي باتجاه تحقيق أهدافه الخاصة بإمامته، لهذا يجب علينا أن نتقن فهم طرقهم في الإلقاء، فهم لم يتوقفوا عن بث علومهم في أشد الظروف قسوة عليهم، أو تقريبها إلى قواعدهم، أو طرحها لأوان لاحق، فحديثهم ليس خاصاً بقواعدهم التي كانت تعيش معهم فحسب، بل إن كثيراً منه ـ ولا سيما في أحاديث الظهور ـ إنما أُلقيَ لكي يبقى ذخيرة لأجيال المستقبل، سواء كان المستقبل القريب أو البعيد.

إن عمل الأئمة صلوات الله عليهم عمل تكاملي، وواحدهم يكمل عمل الآخر، فبعضها ناظر إلى الأجيال القريبة، وبعضهم ينظر إلى ما هو أبعد من ذلك، وإلا كيف يمكن تفسير ازدهار التشيع كلّ هذا الازدهار مع العلم أن شعار الطغاة قبل وبعد

---

١ نهج البلاغة: خ ١٨٩ .
٢ نهج البلاغة: خ ٨٣ .
٣ الكافي ١: ٢٢٩ ح٣ .

معركة كربلاء، كان: اقتلوهم ولا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية! وقد تفننت أنظمة الحكم المتعاقبة على تنفيذ مخطط إبادة التشيع، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام نتائج معاكسة تماماً، وما كان ذلك إلا لدقة وحسن إدارة الأمور من قبل قيادتهم صلوات الله عليهم، ومن جملة ذلك طرقهم في الإلقاء، وحرصهم على إيجاد المتلقي، على الرغم من كلّ الظروف الممانعة والشرسة التي مروا بها.

وللتمثيل لا الحصر، فربما يتصور كثيرون أن الإمام زين العابدين صلوات الله عليه قد اعتكف بعيداً عن الواقع الاجتماعي والسياسي، وانصرف إلى الزهد في الحياة بعد مقتل والده الإمام الحسين صلوات الله عليه مع كلّ ما وسم عصره من ظروف أمنية وسياسية خانقة في أيام طغاة بني أمية يزيد ومروان وعبد الملك، ومع ما فيها من أحداث سياسية صاخبة ليست بعيدة عن الإمام صلوات الله عليه، كما هو الحال في ثورة التوابين وحركة المختار الثقفي وواقعة الحرة، وقد يستغل هؤلاء حينما يرون انصراف الإمام عليه السلام إلى الدعاء والحزن السلبي على الإمام الحسين (بأبي وأمي) وأعمال التزهد وعتق الرقاب، في وقت كانت الدولة الأموية في حال توسع مما جلب لها كثيراً من الإماء والعبيد.

ولكن واقعَ حالِ الإمام صلوات الله عليه كان يحكي قصة جديدة من قصص الإلقاء بطريقة لم يلتفت إليها بنو أمية إلا بعد فوات الأوان، مما دعاهم إلى قتله (بأبي وأمي) ولولا ذلك ما فعلوا، فالأدعية مشحونة بالأفكار التي يريد الإمام عليه السلام بثها، ولا أشك في أن أية قراءة فاحصة ضمن هذا المجال لأدعية الصحيفة السجّادية - على سبيل المثال - ستؤدي إلى اكتشاف هذه الحقيقة بوضوح تام، فلقد أودع الإمام عليه السلام في مضامين الدعاء كثيراً من الأفكار الكفيلة بمعالجة المشاكل التي تعاني منها المجتمعات، ولا سيما أثناء الهزات الاجتماعية الشديدة.

فالمجتمع الذي عبثت به التربية التي تعاقبت من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأثرت فيه الحوافز المادية، وأضعفت فيه القيم الروحية، كان لا بُدّ للإمام عليه السلام من أن يؤدي واجبه تجاه هذه القضية التي تُعَدّ إحدى المحاور الأساسية في صناعة النخبة من المؤمنين وتعميق محتواهم، بينما كانت سياسة عتق العبيد واحدة من أنجح السياسات الهادئة التي أثمرت عن عملية انتقائية لرجال ونساء سيلعبون أدواراً متعددة في أقوامهم المتأثرة بالحيف الذي سلط عليها نتيجة توسعة الأمويين لسلطانهم، وكان الإمام صلوات الله عليه يعمد لإبقائهم سنة في بيته أو قريباً منه، وهناك كانت تجري عملية تنمية عقائدية وروحية وعلمية أشبه بمعهد لإعداد

النخبة من الأصحاب.

ولهذا تلحظ أن بعضاً من كبار هذه النخبة التي لعبت دوراً كبيراً في عهده وعهد الإمام الباقر عليهما السلام كانت من نتاج تلك العملية، وكلّ ذلك كان يجري بهدوء تام بعيداً عن أنظار السلطة المشغولة عادة بالتعامل مع المظاهر الخارجية، وكانت ترى في عمل الإمام عليه السلام نمطاً من أنماط الانصراف إلى أعمال البر والإحسان بالأسرى، فيما كانت رسالة الحقوق بمنزلة حركة هادفة بعيدة الأغوار في مجال الوعي بالحقوق الاجتماعية والسياسية، وهي من شأنها أن تضفي على المجتمع أجواء العدل والتصالح الاجتماعي، لأن هذه الأجواء كفيلة بتمرير عملية التربية الربانية المسؤول عنها الإمام صلوات الله عليه بانسيابية مطلوبة أكثر من الأجواء الاجتماعية المتأزمة.

ونفس الأمر نجده في مسألة حجز الإمام الهادي صلوات الله عليه من قبل المعتصم العباسي في سامراء، وكانت آنذاك معسكراً لجند بني العباس من الأتراك، وكان المطلوب منع الإمام صلوات الله عليه من أن يجد بيئة يبث فيها أفكاره وعلومه من خلال حشره مع الأتراك الّذين لا يجيدون العربية، وإذا بالعباسيين يكتشفون أن الإمام عليه السلام قد غزا المعسكر، وأصبح ذا تأثير كبير في قياداته وأفراده، بل تحوّل بعضٌ منهم بولائه إلى الإمام صلوات الله عليه لا إلى السلطة العباسية.

وعليه، فإنّ ما أُريد أن أخلص إليه، هو أن فهم النص يحتاج إلى الإلمام الكامل بكلّ ظروفه، ومنها ظروف الإلقاء والتلقي؛ إذ إن إغفالها قد يؤدي إلى نقص في الصورة المطلوب رؤيتها كاملة داخل أو من خلال النص.

ومن نافلة القول إنّ فهم أصحابهم أو الرواة للرواية لا دلالة فيه بالضرورة على مراد الإمام صلوات الله عليه، فهم وإنْ كانوا في عصر النص، ولكنهم محكومون بنفس العوامل التي تحكم غيرهم، فقد يشتبهون في فهم المراد، وقد تنقصهم رؤية بعض أجزاء الصورة، فيتخلفون عن إدراك المقصود، وهكذا.

فلو أمعنا النظر في طبيعة التلقّي الذي حصل لدى عبد الله بن جبلة ـ وهو ثقة، ومن الفقهاء الكبار، وإن كان من وجهاء الواقفة[1] ـ وهو يسمع رواية ذريح المحاربي عن الإمام الصادق صلوات الله عليه في شأن أحاديث جابر بن يزيد الجعفي، قال:

---

١ انظر: رجال النجاشي: ٢١٦ رقم ٥٦٣ .

قلت لأبي عبد الله عليه السلام بالمدينة: ما تقول في أحاديث جابر؟ قال: تلقاني بمكة؛ قال: فلقيته بمكة، فقال: تلقاني بمنى؛ قال: فلقيته بمنى، فقال لي: ما تصنع بأحاديث جابر؟! إلْهُ عن أحاديث جابر! فإنها إذا وقعت إلى السفلة أذاعوها.

قال عبد الله بن جبلة: فاحتسبت ذريحاً سفلة.[1]

وهذا التلقّي كان في غاية السوء، فمراد الإمام عليه السلام شيء، وما خرج به ابن جبلة شيء آخر، فلو كان ذريحاً من السفلة لمَا أجابه الإمام صلوات الله عليه بما أجابه؛ إذ يكفي مثل ذلك للتشنيع، وغاية ما في الأمر أن الإمام طلب عدم التحدث بأحاديث جابر أو التكتم عليها؛ لأن بها من الخصوصية والعمق ما لو سمع بعضها سفلة الناس وجهّالهم لاتخذوه طريقاً للتشنيع والإساءة.[2]

ويمكن ملاحظة ذلك في شأن التلقّي الذي أوقع عدداً لا يستهان به من العلماء المحققين، نتيجة لرواية الكشّي في شأن محمد بن سنان، بإسناده قال: ورأيت في بعض كتب الغلاة، وهو كتاب الدور ـ وساق السند إلى أن قال: ـ عن محمد بن سنان، قال: دخلت على أبي جعفر الثاني عليه السلام فقال لي: يا محمد! كيف أنت إذا لعنتُك وبرئتُ منك، وجعلتك محنة للعالمين أهدي بك من أشاء، وأُضلّ بك من أشاء؟

قال: قلت له: تفعل بعبدك ما تشاء يا سيدي، أنت على كلّ شيء قدير.

ثم قال: يا محمد! أنت عبدٌ قد أخلصت لله، إني ناجيت الله فيك، فأبى إلّا أن يضلّ بك كثيراً، ويهدي بك كثيراً.[3]

وقد أدّت هذه الرواية إلى الحكم على محمد بن سنان بالضعف والغلو، مع أن الأمر لا غلو فيه على الإطلاق، وإنما الخبر ينضح بحالة الإخلاص التي اتسم بها محمد بن سنان، فهو لا يَعُدّ نفسه إلا عبداً خادماً للإمام الجواد عليه السلام، ولذلك وضع نفسه موضع العبد بين يدي سيده ليقضي فيه ما يريد، وحديث الإمام الجواد صلوات الله عليه نفسُه لا شيء فيه من الغلو، فكم من الرجال كان محوراً للهدى والضلال، فالتاريخ مليء بهؤلاء، فمثلما وجدنا في السامري رجل محنة ضلّ بسببه

---

١ اختيار معرفة الرجال: ٦٧١ ح ٦٩٩ .

٢ وسيأتي مزيد حديث عن ذلك لاحقاً.

٣ اختيار معرفة الرجال: ٨٤٩ ح ١٠٩١ .

كثيرون، رأينا في غيره من الصلحاء ما كان مورد هداية لكثيرين، ولهذا فمن الطبيعي حينما تكون في الساحة طبقات من الوعي، قد ينظر بعض هؤلاء إلى رجالات الوعي والتغيير نظرة إجلال وتقدير في وقت ينظر إليهم غيرهم بنظرة الاحتقار والتقذير.

وهذا كلّه يوحي إلينا بأن النص المعصوم هو الحاكم، أمّا شرحه من قبل الآخرين، أو تفكيك عباراته، فهي ليست حاكمة بالضرورة، فقد يصيب الشارح في فهم المراد، وقد لا يصيب، والشواهد في هذا المجال كثيرة.

التبادر اللفظي أصل، ولكن

واحدة من المشاكل التي عانى منها حديث علامات الظهور هي مشكلة التبادر اللفظي ورغبة بعض الباحثين في أن يبقى التبادر اللفظي هو أصل الأصول المتقدمة على ما سواه في فهم النص وتعيين مراد الناص، ومع إن التبادر اللفظي هو بالفعل أصل، ولكن هذا الأصل قد يتنازل عن عرشه بسبب وجود قرائن صارفة عنه، ويتأكد ذلك في أحاديث الظهور فهي حينما أطلقها المعصوم صلوات الله عليه لم يك مخاطباً في مراد حديثه نفس من يتحدّث معهم، وإنما هي خصصت لأقوام أخرى ستأتي بعد من يتحدث معهم بعدة أجيال، ولهذا فإن التبادر اللفظي لن يكون حاكماً، فهذا التبادر يحكم من يتحدّث معهم، ولكنه قد لا يكون تبادراً في زمن الأجيال التي توخاها بالحديث، ولنضرب مثلاً على ذلك ما جاء في رواية عمر بن أبان الكلبي، عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: كأني بالسفياني أو لصاحب السفياني قد طرح رحله في رحبتكم بالكوفة، فنادى مناديه: من جاء برأس [رجل من] شيعة علي فله ألف درهم، فيثب الجار على جاره يقول: هذا منهم، فيضرب عنقه ويأخذ ألف درهم.(١)

فمما لا شك فيه إن التبادر اللفظي في قوله: شيعة علي ينصرف إلى شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ولكن حينما نلحظ القرائن المتعلقة به تغدو هذه المسألة موضع شك، فعلي هنا غير واضح الهوية إذ من العادة ان لا يطلق الأئمة صلوات الله عليهم إسم أمير المؤمنين صلوات الله عليه من دون تعظيمه بالسلام أو بالتحية والصلاة عليه رغم ان هذا ليس تعميماً على كل الروايات، والخبر هنا خال من ذلك تماماً، ويتأكد الامر حينما يكون الحديث عن الكوفة ويقصد بها هنا النجف وحومتها وهي التي تخلو من الوجود المناقض لشيعة أمير المؤمنين عليه السلام منذ أجيال عدة

---

١ غيبة الشيخ الطوسي: ٤٥٠ ح٤٥٣ .

من زمننا هذا وهو الزمن الأقرب للسفياني اللعين، والحديث عن وثب الجار على جاره يوحي بالعكس من هذه الحقيقة الموضوعية، مما يجعل الباحث أمام افتراضين لا ثالث لهما، أولهما أن يحتمل إجراء تغيير ديموغرافي كبير في داخل النسيج الاجتماعي في الكوفة بحيث يكون الوجود المناقض لشيعة علي صلوات الله عليه ناهضاً بما أشار إليه الخبر، وعندئذ يكون التبادر اللفظي في محله، أو أن يفهم الخبر بطريقة مختلفة، وهي أن يكون المراد بعلي في هذا الخبر غير أمير المؤمنين عليه السلام، ويكون له أنصار متميزون عما سواهم هم الذين سيكونون مورد انتقام السفياني وجنده، عندئذ سينتفي التبادر والحكم سيكون للقرائن الحافة باللفظ.

التعميم والتخصيص:

ومن جملة مظاهر هذا الحديث هو ظاهرة التعميم والتخصيص فيه، فهناك حديث عن علامات عامة، وآخر عن علامات خاصة، ومن دون التفريق بينهما سيتنكب الباحث في هذا الموضوع بعيداً عن طريق الدقة المطلوبة.

فمثلاً يجري التحدث عن جوع وقحط في الفترة التي تسبق ظهور الإمام صلوات الله عليه، وقد شاع في الثقافة الشعبية العامة أن هذا الجوع سوف يعمّ كلّ الفترة وكلّ الأماكن، ومن الواضح أن تتبع الأحاديث يشير إلى أن هذا التعميم مما لا دليل عليه، وإنما يراد به مقطع زماني محدد لمكان محدد أيضاً، فلقد وردت أحاديث عدة عن وقوع الجوع في الكوفة والشام مثلاً، ولكن التتبع يشير إلى أن الإمام عليه السلام يتحدث عن فترات تاريخية مختلفة، وقد عبّر في بعض الروايات عن جوع الكوفة والشام بطريقة لا تخصيص فيها لهما، فوَهِمَ المتوهمون أن الجوع سيكون ظاهرة عامة.

الملاحقة الموضوعية للأحداث:

كنا قد أشرنا سابقا أثناء الحديث عن بناء الواقعة التاريخية إلى ضرورة أن يتم تجسيم النص، ولأهمية هذا الموضوع أفردنا له حديثاً خاصاً هنا، لأني أجد كثيراً من القراء والباحثين يمرّون بالروايات مرور الكرام في هذا المجال، ويتركون قارءهم بعيداً عن مرامي هذه الروايات وغاياتها، وقد ضربنا بالكسوف والخسوف مثالاً لكيفية تجسيم هذا الموضوع، وسنحاول هنا أن نوضح الفكرة ونتوسع بها لأهميتها اللازمة، بل لعل هذه القضية واحدة من أهم المهام التي يجدر بالباحث أن يراعيها

تماماً.

وفي مقدمة هذا الموضوع لا بُـدّ من أن ننتهي من تثبيت حقيقة أن الأحداث حينما تقع، إنما تقع ضمن مستلزماتها الموضوعية، فهي لا تحصل ـ في الغالب ـ صدفة أو فجأة، بل هي مرتبطة بمجموعة كبيرة من الحيثيات التاريخية والسياسية والاجتماعية، وهي لا تحصل من فراغ، كما إنها لا تتنـزل من السماء، بل تعجّ بمفرداتها الموضوعية اللصيقة بها، فحينما نتحدث عن مظلومية ما، يجب أن نضع في حساباتنا أن هذه المظلومية لا تحدث من فراغ، وإنما هي نتاج أحداث اجتماعية وسياسية وأمنية متعددة، وتراكمات فكرية واقتصادية معينة، فيها ظالم ومظلوم؛ وسياسات ظالمة؛ وهذه تعني وجود نقض في الشرعية من جهة الظالم، وآلام ومعاناة وحيف من جهة المظلوم، وهكذا إلى بقية السلسلة التي تستلزم معطيات جديدة في تصوير المشهد.

فعلى سبيل المثال لو ورد في الحديث في معرض كلامه عن الزوراء بأن المار سيمر عليها ويقول: "ها هنا كانت الزوراء"[١]؛ فإن فهم الحديث بالطريقة الموضوعية يجب أن يقترن بمتابعة أحداث خراب الزوراء، وتأمُّل ما تعنيه كلمة الخراب بالطريقة التي يعرض لها الحديث، فهو مع اقتضابه، ولكن يجب أن نعطي لكلمة الخراب معناها الواقعي والتجسيدي بكلّ الأبعاد المتوقعة في عملية خراب مدينةٍ أو منطقة ما! ثم نشرع بوضع كلّ المعطيات التي تترتب على عملية الخراب هذه في الأبعاد المختلفة.

وحينما تتحدث الرواية الشريفة عن اليماني ـ على سبيل المثال ـ وتقول: "وأقبل اليماني"[٢]، بهذه الصورة المقتضبة، لا بُـدّ من أن يجمع الباحث أمامه عدد من الأسئلة التي تتداعى بشكل موضوعي من هذه العبارة المقتضبة، ولا يمر عليها مرور الكرام، فمن أين أقبل؟ وكيف أقبل؟ ومع من أقبل؟ فهل جاء بمفرده؟ أم مع جيشه؟ وإلى أين يتجه؟ وإلى مَن يتجه؟ وبماذا أقبل؟ ونظير هذه الأسئلة التي يجب أن يُجاب عنها بشكل موضوعي أيضاً.

فلو قُدّر ـ كما هو الموروث في الثقافة العامة ـ من أنه يُقبل من اليمن[٣]، فعلينا أن

---

١ مختصر بصائر الدرجات: ١٨٨ .

٢ الكافي ٨: ٢٢٥ ح٢٨٥ .

٣ في كتابنا "**راية اليماني الموعود**" اتجهنا إلى استبعاد أن يكون إقباله مع جيشه من اليمن،

نراقب كيفية إقباله إن كان الحديث عن إقبال بجيش؟ فكيف سيتحرك من هناك لكي يصل إلى العراق؟ فهذا الجيش لا يتشكل تجريدياً أو افتراضياً، وإنما هو واقع يتحرك ويتشكل من أفراد كثيرين، يحتاجون إلى الغذاء والوقود ووسائل النقل وطرق النقل، وبالتالي ما هي سبل الدعم اللوجستي وحجمه التي يحتاجها تحرك مثل هذا الجيش في كلّ هذه المسافة؟ ومن أين سيتم تأمين هذه السبل؟ ثم من أي حدود سيستطيع أن يدخل منها إلى العراق لكي يقاتل السفياني؟

فلو قلنا بأنه سيأتي منفرداً إلى العراق وسيجمع جيشه هناك، احتجنا إلى أن نحسب المدة الزمانية التي يمكن له أن يكون مقبولاً لكي يضحّي الناسُ بين يديه بأنفسهم وهم من شعب عُرف عبر الزمن بصعوبة انقياده ومشقة تسليمه الولاء بطواعية؛ مما يعني أنه يجب أن يكون ما بين أمرين:

فهو إما أن يحمل معه ما يزكّيه لديهم، وهذا ما يعني أن يكون معرَّفاً من قبل جهة لها حاكمية على ولاءات الناس، كالإمام المنتظَر (روحي فداه)، أو المرجعية الدينية العليا.

والأول غير وارد؛ لعدم قدرة أي أحد بالتحدّث عن أن لديه أمراً مباشراً من الإمام صلوات الله عليه حتى لو كان ذلك صحيحاً[1]؛ لوجود النهي الصريح بذلك وأمر التكذيب له كائناً من كان، ففي آخر التوقيعات التي صدرت عن الإمام الحجة (روحي فداه) جاء فيه قوله لآخر نوابه علي بن محمد السمري (رضوان الله عليه): "يا علي بن محمد السمري..." إلى أن يقول: "وسيأتي شيعتي من يدّعي المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كذاب

وناقشنا الروايات الواردة بهذه الخصوص ضمن تفصيل يُطلب هناك وسنناقش جانباً منه في الفصل السابع من هذا الكتاب.

١ هناك من ادعى في زماننا هذا مثل هذه الرؤية فصدّقه الناس اغتراراً وقلة وعي، وذاع صيته في الآفاق ونشر كتاباً حول اللقاء بالإمام صلوات الله عليه، وراح يخدع الناس بحلاوة الحديث عن الإمام عليه السلام واللقاء به، إلى أن فضحه الله تعالى بجريمة قتل اثنين من مريديه كانا قد تزوجا للتو، وقد أراد مراودة الزوجة بدعوى أنه أمر الإمام (بأبي وأمي)، وقد كشفت هذه الجريمة كثيراً من جرائمه ومناكيره، التي كان منها الزواج من ثلاثة أخوات في وقت واحد، والزواج من امرأة طلقها هو للتو من زوجها وباشرها في نفس اليوم، وكلّ ذلك بدعوى أن الإمام صلوات الله عليه كلّفه بذلك!!

مفتر"[1]، ولهذا يغدو هذا الأمر منتفياً.

وأمر المرجعية ليس بأسهل، بل هو أصعب بالنسبة إلى قبول الناس، مما يعني أنه سيحتاج إلى وقت كبير جداً لكي يكون مقبولاً من قبل الناس لكي تقاتل بين يديه حتى الموت، مما يعطينا خيارات جديدة قد تنفي مسألة اليمن برمتها، كأن تجعلنا أمام خيار أن يأتي إلى العراق قبل مدة مديدة ويستقر في العراق لكي تبرز قيادته ومقبوليته بناء على العوامل الموضوعية لنشأة القيادات الاجتماعية والسياسية.

وإما أن يجيء مع جيشه، فيجب أن يتم التفكير بدقة بكيفية حركة هذا الجيش ضمن ظروف أهونها إغلاق الحدود السعودية، التي ستكون خاضعة لحكم مضاد للإمام صلوات الله عليه، وإغلاق الحدودين الأردنية والسورية بسبب خضوعها للسفياني، مما يجعل طريق البر والبحر والجو مغلقاً بوجه اليماني لكي يصل إلى العراق.

هذا، فضلاً عما يعني ذلك من أنه يحكم اليمن قبل ذلك ليتحرك بجيشه بهذه الصورة التي يجب أن تتكامل في ذهن الباحث بمتطلباتها المادية الكبيرة، سواء على مستوى العدة اللوجستية، أو على مستوى الاستعدادات المطلوبة في هذا المجال، وكل هذه المتطلبات تحتاج الى يمن غير هذا اليمن الذي تعرفه حالياً على المستوى الاقتصادي والاجتماعي على أقل التقادير. وهذا مما لا يجد الباحث أي دليل يدل عليه، ولهذا عليه أن يفتش عن خيارات أدق تتناسب مع هذه الجملة المقتضبة «وأقبل اليماني» بشكل لا يتعارض مع الروايات الواردة في هذا الشأن.

وكلّ ما أرمي إليه هنا هو الإشارة إلى أن الأحاديث الشريفة ليس مهمتها التفصيل في كلّ شيء، ولكنها حينما تتحدّث بأمر ما، يجب أن نتلقاها نحن ضمن كلّ الأبعاد الموضوعية لما تتحدّث عنه، ونترك الاتجاه الذي يقرأ ألفاظاً مجردة ولا يتوغل إلى تجسيدها لكي يعرف المستلزمات المطلوبة، فعبر تجسيم هذه الأحداث نعرف ما هو المطلوب منا، وكيف نتعامل مع استحقاقات هذه الأحداث، وللأسف الشديد نما في أوساطنا وعي تسطيحي لمثل هذه الأُمور، بالصورة التي جعل الصورة الحقيقية للأحاديث مموّهة مشوّشة في ذهن قارئها بالشكل الذي لا يجد فيها التكليف المطلوب، أو في كثير من الأحيان لا يُلزم نفسه بأي تكليف يترتب عليها، وكأنها تتحدث عن جزيرة الواق واق، وتخاطب الغول والعنقاء.

---

١ كمال الدين وتمام النعمة: ٥١٦ ب٤٥ ح٤٤، وكتاب الغيبة للشيخ الطوسي: ٣٩٥ ح٣٦٥ .

ومن هنا نعرف أي مسؤولية كبرى تتوقف على الكتابة في مثل هذه المواضيع التي ربما عدّها بعضهم مادة للفضول، أو مادة يمكن أن يستدر بها جيوب قراء الكتب، بينما نتحدث عن حديث المعصوم صلوات الله عليه الذي بذل حياته من أجله، وهو حديث لا يوجّه للفراغ، وإنما يوجّه للبيئة الاجتماعية التي تؤمن به، وعلى هذه البيئة أن تتعامل مع هذه الأحاديث بمنطقها وواقعها الموضوعي، وتلزم نفسها بكلّ ما يترتب على ذلك من مسؤوليات وأعباء، مهما كانت ثقيلة وباهظة الكلفة؛ إذ ها هنا محط ركاب التمحيص في صدق الولاء والانتماء من عدمه.

*****

إن ما تم ذِكره يهدف إلى مراقبة جادة لمحتوى النص، وعدم الاكتفاء بمطالعة سطحية له، وإنما لا بُدّ من ملاحقة النص وظروفه وظروف منشئه وراويه ومتلقيه وطبيعة ما يتم التحدث عنه، وغايتي أن لا أثير المصاعب أمام الباحثين، كما أني لا أرغب في تعطيل عملية البحث كما سار عليها عدّة من الكتّاب والمؤلفين، فعلى الرغم من أن كثيراً مما كتب في هذا المجال يفتقد الدقة والموضوعية ـ تسامحاً أو تزمتاً ـ ولكن له فوائده.

ولهذا فإن ما يهمني جداً هو أن يبتغي القارئ الكريم طريق الدقة في التعامل مع النصوص المعصومة، وأن يستوفي مطالبها بشكل يليق بملقيها ومقامه صلوات الله عليه، وأن ينتبه إلى أن هذه النصوص أكبر من أن تكون مجرد نصوص بسيطة قيلت في زمن بسيط، بل هي تتحدث إلى زمن فيه كثير من التعقيد، ولهذا يجب أن يتقن فن تفكيك هذه العقد، والله الموفق.

معاناة وأسف

وأجد من الضروري في ختام حديثي في هذا الشأن أن أُنوّه إلى أمر تعاني منه ساحة المنتظِرين بشكل خاص، والمؤمنين بشكل عام، وهذا الأمر يتعلق بطبيعة الاهتمام بحديث المعصوم صلوات الله عليه في المجالات غير الفقهية، فمن الواضح أن مجال الفقه هو مجال العلماء المستنبطين للأحكام الشرعية ـ أي المجتهدين ـ، ولهذا نجد أن هؤلاء العلماء عملوا بكلّ ما في وسعهم من أجل تحليل النصوص الواردة في مجال عملهم وتفكيكها بالقدر الذي مكنهم من الوصول بالفقه الإمامي إلى احتلال المرتبة الأُولى في مجالات الغنى الفقهي والأُصولي قياساً إلى غيره من المذاهب الأُخرى.

ثم تفرع الحديث وتشعّب في هذا المجال إلى الفقه الاحتمالي[1]، وما من شك في أن الفقه الإمامي الاحتمالي هو الأوسع نطاقاً من فقه أي مذهب آخر، ولا سيما مع حالة باب الاجتهاد المفتوح عندنا وانغلاقه عند الآخرين، وما كان ذلك إلا لأن الحديث الذي يدخل في عملية الاستنباط قد حظي بأهمية كبيرة جداً لدى العلماء وقد تنامت مع الأيام، وكتب الفقه المتخصصة حافلة بهذا الاهتمام بشكل مشهود.

وقد تماشت عملية الجرح والتعديل للأسانيد والكتب التي أوردت هذا الحديث مع هذا الاهتمام، مما أدى إلى أن تحظى الأحاديث التي تتداخل مع ذلك بمقدار كبير من الاهتمام؛ لأنها لازمة أساسية لعملية الاستنباط.

ولكن لا بُدّ لنا من الإقرار بأن الأحاديث التي تناولت الجوانب العقائدية والقرآنية والتاريخية والأخلاقية وغيرها مما لا يدخل في عملية الاستنباط،لم تنل نفس القدر من الاهتمام والعناية، بل ربما يكتشف المرء في بعض الأحيان أنها إلى الجدب أقرب منها إلى الغنى، وبقيت لدينا في بطون الكتب الحديثية كماً غزيراً من هذه الأحاديث التي تحتاج إلى مزيد من العناية، إن لم نقل بأن أحداً لم يُعْنَ بها بشكل يتناسب مع طبيعة مصدرها، ولا نريد أن نذهب بعيداً، فهذا كتاب "الكافي" وهو أحد أهم مصادرنا الحديثية، يمكن لأي متخصص أن يلاحظ الفرق بين الاهتمام بأحاديث أُصول الكافي لدى حوزاتنا العلمية وبين الاهتمام بأحاديث فروعه، إذ سرعان ما سيخرج بنتيجة أن ما حظيت به الفروع أكثر بكثير مما حظيت به الأُصول؛ لأن فروع الكافي متخصصة بالأُمور الفقهية، بينما الأُصول ظل متأخراً بدرجة الاهتمام، لأنه معنية بشكل أكبر بالجوانب الأُخرى غير الفقه، وأعني بذلك الجوانب العقائدية والتفسيرية والمعنوية بشكل عام، فما بالك ببقية الكتب التي لها عناية خاصة بالمسائل غير الفقهية؟!

ولن تستغرب لو وجدت مثلاً كتابَي **"التوحيد"** و **"كمال الدين وتمام النعمة"** للشيخ الصدوق، وكتاب **"بصائر الدرجات"** للشيخ محمد بن الحسن الصفار، وكتاب **"كامل الزيارات"** للشيخ ابن قولويه، وكتاب **"الغيبة"** للشيخ النعماني، وكتاب **"الغيبة"** للشيخ الطوسي، وكتابَي الحسين بن سعيد **"الزهد"** و **"المؤمن"**، وكتاب **"المحاسن"** للشيخ البرقي، وغالبية كتب الشيخ المفيد الحديثية، تعيش غربة

---

[1] الفقه الاحتمالي هو الفقه الذي يتحدث عن احتمالات قد تحصل في الواقع الخارجي وقد لا تحصل أصلاً، ولكنه يضع أمام إمكانية حصولها وحدوثها البدائل الفقهية المطلوبة.

بيّنة جداً، وربما تم النظر إليها بعنوانها من الكماليات في العلم، مع أن هؤلاء من أكابر علمائنا العظام، ليس لسبب إلا لأن كتبهم لا تمس الجانب الفقهي وما يرتبط بعملية استنباط الحكم الشرعي كثيراً، والعلماء معنيون أولاً بالكشف عن الواجب والمحرم والمستحب والمكروه والمباح.

ولا شك أن الظرف الفكري والتاريخي والاجتماعي الذي عاشه التشيع في فترة الغيبة الكبرى قد ترك بصماته بشكل واضح على طبيعة التعامل مع هذه الأحاديث، وتظهر سيرة الأئمة صلوات الله عليهم توازناً في الاهتمام بكلّ الجوانب التي تحدّثنا عنها، مع تركيز واضح على الجانب العقائدي، ولكن هذا الظرف جعل الحوزات الشيعية وعلماءها تعيش معاركها الخاصة، وهي إن خرجت من وضعها الخاص نجد أنها تطل إطلالة كبيرة نسبياً من خلال مسألة إثبات الإمامة وما يتعلق بها من الفضائل، باعتبار أن خصوم أهل البيت (بأبي وأمي) وسّعوا من هجومهم الفكري والعقائدي، نتيجة لظروف سياسية محددة كانت رقاب الشيعة تُحصد بالآلاف في زمن الأيوبيين والسلاجقة والمماليك، ومنذ انحراف سليم الأول العثماني عن خط أسلافه، فلقد كان الرجل معروفاً بنصبه، وفي عهده صدرت فتاوى قتل الشيعة، وباعتبار أن الشيعة توسعت قاعدتهم الشعبية، وأصبحوا قوة لا يمكن أن يستهان بها، واستفادوا من حالة التسامح التي وسمت عهد البويهيين وعهد الفاطميين في مصر، وكذا من حالة الاندفاع التي ميّزت عهد الصفويين في إيران.

وهكذا تجد كتاب "**الشافي**" للشريف المرتضى و "تلخيصه" للشيخ الطوسي، وكتب الشيخ المفيد، وكتب العلامة الحلي بشكل عام، والقطب الراوندي، والمحقق الكراكجي، والسيد ابن طاووس، والشيخ الإربلي، والشيخ ابن شهرآشوب، وغيرهم من الأكابر، إلا أن ما يلحظ هو أن الانشغال العام كان ينصبّ على مقام إثبات الإمامة، ومما لا شك فيه فإن هذا جهد كبير وعظيم، لكن ستجد أن هناك أبحاثاً نادرة جداً في مجال مباحث معرفة الإمامة، وهو على الرغم من كونه مبحثاً خاصاً إلا أن الافتقار إلى إغنائه وتأصيل مباحث هذه المعرفة هو من أوضح الواضحات، وعلى الرغم من أننا قد نجد بحثاً هنا أو هناك في بعض المتون الفقهية وشروحها يدخل عرضاً في هذه المتون ليس إلا لكونه دخل أو تداخل بطريقة أو أُخرى في مجال من مجالات الاستدلال الفقهي أو الأُصولي.

وما يؤسف له أن بعض باحثينا وعلمائنا الأعلام في زمننا هذا ما زالوا منشغلين

بنفس ما كان أسلافهم قد انشغلوا به[1]، وهو عمل عظيم لا يستهان به، ولكن ظل الجانب الحديثي الخاص بالجوانب غير الفقهية يعاني غربة كبيرة على الرغم من وطأة الشبهات التي حاول بعض مرضى العقول والقلوب من داخل وخارج الساحة أن يبثّوها.

ولكن يلحظ في الجهود المتأخرة من نمو حالة الاهتمام في الجوانب العقائدية لدى بعض أكابر علماء الحوزة العلمية وفضلائها ما يبعث على الاطمئنان والسكينة، كما هو الحال في الاهتمام الكبير الذي أولاه المراجع المعاصرين وعلى رأسهم الإمام الخميني والميرزا جواد التبريزي والشيخ الوحيد الخراساني والسيد علي السيستاني والسيد محمد سعيد الحكيم والسيد علي الخامنئي، رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقين وأمد في ظلهم.

ولا شك أن علماءنا المتقدمين كانوا يعانون من مشكلة وفرة الكتاب الشيعي، ولكن بعد عصر العلامة المجلسي في **"بحاره"** والشيخ الحر العاملي في **"وسائله"** انفتحت آفاق المجاميع الحديثية، فلحق بهم الشيخ الفيض الكاشاني في **"الوافي"**، والشيخ الميرزا حسين النوري في **"المستدرك على الوسائل"**، ثم السيد البروجردي في **"جامع أحاديث الشيعة"**، وغيرهم (أعلى الله مقامهم)، فإن هذه المشكلة قد ارتفعت، وأصبحت الكتب الحديثية بمجموعها متوفرة تحت الأيدي، ولم تعد حصراً بيد طبقة العلماء، وقد ساعد على ذلك وفرة المال ورخص ثمن الكتاب النسبي، وجاء الإنترنيت ليلقي بظلاله الواسعة على عملية نشر الكتاب ويسر الحصول عليه، ولا شك أن هذا الانتشار يحمّل الطبقة العلمائية والمثقفين الرساليين مسؤولية إضافية لا يمكنهم أن يتخلوا عنه.

وما من شك أن مطالعة هذه الأحاديث من قبل العلماء أمر يسير فهمه، ولكن المشكلة أن الشارع الشعبي متعطش لفهمها كما أراد الأئمة صلوات الله عليهم فهمها حينما تحدثوا بها، ولكن هذا التعطش ما من رواء سريع له على ما يبدو وللأسف، مع

---

١ من دواعي الاطمئنان ما يتم تلمسه في جهود الأفاضل السيد جعفر مرتضى العاملي والسيد علي الميلاني والسيد كمال الحيدري والشيخ جوادي الآملي والشيخ مصباح اليزدي والشيخ جعفر السبحاني والشيخ محمد السند والسيد علي الشهرستاني والأخ الأكبر الشيخ محمد حسين الصغير، وغيرهم من الأفاضل، الّذين شمروا عن سواعد الجد المشكورة في هذه المجالات، وقد ذكرت الأسماء لا على نحو الأعلمية أو الأفضلية، كما إني ذكرتها للتمثيل وليس للحصر، وأعتذر سلفاً عمن قد أكون أغفلت ذِكره، وعذري أن المجال لا يتسع للاستطراد.

ما نلحظ من وجود وعي لهذه الأُمور أكبر من ذي قبل، ولكنه ما زال دون المطلوب، ففي قبال عشرات الكتب التي تصدر في الجوانب الفقهية والأُصولية ربما يعزّ عليك أن تجد كتاباً عقائدياً متخصصاً في هذا المجال ضمن الأُفق الذي أراده أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.[١]

أما لو تشعبنا في الحديث إلى تفسير القرآن الكريم والأحاديث المرتبطة به وكذا علوم القرآن وما يرتبط بها، فإن الحديث هنا سيكتسي مسحة مؤلمة جداً، فعلى الرغم من الجهد العظيم الذي بذله أكابر مفسرينا كالشيخ الطوسي في «**تبيانه**»، والطبرسي في "**مجمعه**"[٢] وصولاً إلى التفاسير المتأخرة، فإنّا نجد أن غالبية ما تم الكتابة عنه، إنما كان محاكاة لمعارك التفسير في كتب الآخرين، ولو استثنينا الجهد الكبير الذي بذله العلامة الطباطبائي في "**ميزانه**"[٣] والإمام الخوئي في "**بيانه**"[٤]، فإن المفسرين

---

١ لا نقصد بذلك كلّ الكتب العقائدية، فكثير منها تلبي أغراضاً مهمة، ولكن ما عنيناه الكتب العقائدية التي تدخل إلى عمق عقائد أهل البيت صلوات الله عليهم، لا تلك التي تبقى في سطحها، إذ إن المكتبة الشيعية لا نعاني من ندرة الكتب التي تتحدث في إثبات الإمامة وما يرتبط بمسائل الخصام العقائدي، ولكن مما لا ريب فيه إن هناك معاناة جادة ومؤسفة في الكتب التي تتحدث عن شؤون معرفة الإمام صلوات الله عليه وخصائص الإمامة.

٢ كتابا "**التبيان**" و «**مجمع البيان**" وضمن ظروف عصرهما يمثّلان عملاً رائداً ولا شك، ولكن من الملاحظ بسهولة أنهما تعمّدا خلط الموقف الإمامي من تفسير الآيات في عرض مواقف الآخرين، مما قد يشكل على القارئ غير المميّز أن يفكّك في المواقف، ففي "**التبيان**" نلاحظ تماشياً مع منهج الطبري في تفسيره، وفي "**المجمع**" محاكاة للزمخشري في "**كشّافه**"، ولا يعني هذا أنهما تأثرا بالكتابين، ولكن ظروف عصريهما لم تسمح بانفراد التفسير بالرأي الإمامي، وهما بهذه الطريقة تمكّنا من إدخال بعض التفسير الإمامي إلى داخل ساحات غير الإمامية كما هو بيّن بوضوح.

٣ لا شك ولا ريب أن تفسير "**الميزان**" يعدّ من أهم تفاسيرنا إن لم نقل بأن أحداً لم يقارب ما وصل إليه في التفسير لحد الآن، ولكن يلاحظ عليه أولاً أنه في بحثه الروائي قد خلط حديث العامة مع حديث الخاصة بطريقة قد لا يسهل التفكيك بينهما، ولا سيما للقراء من ذوي الثقافات المتوسطة فما دون، وثانياً أنه لم يتوقف عند الآيات المتعلقة بمقامات أهل البيت صلوات الله عليهم وخصائصهم، وإنما مر عليها مروراً سريعاً في غالب الأحيان.

٤ من دواعي الأسف الشديد أن الإمام الخوئي (قدس سره) لم يكمل كتاب «**البيان في تفسير القرآن**»، وأبقاه في أبوابه الأُولى، ولكن يمكن ملاحظة محاولة جادة منه ورائدة في مجال تأصيل أُسس علوم القرآن لدى الإمامية، ونزوعاً واضحاً باتجاه التفسير الإمامي للقرآن، ولولا وجود جهد تلميذيه الشهيدين الباقرين الصدر والحكيم (قدس الله أسرارهم جميعاً) في مجال علوم القرآن

لم يستطيعوا أن يبلوروا الفهم الإمامي الخاص بالقرآن بالطريقة المنهجية، وليس من المستغرب أن تجد أن تأثراً كبيراً، أو في أحسن الحالات تماشياً مع ما يوجد في تفاسير الآخرين، ولقد لمسنا منذ عهد العلامة الحويزي في **نور الثقلين** ـ وهو من أهم تفاسيرنا في هذا المجال ـ، والفيض الكاشاني في **الصافي**، ومن قبلهم الشيخ العيّاشي في تفسيره ـ على الرغم من خلل الأسانيد فيه[1] ـ، جهداً متميزاً للعودة إلى أُصولنا في مجال التفسير وعلومه، ولكن للأسف الشديد لم تجر العناية بهذا المنهج بالطريقة التي تتناسب مع مدرسة تُعَدُّ هي الأَوْلى من غيرها في تفسير القرآن وتبيان علومه.

خصوصاً، مع تنقيحات الشهيد الحكيم، لكان الوضع في حال يرثى لها، خصوصاً حينما يطّلع المرء على كتابات بعض الأكاديميين ويرى حجم التأثر الذي تركه السيوطي والزركشي والزرقاني ونظراؤهم فيهم، من دون تنبّههم إلى المطبات العقائدية الضخمة في مجالات متعددة، خصوصاً في مجال مباحث القراءات القرآنية والناسخ والمنسوخ ومباحث المكي والمدني.

١ كان الناسخ لكتاب الشيخ العيّاشي قد قام بحذف أسانيد الكتاب رغبة منه بالاختصار، وقد ضيع علينا بعمله هذا فرصة التعرف على منابع الأحاديث وأسانيدها.

المبحث الثالث

طبيعة صاحب النص

نحن لا نتعامل مع نص قاله صاحبه، وهو لا يقصد كلّ حرف تلفظ به أو كتبه، بل نحن نتعامل مع نص تميّز ملقيه المعصوم صلوات الله عليه بالهدفية الكاملة من كلّ حرف استخدمه في النص، مع إدراك كامل لمراعاة كلّ الحيثيات والقرائن الحافة به، ولهذا فإن واحدة من المهام الأساسية في شأن إدراك المراد من النص، هو فهم ملقيه وما يطمح إليه، وطبيعة الدور الذي يحمل أعباء مسؤوليته، وكذا طبيعة السياسة التي يعتمدها في بلوغ أهدافه وغاياته، وقد تحدثنا في غير موضع عن معالم هذا الفهم، وما سنركز عليه هنا هو ذِكر أهم الأُمور الخاصة بالتحدث عن علامات الظهور، وقد تركنا الحديث عن الأُمور العامة لموضعها الخاص، لكن يجب أن ننبّه إلى أن المبحث السابق تضمن كثيراً مما هو متداخل في الأصل مع هذا المبحث، فلئن تحدثنا عن ضرورة استدراك الظرف الموضوعي الحاف بالنص، فإن ذلك يجري أيضاً بالنسبة للظرف الموضوعي الحاف بالناصّ عليه السلام.

الإعجاز وعلامات الظهور:

من يراقب حركة المعصوم صلوات الله عليه يجد أن حركة المعجزة نادراً ما تستخدم في حركته الاجتماعية، فهو يعاني ويتألم كما يعاني ويتألم الناس، ويتحرك في حركة إرساء معالم الهداية الربانية في الأُمّة ضمن الوسائل الطبيعية المتاحة لبقية الناس، ويتأثّر بكلّ القوانين الاجتماعية مثله مثل أي فرد من أفراد المجتمع، ولهذا تم قتلهم وسجنهم والاعتداء عليهم صلوات الله عليهم دون أن يفعّلوا أي إرادة خارج الحدود الطبيعية للساحة الاجتماعية.[1]

---

١ المعجزة تفسر بأنها العمل الذي يحصل بخلاف النظام الطبيعي، وهذا التفسير يتفاوت من شخص إلى آخر وفقاً لعلمه أو جهله، فلربما حسب كثيرون. في وقت من أوقات الستينيات من القرن الماضي. أن الصعود إلى القمر كان عملاً إعجازياً، بينما بات هذا العمل في نظر نفس هؤلاء من القضايا الطبيعية التي لا خلاف فيها مع النظام الطبيعي، وذلك حينما بلغ بهم العلم حداً تيقنوا فيه بأن

الأمر لا يُعَدّ معجزة خارقة.

وفي الوقت الذي يبرز لنا قوله تعالى في قصة عرش بلقيس: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ [النّمل: ٤٠] أن عملية النقل فائقة القدرة من الناحية التقنية، والتي تبدو وكأنها خرق للنظام الطبيعي كانت طبيعية جداً لدى مَن عنده علمٌ مِن الكتاب ولدى سليمان عليه السلام، مما يفسّر أنهما لم يفسراه بعنوانه عمل إعجازي، بدليل أن سليمان عليه السلام حينما خيّر بين إمكانيتين عظيمتين في مجال النقل، حتى إنهما ما زالا فوق التقنيات المعاصرة، وأعني الإمكانية التي عرضها عفريت الجن، الذي عرض إمكانيات الجن الفائقة في جلب العرش قبل أن يقوم من مقامه، والإمكانية التي عرضها مَن وُصف بأنه لديه علم من الكتاب، وهو أن يأتي بالعرش قبل أن يحرك رمش عينه، فاختار دون أي استغراب الخيار الثاني، وواضح أن عدم الاستغراب كان دليلاً على أنه لم يفهم الأمر بطريقة الإعجاز الخارق للتكوين الطبيعي للأشياء.

وحينما يطرح القرآن وصف من قام بذلك بأن لديه نمط من العلم الخاص أظهر أن هناك قوانين علمية تمكن هذا الرجل من الوصول إليها من دون أن تكون هذه القوانين فيها خرق للنظام الكوني، وكنّا قد أشرنا في كتابنا **«الولاية التكوينية الحق الطبيعي للمعصوم عليه السلام»** إلى أن ما يسمى بالإعجاز هو ليس إعجازاً بالوصف الحقيقي للكلمة، وإنما هي قوانين علمية يجري تفعيلها بطريقة لم يطّلع البشر عليها، لعدم تقدم علومهم إلى الدرجة التي تكشف ذلك، ولكنها موجودة في النظام الكوني، الذي لا نحدده في بعده المادي والمرئي فقط، مثلها مثل أي حقيقة علمية اكتشفت حالياً وكانت مخفية سابقاً.

فلا شك ولا ريب أن خلق المعادلات الأيونية الخاصة بنظام أجهزة المايكرويف العادي والمستخدم في المطابخ ـ مثلاً ـ الذي يتسبب بحرارة دون لهب ودون نار، لو تم التحدث عنها في أجواء لا تعرف الأيونات ولا تعرف خصائصها، ولا المايكرويف وطبيعة عالمه، فإن الحديث عن ذلك سيكون حديث المعجزة لدى المتلقين، بينما هو عمل طبيعي لا يتضمن أي تبادر للإعجاز في نظر من يرى عمل المايكرويف الآن بعد الاطلاع على ذلك العالم ومعرفته.

وكما هو حال اليوم حينما أقرّت الأمم المتحدة بوجود عوالم أخرى خارج نطاق الكرة الأرضية فعيّنت سفيرة لها للتواصل مع هذه العوالم، فلو كان هذا الأمر قد تم قبل عدة عقود من الزمن لكان العمل مجرد خرف منها، ولكن لكثرة المشاهدات والحوادث المرتبطة بما يسمى بـ (UFO) جرى استقبال الخبر الصادر من مكتب الأمين العام للأمم المتحدة كحالة طبيعية ولا تنمّ عن حالة خارج الإطار العقلائي.

ولذلك نحن نتبنى الرأي الذي يقول بأن المعجزة التي يتصورها الناس بأنها خرق للنظام الكوني، ليست هي كذلك بالضرورة، وإنما هي استفادة من قوانين موجودة بالفعل في النظام الكوني ولكنها غير معروفة من البشر بتقنياتهم المعاصرة، وتغليب هذه القوانين على قوانين مألوفة لدينا كقوانين المغناطيسية والحركة وما إلى ذلك، ولهذا يبدو لمن لا يرعى ذلك بأن الخروج عن عالم هذه القوانين وكأنه خرق للنظام الكوني وهو ليس كذلك.

إن هذه القوانين أودعها الله تعالى في هذا النظام وتضمنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا

ومن المقطوع به أنّ ذلك لا ينمّ عن عجز عن استخدام أساليب تعجز قدرة المعتدين لو أرادوا، فإن قدرتهم فوق قدرة من استخدم هذه الأساليب من الأنبياء والأولياء الّذين سبقوا الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله، ولكن طبيعة سياقات العملية التغيرية الربانية شاء الله وشاءت حكمته أن لا تنفّذ هذه العملية عن طريق القهر الاجتماعي والقسر أو الإقناع بالطرق الغيبية، وإنما لتعتمد أُسلوب الإقناع الذاتي ولو بصورته الارتكازية الأُولى، وذلك وَفقاً لما أشار إليه القرآن الكريم من معادلات وقوانين اجتماعية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]

فالتغيير هو من أجل هداية هذا الإنسان طواعية، ولا يمكن التحدّث عن هداية بالإجبار أو بالقسر، وحتى إحداث العمل المعجِز إنما كان ليسهّل الأمر على وعي الإنسان لعملية القبول بمقتضيات الهداية الربانية، كما لا يمكن التحدّث عن تغيير رباني بالإكراه، فلو كان للإكراه موقعٌ فلماذا خلق الله سبحانه وتعالى طرق الهداية لهذا الخلق إذاً؟! بل لماذا خلقهم؟! وهو الذي عنون هدف الخلق بالعبودية له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2] فيجبرهم منذ البداية على أمر عبادته، ولن يستطيع أحد أن يتخلف عن هذا الإجبار بأي شكل من الأشكال!!

ولو كان ثمة مجال للإجبار، فلماذا يتمّ التحدث عن تفوق بعض الناس وتخلّف آخر في مجالات الهداية نفسها؟! بحيث يدخل بعضهم الجنّة ويدخل بعضهم الآخر في النار! فالكلّ مجبرون، فلماذا التحدث عن جنة ونار وحساب وعقاب وثواب وما إلى ذلك؟!

ولهذا، فإن من الطبيعي أن نقول بأن الإمام صلوات الله عليه في حركته التغييرية، وفي مجالات إعداد الأُمّة أو الجماعة المهتدية، لن يستخدم الطرق الإعجازية كأساس في عملية الهداية التي يتوخاها، بل سيتوسل في كلّ الأحوال بالوسائل الطبيعية في إحداث التغيير المطلوب، سواء في أحداث الظهور أو ما بعده أو ما قبله، فهو رائد حركة ربانية للتغيير الاجتماعي، وقد جرى الحديث المكثّف في القرآن

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠] وهي لا تخضع بالضرورة لنفس شروط وبيئة القوانين المألوفة لدينا، ولكن لها اطّرادها الخاص بالقوانين وهيمنتها على محيطها، ولكن العلم بها يحتاج إلى آليات مختلفة عن آليات التلقي العلمي المعتاد، وقد تحدثنا عن ذلك بشكل مفصل في أبحاثنا عن علم المعصوم صلوات الله عليه.

١ سورة الإنسان: ٣ .

٢ سورة الذاريات: ٥١ .

الكريم والروايات الشريفة عن طبيعة قوانين هذه الحركة واشتراطاتها ومستلزماتها، والتي تحكم بدورها الحركات التغييرية كافة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [2] وقوله تعالى كذلك: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [3].

وكما في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم». [4]

وهذه وأمثالها من النصوص المباركة تكشف عن أن عملية التغيير الاجتماعي إنما تتم وفق قوانين تتفاعل مع الإرادة الإنسانية بشكل خاص، وهذه الإرادة هي التي تفعّل القوانين المرتبطة بعملية التغيير.

وعليه، فإن تدخّل الإرادة المعجزة[5] في حركة الفرد والمجتمع سيفرغ عملية التغيير من محتواها، بل سيكون من باب أولى أن لا تتم عملية التغيير الربانية إن كان للأمور التغييرية أن تتم بطريقة التأثير الجبري على الإرادة الإنسانية، فالله سبحانه يمتلك القدرة اليقينية على أن تكون القلوب مطواعة والإرادة متقية من الأصل، مما يعني في حقيقة الحال انتفاء الهدف من بعثة الأنبياء، بل من خلق الخلق برمته!!

نعم، تأتي ألطاف خاصة لإثبات شأن الهداية من أجل إلقاء الحجة وزيادة اليقين لدى الأفراد والجماعات المتعلقة بحركة الإمام صلوات الله عليه، وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر.

ولهذا، فمن نافل القول التأكيد على أن لا نتوقع حصول معجزة في إيجاد الجماعة المنتظِرة، أو في تماسكها، أو في خذلان الجماعة المعادية، فالقوانين

---

١ سورة الرعد: ١١ .

٢ سورة الأعراف: ٣٤ .

٣ سورة الأنفال: ٢٥ .

٤ نهج البلاغة: ك٤٧؛ والكافي ٧: ٥٢ ح٧ .

٥ ما نقصده هنا بالحركة المعجزة هو التدخل الخارجي المبني على إجبار إرادة الإنسان، بحيث تكون مسؤولية عمل الإرادة تابعة للمؤثر الخارجي وليست لهذا الإنسان، ولا بُدّ من لفت الانتباه هنا إلى أن ذلك شيء لا يتعارض مع حالات اللطف التي نتحدث عنها لله سبحانه و تعالى وللمعصوم صلوات الله عليه، فاللطف في صورته العامة لا يجبر الإرادة، وإنما يوجد ظروف توجيهها.

الاجتماعية ستأخذ مجراها كاملاً، مما يفسر لنا كثيراً من الروايات التي تحدثت عن علامات الظهور، وفيها كثيرٌ مما يُفزع نتيجة لما تشير إليه من عوامل الضغط والعنت والظلم التي سوف تسلّط على المنتظِرين وقواعدهم الشعبية، وهي تريد في واقع الأمر أن تشعر الأُمّة بأن تدخلاً إعجازياً لن يحصل في سبيل تحقيق التقدم، أو في سبيل إيقاف تقدم المعادين، مما يعني أن على الأُمّة أن تجتهد في سبيل منع العنصر الضار منها وتكريس العنصر النافع فيها، ولا سيّما أنه قد تم تأطير ذلك كلّه بكون غالبية العلامات هي من النوع الموقوف وليس المحتوم، ولهذا فإنه لا عذر في عدم التحرك من أجل تحسين الخيارات ودرء الأخطار.

وهذا لا يعني أن الإمام صلوات الله عليه لن يتدخل عبر وسائل اللطف والإمداد الإلهية، أو أنه لن يكون فاعلاً في حركته من أجل تحسين خيارات قواعده الشعبية ومجاميع المنتظِرين، فهذا هو واجبه ومسؤوليته، ولكن استخدام تلك الوسائل هي الأُخرى تخضع لقوانين خاصة بها واشتراطات مسبقة، كما أن تلك الحركة تخضع أيضاً لنفس الاشتراطات الاجتماعية.

فهي لا تأتي كيفما اتفق، وإنما وَفق القاعدة القرآنية التي عبّر عنها تارة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [1]، وكذا بقوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [2]، فلقد علّق القرآن الكريم نصرَ الله سبحانه وتعالى على انتصار المؤمنين لله جلّ وعلا، وتارة أُخرى نلاحظ وجود ألطاف إلهية وإمدادات خاصة يراها الإمام صلوات الله عليه نفسه لما يرى أن هذه الألطاف يمكن أن تتسبب في تحسين أوضاع الهداية العامة أو الخاصة، ولكن هذه الألطاف مرصودة من قبل الإمام صلوات الله عليه لا من قبل الجماعة المنتظِرة.

نعم، إن هذه الألطاف لها قوانينها وآلياتها التي عرضت في القرآن الكريم فضلاً عن الحديث الشريف؛ ففي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [3] وكذا في قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [4]، فلقد تم اشتراط النصر والإمداد الإلهي بعوامل موضوعية وسنن تاريخية مبنية على الصبر والتقوى

---

١ سورة محمد (صلى الله عليه وآله): ٧ .

٢ سورة الحج: ٤٠ .

٣ سورة يوسف: ١١٠ .

٤ سورة آل عمران: ١٢٥ .

والخشية على الرسالة من تكذيبها، ولو دقّقنا في كلمة ظن الرسل في الفتن التي تجابههم، إذاً لعلمنا أن الامتحانات قد تكون عسيرة بشكل هائل، ولكن هذا العسر الذي يأتي ليقيم الحجة على المؤمنين وعلى غيرهم، سوف ينتهي بنصر الله سبحانه وتعالى؛ لأن السُنّة الموضوعية قد تحققت؛ فلا تغفل!

وعلى أي حال، فإن العملية التغييرية وضعت أمامها استحقاقات وجزاءات، وطبيعة توجه الإرادة الإنسانية هو الذي يحدد أيّ استحقاق سيحصل، وأيّاً منها سيتخلف، وبإمكان التأمل بهذه القطعة الرائعة من النص القرآني أن تكشف لنا عمق هذه الفكرة، ففي سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (١٧) مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾[١].

فالقرآن الكريم تحدّث هنا عن خيارَي الإرادة الإنسانية، وقد وضع إمداداً من نمط ما أمام كلّ خيار تختاره هذه الإرادة، فهي إما أن تختار طريق الترف وإما ما يعاكسه، وفي كلّ حالة سيكون هناك نمط من الإمداد ويترتب عليه نمط من أنماط الاستحقاق، فهو إما إمداد نصرة كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)﴾[٢]، وإما إمداد استدراج كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾[٣] الذي ينتهي بالتنكيل والخزي ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)﴾[٤].

ومن شأن هذا الأمر أن يمنع حالات التواكل والنكوص عن دفع الإرادة الإنسانية لدى المنتظِرين نحو خيارات إمداد النصرة التي ربطت أساساً بنصرة الله تعالى من

---

١ سورة الإسراء: ١٥ - ٢١ .

٢ سورة الأنفال: ٩ .

٣ سورة البقرة: ١٥ .

٤ سورة آل عمران: ١٧٨ .

خلال نصرة وليه وحجته صلوات الله عليه، وبالتالي فإنه سيثري مشاعر حمل المسؤولية لدى هؤلاء، ويعطيهم زخماً أساسياً من الوعي بشرائط تقدم مسيرتهم، سواء على مستوى طبيعة بنائهم ومحتواهم الداخلي تحصيناً وتوسعة، أو على مستوى تحصين سورهم الخارجي أمام العوامل المضادة لهم مقاومة وتمنعاً.

وخلاصة ما نريد قوله هنا: إن صاحب النص لا يتحدث عن معاجز على الطريق لإنجاز عملية التغيير الاجتماعية، وإلا لَما وجدنا ظواهر الألم والمعاناة التي ملأت حياة الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم، وامتلأت أحاديث علامات الظهور بمصاديقها؛ إذ كان بالإمكان أن يتم درء هذه المعاناة عنهم فضلاً عن مجتمعاتهم وقواعدهم خاصة بمنتهى السهولة من خلال حركة المعاجز، كما أشرنا من قبل؛ ولكن هذه هي التربية الإلهية التي التزم بها الأنبياء والأئمة عليهم السلام من أجل أن تُقبل الناس على تحمل المسؤولية، لتحصين نفسها بنفسها من عوامل التخذيل والتكبيت كي لا تقع تحت طائلة عوامل الظلم والعنت والجور.

هدفية صاحب النص:

في كلّ أحاديث علامات الظهور يجب أن تُلحظ ميزة وخصيصة ارتباط هذه الأحاديث والعلامات بأهداف صاحب النص، فكما أسلفنا من قبل، وفي أكثر من موضع، أن صاحبَ النصِّ صاحبُ هدفٍ، وكلّ ما يبدر منه يتعلق بهذا الهدف، وهو ليس مجرد قصّاص أو سارد للقصص؛ ولهذا فإنّ فهم هذه الأحاديث يجب أن يرتبط بفهم أهداف من أنشأ هذه الأحاديث، وهذا الهدف يمكن ملاحظته من خلال طبيعة المخاطَبين وساحتهم والغرض المراد منهم في عملية الانتظار، أو التمهيد، أو الظهور وما بعده، ولهذا فإن هذه الأحاديث يجب أن تقسم في الوهلة الأُولى وَفقاً لهذه المراحل؛ أي مرحلة الغَيبة الأُولى ومرحلة الانتظار ومرحلة التمهيد المباشر ومرحلة الظهور وما بعده؛ لأنّ كلّ مرحلة لها خصائصها وتختلف عن بقية المراحل بأغراضها ووسائلها والآليات المستخدمة فيها وطبيعة الاستحقاقات المترتبة عليها.

وعليه، فلا يمكن إدراج الأحاديث كلّها في مرحلة واحدة وفهمها بناء على مقتضيات تلك المرحلة؛ ولذا فإنّ المطالع لهذه الأحاديث يجب أن يفصل أولاً بين الأحاديث التي تحدّثت عن علامات مرت وانتهت فترتها الزمانية، وبين الأحاديث التي لا يقطع بوقوعها، أو أنها لم تقع بعد أصلاً، ثم يصنّف الأحاديث وَفقاً لمراحلها الزمانية.

وبالتالي فإنه يجب أن يفصل ما بين الأحاديث التي تحدّثت عن مرحلة ما قبل التمهيد، وهي غالبية الأحاديث التي لا علاقة لها بالعلامات الحتمية القريبة من زمن الظهور الشريف، وبين الأحاديث التي تتعلق بمرحلة التمهيد المباشر، وهي التي تحدّثت عن العلامات الحتمية وما يرتبط بها، كأحاديث السفياني واليماني والخراساني والصيحة والدخان وظهور الشمس من المغرب والنفس الزكية، وما إلى ذلك، أو تلك التي تحدث في نفس فترة الحتميات، كالشيصباني والرايات المتعددة في الكوفة عشية إقبال الإمام المنتظر (روحي فداه) إليها وهدّة رمضان ونزول الترك الجزيرة وصراع الأبقع والأصهب وأمثالها، وما بين الأحاديث التي تتحدث عن عصر الظهور الشريف والتزاماته.

فحديث النصرة المسلحة المباشرة للإمام (بأبي وأمي) مثلاً لا يمكن تعميمه على كلّ المراحل الزمانية[1]، وإنما يجب أن يقتصر على مرحلة الظهور؛ إذ لا ظهور مسلح له (صلوات الله عليه) قبل هذه المرحلة، وقد وردت تأكيدات كثيرة على أن أية راية تتحدث باسمه مباشرة يجب أن تكذّب أيّاً كان صاحبها، وهذا لا يمنع ـ قطعاً ـ من ظهور حركات مسلحة تبدي رغبتها وعزمها على السير في خطه، ولكنها لا تنسب أفعالها إليه.[2]

---

١ اعتاد بعضهم أن يتعامل مع الأحاديث التي تتحدث عن البروز لنصرته بالسلاح بأن يقتني سلاحاً لهذا الهدف، وقد يضعه بعضهم إلى جنب سريره أو محل نومه لكي يبادر بالنصرة فور الطلب، ولربما استفاد بعضهم من الدعاء الشريف: اللهم وإن كان الموت الذي جعلته على عبادك حتماً يحول بيني وبينه، فأخرجني من قبري مؤتزراً كفني، شاهراً سيفي، مجرداً قناتي، ملبياً دعوة الداعي. (المزار الكبير: ٦٦٤ للشيخ محمد المشهدي) للترويج لهذه الفكرة بما تحمل من رمزية الاستعداد والحث عليه، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ليعدن أحدكم لخروج القائم ولو سهما فإن الله تعالى إذا علم ذلك من نيته رجوت لأن ينسئ في عمره حتى يدركه فيكون من أعوانه وأنصاره. (غيبة النعماني: ٣٣٥ ب٢١ ح١٠).

ولا يخلو ذلك من جانب تربوي واجتماعي باتجاه عدم الوجل من السلاح بما يحمله السلاح من معنى الجلد والقدرة على التضحية والدفاع عن النفس وكل ما يتعلق بالفروسية من قيم ومعايير.

٢ يستغل بعضهم مثل هذه الروايات للخلط ما بين بعض الحركات التحررية أو تلك الناهضة لخدمة قاعدة الإمام عليه السلام الشعبية، وتتحدث بالرغبة في خدمته ونصرته، وتنادي باسمه وتبدي لهفتها إليه، وبين حركة الضلال التي يشار لها في رواية: "كلّ راية خرجت قبل رايتنا فهي راية ضلال"؛ إذ الفرق واضح جداً، وتخليط هؤلاء إما أنه ينمّ عن عدم الدقة في التفريق ما بين من يتحدث برغبته في الخدمة وبين من يدّعي بأنه يعمل بأمر الإمام (روحي فداه)، فالأولى مما لا ضير فيها قطعاً، ولكن الثانية هي المقصودة في نعت الضلال، وإما أن ينمّ عن نية مسبّقة للطعن في هذه

ويجب ـ كذلك ـ أن تتم ملاحظة أهداف صاحب النص وطبيعة أغراضه من خلال ملاحقة طبيعة الحدث المتعلقِ بهذا الحديث، فممّا لا شك فيه أن المعصوم صلوات الله عليه ينظر تارة إلى طبيعة علاقة الحدث مع مهمته التغييرية، وأُخرى يلحظه من خلال تأثيراته على مجتمع المنتظِرين، وثالثة في طبيعة ما يتركه الحدث من تأثيرات على العوامل المناهضة للظهور.

فحينما يتحدّث المعصوم صلوات الله عليه عن السفياني وعلاماته ـ على سبيل المثال ـ فإننا يجب أن نراقب الحديث ضمن الأبعاد الثلاثة التي استعرضناها آنفاً، فمهمة السفياني فيها تشابك كبير مع مهمة الإمام المنتظَر (روحي فداه)؛ ولهذا فإن الحديث يجب أن يلاحق تارة في كلّ ما يتعلق بحركة السفياني داخلياً، وتارة في كلّ ما يتعلق بمهمة الإمام صلوات الله عليه، وثالثة في ما يتعلق بالمنتظِرين، مما يستدعي تفكيك الأحاديث وتصنيفها ضمن هذه الساحات.

على أنه يجب أن تفكك الأحاديث على أساس مواقعها المكانية أيضاً، فحكم أحاديث السفياني الملعون على من يسكن في البقاع المتعلقة به، وهي سوريا والعراق والحجاز، غير حكمها على من لا يسكن تلك البقاع ولا يتأثر بشكل مباشر بأحداثه، وهكذا الأمر في بقية الروايات والعلامات الواردة، مما يعني أن أهداف المعصوم صلوات الله عليه وغايات حديثه تختلف من بقعة مكانية إلى أُخرى حسب طبيعة الحدث، كما لاحظنا اختلاف الأهداف حسب تغير زمان الحدث المتعلق بأحاديثه.

بقي أن أشير إلى أن بعضاً من الأحاديث لن ترتبط بفترة زمانية ولا مكانية، بل هي لكلّ المراحل، وهذه عادة ما تتعلق بتوجيهات الإمام (روحي فداه) لشيعته وقواعده ومقتضيات تربيته لهم؛ ولهذا فهي لا ترتبط بزمان ولا مكان، كما في الأحاديث المتعلقة بالصبر والتحمل والتمحيص والانتظار، وما هو نظير ذلك.

وهنا لا بُدّ من إشارة سريعة ومختصرة إلى طبيعة أهداف الإمام صلوات الله عليه؛ لكي يتم أخذها بنظر الاعتبار أثناء البحث في علامات ظهوره، فلقد قلنا: إن ما لا شك فيه هو وجود ترابط ما بين هذه الأهداف وبين تلك العلامات.

التوجهات، وهي نيات مهما تكن لا يمكن أن تنطوي على موقف شرعي، ومن الواضح إننا لا نتحدث عن أولئكم الذين يوصلهم الدليل الشرعي إلى هذا الموقف، فثمة فرق بين من يستغل الدليل للوصول إلى غايات قبيحة، وبين من ينشد الدليل لغرض التعبّد به في الفتيا، حتى ولو كان الدليل غير دقيق من الناحية الاستدلالية.

وبالجملة، فإنه يمكن القول بأن أهدافاً منظورة وأُخرى غير منظورة تميز حركة الإمام صلوات الله عليه، والمنظورة هي التي سنشير إلى بعضها وَفقاً لما نفهمه من الروايات الشريفة في هذا الصدد، أما غير المنظورة فهي التي لا يمكن لأحد أن يتحدث عنها طالما أن الإمام (بأبي وأمي) لم يتحدث هو عنها، فهي لمصالح غير منظورة علمها عند هادي هذه المسيرة صلوات الله عليه، فضلاً عن الله تعالى، مع وجود إمكانية افتراضية تخص بعض العباد الصالحين ممن يرقون إلى مقام خدمة الإمام صلوات الله عليه المباشرة، وغيرها الّذين قد يطّلعون على مثل ذلك نتيجة لتوجيه خاص أو بإرادة خاصة من قبل الإمام عليه السلام، وسيان في ذلك أن يكون الأمر مباشراً أو غيره.

ولا شك أن الأهداف المنظورة تتعامل على المستوى الاجتماعي مع ساحات ثلاث، هي ساحة المؤمنين وفيها ساحة المنتظِرين[١]، وساحة الظالمين وتلحق بهم ساحة أعوان الظلمة، وساحة المستضعَفين من غير المؤمنين، ومنهم من يطلق عليه مصطلح الهمج الرعاع، وفي الغالب فإن هذه الساحة هي الساحة التي يتصارع عليها الطرفان، وإن كان تعزيز موقع أي طرف في هذه الساحة يعطيه القابلية لكي يمتد إلى الساحة الأُخرى، ولا يحتاج المرء إلى كثير جهد لكي يعرف أن جهد الإمام صلوات الله عليه يتعامل مع الساحة الأُولى وَفق مقتضيات تربية الساحة وحمايتها وتحصينها وإعداد النخب المطلوبة في عملية الانتظار، وتعزيز القدرات الخاصة بها ورعايتها ومراقبتها.

ولعل في جملة الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، ولا سيما مسألة عرض الأعمال، ما فيه دلالة واضحة على ذلك، فأصل وجود مراقبةٍ ما في ساحة المؤمنين[٢] وعرضٍ للأعمال على جهةٍ ما يمثل نمطاً من أنماط التربية والرعاية من قبل تلك الجهة، ويعطي هؤلاء قدراً من الأهمية[٣] لدى الجهة المراقِبة والتي

---

١ ليس كلّ مؤمن منتظِراً، ونقصد بذلك أن المنتظِرين مَن يحملون هَمَّ الانتظار ويعملون له بهدفية واضحة، ومن الواضح أن هذا الصنف هو صنف أخص من التصنيف العام للمؤمنين الّذين قد نجد فيهم من لا يهتم بذلك، ولا بُدّ من الإشارة سلفاً إلى أن ما نقصده بساحة المؤمنين، هم مَن يؤمنون بالإمام صلوات الله عليه بالمجمل، وقد يكون فيهم المتدين وغيره؛ فلا تغفل!

٢ عرض الأعمال أمر عام يشمل أعمال الأبرار والفجار على حد سواء، ولكن لكون البحث خاص بطبيعة الآثار التربوية المترتبة من ذلك في ساحة المؤمنين هي التي جعلتني أخصّهم بالحديث.

٣ فهي لو لم تك ذات أهمية لصاحِب المراقَبة لَما راقبها.

تُعرض عليها هذه الأعمال، وهو بحدّ ذاته ينبّه إلى المسؤولية الملقاة على عاتق المؤمنين، ويحفّزهم باتجاه تحسين الأداء الرسالي ليلتحقوا بصفوف المنتظِرين الجادّين في ذلك، ويوجِد جملة من الكوابح أمام حالة التردي في مثل هذه الأداءات، وهي حالة قد تثريها الضغوط التي تسلط على المنتظِرين بوجه خاص نتيجة لظروف الانتظار واستحقاقاته.

ومثلها في ذلك مثل العامل الذي يجد نفسه مراقَباً ومتابعاً من قِبل رب العمل، عندئذ من الطبيعي أن نجد انعدام فرص التسيّب في العمل، وبالتالي سنجده يندفع بتلقائية تنمو مع الأيام نحو العمل، وحين يعمل فإنه يحسّ بأن جهده لا يُبخس لأن رب العمل ناظر إليه مباشرة، ومن هذا وذاك نلاحظ نظام الضوابط والكوابح والمحفّزات في داخل النفس الإنسانية يعمل بطريقة تلقائية وموضوعية لدى هذا العامل.

وما نلحظه في روايات مراقبة الأعمال أنها تتحدث عن الاتجاهين معاً، فلدينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عدة روايات تتحدث عن طبيعة هذه الرؤية للأعمال، فهي تؤكد وجود المراقبة، وتفعّل بشكل سلس نظام المراقبة الموضوعية للذات عبر إطلاق سلسلة المحفّزات والكوابح[1] المشار إليها.

فلقد روى محمد بن الفضيل، عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "إن رسول الله صلى الله عليه وآله تعرض عليه أعمال أُمته كلّ صباح، أبرارها وفجّارها، فاحذروا".[2]

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "إن أعمال أمة محمد صلى الله عليه وآله تُعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله في كلّ خميس، فليستحي أحدكم من رسول الله أن تُعرض عليه القبيح".[3]

وعن محمد بن مسلم، عن الإمام الباقر صلوات الله عليه، قال: "إن أعمال العباد تُعرض على نبيكم كلّ عشية خميس، فليستحي أحدكم أن تُعرض على نبيه

---

١ لمتابعة نظام المحفّزات والكوابح بشكل موضوعي ننصح بمراجعة كتابنا: اتجاهات الدفاع الاجتماعي في الإسلام.

٢ بصائر الدرجات: ٤٤٥ ج٩ ب٤ ح٦ .

٣ بصائر الدرجات: ٤٤٥ ج٩ ب٤ ح١٢ .

العمل القبيح". [1]

وعن عبد الله بن أبان الزيات، قال: قلت للرضا عليه السلام: ادعُ الله لي ولأهل بيتي؟ قال: "أوَلستُ أفعل؟! والله إن أعمالكم لتُعرض علَيَّ في كلّ يوم وليلة". [2]

وعن داود الرقي، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقال لي: "يا داود! أعمالكم عُرضت علَيَّ يوم الخميس فرأيت لك فيها شيئاً فرّحني، وذلك صلتك لابن عمك". [3]

وكذا ما رواه سماعة، عن أبي عبد الله الصادق صلوات الله عليه، قال سماعة: سمعته يقول: "ما لكم تسوؤون رسول الله صلى الله عليه وآله؟!" فقال رجل: كيف نسوؤه؟! فقال: "أمَا تعلمون أن أعمالكم تُعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك، فلا تسوؤوا رسول الله، وسرّوه". [4]

ونلمس ـ هنا ـ بوضوح الاتجاهين معاً؛ فالتحذير والتشويق يُطرحان معاً وَفق طبيعة الأشياء، وهذا ما يمكن لنا أن نعكسه مباشرة على حياتنا في زمن الغيبة الكبرى، فالمراقبة المطروحة هنا لا تنحصر برسول الله صلى الله عليه وآله، وإنما تمتد إلى مَن سواه مِن الأئمة عليهم السلام كلٌّ في زمنه، فهم كما في الرواية الشريفة: شهوداً لله في أرضه. [5]

ولهذا روى حفص بن البختري، عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "تعرض الأعمال يوم الخميس[6] على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى الأئمة عليهم

---

١ بصائر الدرجات: ٤٤٦ ج٩ ب٤ ح١٤ .

٢ الكافي ١ : ٢١٩ ح٤، وبصائر الدرجات: ٤٤٩ ج٩ ب٦ ح٢ .

٣ بصائر الدرجات: ٤٤٩ ج٩ ب٦ ح٣ .

٤ الكافي ١ : ٢١٩ ح٣، وبصائر الدرجات: ٤٤٦ ج٩ ب٤ ح١٧ .

٥ بصائر الدرجات: ٤٥٠ ج٩ ب٦ ح٦ .

٦ لا بُدّ من أن ننبه إلى أن الروايات الشريفة تتحدث عن أوقات مختلفة لعرض الأعمال، فبعضها منها يتحدث عن صباح الخميس، وبعضها يتحدث عن ليلة الخميس، وبعضها عن يوم الاثنين، وبعضها كلّ يوم، وهذا ليس بقادح فيها، فأغلب الظن أن التعدد المشار إليه يتعلق بمقامات العرض، فكما أن اليوم الآخر سُمّي بيوم القيامة تارة، ويوم الحشر، ويوم الدين، ويوم الحساب، ويوم الجزاء، وما إلى ذلك، وهذه المصطلحات ليست كلّها في مقام واحد، وإنما كلّ واحدة منها تمثل مقاماً لا يشبه غيره، وإن أطلق على الجميع مصطلح اليوم الآخر؛ فتنبّه!

السلام". [١]

وأنت خبير بأن مثل هذه الرقابة لها أثرها الجاد في التربية الذاتية والاجتماعية، أي أنها تترك آثارها الجدية على ذات المنتظِر الذي يجد أنه مراقبٌ من قبل الإمام المنتظَر عجل الله فرجه، وتؤمّن الأثر نفسه على الوضع الاجتماعي في ساحة المنتظِرين.

ولا يعدم الباحث القدرة على اكتشاف الأثر الكبير الذي تتركه الأزمات الاجتماعية والقمع والاضطهاد السياسي والعقائدي والاجتماعي في إعداد الأُمّة، ولا سيما إذا ما كانت هذه الأُمّة مرعية من قبل أطر عقائدية وفكرية تعطي فهماً متكاملاً للأزمة، وتضع منهاجاً لا يستسلم لها، وإنما يعمل على احتوائها والتعامل معها بطريقة تجاوزها.

ومن مزايا مدرسة أهل البيت صلوات الله عليهم أنها كانت واعية تماماً لحقيقة ما يتهدد قواعدها الشعبية والساحات التي تعمل فيها، ولهذا وضعت السبل الكفيلة بمعالجة المشاكل الناشئة من هذه الأزمات، وليس هذا فحسب، بل يلاحظ الباحث المدقق أن المعالجات المطروحة تعمل على تحويل الأزمة كبيئة خادمة لمشروع الحركة المؤمنة.

وفي الوقت الذي وجدنا فيه الإمام صلوات الله عليه يُعْنى بساحة المنتظِرين على مستوى الرعاية والتسديد واللطف والنأي بهم عن مهالك الدين ومواطن الفتن، فإن من البديهي أن يكون له عمل آخر معضِّد لهذا العمل ومتمِّم له، وهو العمل المضاد في ساحة الظالمين والمنافقين، وعلى الرغم من أن آلياته غير واضحة بالنسبة لنا، ولكن يمكن تصوّر هذا النمط من الأعمال من خلال كلّ العناصر التي من شأنها أن تساهم في عدم إنجاح مشروع هذه الساحة، أو العمل على إيقاف زخمه، أو التقليل من اندفاعه وَفقاً لظروف اللحظة التاريخية التي تمر بها هذه الساحة.

ولعلنا نستوحي جانباً من ملامح ذلك من الصورة التي تعكسها قصة تشكيك ابن أبي غانم بإمامة الإمام (بأبي وأمي) أيام عمه جعفر، والتي بموجبها كتب عثمان بن سعيد الأسدي العمري رضوان الله عليه إلى الإمام صلوات الله عليه بشأنها، فخرج توقيعه عليه السلام إليه ضمن كتاب كان فيه: "ولولا ما عندنا من محبة صلاحكم

---

١ بصائر الدرجات: ٤٤٦ ج٩ ب٤ ح١٦ .

ورحمتكم والإشفاق عليكم، لكُـنّا عن مخاطبتكم في شغل، فيما قد امتحنّا به من منازعة الظالم العتل الضال، المتتابع في غيّه، المضاد لربه، والداعي ما ليس له، الجاحد حق من افترض الله طاعته، الظالم الغاصب". [١]

وبمعزل عما عنى به الإمام (روحي فداه) من هوية الظالم، فإنّ من المؤكد أن هذه السلوكية التي تمزج ما بين اللطف بساحة الموالين، وبين العمل المضاد ضد الظالمين والمنافقين هي أحد المؤشرات الأساسية التي تبين لنا طبيعة عمل الإمام صلوات الله عليه في زمن غيبته، ولو عدنا إلى أسس التكليف الشرعي التي يكلّف بها كلّ إنسان مؤمن، فما من ريب في أن الأمرين هما من أولويات عمل المؤمن المعتادة، فما بالك بالإمام عليه السلام نفسه؟!

وعليه، فإنّ هذه الصورة تبين لنا أن منظومة الأهداف الثانية للإمام صلوات الله عليه ستنتظم في دائرة تبكيت الظلمة والمنافقين والعمل ضدهم وَفق ظروف الزمان والمكان.

ومن المفروغ عنه عدم ضرورة البحث عن شكل تحرك الإمام صلوات الله عليه وآلياته في هذا المجال، فهذا الأمر ليس من الأمور الميكانيكية التي تحتاج إلى نسق واحد وتؤدي دائماً إلى نتائج محددة، بل هو متروك لظروف الزمن ولطبيعة الإمكانيات المتاحة، ولكن يبقى الأصل أن سعي الإمام (بأبي وأمي) سيبقى متجهاً نحو تحقيق هذا الهدف.

وهنا قد يعنّ لبعضهم السؤال عن شكل الإمام صلوات الله عليه الظاهري حال هذا التحرك؟ وهل سيباشر أعماله متخفياً؟ أو أن له صورة ثابتة يتحرك بها، وأمثال هذه الأسئلة تغدو من الأسئلة الكمالية التي لا يضر الجهل بها في مبحث من هذا القبيل، على الرغم من أننا نعتقد بحزمة من الأمور الاعتقادية التي تتداخل دوماً في تأطير شكل حركة الإمام صلوات الله عليه كما في مسألة طي الأرض، وتوسيع وتضييق الزمان، وما يلحق بذلك من شؤون الولاية التكوينية، وما إلى ذلك من أمور لا نجد هذا البحث صالحاً للدخول بتفاصيلها، ولكن هي مهمة من جهة تصور قدرة حركة الإمام صلوات الله عليه في متابعة شؤون ساحات مختلفة في وقت واحد، وكذا الوجود في وقت واحد في أماكن عدة، وهذا ما ننصح بمتابعته في محله.

---

١ غيبة الطوسي: ٢٨٦ ح٢٤٥ .

وعلينا أن نميّز هنا ما بين ما قد يفهم من بعض الروايات الشريفة التي أوحت إلى أن الإمام (روحي فداه) يسكن القفار والوديان والأماكن النائية عن الحياة الاجتماعية، وهو ما يدل عليه نص دعاء الندبة: "ليت شعري أين استقرت بك النوى؟ بل أي أرض تقلك أو ثرى؟ أبرضوى أو غيرها أم ذي طوى؟"[١]، وما بين ما نشير إليه من أن الإمام صلوات الله عليه يمارس تحركه في ساحة المنتظِرين والمناهضين لهم، فتلك الروايات ناظرة لفترة زمانية وصفها من رآه، أو أنها طرحت المضمون بهذه الصورة لكي تزيد من يأس المطاردين له والمتعقبين لآثاره من أعدائه، على الرغم من أنها لا تعطي أية إشارة أكيدة بأنه يسكن في الأماكن التي أشير إليها، بل هي نصوص تحتمل وجوهاً كثيرة، وحتى لو قدّر أن أحدهم رآه في منطقة في عمق الصحراء، كما هو حال رواية ابن مهزيار رضوان الله عليه،[٢] إذ يبقى هذا محل اللقاء ولا يعني بالضرورة إنه محل الإقامة والسكن.

وعلى أي حال فإن رؤيته عليه السلام في تلك الحالة لا تعني أنه بعيد عن الفعل الاجتماعي، أو أنه سيبقى هكذا بقية العمر؛ إذ من الواضح وجود روايات عديدة تشير إلى خلاف ذلك، كما هو الحال في عشرات الروايات التي تتحدث عن التوقيعات الصادرة إلى السفراء الأربعة، التي تشير إلى قربه من سفرائه،[٣] فضلاً عن الروايات الأخرى التي تشير إلى حضوره في موسم الحج في كلّ سنة، وما إلى ذلك من روايات تؤكد عدم انعزاله (روحي فداه) عن الفعل الاجتماعي، ولهذا ورد في بعض الروايات أن الناس حينما يحلّ ظهوره الشريف وينظرون إليه سيتعجبون لكثرة رؤيتهم له عليه السلام قبل ذلك، لكن مع خفاء الاسم والعنوان.

في طرق الإلقاء:

لقد أشرنا سابقاً إلى مسألة قابليات الوعي وإلى كيفية تخلّص الأئمة صلوات الله عليهم من المحاولات الرامية لتحجيم علومهم وإحباط عملية بثها، وكان تركيزنا على طرق التلقي، وها نحن نعود لنطرق الموضوع من جهة أُخرى، لنركّز أكثر على طرق

---

١ المزار الكبير: ٥٨٠. ورضوى جبل في المدينة المنورة، وذي طوى واد في مكة المكرمة.

٢ كمال الدين وتمام النعمة: ٤٤٥ ب٤٣ ح١٩ .

٣ ليس المقصود بالقرب هنا القرب المكاني، إذ لا دليل عليه، ولكن المطروح هنا هو قرب التواصل سواء كان تواصلاً عبر واسطة أو كان تواصلاً مباشراً، فمن تطوى له الأرض وتجمع له الأزمان سيّان في أن يكون نائياً أو قريباً.

الإلقاء التي كان يعتمدها الإمام عليه السلام، وسنكتفي بالإشارة إلى بعضها للتمثيل، ومن نافلة القول إن طرق الإلقاء المباشر[١] فيها وضوحها وصراحتها الكافيتين، ولهذا فلن أتحدث عنها.

١: لو نظرنا إلى رواية عتاب الصدّيقة الزهراء صلوات الله عليها لأمير المؤمنين عليه السلام بعد خطابها المعروف في المسجد النبوي اذ قالت بأبي وأمي: يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن ابي قحافة يبتزّني نحلة أبي، وبُلغة أبنيّ، لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألدّ في كلامي حتى حبستني قيلة نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، أضرعت خدّك يوم أضعت حدّك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ماكففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً، ولا خيار لي.[٢] فإن التداعي الأول في الذهن هو أن سيدة النساء صلوات الله عليها كانت صارخة في عتابها، وعميقة في غضبها، وكأنها توجّه هذا الغضب صوب أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ولكن حينما تلاحظ خصوصيات الزهراء المعصومة (بأبي وأُمي) ولا سيما في طبيعة نظرتها لأمير المؤمنين الإمام صلوات الله عليه، فإن هذا التداعي سيزول حتماً ليحل محله تساؤل يخالط الاستغراب: إذن لماذا هذا العتاب؟! فلا الأمير كان هو سبب الغضب، ولا هو مَن يُعاتب، ولا هي مَن تعاتب مثله.

ولكن هناك جملة من الأُمور كانت الزهراء (بأبي وأمي) تريد تثبيتها في عالم النصوص؛ لتردَّ بهذا النص على شبهات كثيرة ستنطلق حتماً بعد الحادثة، إن في زمنها القريب، أو في ما سيلحق به من أزمان آتية، ليأتي هذا الحوار الذي أُعطي صورة الحادثة، والذي سيجد أعداؤهم أن من المهم نشره، أو التغاضي عن كتمه، أو لكونه سيطلق جملة من الإثارات التي تدفع القارئ للتساؤل عن سبب هذا الغضب، ليجد من بعد ذلك كله رواء عطشه في الخطبة التي ألقتها وعرّت فيها الزيف الذي اشتملت عليه مواقف أبطال السقيفة، وستنطلق بناء على ذلك عدة أسئلة حائرة وعلامات استفهام مستغربة عما جرى لبنت الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما.

---

١. نقصد بطرق الإلقاء المباشر هي التي يكون فيها حديث الإمام صلوات الله عليه مع شخص معين في قضية محددة، على خلاف الطرق غير المباشرة والتي يكمن الخطاب فيها بين طيات الكلمات.

٢ انظر: أمالي الشيخ الطوسي: ٦٨٣ م٣٨، والاحتجاج ١: ١٤٥ .

ولا أُخفي أن هذه القضية كانت عقدة أمامي إلى أن سألني أحد الحجاج المصريين عام ١٩٩٧ ـ وكنت وقتذاك واقفاً أمام قبر أم المؤمنين أُم سلمة رضوان الله عليها، أزورها في بقيع الغرقد ـ: أين قبر بنت الحبيب يا حاج؟ هكذا كان سؤاله، فأجبته وأنا لا أعلم ما هي توجهاته بأن قبرها مخفي المعالم، فهناك من يقول بأنها دفنت في بيتها، وهناك من يقول بأنها دفنت في الروضة الشريفة بين القبر والمنبر، وهناك من يقول بأنها دفنت في البقيع، إلا أن المتيقن أن الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه حرص على إخفاء قبرها بعد أن أوصته بنت الحبيب أن لا يحضر جنازتها ولا يصلي عليها أحدٌ ممن كذّبوها، وبالفعل لم يحضر أيُّ أحد من كبار الصحابة دفنها والصلاة عليها، وهذا ما تقرّه كتب الحديث المشهورة.[١]

وكم كان سؤاله اللاحق لافتاً؛ إذ قال (بلهجته المصرية) وهو يبكي: الله أكبر، هو الحبيب، كم سيدة النساء لديه فيضيع قبرها؟! والأُمّة ديّت كم فاطمة الزهراء لديها فلا تعرف أين قبرها؟!

لم أستطع أن أجيبه؛ لأنه أثار في جوانحي عبرة عميقة متعددة الاتجاهات، ولكنه أخرجني من عبرتي حينما قال: يعني ما يقولونه صحيح؟ فقلت: وما الذي يقولونه؟ قال: إنها ظلمت وماتت وهي غاضبة على أبي بكر وعمر بسبب فدك؛ قلت له: فدك كانت عنوان لحدث أكبر يبتدئ من قول حافظ إبراهيم، فبادرني وردد ما في أبيات القصيدة العمرية لحافظ إبراهيم:

وقولـــة لعلي قالها عمر　　　أكرم بسامعها أعظم بملقيهـا

حرّقت دارك لا أبقي عليك بها　　　إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها[٢]

فقال لي بصوت متهدج ودموعه على خدّيه: عاوز أزور بنت الحبيب، بالله عليك يا حاج إنت تزورها فين؟ فقلت له: لقد زرتها في الروضة المباركة؛ فانصرف عني دون وداع وكأنه مذهول ولكنه كان يولول وهو مسرع باتجاه قبر الرسول المصطفى (بأبي وأمي): إزاي يا رب! أدي بنت الحبيب وأدي عمايلهم!! إزاي؟!!

فلقد كان محض السؤال عن القبر قد نبّه لما هو أعظم، وجر لمسائل أخطر،

---

١ انظر: مصنف عبد الرزاق ٥: ٤٧٢، والسنن الكبرى للبيهقي ٦: ٣٠٠. وللتفصيل يراجع كتابنا: فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها) فريدة الدهر.

٢ ديوان حافظ إبراهيم ١: ٨٢ .

فتذكرت حينئذ رواية العتاب هذه؛ لأنها جاءت بلهجة العتاب لترفع درجة الإثارة عند المتلقين، فالزهراء (بأبي وأمي) غاضبة جداً في كلماتها وفي طريقة عتابها، وعلي صلوات الله عليه لم يك طرفاً في تسبيب غضبها، فلماذا وجهت الكلام إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليهما دون غيره؟!

من الطبيعي أنها عليها السلام لو وجهت الكلام إلى أي شخص آخر لكان مدعاة لضياع النص، أو تخفيف لهجته لسبب أو لآخر، وهي تعرف تماماً أن السلطة وأنصارها سوف تجهد نفسها لكي تعفي آثار ما حصل، ولكن قولها لمثل أمير المؤمنين (بأبي وأمي) وتحويله إلى حوار مسجّل تاريخياً على شكل عتاب سيكون سبباً لحفظ النص، وتمرير الرسالة المخفية في مطاويه إلى الوعي العام والخاص بسلاسة أكبر، وهذا هو الذي حصل.

إن هذه الرواية تدعونا إلى النظر إلى روايات عديدة أُخرى بطريقة تتجاوز ظاهرها إلى السعي لاستدراك كلّ الحيثيات المتعلقة بها، كي نرى الرسالة المخفية داخلها، فخطاب: إياك أعني واسمعي يا جارة، تارة يكون مباشرة، وأُخرى يكون بعيد الغور، وَفقاً لأهميته وخطورته، وسعياً وراء تعميق الوعي وعدم إبقائه مشدوداً إلى المنظر الخارجي دون الولوج إلى المحتوى الداخلي.

وعليه، يجب علينا أن نستحضر ذلك بجدية مع كلّ حديث نجد فيه لغة عتاب أو لوم أو نقد أو مدح أو استحسان أو قدح أو جرح أو ما شاكل ذلك؛ لأنّ المتكلّم أكبر من أن ينساق في نصّه للوضع المزاجي كأي واحد منّا، بل هو المعصوم في كلّ أوضاعه، فلا بُـدّ من أن نتلقى الرسالة الأُخرى التي تقف وراء هذه الأفعال، ونظير ذلك ما يمكن أن تراه في لعن الإمام الصادق عليه السلام لعدد من خيرة أصحابه وأبرّهم به، كزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم الثقفي، وبريد بن معاوية، وهشام بن الحكم، وهشام بن سالم، والمفضّل بن عمر، ومؤمن الطاق، ونظرائهم، فإن أخذنا الظاهر في الخبر وقعنا في تناقض مع عصمة صاحب النص، وفي تضاد مع حكمته، وكلاهما محرزتان لدينا، وهؤلاء الأبرار مما لا يشك في شدّة إخلاصهم للإمام فضلاً عن وجود روايات تعلي بشأنهم وتعظم من موقعهم لديه، حتى تسمّي بعضهم بالحواريين له صلوات الله عليه.

إذن، لا بُـدّ أن يكون سراً كامناً داخل الخبر علينا أن نتحرّاه من خلال جمع كلّ المعطيات التي قد لا تتوفر في ذات الخبر، ولكنها تتوفر ـ قطعاً ـ في ماهية صاحب

النص صلوات الله عليه، والمنصوص عليهم وكذا طبيعة عصره، لنتوصل من بعد ذلك إلى إحدى الخبايا التي تحدّث عنها الإمام (بأبي وأُمي) بطريقة غير مباشرة من دون أن يكشف مبتغاه لأهل زمانه، وهي أنه عليه السلام أراد أن يخلّص هؤلاء من أيدي بني العباس، الّذين كانوا يتعقّبون أنصار الإمام وخلّص أصحابه، ومن ثم ليبلّغ التاريخ عن حقيقة الأجواء الخانقة التي كان الأئمة صلوات الله عليهم يعيشونها، في قبال أجواء كان بنو العباس يعملون جاهدين ليصوّروا أنفسهم بأنهم حكام العدل وأُمناء الدين.

ومثلها ما رواه عبد الله بن جبلة، عن ذريح المحاربي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن جابر الجعفي وما روى؟ فلم يجبني، وأظنه ـ الضمير لعبد الله ـ قال: سألته بجمع فلم يجبني، فسألته الثالثة؟ فقال لي: يا ذريح! دع ذكر جابر، فإن السفلة إذا سمعوا بأحاديثه شنّعوا، أو قال: أذاعوا.[1]

صحيح أن ثمة أمراً مباشراً لذريح هنا، ولكن الرسالة الأُخرى في الخبر تشير إلى طبيعة الأحاديث التي يرويها جابر بن يزيد الجعفي، فهي تتميز بالخصوصية والعمق في آن واحد، وإلا لِما حذّر من نشر بعض أحاديث جابر الجعفي؛ لأن من وصفهم بالسفلة سيفهمونها بطريقة مختلفة يمكن أن يتهموه من خلالها بالغلو، أو يتهموا نفس الإمام صلوات الله عليه ويشنّعوا عليه، ناهيك عن طبيعة الجو الاجتماعي الذي تتحدث عنه الرواية، وطبيعة قابليات الوعي والتلقي لديه، وهي أُمور مهمة في بحث فقه الدلالة في أحاديث الظهور؛ لأن مثل هذا النمط من الأخبار كثير جداً فيها، ولن يعزّ على المتابع السريع فضلاً عن المتعمّق الظفر بروايات كثيرة تتحدث بنفس الطريقة.

٢: كثيراً ما نسمع أو نقرأ بأن الإمام صلوات الله عليه قد قام بالعمل الفلاني أو الفلاني، من الأعمال التي من العادة أن تقرن بالكرم أو العلم أو التضحية أو الشجاعة أو الحلم أو ما شاكل من مناقب الأخلاق ومآثرها، وما يجب علينا طرحه هنا هل أن هذه الأعمال كانت هي كلّ ما يمتلكونه من المناقب أو العلم؟ أو أن هذه الأُمور هي ما سمحت به ظروف الواقع، وقد فاتنا من علمهم ومناقبهم حتى إنّ ما فاح لم يك إلا شذراً منه، وما نضح لم يك إلا ما بمقدار ما تتحمله الظروف الاجتماعية والعلمية العامة التي عاشوها أو عاشها مجتمعهم بشكل عام، وإلا كيف يمكن لنا

---

١ اختيار معرفة الرجال: ٤٣٩ ح٣٤٠ .

تصوّر عِلم من وصفهم الله سبحانه وتعالى بـ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ ؟!

ما من شك أن مشكلة العلم هي الوعاء الذي يتحمّله، وإلا مثل العالم المعصوم كمثل البحر الزاخر، كلّما ذهبت إليه بوعاء ملأته منه، وبالتالي فإن ما يتوجب علينا التنبّه إليه على هذا الصعيد، هو أن الأئمة صلوات الله عليهم بكلّ ما فعلوه وبكلّ ما علموه، إنما كان ذلك بمقدار ما سمحت الظروف الاجتماعية والعلمية به، ولهذا يجب علينا أن لا نعطي ما حصل في الظرف التاريخي صورته المطلقة كأنْ نقول: إنّ علمهم ومناقبهم ومآثرهم هو ما حصل فعلاً؛ لأنّ ما حدث إنما هو بمقدار ما طفح عبر الحدث التاريخي ولا يمكن عدّه هو كامل ما كان لديهم.

وللتوضيح أقول: خذ مثلاً بسيطاً على ذلك من خلال ما حصل لأمير المؤمنين صلوات الله عليه حينما كان واقفاً على نهر الفرات، وهو يضرب صفحة الماء بقضيب كان بيده، فقال: لو شئت لجعلت لكم من الماء نوراً وناراً[١]، ففي ذلك الوقت لم يستوعب أحدٌ ما في طيات هذا الكلام المختصر من ثورة تقنية هائلة، فلئن كان لأديسون فخر اكتشاف المصباح الكهربائي عام ١٨٧٩م، فها هو قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه يسبقه بمئات السنين من خلال إشارته هذه، بل ويزيد عليه أنه هنا لا يشير إلى التركيب الكيمياوي للماء (الهيدروجين والأوكسجين)[٢] فحسب، بل ويشير إلى توليد الحرارة من الماء أيضاً.

وقد قُدّر لزمننا هذا أن يكتشف فيه قدرة القنبلة الهيدروجينية في طبيعة ما تولّده من طاقة وحرارة[٣]، ولكن في زمنه عليه السلام كانت قابليات العلم من شأنها أن

---

١ تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٢ .

٢ بات من الواضح أن الهيدروجين غاز قابل للاحتراق، والأوكسجين يعدّ من أكبر أسباب الاحتراق، فالبيئة التي لا يوجد فيها الأوكسجين يكون الاحتراق فيها صعباً، ولهذا حينما يتحدث عن النور فهو يتحدث عن القابلية على الاحتراق في نفس الوقت، وحينما يتحدث عن الحرارة فإنه يتحدث عن مسببات الحرارة.

٣ العنصر الأساسي في القنبلة الهيدروجينية هو الماء الثقيل بعد اليورانيوم، والماء الثقيل له نفس التركيب الكيمياوي للماء العادي ولكنه يدخل كعنصر أساس في الانشطارات النووية، وفرقه عن الماء العادي أنه يحمل ما يسمى بالهيدروجين الثقيل الديتريوم (Deuterium) وفرقه عن الهيدروجين العادي هو أن العادي يحمل بروتون واحد موجب، وإلكترون واحد سالب يدور حول النواة دون وجود أيٍّ من النيوترونات داخل النواة، بينما يتميز الديتريوم بأن نواته فيها نيوترون أيضاً، ولهذا يرمز له كيمياوياً (D_2O) بينما الماء العادي يرمز له (H_2O) وهو موجود في الماء العادي،

تجابِه مثل هذا القول بكثير من الوجوم، فهي لا تفهمه ولا تعرف محتواه، بل ربما تسخر منه لو عرفت ما قصد الإمام!

ولكن لو قُـدِّر لأمير المؤمنين صلوات الله عليه أن يُسأل عن مزيد من ذلك، لأعطى سائله المزيد الذي يريد، ولو قُـدِّر لعصره أن يستوعب في تقنياته هذا الكلام لوجدناه منجّزاً على المستوى التاريخي، ولكن حينما تكون ظروف العصر التي عاش فيه أمير المؤمنين عليه السلام قاصرة أن يخوض في المسألة التقنية بأكثر مما قال، فلا بُـدّ أن نجد الإمام صلوات الله عليه مكتفياً بالقدر الذي قال، ولو فعل لقال الناس: إن هذا لسحر أو معجزة، بينما كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يتحدث بطريقة علمية بحتة.

ومحل الشاهد الأول هنا هو: هل أن هذا العلم هو كلّ ما لدى أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال؟

وبنفس القدر هل أن الشجاعة التي برزت منه في معارك بدر وأحد والأحزاب وخيبر هي كلّ شجاعته؟

وهل أن كرم وحلم الإمام الحسن عليه السلام ـ الذي يسمى بموجبه بأنه كريم أهل البيت وحليمهم ـ الذي تبدى جلياً في تاريخه الاجتماعي هو كلّ كرمه أو حلمه؟

وهل أن نكران الذات والتضحية والشهامة والمروءة والشجاعة في موقف الإمام الحسين صلوات الله عليه هي في حدود ما تبدى في عرصات كربلاء؟

وهكذا بقية الأئمة عليهم السلام..

أما محل الشاهد الثاني، فهو أن الأئمة صلوات الله عليهم لم يتحدثوا بالضرورة لعصرهم، فبعض الأحاديث قيلت وهي لا تستهدف ذلك العصر، وإنما تستهدف عصوراً مستقبلية كما في الحديث الذي مرّ أحاديث وكل علامات الظهور.

إن مما لا شك فيه أن ما وصلنا عن الأئمة عليهم السلام في وقائعهم السلوكية وممارساتهم التاريخية لا يعبّر بأي شكل من الأشكال عن كمال وكامل ما لديهم، فهم ينبوع زاخر لكلّ هذه المسائل، ولكن الفرصة التاريخية منحتهم هذا المقدار مما

ولا سيما في المحيطات وأعماق البحار، إذ توجد ذرة منه مقابل كلّ ٦٧٠٠ ذرة، وقد تم اكتشافه من قبل الأمريكي هارولد أوري عام ١٩٣١ .

أتيح له أن يتجلى منها، ولهذا حينما نتحدث عن الإمام المنتظر صلوات الله عليه، وعلامات ظهوره، وما سيجري في حال الظهور، يجب أن يراعي هذه المسألة بشكل جدّي.

بمعنى أن الإمام صلوات الله عليه حينما يكون متمتعاً بمقام الخلافة الربانية بكلّ ما لهذه الكلمة من أبعاد ومعاني، فإن السؤال عن امتلاكه بعضاً من جزئياتها يكون سؤالاً عبثياً حتى لو لم يتحدث هو عنه، فالخلافة حينما تستدعي الأمانة، فلا معنى لنسأل إن كان يتمتع بمقام الأمانة أو لا؟ والأمانة حينما تستدعي الولاية على ما تم الائتمان عليه، فلا معنى أن نقول هل للمعصوم ولاية أم لا؟ والولاية إن كانت تستدعي العصمة، فلا معنى لكي نسأل عن عصمته أو لا؟ والعصمة حينما تستدعي العلم، فلا معنى أن نسأل إن كان عالماً أو لا؟.. وهكذا بقية الأُمور، فإذا سلّمنا بأمرٍ ما فعلينا أن نلتزم بكلّ ما يترتب عليه.

مما يستدعي ذلك ضرورة حرص الباحث على امتلاك وعي متكامل في شأن معرفة الإمامة والإمام صلوات الله عليه، فمن دونه يغدو البحث ناقصاً، فهو كمن يبحث في شيء لا يفهم إلا جزءاً منه، مما يعني أنه لا يمكنه أن ينتج بحثاً متكاملاً ما دام فهمه لم يتكامل لديه، فالمفتقر إلى شيء لن يتمكن من إعطائه، أو كما قال المثل: فاقد الشيء لا يعطيه!

تذييل

مصادر أحاديث علامات الظهور

وجدت من المناسب أن أختم هذا الفصل بالتوقف قليلاً عند المصادر التي نستلّ منها حديث علامات الظهور، إذ من الواضح أن يجد الإنسان حين مطالعته للكتب التي أُلفت بهذا الصدد كثرة المصادر التي تؤخذ منها هذه الأحاديث، وحتى لا يختلط على القارئ الكريم حابل هذه المصادر بنابلها، أو يقع ضحية التردد والتوجّس: أيّ المصادر يعتمد؟ وأيُّها يذر؟كان لزاماً عليّ أن أنبّه على جملة من الملاحظات الأساسية في هذا المجال، وأملي أن تكون مورد فائدة للباحثين في هذا المجال.

وقبل استعراض هذه الملاحظات أجد ان من المهم الإلماع الى حقيقة مؤلمة، وهي ان غالبية ما يتحدث عنه الناس في شأن علامات الظهور مستند الى روايات لا علاقة لها بمصادر أهل البيت عليهم السلام.

وبالرغم من إن بعض علمائنا الذين نقلوا روايات العامة في كتبهم تحدثوا في نفس مواضع النقل الى عامية هذه الروايات، وهم لا يتحملون وزر ما يمكن أن يعتورها كما هو الحال في كتاب الملاحم والفتن للسيد ابن طاووس، ولكن ما يؤسف له ان الناس حينما قرأت الكتاب أنشغلت بالروايات دون الاطلاع على هويتها الحقيقية وطبيعة مصداقيتها.

على أي حال فإننا ننبه الى الملاحظات التالية:

أ: لا يوجد كتاب حديثي لدى الشيعة الإمامية يمكن الاعتماد عليه بصورة مطلقة، فكل الكتب التي لدينا تخضع فيما تنقل من حديث أهل البيت عليهم السلام لموازين عدّة، بما فيها أجلّ الكتب وأكثرها اعتماداً، ولهذا محض ورود رواية في كتاب معين لا يدلّ على كونها معتمدة أو يصحّ الاعتماد عليها، وإنما يجب إخضاعها للموازين الخاصة بعلم الحديث، وقد لاحظت بأن بعض المواضيع يتم التعامل معها وفق منهج التشدد السندي كما هو الحال في المواضيع التي تدخل في مجالات استنباط الأحكام

الشرعية، وبعضها يتم التعامل معها وفق منهج التسامح في أدلة السنن كما هو الحال في مواضيع الأدعية والآداب العامة، فيما بعضها يتم التعامل معها وفق الخلط بين مناهج عدة وضمن معايير محددة كما هو الحال في شأن المواضيع التاريخية والعقائدية وكذا هو الحال في شأن مواضيع علامات الظهور.

ب: إن أحاديث علامات الظهور منتشرة في الكثير من المصادر الحديثية دون انحصارها بكتاب محدد، ولأن هذه الأحاديث من ميزتها كما أسلفنا من قبل أنها قد لا تتحدث بكل التفاصيل المتعلقة بهذه العلامة أو تلك، لتجد بقية التفاصيل في أحاديث أخرى، مما يجعل الباحث عن هذه التفاصيل مدعو إلى أن لا ينكفئ عند مصدر دون آخر، وإنما عليه أن يتابع كل التفاصيل أينما وجدت.

ج: إن اهتمام المصادر الحديثية بأحاديث علامات الظهور متفاوت، وقد يشار له في باب مستقل وقد لا يشار له أصلاً وإنما قد يأتي في طيات حديث لا علاقة مباشرة له بهذه العلامات، وقد تجد هذه الأحاديث مجموعة في كتب متخصصة في موضوعه، وقد تجدها متناثرة بين طيات الأبواب والأحاديث، وكثرة التتبع والاطلاع هو الذي ينمّي خبرة الباحث والمحقق في هذا المجال.

د: إن الكتب الحديثية المهتمة في هذا الموضوع متفاوتة في قربها وبعدها عن صاحب النص، وعلى الباحث أن يراعي أولاً الأقرب فالأقرب، فكتب جليلة القدر ككتاب **«بحار الأنوار»** أو **«وسائل الشيعة»** أو **«مستدرك الوسائل»** وما إلى ذلك من الجوامع الحديثية مع إنها جمعت ما في بقية الكتب من أحاديث وروايات ووضعتها في طياتها، إلا إنه لا يحسن بالباحث الرجوع إليها من دون الرجوع إلى المصدر الذي نقلت منه، بعد أن غدت الغالبية العظمى لهذه المصادر بين أيدي طالبيها، ولهذا فإن الاعتماد على الأصول أولى من الإعتماد على من نقل عنها، وما يحبّذ هنا أن لا يكتفي الباحث أيضاً بالأصول دون الرجوع إلى من نقل عنها في الأعصر المختلفة للتأكد مما إذا كانت النسخة التي بين يديه هي نفسها التي كانت بين يدي المتقدمين على عصره أو لا، وكذا للتأكد مما إذا كان ثمّة تدخّل من قبل النسّاخ أو المحققين الآخرين لسبب أو لآخر مما قد لا يصحّ تدخّلهم فيه عند هذا الباحث أو ذاك، فعلى سبيل المثال قد نجد حديثاً ما في كتاب الغيبة للشيخ الطوسي قدّس الله نفسه الزكية، ونريد أن نتأكد إن ما هو بين أيدينا هو عين ما كان في النسخ التي كانت بين أيدي العلماء الأقرب إلى الشيخ الطوسي، ولذلك فإن الرجوع إلى من نقل من العلماء السابقين أحاديث الغَيبة كله أو بعضها هو الذي يعطينا الاطمئنان والوثوق بما في

أيدينا، ولهذا فإن مراجعة ما نقله الشيخ الإربلي في كتاب **«كشف الغمة في معرفة الأئمة عليهم السلام»**، أو الشيخ ابن شهرآشوب في كتاب **«المناقب»**، أو الشيخ قطب الدين الراوندي في **«الخرائج والجرائح»**، أو الشيخ الطبرسي في **«إعلام الورى بأعلام الهدى»** وصولاً إلى العلامة المجلسي في بحاره على سبيل المثال هو الذي يوصلنا إلى حالة الوثوق المطلوبة، ومن يراجع بحثنا في كتاب **«راية اليماني الموعود»** سيجد كيف لاحقنا ما تم إضافته من قبل النسّاخ أو المحققين لبعض النصوص في شأن تبعية اليماني إلى اليمن، وكيف وجدنا إن غالبية ما ينقل في هذا الصدد قد تم إضافته من قبل النسّاخ أو الشرّاح أو المحققين من دون أن يكون له أثر في أصل الحديث.

هـ: إن الكتب التي تعتبر مصادر رئيسية في مجالات علامات الظهور هي التي نقلت الروايات مباشرة عن الأصول الرئيسية لكتب أصحاب الأئمة صلوات الله عليهم، وفي العادة يمتد وجودها إلى عهد الشيخ الطوسي رضوان الله عليه باعتبار إن أصول كتب الأصحاب كانت لديه قبل إحراق مكتبته في بغداد ونهبها عام ٤٤٩[١] وذلك قبل إحراق مكتبة الشيعة الكبرى المسماة بدار العلم والتي أسسها الوزير البويهي أردشير بن سابور في الكرخ عام ٣٨١ [٢] وقد كان فيها حين أحرقت من قبل طغرلبك عام٤٥٠ أكثر من عشرة آلاف كتاب.[٣]

وغالبية ما تم تأليفه بعد عهد الشيخ الطوسي إن لم يكن جميعه هو معتمد على كتب تلك الفترة، وهذه التأليفات يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، إذ يلاحظ فيها إن بعضها متخصص في علامات الظهور، وبعضها مكثر في الحديث عنها، ولكنه ليس متخصصاً فيها، والقسم الثالث هو ما مرّ على هذه الروايات مروراً سريعاً دون أن يستهدفها بالضرورة.

أما المتخصص فيها، فما وصلنا منها ثلاثة وهي:

---

١ الكامل في التاريخ ٨: ٨١. وقال ابن الجوزي في المنتظم: في صفر هذه السنة (٤٤٩) كبست دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بالكرخ واخذ ما وجد من دفاتره وكرسي كان يجلس عليه للكلام واخرج ذلك إلى الكرخ وأضيف إليه ثلاثة مجانيق بيض كان الزوار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم إذا قصدوا زيارة الكوفة فأحرق الجميع. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٦: ١٦ .

٢ خطط الشام ٦: ١٨٥ .

٣ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٥: ١٧٢ .

أ: **كتاب الغَيبة**: للشيخ ابي عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر الكاتب المعروف بابن ابي زينب النعماني المتوفي في حدود ٣٦٠ للهجرة، وكتابه يعرف باسمه في العادة، وهو أكثر الكتب تخصصاً في موضوعه، وقد أحال الشيخ المفيد رضوان الله عليه على الكتاب وقال في نهاية باب النص على إمامة القائم المهدي عليه السلام: وهذا طرف يسير مما جاء في النصوص على الثاني عشر من الأئمة عليهم السلام، والروايات في ذلك كثيرة قد دوّنها أصحاب الحديث من هذه العصابة وأثبتوها في كتبهم المصنفة، فممن أثبتها على الشرح والتفصيل محمد بن إبراهيم المكنى أبا عبد الله النعماني في كتابه الذي صنّفه في الغيبة.[١]

ب: **كمال الدين وتمام النعمة** للشيخ الصدوق علي بن الحسين بن بابويه القمي المتوفي سنة ٣٨١ للهجرة، وغالبية الكتاب في إثبات الغيبة إلا إنه حوى على عدد كبير من الروايات الخاصة بعلامات الظهور.

ج: **كتاب الغَيبة** لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي المتوفي في ٤٦٠ للهجرة، وهو أشمل وأوفر من كتاب كمال الدين وتمام النعمة في مجال ذكر أحاديث علامات الظهور.

ويضاف الى ذلك ما كتبه السيد علي بن عبد الكريم بن عبد الحميد النيلي النجفي وهو من أعلام القرن الثامن وبدايات التاسع في كتابيه "**منتخب الأنوار المضيئة**" و"**سرور أهل الإيمان في علامات ظهور صاحب الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف**" فهو وإن نقل عن المصادر الآنفة إلا إني وجدته ينقل مباشرة عن كتاب للفضل بن شاذان وهو من الأصول القديمة؛ وكذا من كتاب ابن عقدة وهو الذي ينقل عنه النعماني كثيراً في كتابه وقد نقلها عنه صاحب البحار، والكتابين من أجلّة الكتب في بابها والثاني أخص من الأول في مبحثنا هذا

أما المكثر في ذكر هذه الأحاديث دون أن يتخصص فيها فأكثرها هو:

أ: **تفسير علي بن إبراهيم بن هاشم القمي** وهو من أعلام القرن الرابع وممن عاصر الإمام العسكري صلوات الله عليه، ومن الرواة الكبار الثقاة، وقد حوى تفسيره على عدد كبير من الروايات ذات العلاقة بعلامات الظهور.

ب: **مختصر بصائر الدرجات** لشيخ الطائفة وفقيهها سعد بن عبد لله الأشعري

---

١ الإرشاد ٢: ٣٥٠ .

المتوفي عام ٣٠١ للهجرة وهو ممن رأى الإمام الحجة المنتظر روحي فداه، وقد وصل كتابه الى الشيخ الحسن بن سليمان الحلي وهو من أعلام القرن الثامن، والكتاب يشتمل على الكثير من الروايات في هذ المجال.

ج: **تفسير محمد بن مسعود العياشي** المتوفي في ٣٢٠ للهجرة، وهو من أعلام الطائفة وقد تضمن تفسيره الكثير من هذه الأحاديث، وبالرغم من قيام ناسخ الكتاب باختصار الكتاب فحذف أسانيده، إلا إن غالبية هذه الأسانيد مشار إليها في الكتب الحديثية السابقة له، وقد لاحظ عن الشيخ الطبرسي في **مجمع البيان** أنه ينقل عنه في غير موضع أحاديث متصلة السند، مما يعطي لاحتمال أن تكون نسخة التفسير التي لديه هي نسخة ما قبل اختصار الناسخ له.

د: الكافي: لثقة الإسلام محمد بن يعقوب الرازي الكليني المتوفي سنة ٣٢٦ للهجرة، وقد روى في الجزء الأول من أصول الكافي وكذا في الروضة عدة من الروايات الخاصة بالغيبة.

هـ: **دلائل الإمامة**: للشيخ أبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الإمامي وهو من أعلام القرن الرابع الهجري، وحفلت أبواب آخر الكتاب بمثل هذه الروايات.

و: **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**: لمفيد الطائفة وشيخها محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المتوفي عام ٤١٣ وقد تضمنت أبوابه الأخيرة على عدد وافر من هذه الأحاديث.

أما المقلّ من هذه المصادر ففي الواقع تتضمن غالبية الكتب المتبقية بعضاً من الأحاديث الخاصة بعلامات الظهور، ولكنها لم تفرد أبواباً خاصة بها ولم تستهدفها بشكل عام، ولعل أهمها:

أ: **كتاب سليم بن قيس الهلالي**: والكتاب هو أول كتاب مدوّن في التاريخ الإسلامي وصل إلى زماننا، ومؤلفه هو سليم بن قيس الهلالي الكوفي التابعي والمتوفي في سنة ٧٦ للهجرة، وهو من أصحاب أمير المؤمنين والحسنين والإمامين السجاد والباقر عليهم السلام أجمعين، وقد روى سليم بعضاً من العلامات بصورة عرضية.

ب: **الأصول الستة عشر**: وهو مجموعة من الأصول الحديثية التي رواها

أصحاب الأئمة عليهم السلام، ويحتوي على ستة عشر أصلاً وقد ورد في بعضها بعض أحاديث علامات الظهور.

ج: **قرب الإسناد**: وهو للثقة الجليل أبي العباس عبد الله بن جعفر الحميري وهو من أصحاب الإمامين العسكريين صلوات الله عليهما، وقد وقع في داخل ثناياه عدة أحاديث تدخل في أحاديث علامات الظهور.

د: **الأمالي أو المجالس**: للشيخ الصدوق وقد أورد فيه عدداً من هذه الأحاديث.

هـ: **الأمالي**: للشيخ المفيد وقد أورد فيه أيضا عدداً من الروايات الداخلة في هذا المضمار.

و: **أمالي شيخ الطائفة**: والكتاب من جزئين أحدهما لما أملاه شيخ الطائفة والآخر ما أملاه ولده أبو علي عن شيخ الطائفة، وفيه عدد من الروايات الداخلة في هذا الباب.

*****

هذا وقد اشتملت كتب أخرى لم ترق في اعتبارها إلى ما رقت إليه هذه الكتب، كما هو الحال في كتاب **الهداية الكبرى** للحسين بن حمدان الخصيبي المتوفي في ٣٣٤ للهجرة، وقد تضمن بعضاً من خطب أمير المؤمنين عليه السلام، وأحاديث منسوبة للمفضل بن عمر الجعفي، ولكن وقع الخلاف في شأن اعتبار الحسين بن حمدان، وكلام الرجال في تضعيفه واضح، ولكن يبقى إن الأحاديث التي رواها في الكتاب، فيها ما في بقية الكتب من الصحيح والضعيف، وهو قد أورد جانباً من علامات الظهور لا سيما في الباب الأخير، ولذلك فإن العبرة في طبيعة ما روى، وليس في طبيعة ما قيل عنه.

وقد جاء في بعض ما نسب لأمير المؤمنين عليه السلام من حديث مستفيض في علامات الظهور كما هو الحال في خطبة البيان والخطبة المعروفة بالتطنجية وغيرهما، وقد احتدم الجدل في اعتبار خطبة البيان بين العلماء بين منكر لها، وبين من يعلي من شأنها ويعمد لشرحها ويسعى لتفكيك لغتها الملغّزة جداً، ومما لا ريب فيه إن السند الذي أورد لهذه الخطبة غير موثوق به، ولا يمكن الاعتماد عليه، كما إن بعضاً من متنها في جوانبه التاريخية فيه خلل واضطراب بيّنين، وحديثها العقائدي لا يوجد فيه ما يخشى منه على وجه العموم، بالرغم من حاجته للتوضيح وتعضيد هذا

الحديث بالقرائن التي تخرج الحديث من إطار ما يوهم بأنه غلو، وفيما يتعلق بحديث علامات الظهور والتحدّث بمستقبل الأيام بالنسبة لعصر الأمير صلوات الله عليه فمما لا شك إنه بعضه قد تحقق، وفيها مما يتوافق ومما لا يتوافق مع المرويات الصحيحة، كما أن فيها ما بين هذا وذاك مما يحتاج إلى تأويل، كما إن من المؤكد وقوع قطع مهمة من الخطبة في كتب العامة التي نقلت حديث أهل البيت عليهم السلام كما هو الحال في كتاب **الفتن** لنُعيم بن حماد، و**الملاحم** لابن المنادي وهي أهم ما في كتب القوم في بحثنا هذا وسيأتي الإشارة إليها عما قريب، ولذلك في تصوري إن رد الخطبة لمجرد ضعف سندها ووهن بعض ما في متنها لا يتسم بالموضوعية، وفي عين الحال فإن إعطائها القداسة التامة هو الآخر مجانف للموضوعية العلمية، والأصل أن يؤخذ منها ما يمكن أن يميط اللثام عن تفاصيل الأحاديث الصحيحة في مجال علامات الظهور، وإيكال ما تبقى لمستقبل الأيام لكي تكشف عن حقيقته.

أما بقية الكتب فيجب أخذ الملاحظات التالية بالاعتبار:

أولاً: إن ما تم تأليفه من الكتب الحديثية من بعد هذه الكتب التي تم ذكرها أعلاه ككتاب **"الخرائج والجرائح"** للقطب الراوندي المتوفي في عام ٥٧٣، وكتاب **"إعلام الورى بأعلام الهدى"** للشيخ الطبرسي وهو من أعلام القرن السادس، وكذا كتاب **"كشف الغمة في معرفة الأئمة"** للشيخ علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي المتوفي في عام ٦٩٣، وصولاً إلى الكتب المتأخرة ككتاب **"الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة"** للشيخ الحر العاملي المتوفي عام ١١٠٤، وكذا ما جمعه الشيخ المجلسي المتوفي عام ١١١٠ في **"بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام"**، وكتاب **"إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب"** للشيخ علي الحائري المتوفي في عام ١٣٣٣، **وكتاب "بشارة الإسلام في ظهور صاحب الزمان عجل الله فرجه"** للسيد مصطفى آل حيدر الكاظمي المتوفي في حدود ١٣٣٦، وكذا كتاب **"مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم عليه السلام"** للسيد محمد تقي الموسوي الأصفهاني المتوفي في عام ١٣٤٨، وأمثالها، أقول كل هذه الكتب في ما نقلته من أحاديث علامات الظهور الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام إنما كانت ناقلة لهذه الأحاديث من المصادر التي تم ذكرها أعلاه، وليس فيها شيء جديد من حديث أهل البيت عليهم السلام.

ثانياً: ما كتبه العلامة السيد ابن طاووس الحلي في كتابه: **"التشريف بالمنن في**

التعريف بالفتن"، والذي عرف فيما بعد زمانه بكتاب الملاحم والفتن، إنما هو منقول في غالبيته العظمى من مصادر العامة، وليس فيه من حديث الخاصة إلا النزر القليل جداً، فلقد نقل فصله الأول من كتاب الفتن لنُعيم بن حماد، وفصله الثاني من كتاب الفتن لأبي صالح السليلي ابن أحمد بن عيسى ابن شيخ الحساني في نسخة تعود لسنة سبع وثلاثمائة، وفصله الثالث من كتاب الفتن لأبي يحيى زكريا بن يحيى بن الحارث البزاز النيسابوري المتوفي في حدود عام ٣٠٠، واما الفصل الرابع والأخير فهو خليط ما بين مصادر العامة وبعض يسير من مصادر الخاصة إلا إن الطريق إلى هذه الأخيرة غير مشخّصة المعالم، فهي منقولة من نسخ وصلت إلى عهد السيد ابن طاوس كما هو الحال في مشيخة الحسن بن محبوب وكتاب قرقارة الكاتب وأمثالها، وما عدا كتاب الفتن لابن حماد فإن بقية الكتب لم تطبع على حد علمي.

ولهذا فإن المعوّل الرئيسي في مصادر أحاديث أهل البيت عليهم السلام في شأن علامات الظهور يبقى في الكتب الأولى المشار إليها.

*****

بالنسبة لكتب أهل السنّة فهي الأخرى فيها المتخصص في حديث العلامات وفيها غيره، وأهم مصادرها المتخصصة في هذا المجال ما يلي:

أ: **كتاب الفتن**: لنُعيم بن حماد المُروزي المتوفي في سنة ٢٢٨ وهو سجين في سامراء في قضية ما يعرف بمحنة خلق القرآن، وكتابه نقل فيه الكثير من حديث أهل البيت عليهم السلام، ولا سيما عن الأئمة الثلاثة أمير المؤمنين والحسين والباقر عليهم السلام، وقد نقل السيد ابن طاووس الكثير من رواياته في الفصل الأول من كتابه الشريف بالمنن في التعريف بالفتن والمعروف بالملاحم والفتن، وقسم من مروياته منقولة مباشرة من مصادر شيعية وإن لم يصرّح بذلك، غير إن عدداً لا يستهان به مما رواه قد تم عن طريق غير طرق مدرسة أهل البيت عليهم السلام، مع التنبيه إلى إن الأئمة صلوات الله عليهم لم يحصروا حديثهم بأصحابنا فقط ولا سيما الإمام الباقرصلوات الله عليه الذي كان حريصاً على ما يبدو على تسريب أكبر قدر ممكن من حديث مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلى داخل منظومة الفكر الآخر لمحاولة التأثير والتصحيح من الداخل، مستفيداً من طبيعة الظرف الاجتماعي والسياسي آنذاك، خصوصاً وإن عصره بأبي وأمي قد شهد رفع القيد عن تدوين الحديث النبوي والذي كان ممنوعاً طوال الفترة الممتدة من عهد أبي بكر وحتى عهد عمر بن عبد العزيز،

ولهذا تجد حديثه في كتب العامة أكثر من أي إمام آخر.

ب: **كتاب الملاحم**: لمحمد بن جعفر بن محمد المعروف بابن المنادي المتوفي في عام ٣٣٦، ونسق الكتاب نفس نسق كتاب ابن حماد المتقدّم، وينطوي على الكثير من حديث أهل البيت عليهم السلام.

ج: **كتاب السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها** لأبي عمرو عثمان ابن سعيد المقرئ الداني المتوفي في عام ٤٤٤ وهو أكبر من الكتابين أعلاه ونقل عنهما وعن غيرهما ولعله أشمل منهما إلا إن حديث أهل البيت عليهم السلام أقل مما في الكتابين أعلاه.

د: **كتاب عقد الدرر في أخبار المنتظر** ليوسف بن يحيى بن علي بن عبد العزيز المقدسي الشافعي السلمي المتوفي في عام ٦٨٥، وأخباره متقاربة مع الكتب السابقة له، وقد نقل عنها كثيراً.

وقد كتب من بعد هؤلاء ابن كثير الدمشقي المتوفي في سنة ٧٧٤ كتاب **النهاية في الفتن والملاحم** إلا إنه نادراً ما روى عن أهل بيت العصمة والطهارة وغالبيته عن أحوال يوم القيامة، وهو ليس بذاك.

وكنت قد أشرت سابقاً إلى إن منهاجنا في التعامل مع الروايات الواردة في كل هذه الكتب هو الاعتماد على الموثّقة منها كأصل والإستعانة بغيرها كمعضّد أو كمفصّل إن سمحت القرائن الحافة بالنهوض بكسر سندها، والله العالم.

الفصل الخامس

استحقاقاتُ حركةِ الإنتظارِ والتّعاملُ معها

ترافق حركة الانتظار جملة كبيرة من الاستحقاقات، ودراسة هذه الاستحقاقات يعدّ أمراً هاماً جداً؛ لأنها تتيح للإنسان المنتظِر خيارات أكبر وأكثر أثناء الوصول إلى مفارق الطرق الصعبة، أو حينما تمر المسيرة في المآزق أو ما نصطلح عليه بمرحلة: عنق الزجاجة، بحيث لا يفاجئه الحدث المقترن بالبلاء والفتن، ولا يخنقه هذا الحدث بطبيعة ما يترتب عليه من إفرازات مضنية متعددة، فلقد حدّثته هذه العلامات بكثيرٍ مما سيجري، بل لعلنا ـ ومن خلال خصوصية حديث أهل البيت عليهم السلام[1] في هذا المجال ـ نكاد نجزم أن الروايات تحدثت عن كلّ أشكال هذا البلاء بصوره العامة، بالشكل الذي ألقت معه الحجة على المنتظِر في التهيؤ لأحداث الظهور واستحقاقاته.

وعوداً على بدء، يجب أن يكون واضحاً أن كثرة الروايات التي تحدثت عن شديد الفتن وعظيم البلاء التي سيمر بها المنتظِرون ومجتمعاتهم، إنما يراد منها أن تكون منبّهاً ومحذّراً لهذا المجتمع لكي يأخذ للأمر أهبته، ويستعد لاستحقاقات هذا البلاء، مثلها مثل الآلام التي تنبّه المريض إلى وجود خلل قد يتسبب بأمر أخطر، وبالتالي لكي يستعد لتلافي ذلك، ويحتاط لكلّ ما يترتب عليه جراء ذلك.

ومن حسن الحظ، فإن الروايات أشارت في غير موضع إلى أن الإنسان بإمكانه أن يتخلص من هجمة البلاء وقسوته، لو أحسن الاحتياط لذلك، وأن لا يبقى أسيراً مستسلماً أمام هجمة البلاء وقسوته، ويظهر ذلك واضحاً في مثال قسوة أحداث السفياني على المنتظِرين؛ إذ إن حديث الأئمة صلوات الله عليهم تميّز بأمرين وُضِعا

---

١ باعتبار أن الحديث في هذه العلامات لم يأت جميعه من طرق أهل البيت عليهم السلام وحسب كما بيّنّا، ولكن يتميز حديث أهل البيت صلوات الله عليهم في أنهم كانوا ملتزمين بالعناية الشديدة بشيعتهم من خلال تحديثهم بالذي سيجري عليهم، مما يعطيهم فسحة الخيار والمناورة والاستعداد أمام هذه الأحداث، في وقت نلاحظ أن حديث غيرهم تركّز على عموميات في هذا المجال، مع تأكيد على المظاهر العامة للعلامات، بعيداً عن دقة هذه المظاهر وعدمها.

سلفاً لتدارك هذه الحالة، فالتخويف من شدة البلاء في عهد السفياني، وهو الأمر الذي وسم حديثهم صلوات الله عليهم عن هذا الملعون، اقترن في نفس الوقت بحديث يضع سبل التخلص من أهوال هذا البلاء من أجل تخفيف الضرر على هذا المجتمع، ففي الوقت الذي تجد التحديث عن أفعال السفياني وهو يتّسم بتلك القسوة المصوّرة بالرواية المنسوبة لعمّار بن ياسر رضوان الله عليه: "ثم يسير إلى الكوفة فيقتل أعوان آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويقتل رجلاً من مسمّيهم".[1]

أو بما رواه عمر بن أبان الكلبي، عن أبي عبد الله الصادق صلوات الله عليه، قال: "كأني بالسفياني، أو بصاحب السفياني، قد طرح رحله في رحبتكم بالكوفة، فنادى مناديه: من جاء برأس رجل من شيعة علي فله ألف درهم، فيثب الجار على جاره ويقول: هذا منهم؛ فيضرب عنقه ويأخذ ألف درهم".[2]

إلا أننا نجد في رواية أُخرى ما يعرب عن الصورة الثانية التي أشرنا إليها؛ إذ ينقل محمد بن مسلم الثقفي رضوان الله عليه، عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث طويل، إلى أن يقول: "مع أن الفاسق[3] لو قد خرج لمكثتم شهراً أو شهرين بعد خروجه لم يكن عليكم بأس، حتى يقتل خلقاً كثيراً دونكم.

فقال له بعض أصحابه: فكيف نصنع بالعيال إذا كان ذلك؟

قال: يتغيّب الرجل منكم عنه، فإن حنقه وشرهه فإنما هي على شيعتنا، وأما النساء فليس عليهن بأس إن شاء الله تعالى.

قيل: فإلى أين يخرج الرجال ويهربون منه؟

فقال: من أراد منهم أن يخرج، يخرج إلى المدينة أو إلى مكة أو إلى بعض البلدان؛ ثم قال: ما تصنعون بالمدينة؟ وإنما يقصد جيش الفاسق إليها[4]، ولكن عليكم بمكة، فإنها مجمعكم، وإنما فتنته حمل امرأة، تسعة أشهر لا يجوزها إن شاء

---

١ غيبة الطوسي: ٤٦٤ ح٤٧٩، والمراد هنا أنه يقتل أحد أعلام الشيعة ووجهائهم.

٢ غيبة الطوسي: ٤٥٠ ح٤٥٣ .

٣ يعني السفياني الملعون.

٤ قوله صلوات الله عليه هذا ليس على نحو التردد، وإنما هو إشارة إلى عدم المكوث في المدينة؛ لأن المكوث فيها سيبقي الضرر المتوخى رفعه من عملية الهروب منه من الكوفة، ولهذا فهو يوصي أن لا يبقى أحدٌ في المدينة قبل دخول الملعون إليها، ومن البديهي أن هذا المطلب ليس مطلباً انهزامياً، وإنما هو بلحاظ معطيات ساحة المنتظِرين التي لن تقوى على مجابهة زخم حركة السفياني.

الله". [1]

والرواية في حدودها هذه واضحة الدلالة في عدم الاستسلام إلى المخاطر والوقوف منها موقف المقيَّد الذي لا يقوى حراكاً، وإنما لا بُدّ من التعامل معها بطريقة يمكن تلافيها أو تخفيف وطأتها بما يمكن، وبكلّ طريقة ممكنة، وعدم الركون لخيارات انسداد الأفق التي تعطل إرادة مقاومة هذه المخاطر وتشلّ من قدرتها، فمثلاً يمكن ذلك من خلال ما أشار إليه صلوات الله عليه من طريقة البعد عن أنظار السفياني، كنموذج من نماذج هذا الخطر، وهذا الحديث موجّه إلى مَن لم يدرك حركة اليماني التي ستقاتل السفياني الملعون إثر هذه المجازر التي يفتعلها بأهل الكوفة ومن قبلهم بالدجيل وعقرقوف وبغداد.

---

١ غيبة النعماني: ٣١١ - ٣١٢ ب١٨ ح٣ .

المبحث الأول

حقائق موضوعية في طريق الانتظار:

قبل الحديث عن الاستحقاقات المترتبة على السعي باتجاه الظهور الشريف يجب وضع جملة من الحقائق نصب أعيننا؛ لِما لها من دلالة كبرى وأهمية بالغة في فهم التحرك في ساحة الانتظار، وسنتابع ـ بطبيعة الحال ـ هذه الحقائق وفقاً لمبانينا الفكرية العامة، وتبعاً لما أشار إليه حديث أهل البيت عليهم السلام، وذلك عبر النقاط التالية:

أ ـ حاكمية السُنّة التاريخية:

إن الاستحقاقات المترتبة في ساحة الانتظار هي ثمرة طبيعية للسلوكية الذاتية والاجتماعية لمجمل الساحة المحيطة بعالم المنتظِرين، فالمنتظرون لا يمارسون عملهم إلا ضمن محيط اجتماعي تتداخل فيه التفاعلات السلبية والإيجابية تأثيراً وتأثراً، فقد لا يكونون هم مَن تسبّب بهذه الأحداث، وقد لا يكونون ـ كذلك ـ عاملاً أساسياً فيها، ولكنهم يتأثرون بها تارة، ويخضعون لاشتراطاتها تارة أُخرى، كأناس ومجاميع تعيش فتؤثر وتتأثر بالأوضاع العامة للمجتمع، مثلهم مثل بقية أفراد المجتمع؛ إذ إن مجتمع المنتظِرين لا يعيش في جزيرة مستقلة منعزلة، لكي يحسب أنه بمنأىً عن التأثر بأفعال الآخرين، وإنما هو فاعل ومنفعل في مجريات الساحة بطريقة أو أُخرى، وهو بالنتيجة سيخضع لكلّ موجات الزخم العالي التي تطال الواقع الاجتماعي، سواء كانت صالحة أو طالحة، حتى لو لم يكن طرفاً في المقوّمات الظاهرية لهذه الموجات، وذلك وَفقاً للسُنّة الإلهية التاريخية التي يشير إليها قوله جلّ وعلا: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[1]

فالإمام الحسين صلوات الله عليه، لم يك طرفاً في الظلم الاجتماعي الذي جاء به بنو أمية، ولكنه كان ضحية علو موجة هذا الظلم الذي تمكن من ضرب أطنابه في

---

١ الأنفال: ٢٥ .

الواقع الاجتماعي بشكل تمكّن من توجيه طغيانه حتى إلى من لم يدنُ من أي نمط من أنماط الظلم.

وهذه الحقيقة الراسخة تضعنا أمام صورة موضوعية لطبيعة الحراك الاجتماعي الذي يجب أن يضطلع به المنتظِرون، فهذه الساحة ـ مثلها مثل أيّ ساحة اجتماعية ـ محكومة بنفس السنن التاريخية الربانية التي تحكم الساحات الأخرى، وبالنتيجة فهي ليست بدعاً من أحداث صراع الحق والباطل والعدل والظلم، مما يعني أن التصدي فيها للتعامل مع الظلم والظالمين يجب أن يجابه بموضوعية تامة بنفس أدوات هذا التصدي في أي ساحة من الساحات، فالحق لا يتقدم بمعجزة أو بصورة فوضوية، والضلال لا يندحر بصدفة أو بصورة سحرية، والعكس صحيح تماماً، وإنما يحصل كلّ ذلك وَفق آليات موضوعية أُعدّت لهذا الغرض.

وهذا الفهم مطلوب كضرورة موضوعية؛ وذلك لوجود تثقيف مستمر يجري لأغراض عدة وبصور متعددة في ساحة المنتظِرين، يدعوهم للانكفاء والانعزال بعيداً عن ساحة التفاعل الاجتماعي، ولربما يجري تارة بدافع حفظ النفس استبقاءً لها لظهور الإمام (روحي فداه)، وأخرى للنأي عن ساحة البلاء كما يسمونها، وثالثة لليأس من إمكانية التغيير، ورابعة بسبب الحكم على كلّ راية تخرج قبل ظهور الإمام (روحي فداه) بأنها راية ضلال وَفقاً لبعض الروايات[1]، وهنا قد تختلط نوازع متعددة، ولكن مهما يكن فممّا لا ريب فيه أن النأي عن ساحة التفاعل لا تحصّن النائين عن البلاء في حال وقوعه؛ لأن استحقاقاته الاجتماعية والسياسية لن تتوقف عند من ينشطون في ساحة الفعل الاجتماعي، وإنما تمتد إلى كلّ أطراف المجتمع، سيان في ذلك من كان فاعلاً أو كان خاملاً.

ب ـ طريق ذات الشوكة:

إن هذه الاستحقاقات قد تأتي نتيجة لأعمال وممارسات نفس الساحة الخاصة

---

١ المراد بالراية هنا ـ على ما يبدو ـ هو الخروج باسم أهل البيت عليهم السلام، ولهذا حكمت بأنّ كلّ راية هي راية ضلال، وهذا ضمن سياسة الأئمة صلوات الله عليهم قبل ظهور الحجة صلوات الله عليه؛ لتحصين الأمة من رايات ودعاوى المدّعين وأصحاب الأهواء، ومن الواضح أن الرايات التي تدفع الأذى عن المجتمع والأمة، أو التي تعمل للدفاع عن الأمة لا تحكم بذلك، بل لها مقياس مختلف هنا.

بالمنتظِرين في بعديها الشيعي العام والخاص[1]، سواء كانت هذه الأعمال والممارسات خاطئة أو لا، وبالنتيجة فهي تداعيات لمعركة وممارسة أداها المُنتظِر لسبب أو لآخر، فما من معركة وممارسة تخلو من الصور السلبية في الحياة، ولا يمكن تصور انعدام جانب الألم والمعاناة والجهد المضني المترافق مع شظايا ذلك، ومع المعارك المنتصرة والممارسات الموفّقة هناك كثير من التضحيات التي يجب أن يتم توقعها ويجب بذلها، فهناك شهادة وجراح وأسر وتقتيل وتشريد، وما إلى ذلك، وهي سُنّة طبيعية وجدناها في معارك الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله المنتصرة، ووجدناها في قمة ممارساته الموفّقة، كما هو الحال في إعلان الدعوة وما صاحب ذلك من رحلة طويلة من المعاناة والمشقة والصعاب امتزجت في كثير من الأحيان بدماء غالية وأرواح عزيزة.

وقد أشير إلى جوانب من هذا المفهوم في روايات عدة منها:

ما رواه أبو بصير، عن الإمام الصادق صلوات الله عليه، قال: قلت له: ما لهذا الأمر أمد ينتهي إليه ويريح أبداننا؟ قال: "بلى، ولكنكم أذعتم فأخّره الله".[2]

وروى إبراهيم بن مهزم، عن أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: ذكرنا عنده ملوك آل فلان، فقال: "إنما هلك الناس من استعجالهم لهذا الأمر، إن الله لا يعجل لعجلة العباد، إن لهذا الأمر غاية ينتهي إليها، فلو قد بلغوها لم يستقدموا ساعة ولم يستأخروا".[3]

وروى أبو بصير، عنه صلوات الله عليه، قال: "لا بُدّ لنار من أذربيجان لا يقوم لها شيء، وإذا كان ذلك فكونوا أحلاس بيوتكم، وألبدوا[4] ما ألبدنا، فإذا تحرك متحركنا فاسعوا إليه".[5]

وعن أبي الجارود، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: "ليس منّا أهل

---

١ وأعني بذلك ساحة نفس العاملين من أجل التمهيد للظهور الشريف، فالشيعة ليسوا جميعاً من العاملين من أجل التمهيد وإن آمنوا بفكرة الظهور وأحبوها..

٢ غيبة النعماني: ٢٩٩ ب١٦ ح١ .

٣ غيبة النعماني: ٣٠٦ ب١٦ ح١٥ .

٤ الحلسُ في بيته: إذا لم يبرحه، ولبد في بيته: أقام فيه وسكن.

٥ غيبة النعماني: ٢٠٠ ب١١ ح١ .

البيت أحد يدفع ضيماً، ولا يدعو إلى حق إلا صرعته البليّة".[1]

وفي رواية أُخرى مقطوعة السند عن أبي الجارود، عنه صلوات الله عليه، قال: "واعلم أنه لا تقوم عصابة تدفع ضيماً أو تعزّ ديناً إلا صرعتهم المنية والبلية".[2]

وعن أبي المرهف[3]، قال: قال أبو عبد الله: "هلكت المحاضير! قال: قلت: وما المحاضير؟ قال: المستعجلون، ونجا المقرِّبون، وثبت الحصن على أوتادها، كونوا أحلاس بيوتكم، فإن الغبرة على من أثارها، وإنهم لا يريدونكم بجائحة[4] إلا أتاهم الله بشاغل إلا من تعرّض لهم".[5]

والروايات في هذا الصدد كثيرة جداً، وقد ذكرت بعضاً منها.

هذا، وعلى الرغم من أن بعض هذه الروايات قد قيلت في واقعة معينة ولا تسري بالضرورة على بقية الوقائع، ولكن أردت أن أشير إلى حقيقة موضوعية لا مراء فيها هي أن أعمال المنتظِرين ـ بمعزل عن صحيحها أو خطئها ـ لها هي الأُخرى ضريبة واستحقاق سلباً أو إيجاباً، وبعض هذه الضريبة والاستحقاق يرتبط بهذه الأعمال وجوداً وعدماً، وبالتالي فإن المخططين لأعمال المنتظِرين يجب أن لا يُباغتوا بحصول هذه الاستحقاقات.

وعلى أي حال فإن هذه الإفرازات وما يترتب عليها من أوضاع اجتماعية وأمنية وسياسية واقتصادية وغيرها تعالَج بنفس الطريقة التي تعالَج بها بقية الأزمات، من حيث الوقاية منها، وتقليل أضرارها لو وقعت، واحتوائها، والصبر عليها لو أُقحمت ساحة المنتظِرين بها، أو اقتحمت ميدانها مجاميعُ المنتظِرين.

ج ـ البلاء مِران وتربية وهداية:

إنّ هذه الاستحقاقات هي أحد أساليب التربية الإلهية للمجاميع المنتظِرة، وهي ساحة إعداد جادة، وميدان للمران الفردي والاجتماعي لمجاميع المنتظِرين، وهي

---

١. غيبة النعماني: ٢٠١ ب١١ح٣ .
٢ غيبة النعماني: ٢٠١ ب١١ ح٢ .
٣ من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، كما يشير إلى ذلك الشيخ الطوسي في رجاله: ١٥١ رقم ١٦٩٤، ولا تُذكر له رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في غير هذا الموضع على ما يبدو.
٤ الجائحة: النازلة العظيمة.
٥ غيبة النعماني: ٢٠٣ ب١١ ح٥ .

لطف إلهي بالنتيجة، وإنّ كلّ ما يحصل في ساحة الانتظار بحلوه ومرّه له ارتباط بهذا اللطف بنحو من الأنحاء، ومثل ما رأينا فإن كثيراً من مآسي أهل البيت عليهم السلام على الرغم من أنها كانت عظيمة في مرارتها، وفي طبيعة الغصة التي نجمت عنها، إلا أننا لا نعدم رؤية كثيرٍ من المصالح والفوائد التي عادت على المنتظِرين نتيجة لهذه المصائب والآلام، ولعل السبب في ذلك يعود إلى نفس المبدأ الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾[1] فثمة عناية ربانية عامة، وعناية من الإمام (بأبي وأمي) خاصة، هي التي تجعل الألم الناجم له ارتداد إيجابي ـ في المحصلة ـ على مسيرة المنتظِرين.

وأياً ما يكن، فإن الواجب يستدعي تلقي هذه الاستحقاقات وما ينتج عنها بعنوانها مصاديق لساحة التربية والتمرين الإلهي، وإن معيار النجاح في سباقات هذه التربية هو الصبر والتحمل، والتعلّم لما يجب أن نعمل حاضراً ومستقبلاً، والتدبر في معرفة الظروف المعادية والمشاكسة والمشاغبة والمعطّلة لمشروع المنتظِرين، والتفكير في بدائل وآليات للتعامل مع كلّ هذه الظروف بمستويات المجابهة كافة، باعتبار أن الأحداث الاجتماعية وإن اختلفت ظروف نشأتها وشكلها، إلا أنها تبقى قابلة للتجدد دوماً، ولا تؤثر أية عملية تغيير أو تطور اجتماعي في عدم ديمومة هذه الظروف، التي قد لا تنبثق بشكل واحد، ولكنها تبقى تفرز نفس الآثار التي لمسناها في معارك الأنبياء والأولياء عليهم السلام وحتى يومنا هذا، وستبقى فاعلة حتى مع مجتمع الظهور، فالمال والسلطة والأنا والجنس والطمع، وما إلى ذلك من نوازع نفسية أو ما تثيره من دوافع وبواعث للإرادة الإنسانية كانت تؤثر بشكل جوهري في عوامل الحراك والصراع الاجتماعي، وستبقى من العوامل المؤثرة في نشأة هذه الظروف سلباً وإيجاباً كما كانت من قبل، لأنها من جملة السنن الموضوعية في التاريخ والمجتمع.

د ـ القضاء والقدر ومبدأ التوفيق الإلهي:

بادئ ذي بدء لا بُدّ من الإشارة إلى حقيقة موضوعية يجب أن تبقى ماثلة أمام أعين العاملين، وهي أن المخطط الإلهي لهداية البشرية، المرتبط حالياً بمهام الإمام المنتظر عليه السلام وظهوره الشريف، لا شأن للتكليف البشري به من حيث المبدأ، إنما التكليف أداة من أدوات تنفيذه، ولكنها ليست الأداة الوحيدة والحصرية في تنجيز

---

١ سورة النساء: ١٠٤ .

وتحقيق المخطط الإلهي.

ولهذا، فإن مسار العملية التغييرية الإلهية لا تحكمه ولا تحدّده طبيعة مسعى المنتظِرين أو مسعى أعدائهم والمضادّين للعملية التغييرية، وإنما هناك جملة من العوامل التي تدخل بتوجيه إلهي خاص، أو بألطاف خاصة من قبل الإمام المنتَظر صلوات الله عليه تضبط المسارات العامة بالشكل الذي يقود ويوجّه الأُمور لصالح تقدمية الوعد الإلهي ونجاح إنجازه، كما يشير إلى ذلك عدد غير قليل من الآيات القرآنية الكريمة والروايات الشريفة..

منها: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٣٢ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾[1]، فالآية هنا ناظرة إلى جهد المارقين عن المخطط التغييري الإلهي مع سبق الإصرار، ولكن هذا الجهد مهما بلغ في عنفوانه وفي غيّه وعتوّه وتعسّفه فإنه يبقى أسيراً للوعد الإلهي، فالله حافظٌ لدينه، متمٌّ لنوره، وما الوعد المهدوي إلا مصداقاً لهذا المخطط.

ولهذا، لا غرابة أن تكون النبوءة الإلهية والمحمدية متزامنة مع اشتداد البغي الطاغوتي، فالبارئ تعالى يخبرنا بقرآنه الكريم عنها بالصورة التالية: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾[2] فبعد الاستضعاف يتحقق هذا الوعد، والرسول الأمين صلى الله عليه وآله ـ هو كذلك ـ حينما يطلق البشارة المهدوية في هذا المجال فإنه يؤطّرها زمنياً بما تواتر لدى جميع المسلمين بامتلاء الأرض ظلماً وجوراً[3]، وهي في كلّ ذلك تبقى عصية على الجهد

---

١ سورة التوبة: ٣٢ و ٣٣ .

٢ سورة القصص: ٥ .

٣ لوضوح تواتر الخبر لدى محدّثي الشيعة أذكر بعضاً ممن ذكره من أعلام مشهوري المحدّثين لدى العامة على سبيل المثال لا الحصر، وإلا فإنه متواتر لديهم لكثرة من يرويه من أعلامهم، فلقد ذكره كلاً من: معمر بن راشد في جامعه ١١: ٣٧١، وعبد الرزاق الصنعاني في المصنف ١١: ٣٧١، والطبري المفسر في تهذيب الآثار ١: ٣٧٧ (الجزء المفقود)، وأحمد بن حنبل في مسنده ٣: ٣٦، والحارث بن أبي أسامة في بغية الباحث ٢: ٧٨٣، وأبي داود في سننه ٤: ١٠٦، وابن حبّان في صحيحه ١٥: ٢٣٧، وأبي يعلى في مسنده ٢: ٢٧٤، والبزّار في مسنده ٥: ٢٢٦، والدارمي في نقض الإمام: ٤٠٢، ونعيم بن حماد في الفتن: ٢٠١، والحاكم النيسابوري في المستدرك ٤: ٥١٢ في مواضع عدة منه، والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢: ٧١، وفي تاريخ

المعادي مهما بلغ في عنفوانه واندفاعه باتجاه إجهاض التحرك التغييري الإلهي، مما يعني أن التدخل الإلهي في توجيه وتسديد هذا التحرك يبقى ثابتاً من ثوابت السنن التاريخية التي تتعامل مع هذا الشأن، ولعل توضيح ذلك في مفاد الآية القرآنية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ .[1]

وقد طرح القرآن الكريم عدة أنماط من التدخل الإلهي في سبيل ضمان تقدمية العملية التغييرية الإلهية[2] وعدم تراجعها، ولك أن تتأمل في الأسباب التي دعت

بغداد ١: ٣٧٠، وابن الأثير في جامع الأصول ١٠: ٣٣٠، والمقدسي في الأحاديث المختارة ٢: ١٧٢، والسيوطي في الفتح الكبير ١: ١٩، وفي جامع الأحاديث ١: ٣٤، والمقري في السنن الواردة في الفتن ٤: ٨٢٧، وابن كثير في النهاية في الملاحم والفتن ١: ٢٤، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٥: ١١٦، والشاشي في مسنده ١: ٣٦٢، وخيثمة في جزء حديثه: ١٩٢، والطبراني في المعجم الأوسط ٢: ٥٥، وفي المعجم الكبير ١٠: ١٣٣ - ١٣٦ وفي مواضع عدة منهما، وأبي نعيم في حلية الأولياء ٣: ١٠١، وفي أخبار أصبهان ٧: ٤٤٥، والبغوي في شرح السُنّة ١٥: ٨٦، وابن حجر الهيثمي في موارد الظمآن: ٤٦٤ وغيرها كثير.

١ سورة يوسف: ١١٠ .

٢ حينما نتحدث عن تقدمية العملية التغييرية فإننا لا نتحدث عن التقدمية بالصورة التي تطرحها مدارس الداروينية الاجتماعية Darwinism Social أو المتأثرين بها، كما هو الحال في فهم المادية الديالكتيكية Dialectical Materialism التي قدمها ماركس أو إنجلز أو فيورباخ لمفهوم الحركة، التي تعني وَفق مسار المادّية التاريخية Historical Materialism التقدّم بلا تراجع مهما كان الحال.

فالحركة التاريخية لديهم حتمية التقدم دون أدنى مجال أو هامش للتراجع، مما يحوّل الإرادة الإنسانية بالنتيجة إلى ما يشبه الحركة الميكانيكية، لتكون الإرادة مشلولة ومعدومة التأثير في العملية التغييرية، وإن حاول الكُتّاب الماركسيون أن يبعدوا أنفسهم عن هذا الفهم، كما هو حال مكسيم جوركي في قصته الإلحادية (أين الله؟)، ولكنهم مجبرون على تحمل التبعات الفلسفية لهذا الفهم، وذلك لطبيعة ما يفهم من حركة التضاد الديالكتيكي.

فحينما تكون هذه الحركة هي صراع بين الأضداد، ولا يستخلص من هذا الصراع إلا النتاج، وهو الأفضل حتماً من النقيضين المتصارعين، عندئذ لا مناص من القول بجبرية الحركة، ولهذا تصور ماركس ونظراؤه تقدمية الحركة التاريخية بشكل حديدي، بحيث افترض نسقاً واحداً للتاريخ لا يتعدد ولا يتأخر ولا يتخلف، فهو بدائي النشأة، ثم ينتقل إلى ما يسميه بنظام الرق، ومنه إلى العهد الإقطاعي، ومن بعده العهد الرأسمالي، ومنه إلى عصر شيوعية البروليتاريا (العمّال).

بينما الحركة التاريخية في الإسلام لها مفهومها المختلف من الناحية الفلسفية، فهي وإن بشّرت بنهايات حتمية لا بُدّ من أن يصل إليها التاريخ الإنساني، إلا أنها أبقت للإرادة الإنسانية مساحة كبيرة للتحرك بحرية، وقررت أن العملية التغييرية ترتبط أساساً بالإرادة الإنسانية وطبيعة توجهاتها ﴿إِنَّ

القرآن لكي يتحدث عن مفاهيم عدة، كالإمداد الإلهي في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [1]، وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [2]، والاستبدال الإلهي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴿٣٩﴾﴾ [3] وكذا قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [4] والنصر الإلهي في الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [5]، وكذا قوله: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [6]، والعطاء الرباني كما في قوله جل وعلا: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [7]، والجعل الإلهي كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [8].

هذا، فضلاً عن مبدأ القضاء والقدر، وما إلى ذلك من مفاهيم لها مساس مباشر بالحركة التغييرية، كما في حالة تدخل الإجابة الربانية للدعاء، ودور الصدقة في جلب اللطف الإلهي، وكلّها معبّرة بوضوح عن التدخل الإلهي في توجيه هذه الحركة وتسديدها.

وغني عن البيان أن هذا التدخل يجري دونما إخلال في مبدأ حرية الإرادة

ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١]، إلا أنها قالت إنّ هذه الحركة ليست عشوائية، وإنما ترتبط بقوانين وسنن، وهذه القوانين تفعّل متى ما تحققت شرائطها، ولكنها مع كلّ ذلك لم تدع الإنسان هو اللاعب الوحيد في الساحة التاريخية، بل تحدثت عن عوامل متعددة أدخلتها لكي توجّه الحركة التاريخية باتجاهاتها المختارة إلهياً، وبالتالي ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولهذا طرحت جملة من المفاهيم القرآنية، كمفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الإمداد الإلهي والنصر الإلهي والتأييد، ونظير ذلك من المفاهيم، التي تشير إلى تدخّل إرادة خارجية موجهة للحركة التاريخية؛ ويحتاج هذا لمزيد من التفصيل لا يتسع المجال له هنا، فليطلب في مظانه.

١ سورة الأنفال: ٩ .
٢ سورة آل عمران: ١٢٤ .
٣ سورة التوبة: ٣٩ .
٤ سورة محمد: ٣٨ .
٥ سورة محمد: ٧ .
٦ سورة البقرة: ٢١٤ .
٧ سورة الإسراء: ٢٠ .
٨ سورة النساء: ١٩ .

الإنسانية ومسؤوليتها الجزائية والقانونية عن أفعال الإنسان، ولو تم تأملها لوجد المرء أنها مشروطة بالفعل الإنساني، فمن لا ينصر الله، لن ينصره الله، ولكن من تقدم إرادته بالنصرة يستجلب النصر الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [1]، وقوله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [2]، وهكذا في البقية.

ومن الضروري إدراك أن مبدأ القضاء والقدر هو الذي سوف يتسيّد واقع هذه الاستحقاقات، مما يعني أن من سيتعرض لهذا البلاء أو ذاك يجب أن يدرك أن ثمة إرادة إلهية سبقت، ولكن شاء الله تعالى أن يدرك المؤمن بهذا البلاء رحمة به؛ لكي يهذّبه ويصفّيه، سواء كان هذا البلاء من النمط الذي لا يؤثر على حياة المؤمن المنتظِر بشكل جوهري، فعندئذ سيكون هذا البلاء الذي قضاه الله له بمنزلة بلاء تربية وتنبيه، أو كان من نمط التضييق عليه في حريته ورزقه، عندئذ فإن هذا البلاء ربما يكون نمطاً من أنماط الدفع لما هو أشد منه[3]، أو كان من نمط البلاء الذي يعرّض المنتظِر إلى الموت، وهنا عليه أن يدرك أن ثمة امتيازاً إلهياً له وإكراماً خاصاً من قبل الله له، لأن الموت سيقع لا محالة في أجل محدد، ولكن شتّان بين من يموت على الفراش، وبين من يموت وهو يرسف بأغلال مظلوميته ومحنته.

وعلينا هنا أن نفرق بين نمطين من البلاء، فهناك بلاء له تأثير محدد على الذات، كأن يمرض المنتظِر بمرض يعاني منه هو دون غيره، فهذا ما يكون عادة مرتبط

---

١ سورة الحج: ٤٠ .

٢ سورة محمد: ٧ .

٣ أذكر هنا قصتين، الأولى هي قصة شخصية حين خرجت من سجن الطاغية صدام يوم ٥ رجب عام ١٣٩٩هـ لأجد الساحة ملتهبة بالأحداث السياسية المرتبطة بحركة المرجع المظلوم السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدّس سرّه)، التي كادت تبلغ أوجها آنذاك، مما تستدعي مني إما أن أجد نفسي من جديد في مواجهة ما هو أقسى من السجن الذي كنت فيه، وإما أن أدخل في مواجهة أقسى مع النظام المجرم وأقتل فيها خارج السجن، وإما أن أهاجر من العراق ليبدأ فصل آخر من البلاء، وبالجملة وجدت خروجي من السجن آنذاك لم يكن خروجاً من البلاء وخلاصاً منه، وإنما كان فاتحاً لبوابة أوسع مما كنت فيه من البلاء، والحمد لله على كلّ ألطافه.

والقصة الثانية تتعلق بسماحة المرجع الديني الكبير السيد محمد سعيد الحكيم (مدّ ظلّه الشريف)، فلقد أمضى وعائلته وأولاده ما يقرب من عشر سنوات وهو سجين في سجن الطاغية صدّام، وكان يرى أن السجن بالنسبة للمؤمنين الّذين كانوا معه رحمة لهم من بلاء أشد، كأن يكون الانخراط في حروب صدام المجنونة، أو المقاضاة على أحداث الانتفاضة الشعبانية، وهي المقاضاة التي أقيمت على أساس القسوة المتناهية، وهكذا.

بالساحة الذاتية، وهناك بلاء له تأثير عام، ووقوعه يؤدي إلى آثار عامة، سواء في شكل البلاء أو في طبيعة الموقف منه، فالمؤمن قد يُقتل، وبالتالي فإن قتله سيكون له تأثيره العام الذي سيتجاوز حدود شخص المقتول، وسيكون هذا التأثير بمقدار حجم الواقعة أو حجم المؤمن الاجتماعي، وبالتالي فإن الموقف الذي سوف يتم التعامل به مع هذه الواقعة هو الآخر سيكون له تأثيره الذي لن يتوقف عند حدود الواقعة، بل سيتعداها وفقاً لحجم الواقعة من الناحية الاجتماعية؛ إذ إن إنساناً يُقتل في ظرف اجتماعي بسيط كما في قضية ثأر شخصي، ليس كإنسان يُقتل في ظرف اجتماعي معقّد كأن يُقتل مؤمنٌ لأنه شيعي الهوية، فلكليهما تأثير أكبر من الذات.

ولكن شتان بين المثال الأول وبين المثال الثاني، فالأول قد لا يحرك أحداً غير المعنيين بالأمر، ولكن الثاني قد يحرك موجة من الغضب، أو يطلق موجة من الانتقام في ساحة المقتول، وكذا فإن طبيعة الموقف الحازم قد يؤدي إلى انعكاسات متعددة لا على جهة القاتل فحسب، بل على جميع من له سمة القاتل، وكذا فإن طبيعة الرد البارد من جهة الساحة المظلومة قد يشجع الظالمين على التمادي بمزيد من الظلم.

وصفوة ما أريد قوله: إنّ القضاء والقدر بالنسبة للمؤمن ليس سيفاً مسلطاً يقف أمامه بلا حراك، وإنما يمكن أن يجد فيه كثيراً من التسديد والتوفيق الإلهي إن أحسن نيته وأخلص عمله، لأن القضاء سيأتي بعنوان الموجّه والمسدّد وإن كان بصورة الإرغام، وها هي حياتنا تحدّثنا بعشرات القضايا التي أردناها وحال دونها القضاء، فوجدنا أن هذه الحيلولة كانت بلسماً شافياً لجروح لم نكُ نرقبها في أول حصوله، والذي عادة ما يتزامن مع موجة من الحزن وكثير من الغصص لتفويتنا ما كنّا نتصوره فرصة!! والعكس صحيح تماماً؛ فلا تغفل!

ولعل هذا هو ما يشير إليه عدد كبير من الروايات الشريفة، ففي الحديث المروي عن عبد الله ابن أبي يعفور، عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "لو يعلم المؤمن ما له في المصائب من الأجر، لتمنّى أن يقرّض بالمقاريض".[١]

وروى الحسين بن سعيد مرسلاً[٢]، عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: "قال الله تبارك وتعالى: وعزّتي لا أخرج لي عبداً من الدنيا أريد رحمته إلا استوفيت كلّ

---

١ التمحيص: ٣٢ ب١ ح١٣؛ لمحمد بن همام الإسكافي؛ دار المرتضى. بيروت.

٢ وفي الكافي ٢: ٤٤٤ ب١٩٦ ح٣ بسند آخر؛ عن ابن القداح، عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، عن الله تعالى...الكافي ٢: ٤٤٤ ب ١٩٦ ح ٣ .

سيئة هي له، إما بالضيق في رزقه، أو ببلاء في جسده، وإما خوف أدخله عليه، فإن بقي عليه شيء شدّدت عليه الموت.

وقال عليه السلام: وقال الله: وعزّتي لا أخرج لي عبداً من الدنيا وأريد عذابه إلا استوفيته كلّ حسنة له؛ إما بالسعة في رزقه، أو بالصحة في جسده، وإما بأمن أدخله عليه، فإن بقي عليه شيء هوّنت عليه الموت"[1].

مما يعطي لطبيعة هذا النمط من البلاء ميزة خاصة يجب أن تقابل بالتسليم المطلق لله تعالى، مما يجعل المرء والجماعة المنتظِرة بحاجة لتربية نفسية خاصة باتجاه كلّ ما ينمّي حالة التسليم لله تعالى، التي اعتقد أنها تأتي من خلال: حسن التوكل على الله، والثقة بالله تعالى ووعده وإمداده[2]، ولعل التوجيه الذي أعرب عنه الإمام المنتظَر عجل الله فرجه في دعاء الافتتاح ما فيه بليغ منهج تربوي وروحي، حينما قال (بأبي وأمي): "ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور".

وهذه المسألة التي قد تعدّ بديهية جداً في عالم الأفكار، إلا أنها عادةً ما تختفي

---

١ المؤمن: ١٨ ب١ ح١٢؛ للحسين بن سعيد الأهوازي؛ دار المرتضى. بيروت.

وأنا أنصح الإخوة القرّاء بمراجعة مستمرة ودقيقة لهذه الكتب وأمثالها، كالأبواب الخاصة في الكافي، وفي محاسن البرقي، وغَيبة النعماني، و "الزهد" للحسين بن سعيد، و "التمحيص" لابن همام الإسكافي، ففيها كثير مما يمكن أن يتخذوه زاداً عظيماً لمعركة البلاء العظيمة، التي يمكن أن تجابههم، ولا سيما إخوتنا الأحبة في العراق ولبنان.

٢ لا بأس هنا من ذكر قصة فاجعة جسر الأئمة في بغداد عام ٢٠٠٥، التي راح ضحيتها قرابة ألف من شيعة أهل البيت عليهم السلام من زوار الإمام الكاظم عليه السلام في يوم شهادته، وهذا سر لم يعرف به إلا قلة من المعنيين بالأمن الشيعي، فقد كانت هذه الفاجعة الهائلة لطفاً إلهياً خفياً ربما أنقذ فيه عشرات الآلاف من الشيعة من مخاطر عظيمة كانت تحيق بهم وتخطَّط لهم..

فلقد كان السيد مقتدى الصدر قد دعا إلى تظاهرة في يوم المبعث النبوي في النجف الأشرف، أي بعد الفاجعة بثلاثة أيام، وفي هذه الفترة كان فريقاً استخباراتياً معادياً قد أعدّ العدّة لقتل السيد مقتدى بالشكل الذي يتم الإيهام بأن منظمة بدر كانت وراء عملية اغتياله، وفي نفس الوقت يقوم ذلك الفريق بقتل المراجع العظام، وعلى رأسهم الإمام المفدّى السيد السيستاني (مدّ ظله الشريف)، أو بعضهم، مع وضع الترتيبات لكي يتم اتهام أنصار السيد مقتدى الصدر بقتلهم، وعلى أثرها يتم فتح بوابات جهنم على الشيعة من خلال حرب داخلية بينهم قد لا تبقي ولا تذر، فجاءت الفاجعة في الكاظمية. التي أبكت شيعة أهل البيت عليهم السلام بمرارة. لكي تنهي هذه المؤامرة وتقضي عليها، وبدلاً من أن يتفرق الشيعة ويتقاتلوا، وحّدتهم هذه الحادثة ونبهتهم إلى طبيعة ما يحاك ضدهم، وما ذلك إلا لطف إلهي خاص وعناية بشكل خاص من الإمام المنتظَر (روحي فداه) بشيعته (زاد الله في شرفهم).

حينما تدهم الإنسانَ الحوادثُ، فتغيّب عقله، مما يدفع به إلى اليأس والقنوط، في وقت يحتاج هذا الإنسان في أوقات الأزمات والخطوب ـ كأشد ما يحتاج ـ إلى الركون إلى قوة حقيقية تقف لصالحه وتعمل من أجله، ولهذا نجد هنا الإمام المنتَظَر صلوات الله عليه يطرح هذه القوة بهذا البيان الشافي الذي يشيع الطمأنينة والسكينة في القلوب ويعيد الاتزان إلى النفوس، على الرغم من كلّ ما يمكن أن يحتوش الإنسان من أصناف البلاء وألوان الفتن.

هـ ـ ظرفية البلاء ومحدوديته:

على أننا يجب أن نلحظ أن هذه الابتلاءات التي يشار إليها في علامات الظهور، أو تلك التي تحتوش عالمنا، هي في كلّ الأحوال لن تستغرق كلّ الزمان والمكان، وإنما هي ستستغرق مرحلة معينة وفترة زمنية خاصة في هذه المنطقة دون سواها، وَفقاً لطبيعة هذه الاستحقاقات وظروف نشأتها وبواعث وجودها.

ولهذا لا بُدّ من أن نشير إلى أن الروايات الشريفة حينما تحدثت عن وقوع هذا النوع من البلاء أو ذاك، فإنها لم تَعنِ بذلك أن كلّ الشيعة ـ مثلاً ـ وفي كلّ المناطق سيقعون تحت طائلة هذا البلاء، وإنما عنت تحديداً من سيكون البلاء في ساحتهم دون بقية الساحات التي لا علاقة لها بهذا البلاء.

نعم، ستشمل غيرَهم الإفرازاتُ الناجمة عن ذلك البلاء على الساحة التي يعيشون فيها ويعايشونها، وَفقاً لطبيعة بعض الابتلاءات لا جميعها، فمن البلاء ما لا يطال إلا منطقة محددة، ومنه ما يطال بقاعاً كثيرة، ويطال بتداعياته مناطق أكبر من ساحته المباشرة.[1]

كما إننا يجب أن نلفت النظر إلى قضية أُخرى تتعلق بالظرف الزماني الذي تتحدث عنه هذه الروايات، فظروف البلاء مقرونة بزمن محدد لا يتعداه، وبالتالي فإنّ تعميم هذه الظروف على كلّ الأزمنة هو تعميم من غير معمِّم، ولا ينطوي على أي

---

١ أشرت إلى ذلك لوجود تعميم في الثقافة العامة لهذه العلامات، حتى نشأ تصوّرٌ في أنّ البلاء ينطبق على الجميع، في كلّ الأماكن، وهذا غير صحيح؛ لأن الآثار والاستحقاقات المباشرة لظهور السفياني أو الدجّال أو الفقر الشديد والجوع والقحط، وما إلى ذلك مما يشار إليه في الروايات ستشمل الساحات المتعلقة بها، وليس كلّ الساحات.

نعم، المؤمن أينما يكون فإنه سيبتلى، ولكن هذا البلاء هو من بلاءات التدبير الإلهي الخاص، وليس العام.

واقعية حياتية، فحينما تتحدث هذه العلامات ـ مثلاً ـ عن موت أبيض وموت أحمر[1]، فإنها لا تعني أن سمة العصور ستكون مصبوغة بهذا الطاعون أو بذاك، وإنما تشير إلى ظرف زماني محدد هو الذي سوف تحدث فيه هذه الظاهرة دون غيره.

وهذا من شأنه أن يطرح خيارات حيوية على قدر كبير من المسؤولية أمام الإنسان المنتظِر، كما في خيار الهجرة من مكان البلاء لو كان البلاء مكانياً، وَفق ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾[2] وفي خيارات الصبر أو التواري أو الاحتواء[3] أو السكون إن كان البلاء زمانياً، وفي ذلك آيات وروايات كثيرة جداً، ولا يسع ذكرها هنا ولئن كان الحديث عن الصبر مشهوراً وكثيراً، فسأكتفي بذكر حديثين واحد يشير إلى خيارات الإحتواء والتواري، والثاني يشير إلى السكون، فلقد سئل الإمام الباقر صلوات الله عليه عما يصنع المؤمن إن أقبل السفياني: فقال صلوات الله عليه: يتغيب الرجل منكم عنه، فإن حنقه وشرهه فإنما هو على شيعتنا، وأما النساء فليس عليهن بأس إن شاء الله تعالى.[4] فهو هنا يشير إلى خيارين معاً، أما التواري فهو واضح، وأما خيار الإحتواء فإنه موجّه لمن يريد أن يقاتل السفياني الملعون، إذ يجد في الرواية إن الإمام صلوات الله عليه أن لا يجابه قوة الزخم العسكري في أوج قوتها، وبلحاظ إن الأمر بنصرة اليماني الموعود هو عنوان النصرة

---

١ عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، أنه قال: "بين يدي القائم موت أحمر، وموت أبيض، وجراد في حينه، وجراد في غير حينه، أحمر كألوان الدم، فأما الموت الأحمر فالسيف، وأما الموت الأبيض فالطاعون".

انظر: غيبة النعماني: ٢٨٦ ح ٦١، غيبة الشيخ الطوسي: ٤٣٨: ح٤٣٠ .

وعن سليمان بن خالد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "قدّام القائم موتتان: موت أحمر، وموت أبيض، حتى يذهب من كلّ سبعة خمسة، الموت الأحمر: السيف، والموت الأبيض: الطاعون".

انظر: كمال الدين وتمام النعمة: ٦٥٥ ب٥٧ ح٢٧ .

ومن الواضح أن الطاعون المقصود به هنا ليس بالضرورة هو ذلك النوع المعروف تاريخياً من وباء الطاعون، إذ ربما يراد به أيّ وباء عام، وهو بالنتيجة يمكن أن ينطبق على الأسلحة النووية والبيولوجية والكيمياوية، أو على أي نمط من أنماط الوباء العام.

٢ سورة النساء: ٩٧ .

٣ روايات التقية كلها تدخل في خيارات الإحتواء وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل السادس من الكتاب إن شاء الله.

٤ غيبة النعماني: ٣١١ - ٣١٢ ب١٨ ح٣ .

الحقيقية في ذلك الزمن، فإننا نكون هنا بإزاء احتواء عسكري للموقف، فهو عليه السلام يأمر بتغييب الوجوه في شدة زخم السفياني، وفي عين الوقت يطلب نصرة اليماني الذي سيهاجم في وقت انسحاب السفياني.[١]

ويمكن ملاحظة رواية الإمام الباقر عليه السلام في مجال خيار السكون حينما قال لجابر بن يزيد الجعفي: يا جابر الزم الأرض ولا تحرك يداً ولا رجلاً حتى ترى علامات أذكرها لك.. إلخ.[٢] حيث يطالبه بعدم التحرك إلا بعد وجود مقتضي التحرك وهو العلامات التي سيذكرها وكلها تتعلق بالتمهيد المباشر لظهور الإمام الحجة المنتظر روحي فداه.

وعوداً على بدء الحديث فإن هذا أمر في غاية الأهمية لأي منهج تربوي يعد لمجاميع المنتظِرين، ومغزاه في أن لا يدع المنتظِرين مكتوفي الأيدي أمام مصاديق المحنة، فهو بعد أن ينظّر لقضية البلاء بكلّ تفاصيلها ويعطيها بعدها الأيديولوجي الخاص، لا يدع المنتمين إليه دون مخطط عملي لمواجهة الفتنة والبلاء، وإنما يعمد إلى إعطاء المعنيين به خيارات متعددة، تاركاً لكلّ واحد منهم خيار مواجهة هذه المحن والفتن وَفق قواعد السلوك المنظّمة للتكليف الشرعي، ويبقى خيار التفاضل مطروحاً أمام الإنسان المبتلى[٣]، فهناك من لا ينسحب من ساحة البلاء لرغبته في أن لا يخسر عظيم الثواب في ذلك، وهو بالنتيجة يقدّم دفعاً مهماً لمسار ثبات المنتظِرين أمام الطاغوت، أو ينسحب بطريقة أو أُخرى متنازلاً عن هذا التفاضل، ولكنه يبقى بانسحابه ذخيرة للمنتظِرين.

---

١ هذه الرواية هي التي تفسر لنا لماذا تحدثت راويات اليماني بأفعال: وأقبل وسار وتحرك، فإنه سيجد إن أمر الإمام صلوات الله عليه هو عدم استقبال الزخم العسكري للسفياني بزخم ضعيف، وإنما يتم تعبئة الناس أولاً لإيجاد الزخم القادر على المواجهة والظفر، ولهذا تراه ينسحب أولاً ثم يستعد بعد استصراخ الناس وتعبئتهم ثم ليعود وهذا هو منسجم مع الأفعال الثلاثة المستخدمة في رواياته، وسيأتي مزيد تفصيل في الفصل السابع من هذا الكتاب، وقد فصّلنا بما هو أكثر في الطبعة الثانية لكتاب راية اليماني الموعود أهدى الرايات.

٢ غيبة النعماني: ٢٨٩ ب١٤ ح٦٧، وسنتوسع بالحديث عن هذه الرواية وتفاصيلها العجيبة في الفصل السابع من هذا الكتاب إن شاء الله.

٣ كان بإمكان الإمام الحسين صلوات الله عليه أن لا يخرج إلى كربلاء بهذه الطريقة التي خرج بها (بأبي وأمي) من دون أن يكون متخلفاً عن التكليف الشرعي، ولكنه سعى إلى المقام الأعلى مع علمه بالبلاء العظيم المعبّر عنه في قوله صلوات الله عليه عن نفسه وعياله: "شاء الله أن يراني قتيلاً، وشاء الله أن يراهنّ سبايا".

المبحث الثاني

استحقاقات الانتظار وتداعياته:

أشارت الروايات الشريفة إلى استحقاقات كثيرة سوف تطال شيعة أهل البيت صلوات الله عليهم قريباً من عصر الظهور، وفي أيام التمهيد المباشر لقيام الإمام عجل الله تعالى فرجه، وهي في نفس الوقت نبّهت إلى تداعيات مهمة وخطرة ستترتب على هذه الاستحقاقات، مع التأكيد على أن جميعها من الصنف الموضوعي الذي لا يحصل صدفة أو بطريقة سحرية، وإنما وَفقاً للسنن التاريخية، وسنعمد إلى ذكر نماذج من ذلك دون سعي باتجاه الاستقصاء لكلّ ما أوردته هذه الروايات، مكتفين ببعض المعالم التي نعدّها هي الأساس في ما نعتقده في مهمة الوصول إلى المنهج الذي يحكم مثل هذه الروايات.

أ: شدة البلاء:

تُجمِع الروايات الواردة من طرق الفريقين على أن البلاء الشديد الذي سوف تمرّ به شعوب الشرق الأوسط بوجه عام، وشيعة أهل البيت عليهم السلام بشكل خاص، هو أحد السمات البارزة التي ستميز الزمان القريب من الظهور[1]، بصورة نجد فيها

---

١ إن الغالبية العظمى من الروايات التي أشارت إلى هذه الحالات، إنما تحدثت عن بلدان ومناطق محددة، هي: العراق وإيران والحجاز وبلاد الشام بما فيها لبنان وفلسطين، وبصورة أقل عن مصر أيضاً، وبشكل نادر تمت الإشارة إلى الهند والسند وهي باكستان، على الرغم من أن الحديث العام هو عن الوضع العالمي دون تشخيص لدولة أو مكان معين، وليس هذا بمدعاة للقول بأن تلك المناطق لن تشهد حالات مثيلة للحالات التي شهدتها وستشهدها بلدان الشرق الأوسط، وإنما يعود ذلك . في ما أعتقد . إلى سببٍ رئيسٍ يتمثل بأن هذه البلدان . أرضاً وشعوباً . هي المعنية بحركة الظهور أكثر من غيرها، فشعوبها هي محور الانتظار الرئيس وقواعده، وحكامها هم المؤثرون بشكل جاد على هذه الحركة، وأراضيها هي التي ستشهد المعارك الحاسمة في حركة الانتظار، ولهذا نجد كلّ ذلك الاهتمام في التحدث عنها دون سواها، مما يدلّ مرة أخرى على أن حديث العلامات إنما يدور حول منهج محدد يستهدف تربية المنتظِرين لظهور الإمام وإعداده.

اشتداد البلاء يتصاعد كلّما اقتربنا من الظهور، ولكن بصورة نسبية، حسب المنطقة وحسب الزمن، فهذا البلاء قد لا يسري دوماً على كلّ الدول المعنية هنا، فمنها من سيخفّ عليها البلاء نتيجة لاستحقاقات ظروفها، ومنها من سيشتدّ وَفقاً لطبيعة أوضاعها، وخفة البلاء وشدّته يجب أن لا يرصد بعنوانه موضع تمجيد أو تحقير لهذا الشعب أو ذاك، فبعض الاستحقاقات التي تؤدي إلى البلاء الشديد ربما ينبئ عن طبيعة عظيمة لدى الشعب المبتلى؛ لأنه لم يستسلم لظالميه، فبقي البلاء مسلطاً عليهم.

والعكس صحيح أيضاً، فلربما يكون تدنّي الوعي للمصالح العامة والالتزام بالهموم الصغيرة لدى هذا الشعب أو ذاك يفضي إلى نتائج كارثية قد لا تبقى في محيط هذا الشعب ومنطقته، وإنما تمتد لتشمل شعوباً ومناطق أُخرى، كما إن الأُمّة التي تعي مصالحها ربما تستطيع أن تنجو من بلاء الظالمين من خلال التخلص منهم، أو من خلال اعتماد آليات لتحجيم ظلم الظلمة؛ فلا تغفل!

إن وقفة تحليلية جادة لظاهرة البلاء في مجتمع المنتظِرين ستكون أكثر من مطلوبة، فما دام الحديث عن البلاء في علامات الظهور هو أحد أبرز سمات هذه العلامات، فلا بُدّ ـ إذاً ـ من إيجاد فهم متكامل عن البلاء في حركة أسبابه ومسبباته، وفي طبيعة تداعياته وإفرازاته وآثاره؛ لأن فهم الظاهرة ووعيها يمثل إحدى الخطوات الأساسية في طريق احتوائها والتخلص من آثارها السلبية، مثلها مثل المرض فمن دون فهمه لا يمكن علاجه، أو كما قيل: إن معرفة الداء تمثّل نصف الطريق إلى العلاج.

وأحسب أن الحاجة ماسة لتضافر جهود خبراء علم النفس الاجتماعي وعلم النفس وعلم الاجتماع في تحليل البلاء وتفكيكه، وملاحقة أسبابه وعلله، ومتابعة ارتداداته وجميع ما يفرزه في الذات وفي المجتمع، وهذه الحاجة يجب أن تترافق مع اهتمام مسؤول لدى مجتمع المنتظِرين بذلك؛ لأنهم هم المعنيون الميدانيون بذلك، وعلى الرغم من أن بحثنا هنا سيكون مطوّلاً، ولكنه لا يمثل إلا فتحاً أوّلياً لملفات

إن هذه الخصوصية لهذه الدول لا تعني بالضرورة أنها ستكون بموضع إيحابي من حركة الظهور، وإنما حركة الظهور سترعرع في هذه البلدان تحديداً، وستواجه كلّ أقدارها فيها، ولهذا فإن بعضاً من شعوب هذه البلدان سيكون له التأثير السلبي عليها، وبعضها سيكون بمنزلة الحاضنة التي ستمد حركة الانتظار بكلّ ما تحتاجه من مقومات الوجود والنمو.

البلاء، ويبقى الأمل منشود ومنعقد على أصحاب الاختصاص في هذا المجال؛ لكي يثروه بأبحاثهم وأفكارهم.

على أي حال، فإن نظرة شمولية للروايات الشريفة الواردة في هذا الصعيد ترينا أنها لم تدع نوعاً من أنواع البلاء المؤلم، ونمطاً من أنماط التمحيص الشديد، إلا ووصفته، وفي كثير من الأحيان خصصت ذِكرَ بعض أساليب البلاء، وفي بعض الأحيان عممته، وفي أحيان حددت زمان البلاء، وأُخرى أطلقته بلا تحديد، كما أنها عظّمت حجم بعضه، كأن تصف بعضه بالصيلم[1]، كما في حديث الإمام الجواد عليه السلام: "لا بُدّ من فتنة صماء صيلم يسقط فيها كلّ بطانة ووليجة"[2]، وأُخرى تخفف منه، وأسباب ذلك متعددة، ولكنه ولا ريب يؤكد المسعى التربوي الذي يهدف إليه منهج التحدّث بعلامات الظهور، وذلك في أبعاد هذا المسعى الذاتية والاجتماعية والحضارية.

ومهما يقال هنا، فإننا يجب أن لا نغفل حقيقة موضوعية أساسية، وهي: إن التنبيه على المشكلة لا يُطلَب لنفسه، وإنما يراد منه الانتباه لسبل حلّها أو التخفيف من آثارها، مثله مثل حصول الألم في البدن، فحصوله يلعب دور جرس الإنذار، فهو كاشف عن مشكلةٍ ما في داخل هذا البدن، وهي في العادة أكبر من الألم نفسه، مما يدفع المرء إلى العلاج؛ لأنه لو لم ينبهّه الألم فلن يتجه إلى العلاج بسبب عدم اكتشافه.

وهذا هو عين ما فعله منهج أهل البيت عليهم السلام في التحدث عن هذا الأمر، وبالطريقة التي طرحوها، فهم لم يطرحوها لذاتها، وإنما تحدثوا عنها بهذه الطريقة الموسعة بغية التنبيه على ما يترتب على هذه الصور، مما يجعل مناورة الأُمّة أمام استحقاقات تلافيه، أو استحقاقات التصدي له، أو احتواءه واستيعاب صدمته، أوسع مما لو جوبهت به دون سابق إنذار؛ فلا تغفل!!

وكما أشرت فقد استفاضت الروايات الشريفة في التحدّث عن البلاء، وأذكر هنا بعضها:

ففي صحيحة محمد بن مسلم الثقفي، قال: سمعت أبا عبد الله يقول: "إن قدّام

---

١ الصيلم: الداهية الشديدة، ويرد مثل هذا الوصف في أحاديث أهل البيت صلوات الله عليهم، وفي أحاديث العامة كذلك.

٢ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٠ ب٣٥ ح٣ .

القائم علامات تكون من الله عز وجل للمؤمنين.

قلت: وما هي جعلني الله فداك؟

قال: ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ يعني المؤمنين قبل خروج القائم عليه السلام ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1]، قال: يبلوهم ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من ملوك بني فلان في آخر سلطانهم، ﴿وَالْجُوعِ﴾ بغلاء أسعارهم، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ قال: كساد التجارات وقلة الفضل، (ونقص من الأنفس) قال: موت ذريع[2] ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال: قلة ريع ما يزرع، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ عند ذلك بتعجيل خروج القائم عليه السلام".[3]

وفي صحيحة سليمان بن خالد الأقطع، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "قدّام القائم موتتان، موت أحمر، وموت أبيض، حتى يذهب من كلّ سبعة خمسة، الموت الأحمر السيف، والموت الأبيض الطاعون".[4]

ولا نحتاج إلى الاستطراد الموسّع بذِكر مثل هذه الروايات، فنفس الظلم الذي حاق بشيعة أهل البيت عليهم السلام خلال الفترة المنصرمة كاشفٌ عن طبيعة الذي تحدثت عنه الروايات الشريفة، وهي من الكثرة بمكان يكون الحديث معها عن تواترها كالبديهية.

إزاء ذلك لا بُدّ من أن نلاحظ ما يترتب على هذا الظلم من ارتدادات على أوضاع المنتظِرين الذاتية والاجتماعية، وما يمكن لهذا الظلم أن يفرز من ظواهر ومظاهر؛ لكي تتكامل لدينا رؤية واقع المنتظِرين بكلّ أبعادها، ومعها سيسهل علينا ملاحقة منهج الأئمة صلوات الله عليهم في إعداد المجتمع لعهد الظهور الشريف.

إنّ ما يعنينا - في العادة - من متابعة هذه الارتدادات يتعلق بثلاثة أصعدة تتحرك فيها، فصعيدها الأول يتعلق بالمظلومين، وصعيدها الثاني يختص بالظالمين، أما الثالث فيرتبط بنفس الظلم[5]، ولئن كانت الصورة السلبية عن الظلم بآلامها ومعاناتها

---

١ سورة البقرة: ١٥٥ .

٢ الذريع: السريع.

٣ كمال الدين وتمام النعمة: ٦٤٩ .٦٥٠ ب٥٧ ح٣ .

٤ كمال الدين وتمام النعمة: ٦٥٥ ب٥٧ ح٢٧ .

٥ لا شك أن صعيداً كونياً، أو لنقل: صعيداً في عالم الطبيعة. كما يتم تداول هذا المصطلح. تتحرك فيه هذه الارتدادات، وهو الذي تحكيه الآية القرآنية الكريمة في ضمن ما تحكيه: ﴿ظَهَرَ

وما يكابده المظلوم وما يفرح به الظالم هي الحاضرة دوماً في الذهن، فإنّ من المناسب أن نسلّط الضوء على الجانب الآخر أيضاً، وهو جانب يحول دون النظر إليه صراخ المظلوم ومأساته، وصخب الظالم وأفراحه، وتمادي آليات الظلم وسطوتها، ولكن عدم رؤيته لا تعني عدم وجود حراك فاعل وجوهري فيه.

وأعني بذلك الصورة الإيجابية من الارتدادات، فالظلم لا يؤثر سلباً بالمظلوم فقط، وإنما يؤثر سلباً على الظالم ـ كذلك ـ وَفق منطوق السنن التاريخية، وهو لا يعطي ثماراً إيجابية للظالم فقط، وإنما ينعكس إيجابياً على حركة المظلوم، والفارق بين الاثنين، إن سلبيته على المظلوم وإيجابيته على الظالم مؤقتة، أما إيجابيته على المظلوم وسلبيته على الظالم فستكون دائمية، فالمظلوم هو الذي يبقى والظالم هو الذي يزول، والواقع التاريخي هو الشاهد.

إن أدنى تأمل في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝﴾ [١] يلاحظ في ختم الحديث عن صور الظلم وأنماطه بحديث عن بشارة الصابرين[٢]، بل يُعدّ ذلك الظلم هو السبيل إلى قطف هذه البشارة[٣]، وتأطير كلّ

الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم: ٤١]، ولكن لم نتطرق إليه خشية خروج الموضوع عن إطاره العام الذي رسمناه له.

١ سورة البقرة: ١٥٤ - ١٥٦ .

٢ يجب الانتباه إلى أن البشارة المتصوَّرة هنا ليست بالضرورة بشارة الجزاء الأُخروي، بل لعلها لا علاقة لها بالجزاء الأُخروي المحفوظ سلفاً للصابرين، ولكني أحتمل أنّ البشارة هنا ترتبط بطبيعة استحقاقات السنن التاريخية المتعلقة بالظلم؛ ولهذا فإنّ حديث الآية الكريمة متعلق بشؤون الحياة الدنيوية، ومستحقات الصبر على حركة الظلم والظالمين، فحين جعل الله الاستشهاد صابراً محتسباً سبيلاً وحيداً كي ينال الإمام الحسين صلوات الله عليه درجته في الجنة، وَفق الحديث المروي عن الإمام الصادق صلوات الله عليه عن رؤية الإمام الحسين (بأبي وأمي) لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول له: "إن لك في الجنة درجات لا تنالها إلا بالشهادة". (أمالي الصدوق: ٢١٧ م٣٠ ح٢٣٩)، فإن هذه الدرجات هي الشق الأُخروي في موضوع جزاء صبر الإمام الحسين صلوات الله عليه، ولك أن تتأمل في الجزاء الدنيوي لصبر الإمام الحسين عليه السلام، حتى ما عاد بإمكان أحد أن يتأمل بقاء الدين سالماً صافياً لولا صبر الإمام واستشهاده (بأبي وأمي) هذه الطريقة.

٣ لا يعني ذلك أن الظلم هو الطريق الوحيد لتحقيق هذه البشارة، ولكن مصداقية الصبر والصابرين وثماره لا يمكن لها أن تتحقق إلا من خلال طريق ذات الشوكة، والظلم ملاصق ملازم لطريق ذات الشوكة، ولكنه ليس المصداق الوحيد للصعوبات التي تجابه العاملين في طريق الصبر.

ذلك بأنه نمط من أنماط البلاء الرباني، مع التنبّه إلى أن مثل هذه الأُمور لا تحصل اعتباطاً، بل هي لا تتم إلا وَفق السنن الربانية الموضوعية التي أُودعت في حركة الأُمّة والمجتمع. .

البلاء كنظرة تحليلية:

تعالوا الآن لنحلل ظاهرة البلاء وتداعياتها وأصعدتها؛ لنراقب كيف يمكن التعامل مع شدة البلاء؟ وكيف يمكن لنا أن نحوّل البلاء إلى عطاء؟ وكيفية احتواء الإفرازات الناجمة عنه، فالبلاء ـ كحركة مباشرة ـ قد يستمر للحظات، وقد يدوم لأكثر من ذلك، ولكن إفرازاته قد تدوم لعشرات السنين، ولعلها هي أخطر من البلاء نفسه، ولا سيما أن أكثر الناس قد لا يتنبّهون لهذه الإفرازات بقدر تنبّههم إلى صورة الخطر المباشرة المتأتية مع البلاء.

وأفترض قبل الدخول في الموضوع أن القارئ الكريم لا يعتقد أن البلاء والتمحيص في هذه الساحة ـ بالضرورة ـ هو عقاب ربّاني أو انتقام إلهي من المؤمنين، فقد يكون عقاباً لغيرهم، ولكن البلاء بالنسبة للمؤمنين إما أن يأتي لتربيتهم وتزكيتهم، وإما أن يأتي لينبّههم إلى طبيعة أخطائهم والمخاطر المحدقة بهم، وإما أن يأتي ليرفع درجتهم من خلال فضح عدوّهم الذي يتولى إدارة آلية البلاء، وإما أن يجعل الله في المؤمنين المبتلين محل تجربة وخبرة لغيرهم من المؤمنين أو من خلال الموقف الممانع[1] الذي يتخذونه في مواجهة البلاء مما يعزّز موقعهم الاجتماعي، ولا سيما أنّ البلاء قد لا يكون بسببهم، وإنما قد يأتي بسبب آخرين، أو نتيجة لتراكمات تاريخية، وذلك كما قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ .[2]

---

١ استخدمت مصطلح الممانعة بدلاً عن المقاومة، لما توحيه كلمة المقاومة من فعل إيجابي بالنسبة لعملية رفض الظلم؛ لأن هذا الفعل قد لا يُستساغ في وقت من أوقات الظلم، ولا سيما حينما تكون إمكانات المقاومة محدودة جداً في قبال خيارات الظلم الكبيرة، ولكني أحسب أن مصطلح الممانعة أوفق في كلّ الظروف؛ لأنه يستبطن حالتي السلب والإيجاب للرفض معاً، فالأصل المطلوب هو عدم الاستسلام للظلم ولو داخل القلب، المعبّر عنه بأنه من أضعف الإيمان، بصورة لا تترك من بعد البلاء آثاراً تخدم الظلم أو تعمل على ديمومته، فكم من مقاومة استغلها الظالم لكي يبسط سلطانه، وفي نفس الوقت فإن نفس الممانعة لا تتوقف عند الأفعال السلبية فقط، فقد تكون صورة أضعف الإيمان محرمة أو غير مستحبة في بعض الأحيان مما يحتاج إلى فعل أعنف مع الظلم.

٢ الأنفال: ٢٥ .

وترينا الآيات الكريمة في سورة الأحزاب صورة رائعة عن تداعيات البلاء حال حلوله، وطبيعة ساحته الاجتماعية التي يتفاعل فيها، وتقدّم تحليلاً سوسيولوجياً[1] للشرائح التي يفرزها البلاء، وهذا التحليل في غاية الأهمية لبحثنا هنا، فعلى مدى المساحة الممتدة المعروضة من الآية التاسعة إلى الآية الخامسة والعشرين من السورة ترسم لنا الآيات الكريمة، وبإيقاع متميز، الصورةَ بالتدريج، وترينا المنحنيات السلوكية بعد الصدمة الأُولى ـ إذا صح التعبير ـ من نزول البلاء، المتمثل بإقبال قريش وحلفائها إلى معركة الأحزاب..

وتعالوا لنراقب هذه الصورة، متمنياً على القارئ الكريم أن يضع الآيات الكريمة أمام ناظريه، ويقرأها بتؤدة قراءة المتدبّر لا قراءة الـمُـتْلي.

فالآية التاسعة تُبتدأ فيها القصة هكذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾، فثمة عدو قد دهم جمعَ المؤمنين، ولكن على الرغم من وجود الإمداد الإلهي الذي تميّز بريح شديدة وعاصفة ضربت مخيم الأحزاب الّذين عسكروا على مقربة من معسكر الإيمان، وعلى الرغم من رؤية هذا المعسكر لطبيعة ما يجري، وعلى الرغم من أحاديث الإيمان التي قالها الرسول صلوات الله عليه وآله، وبثها المخلصون من أصحابه، وعلى الرغم من أن الهجوم استهدف قلعتهم ومدينتهم مباشرة، مما يعطي للمرء ـ في العادة ـ خيارات أقوى في الثبات والمقاومة، ولكن الرعب والهلع والذهول حينما يسيطر على الأجواء والنفوس، فإنّ الرؤية والبصيرة ستكون في امتحان عسير جداً؛ إذ تترك طبيعة تربية الإنسان لمحتواه الداخلي ـ في العادة ـ آثاراً جوهرية في هذا المجال، ولهذا وجدنا هذه البصيرة تختفي بشكل عام من أرجاء المعسكر، اللهم إلا ما ندر ستشير إليهم الآيات الكريمة لاحقاً، ولكن ها هو الرعب يتقدم في الآيات اللاحقة ويأخذ صورته الدراماتيكية الشديدة بهذه الصورة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

ومع حلول البلاء الشديد المصوَّر في الآيات الكريمة حتى بدأت الصورة

---

١ لست شغوفاً بالمصطلحات الأجنبية، ولكني تعمدت استخدام مصطلح السوسيولوجيا. أي: علم الاجتماع. لأُشير إلى التعاطي القرآني العلمي الذي يشبه هنا تقديم تشريح اجتماعي وَفق أُسس علمية دقيقة، وأعتقد أن المطّلعين على علمَي الاجتماع والنفس الاجتماعي يجدون في هذه الصورة كثيراً من الإغراء العلمي والجدّية العلمية في التعاطي مع هذا الموضوع.

الاجتماعية تظهر بشكلها الحقيقي، وبدا المجتمع الذي كان يحسب أنه مجتمع متوحّد في الموقف وفي الهدف، مجتمع آخر مختلف عن الأول تماماً، فلقد بدأت تظهر الشرائح الاجتماعية وَفقاً لطبيعة المحتويات الحقيقية لذوات أفرادها، ويصنّف القرآن ويعزل هذه المجاميع عن بعضها ليرينا التداعيات الأُولى التي تحصل نتيجة البلاء الشديد، ويمكن لهذه التداعيات ـ إن لم يتابعها المنتظِرون في رحلة البلاء ـ أن تستفحل لما هو أعظم من صورتها الأُولى، لتتحول هي الأُخرى إلى إحدى صور البلاء.

ويرينا القرآن المجاميع التالية، فأُولى المجاميع التي ستبرز في أجواء البلاء هي مجاميع المنافقين، وحركة هؤلاء لن تقف عند سوء الظن بالله والانحراف العقائدي وانصرافها عن الأهداف الكبرى، وإنما هم مستعدون للتفاعل مع حركة الظَّلَمة ضد الحركة الإيمانية، فالصورة القرآنية تشير أولاً إلى ظاهرة الانهيار المعنوي والعقائدي لدى هؤلاء: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ .

وسرعان ما جاءت الحالة الثانية، فحينما ينهار البناء المعنوي، ويفقد المحتوى الداخلي قدرته على المقاومة، فإن التداعيات النفسية والسلوكية السلبية ستكون لها وطأتها الخاصة، فشريحة راحت تخذّل المعسكر وتفتّت وحدته وتسفّه وجوده وتطعن في أهدافه، وَفق ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ ، فهؤلاء لم يكتفوا بانهيارهم ذاتياً، بل راحوا يجرون وراء الآخرين ويختلقون لهم الأعذار التي من شأنها أن تعطي للانهيار المعنوي أبعاده الأكثر تكاملاً ليتحول إلى الانهيار المادي.

وبالفعل، بدأ التماسك يتحلل، لنجد شريحة جديدة تجد لها متنفّساً فتطرح خيار التخلّي عن المسؤولية كحل لأزمتها، ومن الطبيعي فإن المنهزمين لا يعلنون عن هزيمتهم، ولكنهم يغلّفونها ـ في العادة ـ بمسوغات وعلل مألوفة للمنهزمين، وهنا سقطت شريحة أُخرى، بل بدت مكشوفة من المزايدات التي كانت ترفعها أثناء الحديث عن المواقف المسؤولة، وعن الهموم الكبيرة للأُمة؛ إذ إنّ هذا الحديث سهل في وقت السلم والاستقرار الاجتماعي، ولكنه حين يكون باهظ الكلفة، لن يجيد الالتزام به إلا الأقل من الرجال، وبنفس قدرة المزايدين على التنظير للمواقف الكبيرة، تراهم يجيدون التنظير للمواقف الهزيلة ﴿... وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟

ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ..

ولكن هذا الفرار ـ في الواقع ـ ليس فراراً من الأزمة، وإنما وقوع فيها، وهو فرار من الذات ومن المصالح العليا وليس إليها، فقد يوفّر بعضاً من الراحة لوقت قليل، ولكن النتائج الوخيمة لذلك قادمة لا محالة، وما يترتب على هزالة المواقف لن تصنع عزّاً، بل إن طبيعتها تفرز الانكسار والتحطم وإدامة جبروت الظلم لا محالة، وساعتئذ لن تنفع الأحلام، ولن تنفع حالة التظلّم والتشكّي، كما سيتحول الدعاء لرفع الظلم إلى شيء آخر لا علاقة له بالاستجابة ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ .

لقد كان بإمكانهم أن يتعاملوا مع الموضوع بواقعية المؤمنين الّذين يرون أن الاعتصام بالله تعالى هو وحده الذي يخفف من وطأة هجمة البلاء، فكلّ المقادير بيده، وكلّ المفاتيح تؤدي إليه، ولكن النفس الخائرة لا تملك القدرة على التشخيص، فلا ترى قوة ما لديها، وإنما يأسرها ما تراه من قوة الآخرين المتمثلة هنا بقوى الظلم وكأنها هي مَن يملك هذه المقادير، وهي وحدها التي تتحكم بالأُمور، ولهذا تستمر الإفرازات السلبية لحالة النكوص الأول أمام زحف البلاء دون تفكير واقعي بما يحصل، لتخرج لنا مجموعة أُخرى لن يلتزم همّها بأن تنشغل بذاتها في عملية الفرار، وإنما تنصرف هذه إلى مهمة إقناع الآخرين بالفرار، والجدّ في تحويل طاقات أُخرى لإعاقة العمل والوقوف أمام حالة التصدي وحمل المسؤولية وتحويلها إلى مهام الفرار، والخروج من دائرة المسؤولية إلى تخذيل المؤمنين بها ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ .

وتساهم كلّ هذه الحالات في إيجاد حالة الهلع التي يتعاظم بها الخوف بأكبر من حجمه، وتصل أغراضه إلى أبعد ما كان مقدّراً لصانعيه، ليفقد هؤلاء كلّ اتزانهم ووعيهم وبصيرتهم، وليتحولوا إلى طاقة سلبية متذمرة، تحاول أن تعالج فشلها بإلقاء اللوم على الآخرين من دون أن تلقي على نفسها أية أعباء أو مسؤولية ﴿... فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ .

وتستمر الهزيمة بتعظيم صورة العدو والبلاء إلى أقصى الحدود، حتى يهرب

هؤلاء إلى البدو إيغالاً منهم في طريق الهرب ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ولكن في مقابل ذلك يطرح القرآن الكريم الصورة الأُخرى، ويقدمها كنموذج عملي وليس لمجرد تنظيرٍ خالٍ عن التجربة العملية، ليضع ما فعله الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ـ وقد كان المعني الأول بهجمة القوى الظالمة، والمطلوب الأول لهم ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ويقدّمها كنموذج للأُسوة والاقتداء بين يدي من يبتغي العلاج الحقيقي للأزمات، ولكن هذه الأُسوة لن يراها عملياً أصحاب المحتويات الداخلية المهزوزة، وإنما هي ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ ولهذا طالبه للوصول إلى هذا العلاج من خلال التحلي بصفات من شأنها أن تقوّي المحتوى الداخلي للإنسان، الذي يفوق كلّ أسلحة الظلمة وأساليبهم، وكلّ شراسات البلاء واستحقاقاته، من خلال الإيمان العملي بالله تعالى وحسن الظن والثقة به[١]، المشار إليه هنا برجاء الله سبحانه وتعالى، والعمل بمقتضيات التكليف الشرعي المطروح هنا بالتزامات اليوم الآخر.

وليس هذا فحسب، بل إنّ مَن يريد تحمل المسؤولية كاملة، يعلم أن الأمر لا يتوقف عند التكليف فقط، وإنما يكمن كثيراً في ما هو أكبر وأكثر من التكليف[٢]،

---

١ أشرت هنا إلى الإيمان العملي؛ لأن الوصول النظري للإيمان والاستدلال عليه هو أسهل بكثير من الوصول بالعمل إلى درجة تحويله إلى انعكاس للإيمان وتجلياً له، فقد لا يغدو صعباً على المرء أن يتحدث عن ثقته بالله، أو حسن ظنه به، أو إيمانه بالقضاء والتقدير الإلهيين، ولكن التحدث بالأمر شيء وتجسيده في وقت الجد شيء آخر، ولهذا قد يغدو الكلام الإلهي. هنا. وهو يتحدث عن معسكر الأصحاب يوم الخندق مبهماً، فالحديث عن الإيمان بالله، ورجائه، واليوم الآخر، وذِكر الله، وما إلى ذلك، كان من الحديث البديهي لدى هذ المعسكر، ولكننا رأينا أن أوضاعهم في ميدان التجربة العملية كانت مختلفةً تماماً عما كانوا يتحدثون به؛ إذ القضية ليست بمجرد الحديث، وإنما في كيفية تكييف السلوك لكي ينسجم مع الفكر الذي يعبّر عنه بالحديث، وهذه عظة بالغة للمنتظِرين.

٢ هذه الحالة مشابهة لحالة إنجاز التكليف المتعلق بأداء الصلاة بالنسبة لعامة الناس، ولكن من وجد نفسه معنياً أكثر بعلاقة أكبر مع الله تعالى، فإنه سيجد انصرافه للنوافل تكليفاً إضافياً، على الرغم من أنه من الأعمال المستحبة، ومن طوّر هذه العلاقة أكثر سيجد أن النوافل لوحدها لن تكفي، وهكذا.. ولذا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأنوار الصادقين ظلمات الصدّيقين، وعلى الرغم من هذه الزيادات. وكلّها تنضوي تحت ذِكر الله الأكثر. إلا أن الأبرار ومَن علاهم من الصادقين والصدّيقين وما إلى ذلك، إنما يعدّون ما يقومون به من مستحبات هو بمثابة التكليف الملزم لهم، وأن عدم القيام به يمثّل معصية، غاية ما هنالك أن هذا التكليف هم من حدده نتيجة لرغبتهم في ذِكر الله كثيراً.

وهو عشق الهدف وطلبه على أي حال، وفي كلّ صورة، وقد أشير إليه هنا بخصيصة الذِكر الكثير لله تعالى، ولهذا فهو لن يبالي مع هذا المحتوى بأيّ النتائج ـ خاسرة أو رابحة ـ جاءت ما دامت قناعاته والتزاماته متناغمة ومنسجمة مع أهدافه، مما سيعطيه زخماً هائلاً، ويسقط أمامه كلّ خيارات الأعداء، فمن يريد أن يثير الخوف بسيفه، كيف يتمكن من ذلك حينما يكون المقابل لا يخاف الموت، ولا يخاف من سيفه، ولا يأبه لهما؟!.[1]

ولهذا طرح القرآن الكريم الحالة الميدانية المعاكسة لحالة تلك الشرائح، حالة مَن آمن بالله واليوم الآخر بشكل دقيق وبانت عليها استحقاقات ذِكر الله كثيراً، وهنا لنلاحظ ما هي ردة فعل هذا الجانب من المعسكر تجاه البلاء القادم ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) ﴾؛ إذ نجد أن معايير القوة التي طرحتها القوى الظالمة لا وجود لها في مشاعرهم، وكلّ ما تلمسه هنا هو معايير القوة التي طرحها الله سبحانه ورسوله عليهم، فهذه هي وعود الله ورسوله، وكلّ النتائج ـ حتى لو كانت مُرّة ـ سوف تثمر عن لقاء الله تعالى وهو راض عنهم، ولهذا حينما تتيقن النفس في ما هي مُقدِمة عليه، وتدرك صدق الوعود المقدّمة لها، لا تزداد إلا طمأنينة وسكينة.

وهذه الصورة عكس تلك الصورة التي كانت النفس فيها هلعة، والخوف قد أخذ عليها آفاق السماوات والأرض، فهناك غابت البصيرة تماماً نتيجة الاستسلام لمعايير منطق الظلَمة وانعكاسات هذا المنطق، الذي يبني نفسه على أساس معايير القوة المادية، ويتوسل بها كي تكون سبيلاً بين يدي فرض سيطرته، وهي ـ بالعادة ـ إنما تؤسس لمنطق عبودي ذليل، بينما في الحالة الثانية كانت العبودية الخالصة لله قد

أقول: قوله: "حسنات الأبرار سيئات المقربين"، يرد في كثير من الكتب على أنه حديث، ولم أعثر على أي مصدر من مصادر حديث أهل البيت عليهم السلام يشير إلى ذلك، ومصادر العامة تقول بأنه موضوع، وتنسبه في غالبيتها إلى أحد المتصوفة، هو أبو سعيد الخرّاز، وعلى الرغم من ذلك فإننا نعتقد أن مفهومه صحيح تماماً، وهذا المفهوم هو أحد أسباب التفاضل بين أولياء الله، ولهذا يسمى هذا ولياً وذاك باراً وهذا تقياً وذاك صدّيقاً، وهكذا.

١ قيل لوزير الخارجية الأمريكي الكسندر هيغ، ووزير الدفاع الأمريكي كاسبار واينبرغر، أثناء جلسة استماع في الكونغرس الأمريكي عقب أحداث بيروت وما أسفرت من فرار الأمريكان منها: لقد زودناكم بأشد الأسلحة فتكاً في العالم، ولكنكم فشلتم أمام أفراد؟! (يقصدون المقاومة الإسلامية)، فقال هيغ أو واينبرغر: أعطيتمونا أسلحة لكي نقتل بها هؤلاء، ولكن ماذا نصنع بهذه الأسلحة لو كان هؤلاء يسعون بأنفسهم وراء الموت؟!

أسست حرية كاملة لهم مقابل معايير المادة وقوتها التي يملكها الظالمون.

ولك أن تقارن بين الصورتين؛ صورة الفزع والهلع الشديدين اللذين سيطرا على موقف المنهزمين، وصورة السكينة والطمأنينة الواثقة من نصر الله تعالى، التي تمثلت بالموقف الرافض للهزيمة والانكسار.

والصورة القرآنية لا نلمسها وكأنها مجرد عرض تجريدي، بل تعال وانظر إلى ما جرى لتتبين تحليل الواقعة بشكل جدي، فمن المعلوم أن الأحزاب غزت المدينة المنورة، وقد استعد الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله لذلك، فجمع أصحابه وحفروا خندقاً في مواجه الأحزاب، الّذين ضربتهم عاصفة هوجاء فاضطرتهم إلى هذا المكان تحديداً، وما هي إلا برهة قليلة من الزمن حتى اقتحم الخندق باتجاه معسكر الأصحاب خمسة فرسان على رأسهم عمرو بن عبد ود العامري، الذي كان يلقب بفارس يليل[1]، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة ابن أبي وهب، وضرار بن الخطّاب[2]، فادلهمت السماء في نظر الأصحاب وجرى ما جرى من حديث الآيات القرآنية، وما هي إلا دقائق حتى جاء عمرو بن عبد ود يطلب البراز، والأصحاب جميعاً يسمعون كلامه وتحدّيه، والرسول (بأبي وأمي) يدعوهم إلى مناجزته، ولكن كانت الحالة من الهلع والخوف كما وصفها القرآن الكريم، واختفى أصحاب المزايدات، وتصاغرت أعناق من يرفعون عقيرتهم في أوقات الأمان، وخلا الميدان من كلّ من يُدّعى له مشيخة الصحابة والمناصرة والفدائية عن رسول الله (بأبي وأمي).

واللافت هنا أن عمرو بن عبد ود طرح عليهم مناجزة منصِفة جداً، فهم يتحدثون عن أن المقتول منهم راحل إلى الجنّة وفي أحضان الحور العين، وأن المقتول من الكفار والمشركين إلى جهنم، فطلب منهم البراز لكي يحصلوا على إحدى الحسنيين، فإما أن يقتلهم فيعانقوا الحور العين، وإما أن يقتلوه فينتصروا ويعجّلوا به إلى نار جهنم..

ويصف المؤرخون الحالة، ولننقلها كما نقلها ابن كثير الدمشقي في **"البداية والنهاية"** وفي **"السيرة النبوية"**؛ إذ كتب يقول: خرج عمرو بن عبد ود وهو مقنّع بالحديد فنادى: من يبارز؟ فقام علي بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله؛ فقال:

---

١ فارس يليل لقب يطلق على من يعادلونه من الفرسان بقوة ألف فارس.

٢ لا علاقة للرجل بعمر بن الخطاب من حيث النسب.

إنه عمرو، اجلس. ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ فجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها؟! أفلا تبرزون إلي رجلاً؟ فقام علي فقال: أنا يا رسول الله؛ فقال: اجلس؛ ثم نادى الثالثة، فقال:

ولقد بححت من النداء لجمعهم هل من مبارز

ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن المناجز

ولذاك إني لم أزل متسرعاً قبل الهزاهز

إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

قال: فقام علي (رض) فقال: يا رسول الله! أنا. فقال: إنه عمرو؛ فقال: وإن كان عمرو. فأذن له رسول الله (ص) فمشى إليه، حتى أتى وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك مجيبُ صوتك غيرُ عاجز

في نيةٍ وبصيرةٍ والصدق منجى كلٌ فائز

إني لأرجو أن أُقيم عليك نائحةَ الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذِكرها عند الهزاهز

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي؛ قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب؛ فقال: يا ابن أخي! من أعمامك من هو أسنّ منك، فإني أكره أن أهريق دمك؛ فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك؛ فغضب فنزل وسلّ سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً، واستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في درقته فقدّها، وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي على حبل عاتقه فسقط، وثار العجاج وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير، فعرفنا أن علياً قد قتله.[1]

هذا مختصر التفاصيل، وهي تدلنا بوضوح على أن أيَّ نزر من التشويش في بصيرة أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وأيَّ قدر من الخوف أو الهلع لم يك قد قرب منه، بل كان ثابت الجَنان ثاقبَ البصيرة عميقَ الاستسلام لرسول الله صلوات الله

---

١ البداية والنهاية ٤: ١٢١ - ١٢٢، والسيرة النبوية ٣: ٢٠٤ - ٢٠٥ .

عليه وآله، فالأصحاب لم تستفز نخوتهم وإرادتهم عديدٌ من الحالات، التي تكفي واحدة منها لكي ينشطوا من عقال، فلا لكونهم مداهمين في عقر دارهم، وأيّ انكسار سيؤدي إلى وصول آثاره إلى بيوتهم وعوائلهم، هذا ناهيك عن أمر الله ورسوله لهم بالثبات، فضلاً عن الاستفزاز المهين الذي كان عمرو بن عبد ود قد واجههم به، فهو لا يدعوهم للمبارزة وَفق قيمه، بل يضع قيمهم أمامهم ويتحدّاهم بها.

غير إنّ هذا الاستفزاز جعل الرسول الحبيب (بأبي وأمي) يكرر عليهم الطلب لثلاث مرات، وكلّ ذلك على الرغم من أن موازين المعركة الميدانية كانت لصالحهم، فالرجل ترك معسكره وجاء يتحدّاهم في معسكرهم، الذي كان يربو عدده على ثلاثة آلاف رجل، مما يعني شيئاً كثيراً على أرض المعركة، وكذا للباحث المنصِف، ولكن القوم كانوا وكأن الطير على رؤوسهم، لم يتقدم منهم أحدٌ، فيما كانت رؤسهم مدلاة على صدورهم من شدة الهلع والخوف، ولم نجد لهم تلك الصورة التي نقرأ عنها لبعض الكتّاب والمؤلفين ممن دأبوا على تصوير حال هؤلاء بصورة عرائسية ـ إذا صحّ التعبير ـ وهم يصورونهم في أعظم حالات النصرة لرسول الله صلوات الله عليه وآله.[1]

وهنا لنا أن نتساءل لماذا لم يبالِ أمير المؤمنين صلوات الله عليه بقوة هؤلاء

---

١ كم كان بودي أن أعثر على نماذج مهمة في نصرة مهمة لرسول الله صلوات الله عليه وآله في معاركه من قبل غالبية علية القوم ورموزهم..

ففي معركة بدر لم نجد اشتراكاً حقيقياً ينجم عنه قتلهم لأحد المشركين أو أسره أو جرحه، كما لم نجد لأحدهم أثر من جرح أو تقدم لمبارزة.

وفي معركة أحد كان المشهد معروفاً، إذ تركوا رسول الله صلوات الله عليه وآله وحيداً لم يبق معه إلا ما دون الخمسة من الأصحاب، وبلغ بفرار عثمان حداً أن قيل فيه إنه: ذهب بها عريضة؛ لأنه رجع إلى بيته هارباً وظل فيه ثلاثة أيام.

وهذا هو حال معركة الأحزاب كما ترى.

وفي معركة خيبر كان حال عمر – على سبيل المثال – كما قال ابن أبي شيبة والحاكم النيسابوري إنه رجع يجبّن الناس ويجبّنونه (مصنف ابن أبي شيبة ٨: ٥٢٥، والمستدرك على الصحيحين ٣: ٣٨ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه).

وفي معركة حنين فرّ أغلب الجيش، ولم يبق مع رسول الله (بأبي وأمي) إلا تسعة لا تجد أحداً منهم فيهم، وهكذا بقية المشاهد.

ولكن لماذا عدّوهم ووصفوهم بالأبطال الأنصار الأفذاذ؟! فهذا أمر علمه عند مَن زوّروا التاريخ وملؤوه كذباً وزوراً.

وجبروتهم، على الرغم من أن الرسول يذكّره بأن الداعي للمبارزة هو عمرو بن عبد ود؟ ولكن منطق الاستخفاف بقوته، والانصهار بواجبات الطاعة، ظلا هما المسيطران على موقف أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

وإذا قدّر لنا أن نرى جانب التكليف الشرعي هنا، فلك أن ترى في تفاصيل أُخرى موقف الكرامة والفروسية الفذة والقيم الإيمانية العليا التي حكمت هذه الأجواء؛ إذ إنه (بأبي وأمي) حينما أسقط عمرو بن عبد ود من فرسه، ورام حزّ رأسه ـ وكان قد جلس على صدره ـ فقام عنه، وظن المنافقون آنئذ ظنوناً شديدة بأمير المؤمنين صلوات الله عليه، ثم عاد إليه فذبحه، فسأله الرسول صلوات الله عليه وآله عن ذلك استنطاقاً لإيضاح موقفه، فقال (بأبي وأمي): قد كان شتم أُمّي وتفل في وجهي، فخشيت أن أضربه لحظ نفسي، فتركته حتى سكن ما بي، ثم قتلته في الله!.[1]

وحينما تكون المعادلة بهذه الصورة، فإن النتيجة ستكون ـ حتماً ـ هي مواجهة البلاء وتحمّل تبعاته واستحقاقاته بأشد صور الالتزام ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ ، ومن بعدُ لنحصل على حالة طبيعية تتمثل بانحسار البلاء وتحوله لحالة معاكسة ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ .

إن هذا العرض المسهب، والتوقف الطويل عند مثال بلاء معركة الأحزاب وتداعياته، الذي وصفه القرآن الكريم بالزلزال الشديد، يعطي المنتظِرين دروساً مهمة، فالخروج من معركة البلاء منتصرين له ضرائبه الحقيقية والجادة، ويحتاج إلى التزام حقيقي بكلّ متطلبات عملية الخروج منه، بما فيها الاستعداد لمعركة جديدة مع نمط آخر من أنماط البلاء، فالقضية لا تعالج بالتمنّي ولا بالروحية المنهزمة أو المتكلة أو المتخاذلة أو المتعللة بأسباب وحجج واهية، ولا بالدعة والترف والراحة، وإنما تحتاج إلى وعي جاد بكلّ مستلزمات هذه المرحلة، وهذا الوعي لن يكون وحده كافياً من دون العناية الجادة بالمحتوى الداخلي للمنتظِرين، الذي يصوغ لهم إرادة صلبة.

وكذلك، فإن الحفاظ على مكتسبات الخروج من البلاء هو الآخر يحتاج إلى التزامات، بل لعل الحفاظ على هذه المكتسبات أصعب من عملية الحصول عليها،

---

١ مناقب آل أبي طالب ٢: ١١٥ .

ولك أن تتأمل في حالة النبي موسى عليه السلام مع فرعون، فعلى الرغم مما تميزت به من قسوة، إلا أنها كانت هيّنة قياساً إلى البلاء الذي أصاب النبي موسى عليه السلام مع قومه، على الرغم من أنه هو من أنجاهم من ظلم فرعون وسطوته، وهو من يدينون له نظرياً بالطاعة والولاء..

أو بما جرى لرسول الله وآله صلوات الله عليه وعليهم، فالمعركة مع المشركين والكفار لم تكن بقسوة وألم المعركة مع المنافقين.

أسباب البلاء:

ذكرنا سابقاً أن البلاء لا ينـزل اعتباطاً، ولا يتكرّس صدفة، ولا يمتد مجازفة، وإنما يرتبط وجوده بأسباب متعددة، قسم منها داخلي يرتبط بذات الإنسان، وقسم منها يرتبط بالجماعة، وأعني بذلك مجموعة الأفراد الّذين يرتبطون بمنظومة سلوكية وعقائدية ووجدانية واحدة، وحينما أتحدث عن الجماعة هنا، إنما أقصد المظهَرين الخاصَّيْن بالجماعة..

فتارة تكون الجماعة بصورتها الخاصة، والتي تتعايش مع جماعات أُخرى تختلف عنها في أطر متعددة، ولكنها جميعاً تنضوي في الصورة العامة للجماعة، التي قد يصح إطلاق الصورة الحضارية للجماعة عليها، فقد لا تتخلف الجماعة الصغيرة، ولكن المجموع العام حينما يتخلّف ويحبط المشروع الحضاري عندئذ يكون الجميع مكشوفاً أمام شتى موجات البلاء.

وقسم منها يرتبط بعوامل خارجية، كالظلمة والأعداء، الخاصّين والعامّين، أو لأسباب طبيعية كالكوارث الطبيعية، والموت، وما إلى ذلك، وقد ينشأ نتيجة لتراكمات في الماضي لا علاقة لها بهذا الإنسان أو بتلك المجموعة، فقد نشأ في بيئة اجتماعية لم يك هؤلاء موجودين فيها، ولكنهم في النتيجة ضحايا لتراكماتها التي تركها لهم أسلافهم.

وأعتقد أن دراسة متأنية لهذه الأسباب في مبحثنا هذا تنفع في إعطائنا صورة أكثر تكاملاً في هذا الصدد، وبطبيعة الحال سيكون أكثر تركيزنا على الأسباب الداخلة مباشرة في عمل المنتظِرين، دون أن نتوخى استقصاء كلّ الأسباب كما هو دأبنا في هذا البحث، فالغرض التمثيل وليس الحصر.

أ: **السبب الإلهي**: لقد تقدم الحديث مراراً عن ابتلاء الله تعالى لعبده المؤمن بما

لا نزيد عليه، ولكن يجب أن نعرف بأن بلاء الله تعالى يأتي تارة رحمة به، لإنقاذ عبده المؤمن من أمور لا مصلحة له بها، وأخرى من أجل تنبيهه وتوعيته لطبيعة مخاطر تعتور مسيرته، وثالثة لردعه عن أمور تشكل لو حصلت عقبة أو ثلمة في طريقه، وغيرها من العوامل، ناهيك عن أسباب العقاب الإلهي في أحيان أُخرى.

على أن السبيل الرباني لا يتخلى عن طريق العلة والمعلول، أو سبيل السبب والمسبب، فهذا البلاء هو من ضمن سنن الله تعالى، التي عبّر عنها في قرآنه المجيد: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (1)، والسنن الإلهية على نمطين، قسم منها يأخذ بالأسباب المادية والموضوعية، كما في حالة نزول المطر وَفق اجتماع أسبابه المادية من تبخر وتكاثف ثم تقطير، وأُخرى عبر أسباب خاصة فوق عالم المادة، كما في حال نزول المطر بناء على صلاة الاستسقاء؛ ولهذا فإن البلاء قد يأتي نتيجة العوامل المادية وآلياتها، وقد يأتي بناء على استحقاقات الذنوب، وقد يدفع بهذا أو بذاك أيضاً، وسيأتي مزيد بيان حول ذلك إن شاء الله تعالى.

ب: **العنصر الخارجي**: ونقصد بذلك كلّ العوامل الخارجية التي تسلط على الإنسان والجماعة فتكون مورداً لابتلائه بإفرازاتها، كما هو الحال بأنماط الأعداء المختلفين، أو الظرف الاجتماعي، أو الطبيعي، وما إلى ذلك، وهذه لا تأتي اعتباطاً، وإنما تأتي ضمن إطار القوانين الاجتماعية والتاريخية والكونية، وفي كثير من الأحيان قد لا يكون للمرء كثير مسؤولية إزاء حصولها، ولكنها كواقع تطغى في تأثيراتها عليه، وبالتالي يكون هو عرضة لها وتحت وطأتها، ولن نركز الحديث عن ذلك؛ لأن هذا الأمر من الواضحات التي لا تحتاج إلى كثير كلام.

ج: **الذنوب**: وقد أشير إلى ذلك في عدة روايات، وبطرق متعددة، ووَفق طبيعة الذنب يتولد نمط البلاء، فالذنوب التي لها تأثير ذاتي دون أن تمتد لعموم المجتمع لها نمط من التأثير يختلف عن الذنوب التي لها تأثير لا يتوقف عند فاعله، وإنما يمتد لمساحات أكبر من الذات، فقد تشمل قطاعاً معيناً من المجتمع دون أن تشمل الجميع، ونمثل للحالة الأُولى بعلاقة موت الفجأة بالزنا، فموت الفجأة ـ أي الموت السريع ـ قد قرنته الروايات بذنب الزنا، كما في حديث الإمام أبي جعفر الباقر عليهما السلام، قال: "وجدنا في كتاب علي عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كثر الزنا كثر موت الفجأة"(2).

---

1 سورة فاطر: 43 .

2 المحاسن: 107 (كتاب عقاب الأعمال) ب 45 ح93 .

ونمثل للحالة الثانية بمسألة إشاعة الفاحشة؛ إذ إنّ هذه التأثيرات تمتد بمقدار امتداد الإشاعة، وقد يشمل ذلك المجتمع برمته، كما في حال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ نجد في رواية محمد بن عمر بن عرفة[1]، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: "لتأمرُنّ بالمعروف، ولتنهنّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم"[2].

وفي نفس السياق ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: "أما بعد، فإنه إنما هلك من كان قبلكم حيث ما عملوا من المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وإنهم لـمّا تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، نزلت بهم العقوبات، فأْمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقرّبا أجلاً ولم يقطعا رزقاً"[3].

ويشير الأئمة صلوات الله عليهم إلى نمطين من التأثير الخاص بالذنوب على حركة البلاء، فبعض الذنوب قد تكون في الحدود الذاتية للفرد، ولكنها توجِد تأثيرات بالتدريج على روحيته وبنائه المعنوي، لتجره بعد ذلك إلى بلاء لم يك قبل ذلك حينما كان خلياً من الذنب، وبهذا الصدد يروي يونس بن يعقوب، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله: "إن أحدكم ليكثر به الخوف من السلطان، وما ذلك إلا بالذنوب، فتوقوها ما استطعتم، ولا تمادوا فيها"[4].

إذ نلمس هنا أن مرحلة ما قبل ارتكاب الذنب كان البناء المعنوي فيها لا يسمح بالهلع والخوف من السلطان، أو أنه كان أكثر تحصيناً من مرحلة ما بعد ارتكابه، لأنّ مثل هذه الحالات إنما تنشأ بسبب تهويل الشيطان قوةَ السلطان في نظر المذنب، ولكن مع حصول الذنب يبدأ البناء العقائدي بالتآكل والتفتت فيتمكن الشيطان منه، ليحيله إلى كائن يضعف أمام كلّ هزة.

---

١ محمد بن عمر بن عرفة مجهول، وسياق السند بدلالة رواية محمد بن عيسى بن عبيد عنه يوحي بأنه يروي إما عن الإمام الرضا وإما عن الإمام الكاظم صلوات الله عليهما وكلاهما يكنّيان بأبي الحسن، ولو كان هذا هو محمد بن عرفة، فيكون أبو الحسن هو الإمام الرضا صلوات الله عليه؛ لأنه من أصحابه، كما في رجال الشيخ الطوسي رحمه الله.

٢ الكافي ٥: ٥٧ ح٣ .

٣ الكافي ٥: ٥٧ ح٥ .

٤ الكافي ٢: ٢٧٥ ح٢٧ .

ودعوني أُمثّل للأمر بهذا المثال: كلّنا يعرف أن انطلاق أي كرة يأتي من قوة قدم من أطلقها، فكلّما كان قوياً كلّما كانت الكرة ذات حركة أسرع، والسبب في ذلك يعود إلى أن الجاذبية الممسكة للأشياء عن الحركة، لا يمكن أن تسمح لقانون الحركة أن يتفعّل إلا بقوة تتمرد وتتمكن من تجاوز الجاذبية، وهنا لو وضعنا مفهوم الحديث الشريف أمامنا لوجدنا أن العناصر المادية تمثل القوة المتمردة على الذات، وقوة الجذب والإمساك هي القوة الروحية، مما يعني أن قوة التمرد كلّما كبرت وخرجت عن قدرة قوة الجذب، كلّما أصبحت مسيطرة بصورة أكبر على الذات، وبالتالي هي التي تسيّرها وتوجهها.

والسلطان إنما يُخاف منه بسبب امتلاكه القوة المادية؛ ولهذا فإن أي تمرد على القوة الجاذبة من خلال ارتكاب الذنوب سيؤدي إلى قابلية الخضوع لقوة السلطان، والهلع منه هو أحد علامات الخضوع ومراتبه، ولكن من يتحرر من هذه القوة من خلال عدم الوقوع في المآثم والذنوب لن يبالي بهذه القوة وإفرازاتها، مما يعني أن الهلع لن يجد له موطناً في قلب المرء.

أما النمط الثاني، فهو ما تثيره رواية العباس بن هلال الشامي، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: "كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون"[١].

وفي الحقيقة، إن وصف الإمام صلوات الله عليه نراه اليوم بشكل جلي، وهو على أي حال يطرح معادلة موضوعية، فكلّ ذنب له نمط من التأثير، وهذا التأثير يتطور كلّما تطور الذنب، لأن أي تطور في هذا المجال سوف يفتح آفاقاً جديدة أمام عملية التطوير، وبالتالي ليشمل امتداداً كمّياً ونوعياً في حركة البلاء؛ لأنه يعطي حركةَ البلاء إمكانياتٍ جديدة، ويضع أمام القوى الممانعة عراقيل جديدة، أو يزيد في ضعفها ضعفاً جديداً.

ويطرح الإمام الباقر عليه السلام تداخلَ الذنوب بأنماط مختلفة من البلاء، ويعلل البلاء بهذه الذنوب ولكن بنفس الدلالات المتقدمة، فعن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: "وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة، وإذا طفّفت المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كلّها،

---

١ الكافي ٢: ٢٧٥ ح٢٩ .

وإذا جاروا في الأحكام تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم، وإذا قطعوا الأرحام جُعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتّبعوا الأخيار من أهل بيتي سلط الله عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم"[1].

د: **الاستعجال والتهوّر**: يكون الثمر مراً إذا تم قطفه قبل حيانه، ولربما يؤدي في بعض الأحيان إلى تسميم من يتناوله أو الإضرار به، كذلك في الحركة الاجتماعية فإن من يستعجل في طلب الأشياء ويطرحها قبل أوانها لا ينال إلا ما يؤذيه، وفي أحسن الأحوال يسهم بشكل جاد من إفشال هذا الطلب، ولدينا وفرة في الروايات الناهية عن الاستعجال في طلب الأُمور، هذا في الشؤون العادية؛ فما بالك بمسألة الانتظار والظهور؟!

لا شك ولا ريب أن هذه المسألة لها مخاطرها الجمة، ليس على المستعجل فحسب، وإنما على عموم الكيان الاجتماعي للمنتظِرين، صحيحٌ أن الاستعجال وعدمه لا علاقة له بالظهور، فالإمام صلوات الله عليه لن يوقّت لنفسه وقتاً بناءً على طلب معين من قِبل هذا أو ذاك، أو هذه أو تلك، من الأشخاص أو المجاميع، وإنما يوقّته وَفق طبيعة مصالح الحركة الربانية، ولكن تورط أحد المنتظِرين أو جماعة منهم في شأن التحدث عن وقت محدد للظهور على سبيل المثال، فيه من السلبيات العظيمة بما لا يخفى على أدنى متأمل، ويكفينا أن نرى خطورة وضرر ذلك من خلال تأمل واحدة من أمثلة الحالات الافتراضية التالية:

١: تم توقيت الوقت الفلاني للظهور من قبل فردٍ ما، بدليلٍ اقتنع به بينه وبين الله على فرض حسن الظن، وأُمور كهذه فيها سوء الظن هو الأصل، وحين جاء الموعد لم يك هناك ظهور ولا مهدي، ولا قريب من ذلك ولا بعيد، فما الذي سيحصل لهذا الشخص من الناحية الوجدانية أو العقائدية أو الاجتماعية، ناهيك عما لو تحدّث بالأمر مع الآخرين؟!

لا ريب أن إحدى الحالات البسيطة التي ستنعكس من حالة من هذا القبيل سيكون الإحباط الذاتي ثم الجماعي، فالأمل تحول إلى سراب؛ لأنه أمل مخادع مصطنع قام المستعجلون بصناعته بناء على خلفيات وهمية، وليس أملاً حقيقياً مبني على حقائق موضوعية، أو الانتكاس الوجداني والعقيدي في الذات أو في المجتمع أيضاً،

---

١ الكافي ٢: ٣٧٤ ح٢.

فبعضهم لا يخال الأمر قد حصل بناء على خلفيات وهمية، وإنما سيسوقه للقول بأن الأمر يعود لارتباط الموضوع بموضوع وهمي، ولا سيما مع كثرة الناعتين من أعداء مدرسة أهل البيت صلوات الله عليهم لهذه القضية بأنها وهمية؛ ولهذا إما أن يتجه هذا الشخص في أحسن الظروف لعدم المبالاة والاهتمام بالموضوع المهدوي، أو يفقد الثقة بكلّ القضية المهدوية!! فما الذي جناه المستعجل عندئذ؟!

٢: عدو ظاهر احتاج إلى أن يعرف واقع المؤمنين وتحديد خارطتهم الأمنية ومدى قوتهم، ونظّم نفسه لكي يجرّهم إلى معركة ينتخبها ويُعدّها لهم، وهم لا يعلمون، وإن علموا فإن إمكانياتهم لهذه المعركة لا قيمة لها قياساً إلى إمكانيات العدو، فحرّك فيهم دعياً من الأدعياء، أو ساذجاً من سذّج الناس ـ وما أكثرهم في هذا المجال ـ فصوّر له ما يقنعه بأن الظهور سيتم في وقت ما، فانجرّ مؤمن مغرّر به، أو مجموعة من المؤمنين استهوتهم فكرة الخروج، وضغطت عليهم أثقال الظلم، فانجرّوا إلى خيارات لا قِبل لهم بها، ولا سيما أن الظهور سوف يقترن في نظر هؤلاء بحركة السيف والقتال، مما يجعلهم بأجمعهم عرضة لمعاقبة الظالم، من دون أن يبدو الظالم معتدياً في نظر الناس، وما أكثر ما حصلت مثل هذه الأمور.

٣: جماعة مدّعية وقّتت للظهور وأعدّت نفسها لهذا الوقت الذي حددته بنفسها، وراحت تقنع الناس بالالتفاف حول فلان الفلاني أو علان العلاني بحجة أنه أحد الرايات الداخلة في عملية الظهور، وراحت هذه الجماعة تسوق الناس باتجاه مصالحها الخاصة ومآربها التي قد تكون مسخّرة للأجنبي أو لأجندات وخطط معادية، كما حصل ذلك في قضية اليماني الدجّال المكنى بـ (أحمد الحسن) في مدينتَي البصرة والناصرية[1]، أو في مجموعة الدجّال قاضي السماء التي تحركت في منطقة الزركة في الكوفة قبل بضعة سنوات.

---

١ هذا الدجال ابتدأ حركته بدعوى أنه هو اليماني الموعود، ثم تطور في ادعاءاته فقال بأنه معصوم، ثم قال بأنه ابن الإمام، ثم ادعى بأنه هو المهدي، ودعواه هذه مقاربة لبدايات رأس الحركة البهائية الذي تدرج في ادعاءاته، والملفات الأمنية الخاصة به تشير إلى أن النظام الصدّامي البائد كان قد أرسله إلى الهند لتعلم السحر، ومكث هناك قرابة سبع سنين من أجل ذلك، ثم رجع وانخرط في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، ضمن من انخرطوا تلبية لدعوة مديرية الأمن العامة لاقتحام الوضع الشيعي من داخله، ومن بعد الاحتلال رعاه البريطانيون والأمريكيون وبتمويل من الإماراتيين وتبني واضح من الموساد، وغدت دعوته مشابهة من أوجه متعددة لأية حركة دينية ارتبطت بالماسونية العالمية، فهو يدعي بأنه مرسل لليهود والمسيحيين والمسلمين.

ونظير ذلك هناك أمثلة متعددة لحالات افتراضية من الواقع، وقد شهدتها كثيرٌ من الدول، ونؤكد هنا بأن الدور البريطاني، واليهودي على وجه التحديد، كان سبّاقاً في الاستفادة من هذه الأحوال؛ للاندساس وسط الجماعات الدينية وتحويلها إلى أدوات في أجنداتهم وخططهم[1].

---

١ سبق للبريطانيين أن حاولوا النفوذ إلى الوسط الشيعي من خلال البهائية، وفي الوسط السُني من خلال القاديانية في الهند والوهّابية في الحجاز، وقد جرى ذلك في وقت متقارب، وقد فشلت القاديانية والبهائية إلى حد كبير، ولكن الوهّابية تمّ احتضانها من قبل دولة آل سعود وَفق منظومة من المصالح أمّنها لورنس، ثم تمّ تبنّيها من قبل بعض الأنظمة الأخرى بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ودُعمت أكثر بعد سقوط نظام الطاغية صدام فَنَمَت، وهي الآن في حال طغيان كبير حتى على المذاهب الكبيرة لأهل السُنة، ومن الواضح أنه تمّ استهداف المذاهب الحنفي والشافعي والمالكي على وجه الخصوص بشكل كبير من قِبل الوهابيين، وطغى في عدة بلدان عليهم، وها هو اليوم عبر بواباته التكفيرية ـ كالقاعدة وأذنابها ـ مطية بيد الأمريكان والإسرائيليين وأنظمة استخبارات إقليمية، يسوقونه بالوجهة التي يريدون.

وعلى الصعيد المسيحي فقد تمكّن اليهود من غزو الوضع المسيحي بشكل كبير من خلال واجهات اليمين المسيحي، بنفس الطريقة التي رأيناها في الساحة الشيعية، فاليمين المسيحي ـ أو ما يعبّر عنه بالأصولية المسيحية البروتستانتية ـ خصوصاً وإيماناً منها بفكرة أن خروج المسيح مرة أخرى وعودته، منوط بعودة اليهود من الشتات إلى أرض أورشليم، لتحصل من بعد ذلك مذبحتهم في جبل المجد (هار ميجدون) شمالي تل أبيب، ويرسم هؤلاء صورة للمشهد الذي يرون أن المسيح سيعود خلاله ويكوّنه.

ففي كتابه "العالم الجديد القادم" يقول هال ليندسي: "فكروا في ما لا يقل عن ٢٠٠ مليون جندي من الشرق مع ملايين أخرى من قوات الغرب يقودها أعداء المسيح من الامبراطورية الرومانية المستحدثة (أوربا الغربية)!! إن عيسى المسيح سوف يضرب أولاً أولئك الّذين دنّسوا مدينته المقدّسة، ثم يضرب الجيوش المحتشدة في ماجيدو أو هرمجدّون، فلا غرابة أن يرتفع الدم إلى مستوى ألجمة الخيل مسافة ٢٠٠ ميل من القدس (انظر: النبوءة والسياسة: ٣٨ لغريس هاليسل).

ولكن هذا لا يتحقق إلا بعد اكتمال تجميع الشتات اليهودي من كلّ أنحاء العالم ليكون في إسرائيل، مما يستدعي دعم إسرائيل وتقوية نظامها.

ولا يكاد المرء يصدق حينما يقرأ عن أفاعيل هؤلاء في نصرة إسرائيل ومدّها بكلّ الدعم المالي والسياسي والعسكري المطلوب، حتى غدوا بتعبير الإسرائيليين أكثر إسرائيلية من إسرائيل نفسها، على الرغم من أنهم يكرهون اليهود!!

فاليمين المسيحي في أمريكا - أو ما يعبّر عنه بالصهاينة الإنجيليين - على سبيل المثال، وهو النافذ جداً في السياسات الأمريكية، والعديد من الرؤساء الأمريكيين ككارتر وريغان وجورج بوش الأب ولعل الابن كذلك ينتمون إليهم، فضلاً عن قادة عسكريين واقتصاديين وسياسيين كبار، لا يضمرون كرههم لليهود بل يصرّحون به، وهذا جيري فولويل أحد أهم قادة الصهيونية المسيحية في

والأمر لا ينحصر بهم قطعاً، فلقد كان صدام المجرم أيضاً مبدعاً في هذا المجال، وهذه الأمثلة المستوحاة من التجارب العملية للمستضعفين عموماً والمتدينين خصوصاً جرّت دوماً آلاماً كبيرة، وأعانت الظلمة إلى حد كبير على استمرار ظلمهم؛ إذ إنّ هؤلاء يتقوون بمثل هذه الحالات، ولهذا يقول الفضل الكاتب: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فأتاه كتاب أبي مسلم[١]، فقال: ليس لكتابك جواب، اخرج عنا! فجعلنا يسارّ بعضنا بعضاً[٢]، فقال: "أي شيء تسارّون يا فضل؟! إنّ الله عزّ وجلّ ذِكره لا يعجل لعجلة العباد، ولإزالة جبل عن موضعه أيسر من زوال ملك لم ينقضِ أجله"[٣].

ولهذا ولغيره كان موقف مدرسة أهل البيت صلوات الله عليهم متشدداً جداً مع

أمريكا يصرّح بأن اليهود هم عدو المسيح، ويذهب أحد أعمدتها وهو دوايت بينتوكوست إلى: إن الشيء الوحيد الذي يمنع محرقة اليهود (القادمة في هرميجدون) هو ندم إسرائيل (انظر: كتاب "يد الله" للكاتبة الأمريكية غريس هاليسل: ٨٠).

ولكن هذه الكراهية المبنية على أساس عقائدي لم تمنعهم من أن يكونوا أهم سبل الدعم للصهيونية اليهودية، وهذا جيري فولويل يصرح فيقول: دينياً على كلّ مسيحي أن يدعم إسرائيل، إذا فشلنا في حماية إسرائيل لن نبقى مهمين في نظر الله. (انظر: يد الله: ٩٢).

ويعلّق إيرفين كريستول اليهودي الأمريكي على تصريحات فولويل، الذي يعدّوه مؤيداً قوياً لإسرائيل: أحياناً يقول المبشّر الأُصولي: إن الله لا يسمع صلاة اليهودي، ولكن لماذا على اليهود أن يكترثوا لعقيدة مبشّر أُصولي ما دام أنهم لا يصدقون ولو للحظة واحدة أن له صلاحية التحدث عن مدى اهتمام الله بصلاة الإنسان (يد الله: ٨٢).

ولهذا يوصي ناثان بيرل موتر عضو عصبة مقاومة الافتراء، التابعة للمنظمة اليهودية المتطرفة بناي بريث في كتابه "اللاسامية الحقيقية في أمريكا": في الوقت الحاضر نحتاج إلى جميع الأصدقاء لدعم إسرائيل، فإذا جاء المسيح يومذاك نفكر بالأمر، أما الآن فلنمجّد الرب ولنرسل الذخيرة إلى إسرائيل!!! (يد الله: ٨٢).

١ المقصود أبو مسلم الخراساني الذي أرسل كتاباً إلى الإمام الصادق يعرض عليه أن يسلمه ملك البلاد بدلاً من بني العباس بوقيعة منهم، فرفض الإمام صلوات الله عليه أن يتسلم الكتاب.

٢ أي انشغل الأصحاب بالتهامس مع بعضهم في شأن الكتاب المرسل من قبل أبي مسلم، وكان منهم من تمنى لو أن الإمام صلوات الله عليه أجابه، ومنّى نفسه لو أن الإمام عليه السلام تسلّم الحكم، دون النظر إلى العواقب الوخيمة لمثل هذه القضايا، وأيسرها أن يكون أبو مسلم موفداً من قبل العباسيين ليجسّوا نبضه في شأن المنصب، ثم ليكون ذلك ذريعة لقتل الإمام صلوات الله عليه في وقت كانت الفوضى هي السمة الغالبة، لطبيعة ما يترافق مع تغيير سياسي بهذا الحجم.

٣ الكافي ٨: ٢٧٤ ح٤١٢ .

مثل هذه الأُمور، ونجد صرامة في رفض هذا السلوك، تارة من خلال رفضه جملة وتفصيلاً، فها هو الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام يقول للفضيل بن يسار[1] بعد أن قال له الفضيل: لهذا الأمر وقت؟ فقال: "كذب الوقّاتون، كذب الوقّاتون، كذب الوقّاتون"[2].

وها هو الإمام الصادق عليه السلام يقول لأبي بصير بعد أن سأله عن القائم عليه السلام: "كذب الوقّاتون، نحن أهل بيت لا نوقّت"[3].

وروى الشيخ الكليني، عن أحمد بن محمد بن خالد، بإسناده، قال صلوات الله عليه: "أبى الله إلا أن يخالف وقت الموقّتين"[4].

وأُخرى من خلال تعليل الرفض وتنفير الناس من الاستعجال وإقناعهم بترك مثل هذه السلوكية؛ لأن النجاة في غيرها والهلاك فيها، وهي بالنتيجة أحد أسباب البلاء الذي يلحق بالناس.

فعن أبي المرهف، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: "الغبرة على من أثارها[5]، هلك المحاضير[6]؛ قلت: جعلت فداك، وما المحاضير؟ قال: المستعجلون، أما إنهم لن يريدوا[7] إلا من يعرض لهم؛ ثم قال: يا أبا المرهف! أما إنهم لم يريدوكم بمجحفة[8] إلا عرض الله عز وجل لهم بشاغل؛ ثم نكت أبو جعفر عليه السلام في الأرض ثم قال: يا أبا المرهف! قلت: لبيك! قال: أترى قوماً حبسوا أنفسهم على الله عزّ ذِكره لا يجعل الله لهم فرجاً؟! بلى والله ليجعلن الله لهم فرجاً"[9].

وعن الصقر بن أبي دلف في حديث طويل عن الإمام الرضا صلوات الله عليه،

---

١ ورد في الأصل: الفضل بن يسار، وهو تصحيف، وما أثبتناه هو الصحيح.
٢ الكافي ١: ٣٦٨ ح٥ .
٣ الكافي ١: ٣٦٨ ح٣ .
٤ الكافي ١: ٣٦٨ ح٤ .
٥ هذا تشبيه لمن يتعرض للظلمة في غير وقت التعرض لهم؛ لأن الغبرة أثناء إثارتها إنما تضر من يثيرها قبل غيره.
٦ المحاضير جمع المحضير، وهي الخيل التي تعدو بسرعة وشدة.
٧ الضمير للظلمة.
٨ تقدم أن المجحفة: هي الداهية، ولربما هي من الجحف، أي الظلم في مقابل الإنصاف.
٩ الكافي ٨: ٢٧٣ - ٢٧٤ ح٤١١ .

إلى أن قال: فقلت له: ولم سمي المنتظر؟ قال: "لأن له غيبة يكثر أيامها، ويطول أمدها، فينتظر خروجه المخلصون، وينكره المرتابون، ويستهزئ بذِكره الجاحدون، ويكذب فيها الوقاتون، ويهلك فيها المستعجلون، و ينجو فيها المسلّمون"[١].

ويقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه: "هلكت المحاضير، ونجا المقرِّبون[٢]، وثبتت الحصن على أوتادها، أقسم بالله قسماً حقاً إن بعد الغم فتحاً عجيباً"[٣].

هـ: التواني والتكاسل: لا يمكن للمنتظِر التعامل مع حركة الإيمان بأنها مجرد حركة اعتيادية تأتي وترحل وتنشط وتضمحل وتثور وتخبو وَفقاً لظروف الزمن، مثلها مثل بقية الحركات الاجتماعية، فهي وإن كانت لا تفرق عن بقية الحركات الاجتماعية من حيث تحكم السنن التاريخية بها، ولكن نجاح هذه الحركة أو العمل بموجبها هو صلب المهمة التي أُنيطت بالجميع وانعقدت عليها حركة التاريخ بمجمله، وهذا هو الذي يميّزها عن بقية الحركات الاجتماعية.

فالإيمان بعنوانه المتصدّي لتجسيد الخير في المجتمع، تقابله كلّ الحركات الأُخرى التي تسهم بطريقة أو أُخرى بتشييد صروح الظلم، وبالتالي لا يمكن التعامل مع هذه الحركة وكأنها أية حركة أُخرى، بل إن أيَّ توانٍ أو تكاسل أو تهاون، بل أيّ نمط من أنماط التخلي عن المسؤولية الاجتماعية من قِبل العاملين في إطار هذا التحرك من شأنه أن يسهم في زيادة حركة البلاء أو تعميمه، لا على الواقع الإيماني فحسب وإنما على عموم المجتمع.

هـذا، وقد دلّتنا الأمثلة التاريخية المتعددة على تجارب مُرة كان حصادها يمكن أن لا يكون بصورة الظلم الهائل الذي حاق بالمجتمع من بعدها، كما هو الحال في تجربة جيش الإمام أمير المؤمنين والإمام الحسن صلوات الله عليهما[٤]، وما كان

---

١ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٨ ب٣٦ ح٣ .

٢ الّذين يقرّبون الظهور وينشرون الأمل من دون تحديد للوقت.

٣ غيبة النعماني: ٢٠٥ ب١١ ح١٠ .

٤ لا تعود كلّ الأسباب التي أدت إلى وأد هذه الفرصة العظيمة إلى عامل واحد، ولكن في نفس الوقت لا يمكن لنا أن نُعزي قوة حركة الخوارج وأصحاب الدنيا الّذين سيطروا في غفلة من الزمن على جيش الإمامين صلوات الله عليهما إلا نتيجة لضعف موقف المؤمنين في الجيشين، سواء كان هذا الضعف متأتياً من مقتل كثير منهم، كعمار بن ياسر ومالك الأشتر ومحمد بن أبي بكر وأمثالهم، أو نتيجة لحالة التواني والتكاسل والتباطؤ في إنجاز المهام المناطة بهم، وعدم أخذ الأُمور بالجدية التي تتناسب مع حجم الخطر القادم، وبين هذا وذاك لنا أن نرقب حجم الكارثة التي كان يمكن

ذلك إلا نتيجة لأسباب لا نبالغ إن قلنا بأن أحد أهمها هو حالة التواني والتكاسل التي تصيب العاملين إزاء مسؤولياتهم أو إزاء ما يعترض مجتمعاتهم، أو الاستخفاف بهذه المهمة واستحقاقاتها وعدم النظر إليها بالجدية التي تستحق، أو التعب عن المضي في طريقها وسط الصعوبات الجمة التي حفّت بها، وإلى هذه العوامل ونظائرها كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يشير حينما قال قولته المشهورة: "ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت الغارات عليكم، ومُلكت عليكم الأوطان .

وهذا أخو غامد قد وردت خيلُه الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها[١]، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأُخرى المعاهدة[٢]، فينتزع حجلها وقُلُبها وقلائدها ورعاثها[٣]ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع[٤] والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين[٥]، ما نال رجلاً منهم كلم[٦]، ولا أريق لهم دم .

فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً .

فيا عجباً واللهِ يميتُ القلبَ ويجلبُ الهمَّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم!

تجنبها لو نجحت تلك التجربة، وعلى مثلها فقس.

١ المسالح: نقاط الحرس ومكامن الثغر، و أخو غامدة أي من بني غامدة، والمعنيُّ هنا هو سفيان بن عوف الغامدي الذي أمره معاوية بأن يغزو الأنبار ومحيطها، والأنبار قديماً هي نفس المنطقة المعروفة حالياً بنفس الاسم، واللفظ فارسي معناه الموضع الذي يخزن فيه، وقد كانت تتخذ من قبل المناذرة وملوك الفرس نقطة تخزين لهم ولجيوشهم..

٢ المعاهدة: أي من أهل الكتاب.

٣ الحجل: الخلخال، والقُلَب: أحد أنواع الأساور يكون مصمتاً، والرعاث: نوع من أنواع الخرز.

٤ الاسترجاع: قول المرء إذا حزن أو تألم أو غضب: إنا لله وإنا إليه راجعون.

٥ وافرين: مكتملين بكامل العدد والعدة والغنيمة.

٦ كلم الرجل: جرحه.

فقبحاً لكم وترحاً[1]، حين صرتم غرضاً[2] يُرمى، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: هذه حمارة القيظ[3] أمهلنا يسبخ[4] عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارة القُرّ[5] أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون، فإذاً أنتم والله من السيف أفرّ»[6].

ولو تأملنا في مفاد الآية الكريمة ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[7] لوجدنا أن أحد هذه الأسباب التي ترسم معالم هذه الفتنة يمكن أن يُعزى إلى هذه الحالة، وإلا لما طالب بالاتّقاء من هذا النمط من الفتنة؛ لأن القضاء عليها مهمة الجميع، كما أن وقوعها سيضرّ بالجميع، سيّان من ظُلِم أو مَن لم يُظلَم، وقوله تعالى هنا وإن كان على شاكلة التحذير المسبّق، ويوحي بالمطالبة بالوقاية قبل وقوع ما يُحذر منه، إلا أن ذلك لا يمنع من رؤية الآية من زاوية المجتمع الذي وقعت فيه الفتنة وأصبح غارقاً فيها.

لقد سبق أن قلنا بأن حركة الظهور ستكون خاضعة في إطارها العام لنفس القوانين والسنن التاريخية، وهذه الحركة مثلها مثل أي حركة أو ظاهرة اجتماعية تأتي لتحل محل حركات سيطرت على المجتمع قبلها أو تنافسها في الرغبة على السيطرة على المجتمع، وقد حكى القرآن كثيراً من الأمثلة على طبيعة هذا الأمر، ولهذا فإن حركة الظهور والعاملين لها إن لم يتعاملوا مع المجتمع والظواهر الناشئة فيه بمستوىً من الجدية والدقة، فقد يجدون أنفسهم في أتون بلاء قاسٍ، ويُضطرون لدفع استحقاقه وضرائبه، في الوقت الذي يكون بإمكانهم أن يحولوا دون ذلك.

ولعل حديث الإمام صلوات الله عليه المتقدّم والمتعلّق بالعلاقة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيطرة الأشرار على المجتمع، يشير إلى المعادلة التي يجب أن تكون مورد عنايتنا بشدة، وهي: إنّ أيّ فراغ في المسؤولية الاجتماعية

---

١ الترح: الهم والحزن.

٢ الغرض: ما يتخذه الرماة هدفاً لسهامهم.

٣ أي شدة الحر.

٤ يسبخ: يخف.

٥ صبارّة القر: شدة البرد.

٦ نهج البلاغة: ٣٢ - ٣٣ خ٢٧ .

٧ سورة الأنفال: ٢٥ .

سيحلّ محله البديل المناقض لهذه المسؤولية، مثله مثل قاعدة الفراغ الجوي الفيزيائية، فإنّ أي فراغ من الهواء في أي منطقة لن يبقى فراغاً، وإنما سيأتي هواء أو أي شيء آخر كبديل عنه لملء هذا الفراغ.

ولعل في حادثة قتل بني إسرائيل ما يدلّنا على أمر هام طرحه القرآن الكريم في هذا المجال، فالبلاء الشديد الذي نزل ببني إسرائيل نتيجة لعبادتهم العجل، وفرض الله سبحانه وتعالى عليهم أن يقتل بعضُهم بعضاً لكي تتم توبتهم، مثل هذا البلاء الذي تشير بعض الروايات إلى أن المقتولين فيه يومذاك سبعون ألفاً كان فيهم الأب والابن والأخ وبقية الأرحام، ما كان ليتم لولا عوامل متعددة، منها مسألة التواكلّ الذي نخر في قوة المؤمنين، مما أعطى السطوة لرعاع المجتمع الإسرائيلي، الأمر الذي سهّل مهمة صاحب العجل.

وتتضافر الروايات الشريفة في التأكيد على داخل التواكل والإهمال مع نزول البلاء واستفحال الظلم الاجتماعي بكلّ صوره، كما في الرواية المنقولة عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الإمام أبي جعفر الباقر صلوات الله عليه، قال: "يكون في آخر الزمان قوم يتبع فيهم قوم مراؤون يتقرؤون ويتنسّكون، حدثاء سفهاء، لا يوجبون أمراً بمعروف، ولا نهياً عن منكر، إلّا إذا أمنوا الضرر، يطلبون لأنفسهم الرخص و المعاذير، يتبعون زلات العلماء وفساد عملهم، يقبلون على الصلاة والصيام وما لا يكلمهم[1] في نفس ولا مال، ولو أضرّت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها، كما رفضوا أسمى الفرائض وأشرفها.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، هنالك يتم غضب الله عز وجل عليهم فيعمّهم بعقابه، فيهلك الأبرار في دار الفجار، والصغار في دار الكبار.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء فريضة عظيمة؛ بها تقام الفرائض، وتؤمَن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر.

فأنكروا بقلوبكم والفظوا بألسنتكم وصكّوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم، فإن اتعظوا وإلى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ

---

١ كلم الشيء: جرحه.

﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [١] هنالك فجاهدوهم بأبدانكم وأبغضوهم بقلوبكم غير طالبين سلطاناً ولا باغين مالاً ولا مريدين بظلم ظفراً، حتى يفيئوا إلى أمر الله ويمضوا على طاعته.

قال: وأوحى الله عز وجل إلى شعيب النبي عليه السلام: إني معذب من قومك مئة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم؛ فقال عليه السلام: يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟! فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[٢].

والرواية الشريفة بليغة جداً في تبيان مقصودنا هنا، ولعل من المفيد التنبيه إلى أمرين أساسيين أشارت لهما الرواية الشريفة:

أولهما: إن التخلي عن المسؤولية الاجتماعية في معركة الحق والباطل بأي صورة من صور التخلي، سواء بنفس الذرائع التي عابها الإمام صلوات الله عليه، أو بأي نمط من أنماط التذرع للهروب من الساحة ومسؤولياتها، هو مدعاة لكي يسد الطريق على الحق لكي يزحف الباطل على الفضاءات التي كان الحق متسيّداً فيها أو آمناً منها، وهو بالتالي يؤدي إلى هلاك الأبرار واستفحال شأن الفجّار.

وثانيهما: يعود لما رواه الإمام عليه السلام عن النبي شعيب عليه السلام في عدم تحميل مسؤولية الانحراف العقائدي والاجتماعي على العصاة فقط، وإنما تحميلها على الذين تركوا هؤلاء يغطسون في أوحال عصيانهم دون ردع أو توجيه منهم، وأعني بذلك طبقة النخبة الاجتماعية القادرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكم هو عظيم ذلك المثل الذي ضربه أحد أصحاب النبي يونس عليه السلام حينما أمر النبي يونس عليه السلام أصحابه أن يخرجوا من المدينة التي هم فيها بسبب استحقاق نزول البلاء بهم، فخرجوا إلا أحد أصحابه الذي جاءه يطلب الإذن بالبقاء في البلدة، فتعجب النبي يونس منه! فأجابه: إن القوم قد يطلبون التوبة فلا يجدوا من يدلهم على طريق التوبة؛ لأن المؤمنين سينسحبون من الساحة، فإن كان البلاء قد نزل بهم ولم يفعلوا ذلك فإنه سيحاسب على نيته، وهي نية عظيمة وصالحة، وهو لن يموت إلا بأجل قد قدّر وقضي له، وإن طلبوا التوبة فهو سيكون معهم، وبالتالي هو

---

١ سورة الشورى: ٤٢ .

٢ الكافي ٥: ٥٥ - ٥٦ ح١، وتهذيب الأحكام ٦: ١٨٠ - ١٨١ ح٣٧٢ .

الذي سيسلك بهم طريق الرشاد، فقبل النبي يونس ذلك منه، وبالفعل كان هذا المؤمن هو السبب في نجاة قوم يونس في اليوم الثالث من رؤيتهم لآيات البلاء.

ويعلل الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله البلاء بسبب ترك المسؤولية الاجتماعية، فلقد روى محمد بن عرفة، قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا أُمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليأذنوا بوقاع من الله تعالى"[1].

ويطرح الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله معياراً مهماً من معايير استحقاقات الحب الإلهي للعباد، ويجعل هذا المعيار هو مصداق التدين الحقيقي والالتزام بمنهاجه؛ قال النبي صلى الله عليه وآله: "إنّ الله عز وجل ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل له: وما المؤمن الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر"[2].

و: **التراكم والإرث التاريخي**: ونقصد بذلك ما يجده الإنسان المنتظِر من الأمور مستفحلاً نتيجة لعوامل تاريخية سابقة على وجوده الاجتماعي، ولهذا فهو لا يتحمل أدنى مسؤولية في وجود هذا البلاء، فالإنسان حينما يولد وقد سيطر الظلم على مجتمعه، يكون أسيراً لهذا البلاء على الرغم من أنه لم يك سبباً في نشأة ذلك، فلقد ورّثه السابقون ذلك، ومن الواضح أن عليه أن يتعامل مع ذلك بعنوانه واقعاً قائماً، ولكن ذلك لا يمنعه من أن يتصدى لهذا التراكم والإرث بما يمكن له أن يدفع عنه الضرر أو يؤمّن له منفعة ضمن الدائرة المباحة شرعاً، وما من ضرورة تدعو للقول بأن الأصل هو إزالة هذا الإرث وآثاره، فهذا الأمر في الغالب ليس ميسوراً، ولكن ما من ريب أن ولادة مسؤوليته الاجتماعية حين بلوغ التكليف تدعوه لكي يتحرك لتخفيف وطأة هذا البلاء.

ولهذا فإنّ الأصل هنا سيكون اعتماد سياسة دفع الضرر وليس بالضرورة التفكير بتحقيق المصلحة، وما من شك بأن هذه المصلحة تتحقق أو تكون قريبة من التحقق حينما يُخفّف أو يزول الضرر، ولك أن تتأمل في تجربة الشيخ نصير الدين الطوسي وابن العلقمي رضوان الله عليهما مع المغول حينما اقتحموا بغداد؛ إذ إنّ من الواضح أنّ أيَّ توجّه منهما للتعامل المباشر والمضاد للخطر المغولي سيؤدي إلى هلاكهما

١ الكافي ٥: ٥٩ ح١٤ .
٢ الكافي ٥: ٥٩ ح١٥ .

ومن معهما من أهل بغداد وما يليها وما تعبّر عنه بغداد، ولكن الحكمة التي جعلتهما يفكران بسياسة دفع الضرر عن الناس لم تعطهما ثمار ذلك فقط، وإنما كانت سبباً في دخول أولاد جنكيزخان في الإسلام على يد الشيخ نصير الدين الطوسي قدّس سرّه، وهو الأمر الذي أدى إلى تحول وجهة الأمور منالفتنة الشديدة و البلاء العظيم الذي سلّطه المغول على المسلمين عامة، إلى دخول الجيش المغولي الهمجي في ربقة الإسلام زرافات ووحداناً، لنشهد عهداً جديداً مختلفاً تماماً تم تسخير هذا الجيش من بعد ذلك لكي يكون في خدمة الواقع الإسلامي[1].

وأيّاً ما يكن فإنّ التعامل مع هذا السبب يرتبط بمهام ما أشرنا إليه في السبب السابق، وقد أشرت إلى ذلك منعزلاً لظروف الموضوعية في تناول المادة، فالتواكل والتواني أُمور يصنعها الإنسان بنفسه، أما ما يرثه فلا دخل له به.

---

١ أنصح بالرجوع إلى دراسة السيد حسن الأمين رحمه الله: "جنكيز وهولاكو؛ الغزو المغولي للبلاد الإسلامية"، وكذا دراسة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ علي الكوراني: "كيف رد الشيعة غزو المغول"؟، وكلاهما متعلقان ببحث التجربة المغولية وعلاقتها بالتشيع، ففيهما الكثير من كشف الأسرار المذهلة عن شأنٍ طالما تم التهريج به ضد شيعة أهل البيت عليهم السلام، ولا سيما مقابلة بر الوزير ابن العلقمي بأهل السُنة والشيعة ببغداد وتخليصهم من المغول بهذا الظلم الكبير له من قبل النواصب أو جهلة المثقفين.

حقائق أساسية بين يدي البلاء:

ولكي نحدد سبل التعامل مع البلاء لا بُـدّ من أن نشير في البدء إلى عدة حقائق أساسية هنا، وهي ـ كما في غيرها من المباحث ـ ليست حصرية:

أ: قوة البلاء نسبية:

إن الشدة واليُسر في البلاء هما من الأُمور النسبية والاعتبارية، ولا علاقة موضوعية لهما بالبلاء نفسه، وإنما ترتبط مثل هذه الأُمور بطبيعة الإنسان المبتلى، فقد نجد إنساناً يعدّ فقدان شأنٍ تافه من شؤون الدنيا بلاءً شديداً مبرماً، ولذا تراه يبيع نفسه لقوى الاستسلام ومحطات الذلّة بأتفه وأبخس الأثمان حتى لو كان المقبوض كثمن هو باهض الكلفة.

ولك في مثال شبث بن ربعي (لعنه الله) أحد أقطاب قتلة الإمام الحسين عليه السلام مصداق واضح، فلقد كان قبل ذلك أحد الّذين كاتبوا الإمام الحسين (بأبي وأمي) ولعله كان جاداً في كتابته آنذاك، وقد بقي على هذا الموقف حتى حينما دخل عبيد الله بن زياد (لعنه الله) الكوفة، وحينما أرسل إليه كان ما يزال يحتفظ بمقدار من التماسك، فادعى بأنه مريض، ولكن هذا التماسك سرعان ما انهار بمجرد أن سمع أن عبيد الله بن زياد قد قال لمن أرسله: مريض أم يتمارض؟! فسارع إليه وهو يتعثر بثيابه من الهلع، وما أسرع ما خرج من موضع عبيد الله بن زياد وهو يحمل أحد رايات قتل الإمام الحسين عليه السلام[1]، ثم ليعطينا نموذجاً لما يمكن للهلع أن يؤثر في المحتوى الداخلي للإنسان.

وعلى العكس من ذلك قد نجد من يجابه شتى ألوان البلاء دون أن يجد في ذاته أي صعوبة في تحمل عناء ذلك في قبال أبسط قيم الكرامة والعزة التي يحملها، ففي

---

١ بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٦ .

صورة القاسم بن الحسن صلوات الله عليهما حينما انقطع شسع نعله في وسط ميدان معركة كربلاء أثناء منازلته لعتاة قتلة الحسين عليه السلام، فانصرف عنهم وانشغل بنعله دون أن يكترث أو يعير بلاءهم وما نزل به أيَّ اهتمام، قياساً إلى قيم كرامته التي أبت أن يحتفي في المعركة! ولا شك أن كلّ ذلك مرتبط بطبيعة المحتوى الداخلي للإنسان المبتلى؛ فتأمل!!

ولهذا، فإن البلاء يكون قوياً ومؤثراً بصورته السلبية بشكل جاد عند مَن لم يبن محتواه سلفاً ويعدّه لوقت الشدائد حتى لو كان هذا البلاء تافهاً، كما إنه سيكون ضعيف التأثير جداً أو ينعدم تأثيره بالكامل لو أن الإنسان قد أعدّ لمثل يومه عدّته اللازمة والمطلوبة، وسنشير لاحقاً إلى أن الإنسان قد ينجح في اجتياز ابتلاء شديد، ولكنه يترنح أمام ما هو أضعف منه بكثير، وقد يسقط في قبال بلاء يحسبه الناس هيّناً، والعكس صحيح أيضاً، ووجه الضعف والقوة هنا يعود إلى نفس المحتوى الداخلي لهذا الإنسان، فهناك من استعد لبلاء السجن ـ مثلاً ـ ووطّن نفسه على ذلك؛ لذا تراه يصبر ويتحمّل حتى لو كان بلاؤه شديداً، ولكنه لم يعدّ نفسه أمام قضايا الأمانة أو قضايا حصانة اللسان من الكذب أو حصانة فرجه من الرذيلة أو عفّة رزقه، لذلك قد يتهاوى أمام أي صورة من صور البلاء المماثلة حتى لو كانت صغيرة.

ولهذا فالعبرة تبقى في الإعداد الأمثل للمحتوى الداخلي بالطريقة التي يمكن أن يؤمّن المؤمن نفسه من الوقوع والانهيار في أية محطة ينتهي إليها أو يتوقف فيها.

٢: البلاء والإيمان توأمان:

تم التأكيد في آيات كثيرة وروايات عديدة على أنّ المؤمن مبتلىً وممتحن، وأنه لن يُترك دون ذلك، وقد أكدت الروايات الشريفة أنّ أكثر الناس بلاءً هم الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل، ففي صحيحة هشام بن سالم الجواليقي، عن أبي عبد الله عليه السلام: "إنّ أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الّذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل".

وفي صحيحة عبد الرحمن بن الحجاج، قال: ذُكر عند أبي عبد الله عليه السلام البلاء وما يخص الله عز وجل به المؤمن، فقال: "سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله مَن أشد الناس بلاءً في الدنيا؟ فقال: النبيون، ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلي المؤمن بعدُ على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قل بلاؤه".

وفي صحيحة زيد الشحّام، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "إنّ عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم"[1].

وبالتالي، فإنّ مرور المؤمن بهذا البلاء أو ذاك يجعله تحت رقابة ورعاية مباشرة من قبل الله تعالى، فعن زيد الزرّاد، عن أبي عبد الله الصادق صلوات الله عليه، قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن عظيم البلاء يُكافأ به عظيم الجزاء، فإذا أحب الله عبداً ابتلاه بعظيم البلاء، فمن رضي فله عند الله الرضا، ومن سخط البلاء فله عند الله السخط"[2].

وعليه، فلا يتصورنّ أحدٌ وهو في بؤرة البلاء وفي قمة المظلومية بأنه أعزل وحيد أمام قوى الظلمة وأعوانهم، فالله سبحانه وتعالى هو المبتلي، وبالنتيجة هو الناظر، وكلّ قضاء الله للمؤمن خير كما تصفه الروايات الشريفة[3]، وحين يكون هو الناظر، فإنه هو الرحيم بعبده أكثر من رحمة العبد بنفسه.

يروى عن الإمام أبي عبد الله صلوات الله عليه، أنه قال: "في ما أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن: يا موسى ما خلقتُ خلقاً أحب إليّ من عبدي المؤمن، وإني إنما أبتليه لما هو خير له، وأعطيه لما هو خير له، وأزوي عنه[4] لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي، وليرضَ بقضائي، وليشكر نعمائي، أكتبه في الصدّيقين عندي إذا عمل برضائي وأطاع أمري"[5].

إن الهدف المعتاد والأكثر اعتماداً للقوى الظالمة هو هزيمة أهل الإيمان نفسياً إنْ لم يتمكنوا من هزيمتهم مادياً، لكي يستسلموا لعظمة هذه القوى ومعاييرها دون سواها، ولكن القوى المؤمنة حينما تطمئن بأن الله سبحانه وتعالى وكذا إمام زمانهم صلوات الله عليه، ينظر ويرعى هذه الأعمال وَفقاً لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[6]، وأن ألطافه ستبقى ملاصقة للمخلصين منهم، بل إن هذه الأعمال لا ينظر إليها بعين الخصوصية إلا من خلال ما يبتلى به هؤلاء، بطريقة يعبّر

---

١ الكافي ٢: ٢٥٢ باب شدة ابتلاء المؤمن ح١ - ٣ .
٢ الكافي ٢: ٢٥٣ ح٨ .
٣ المؤمن: ١٥ ب١ ح١ .
٤ أزوي عنه: أبعد عنه.
٥ المؤمن: ١٧ ب١ ح٩ .
٦ سورة التوبة: ١٠٥ .

عنها الإمام الحسين صلوات الله عليه بأنها هي العنوان الأساس في طريق الولاء والمحبة لأهل البيت عليهم السلام.

يروي سعد بن طريف فيقول: كنت عند أبي جعفر عليه السلام، فجاء جميل الأزرق فدخل عليه، قال: فذكروا بلايا الشيعة وما يصيبهم، فقال أبو جعفر عليه السلام: "إنّ أُناساً أتوا علي بن الحسين عليهما السلام وعبد الله بن عباس فذكروا لهما نحواً مما ذكرتم، قال: فأتيا الحسين بن علي عليهما السلام فذكرا له ذلك، فقال الحسين عليه السلام: واللهِ البلاء، والفقر، والقتل أسرع إلى من أحبنا من ركض البراذين[1]، ومن السيل إلى صمره[2]؛ قلت: وما الصمرة؟ قال: منتهاه، ولولا أن تكونوا كذلك لرأينا أنكم لستم منا"[3].

فإن ذلك المعنى التي تتوخاه قوى الظلم سيزول، وتلك المهمة ستفشل وتندحر، وسيتحول البلاء في نظر المؤمن إلى عنصر عطاء وإمداد وتلذذ روحي خاص، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستسلام لله تعالى والخضوع لإرادته، والاطمئنان لوعده والثقة به، مما يعني انتفاء أي إمكانية للاستسلام لرغبات قوى الظلم إنْ كانت تؤدي إلى الإضرار بالدين والمعتقد، وهذا هو المطلوب تماماً من المنتظِرين، وعلى الراغبين في سلوك هذا الدرب أن لا يتوانوا في إعداد أنفسهم لكي يصلوا إلى هذا المقام، فالأُمور لا تُدرك إلا من خلال نفس الطريق الذي سلكه الأئمة عليهم صلوات الله، وهل رأيت إماماً لنا (بأبي وأمي) لم ير من البلاء إلا أعظمه وأشدّه؟! ولكن في المقابل ماذا كانت النتيجة؟ لقد رأينا دوماً أنّ البلاء لم ينحنِ أمام أحد كما انحنى أمام أئمتنا سلام الله عليهم!

٣: المؤمن ليس وحيداً في معركته:

إنّ معركة المنتظِرين لا يخوضها المنتظِر وحده، وهو بالنتيجة ليس مسؤولاً عن كلّ تفاصيلها، فلها قيادتها المتمثلة بالإمام صلوات الله عليه، وهي ساهرة عليها بشكل تام، وتتابعها بشكل دقيق، وهي معركة ربانية فاصلة لا يمكن أن تخذل أو تتراجع، ولكن على المنتظِر أن يؤدي واجبه المطلوب من الناحية الشرعية، ولو فعل لكفاه ذلك تماماً؛ إذ يلحظ هنا أن عملية الانتظار تؤدي بطبيعتها إلى نتائج تراكمية،

---

١ البرذون أحد أنواع الخيول ضخم الجسم وهو غير العراب منها.

٢ صمر السيل: محل انتهاء انحداره.

٣ المؤمن: ١٥ - ١٦ ب١ ح٥ .

قد تحصل مبعثرة، أو يراها بعضهم مبعثرة ومشتتة ودون طائل، ولكنها تؤدي بالنتيجة إلى حصول الموج المطلوب مرحلياً إحداثه في عملية التغيير، بمعنى أن مهمة المنتظِر مثلها مثل مَن كان في وسط مجموعة كبيرة من الناس، وقيل لكلّ واحد منهم أن يلقي بدلو في ساقية، فلو فكر كلّ واحد منهم بشكل منعزل بقيمة هذا الدلو وتأثيره، لوجد أن العملية لا يمكن أن تنتهي إلى نتيجة مجدية، ولكن حينما يرى الأُمور بمنظار جميع الدلاء الملقاة، فسيعرف أن الدلو الواحد هو جزء لا ينفك عن بقية أجزاء موجة يراد لها أن تنطلق لتحدث التغيير؛ فتأمل!

وعليه، فما هو مطالب به هو أن يكون فاعلاً فيها من خلال الالتزام بالتكاليف المناطة به؛ وهذه التكاليف لها مستويات ثلاثة، وهي في الغالب تراتبية، أي أنها تأتي بالترتيب من الأول إلى الثالث.

فأولها: هو التكليف المتعلّق بكلّ إنسان ربط ولاءه بأهل البيت عليهم السلام، ولهذا فهو مكلّف مثل غيره بالأُطر العامة للتكليف الشرعي.

أما المستوى الثاني من التكاليف فيتعلق بسعيه باتجاه الرقي في هذه المعركة، ومن يرغب بالرقي عليه أن يتحمل استحقاقات والتزامات هذا الرقي، سواء على مستوى طبيعة محتواه الداخلي، أو من خلال الاهتمامات العامة بقاعدة المنتظِرين والسهر على مصالحهم، ولهذا فإنّ همومه هنا ستكون أكبر من المستوى الأول، وبالنتيجة فإن مسؤولياته ستكون أعظم، وتبعاً لذلك سيكون أكثر عرضة للبلاء، فإن كان جاداً في نيته وعمله استعد لهذا البلاء، وقد عرفنا أنّ الاستعداد الأول يكمن في تقوية بنائه الذاتي وتعزيز قوة محتواه الداخلي، أما الاستعداد الآخر فهو الاستعداد الموضوعي وَفق الخيارات المتاحة له، وسيأتي الكلام عنه عما قريب.

هـذا، وقد يتم اختياره بسبب مؤهلاته الذاتية وألطافهم صلوات الله عليهم بشكل سريع، دون أن يكون له شأنية طويلة الأمد في المستوى الأول، مثله مثل صاحبي الإمام الحسين صلوات الله عليه الحر بن يزيد الرياحي أو زهير ابن القين رضوان الله تعالى عليهما، اللذان سرعان ما انتقلا من المستوى المناوئ كما هو حال زهير بن القين، أو المعادي كما هو الحال في الحر الرياحي إلى مستوى متقدم جداً جعلهم أنواراً لامعة في سماء خدمة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

وتدلّنا قصة بليغة في حياة أصحاب الأئمة عليهم السلام على جانب من الأهمية في هذا الموضوع، فلقد كان المفضّل بن عمر الجعفي رضوان الله عليه يعاني من

موقف سلبي اتخذه منه أصحاب الإمام الصادق عليه السلام بسبب معاشرته لمن كانوا يصفونهم بالسوقة والشطّار[١] وأصحاب الحَمام؛ يقول محمد بن سنان: إنّ عدة من أهل الكوفة كتبوا إلى الصادق عليه السلام فقالوا: إن المفضّل يجالس الشطّار وأصحاب الحَمام وقوماً يشربون الشراب، فينبغي أن تكتب إليه وتأمره ألا يجالسهم.

فكتب إلى المفضّل كتاباً وختمه ودفعه إليهم، وأمرهم أن يدفعوا الكتاب من أيديهم إلى يد المفضّل؛ فجاؤوا بالكتاب إلى المفضّل ـ وفيهم زرارة وعبد الله بن بكير، ومحمد بن مسلم، وأبو بصير، وحجر بن زائدة، ودفعوا الكتاب إلى المفضّل ففكّه وقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم اشتر كذا وكذا واشتر كذا؛ ولم يذكر قليلاً ولا كثيراً مما قالوا فيه، فلما قرأ الكتاب دفعه إلى زرارة، ودفع زرارة إلى محمد ابن مسلم حتى أرى الكتاب إلى الكلّ، فقال المفضّل: ما تقولون؟! قالوا: هذا مالٌ عظيم حتى ننظر ونجمع ونحمل إليك لم ندرك إلا نراك بعد ننظر في ذلك.[٢]

وأرادوا الانصراف، فقال المفضّل: حتى تتغدوا عندي؛ فحبسهم لغدائه، ووجه المفضّل إلى أصحابه الّذين سعوا بهم، فجاؤوا فقرأ عليهم كتاب أبي عبد الله عليه السلام، فرجعوا من عنده، ثم رجع الفتيان وحمل كلّ واحد منهم على قدر قوّته ألفاً وألفين وأقل وأكثر، فحضروا وأحضروا ألفي دينار وعشرة آلاف درهم قبل أن يفرغ هؤلاء من الغداء. فقال لهم المفضّل: تأمروني أن أطرد هؤلاء من عندي؟! تظنون أنّ الله تعالى يحتاج إلى صلاتكم وصومكم!![٣].

---

١ الشطّار مصطلح يطلق على المتخابثين، أو الّذين يجيدون الخبث، وقد يتسامح به بعضهم ليستخدمه في وصف سفلة الناس، وهو خطأ.

٢ كذا العبارة في الأصل، وفي نسخة منه: ثم لم ندرك الأنذال بعد نظر في ذلك، وفي أخرى: ثم ندرك الأتراك، وكلها لا تخلو من التصحيف والسقط على ما يبدو، والظاهر هو: هذا مال عظيم حتى ننظر ونجمع ونحمل إليك ما ندرك ولما نراك بعد ننظر في ذلك، والله العالم، وعلى أي حال إنهم استكثروا المال المطلوب وهمّوا بجمع ما يتمكنون منه.

٣ اختيار معرفة الرجال: ٦١٩ ح٥٩٢ بتصرف طفيف. ويحكي محمد بن أبي عمير رضوان الله تعالى عليه سبب تصرف المفضّل بن عمر هذا فيقول: إنّ الشيعة حين أحدث أبو الخطّاب. وهو أحد المنحرفين عن الإمام الصادق عليه السلام، وملعون من قبله أيضاً. ما أحدث، خرجوا إلى أبي عبد الله عليه السلام فقالوا: أقم لنا رجلاً نفزع إليه في أمر ديننا، وما نحتاج إليه من الأحكام؟ قال: لا تحتاجون إلى ذلك؛ متى ما احتاج أحدكم عرج إلي وسمع مني وينصرف؛ فقالوا: لا بُدّ؛ فقال: قد أقمت عليكم المفضّل، اسمعوا منه واقبلوا عنه، فإنه لا يقول على الله وعليَّ إلا الحق؛ فلم يأت عليه كثير شيء حتى شنّعوا عليه وعلى أصحابه، وقالوا: أصحابه لا يصلّون ويشربون النبيذ وهم

وخلاصة ما يستفاد منها أن مَن يوفّقون للخدمة ليسوا بالضرورة ممن لهم باع في الالتزام ووقار في الاتّباع، فكثير من الخدمة قد لا يتمكن منها هذا النمط من الناس، وقد لا يجيدها إلا أمثال أصحاب المفضّل بن عمر، وقد أرتنا الدواهي التي مرت بشيعة أهل البيت عليهم السلام في لبنان والعراق عموماً والباكستان في هذه الأعوام صدق ذلك إلى حد كبير.

وأما المستوى الثالث فليس المكلّف هو من سيحدده على الرغم من أن مؤهلاته الذاتية ستلعب دوراً كبيراً في ذلك، وإنما سيحدده الإمام صلوات الله عليه وجهازه الخاص؛ إذ سيتم اجتباؤه للخدمة الخاصة للإمام (روحي فداه) ولا ينال ذلك إلا من له حظ عظيم، ولكن هذه الخدمة لها سُلّم يتم ارتقاؤه، وهي على العموم تبتدئ من الخدمة العامة وتنتهي بالخدمة المباشرة والخاصة جداً، ولا أجد أية مصلحة للإطالة في هذا الموضوع، فهو من المواضيع الخاصة بهم صلوات الله عليهم، ولكن ما يجب التأكيد عليه أن نمطاً من الخدمة الخاصة موجود يقيناً وتدلّنا عليه روايات عديدة، كما هو الحال في رواية لقاء علي بن مهزيار مع الإمام عجل الله تعالى فرجه في الطائف[1]، ومن يريد لنفسه موقعاً في هذا الصعيد، فعليه أن يتوخى مواطن رضاهم ومواقع خدمتهم ويتجنب مواضع غضبهم وأذاهم صلوات الله عليهم.

٤: بلاء الظلم زائل:

إن الجهات المعنية في شأن البلاء الشديد المرتبط بالظلَمة ثلاثة، ولكن تصديها كلٌّ بحسبه، ولكلّ جهة خصوصياتها ومنطلقاتها الخاصة بها، وأول هذه الجهات هو ربُّ العزة والجلالة، والبلاء من جهته هو رحمة للمؤمن وتهذيباً له وتزكيةً وتنبيهاً، والجهة الثانية هي قوى الظلم بأنواعه كافة الرامية لاستعباد الناس وإذلالهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾[2] وهذه القوى هي التجسيد الاجتماعي لما يوصف بالشيطان، أما الجهة الثالثة فهي جهة المؤمنين التي يصيبها البلاء، ومن المهم جداً لهذه الجهة أن تدرك طبيعة هذه المنطلقات، بعد أن تحدد طبيعة هذه

أصحاب الحَمام ويقطعون الطريق، والمفضّل يقرّبهم ويدنيهم.

انظر: اختيار معرفة الرجال: ٦٢٠ ذيل الحديث ٥٩٢ .

١ غيبة الطوسي: ٢٦٤ فما بعدها ح٢٢٨ .

٢ سورة القصص: ٣ .

الجهات.

ولا يحتاج المؤمن إلى عسير جهد ليدرك تماماً أن قوى الظلم مهما كانت متفرعنة وعاتية فهي تبقى محدودة القدرة والإمكانية، و لا يمكن أن يكتب لبلائها الدوام على أي حال من الأحوال، وإدراك هذا مهم للغاية بالنسبة للمنتظِرين.

والمرء هنا ما بين واقعين؛ الأول هو الواقع الإلهي الذي يخبر المؤمن أن كلّ ما يصيبه هو مقدّر من الله تعالى، وما يقدّره الله تعالى ويقضيه للمؤمن كلّه خير وَفقاً لما مر بنا من رواية الإمام الباقر عليه السلام، وهو ما تدلّنا عليه آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [1] فإذا كان كلّ ما يلحق بنا هو قضاء من الله تعالى، فلا مندوحة لنا من التوكل عليه والاعتماد عليه.

ولا مجال لنا كي نعتمد على قوة أُخرى غير هذه القوة، ولا سيما أن ما تهددنا به قوى الظلم إنْ أخذناه من منظار الاتكال على الله تعالى لن يؤدي إلا إلى إحدى الحسنيين دوماً، فهو إما أن ينتهي بأحد أسباب نهاية التهديد الظالم، وأسبابه عديدة، فلربما ينتهي التأثير باندحار الظالم الذي لا يرى مجالاً أمام انكسار المؤمنين على الرغم من ظلمه الشديد لهم، وقد ينتهي بانتهاء قدرة الظالم وتأثيره، أو أن ينتهي بالموت له أو لظالميه، والموت هو أقصى ما تهددنا به هذه القوى، ولهذا يعبّر القرآن الكريم ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [2].

فالنهاية دوماً بالنسبة للمؤمن إما باندحار الظالم المتمثلة بانتهاء قدرة ظلمه على التأثير، وإما بانتهاء حياة الإنسان المبتلى، وحياتنا حينما تنتهي لا دور للظالم بإنهائها، وإنما هو أجل قُدّر لنا، وحين يأتي موعده يُـنَجّز سواء بوجود الظالم أو عدم وجوده، وبوجود مظلومية أو نفيها.

نعم، ظلم الظالم يكون سبباً من أسباب التكريم والكرامة لنا حين الموت، فشتان بين ميتة على فراش أو بدواعي المرض أو بأحد أسباب الموت المفاجئ، وبين موت يكون على يد الظلمة، فالأخير باعث للتكريم بين يدي الله بطريقة متميزة جداً، وهذا هو السبب الذي جعل موت الشهداء متميزاً، لأن موتهم على أيدي الظلمة هو مسمار

---

١ سورة التوبة: ٥١ .

٢ سورة التوبة: ٥٢ .

نافذ في نعشهم في الدنيا لما فيه من آثار عظيمة على حركة الأُمّة، بالاضافة إلى كونه كرامة خاصة في الآخرة.

ويجب أن يكون واضحاً أن هذا الأمر لا يعني أنه يجب على المنتظِر أن يستسلم للبلاء بحجة هذه الأفكار، فهو ليس مسلوب الإرادة من جهة، كما أنه ليس مشروعاً للاستشهاد بالضرورة، وحديثنا هذا متعلق بحالة الوقوع في خضم البلاء وعدم قدرته على رد وقوعه، أما قبل ذلك ومع الإحساس بقدومه فيجب أن تُدرس الخيارات ضمن دائرة التكليف الشرعي، وعلى المنتظِر أن يعلم أن مثل هذه الأُمور لا تترك للتقدير الشخصي في كثير من الأحيان، بل لا بُدّ من عدم التساهل في تحديد التكليف من قبل الجهات المعنية بذلك دون غيرها، وسيأتي مزيد تفصيل في هذه النقطة في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

أما الواقع الثاني فيتمثل بالخيارات التي يطرحها نفس البلاء من أجل ديمومة رسالته وقضيته، إذ إن كل حركة بلاء تطرح واقعاً جديداً على الإنسان أن يتعامل معه بكل مقتضاياته واستحقاقاته، وهنا إما أن يبقى أسيراً للبلاء بكل ضغوطاته وإسقاطاته النفسية، وإما أن يتخذ من الوقع الإلهي الذي أشرنا إليه وما في هذا الواقع من معطيات روحية ومعنوية جمة، ومن الواضح إن الإستسلام للأول يعني الرضوخ للظلم والاستسلام لذلته، بينما التسليم للثاني فيه من الرفعة والتسامي المعنوي الشيء الكبير وهو الواقع الوحيد الذي يجعل الإنسان أقوى من الطغاة مهما تفرعنوا.

٥: بلاء السراء أخطر من بلاء الضراء:

إن أنواع البلاء لا تنحصر في مواقع الضراء وأشكاله فحسب؛ إذ إنّ البلاء في السراء ربما يكون أخطر من البلاء في الضراء، ففي الضراء يكون حذر الإنسان كبيراً، وحذره في كثير من الأحيان يفوّت الفرصة على أعدائه، ويمنحه قابلية الوعي بالمخاطر المحدقة، ولكن بلاءه في السراء يقبل عليه في كثير من الأحيان بطواعية، بل ربما يقبل عليه بإصرار ورغبة وعناء من أجل الحصول على موارد هذا البلاء، وكم هو بليغ تعبير الإمام زين العابدين صلوات الله عليه في دعاء أبي حمزة الثمالي في وصف هذه الحالة: "أنا الذي أعطيت على معاصي الجليل الرُشى، أنا الذي حين بشّرت بها خرجت إليها أسعى"!!

وترينا صورة قارون أحد صور البلاء في السراء، فلقد كان مؤمناً فقيراً لفترة من الفترات ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ

بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ [1]، وأقبلت عليه السراء بصورة كانت الناس تتمنى أن تكون كقارون كما حكت الآيات الشريفة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [2]، ولكن هذا الإقبال من الدنيا عليه أضاعته تماماً، وابتلع طعم الفتنة وسقط في الاختبار، فبعد أن كان من عبّاد بني إسرائيل، وإذا به يبغي الفساد في الأرض، وينكل ببني إسرائيل أنفسهم، بل بالنبي موسى عليه السلام نفسه، وهو نبيّه، وبينهما رحم ماسة على ما في بعض الروايات[3]، حتى إنه أوصى بغيّاً من بغايا بني إسرائيل أن تفتري الكذب على النبي موسى عليه السلام وتتهمه بمراودتها على الفاحشة، ولكن مع كونها على هذا الوضع فإن عهرها لم يمنعها من قول الصدق، وبالتالي قامت بفضح قارون[4].

كما إن البلاء لا ينحصر بالجانب المادي، فلربما يأتي على شكل بلاء معنوي، وبعض البلاء المعنوي يكون أكثر ضراوة على الإنسان وأشد بكثير من البلاء المادي، ولك في البتول مريم عليها السلام مثلاً عظيماً، حتى بلغ من عظم البلاء المعنوي عليها أنها تمنّت أن لا تكون قد خُلقت، ولا تكون قد عُرفت، فيوم أن جاءها المخاض إلى جذع النخلة[5]، تبدّى لها حجم البلاء هنا بشكل قالت معه: ﴿يَٰلَيْتَنِي

---

١ سورة القصص: ٧٦ .

٢ سورة الأنعام: ١٢٤ .

٣ قصص الأنبياء: ١٧٣ ح١٩٧ .

٤ الخرائج والجرائح: ٩٣٩ .

٥ كلّما أقرأ كتابات الإسلاميين حول ولادة عيسى عليه السلام في بيت المقدس، لا أملك إلا أن أفغر الفاه تعجباً وألماً لطبيعة التباني على الجهل العام بأبسط حقائق القصة من وجهة النظر القرآنية، فالقرآن الكريم يتحدث عن جذع النخلة، ويتحدث عن الرطب الجني، ويتحدث عن أن مريم عليها السلام قد نأت شرقاً بعيداً عن أهلها ومدينتها، وهذه دلالات جغرافية مهمة لا يمكن لمسلم أن يغفلها، وبالتالي يمكن أن تكون كاشفة عن مكان الولادة؛ إذ إن فلسطين كلّها يومذاك لا نخل فيها ولا رطب، ومع ذلك يبقى هؤلاء يصرّون اعتماداً على مرويات أهل الكتاب بأنه ولد في بيت لحم.

نعم، لا يمنع أن يكون ظهوره أول مرة في بيت لحم حيث كنيسة المهد، ولكن الرواية القرآنية تمنع منعاً باتاً من قبول موضوع الولادة في فلسطين؛ لانتفاء وجود النخل والتمر فيها، وهو دالة لم تذكر عبثاً في القرآن، علماً أن روايات أهل البيت عليهم السلام تشير إلى أن الولادة المباركة قد تمت في موضع جامع بَرَاثا الحالي في بغداد.

انظر: أمالي الشيخ الطوسي: ٢٠٠ ح٣٤١، والخرائج والجرائح: ٥٥٢ ح١٣، وقد أشبعنا الموضوع تفصيلاً في بحثنا عن جامع بَرَاثا.

مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [1] على الرغم من أن رسول ربها أخبرها أن الله تعالى أمره أن يهب لها ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ .

وقد لا يأتي البلاء بالضرورة من جهة معادية، فحينما تتأمل في البلاء الشديد الذي تعرّضت له عائلة التوحيد الخالصة، وأعني بذلك عائلة النبي إبراهيم عليه السلام، لوجدت أن البلاء الذي صبّ عليها كان موجهاً بشكل مباشر من قبل إبراهيم نفسه صلوات الله عليه، على الرغم من أنه كان مكلّفاً بتحمل أعباء ذلك من قبل الله تعالى.

ففي المرة الأُولى ترى إبراهيم عليه السلام يأتي بعائلته إلى وادٍ غير ذي زرع هي أرض مكة التي لم تك آنذاك مأهولة، أي أنه واد يخلو من كلّ أنيس، أو أيّ ما من شأنه أن يقيم أود حياة لعائلة قوية من ماء وكلاء، فما بالك بعائلة ضعيفة يتركها عائلها بمجرد أن يصلوا وليس معهم إلا قليلاً من ماء وطعام، وعلى الرغم من أن شدة الوطأة كانت ثقيلة جداً على إبراهيم عليه السلام بأن يترك زوجته هاجر وطفلها الرضيع إسماعيل عليه السلام في مثل هذه الحالة، ولكنك ترى الاستسلام العظيم للأمر الإلهي تحكيه تصرفات الجميع، هاجر التي قبلت بالبقاء، وإبراهيم الذي كان مطواعاً لأمر ربه في أن يتوجه إلى فلسطين ويترك زوجته وطفله في واد غير ذي زرع، وقد كانت كلّ الأجواء المحيطة بهاجر تدعوها إلى اليأس والتحطّم والانكسار أمام بلاء من هذا القبيل، ولكنها لم تستسلم وراحت تجول ساعية بين الصفا والمروة ولسانها يناجي السماء وهي تبحث عن ماء لرضيعها، وأمام إيمان يهدّ الجبال كان لا بُدّ للرحمة الإلهية أن تعمّ المكان، ولهذا ما إن عادت وهي خائرة القوى إلى طفلها، بعد أن كان بكاؤه يبعث في نفسها الطمأنينة بأنه لا زال حياً، ولكن سكوته وعدم سماعها لصوته هو الذي أفزعها فعادت وهي تتصور إن حجم البلاء قد تعاظم ووصل ذروته الكبرى، وإذا بها تجده يرتع في ماء زمزم الذي فجّرته دعوات هاجر عليها السلام.

ومرة أُخرى يتكرر الأمر مع نفس العائلة، ولكن هذه المرة بشكل أشد على الجميع، فها هو إبراهيم يقول لإسماعيل الفتى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ، ولك أن تتأمل الصاعقة كيف تنزل على هاجر!! وكيف سيتحمل الأب العظيم مثل ذلك!! ولكن ربما كان الأعجب من الجميع موقف الابن إسماعيل

---

١ سورة مريم: ٢٣ .

عليه السلام الذي راح يخفّف وطأة البلاء عن أبيه وهو يخاطبه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [1]، ففي كلّ هذه الحالات كانت صورة البلاء المباشر مرتبطة بإبراهيم، ولكن إبراهيم عليه السلام كان هو الآخر عرضة لبلاء أشد مما أصابهما، فهو اليد التنفيذية لتنفيذ هذا البلاء.

وقد يكون نتيجة لعاطفة خارجة عن الحدود الطبيعية التي تضيّع المبدأ، ولعل مثال الزبير بن العوام من الأمثلة المناسبة لوصف هذا النمط، فكما هو معلوم فإن الزبير كان من أوائل من أسلم، وأثبتت المواقف مع الرسول صلوات الله عليه وآله أنه كان مجداً في طريق الثبات الإيماني، وفي يوم انقلاب السقيفة كان الزبير أحد القلائل من الأصحاب الّذين وقفوا في بيت فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، وفي الهجوم الثاني[2] الذي حصل على بيت الزهراء (بأبي وأمي) كان الزبير أحد الشاهرين سيوفهم في قبال حزب الانقلاب السقيفي، وأُخذ مكرهاً لمبايعة أبي بكر بعد أن كُسر سيفه في صخرة عند باب بيت فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، وهو علاوة على ذلك له رحم ماسة برسول الله صلى الله عليه وآله ومع أمير المؤمنين عليه السلام، وعليه لا بُدّ للمرء أن يتساءل ما الذي دهاه ليكون له موقف العداء لأمير المؤمنين عليه السلام في معركة الجمل بالصورة التي نراه أحد الّذين جيّشوا الحرب مع أم

---

١ سورة الصافات: ١٠٢ .

٢ كان بيت السيدة الزهراء (بأبي وأمي) عُرضة لثلاث هجمات عقب انقلاب السقيفة، ففي الأُولى كان عدد المهاجمين مختلطاً مع عدد من غيرهم ممن حسبوا أن الأمر لا يتعدى التفاهم مع أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وكان على رأس هذه الفئة أمثال قتادة بن النعمان، ولكن حين استمع هؤلاء إلى صوت الزهراء عليها السلام رجعوا باكين، ورجع معهم عمر وأصحابه الّذين كانوا رأس الحربة في الهجوم.

وفي الهجوم الثاني تم إخراج كلّ من كان في بيت فاطمة صلوات الله عليها ممن اعتصم مع أمير المؤمنين عليه السلام، وتم اقتيادهم إلى السقيفة لكي يبايعوا أبا بكر، وكان الزبير من بين هؤلاء، وقد كان شاهراً سيفه إلا أنه تم إيقاعه، فعثر فوقع السيف من يده فأُخذ منه وكسره عمر ولُبب بالحبال بعدها.

وحين فرغ الدار إلا من أهل البيت (بأبي وأمي) كان الهجوم الثالث الذي تزعمه عمر، وكان حاملاً جذوة نار ومعه حالد بن الوليد وقنفذ مولاه والمغيرة بن شعبة وسالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة الجراح وعبد الرحمن ابن عوف والنعمان بن بشير وأسيد بن حضير وسلمة بن أسلم ونظراؤهم، وقد تم إحراق الدار فيه وضرب الزهراء فاطمة (بأبي وأمي)؛ وننصح هنا بمراجعة كتاب "**مأساة الزهراء عليها السلام**" للحجة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي، لمن يريد التفصيل والتوثيق.

المؤمنين عائشة بحجة المطالبة بقتلة عثمان، مع أنهما وطلحة كانا من أشد الناقمين على عثمان؟!!

يقول أبو بصير: قال أبو جعفر عليه السلام: "ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله بن الزبير، ولقد حلق رأسه[1] وهو يقول لا يبايع إلا علياً، ولقد أخذ عمر سيفه فكسره بين حجرين"[2].

ويقول الإمام الصادق صلوات الله عليه، فيما ينقله الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) عن شيخه محمد بن الحسن بن الوليد (رضوان الله عليه): "ما زال الزبير منا أهل البيت حتى أدرك فرخه (يقصد عبد الله) فنهاه عن رأيه"[3].

وحديث أمير المؤمنين صلوات الله عليه رائج في كتب القوم، وبنفس المضمون، وفي بعضها: "حتى نشأ بنوه[4] فصرفوه عنا"[5].

وما أريد تأكيده والتنبيه عليه هو أن صور البلاء والابتلاء وجهاته وظروفه تتعدد وتتباين، ولكنه سيبقى ملاصقاً للمسيرة الإيمانية لا ينفك عنها أبداً، ولهذا على الإنسان المنتظِر أن يكون في انتباه وحذر شديد، ففي كلّ بقعة ثمة بلاء، وفي كلّ دقيقة ثمة ابتلاء، وما بين هذا وذاك يجب أن يثبت صدقية ولائه وثباته، وإلا ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[6]، بل تشير الروايات الواردة في هذا المجال ـ وبعضها قد مرّ ـ بأن من لا يجد نفسه في معرض ابتلاء، فعليه أن يشك في إيمانه؛ والله المستعان.

---

١ حلق الرأس: علامة العزم على القتال.

٢ الأُصول الستة عشر، أصل عاصم بن حميد الحنّاط: ٢٣ .

٣ الخصال: ١٥٧ ب٣ ذيل ح٢٠٠ .

٤ عبد الله وعروة ومصعب، وكلّهم في النصب لأمير المؤمنين (بأبي وأمي) وأولاده سواء، وعبد الله وعروة من أم واحدة هي أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة، وقد كان الزبير قد تمتع بها، وقصتها معروفة.

٥ الإمامة والسياسة - لابن قتيبة الدينوري - ١: ٢٨، وأسد الغابة في معرفة الصحابة - لابن الأثير الجزري - ٣: ١٦٢، وتاريخ مدينة دمشق - لابن عساكر - ١٨: ٤٠٤، وغيرهم كثير.

٦ سورة العنكبوت: ٢ و٣ .

٦: حركة البلاء ليست عشوائية:

إن حركة البلاء وعوامل نشوئه، والآثار المترتبة عليه، وطبيعة ما يفرزه من ظواهر فردية واجتماعية، كلّ ذلك يخضع للسنن التاريخية الإلهية، وتحكمه قوانينها، وهي ليست عشوائية ولا اعتباطية، ولهذا فإن التعامل معه يجب أن يكون بنفس طريقة التعامل مع بقية السنن التاريخية، ولا شك أن هذا يسهّل من عملية دراسته وتحليله[١]، وهو على أي حال حينما يأتي من غير اعتباط، فإن من الطبيعي أن لا يذهب أيضاً من غير اعتباط، وإنما لا بُدّ من البحث عن الآليات الموضوعية ومن أهمها عنصر الإمداد الإلهي الكفيل بإزالته، وإلا فإنه لن يزول لمحض دعاء، ولن يرفع لمجرد أُمنية أو زفرة ألم!!

٧: البلاء شرط الفرج:

لقد قيّد الله تعالى كلّ بلاء بنهاية، ووعد بعدم خلود وديمومة البلاء، وساق الفرج من البلاء كجزاء شرطي لتحقق البلاء، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[٢]، فاليسر جُعل نتيجة لكلّ عسر، وتكرار المفهوم عبر تكراره اللفظي يشير إلى المبالغة في الوعد بالفرج من البلاء لكي تطمئن به النفوس.

ولو نظرنا إلى ذلك بمعية عديد من المفردات القرآنية الكريمة، كمفردة نصر الله للمؤمنين، ومفردة الإمداد الإلهي، والرحمة الإلهية، والبشرى الإلهية، وما إلى ذلك من مفردات ذُكرت بشكل لصيق أو قريب من مفردات البلاء، لوجدنا أن تجاوز البلاء أمر ممكن وقابل للتحقق، وليس من نمط المستحيل كما يحاول الشيطان وأعوانه دوماً أن يبرز البلاء وكأنه باق بلا أمد من أجل إثارة الهلع والرعب في قلب المؤمن، لكي يندفع هذا باتجاه عوامل الإحباط واليأس والشك بوعد الله.

٨: لا مواجهة إلا بتكليف شرعي:

إن مواجهة البلاء ليست ضرورة إلا بمقدار التكليف الشرعي وضمن الحدود التي يسمح بها هذا التكليف، واقتحام أجوائه ليس مطلوباً بالضرورة، بل بالعكس لو كان

---

١ ننصح بمراجعة محاضرات المرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رضوان الله عليه) في شأن السنن التاريخية لاستيعاب الموضوع بشكل كامل.

٢ سورة الانشراح: ٥ و٦ .

ثمة مجال شرعي للتخلص منه فهو أمر مطلوب، وقد وضع الشارع المقدّس كثيراً من الخيارات التي يمكن للإنسان أن يخفف فيها البلاء، أو يبعده عنه، أو حتى يتخلص منه، من دون أن يجعله ذلك متنصلاً من تعهداته العقائدية والشرعية.

هذا، وقد فصّلنا هذه الخيارات في الأسطر القادمة، ولكن ما يجب أن نؤكده هنا، هو أن التعرض للبلاء دون بواعث حقيقية، ودون امتلاك المؤهلات المطلوبة لمواجهته، قد يدع الإنسان أمام خيارات قاسية، قد لا يخرج من أتونها ودوّاماتها بنتائج طيبة، مما يستدعي الحذر التام، وسيأتي مزيد بحث في الفصول اللاحقة عن هذا الموضوع.

خيارات في وجه البلاء:

ولنحاول أن نستعرض نماذج من هذه الخيارات للتمثيل وليس للحصر، مع تأكيد أن هذه الخيارات ليست مطلوبة دائماً بالضرورة، وإنما هي بحكم خيارات المضطر المجبور، متى ما احتاجها ـ نتيجة للضرورة ـ جازت له، ولكنها قد تتحول إلى شيء معاكس إن لم يك لها حاجة، فشرب الخمر أتيح للذي لا سبيل لحياته إلا من خلاله، كفقدان الماء المؤدي إلى الهلاك، ولكن لا معنى لتصور استمرارية هذه الإباحة كماً وكيفاً مهما قلّ بعد ارتفاع المانع أو الحالة التي أدت إلى الاضطرار؛ إذ إنّ المطلوب هو الحفاظ على الحياة، فلو قدّر أن حالة الاضطرار ترتفع بكوب صغير أو برشفة صغيرة أو ببضع قطرات أملاً في الحصول على الماء، كانت الإباحة محدودة بهذه الكمية لا سواها.

ومع تأكيد أنّ هذه الخيارات ليست هي الوحيدة في باب المواجهة مع البلاء، فلقد تعمدتُ هنا أن لا أذكر خيارات التصدي للبلاء ومواجهة العنيف منه بعنف مضاد، سواء على مستوى الثورة الاجتماعية أو المسلحة أو الانتفاضة أو أيّ ما من شأنه أن يفعّل خيارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان، أو يحرّك خيارات الجهاد الدفاعي في سبيل الله، وما أشبه ذلك؛ لأن ذلك يحتاج إلى حيّز مستقل سيأتي بعون الله.

ولكن أملي أن لا يحسب بعضهم ذلك بمعنى الإذعان لما يفهمه آخرون من تلك الروايات العديدة التي تحذّر ممن يخرج قبل قيام القائم صلوات الله عليه[1]، بأن أيّ خروج يواجه الظلم بأحد أنماط العنف محرّم؛ فهذا فهم قد يتناقض مع روايات

١ في أغلب الظن أن مثل هذه الروايات قد قيلت لمنع أدعياء الإمامة أن يستغلوا عواطف الناس ويخرجوهم لأغراضهم السياسية والمصلحية، ولهذا صدرت مثل هذه الروايات لتقول إنّ أيّاً من يقول بأنه إمام لا يخرج بأمر أهل البيت عليهم السلام قبل قيام القائم عجل الله فرجه، وبالتالي فكلّ خارج يدعي أنه خرج لحق محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين قبل قيام صاحب الأمر عليه السلام فإن دعواه مردودة عليه، ومثل هذا الكلام طرح في عهود الأئمة المتقدمين لكثرة من كان يخرج من الزيدية وينصب نفسه إماماً للناس بدعوى خروجه ضد الظالم؛ فلا تغفل!

أخرى تحث على مواجهة الظلم بكل وسيلة ممكنة، وبعيداً عن هذا النمط من الروايات فإن واقع هذه الروايات على فرض صحة صدورها، تبقى ظرفية مرتبطة بزمانها ومكانها وطبيعة إمكانيات المؤمنين، وهي على أي حال لا يجوز لنا ـ نحن المُقلِّدة ـ أن نستغلّها لتحديد حكم أو تكليف، فمثل هذه الأُمور أوكلت إلى مراجع العلم والتقليد، وهم وحدهم دون سواهم من يحدد لنا التكليف تجاه نمط العنف ضد الظلم وحدوده، وها هي سيرة المتشرعة تتحدث عن عشرات الحالات التي أصدر فيها المراجع العظام قديماً وحديثاً فتاواهم وأحكامهم بوجوب نمط من أنماط الدفاع في مقابل الظلم، ونهضوا بأنفسهم بهذا الاتجاه.

أ: **الهجرة المكانية**: من جملة الأساليب التي يطرحها الشارع المقدس كخيارات مطلوبة أثناء مواجهة البلاء ومجابهته، هو موضوع الانتقال من مكان إلى آخر، فالمكان مهما كان الارتباط به لصيقاً، كالبيت والمنطقة والمدينة والوطن، إلا أنه من حيث الأولويات أثناء انطلاق موجات البلاء يتحول إلى عنصر ثانوي، بل يجب النأي عنه والهجرة منه إذا أدى البقاء فيه إلى مفسدة حقيقية بالشخص أو بدينه أو بمصالحه الحيوية، ولهذا عاتبت الملائكة من يتحجج بالاستضعاف بمنطق الانتقال المكاني وفق ما تطرحه الآية الشريفة: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ [1]، ولكن هذا الخيار مطلوب في وقت الأزمة، وإلا فإن الانتقال في بعض الأحيان قد يتحول إلى عنصر محرّم إذا ما أضرّ بدين الإنسان وثوابته، كما يطرحها مصطلح التعرب بعد الهجرة، وهو الانتقال إلى بلاد أو أماكن تضرّ بدين الإنسان وعقيدته، ولا يستطيع أن يتماسك فيها، عندئذ يتحوّل إلى الحرمة.

ب: **الاحتواء الاجتماعي**: وتبرز هنا التقية كأحد أهم الخيارات المطروحة، لكي يتم من خلالها التخلص من موجات البلاء أو الخضوع لمنطقها، والمعبّر عنها بقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [2]، وكذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [3]، فالحراك الاجتماعي حينما تسيطر عليه حالة الانغلاق الفكري، وتوصد العقول أبوابها، وتحلّ محلّها سلوكيات العنت والعنف الفكري والاجتماعي، ساعتئذ لن يبقى ثمة مجال أمام الصدق والحوار المتعقل، بل

---

١ سورة النساء: ٩٧ .

٢ سورة آل عمران: ٢٨ .

٣ سورة النحل: ١٠٦ .

سيكون الصدق والحوار الذي يؤدي إلى كشف الهوية بمنزلة انتحار للفرد أو الجماعة.

ولهذا وضعت التقية كخيار ضروري يعمل على إخراج الفرد والجماعة من الخناق الاجتماعي أو الفكري الذي يحاول الظالم أن يمارسه مستعيناً بأعوان الظلمة والغوغاء الاجتماعية وبأنصاف المثقفين الّذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾[1] أن يفرضه على الفرد أو الجماعة.

وهذا الخيار مثله مثل الذي سبقه لا يطلب لذاته، وإنما يطلب للوقت الذي شرع فيه؛ إذ لا معنى للتقية في وسط يحتاج إلى كشف الحقيقة كاملة، أو لا يعدّ كشف الحقيقة بمنزلة الجرمِ الاجتماعي، ولا يوجد هناك ما يقلق المنتظِر من آثار عدم ممارسته للتقية.

ومثل التقية يمكن ملاحظة أساليب المداراة والمهادنة والمصانعة وتأليف القلوب وغض النظر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في حال تحوّل هذا الأمر إلى خطر أكبر من محض الأمربالمعروف والنهي عن المنكر، وما إلى ذلك من أساليب الهدف منها هو احتواء الخلل الاجتماعي، أو تأجيل الاصطدام بالحالة الشاذة في المجتمع، ريثما يكون الاصطدام مؤدياً لارتفاع حالة البلاء أو العنت.

ويجب أن لا يعتريك شك بأن هذه السلوكيات لا علاقة لها بالنفاق والكذب الاجتماعي كما يحاول ـ بوعي أو من دونه ـ بعض الجهلة أو أعوان الظلمة أن يؤطروا هذه السلوكيات بها، فهؤلاء غايتهم هو جرّ المنتظِرين والمؤمنين إلى معركة لم ينتخبوها ولم يهيؤوا أنفسهم لها، ولقد جوبه رسول الله (بأبي وأمي) بمثل هذه الأساليب أثناء تشريع سهم المؤلفة قلوبهم، فاعترض من اعترض لنفس الأسباب التي ذكرناها، متحججاً بأن من يفرض لهم هذا السهم هم من الكفار والمشركين وبالتالي يجب أن لا يداهَنوا، وكأن الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله لا علم له بأحوالهم، وأنهم أعلم منه بأحوال المجتمع وأحرص على تطبيق الشريعة!!

نعم، المؤلفة قلوبهم ونظراؤهم هم من الفئات الاجتماعية الضارة، ولكن أين العيب في أن يتم احتواء ضررهم بالمصانعة والمداراة والمهادنة وما شاكل من سلوكيات الاحتواء بغية تقليص أذاهم أو ضررهم أو انتظاراً لحالة السيطرة عليه؟!

---

١ سورة البقرة: ١١ .

ومن المعلوم أن العنف هو الخيار الأخير الذي أُتيح للمؤمن بعد استنفاد بقية الخيارات المبنية على أساس الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وكلّ هذه الأساليب هي من أنماط الحكمة التي لا خلاف فيها بين العقلاء.

ج: **السبات الاجتماعي**: في حالات متعددة يأتي طغيان البلاء جامحاً بشكل يفوق إمكانيات المنتظِرين، ولا يمكن مواجهته أو مجابهته بأي شكل من الأشكال، إلا من خلال عمل انتحاري، يكون ضرره ـ عادة ـ أكبر من أية منفعة يقدّمها، وفي حالات أُخرى تكون قوى البلاء من العظمة والاتساع والقدرة ما لا قبل للمنتظِرين بها، ولا سبيل للتصدي لها، وهنا لا نجد في المرويات الشريفة عن النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين في حالات كهذه ما يولّد الشعور بالاختناق لدى المنتظِرين أمام تنامي قوة هذه القوى، وإنما تطرح هنا خيارات متعددة أمام المنتظِر، لكي تعينه في كيفية التعامل مع هذا الجموح من قوى الطغيان.

وفي السلوكيات التي اتبعها النبي صلوات الله عليه وآله في بداية الدعوة الإسلامية وقبل هجرته ما يمنحنا أُفقاً في كيفية التعامل مع مثل هذه القوى، فهو لبرهة من وقت هذه الدعوة المباركة، كأنه كان في حالة سبات شاملة على الرغم من الأذى الكبير الذي مورس ضده، حتى إننا قد نسمع بعض كلمات الصحابة التي تتذمر من طول صبر رسول الله صلوات الله عليه وآله، إلا أنه لم يحرك ساكناً؛ لأن أوان التحرك لم يحن بعد.

وهنا لا بُدّ من الالتفات إلى أن سلوكيات السبات الاجتماعي ليست مطلوبة لذاتها، وهي كذلك لا تُطلب بشكل مطلق بصورةٍ يمكن لبعض ضعاف الهمة أن يتذرّعوا دوماً بها للهروب من التزامات الواقع الاجتماعي للمنتظِرين، فالسبات هنا لا يُطلب من أجل السبات، وإنما تُطلب هذه الخيارات ونظيرها بمقدار ما يتعلّق بطبيعة موقف قوى الظلم واطّلاعها على أعمال المنتظِرين.

ويمكن للرواية الشريفة التي يرويها أبو بصير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن تبرز لنا هذا الأمر بشكل جلي، فبعد حديث عن حدث من الأحداث يقول (بأبي وأُمي): "إذا كان ذلك فكونوا أحلاس بيوتكم، وألبدوا[1] ما ألبدنا، فإذا تحرك متحركنا، فاسعوا إليه ولو حبواً[2]" .. الخبر[3].

---

١ اللبد في الأرض: الالتصاق بها.

٢ الحبو: الزحف على الركبة واليدين.

٣ غيبة النعماني: ١٩٤ ب١١ ح١ .

ويمكننا هنا ملاحظة التخصيص الوارد بقيد "إذا كان"، فإن لم يكن فإن هذا القيد يرتفع، ثم ملاحظته مرة أُخرى بقوله عليه السلام: "فإذا تحرك متحركنا" ليشير صلوات الله عليه إلى أن حالة السكون الاجتماعي أو السبات منوطة بظرفها، وهي ليست مطلوبة على أي حال، ولذا فإن ارتفع العارض عن المنتظِرين من خلال عدم التفات الظلمة إلى حركتهم وأهدافهم، فإن التحرك يبقى ضمن سياقات التكليف الشرعي؛ فلا تغفل!

ولدينا مجموعة من الروايات التي أشارت إلى هذا الموضوع، كما في الرواية التي يذكرها النعماني عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: "كونوا أحلاس بيوتكم[1]، فإنّ الغبرة على من أثارها، وإنهم لا يريدونكم بجائحة[2] إلا أتاهم الله بشاغل، إلا من تعرض لهم"[3].

وما رواه عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام، قال: "مثل من خرج منا أهل البيت قبل قيام القائم مثل فرخ طار فوقع من وكره فتلاعبت به الصبيان"[4].

والمؤسف أن بعض المؤمنين قد أخذ هذه الروايات ومثيلاتها ذريعة ليخرج من دائرة التحرك الاجتماعي بشكل كامل، حتى لو أن الظروف كانت مؤاتية تماماً للتحرك الاجتماعي الذي يخدم قضية الإمام صلوات الله عليه، مع أن هذه الروايات مشروطة دوماً بوجود المانع، وبالتالي فإن المانع إذا ارتفع، فلا معنى لبقاء المنع.

وبغير ذلك، فإن كثيراً من دعوات الأئمة صلوات الله عليهم الأُخرى، كقول الإمام الصادق عليه السلام للفضيل بن يسار: تجلسون وتتحدثون؟ قلت: نعم جعلت فداك؛ قال: إنّ تلك المجالس أُحبها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا[5].

وكقول الإمام الرضا عليه السلام لعبد السلام بن صالح الهروي: رحم الله عبداً أحيا أمرنا؛ فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإنّ

١ أي لا تبرحوها ولا تغادروها.
٢ الجائحة: الشدة التي تجتاح المال وأي شيء يتعلق بالإنسان.
٣ غيبة النعماني: ١٩٧ ب١١ ح٥ .
٤ غيبة النعماني: ١٩٩ ب١١ ح١٤ .
٥ قرب الإسناد: ٣٦ ح١١٧ .

الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا[1].

ونظير ذلك كثير.

أقول: ستكون هذه الروايات وأمثالها خالية من المعنى ـ وهذا باطل حتماً ـ لأنهم منعوا من بعض ذلك ـ في الأقل ـ في ظروف أُخرى؛ فتأمل!!

د: الخمول الاجتماعي: تطرح مسألة الخمول الاجتماعي بمعزل عن مسألة السبات الاجتماعي، ففي تلك الحالة يكون حراك الإنسان المنتظِر هو المستهدَف، أما هنا فيكون شكل الحراك هو المستهدف، بمعنى أن المطلوب هنا عدم التعريف بالتحرك والمتحركين، بل إخفاء شأنهم وكأنه لا وجود لهم ولا حركة لديهم، ففي كثير من الأحيان يتوجه الظلم لخاصة الناس ونخبتهم، ويستهدف البلاء مَن يكون له نمط من أنماط البروز الاجتماعي، أما من لا يكون معروفاً، ولا يعطي على نفسه دليلاً بعمل ما يمكن له أن يزعج الظلمة أو أعوانهم، فعادة ما يكون من المنسيين أو غير الملحوظين في عملية رصد أجهزة الظلمة، مع أنه قد يكون من النشطين جداً في واقع الحال ضد الظلم، وبالتالي يجعل نفسه بمنأى عن أعين الظلمة وأجهزتهم.

وتعبّر الروايات الشريفة عن هذه الحالات بمصطلح (النُّوَمة) ويراد به الإنسان الذي إن حضر لم يُنظر إليه، وإن افتقد لم يُحسّ أحدٌ به، ففي صحيحة الفضيل بن يسار قال الإمام الصادق عليه السلام: "طوبى لكلّ عبد نومة، عرف الناس قبل معرفتهم به"[2]، وكأنه نائم لا حراك له.

وللمرء أن يتساءل عن المطلوب دوماً بالنسبة للعاملين، فإن كان العمل هو المطلوب دوماً، فإنّ حالة البروز الاجتماعي أو الخمول الاجتماعي وأمثالها تبقى مسألة نسبية يحدد العملُ طبيعةَ الحاجة إليها، فمن الناس من يُدعى لكي يبرز، لأن الناس تحتاج إلى من تنظر إليه في حياتها العامة، ومن الناس من يكون البروز عليه محرّماً، لأنه لا يستطيع تحمّل ضرائب البروز الاجتماعي واستحقاقاته، أو أن تصديه سيتسبب بمضار أكبر من الفوائد التي يجنيها ذلك التصدي.

ولنا في تجربة التصدي العقائدي في زمن أصحاب الإمام الصادق صلوات الله عليه خير مثال يجسد ما نرمي التحدث عنه هنا، فمن الواضح أن الإمام الصادق عليه

---

١ معاني الأخبار: ١٨٠ .

٢ الزهد: ٤٠ ب١ ح٢ .

السلام كان قد دعا أصحابه في زمن أبي جعفر الدوانيقي إلى عدم التصدي للجدل العقائدي، ونهاهم عن الكلام، بسبب العنت السياسي والعقائدي الذي ميّز تلك المرحلة، ولكنه في عين الوقت دعا ثلة منهم إلى التصدي، ويتحدث أبو خالد الكابلي رضوان الله عليه في قصته مع مؤمن الطاق محمد بن علي بن النعمان الأحول رضوان الله عليه عن هذه الظاهرة بشكل جلي، قال:

رأيت أبا جعفر صاحب الطاق وهو قاعد في الروضة قد قطع أهل المدينة أزراره، وهو دائب يجيبهم ويسألونه، فدنوت منه فقلت: إن أبا عبد الله نهانا عن الكلام؛ فقال: أمرك أن تقول لي؟ فقلت: لا، ولكنه أمرني أن لا أُكلّم أحداً؛ قال: فاذهب فأطعه في ما أمرك!

فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته بقصة صاحب الطاق وما قلت له، وقوله لي: اذهب وأطعه في ما أمرك؛ فتبسم أبو عبد الله عليه السلام وقال: يا أبا خالد! إن صاحب الطاق يكلّم الناس فيطير وينقضّ، وأنت إنْ قصّوك لن تطير [١].

ويروي حمزة بن محمد الطيار (رضوان الله عليهما) يقول: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بلغني أنك كرهت منا مناظرة الناس وكرهت الخصومة؟ فقال: أمّا كلام مثلك للناس فلا نكرهه، مَن إذا طار أحسن أن يقع، وإن وقع يحسن أن يطير، فمن كان هكذا فلا نكره كلامه[٢].

ولهذا حينما بلغه وفاته ترحّم عليه معللاً هذا الترحم بدفاعه عن أهل البيت صلوات الله عليهم: "رحمه الله ولقّاه نضرة وسروراً، فقد كان شديد الخصومة عنا أهل البيت"[٣].

فالتصدي للكلام والجدل والنقاش والحوار هي من شؤون البروز الاجتماعي، وعدم التصدي هي من شؤون الخمول الاجتماعي، وما بين هذا وذاك نجد أن المعيار في هذا الأمر وذاك النهي لا علاقة له من حيث الأصل بالبروز والخمول، فلا البروز بمحضه مكروه، ولا الخمول بمحضه محبوب، ولا عكسهما أيضاً، فهما وسيلتان، ولكن يرتبط الموقف منهما بطبيعة المجتمع وظرف التحرك وقابلية الأشخاص، ولهذا نجد أن الإمام صلوات الله عليه في روايات عدّة يدعو بعض أصحابه للتصدي في عين

---

١ اختيار معرفة الرجال: ٤٢٤ ح٣٢٧ .
٢ اختيار معرفة الرجال: ٦٣٨ ح٦٥٠ .
٣ اختيار معرفة الرجال: ٦٣٨ ح٦٥١ - ٦٥٢ .

الوقت الذي نجده ينهى بعضهم عن ذلك، كما في قوله لأبان بن تغلب (رضوان الله عليه): "جالِس أهل المدينة، فإني أُحب أن يُرى في شيعتنا مثلك"[١].

وكذا قول الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام لمحمد بن حكيم (رضوان الله عليه) بأن يجالس أهل المدينة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وأن يكلّمهم ويخاصمهم[٢].

إذ لا شك أنّ العمل من أجل التشيّع يحتاج دوماً إلى رجال بارزين يجتمع الناس حولهم، ولكن ليس في قدرة الرجال دوماً أن يلبوا استحقاقات البروز والوجاهة، فقد يكون البروز سبباً رئيساً في خروج المرء من إطار الخدمة العملي، فتارة يكون في خط الطاعة كما هو الحال في قصة الشهيد زيد بن علي وولده يحيى وقصة المعلّى بن خنيس (رضوان الله عليهم أجمعين)، فلقد كانوا في خط الطاعة للإمام عليه السلام، ولكن بروزهم في الشأن الذي أدى إلى قتلهم، وبالتالي خرجوا من خط الخدمة العملي.

وأُخرى يكون في خط المعصية، كما في قصة زعماء الواقفة في زمن الإمام الكاظم صلوات الله عليه، كزياد بن مروان القندي وعثمان بن عيسى الرؤاسي وعلي ابن أبي حمزة البطائني، فهم خير مثال على ذلك، فهؤلاء كانوا من وكلاء الإمام الكاظم (بأبي وأمي)، وكانت الناس تجبي إليهم الحقوق وما إلى ذلك، ومع ذلك حينما استشهد الإمام الكاظم صلوات الله عليه رفضوا الإذعان لإمامة الإمام الرضا عليه السلام، وفيهم يقول شيخ الطائفة الطوسي (رضوان الله عليه): روى الثقات أنّ أول من أظهر الوقف علي بن أبي حمزة البطائني وزياد بن مروان القندي وعثمان بن عيسى الرواسي، طمعوا في الدنيا ومالوا إلى حطامها واستمالوا قوماً فبذلوا لهم شيئاً مما اختانوه من الأموال، نحو حمزة بن بزيع وابن المكاري وكرام الخثعمي وأمثالهم[٣].

ويتحدث يونس بن عبد الرحمن (رضوان الله عليه)[٤] فيقول: مات أبو إبراهيم[٥]

---

١ اختيار معرفة الرجال: ٦٢٢ ح٣٦٠ .

٢ اختيار معرفة الرجال: ٧٤٦ ح٨٤٤ .

٣ غيبة الطوسي: ٦٣ - ٦٤ ح٦٥ .

٤ من حواري الإمام الرضا صلوات الله عليه الخاصين جداً.

٥ أي الإمام الكاظم عليه السلام.

عليه السلام وليس من قوّامه أحد إلا وعنده المال الكثير، وكان ذلك سبب وقفهم وجحدهم موته، طمعاً في الأموال، كان عند زياد بن مروان القندي سبعون ألف دينار، وعند علي بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار، فلما رأيت ذلك وتبينت الحق وعرفت من أمر أبي الحسن الرضا عليه السلام ما علمت، تكلّمت ودعوت الناس إليه، فبعثا إليّ وقالا: ما يدعوك إلى هذا؟ إن كنت تريد المال فنحن نغنيك؛ وضمنا لي عشرة آلاف دينار، وقالا لي: كُف! فأبيت، وقلت لهما: إنّا روينا عن الصادقين عليهم السلام أنهم قالوا: إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سُلب نور الإيمان، وما كنت لأدع الجهاد وأمر الله على كلّ حال، فناصباني وأضمرا لي العداوة[١].

ومثال آخر نلاحظه في طلب الإمام موسى بن جعفر صلوات الله عليهما من علي ابن يقطين (رضوان الله عليه) أن لا يترك توزير هارون العباسي له، وكان عليٌّ قد طلب من الإمام عليه السلام أن يأذن له بترك عمله، فلم يقبل، بل أمره بأن يبقى[٢]، مع أنه كان في أشد حالات المقاطعة لهارون العباسي، والتي يعبّر عنها الإمام عليه السلام لزياد بن مروان عن أهميتها في الرواية التالية، فعن صفوان بن مهران الجمّال، قال: دخل زياد بن مروان العبدي على مولاي موسى بن جعفر عليهما السلام، فقال لزياد: أتقلد لهم عملاً؟ فقال: بلى يا مولاي؛ فقال: ولم ذاك؟ قال: فقلت: يا مولاي إني رجل لي مروءة وعلَيَّ عيلة، وليس لي مال؛ فقال عليه السلام: يا زياد! والله لئن أقع من السماء إلى الأرض فأنقطع قطعاً، ويفصّلني الطير بمناقيرها مفصّلاً مفصّلاً، لأحب إلي من أن أتقلد لهم عملاً[٣].

ويروي هشام بن سالم الجواليقي (رضوان الله عليه)، قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، فورد رجل من أهل الشام فاستأذن، فأذن له،

---

١ غيبة الطوسي: ٦٤ ح٦٦ .

٢ عن الحسين بن عبد الرحيم، قال: قال أبو الحسن عليه السلام لعلي بن يقطين: اضمن لي خصلة أضمن لك ثلاثاً؛ فقال علي: جعلت فداك وما الخصلة التي أضمنها لك؟ وما الثلاث اللواتي تضمنهن لي؟ قال: فقال أبو الحسن عليه السلام: الثلاث اللواتي أضمنهن لك: أن لا يصيبك حر الحديد أبداً بقتل، ولا فاقة، ولا سجن حبس، قال: فقال علي: وما الخصلة التي أضمنها لك؟ قال: فقال: تضمن أن لا يأتيك ولي أبداً إلا أكرمته. انظر اختيار معرفة الرجال: ٧٣٢،٧٣١ ح٨١٨.

أقول: كان ذلك بعد طلب علي بن يقطين من الإمام صلوات الله عليه أن يأذن له بترك عمله مع هارون العباسي، وقد كان أبوه وزيراً له أيضاً.

٣ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل ١٣: ١٣٥ - ١٣٦ ح١٤٩٩٩ .

فلما دخل سلّم، فأمره أبو عبد الله عليه السلام بالجلوس، ثم قال له: حاجتك أيها الرجل؟

قال: بلغني أنك عالم بكلّ ما تُسأل عنه، فصرت إليك لأُناظرك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: في ماذا؟

قال: في القرآن وقطعه وإسكانه وخفضه ونصبه ورفعه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا حمران[1] دونك الرجل!

فقال الرجل: إنما أُريدك أنت لا حمران.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن غلبت حمران فقد غلبتني.

فأقبل الشامي يسأل حمران حتى ضجر وملّ وعرض، وحمران يجيبه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: كيف رأيت يا شامي؟

قال: رأيته حاذقاً، ما سألته عن شيء إلا أجابني فيه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا حمران سل الشامي!

فما تركه يكشر!

فقال الشامي: أُريد يا أبا عبد الله أُناظرك في العربية.

فالتفت أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا أبان بن تغلب ناظره!

فناظره، فما ترك الشامي يكشر!

فقال: أُريد أن أُناظرك في الفقه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا زرارة[2] ناظره!

فناظره، فما ترك الشامي يكشر!

---

١ هو حمران بن أعين (رضوان الله تعالى عليه) من كبار أصحابه صلوات الله عليه ومن حواريه الخاصين.

٢ زرارة بن أعين أخو حمران وأحد كبار الأصحاب.

قال: أريد أن أناظرك في الكلام.

قال: يا مؤمن الطاق ناظره!

فناظره فسجَلَ الكلام[1] بينهما، ثم تكلّم مؤمن الطاق بكلامه فغلبه به.

فقال: أُريد أن أُناظرك في الاستطاعة.

فقال للطيار: كلّمه فيها!

قال: فكلّمه، فما تركه يكشر!

ثم قال: أريد أُكلّمك في التوحيد.

فقال لهشام بن سالم: كلّمه!

فسجل الكلام بينهما، ثم خصمه هشام.

فقال: أُريد أن أتكلّم في الإمامة.

فقال لهشام بن الحكم: كلّمه يا أبا الحكم!

فكلّمه، فما تركه يريم[2] ولا يحلي ولا يمري.

قال: فبقي يضحك أبو عبد الله عليه السلام حتى بدت نواجذه .

فقال الشامي: كأنك أردت أن تخبرني أن في شيعتك مثل هؤلاء الرجال؟

قال: هو ذاك[3].

وعلى أي حال، فإن المطلوب في هذا الصعيد هو العمل بعيداً عن أعين الظلمة وأعوانهم وجواسيسهم ومن يتحرى لهم الأمور، بصورة يبدو العامل في نظر هؤلاء وكأنه لا يعمل بأي عمل فيه خطر عليهم، في عين الوقت الذي يكون فيها الأبرار في شدة حرصهم ودأبهم على العمل من أجل الإمام (روحي فداه)، ويعبّر الإمام الصادق صلوات الله عليه في حديثه بصورة فيها دلالة كبيرة ودقيقة على المطلوب هنا ؛ إذ

١ أي كان بينهما أخذ ورد في الكلام.

٢ ريم بالرجل إذا قطع به.

٣ اختيار معرفة الرجال: ٥٥٤ - ٥٥٨ ح٤٩٤ .

يقول لمهزم الأسدي: يا مهزم! شيعتنا مَن لا يعدو صوتُه سمعَه، ولا شحناؤه[1] بدنَه، ولا يمتدح بنا معلناً، ولا يجالس لنا عائباً، ولا يخاصم لنا قالياً، إن لقي مؤمناً أكرمه، وإن لقي جاهلاً هجره؛ قلت: جعلت فداك فكيف أصنع بهؤلاء المتشيعة؟ قال: فيهم التمييز، وفيهم التبديل، وفيهم التمحيص، تأتي عليهم سنون تفنيهم، وطاعون يقتلهم، واختلاف يبددهم، شيعتنا من لا يهرّ هرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولا يسأل عدونا وإن مات جوعاً؛ قلت: جعلت فداك! فأين أطلب هؤلاء؟ قال: في أطراف الأرض، أُولئك الخفيض عيشهم، المنتقلة ديارهم، إن شهدوا لم يُعرفوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، ومن الموت لا يجزعون، وفي القبور يتزاورون، وإن لجأ إليهم ذو حاجة منهم رحموه، لن تختلف قلوبهم وإن اختلف بهم الدار[2].

ونلحظ هنا أن الإمام صلوات الله عليه مع تركيزه على صفة العمل الجاد لديهم، إلا أنه يؤكد على عملهم في دائرة الخمول الاجتماعي، فهم إن شهدوا لم يُعرفوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، ولكنهم ـ مع ذلك ـ شديدو الحرص على ما يخدم حركة الإمام صلوات الله عليه.

وهناك ظاهرة في منهج الأئمة عليهم السلام يجب أن تلاحظ، تدخل ـ أيضاً ـ في هذا السياق، وهي رد شهرة أصحابهم الخاصين جداً بما يدفع الأذى عنهم، وذلك من خلال براءتهم منهم، كما حصل مع زرارة وبريد بن معاوية وأبي بصير ومحمد بن مسلم الثقفي وهشام بن سالم والمفضّل بن عمر الجعفي ومحمد بن سنان ونظرائهم[3]؛ إذ إنّ بروزهم الاجتماعي في فترة ما كان سبباً لتوجه الخطر إليهم في فترة أُخرى.

ولذلك وجدنا أنّ الأئمة صلوات الله عليهم يعمدون للبراءة الظاهرية من هؤلاء، لأن أجهزة الظلم العباسية كانت تلاحق كلّ مَن له علاقة خاصة بهم، ولهذا عمد الأئمة عليهم السلام إلى محاولة إبعاد الأنظار عن أصحابهم، من خلال البراءة منهم براءة ظاهرية في المجالس العامة[4]، التي كانوا يعلمون بأن أعين بني العباس كانت

---

١ الشحناء: البغضاء وقد تأتي بمعنى الغضب الداخلي.

٢ الكافي ٢: ٢٣٨ - ٢٣٩ ح٢٧، وقريب منه في غيبة النعماني: ٢٠٣ -٢٠٤ ب١٢ ح٤ .

٣ من المؤلم أن نرى بعضهم يستمر في ظلم هؤلاء الأفذاذ بسبب عدم فهمه لهذه الظاهرة، مما تسبب باعتبار بعضهم ضعيفاً في الحديث! مع أنهم كانوا مورد ثناء كبير من قبل الأئمة عليهم السلام أنفسهم، بل العجب في تردد بعض العلماء من قبول توثيق بعضهم.

٤ على الرغم من أنهم عليم السلام كانوا يردّون ذلك بعظيم المدح لهم في المجالس الخاصة.

حاضرة فيها، أو أن وصول خبر هذه المجالس إلى بني العباس وعيونهم مضمون، بالشكل الذي يوحي إلى بني العباس بسلامة موقف هؤلاء من جهة، وللقناعة بوجود خلافات في الوسط الإمامي، مما يجعلهم يأمنون جانب هذا الوسط لانشغاله بخلافاته.

وقد صدر فعلاً لعنٌ أو ذمٌّ بحق مجموعة من كبار الأصحاب، كزرارة وغيره من آل أعين وبريد بن معاوية ومحمد بن مسلم الثقفي وليث المرادي والمفضّل بن عمر وحريز بن عبد الله ومحمد بن سنان، وغيرهم، وقد لعب ذلك دوره الأساس في حفظ هؤلاء وممن يلوذ بهم من قواعدهم، مما مكّنهم بدرجة أساسية بأن يستغلوا الآفاق الناجمة عن ذلك في الرواية عن أهل البيت عليهم السلام.

ولا شك أن حالة من هذا القبيل تؤدي إلى اضمحلال في حالة البروز الاجتماعي، ولكنها تتيح للأصحاب أن يتحركوا بحرية أكبر بعد أن ضمنوا عدم تعرض بني العباس لهم حينما تبلغهم براءة الأئمة عليهم السلام منهم.

فعلى سبيل المثال، نلحظ هنا قول الإمام أبي جعفر الجواد صلوات الله عليه وهو يخاطب محمد بن سنان: يا محمد! كيف أنت إذا لعنتك، وبرئت منك، وجعلتك محنة للعالمين؟! فما كان من محمد إلا أن يقول للإمام صلوات الله عليه: افعل بعبدك ما تشاء يا سيدي، أنت على كلّ شيء قدير[1].

١ اختيار معرفة الرجال: ٨٤٩ ح١٠٩١ .

أقول: هذه الرواية جرّت على محمد بن سنان (رضوان الله تعالى عليه) كثيراً من الظلم، فتصور بعض المتصدين لعلم الرجال وجرحهم وتعديلهم أن هذا الحديث دليل غلو محمد بن سنان في الإمام الجواد عليه السلام فقالوا بضعفه وتجريحه، وما ذاك إلا نتيجة للإنكفاء على ظاهر النصوص من دون الالتفات إلى القرائن الحافة بها، ولا أقل في شأن طبيعة ما رواه ابن سنان في أحاديث كثيرة تخالف ما اتهموه به، وكذا عدم الالتفات إلى طبيعة أدب أصحاب الأئمة معهم صلوات الله عليهم، وسوء ظن غير مبرر منهم، وكان الموقف من بعضهم يستدعي العجب الشديد لا سيما أن زمن الإمام الجواد صلوات الله عليه خلا من الغالية الّذين يرفعون من الأئمة عليهم السلام ما يبرؤون إلى الله تعالى منه في شأن الألوهية، فمحمد بن سنان تكلّم بطريقة تنمّ عن أدبٍ رفيع وإخلاصٍ بليغ، فهو يطرح نفسه بمقام العبودية بمعنى أن يكون خادمه وليس في مقام أن يضع الإمام في موضع المعبود، وهو يقرُّ له بهذا النمط من العبودية، ومن الطبيعي أن السيد يفعل بعبده ما يشاء.

فإذا كان مثل عبد الله بن مسكان (رضوان الله عليه) على جلالة قدره لا يدخل على الإمام الصادق عليه السلام خشية أن لا يفي بحق تقدير الإمام (بأبي وأمي)، فكيف بمثل محمد بن سنان؟! وقد كان رافق الأئمة الكاظم والرضا والجواد صلوات الله عليهم، وهو ضرير، وبدعاء الإمام الجواد عليه السلام ارتد بصيراً وشفي تماماً من عماه.

السياسات الظالمة ومواجهتها:

يبقى علينا أن نراقب مشهد البلاء من جهة الظلمة أنفسهم، لنلاحق غاياتهم وأهدافهم المتوخاة منه؛ لأن معرفة هذه الأهداف والغايات تعطي للمرء قدراً من الوعي للكيفية التي تجري فيها حركة الظلم وطبيعة أهدافه، مما يمكن معها التخلّص من الظلم أو التخفيف منه أو من آثاره واحتواء موجاته، أو في الأقل تمكّن المرء من تنغيص الفرصة على الظالمين من أن يحققوا مآربهم، وعلينا أن نضع في أولويات تفكيرنا حين طرح هكذا مواضيع المبدأ المطروح قرآنياً والمتمثل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [1]، فمهما تمادى الظالم في عتوّه وطغى في بغيه، فإن نقاط ضعفه موجودة فيه سلفاً؛ ولهذا فإنه يتألم ويتضرر وينهزم وَفق مسار السنن الموضوعية، وهذا الأمر ليس حصراً به، فإن المستضعَفين يتألمون أيضاً، ولكن ثمة فارق أساس بين الشريحتين، فالمستضعَف يرجو وعد الله جلّت قدرته بإحدى الحسنيين، والله سبحانه لا يخلف وعده.

وبادئ ذي بدء يجب أن نلحظ هذه السياسات في بُعدين، فهي تارة تُوجّه إلى الفرد، وأُخرى تُوجّه إلى الأمّة، ومواجهتها هي الأُخرى تكون تارة مطلوبة من الفرد، وأُخرى تُطلب من الأمّة، وملاحقة الأمرين معاً سترينا أن تداخلاً وافتراقاً بينهما في نفس الوقت على صعيد الاستحقاقات والمتطلبات، ولكن مع ذلك فإن دراسة الأمرين بمعزل عن بعضهما مفيد جداً، ولا سيما أنّ الخلط يؤدي في العادة إلى نمط من الاتكالية نتيجة عدم وضوح الرؤية لدى بعضهم، فقد يضع أُولئك حساب استحقاقات المواجهة المتوجبة على الفرد في حقل الاستحقاقات على الأُمّة، وبالتالي يكِل الأمر إلى الجماعة ليعدّ نفسه خلياً من المسؤولية! والعكس صحيح أيضاً، فقد يرى بعضهم استحقاقات الفرد وكأنها استحقاقات الأُمّة، فيرتجي ما لا يرتجى، ويأمل ما لا يؤمّل، وفي كلا الحالتين يعطي هؤلاء للظلمة فرصتهم لكي يتمادوا في ظلمهم بشكل أكبر.

---

١ سورة النساء ١٠٤ .

وفي علامات الظهور نجد عدة أصناف من الظلمة يشار إليهم، فهناك ظالم من داخل الشيعة أنفسهم، كما هو الحال في مثال الشيصباني على ما يبدو[١]، أو صاحب البرقع كما تسميه الروايات[٢]، وهناك ظالم من خارجهم؛ ناصبياً كالأبقع، أو ظالماً كالسفياني، أو غير ناصبي كما في وصف من يلقب في الروايات ببني العباس[٣]، وهناك ظالم من خارج الديار الإسلامية، كما هو الحال في حديث الروايات عن مارقة الروم[٤]، ومما لا شك فيه أن التعامل مع كلّ هؤلاء لن يكون بوتيرة واحدة، ولن ينحصر بأسلوب معين؛ لأن أهداف هؤلاء مختلفة بعضها عن بعض، وكذا منطلقاتهم ومديات هذا الظلم، فمدى ظلم الناصبي هو الرغبة في الاستئصال، بينما مدى ظلم الخارجي هو تحقيق السيطرة، وهكذا.

---

١ قال جابر الجعفي (رضوان الله عليه): سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن السفياني، فقال: وأنّى لكم بالسفياني حتى يخرج قبله الشيصباني، يخرج من أرض كوفان، ينبع كما ينبع الماء، فيقتل وفدكم، فتوقّعوا بعد ذلك السفياني.

انظر: غيبة النعماني: ٣١٤ ب١٧ ح٧؛ ويبدو من هذا الحديث أنّ الملقب بهذا اللقب من فسقة الشيعة وظالميهم.

٢ روى عمر بن أبان الكلبي، عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: كأني بالسفياني أو بصاحب السفياني قد طرح رحله في رحبتكم بالكوفة، فنادى مناديه: من جاء برأس رجل من شيعة علي فله ألف درهم؛ فيثب الجار على جاره يقول: هذا منهم؛ فيضرب عنقه ويأخذ ألف درهم، أما إن إمارتكم يومئذ لا تكون إلا لأولاد البغايا، وكأني أنظر إلى صاحب البرقع؛ قلت: ومن صاحب البرقع؟ فقال: رجل منكم، يقول بقولكم، يلبس البرقع، فيحوشكم، فيعرفكم ولا تعرفونه، فيغمز بكم رجلاً رجلاً، أما إنه لا يكون إلا ابن بغي.

انظر: غيبة الطوسي: ٤٥٠ ح٤٥٣ .

٣ هناك ملحوظتان يجب التأكيد عليهما هنا:

الأولى: إن تصنيف مصطلح بني العباس في الوسط غير الناصبي لا يعني أن بعض بني العباس لم يكونوا من النواصب، بل إن النصب أحد سمات كثير منهم بما لا ريب فيه، ولكن يبدو لي من خلال ما يطرح في علامات الظهور أن ما يشار إلى بني العباس في هذه العلامات لا يشير إلى هذه الصفة، وإنما يركّز في كثير من الأحيان على موضوع السلطة أكثر من إشارته إلى أي شيء آخر.

والثانية: يطلق هذا الوصف. وصف بني العباس. كثيراً في الروايات الشريفة، ويراد به تارة حكام بني العباس أنفسهم، وأُخرى مَن سار على طريقتهم وانتحل نحلتهم، أو حكم في نفس أماكن سلطتهم، ومن الواضح أن حكم بني العباس لا وجود له في زمننا هذا، فضلاً عن الأيام القريبة من الظهور الشريف، ولكن يمكن ملاحظة بعض الروايات التي تسمّي بعض حكام الفترة المقاربة للظهور بنفس هذا الاسم؛ وذلك للسبب الذي ذكرناه.

٤ غيبة الطوسي: ٤٤٢ ح٤٣٤ .

ولهذا، فإنّ التعامل مع كلّ مفردة من هؤلاء منوط بطبيعة الظروف والقابليات والاستعدادات، ولكن يجب أن لا يبتدر أيّ شك في الأذهان في أن مواجهة هؤلاء مطلوبة على أيّ حال، ولو على مستوى الإنكار القلبي وعدم المشاركة في أعمالهم، أو عدم إقرارهم على ظلمهم وعدم التطبيع معهم، فضلاً عن غيرها من الأساليب، فالتكليف لا يسقط عن المرء حتى اللحظات الأخيرة من حياته، ولكن أنماط التكليف تختلف من شخص لآخر، ومن ظرف لآخر، ولعل تأملاً سريعاً في معنى أن يكون لدينا صلاة الغريق أو صلاة الخوف من السبع ـ على سبيل المثال ـ تكفي لتأكيد ما نحن بصدده في شأن الموقف من التكليف الشرعي.

فالغريق وهو في حال الغرق أي على أعتاب مفارقة الحياة بلحظة أو أكثر بقليل، له صلاة محددة، إن كانت ذمته مشغولة بالصلاة، وفي الثانية يقول الإمام الصادق عليه السلام: "من تعرض له سبع وخاف فوت صلاته، استقبل القبلة وصلى صلاته بالإيماء، فإن خشي السبع وتعرض له (أي حال الهجوم عليه أو في أوانه)، فليدر معه كيف دار وليصلِّ بالإيماء"[1].

هذا في الصلاة، فما بالك بالموقف من المضرّ أو العدو للمذهب والدين؟! ولا سيما إذا لاحظنا الحال وَفق ما يصوّره الإمام الصادق صلوات الله عليه: "خمسة من خمس محال ـ إلى أن قال: ـ والشفقة من العدو محال"[2]!!

وعلى الرغم من تعدد أنواع الظلمة وسياساتهم، إلا أنهم في الغالب يتّحدون في كثير من الأساليب، وقد تتشابه سبل مواجهتها بشكل عام، فالظلمة حينما يمارسون ظلمهم إنما يهدفون في ما يهدفون إلى إنشاء ارتكاسات نفسية، تؤدي بالنتيجة إلى تطويع قسري لإرادات المظلومين، وبالطريقة التي تحجّم وجودهم كعقبة أمام المشروع الذي يسعى إليه الظلمة، وأحد أهم الارتكاسات التي يحتاجونها هو قتل الأمل في داخل المظلومين، وإحلال اليأس كبديل عنه، بغية الوصول إلى ذات خائفة منتكسة تعيش الهزيمة، أو مترددة محبطة لا تمتلك الثقة، أو لا تبالي بما يحصل في واقعها لتنزوي داخل شرنقة تبعدها عن الواقع العملي وتخرجها من ساحة التأثير والفعل.

ولربما يبدو لكثيرين أن مشروع الظلمة يخلو من التفكير المسبّق والهدفية الخلاقة

---

١ من لا يحضره الفقيه ١: ٤٦٣ ح١٣٣٥ .

٢ الخصال: ٢٦٩ ب٥ ح٥ .

في إيجاد وصنع مثل هذه الذات، ولربما يتصور بعضهم أن الظالم يعمد إلى الظلم رغبة بالظلم نتيجة عُقد ذاتية في طفولته أو في تربيته الاجتماعية[١] وعلى الرغم من أن بعض ذلك صحيح جداً، ولكن من غير الصحيح التصوّر دوماً أن سياسات الظالم خالية من أهداف التأثير المباشر على من ينضوي تحت دائرة ظلمه بغية تركيعهم وترويضهم لمآربه.

فهو ـ أي الظالم ـ قد يبدو في بداية الأمر بلا غاية في بطشه بهذا، وعبثياً في قمعه لذاك، ولكن من يجد في نفسه القدرة على ذلك عادة ما يتمادى في كيفية مدّ سلطان هذه القدرة لتطال الآخرين، لكي يجعل الآخرين منقادين له ومأسورين به وتابعين له، وبتوجيه مباشر منه أو بتسويغ من أعوانه يشرع الظلمة في تكريس كافة السبل الشرعية[٢] وغيرها، باتجاه ترويض الجماهير حتى لا يبقى أي أثر فاعل لها في التأثير السلبي على السياسات الظالمة، أو في الأقل تحجيم هذا الأثر، وأيّ مراجعة لأي نصوص وضعت لسياسة الحاكم مع الجمهور يجد المرء المساحة الواسعة التي خُصصت لعملية التأثير على إرادة الشعب وإخضاعها، ولعل قراءة سريعة لما كتبه المفكر السياسي الإيطالي ميكافيللي (Niccolo Machiavelli 1469-1527) في كتابيه "**الأمير**" و "**المطارحات**"[٣] من شأنها أن تقدّم لنا تصورات واسعة عن هذا الموضوع.

وفي مقابل ذلك لا يعدم المرء كثيراً من التوجيهات التي ضمّنتها الروايات الشريفة للتصدي لهذه الظواهر والحد من تأثيراتها العامة، وسيلاحظ المتابع الدقيق أن أهل البيت صلوات الله عليهم قد تصدوا لهذه الحالات بشكل يعكس جدّية متناهية وواقعية فذة؛ إذ لا تجد النصوص تأخذ طابعاً واحداً، ولم تنحصر في بعد واحد، فالأئمة صلوات الله عليهم في منهجهم المهتدي بالقرآن الكريم قد أطلقوا حشداً كبيراً

---

١ يقول الباحث السياسي الاجتماعي موريس دو فرجيه في بحثه القيّم عن الديكتاتورية: "إن أغلب الطغاة كانوا قصيري القامة، وأكثرهم عاش طفولة معذبة، ومراهقة صعبة، الأمر الذي من شأنه أن يمهّد السبيل لخضوع شخصيته لمجموعة من العقد".

انظر: في الديكتاتورية: ٣١ - ٣٢ موريس دو فرجيه، دار عويدات - بيروت ١٩٨٩ ط٣ .

٢ المقصود هنا شرعية القانون الحاكم، لا شرعية الشريعة.

٣ بل حتى الكتب التي أخذت بعداً دينياً في هذا المجال كما في كتب الماوردي وابن عبيد والفارابي وأمثالهم فهي تنحو بهذا الاتجاه أيضاً، غاية ما في الأمر أنها قد تختلف في طبيعة البدائل التي تضعها أمام السلطان أو الوالي، كما أنها قد تختلف في بعض الغايات، ولكن هي في الأصل تعطي عملية التأثير على الجمهور أو الرعية حيزاً كبيراً من الاهتمام.

من التوجيهات التي من شأنها أن تطيح بمشروع الظلَمة هذا، أو تعمل على الحد من تأثيراته، وقد جاءت أحاديثهم عليهم السلام وهي تتحدث بصراحة عن عملية التصدي تارة، وأُخرى تغلّف عملية التصدي بأساليب متعددة وتطرحه بشكل غير مباشر[١]، وسنحاول أن نشير إلى ذلك كلاً في محله.

وعوداً على بدء، فإن بالإمكان وبشكل سريع تلمّس نشوء أو نمو العديد من الحالات التي تترتب في العادة على وجود هذا النمط من البلاء في الواقع الاجتماعي بشكل عام، وواقع المنتظِرين بشكل خاص، وهذه الحالات قد تأخذ طابعاً فردياً، وربما تستفحل لتتحول إلى حالة مجتمعية، وفي كلّ الأحوال ستمثل هذه الحالات ظاهرة عامة يمكن تلمّسها، وهي عديدة، ولكن سأشير إلى أربعة مفردات منها، وهذه الحالات هي:

أولاً: اليأس والأمل:

قلنا بأن الظلَمة حينما يسلّطون ظلمهم، فإنهم يحاولون ـ في ما يحاولونه، وبقصد أو من دونه ـ إيجاد أكبر موجة من مشاعر اليأس والإحباط لدى النخبة من المظلومين[٢]، وهذه الموجة مطلوبة لدى القوى الظالمة للحد من إرادة العمل المضاد لها، وذلك نتيجة لكثرة ما يترتب على وجود هذه المشاعر من عوامل مؤثرة بشكل سلبي على حركة الإرادة الإنسانية، وفي نفس الوقت يعمد الظلمة إلى قتل الأمل أو محاولة تحجيمه في نفوس العاملين ضدهم، وهذا هو الآخر لنفس السبب المتوخى من إيجاد حالة اليأس، فالمرء حينما يفقد الأمل فهو يعين الظالم بشكل كبير على نفسه، من خلال سلسلة من السلوكيات التي تعطّل إرادته العملية، أو تجعله يتهور فيعين الظالم على نفسه.

وحينما تتحدث الروايات الكريمة عن شدة البلاء وسطوته، فإن من جملة ما

---

١ مر عديد من الروايات سابقاً، وسيأتي ذكر بقية منها.

٢ باعتبار أن النخبة في العادة هي التي تقود التغيير، ولا أقصد بالنخبة هنا شأنية علمية أو اجتماعية أو سياسية معينة كما يتم تداولها اليوم، وإنما أقصد بالنخبة هنا المجموعة التي تمتلك المشاعر والأحاسيس والإرادة الواعية، فسبارتكوس (Spartacus) - على سبيل المثال - يوم أن قاد ثورة العبيد، لم يك مِن جملة مَن يسمّونهم اليوم بالنخبة؛ إذ لم يك إلا عبداً، ولكنّ مشاعره وأحاسيسه بالظلم والحرية كانت كافية لتطلق فيه فِعل الثورة والتحرك من أجل الأهداف التي نهض من أجلها، وأمثلة ذلك كثيرة.

يعطينا ذلك أبعاداً ثلاثة: أحدها يتعلق بطبيعة الظلمة، وآخر يرتبط بطبيعة المظلوم، والثالث يرتبط بطبيعة الظلم نفسه، فشدّة الظلم تعكس طبيعة الظالم وخشيته المتشددة من أن لا ينجح في تطويق إرادة المظلوم مما يدفعه لمزيد الظلم، وهي في عين الوقت تحكي أيضاً قوة المظلوم، وعدم قدرة السياسة الظالمة على الاتزان والانضباط في سياقات يتم فيها إخفاء الظلم وتغليفه وستره بحيث لا يرى بصورته المباشرة؛ إذ لولا قوة المظلوم لما احتاج الظالم إلى كلّ هذا العنت والظلم الذي يسلطه على المظلوم.

ولك في مثال الصدّيقة الشهيدة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها بليغ عبرة في هذا المجال؛ إذ إنّ حجم الظلم الذي سلّط عليها خلال يومين فقط، كان لا يعبّر عن قوة الظالم، بل كان يعبّر عن قوة المظلوم؛ إذ لا يحتاج إلى الظلم إلا الضعيف وفق تعبير الإمام السجّاد صلوات الله عليه[1]، ولهذا احتاجوا إلى كلّ هذا الظلم، ومن جهة ثالثة فإنها تكشف عن طبيعة الظلم من حيث سياساته وآلياته وأهدافه العملية.

وكلّ هذه الأُمور هي من متطلبات العلمية النهضوية التي يحتاجها المنتظِرون في حياتهم في حال إطباق الأيام عليهم من خلال انتشار الظلم والظالمين، وهي مهمة من جهات عدة، فمعرفة الظلم وآلياته تتيح للمرء امتيازات عديدة، فمن يعرف الشيء يتمكن من معرفة السبل التي تخلصه منه، وهو بالتالي سيكون أقدر من غيره على كيفية الدفاع عن نفسه، ومن يعاني من أمر فإنه سيشتاق إلى ما يضاده؛ ولهذا فإن المعاناة من الظلم تنتج تلقائياً شوقاً إلى العدل لن نعدم ملاحظته بيسر بطريقة أو أُخرى، وتدفع المشتاقين إليه لتمثل سلوكياته والتعلّق بمعاييره وقيمه، وهو بعنوانه مظلوماً سيعرف مصاديق الظالمين بشكل عملي، ويشخّص مصاديق الظلم بعيداً عن التجريد النظري، وكلّ هذه فيها ما فيها من مكامن قوة ومواطن زخم في الإرادة لا تخفى على المتأمل.

ولهذا، فإن واحدة من أُولى مهمات المواجهة مع القوى الظالمة واستمرار عملية الانتظار الإيجابي ستكمن في كيفية تقوية الأمل ومحاربة اليأس، فما دام العدو يريد ذلك، فإنّ المنطق يدعونا إلى أن لا نعطيه ما يريد، ولعل هذا هو أحد الأسباب التي جعلت الشارع المقدّس يصف اليأس بأوصاف مقزّزة ويشنّع فيه كثيراً، حتى عدّه من جملة الكبائر المتقدمة، وهذا ما يلحظ في عدد غير قليل من الروايات الكريمة[2] وفي رواية لمعاوية بن وهب، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: "اليأس من روح الله

---

١ الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٨ دعاؤه عليه السلام يوم الجمعة وفي يوم الأضحى.

٢ انظر: الكافي ٢: ٢٧٨ ح٤، والكافي ٢: ٢٨٠ ح١٠، وعيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣٥ ب٣٥ ح١ .

أشد برداً من الزمهرير"[1].

يبقى أن نشير إلى أن عوامل تسرّب اليأس إلى النفوس متعددة ومتداخلة وتتباين أشكالها وفق الظروف والأزمات، وقوى الظلم هي إحدى أكثرها هذه العوامل خطراً، ويعينها في ذلك الشيطان (عليه لعائن الله) الذي يمارس عملية التهويل لعوامل التيئيس ويضخّم ما يستدعيه، ويحاول إيصال المرء إلى حالة الهلع؛ ولهذا، فإن المنتظِر لا يجد مندوحة من تحصين جبهته من مداخل الشيطان؛ لكي يأمن خطر ذلك.

كما إن النفاق ـ وهو العدو الداخلي المتضامن دوماً مع العدو ـ هو أحد النافخين في نيران عوامل التيئيس الذاتي والاجتماعي، ويعمل جاداً من أجل تهويلها، وللإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه حديث بليغ في شأن دور النفاق في صناعة اليأس وإيجاد القنوط داخل جموع المؤمنين، قال: "وأحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالّون المضلّون، والزالّون المزلّون[2]، يتلونون ألواناً، ويفتنون افتناناً، ويعمدونكم بكلّ عماد، ويرصدونكم بكلّ مرصاد. قلوبهم دوية، وصفاحهم نقية[3]، يمشون الخفاء، ويدبون الضراء. وصفهم دواء، وقولهم شفاء، وفِعلهم الداء العياء، حسدة الرخاء، ومؤكّدو البلاء، ومقنّطو الرجاء[4]!!

وبشكل عام يمكن القول بأن مهمة الطاغوت وقوى الظلم ضد المنتظِرين هو إشاعة القنوط وإحلال اليأس في نفوسهم، وقد يساعدهم في ذلك أن مهمة الانتظار مهمة طويلة الزمن، ومعقدة في ديمومتها لكثير ممن لا يفقهونها، ولذلك سيلعب هذا العنصر دوراً سلبياً في مجاميع المنتظِرين، ولا سيما أن أعداء المنتظِرين سيستغلون ذلك، ولهذا فإن أمام المنتظِرين مهمة التشبث بسياسة إشاعة الأمل وبث الثقة بالله تعالى والإيمان بوعده، واليقين بفرج الإمام المنتظَر صلوات الله عليه، أمّا آليات ذلك فلكلّ ظرف نمط معين يمكن الاستعانة به.

ثانياً: الخوف والسكينة:

ما من ريب بأن سياسة الظلم تستخدم الخوف ووسائله بشكل مكثف، بل في واقع

---

١ أمالي الصدوق: ٣١٧ م٤٣ ح٣٦٩ .

٢ من الزلل ومجانفة طريق الحق والصواب.

٣ أي أن وجوههم وما يستقبلون به المؤمنين يعاكس ما تعتمل عليه قلوبهم من الحقد والحسد لهم، والدوية المريضة.

٤ نهج البلاغة: الخطبة ١٩٤ .

الحال يعدّ عامل الخوف أحد أهم أساليبها وأسلحتها في تأمين شتى أهدافها؛ ولهذا فإن سياسة التخويف والإرهاب والقمع والتنكيل وسيلة قديمة بقدم الظلم نفسه، وتتجدد دوماً في آلياتها وأساليبها لتؤدي أهداف هذه القوى.

وما من شك في أن هذه السياسة تستهدف أولاً تطويع إرادة الخائفين، وتحويلها إلى إرادة خادمة ومنسجمة مع رغبات القوى الظالمة، أو تحولها إلى إرادة غير مضرّة بواقع الظلم، أو إلى إرادة معطلة ومحجوزة عن الفعل، ولكن هذه السياسة لا تتوقف عند حد إلا بتحقيق الهزيمة الداخلية والانسحاق الذاتي، ولهذا تختلط أساليبها هنا من شخص إلى آخر، ومن مجموعة إلى أُخرى كلٌّ بحسب قوته وقدرته، فهناك من تشتد عليهم الوطأة، ومنهم مَن هم دون ذلك لسرعة تلبيتهم لأغراض هذه السياسة أو خضوعهم لاشتراطاتها.

وعادةً ما تعمد هذه السياسة إلى التعامل مع واحدة من المواضع التي تكمن فيها عوامل الخوف داخل الوعي الإنساني، ولا نحتاج لكثير كلام في مواطن العقوبة داخل هذا الوعي؛ إذ إنّ أول أعمال هذه السياسة هي هذه المَواطن، التي بالعادة يخشاها الإنسان بشكل تلقائي، فالإنسان يخاف دوماً أن تتم معاقبته، ولكن هذا العقاب يختلف عند الناس، فهناك من يعدّ هذا النوع من الأعمال عقاباً، بينما هناك آخر لا يعدّه كذلك؛ ولهذا فمن عادة هذه السياسة أن تبتكر أساليب التخويف الكفيلة بأن تثير هذا الشعور وتعظّمه لدى القوى المتلقية لها.

ولهذا ـ أيضاً ـ هي تعمل في إطار أوسع من دائرة العقاب نفسه من خلال إيجاد الأجواء النفسية والفكرية والاجتماعية لإشاعة هذا الخوف والتذكير به، مما يعني أن قوى الظلم ستستفيد من عنصر النفاق الداخلي من جهة، ومن عنصر الحرب النفسية ووسائلها من جهة أُخرى لتحقيق ذلك، وعبر منافذ المحتوى الداخلي للمنتظِرين سيعين الشيطان وأبالسته هؤلاء ليشكّلوا فريق عمل واحد يعمل بدأب من خلال الوسوسة العاملة على القبول بوسائل التخويف والإرهاب وصولاً إلى حالة الهلع، أو تلك العاملة على إثارة المخاوف على مصالح متحققة وموجودة بيد المنتظِرين، أو منافع قد تذهب.

ولو حلّلنا الخوف الذي يعتري الإنسان، كفرد أو كجماعة، لعرفنا جملة من الأُمور، أهمها أنّ سلاح الخوف مهما عتت قوته وجبروته فلن يكون قاهراً بالضرورة، ويمكن لطبيعة المحتوى الداخلي للإنسان أن يطوّع ذلك لكي يتفادى

الآثار المرتدة منه، وعلى الرغم من أن الخوف حالة طبيعية في الذات الإنسانية، ولكنه ينشأ في العادة من عوامل الارتباط بمطامع أو مطامح معينة، سواء أكانت هذه المطامع والمطامح ناجزة فعلياً أو مما يؤمّل تحصيله في المستقبل، وكلّها ترتبط بالمحتوى الداخلي للإنسان؛ لأنها مسائل اعتبارية ونسبية تختلف من شخص إلى آخر، فقد يخيفك شيء ولا يخيف غيرك، وقد تطمع بشيء ولا يطمع به غيرك، وهكذا.

وعليه، فمثلما نرى دور المحتوى الداخلي في تنجيز الدور المطلوب من الخوف، فإنه نفسه الذي يتمكن من تجاوز هذا الدور وتعطيله، ويشير القرآن الكريم إلى هذا المعنى في الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

ويلحظ هنا أن القرآن أعطى شأن الخوف للشيطان وحزبه، مما يوحي بأن القضية كلّها يمكن التغلّب عليها من خلال قهر العوامل التي يدخل منها الشيطان.

ولو حلّلنا كلّ ذلك، لوجدنا أن المطلوب هو عدم الاتكاء أولاً على القوة المادية وسبلها، فغالباً ما تكون هذه القوة مملوكة للقوى الظالمة أو أن ما لدى القوى الظالمة هو أكبر مما لدى غيرها، ولهذا فإن اللهاث وراءها لهاث على ما لا يمكن إدراكه وتحصيله، ولكن إدخال الله تعالى في هذه المعادلة سيغيرها بالمطلق، ويحوّل اتجاه الأُمور بطريقة معاكسة لصالح الإنسان الذي يحسن التوكّل على الله ويحسن الثقة والظن به، وهذا بدوره يحرر المرء من كلّ البيئة التي يمكن للشيطان وحزبه أن يصنعوا فيها أجواء الخوف والهلع، فحين يستولي على المرء شأن التفكير بأن الأجل مملوك لله وحده، عندئذ هل سيبقى الموت مخيفاً إنْ تحدّث به الظالم أو خوّفت وأرعدت به منظومة الظلم؟!

وإن كان البلاء الذي يهدد به السلطان القاهر مشخّصاً بأنه من جملة الامتحانات الإلهية، فهل سيكون التهديد به له ذلك التأثير الذي لو خلي الإنسان من مثل هذا الاعتقاد؟!

ولو وطّن الإنسان نفسَه من أن تتعلّق بأي عرض زائل من أُمور الدنيا، فأيّ قوة

---

١ سورة آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥ .

ستستطيع أن تؤثر على هذا الإنسان لو هددته بأن تسلبه ذلك؟!

وأيّ قوة مادية يمكن لها أن تغريه وتجعل لعابه يسيل لما في أيدي هذه القوى لو أنه أفرغ محتواه من أن تكون نفسه ذليلة لحاجة زائلة؟

قد نتعجب في بعض الأحيان من صلابة الأنبياء والأئمة والأولياء في مواجهة الطغيان وسائر أعراض الدنيا، وقد نجد في كثير من المواقف الصلبة التي ورّثها لنا رجالات العقيدة وروادها ما يثري في قلوبنا كثيراً من الحماس والإعجاب بما قدموه، ولكن لو تساءلنا كيف فعلوا ذلك؟ لكان أجدى بنا.

وذك لأن الحدث قد تم، والإعجاب به من دون التعلّم منه لن يعطيه تلك القيمة المتوخاة، ولو بحثنا عن السبب لوجدنا أن تلك النفوس خرجت من إطار ما يمكن للشيطان وأعوانه من الجن والإنس أن يثيروا فيها الرغبة في أمر من أمور الدنيا، أو الخوف من زوال شأن من شؤونها، وهو ما اعترف الشيطان بعجزه عن أن يصل إليهم، وَفقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1]، وما داموا هم كذلك كانت رحلتهم إلى مرضاة الله تعالى في غاية السلاسة، لأنهم حرروا أنفسه من الأغلال فانطبقت قوانين الفيزياء الروحية ـ والقياس مع الفارق طبعاً ـ على حركتهم، فكلّ حركة لا تخضع لأي جاذبية تكون حركة مستمرة ومطّردة؛ فتأمل!

ثالثاً: الفُرقة والوحدة:

يجعل القرآن الكريم مسألة التفرقة الاجتماعية أحد أساليب القوى الظالمة في السيطرة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[2] ولا نحتاج لكثير عناء لكي نكتشف أن تنشيط عوامل الفرقة وبثّ التناحر والصراع بين أفراد المجتمع هي أحد الأساليب المهمة التي تعمد القوى الظالمة لإيجادها؛ لأنها تؤمّن لها امتلاك مواطن القوة بعد إضعاف الآخرين من خلال تفكيك قوتهم وتحويلهم إلى مجاميع أصغر تتناحر بينها، فيما يتم امتصاص دماء المتناحرين وصولاً إلى إخراجهم من ساحة العمل المؤثر والفعّال ضد هذه القوى، وبالتالي الاستفراد بكلّ فريق منهم، وتأمين السيطرة على

---

١ سورة ص: ٨٢ و٨٣ .

٢ سورة القصص: ٤ .

الجميع من خلال ذلك.

ونتيجة للتجربة البشرية المتراكمة غدا المثل السياسي: "فرّق تسد" أحد أشهر المقولات في الثقافة العامة للمجتمع، فضلاً عن ثقافة النخبة في شأن السياسات الظالمة.

وعادة تستخدم هذه القوى نفس الطرق التي استخدمت تاريخياً، وهي في الغالب تعتمد على أُمور متعددة، منها:

أ: خلق أهداف وهمية للمكونات الاجتماعية بطريقة تجعل هذه المكونات تنتخب طريقاً يختلف عن بقية المكونات، وتتطلع إلى ما لا يتطلع إليه الآخرون، فوَفق هذه الأهداف ستتشكل مصالح ومنافع وأمثالها لدى هذه المكونات، وكلّما اختلفت في هذه الأهداف فإنها تكون قد أسست أُولى بوادر التفرقة.

ب: خلق مصالح ومنافع وهمية أمام جماعات معينة تستهدفها هذه القوى سلفاً، لتكون أساساً للصراع ما بين هذه المكونات، ويكون لها ـ في الغالب ـ صورة ظاهرية من المصالح، ولكنها تخفي طابع الفُرقة مع مكونات أُخرى.

ج: خلق عداوات وهمية نتيجة لتلك المصالح الوهمية تارة، أو نتيجة لافتعال حدثٍ ما يمكن له أن يثري مشاعر الخطر أو الكراهية عند مكوّن أو أكثر من المكوّنات الاجتماعية.

د: خلق مُثل وقيم وهمية من شأنها أن تجعل الوعي الاجتماعي مفككاً، نتيجة لحالة التفاوت في قبول أو عدم قبول هذه المُثل أو القيم من قبل أفراد أو مكونات المجتمع المختلفة.

هـ: وتتوخى القوى الظالمة من بعد ذلك إخراج قيادات وهمية للمجتمع تقوده باتجاه التصارع والاحتراب الداخلي لتصفو الأجواء للظلمة، ولتكون قياداته أكثر مقبولية في قبال القيادات المصطنعة.

ومع هذا الحال ستوجد لهم هذه الأوضاع جملة من الشرائح تعدّ أعمدة قوة الظلمة؛ إذ إنّ بعض الشرائح ستحاول استجداء الدعم والقدرة من هؤلاء، فيما تحاول شرائح أُخرى استمالة قوة الظلمة ضد منافسيهم، في وقت تكون شرائح أُخرى في حال تملّق قوى الظلم للحفاظ على مصالح ومنافع ترتبط بها، وبالتالي لنشهد من

خلال ذلك كلّه نشأة أخطر المجاميع التي تهدد الوحدة الاجتماعية، وتكون في العادة هي رأس الحربة في عمل الطغاة، وأعني بذلك شريحة أعوان الظلمة، الذين يسخّرون أنفسهم لخدمة الظلمة، وفي العادة يتجاوزون في ظلمهم ظلم الظلمة أثناء سعيهم لاسترضائهم، وشريحة المنافقين التي ستكون المكرّس الحقيقي لأهداف الظلم في الواقع الاجتماعي، وشريحة المتملّقين التي ستزوّق أعمال الظلمة وتروّج لها أو توجد البيئة القابلة بها، ومن الواضح أن هذه الشرائح وإن كانت متباينة في قناعاتها بشأن الظلم، ولكن أعمالها وواقعها العملي يصب في رافد واحد.

وبشكل طبيعي، فإن هذه القوى ستستخدم شرائح اجتماعية محددة لتثيرها ضد شرائح أُخرى، وهي في الغالب تستفيد من كلّ الأوضاع التي تصلح لتكون مثار توتر بين أفراد المكونات الاجتماعية، كالأوضاع العشائرية والطائفية والعنصرية والقومية والطبقية والحزبية والمناطقية والوطنية وما إلى ذلك، فكلّ منها تمثل بيئة مناسبة جداً فيها القابلية لزراعة أو إثارة أي خلاف ما بين المكونات الاجتماعية[1]، وهي لا تعدم تنمية بيئة منافقة ـ كما أشرنا ـ لكي تنمّي معها كلّ بذور الفُرقة والتشتت الاجتماعي دون أن تكون صورة الظالم بارزة في هذا المجال.

---

١ لو درسنا سلوك الاستعمار البريطاني مع الواقع الإسلامي لوجدنا أنهم كانوا من أخبث المجاميع التي عملت بهذا الاتجاه، فمن جهة أوجدوا أكثر من فرقة حاولوا من خلالها أن يؤسسوا لتشتيت الأُمة الإسلامية، ولهذا لم يكن عملهم محصوراً في إنشاء الحركة الوهّابية في الواقع السُني العربي، والقاديانية في الواقع الإسلامي في الهند، والبهائية في الواقع الشيعي في إيران والعراق.

وبعد الفشل الذريع الذي منيت به فرقة البهائية، والفشل النسبي لمشروع القاديانية، باتت الوهّابية اليوم أحد أعمدة تفرقة الشعوب الإسلامية، والخادمة الوفية لأي مشروع تخريبي ضد هذه الشعوب، ولقد رأينا أفعالها في العراق وأفغانستان والباكستان والجزائر وفلسطين ولبنان، وعلى الرغم من أنها بدأت نشاطها ضد التشيع، ولكن من الواضح الآن أنها تستهدف السُنة والشيعة على حد سواء، ولكن كلّ بحسبه وبحجة مستقلة، وما عادت كما بدأت بيد البريطانيين، إذ يمكن ملاحظة الأيدي الأمريكية والصهيونية في حركتها بوضوح تام.

ومن جهة أخرى كان اتفاقهم مع الفرنسيين على تقسيم البلاد الإسلامية بعد احتلالهم لها في سايكس بيكو وأمثالها مدعاة لزرع الفُرقة وبذر نواة التوتر بين الشعوب.

وإني أجزم بأن السلوك المعادي لشيعة أهل البيت عليهم السلام، قد استخدم ـ وما زال ـ الموضوعَ المهدوي في أكثر من مرحلة زمانية، ولدينا شواهد كثيرة في زمن الطاغية صدّام على ذلك، من خلال طرح البدائل الكاذبة والأفكار الهزيلة، وبغيته في ذلك كثرة التشتيت في الساحة وإشغالها بأعداء وهميين، أو تصوير وإظهار من ليس بعدو في موضع العدو وفي خندقه، ناهيك عن محاولة تسفيه القضية المهدوية نفسها نتيجة لهزالة المواقف الصادرة من الأدعياء ونظرائهم.

ولو خصصنا الحديث عن مجتمع المنتظِرين وطبيعة تحرك القوى الظالمة ضده، فلن نجد الأساليب أكثر مما ذكرنا، غاية ما هنالك أن الظالم قد يستخدم آليات إضافية في تفرقة الصف تعتمد على نفس ما يؤمن به المنتظِرون أو قريباً منه، ولكن هذه المرة يكون فيها التأكيد على العناصر التي تخلق الفتنة من داخل الصف وليس من خارجه.

ولهذا فقد كان الموضوع المهدوي حاضراً في مخططاتهم للنيل من هذا المجتمع، فضلاً عن المواضيع الأُخرى التي تهم المجتمع، كما في مسألة المرجعية على سبيل المثال، التي تم فيها استغلال سذاجة وبساطة وبلادة بعض المؤمنين لكي تُخلق صراعات داخلية باسم المرجعية، فهذا يتبع فلاناً من المراجع، وذاك يتبع غيره، وهو أمر طبيعي جداً وَفق السياقات الشرعية، فالشارع المقدّس حدّد آلية محددة لهذا الاتّباع، ولكن طبيعة أصحاب الأهواء والمطامع والخبثاء الساعون وراء أغراضهم المعادية يستغلون ذلك لينفثوا في الساحة كلّ ما من شأنه أن يفتت جمع هؤلاء الأتباع؛ ولهذا يُجعل من المواد العلمية أو الفقهية التي يختلف فيها الفقهاء فيما بينهم ـ وهو أمر طبيعي في الأجواء العلمية ـ لتكون مادة للخلاف بين الأتباع تمهيداً للإضرار بموقع المرجعية نفسه، فهؤلاء لا يذرفون الدمع على أحد بمقدار ما أنهم يفكرون في كيفية تأمين مصالحهم، ولا شك أن مصالحهم الحقيقية مبنية على أساس ضعف مقام المرجعية[١].

وقد أشار الأئمة صلوات الله عليهم إلى ذلك بوضوح، وتحدّثوا عن نشأة الخلاف بين من يدّعي الانتساب إليهم، ولكن حديثهم (بأبي وأمي) اتّسم بالتمييز بين المتخالفين ولم يقبل بالجميع، فهم صلوات الله عليهم لم يجعلوا الجميع في مقام

---

١ نذكّر بالأجواء التي تزامنت مع إصدار الإمام الراحل السيد محسن الحكيم (قدس سره) لفتواه بشأن طهارة الكتابي، أو موقف الإمام الراحل السيد الخميني (قدس سره) في شأن ولاية الفقيه، أو في ما يتعلق بالصلاة في المدينة الكبيرة، وهكذا، فلقد انشغل الناس في وقتها في صراع لا علاقة لهم به مطلقاً؛ إذ إنّ القضية من المسائل التي لا يحق النقاش فيها إلا للعلماء المتخصصين، وضمن أجوائهم، ولكن دوائر متعددة كانت متحمسة جداً لتشتيت الصف راحت تنفخ في نار الفتنة محاولة تهيئة الجماهير لخذلان المرجعية في المواقف الحاسمة على الصعيد السياسي والاجتماعي، فحين أصدر الإمام الراحل الحكيم موقفه من الشيوعية أو من القتال ضد الأكراد استغلت الأجهزة المعادية تلك الفتاوى لمحاولة تفتيت عضد الدعم الشعبي للإمام الراحل، ونفس الأمر جرى مع مواقف الإمام الخميني في شأن الثورة الإسلامية أو الحرب أو غيرها؛ إذ راحت الأجهزة المعادية تنفخ في نار الفتنة من خلال تلك الأُمور.

واحد، كما يحاول بعضهم أن يجعل ـ حين ينشب مثل هذا الخلاف ـ المتخالفين في صف واحد، وهو خطأ فادح يجب الانتباه إليه، لأنه يسمح للمغرضين والخارجين عن الصف أن ينفذوا للإضرار بساحة المنتظِرين، بينما نجد أن الأئمة عليهم السلام وضعوا هذا الخلاف ضمن دائرة التمحيص، مما يعني أن الحق هو المقصود بقبولهم، حتى إن بعضاً من الروايات جعلت بعض موارد هذا الخلاف مدعاة للخروج من الدين، فلا يعقل أن يكون جميع المتخالفين هم على درجة واحدة من الحق والدين.

لذلك، فإن الموقف الذي يجب أن يتم تبنّيه دوماً في مثل هذه القضايا ـ وما أكثرها ـ هو تمثّل أقرب المواقف من الحق، ولهذا نجد الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: "أما إنكم لن تروا ما تحبون وما تأملون ـ يا معشر الشيعة ـ حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض، وحتى يسمّي بعضكم بعضاً كذابين، وحتى لا يبقى منكم على هذا الأمر إلا كالكحل في العين، أو كالملح في الطعام، وهو أقل الزاد"[١].

وقد روى الشيخ النعماني روايات عديدة ذات الدلالة المهمة في موضوعنا هذا، فقد روى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله: "لا يكون ذلك الأمر حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض، وحتى يلعن بعضكم بعضاً، وحتى يسمّي بعضكم بعضاً كذابين"[٢].

وروى عن عميرة بنت نفيل، عن الإمام الحسين عليه السلام، أنه قال: "لا يكون الأمر الذي تنتظرونه حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويتفل بعضكم في وجوه بعض، ويشهد بعضكم على بعض بالكفر، ويلعن بعضكم بعضاً! فقلت له: ما في ذلك الزمن من خير! فقال الحسين عليه السلام: الخير كلّه في ذلك الزمان، يقوم قائمنا ويدفع ذلك كلّه"[٣].

وروى بإسناده عن مالك بن ضمرة، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: "يا مالك بن ضمرة! كيف أنت إذا اختلفت الشيعة هكذا ـ وشبك أصابعه وأدخل بعضها في بعض ـ؟! فقلت: يا أمير المؤمنين، ما عند ذلك من خير! قال: الخير كلّه عند ذلك يا مالك، عند ذلك يقوم قائمنا فيقدّم سبعين رجلاً يكذبون على الله وعلى رسوله

---

١ غيبة النعماني: ٣٣ .
٢ غيبة النعماني: ٢١٤ ب١٢ ح١٠ .
٣ غيبة النعماني: ٢١٢ ب١٢ ح٩ .

صلى الله عليه وآله فيقتلهم، ثم يجمعهم الله على أمر واحد"[1].

وروى عن أبي جعفر عليه السلام، أنه قال: "لتمحصنّ يا شيعة آل محمد تمحيص الكحل في العين، وإن صاحب العين يدري متى يقع الكحل في عينه، ولا يعلم متى يخرج منها، وكذلك يصبح الرجل على شريعة من أمرنا، ويمسي وقد خرج منها، ويمسي على شريعة من أمرنا، ويصبح وقد خرج منها"[2].

إن مثل هذه الروايات إذ تؤكد وقوع المحذور هنا، وتشير إلى حالة التفتت التي قد تصنعها القوى الظالمة وتتسبب بها عن عمد، وقد يتسبب بوجودها مَن لا علاقة له بها، ولكنه بالنتيجة يؤدي نفس أغراضها، ولهذا كان الحديث عن أن الرجل يكون مؤمناً صباحاً فيغدو مساءً خارج دائرة الإيمان عملياً.

ومن حديثه صلوات الله عليه عن أن الإمام يقتل عدداً من هؤلاء، إنما يؤكد أن ظاهرة الخلاف تنشأ أو تتسبب بما قد يوجب قتل المخالف إن كان ضرره يبلغ الحد الذي يغدو فيه خطراً على الساحة لا يُدرأ إلا بالقتل.

ومن كلّ ذلك نستفيد أن ساحة المنتظِرين عشية الظهور تكون مبتلاة بظاهرتي الاختلاف والخلاف، والمواقف في الساحة متباينة في طبيعة التزامها بشرعتهم صلوات الله عليهم، والتيارات فيما بينهم متماوجة ومتذبذبة في ولاءاتها، ولذلك ترى حالة البراءة واللعن وحالات الإزراء المتبادلة، وهذه الحالات قد يكون اللعن والبراءة حقيقي في بعضها، ومنها ما قد يكون الفهم الاجتماعي دون الشرعي يجعل بعضهم يتبرأ من بعض ويتلاعنون فيما بينهم؛ ولهذا نجد أن الروايات أكدت على تصرفين من قبل الإمام صلوات الله عليه؛ أحدهما ينسجم مع حالة اللعن والبراءة الحقيقية، والآخر ينسجم مع حالات الاختلاف الاجتماعي التي تستدعي الإصلاح والتوفيق بين وجهات النظر.

ولذلك نجد ـ وَفق هذه الروايات ـ أن ظاهرة الاختلاف تنزاح غمتها كلّما توضّحت الأُمور، وتنتهي تماماً حين ظهور الإمام (بأبي وأمي)، فالاختلاف ينشأ ـ في الغالب ـ نتيجة لفهم متعدد للمصالح والمنافع والمفاسد والمساوئ، من دون المساس بالمبادئ الرئيسة، ولعلنا نستفيد ذلك من الرواية الشريفة عن الإمام أبي

---

١ غيبة النعماني: ٢١٤ ب١٢ ح١١ .

٢ غيبة النعماني: ٢١٤ ب١٢ ح١٢ .

جعفر الباقر صلوات الله عليه وهو يصف حال ساحة المنتظِرين عشية الظهور وفي يومه، إذ يقول عليه السلام في حديث طويل: "يدخل المهدي الكوفة وبها ثلاث رايات قد اضطربت بينها، فتصفو له[1]، فيدخل حتى يأتي المنبر ويخطب، ولا يدري الناس ما يقول من البكاء"[2].

أما ظاهرة الخلاف، وهي التي تستبطن عدم الاتفاق على المبدأ الرئيس، أو أن الأساليب المتبعة تؤدي عملياً إلى ذلك على الرغم من الحديث عن الإيمان بالمبدأ الرئيس، ولهذا لا يكون علاج هذه الحالة إلا ما أشير إليه في الراوية آنفة الذكر، التي تتحدث عن أن الإمام صلوات الله عليه يقتل هؤلاء ولا يبقيهم.

وما دام الأمر كذلك، فلا مجال للمؤمنين إلا بالاعتصام بكلّ سبيل من شأنه أن يبقي المؤمنين في دائرة الوحدة تحت الظل الذي يرتضيه الإمام صلوات الله عليه ولا يؤدي به إلى أن يخرج منها مهما كانت الظروف، ولا سيما أنّ المؤمن معرّض للبلاء والافتتان في هذه القضية بالذات.

وباعتبار أن مسألة الوحدة والتفرق ترتبط تارة بالفرد بعنوانه لبنة أساسية من لبنات التكوين الاجتماعي، وأُخرى ترتبط بالجماعة باعتبار أنها هي محور الوحدة والتفرق؛ ولهذا فإنّ الآليات التي يجب أن يتمسك بها المنتظِر لو أراد سبيل النجاة ستكون باتجاهين:

الأول منهما هو ما يتعلق بمحتواه الداخلي، الذي يمثل الحصن الذي إنْ صمد أمام حالات الافتتان فلن يقهره شيء، وإنْ تراخى فإنّ خيارات الخطر كلّها ستكون

---

١ يحتمل بعض الأفاضل أن يكون ضمير قوله: "فتصفو له" عائد للكوفة بمعنى أن يتم حسم الخلاف فيها حتى لو تم محق بعضها إن كانت مضرّة بعمل الإمام صلوات الله عليه، ولوقلنا بأن الضمير يعود إلى الرايات، والتي ستحسم الفرقة بينها بالتسليم للإمام صلوات الله عليه مما يؤدي إلى صفو الكوفة، وأيا كان الحال فإن صفو حال المؤمنين في تسليمهم وإنقيادهم للإمام (بابي وأمي) هو الذي سيتحقق وما حالة البكاء التي تسيطر على المؤمنين آنذاك المشار إليها في الروابة إلا دليلاً على ذلك، وكيف لا؟ وهم يرون أن أحلامهم قد تحققت، وأن شوقهم قد أبلغهم الوصل الذي كانوا يتمنون. على ان الصفاء المشار اليه لا يعني بالضرورة انقياد الرايات الثلاثة الى الإمام صلوات الله عليه فقد يعمد بعضها الى المشاكسة والمشاغبة مع نفس الإمام صلوات الله عليه مما يدفعه الى التخلص منهم، واغلب الظن ان من يشار لهم بالبترية ومن يلتحقون بالشيصباني هم أحد هذه الرايات والله أعلم.

٢ غيبة الطوسي: ٤٦٨ - ٤٦٩ ح٤٨٥ .

مفتوحة أمامه، وعليه فإنّ كلّ مسرب من المسارب التي تجعل المصلحة والمنفعة متقدمة على الثوابت، ويجعلها هي الهدف الذي يبتغيه، يجب أن يتخلص منه ويتحرر منه؛ إذ لا يؤتى المؤمن حينما يؤتى إلا من خلال هذا النمط من التفكير؛ لأن المصلحة ستكون هي الإله الذي يعبد، وبالتالي فإنّ الهوى هو الذي سيكون الحاكم، وقوى الظلم قادرة تماماً على الإغواء أو التهديد حينما يكون الهوى هو الحاكم، ولكن لو خذل الهوى فإنّ مواطن قوة الظلم ستضمحل بالتدريج.

هذا، ناهيك عن العامل الموضوعي الذي يجعل القوى الظالمة أقدر على الإمساك بآليات المصالح والمنافع لو جرّدت من الثوابت القيمية والفكرية، وكلّ ذلك لا يعني أن يتخلى الإنسان المنتظِر من حساب المصالح والمنافع بالمطلق، وإنما يجب أن يتم ذلك في إطار تلك الثوابت والقيم، لا قبلها ولا بعدها.

أمّا **الثاني** فهو ما يتعلق بقيادة الجماعة وكيفية تأمين وحدتها وبما يرتبط بطبيعة قيادتها، فالوحدة لا يمكن أن يتم تأمينها إلا من خلال قيادة راعية وساهرة على ذلك، ولا يمكن الاكتفاء بالأفكار والقواعد العامة؛ إذ من الواضح أن الناس لا تختلف في إطار القواعد العامة والخطوط العريضة، ولكنها تختلف من خلال النوافذ التفصيلية التي قد تبدأ صغيرة ثم تتعمق لتغدو وكأنها متجذرة، وحكاية كلّ التاريخ تحكي نفس هذه القضية، فالناس لم تختلف في ضرورة وجود إله يُعبد، ولكن اختلفت في تفاصيل صفات الإله، وقد انجر من بعد هذا الاختلاف بقيةُ الاختلافات، وقد كانت عملية إرسال الأنبياء والتنصيص على الأئمة لحفظ مسار الناس ضمن خط الثوابت والقيم.

ولهذا، فإنّ المؤمن غير مختار في انتخاب القيادة التي يريد، وإنما عليه أن يستجيب للإطار القيادي الذي أوجب الإمامُ المنتظَر عجل الله فرجه عليه أن يلتزم به، وأعني بذلك الفقهاء العاملين بمنهج أهل البيت صلوات الله عليهم، وهم من نصطلح عليهم بالمراجع العظام، وَفق الآليات التي تم اعتمادها في الرجوع إليهم، وهذا هو المستفاد من التوقيع الذي خرج من الإمام المنتظَر عجل الله فرجه إلى السفير الثاني الشيخ محمد بن عثمان العمري جواباً عن أسئلة إسحاق ابن يعقوب، فقال: "وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله عليهم"[1].

---

١ غيبة الشيخ الطوسي: ٢٩١ ح٢٤٧، وكمال الدين وتمام النعمة: ٤٨٣ ب٤٥ ح٤ والمقصود بالأُمور الواقعة هي الحوادث المستجدة التي تقع في المجتمع بشكل لا يألف فيها الإنسان حكماً شرعياً يعرفه.

وكلّ أمر خلاف ذلك، كالقيادات الحزبية أو العشائرية، أو أي نمط من أنماط القيادة، مهما كانت شعاراتها وأعمالها، فإنها تبقى بحاجة إلى تزكية وقبول من المرجعية، وإلا فلا يمكن اتّباعها من الناحية الشرعية؛ لعدم وجود غطاء شرعي لها، ولا سيما أنها هي نفسها من مصاديق التفرقة والتشتت الاجتماعي.

ولعل في معتبرة عمر بن حنظلة ما يوضح الأمر بشكل أدق، ففي رواية طويلة قال: "سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة، أيحل ذلك؟

قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً، وإن كان حقاً ثابتاً له، لأنه أخذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يكفر به، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [1].

قلت: فكيف يصنعان؟

قال: ينظران إلى من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه، فإنما استخف بحكم الله وعلينا ردّ، والرادّ علينا الرادّ على الله، وهو على حد الشرك بالله.

قلت: فإن كان كلّ رجل اختار رجلاً من أصحابنا فرضيا أن يكونا الناظرَين في حقهما، واختلفا في ما حكما، وكلاهما اختلفا في حديثكم؟

قال: الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما وأصدقهما في الحديث وأورعهما، ولا يلتفت إلى ما يحكم به الآخر[2].

قال: قلت: فإنهما عدلان مرضيان عند أصحابنا، لا يفضل واحد منهما على الآخر؟

قال: فقال: ينظر إلى ما كان مِن روايتهم عنا في ذلك الذي حكما به المجمع عليه من أصحابك فيؤخذ به من حكمنا، ويترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك، فإن المجمع عليه لا ريب فيه.

---

١ سورة النساء: ٦٠.

٢ ولذلك يأتي التأكيد على الأعلم والأورع من الفقهاء.

وإنما الأُمور ثلاثة: أمر بيِّن رشده فيتّبع، وأمر بيِّن غيّه فيجتنب، وأمر مُشكلٌ يردّ علمه إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بين ذلك، فمن ترك الشبهات نجا من المحرّمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرّمات، وهلك من حيث لا يعلم"[1].

وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

ولو أراد المنتظِر المواجهة، فعلاوة على ما مرّ يجب عليه كذلك أن يفتش عن مواضع الوحدة الاجتماعية ـ وهي مختلفة من مكان إلى آخر ـ فيعمل على تقويتها، ويقف في مواجهة كلّ أشكال التفرّق التي تريدها القوى الظالمة، ليضعفها أو يعدم وجودها، وهنا يجب التفرقة بين أمرين عادة ما يبتلى بهما المنتظِر:

أولهما: هناك من يثير عوامل التفرقة الاجتماعية بسبب مصالح شخصية أو حزبية، بوعي ومن غيره، ولكن هذه المصالح ليست من النوع الذي يمسّ جوهر المعتقد ولا بأُسسه، والخيار هنا يتراوح بين وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق المباني الشرعية المحددة لذلك، وبين ما عبّر عنه الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه في شأن إفرازات ما بعد قتل عمر بن الخطّاب وخديعة بيعة عثمان ابن عفان، وموقفه (بأبي وأمي) منها، فقال: "لقد علمتم أني أحقّ الناس بها من غيري، ووالله لأُسلّمنّ ما سلمت أُمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عليَّ خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً في ما تنافستموه من زخرفه وزبرجه"[2].

وثانيهما: إن هذه التفرقة تتم للإضرار بالعقيدة، عندئذ يكون الخيار ما بين التقية إنْ كان الضعف وعدم المكنة هو الواقع الحاكم على المنتظِر، وبين ما يرويه الإمام الصادق عليه السلام عن جده رسول الله صلوات الله عليه وآله: "إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبّهم والقول فيهم والوقيعة، وباهتوهم، كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس، ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات، ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة"[3].

---

١ الكافي ١: ٦٨ ب ح١٠ .

٢ نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه: ٦١ خ٧٤ .

٣ الكافي ٢: ٣٧٥ ب١٦٣ ح٤ .

رابعاً: التضليل والبصيرة:

من المؤكد أن كشف واقع الظلَمة للقواعد الشعبية التي تعيش في ساحتهم سيجعل زوالهم ميسّراً إلى حد بعيد؛ لأنهم لن يتمكنوا وقتئذٍ من الاحتماء بجمهور الناس الّذين يمثّلون في كثير من الأحيان الماء الذي تتحرك فيه كواسرهم، وهذا الأمر مثل ما يعيه المنتظِر ويدركه جيداً، فإنّ الظلَمة تدركه كذلك جيداً، فهم يعرفون أكثر من غيرهم أن واقع ظُلمهم مبني على أساس هش وواهن.

فعلى سبيل المثال، يروي ابن الأثير الجزري عن عمر بن عبد العزيز الأُموي قوله: كان أبي إذا خطب فنال من علي (رضي الله عنه) تلجلج، فقلت: يا أبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذِكر علي عرفتُ منك تقصيراً! قال: أوَفطنتَ لذلك؟! قلت: نعم؛ فقال: يا بني! إنّ الّذين مِن حولنا لو يعلمون مِن علي ما نعلم، تفرّقوا عنا إلى أولاده[١].

ولذلك، فإنه لا مجال لدى الظلَمة إلا أن يعمدوا إلى إخفاء صورتهم الحقيقية المنطوية على ظلمهم وخداعهم، وكذا إخفاء صورة أعدائهم ومخالفيهم المنطوية على عدالتهم وفضلهم ومناقبيتهم، ويبرّزوا الصور التي تعكس جمالاً لهم بهدف تضليل الناس، وقبحاً هو الآخر مضلّلاً لأعدائهم ومناوئيهم، وذلك من خلال كلّ الوسائل والسبل اللازمة لتحقيق ذلك حتى لو كانت مجانفة لأبسط الحقائق وأكثر الأُمور بداهة.

ويمكن لنا أن نستعير من سيرة معاوية (لعنه الله) بعنوانه أحد المصاديق الكبرى للظلَمة، ما يصوّر لنا هذه الحالة بشكل أوضح، فلقد استخدم هذا الأُسلوب بشكل واسع حتى غدت أبسط الحقائق معمّاة إلى حد كبير، ولك أن تعي حقيقة ما نجم عن هذه السياسة من خلال ما يجعل شخص كعمر بن عبد العزيز يسأل شيخه ومعلّمه عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عما إذا كان علياً من أهل بدر!!

يقول عمر بن عبد العزيز: كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض وُلد عتبة بن مسعود، فمر بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعن علياً!! فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وِرْدِي[٢]، فلمّا رآني قام فصلى وأطال في

١ الكامل في التاريخ ٤: ١٥٤ .

٢ الوِرْد: الجزء من القرآن.

الصلاة ـ شبه المعرِض عني ـ حتى أحسست منه بذلك، فلما انفتل من صلاته[1] كلح في وجهي[2]، فقلت له: ما بال الشيخ؟! فقال لي: يا بني أنت اللاعن علياً منذ اليوم؟! قلت: نعم؛ قال: فمتى علمتَ أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم؟! فقلت: يا أبت وهل كان عليٌّ من أهل بدر؟! فقال: ويحك ! وهل كانت بدر كلّها إلا له؟! فقلت: لا أعود؛ فقال: والله إنك لا تعود؟! قلت: نعم؛ فلم ألعنه بعدها[3].

وبنفس الدلالة يذكر ابنُ أبي الحديد بأن التعتيم الإعلامي والفكري والخداع المضاد كان قد بلغ موضعاً مهولاً؛ إذ يروي أنه: لـمّا استوثق الأمر لأبي العباس السفّاح، وفد إليه عشرة من أُمراء الشام، فحلفوا له بالله، وبطلاق نسائهم، وبأيمان البيعة، بأنهم لا يعلمون ـ إلى أن قتل مروان ـ أنّ لرسول الله صلى الله عليه وآله أهلاً ولا قرابة إلا بني أُمية.

قال: وروى أبو الحسن المدائني[4]، قال: حدثني رجل، قال: كنت بالشام، فجعلت لا أسمع أحدا يسمي أحداً أو يناديه: يا علي أو يا حسن أو يا حسين، وإنما أسمع: معاوية والوليد ويزيد، حتى مررت برجل فاستسقيته ماء، فجعل ينادي: يا علي، يا حسن، يا حسين؛، فقلت: يا هذا! إن أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء! قال: صدقت، إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء، فإذا لعن أحدهم ولده أو شتمه فقد لعن اسم بعض الخلفاء، وأنا سميت أولادي بأسماء أعداء الله، فإذا شتمت أحدهم أو لعنته فإنما ألعن أعداء الله[5]!!

ويروي سُليم بن قيس الهلالي[6] كيف كانت سياسة معاوية في التضليل والتعمية

---

١ أي انصرف عنها.

٢ كلَح في وجهه أي كشّر له عابساً.

٣ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ٤: ٥٨ – ٥٩، والحادثة مشهورة، وقد رواها مؤرّخو القوم بطرق مختلفة؛ انظر على سبيل المثال: تاريخ مدينة دمشق ٤٥: ١٣٦، وسير أعلام النبلاء ٥: ١١٧، وتاريخ الإسلام. وكليهما للحافظ الذهبي. ٧: ١٨٨، والوافي بالوفيات ٢٢: ٣١٢، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٩: ٢١٨، وكذا صاحب السيرة الحلبية ٢: ٤٧٠، وغيرهم.

٤ ينقل ذلك في كتابه الأحداث.

٥ شرح نهج البلاغة ٧: ١٥٩ .

٦ سُليم بن قيس الهلالي العامري، من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وبقي معمّراً حتى عهد الإمام الباقر عليه السلام؛ إذ توفي عام ٧٦، وكتابه يُعدّ أحد أقدم وأهم المدوّنات إن لم يك أولها في الموضوع الذي تطرق إليه، وقد ولد قبل الهجرة بسنتين ولكنه ورد إلى المدينة في عهد

على الحقائق وتقديم الأباطيل للمجتمع، قال: كتب معاوية إلى قضاته وولاته في جميع الأرضين والأمصار: أن لا تجيزوا لأحد من شيعة علي بن أبي طالب، ولا من أهل بيته، ولا من أهل ولايته الّذين يرون فضله ويتحدثون بمناقبه، شهادةً.

وهذه الوسيلة التي من شأنها أن تحدَّ من إيصال الحقيقة إلى الناس بطريقة فعالة، فعامة الناس منقادون إلى الحكم - أيّ حكم - ورجالاته، وبالتالي فإنّ عدم إفساح المجال لنمط من الناس لكي يشهد أو يُستشهَد بقضية معينة في تلك الظروف يؤدي إلى انحسار تدريجي من الواقع الاجتماعي العام، ولا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار ما يعني عدم قبول شهادة الشيعة في ذلك الواقع الذي كان يولي هذا الأمر أهميته الخاصة، ولا سيما في جانب التوثيق الاجتماعي والتقييم الأخلاقي، ولم يك واضحاً لعامة الناس - لا لخاصتهم - خصوصيات المعارضة للحكم الأُموي ولا خصوصيات هذا الحكم.

ولكن هذه الوسيلة لم يجدها معاوية (لعنه الله) كافية، فتممها بسياسة أُخرى، فلقد وضع إلى جنبها سياسة تلميع صورة حزبه بعد أن منع الطرف الآخر من التحدث عن صورة أمير المؤمنين صلوات الله عليه ولا مناقبه، فكتب إلى عماله: انظروا مَن قِبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل بيته وأهل ولايته والّذين يرون فضله ويتحدثون بمناقبه، فأدنوا مجالسهم وأكرموهم وقرّبوهم وشرّفوهم، واكتبوا إلي بكلّ ما يروي كلّ رجل منهم فيه واسم الرجل واسم أبيه وممن هو .

قال سُليم: ففعلوا ذلك حتى أكثروا في عثمان الحديث، وبعث إليهم بالصلات والكسي وأكثر لهم القطائع من العرب والموالي؛ فكثروا في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل والضياع، واتسعت عليهم الدنيا، فلم يكن أحد يأتي عامل مصر من الأمصار ولا قرية فيروي في عثمان منقبة أو يذكر له فضيلة إلا كتب اسمه وقرب وشفع؛ فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ومن الواضح هنا أن هذا النمط من السلوك لا يعطي لجانب من الناس أثرة اجتماعية وسياسية فقط، وإنما يؤدي إلى انتشار الكذابين ويسوّغ لهم وضع الحديث، إما لصالح عثمان وبالنتيجة لصالح معاوية، وإما مناهضة لعليّ صلوات الله عليه، وبالفعل فلقد كان لهذه الفترة أشد الأثر في الكذب على رسول الله (بأبي وأمي) في

عمر بن الخطّاب، وعاصر كلّ الفترات اللاحقة قريباً من أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وهاجر معه من المدينة، واشترك في حروبه كلّها، وكان من شرطة الخميس.

وقت كان تدوين سُنة رسول الله صلوات الله عليه وآله ممنوعاً، وما بين التعتيم على الحق وبين نشر الباطل امتلأت الآفاق بالأحاديث المكذوبة، وليس بأدل على ذلك من أن ترى أربع سمات عامة في حقل الفضائل والمناقب وسمة في حقل المثالب.

أمّا في المناقب، فإنك ترى أن ترتيب أسماء من تعاقبوا على الحكم من بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله يأتي دوما تراتبياً، فالفضل دوماً للأول ثم الثاني ثم الثالث، ويأتي علي - إن جاء ذِكره - رابعاً!

والسمة الثانية هي أنّ من يروي مناقب الثلاثة هو علي صلوات الله عليه، أو أحد أنصاره وشيعته!

والثالثة أنّ غالبية هذه الروايات جرى ذِكر الثلاثة فيها دون أيّ ذِكر لأمير المؤمنين عليه السلام!

أمّا الرابعة، فلقد وضعوا في قبال كلّ فضيلة لأمير المؤمنين ما يوازيها لغيره، أو أولاها لغيره، وهذا هو مفاد ما يشير إليه سُليم بن قيس من سياسة معاوية، قال: ثم كتب بعد ذلك إلى عماله: أن الحديث قد كثر في عثمان، وفشا في كلّ قرية ومصر ومن كلّ ناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في أبي بكر وعمر، فإنّ فضلهما وسوابقهما أحب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة أهل هذا البيت، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضائله؛ فقرأ كلّ قاض وأمير من ولاته كتابه على الناس، وأخذ الناس في الروايات في أبي بكر وعمر وفي مناقبهم[١].

أمّا في المثالب، فقد جرى التحديث بمثالب أمير المؤمنين (بأبي وأمي) حتى ملأوا بها الطوامير وسارت بها الركبان، وكلّ ذلك وسط حرص كبير على تعميم هذه المزويات على الرأي العام بكثافة، فبعد أن أنتج مطبخهم الأكاذيب المطلوبة أمرهم بجمعها، ثم تم تعميمها على كلّ الولايات والقصبات مع أمر مشدد منه بأن يتم تعليم هذه المرويات للصغار والكبار والنساء والرجال؛ يقول سُليم بن قيس: وأمرهم بقراءتها على المنابر وفي كلّ كورة وفي كلّ مسجد، وأمرهم أن ينفذوا إلى معلّمي الكتاتيب أن يعلّموها صبيانهم حتى يرووها ويتعلموها كما يتعلمون القرآن، وحتى علموها بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم[٢].

---

١ كتاب سُليم بن قيس: ٣١٧ - ٣١٨ .

٢ كتاب سُليم بن قيس: ٣١٨ .

هذا نموذج من نماذج عمل القوى الظالمة لإخفاء الحق وتعظيم الباطل، ولا شك أنها تختلف شكلياً من ظالم لآخر وَفقاً لظروفه وأوضاعه الاجتماعية والسياسية وإمكاناته وقوته، ولكن النموذج الأُموي يقدّم لنا صورة عملية وواقعية أيضاً، فيما يمكن للظلَمة أن يفعلوه في تعاملهم مع الحقيقة وأساليب الخداع، فهم مع الأُولى في أشد الحرص في تنفيذ سياسات التحجيم والتقزيم والتعتيم، وفي الثانية في أشد السعي للمضي بسياسات التعظيم والتبجيل والتضخيم وما إلى ذلك مما يألفه كلّ امرئ يراقب جانباً من جوانب عمل الظالمين وأساليبهم في إخفاء الحقيقة وإلباس الباطل لباس الحق.

ولعل من المناسب أن أثير هذا التساؤل بين يدي قارئي الكريم: تُرى لماذا يكره المسلمون هتلر؟ ولا يكرهون تشرشل وترومان وديغول وروزفلت وأيزنهاور ونابليون وستالين ولينين كما يكرهون هتلر؟! ربما قد يقال: إن هتلر ارتكب مجازر عالمية، ولكن هل أن أُولئك لم يرتكبوا ذلك؟! أتساءلَ المسلم يوماً لماذا لا يعتمل في قلبه هذا الشعور من النازية، ولا يعتمل بمقداره من الصهيونية أو الماسونية؟!

لا أمتلك الوقت الكافي للتنقيب عن حقيقة الهولوكوست[١] اليهودي في ألمانيا وما روي عن جرائم بحق اليهود هناك أو عدمها، ولكن هل كان الانتقام اليهودي خلياً من جرائم مهولة بحق غيرهم، فكم وكم من الهولوكوست المسلم الذي اصطنعه الصهاينة والفرنسيون والبريطانيون والأمريكيون والإيطاليون فضلاً عن الصهاينة؟!

فلماذا تحتفظ ذاكرتنا بالهولوكوست النازي لليهود، ولا تكاد تتذكر إلا بخجل وفتور ـ هذا إن تذكرت ـ الجرائم التي ارتكبت بحق المسلمين، بل وغير المسلمين على أيدي هؤلاء، مما جرى في كمبوديا وفيتنام وكوريا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية؟!

لو أردنا مصالحنا الخاصة، لوجدنا أن هتلر ـ على سبيل المثال ـ لم يضرّ بها كثيراً كما أضرّ مَن ذكرنا من أسماء، غاية ما هنالك أن هتلر انهزم، وعلى العالم أن يكحل عينه بالمنتصرين الجدد الّذين حرص الإعلام وطرق التضليل أن تبعد عن الأنظار الجرائم التي ارتكبوها، وإلا من هو أكثر إيذاءً للعالم الإسلامي من البريطانيين

---

١ الهولوكوست (Holocaust) مصطلح يوناني الأصل والتي تعني احراق القرابين من أجل الله، وقد استخدمت كمصطلح حديث للدلالة على ما قيل بأنه مذابح ألمانية بحق اليهود، والتحقيقات المعاصرة أثبتت انها كانت كذبة كبيرة من قبل اليهود استغلها البريطانيون والفرنسيون لاحقاً لإنشاء دويلة الصهاينة في فلسطين الاسلامية عام ١٩٤٨ .

والفرنسيين والصهاينة فضلاً عن الأمريكيين؟! ومن فتّت هذا العالم واستحقره وأذلّه؟!

ولو جرّبت وسألت: بماذا أضرّت ألمانيا العالمَ الإسلامي؟ فإنك لا تكاد تعثر على شيء كثير من ذلك يفوق غيرها!

إذن عُد وتساءل: لماذا ثقافتنا العامة مشحونة ضد مَن لم يضرنا كثيراً؟ في حين أنها مداهنة أو مسالمة أو متحالفة مع من ألحقوا بنا أكبر الأضرار وأفدحها وأكثرها تأثيراً على مستقبلنا فضلاً عن واقعنا المعاصر في رُزئه وإزرائه!!

وأنا لا أدعو قطعاً إلى محبة هتلر، فهو مجرم باستحقاق، ولكنه ليس أكثر إجراماً من آخرين قد نحتفظ لهم بود كبير، وقد ننظر إليهم بإعجاب.

وثمة حالة أقرب من ذلك في واقع المنتظِرين، فأمامنا صورتين:

واحدة لمذابح الشيعة في حلب وحماة وحمص في سوريا، التي ناهز قتلاهم الثمانين ألفاً في أيام قليلة وكذا المذبحة التي ارتكبت في القاهرة، والتي ناهز قتلى الشيعة فيها في يوم واحد قرابة الخمسين ألفاً على يد صلاح الدين الأيوبي..

أو تلك المذابح التي افتعلها سليم الأول العثماني، التي راح ضحيتها عشرات الآلاف في العراق وتركيا، والتي يكاد الناس لا يعرفون عنها شيئاً، ولكن مع ذلك يقدّم سليم الأول بعنوانه العادل الأكبر وولي أمر المسلمين وحامي حمى الإسلام، أما الأيوبي فحدّث ولا حرج في طبيعة ما يخلعون عليه من الألقاب التمجيدية من دون أي مرور أو توقف أو تأسف لما ارتكبه من إراقة دماء المسلمين.

وفي قبال ذلك صورة الوزير ابن العلقمي في بغداد بعد دخول المغول إلى بغداد، الذي كان لحكمته أن أنهى مذابح المغول، بل عملَ هو والعلم المتكلم والفيلسوف الشيعي الكبير نصير الدين الطوسي على أن يُسلم أولاد تيمورلنك وهولاكو، ويحوّل مسيرة المغول من البربرية إلى الإسلام، ولكن مع ذلك يُنعت ابن العلقمي بكلّ أوصاف الخيانة والغدر، مع أن له الفضل الأكبر في نجاة علماء السُنة ببغداد.

والتهمة الظاهرة أنه تعامل مع عدوّ، مع أن علماءهم وقادتهم يتعاملون في كلّ يوم مع أخس أعداء الإسلام من الصهاينة والمستكبرين! أما التهمة الباطنة التي لا يتوقف عندها أي استغفار فلأنه من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام!

كلّ ذلك أوردته لكي يعي أخي المنتظِر أنه هو المستهدف في عملية خداع كبرى جرت وما زالت، ويجد فصولها في كلّ ما يطالعه في وسائل الاتصال الجمعي وغيره، وفي كلّ أنماط التثقيف.

وفي كلّ الأحوال نجد أن الوضع الذي يجابَه بِه المؤمن هو غزو فكري واستهداف نفسي ومعنوي له ولمحيطه الخاص والعام[1]، وهذا الاستهداف سيبقى ما دامت المعركة بين الحق والباطل، وهو أخطر بكثير من الأسلحة المباشرة، فالسلاح المباشر مرئي، وحامله هو الآخر مرئي ومعروف، ولذلك يبقى الناس منه في حذر مستمر، ولكن المشكلة في آليات الحرب النفسية والغزو الفكري، فإن أيديها غير معروفة الهوية مِن قِبل مَن تستهدفهم.

فلقد احتاجت الطبقة المثقفة والواعية إلى وقت طويل لكي تتنبّه إلى كتابات أمثال ساطع الحصري وقسطنطين زريق وشبلي شميل وقاسم أمين وفرح انطون وعلي عبد الرازق وزكي الأرسوزي وميشيل عفلق وطه حسين وزكي نجيب محمود وعبد الرحمن بدوي وتوفيق الحكيم وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ ويوسف السباعي، وأمثال هؤلاء، و مئات ممن لحق بهم بعد ذلك، بل ربما آلاف من المؤلفين والكُتّاب، وطابور كبير من كُتّاب السيناريو السينمائي والإذاعي والتلفزيوني، وطابور أكبر من المغنين والمغنيات والفنانين وأمثالهم، بعنوان أدوات وبيادق ـ بشعور أو من دونه ـ في هذه العملية.

لقد كان ملمس ما سطروه بأقلامهم ونفثوه بكلامهم أنعم من أن يُحس بوخزه، في

١ أنصح القارئ الكريم أن يراجع المؤلفات التي كتبت عن الغزو الفكري، ويحاول أن يستفيد من الأساليب والآليات التي أشار إليها بعض الباحثين، ككتاب "أساليب الغزو الفكري" للدكتور علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، وكتابَي "الغزو الفكري" و "دخلت الخيول الأزهر" لمحمد جلال كشك، وكذا كتاب "التبشير والاستعمار" لمصطفى خالدي وعمر فروخ، وكتابَي "حصوننا مهددة من الداخل" و "الروحية الحديثة" وكلاهما للدكتور محمد محمد حسين، وكذا كتابات الأُستاذين محمد قطب وأنور الجندي، وغيرهم ممن اضطلعوا بمهمة كشف العدوان على الإسلام من قبل القوى العلمانية، وكذا كتاب "الحرب النفسية" لصلاح نصر.

وينبغي ملاحظة أن بعضاً مما قد يشيرون إليه من أمثلة كان من بنات واقع تلك الأيام، ولكني أحسب أن غالبية الخطوط العامة للآليات والتكتيكات المتحكمة في ذلك ما زالت كما هي في الأمس البعيد والقريب، ولهذا يستطيع المنتظِرون أن يتخذوها سبيلاً للتعرف من خلالها على ما يجري اليوم في لعبة هذا الغزو اللعين، مع إبدال المصاديق والأمثلة بما يتلاءم وما يعايشونه اليوم.

وقت كانوا ينخرون بالعقول والقلوب بوخز أكثر ألماً من السيوف المرهفة، مع رضاً كبير لدى مَن ينخرون عقولهم وقلوبهم؛ لأنهم يلحظون أناملهم وقد علتها القفازات المخملية الموشّحة بالكلمات المنمّقة والشعارات المزوّقة[1]، مما أوجدوا حالة ما يسميه مالك بن نبي بالقابلية على الاستعمار![2]، وهذه القابلية لا تعني بالضرورة القبول بدبابة المستعمر وطائراته وقواعده، ولكنها تستقبل أفكاره وحضارته وقيمه الاجتماعية والأخلاقية بكلّ حفاوة ورحابة صدر!! في عين الوقت الذي قد تحمل فيه البندقية لتقاتله!!

وكم كان سيد قطب دقيقاً في التفاتته حينما هنؤوه بجلاء الإنجليز من مصر وَفق اتفاقية الجلاء المعروفة، فقال: لقد وقّعت الاتفاقية لإخراج الانجليز الحمر، وهؤلاء خطرهم محدود، ولكن المهم هو أن يخرج من مصر الإنجليز السمر[3]؛ ويعني بذلك المصريين الّذين تلقفوا ثقافة الاستعمار وأفكاره وقيمه.

ولهذا، لا مندوحة أمام المنتظِرين في أن يؤمّنوا أنفسهم بكثير من إمكانات الوعي لكي يتمكنوا من تجنب مخاطر الوقوع في براثن القوى الظالمة الناعمة، فضلاً عن غيرها، ولا سيما أن أساليب الخداع تتسلح اليوم، وفي كلّ يوم قادم، بأسلحة جديدة وإمكانات هائلة، وكلّها ترمي إلى سلب هذا الوعي.

ولعل الرواية الشريفة التي تتحدث عن الصيحة وما سيعقبها تدلّنا على طبيعة هذا المسعى؛ إذ ينقل لنا أبو بصير، عن الإمام الباقر عليه السلام قوله ضمن حديث طويل: "الصيحة لا تكون إلا في شهر رمضان؛ لأن شهر رمضان شهر الله، والصيحة فيه هي صيحة جبرئيل إلى هذا الخلق..

ثم قال: ينادي مناد من السماء باسم القائم عليه السلام، فيسمع من بالمشرق ومن بالمغرب، لا يبقى راقد إلا استيقظ، ولا قائم إلا قعد، ولا قاعد إلا قام على رجليه، فزعاً من ذلك الصوت، فرحم الله من اعتبر بذلك الصوت فأجاب، فإن الصوت الأول هو صوت جبرئيل الروح الأمين عليه السلام..

---

١ في بحثنا الذي نعمل على إكماله حالياً عن الإسلام وقضايا العلمانية، فقد فصّلنا الحديث عن هذه الجهود، وشخّصنا مكامن الخطر وأساليب التوغل والاختراق التي تمكنوا من خلالها من تحطيم وعي النخبة العربية والإسلامية لاحقاً.

٢ شروط النهضة: ١٥٤ - ١٥٥؛ لمالك بن نبي، دار الفكر - دمشق ١٩٨٦ .

٣ الغزو الفكري أهدافه ووسائله: ٨؛ للدكتور عبد الصبور شاهين.

ثم قال: يكون الصوت في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين، فلا تشكوا في ذلك، واسمعوا وأطيعوا، وفي آخر النهار صوت الملعون إبليس اللعين، ينادي: ألا إنّ فلاناً قتل مظلوماً؛ ليشكّك الناس ويفتنهم، فكم في ذلك اليوم من شاكّ متحير قد هوى في النار!

ثم قال: لا بُدّ من هذين الصوتين قبل خروج القائم عليه السلام؛ صوت من السماء، وهو صوت جبرئيل باسم صاحب هذا الأمر واسم ابيه، والصوت الثاني من الأرض، هو صوت إبليس ينادي باسم فلان أنه قتل مظلوماً، يريد بذلك الفتنة، فاتّبعوا الصوت الأول وإياكم والأخير أن تفتنوا به"[١].

وتعضد هذه الرواية صحيحة زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: "ينادي مناد باسم القائم عليه السلام؛ قلت: خاص أو عام؟ قال: عام، يسمع كلّ قوم بلسانهم؛ فقلت: فمن يخالف القائم عليه السلام وقد نودي باسمه؟! قال: لا يدعهم إبليس حتى ينادي في آخر الليل ويشكّك الناس"[٢].

ولا شك أنّ المعركة هنا شرسة جداً، وهي تتعاظم يوماً من بعد آخر، ولعل ذلك ما يعطينا فهماً أصح للروايات العديدة التي تشير إلى حالة الاضطراب، بل الانحراف العقائدي، وتعاظمهما كلّما اقتربنا من زمن الظهور الشريف.

وما لا شك فيه ـ أيضاً ـ أن القسط الأكبر من هذه الهجمة ستقع أعباؤه على المنتظِرين، فهم صفوة الناس ونخبتهم، وأعداؤهم يعرفون جيداً أن الخطر القادم يكمن في ما ينتظرونه، وهم يعملون بجهد حثيث لمضاعفة وعي أنصارهم بما سيمكن للخطر القادم أن يفعله بهم، ولعل مسعاهم للتركيز على رؤيا حزقيل[٣] في ما يتعلق بموقعة هرمجدون، الذي نلاحظ تناميه الكبير في الأفلام والأدبيات والثقافة الأمريكية[٤] يدخل ضمن إطار التحشيد الذي تحدّثنا عنه.

---

١ غيبة النعماني: ٢٦٢ - ٢٦٣ ب١٤ ح١٢ .

٢ كمال الدين وتمام النعمة: ٦٥١ ب٥٧ ح٨ .

٣ الكتاب المقدّس: العهد القديم، سفر حزقيال، الفقرات: ٣٨ - ٣٩ ص١٨٣٢ - ١٨٣٩ .

٤ سلطت الكاتبة الأمريكية كريس هاليسل الضوء على هذا الجهد من خلال كتابيها "النبوءة والسياسة" و "يد الله" وكلاهما من ترجمة الدكتور محمد السمّاك، وكشفت كثيراً من الأسرار في هذا المجال، وهما مفيدان جداً لمعرفة آفاق من الرعب المهدوي القادم.

وبناء على كلّ ذلك، فإن الجماعة المنتظِرة مدعوّة لزيادة بصيرتها؛ لأن الأحداث حينما تهجم على الإنسان تفقده كثيراً من القدرة على تشخيص الموقف المطلوب، ولا مجال له إلا ما يختزنه من بصيرة في قلبه تمكّنه من أن يرى النور في عوالم الظلْمة، والحديث عن البصيرة يحتاج إلى حيز لا يتسع له هذا الكتاب، ولكن لا غنى لنا من الإطلالة السريعة عليه، ولا تُدرك البصيرة من خلال علم يدرّس في الكتب، بل هي عملية سلوكية وتحصيلية في العالم المعنوي تساعد على وجودها بعض المعارف، ولكنها أوسع من هذه المعارف، بل هي في غالبية الأحيان دليل هذه المعارف، ولا يتأتى ذلك في موضوعنا هذا إلا من خلال عوامل عديدة، أذكر أهمها:

١: الارتباط الوثيق بالله تعالى:

البصيرة[١] حالة معنوية أكثر من أيّ شيء آخر، وبالتالي لا يمكن أن تستحصل إلا في عالم المعنويات، وفيه وعلى أعتابه تترعرع وتتربى، وبالبعد عنه تزول وتنـزوي، وهي قد تفيض على قلب المؤمن كالسيل المنهمر، وقد تكون كالقطرات التي تتجمع رويداً رويداً، وقد تحصل بما هو أدنى من ذلك، وكلّ ذلك يرتبط أساساً بطبيعة قلب الإنسان وكيف يهيّئُه لكي يدخل في عالم البصائر ويستكنّ فيه، وهي في المحصّلة نور يُقذف في القلب، أو بتعبير أدق هو نور في القلب تحجبه الآثام، وتكشفه حالة السمو على الآثام والتنـزّه عنها، مما يجعل المرء بوعي مختلف عن وعي عامة الناس، وهو يكاد يرى مصائر الأُمور قبل غيره، وكلّ ذلك لا يحصل في عالم القلوب المثقلة بالآثام المترعة بالذنوب الغارقة في ظلمات الشهوات، بل أرضيته دوماً هي القلوب التي سارت في طريق البعد عن ذلك، واتسمت بالشفافية الخاصة القادرة على حمل هذا اللطف وجذبه.

ولعل هذه الصورة تتضح لنا من خلال الروايات الشريفة التالية، ففي موثّقة سليمان بن خالد، قال الإمام الصادق صلوات الله عليه: "إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور، وفتح مسامع قلبه، ووكّل به ملكاً يسدده، وإذا أراد بعبد

١ لست هنا في صدد التعريف الجامع المانع للبصيرة، وإنّ جُلّ ما أُريده هنا أن أُقدّم صورة إجمالية سريعة عن هذا العامل، وقد تحدّثنا بإسهاب أكبر عن ذلك في بحثنا: "البصيرة.. كيف تنمو وتضمحل؟" فراجع.

سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء، وسدّ مسامع قلبه، ووكّل به شيطاناً يضلّه؛ ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿١٢٥﴾﴾[1].

وكذا قوله عليه السلام ـ كما في رواية ثابت بن سعيد ـ: "إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً طيّب الله روحه، فلا يسمع معروفاً إلا عرفه، ولا منكراً إلا أنكره، ثم يقذف الله في قلبه كلمة يجمع بها أمره"[2].

وكذا ما في موثّقة عبد الحميد بن أبي العلاء، عنه صلوات الله عليه، قال: "إنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور، فأضاء لها سمعه وقلبه حتى يكون أحرص على ما في أيديكم منكم، وإذا أراد الله بعبد سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء، فأظلم لها سمعه وقلبه"[3].

ولا يخالنّ أحد أن هذا الأمر يحصل من دون استحقاق وسَعْي، وأن ذلك يتم من دون إرادة من الإنسان، بل العكس هو الصحيح، صحيح أن الله سبحانه على كلّ شيء قدير، وصحيح أنه لا يُسأل عما يفعل، ولكنه سبحانه أوكل الأُمور إلى أسبابها، ووعد بأنه إنْ شكر العبد نعمته فسيزيده، وإنْ جحدها فذلك طريق الكافرين، فهذا النور وخلافه إنما يأتي من عالم الذنوب والاستغفار يقول الإمام الصادق صلوات الله عليه ـ كما في موثّقة أبي بصير ـ: "إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت، حتى تغلب على قلبه، فلا يفلح أبداً"[4].

وبناء على كلّ ذلك، فإنّ الطريق إلى البصيرة إنما يكون بدءاً من خلال الارتباط الوثيق بالله تعالى وحسن الاعتماد عليه وحسن الثقة والظن به والاتكال عليه وطلب العون منه أبداً، وهذا الارتباط لا يأتي عبر عصا سحرية، أو لمجرد الرغبة والتمني، وإنما يحتاج إلى مكابدة وجهد في الصبر على الطاعات والمكاره والصبر عن المعاصي والمصابرة أمام الهزاهز، ولا يدرك ذلك إلا من خلال معرفة النفس في حالتي فجورها وتقواها، فهي تنزع باتجاه الفجور، وشؤونُ الدنيا كلّها تزين لها ذلك وتدعوها إليه، وضغوط الحياة والظلَمة كلّها تستهدف إيقاع الإنسان في هذه البركة

---

١ الكافي ١: ١٦٦ ب ح٢ والآية في سورة الأنعام: ١٢٥ .
٢ الكافي ١: ١٦٥ ب ح١ .
٣ الكافي ٢: ٢١٤ ب ح٦ .
٤ الكافي ٢: ٢٧١ ب ح١٣ .

النتنة؛ لأن فجوره يعني انتهاء إرادته والقضاء عليها وتسليمهم إياها، أو تحويلها إلى إرادة غير مضرّة بهم، إن لم يطوّعوها لأنفسهم، ثم ليحولوا تلك الإرادات إلى حالة عون لهم ودفاع عنهم، بينما تقواه تجعله يتحرر من كلّ هذه الضغوط؛ لأن العبودية لله تعني التحرر من عبودية غيره، وهذا هو الذي يخشاه الظلَمة دوماً، وهو ما يحتاجه المرء لكي يدخل بسلام إلى معسكر الهدى ليحظى بكرامة الانتظار الحقيقي الصادق.

٢: سلامة المعتقد:

هل تساءلت يوماً: لماذا كلّ هذه الحرب النفسية من قبل القوى الظالمة؟! وهل كان صعباً عليك أن تصل إلى قناعة راسخة بأن مقصود هؤلاء هو سلبك سلامة المعتقد؟! لأن عملية السلب هذه تجعلك في معسكر لا يضادّ الظلمة إنْ لم يكن مستسلماً لهم، وإلا لماذا كلّ هذا العدد من الفضائيات التي تستهدفك أنت دون غيرك؟!

فالحرب على عقيدة المنتظِرين تزداد بضراوة وتتضاعف ضراوتها كلّما أيسوا من استسلامك لهم، وفي العام الماضي أحصيت أكثر من ٦٥ فضائية تعمل ضد هذه العقيدة بطريقة أو أُخرى، وها نحن نشاهد يوماً بعد آخر اطّراد هذا العدد ونموه، فلو ضممت إليه عدداً من الإذاعات المسموعة والمجلات والجرائد والكتب المقروءة التي سخّرت لذلك، لتصورت مليارات الدولارات التي تنفق على حرب هذه العقيدة!

والآن تعال لنتساءل: لماذا تصرف كلّ هذه الأموال؟! ولا سيما أن المشتركين فيها هم من مشارب شتى، ويتداخل فيهم التكفيري من أقصى اليمين، مع من لا علاقة له بالدين من أقصى اليسار!

فمن المقطوع به أن هؤلاء لا ينفقون كلّ هذه الأموال، ويسخّرون كلّ هذه الجهود والإمكانيات من فراغ وإلى فراغ! بل على العكس، فإنهم يجدون هذه العقيدة هي الخطر المحدق بكلّ كياناتهم، ولا أجد رداً على هؤلاء إلا أن نعمل بشكل جدي باتجاه الاحتفاظ بعقيدة سالمة في عقولنا، ولا سيما أن عقيدة أهل البيت صلوات الله عليهم هي من المتانة والقوة بمكان حتى إنه لم تستطع كلّ العقائد الأُخرى من أن تنال منها على الرغم من الحرب الضروس والطويلة التي شنّت عليها وعلى قواعدها الشعبية طوال أكثر من أربعة عشر قرناً، بل على العكس هي في نمو متواصل لقاعدتها الشعبية، وها نحن بين حين وآخر نجد القوم يصرخون ويستنجدون من نمو المد الشيعي، وإذا ما كانت حرب الضلال قائمة على تحريف العقيدة وإخراج قواعد

المنتظِرين منها، فلا مجال لدينا إلا أن نعمل باتجاهين:

الأول: هو العمل على تقوية عقيدة التشيع لدى كل شيعي فكراً وسلوكاً ووعياً ضمن إطار انتمائه لهذه المدرسة المباركة، وفي تصوري أن هذا الأُسلوب هو من أكثر الأساليب قوة لدحر حالات الانحراف أو التحريف، ولا سيما أننا نلاحظ هؤلاء ومنذ مدة ليست بقليلة قد اجتهدوا أن يجدوا عوناً في بعض المنحرفين الشيعة، فأغروهم وحولوهم إلى العمل من الداخل للإضرار بهذه العقيدة المباركة، وعلى الرغم من أن جميع الجهود قد باءت بالفشل الذريع، إلا أننا نجد اليوم أن منغّصات السياسة ومصالحها بدأت تدفع بعضهم إلى الإضرار من الداخل، وما كان ذلك ليكون لو أن هؤلاء كانوا قد حصّنوا أنفسهم عقائدياً.

الثاني: أن نجابه حملة التضليل هذه بمزيد من الجهد لفضح هؤلاء الظلمة، وما أيسر هذا الأمر؛ لأن الفكر المقابل هو من التناقض والتهافت ما يفسح المجال عريضاً للمضي بذلك، ولا سيما أن بُنى أفكار الآخرين تقوم على منظومة واهية وأُسس أوهى، وتحمل نقائضها معها، فما وُلد من الباطل لا يمكن أن يصمد أمام نور الحق، ولكن كلّ ذلك مشروط بأساليب الحكمة والموعظة الحسنة بعيداً عن أساليب التنفير والتكفير.

٣: التمسك بأهل البيت عليهم السلام:

يعدّ التمسك بأئمة أهل البيت صلوات الله عليهم أحد الأُمور الهامة في إيجاد هذه البصيرة، وعلى الرغم من أن هذا العامل لا يبتعد عن العاملَين السابقَين، إلا أن موضوعاته التفصيلية تختلف عن موضوعات تلك العوامل، فهو المصداق الحقيقي للمفاهيم المطروحة في العاملَين الأوليين، والتمسّك بصورته الأولية هو العمل بمقتضى توجيهاتهم من الناحية التشريعية ضمن دائرتي الولاء والبراءة، ومساحتها دائرة الحلال والحرام والمباح والمستحب والمكروه.

ولكن هذا التمسك يبقى الصورة الأُولى للعلاقة معهم، فكم من مرة ومرة لاحظنا ملتزمون بمنظومة الولاء والبراءة التشريعيتين، ولكنهم يتساقطون أمام المغريات والمنغّصات، ويتهافتون في المحن والرزايا أو في حالات إقبال الدنيا عليهم، ولهذا يمكن أن يقال إنّ المنظومة التشريعية هي الإطار العام الأوّلي للتمسك بأهل البيت صلوات الله عليهم، ولكنه قد لا يعطي المرء تلك العاطفة المتوقدة التي تجعل منه مطواعاً لهم سواء في حالات البلاء العظيم أو الرخاء العميم، وقد لا يعطيه تلك

الإرادة التي من شأنها أن لا تتوقف عند الهموم الصغيرة، وترتفع بالمرء إلى مصاف المحتملين للهموم الكبيرة.

ولو دقّقنا في التعابير القرآنية والحديثية التي وردت في شأنهم صلوات الله عليهم فسنجد أن القرآن الكريم والنبي العظيم صلوات الله عليه وآله وحديثهم عليهم السلام لم يتوقفوا عند البعد التشريعي للموضوع، وإنما طرحت المنظومة المعنوية في مصاف المنظومة التشريعية، بل دعني أقول: إن المنظومة التشريعية أُحيطت بالمنظومة المعنوية التي من شأنها أن تحصّن الأُولى، بصورة لعلك لا تعثر على آية أو حديث إلا وتجتذبك فيه الصورة الجمالية المقدّمة عن أهل البيت صلوات الله عليهم التي تثير فيك قيم الحب والمودة والعاطفة لهم.

وهذه الصورة قد رافقت وأحاطت كلّ الآيات التي حملت في طياتها جوانب التشريع أو الجوانب المعنوية، ويمكن لنا أن نلاحظ ذلك ـ وبشكل سريع ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [1]، وكذا قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [2]، وكذا قوله جلّ وعلا: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [3]، وهكذا بقية الآيات الكريمة التي تحدثت عنهم أو أشارت إليهم عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وبهذا فإنك تلحظ أن القيمة الجمالية لأهل البيت صلوات الله عليهم قد طُرحت إلى مصاف الجانب التشريعي الذي يدعو إلى الالتزام بهم وعدم الحياد عنهم، وما كان ذلك ليكون لو كان الاتّباع والتمسك يؤمّن بطريقة: إفعل أو لا تفعل، المطروحة في المنظومة التشريعية؛ إذ إنّ طريقة إفعل أو لا تفعل هي قضية علمية وقانونية، وبالتالي فهي جامدة لا حراك فيها إلا من خلال العوامل التي تعطيها قوة الاندفاع.

ولهذا، فإن التعويل على الجانب الفكري من الموضوع في تهيئة هذه العوامل ـ كما يطبّل لذلك أحد المنحرفين ـ سيكون تعويلاً على ما لا يعوّل عليه، ولا سيما في الحالات الاستثنائية التي يمر بها الإنسان، التي هي في العادة أخطر ما يهدد تماسكه

---

١ سورة الأحزاب: ٣٣ .

٢ سورة الشورى: ٢٣ .

٣ سورة آل عمران: ٦١ .

الديني، فهي قد تذوي وأو تأخذ بالإضمحلال لو ضعف الدافع الذي يدعو للالتزام بها[1]، مثلها مثل أيّ منظومة قانونية، فإنك تجد في قبالها من يؤمن بحقانية القانون، ولكن في حال التشابك بين المصالح الخاصة وبين المصلحة القانونية، فإنّ من السهولة أنْ تجد أنّ المصلحة الخاصة ستكبت حالة الاندفاع نحو تطبيق القانون، وقد تتحايل على ذلك أو تعطله بشكل تام، ولهذا لا غنى عن تنمية المنظومة العاطفية والمعنوية التي من شأنها أن تثري العوامل الإرادية أو تحبطها وفق طبيعة القرب أو البعد من عملية التمسك بهم صلوات الله عليهم.

وقد طرحت هذه المنظومة بطريقة سلسة جداً، بحيث يمكن للمرء أن يتفاعل طبيعياً في تكوينها والتعمّق بها دونما أيّ تكلّف؛ لأنّ العواطف لا تُصنع بقرار، وإنما تُصنع من خلال التحسس بالقيم الجمالية ووعي طبيعة هذه القيم، ولو راقبنا ذلك من خلال ما تتيحه المنظومة التشريعية في جوانب التوسل والشفاعة والزيارة ـ على سبيل المثال ـ لوجدنا أن العواطف المنسابة من تداعيات هذه الجوانب مثلما أنها تتولد بشكل تلقائي وطبيعي، فإنّ الإنسان يتلقفها هي الأُخرى بنفس طريقة ولادتها انسيابية وعفوية؛ ولهذا فإنّ استقرارها في داخل الذات الإنسانية سيتعمّق بالتدريج بطريقة تلقائية دونما أيّ تكلّف، مما سيتيح مع الأيام تمسكاً بهم صلوات الله عليهم يمكن معه أن تعتمد المنظومةُ التشريعية على خزين كبير من الاندفاع المطلوب في حالات الواجب والمستحب، أو الممانعة المطلوبة في حالات المحرّم والمكروه؛ فلا تغفل!

والردّ الطبيعي للمنتظِر من أجل التفاعل مع كلّ ذلك هو زيادة التعلّق بأهل البيت صلوات الله عليهم بكلّ ما من شأنه أن يؤدي إلى إثراء عاطفته تجاههم، وتنمية مشاعر الولاء لهم والبراءة من أعدائهم، وهذه بطبيعتها ستكون عاملاً كبيراً من عوامل نمو البصيرة ونفاذها؛ لأنّ مثل هذه الأُمور تعطي صفاءً روحياً خاصاً، يحس به المرء كلّما أوغل في عاطفته تجاههم، وكلّما جعل أحاسيسه منقادة لطبيعة ما يحبون وما يكرهون.

على أنّ هذه المنظومة بطبيعتها لا تحصّن الفرد وحده وحسب، وإنما تعمل على إيجاد حالة تحصين جماعية في المحيط الذي يتبنى مثل ذلك؛ ولهذا جاء في الآثار

١ من الواضح أنّ العامل الفكري قد يتم تضليله أو تعطيله من خلال عوامل متعددة، منها طبيعة الضغوط التي تواجه الإنسان في حياته، سيّان في ذلك عوامل الضغط الناشئة من حالات الإغراء أو تلك التي تنشأ من حالات القهر والإكراه، كما أنّ العامل العاطفي يمكن أن يضلل هو الآخر، ولهذا لا مندوحة أمام المؤمن إلا أن يُعنى بالاثنين معاً، ويعمل على نمائهما معاً.

المباركة الواردة عنهم عليهم السلام تشويق لأعمال جماعية من جهة، أو تشويق لتشكيل الجماعة المؤمنة من جهة أُخرى، ومن ذلك أن تجد الخطاب المتكرر في الزيارات ـ على سبيل المثال ـ قوله عليه السلام: "إني سلم لمن سالكم، وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم، وعدو لمن عاداكم"، وأمثال هذه التعابير ـ وهي كثيرة جداً ـ التي لا يحتاج المرء إلى عسير جهد ليكتشف أنها دعوة للصفاء والوحدة الاجتماعية من جهة، وحذر من العدو الاجتماعي من جهة أُخرى، ناهيك عن عوامل التميز والانتماء الاجتماعيين التي تطفح بها معاني هذه التعابير، مما يؤمّن استقراراً نفسياً كبيراً في داخل البيت الواحد، ويرفع درجة الحذر والتحسس بشكل كبير من أيّ نمطٍ معادٍ، مما يجعل سياسة الظلَمة محاصرة إلى حد كبير من قبل هذه الأجواء، الأمر الذي يوفّر لبصيرة الإنسان عوامل مساعدة جـمّة.

ومع كلّ ذلك يمكن لك أن تكتشف أن تعميق مفاهيم وسلوكيات الولاء لهم والبراءة من كلّ مَن خالفهم يؤدي بطبيعته إلى فيوضات خاصة، لا يحسّ بها إلا من ذاق حلاوة ذلك، وهذه الفيوضات بطبيعتها ستكون عامل رفد أساس لتدعيم وتكريس بصيرة الإنسان المنتظِر.

٤: توثيق العلاقة مع الإمام المنتظر عليه السلام:

وهنا نجد أننا لا نفترق كثيراً عن البعد السابق، ولكن أمامنا مهمة أكثر خصوصية من تلك التي رأينا في بُعد التمسك بأهل البيت عليهم السلام، هي خصوصية أن الإمام صلوات الله عليه هو الإمام الذي يلي أمرَ عصرنا، وهو الذي تحنّ إليه الأفئدة في سعيها للانعتاق، وهو الذي تشرئبّ لظهوره الأعناق طمعاً في الخلاص؛ ولذا نحن مطالبون بتخصيص في الخطاب والإحساس والانتماء، على الرغم من أنهم صلوات الله عليهم نور واحد، والولاية والبراءة التي نتحدث عنها هنا وهناك هي واحدة، ولكن ما من ريب في أننا نحتاج هنا إلى تخصيص العلاقة مع إمام الزمان المعني بنا والمعنيون به؛ ولهذا فإنّ الحالة العامة التي وجدناها في العنصر السابق والتي تشمل جميع أهل البيت عليهم السلام نحتاج إلى تركيزها هنا في هذا البعد، لكي تكون خاصة بالإمام المنتظَر صلوات الله عليه وبكلّ ما يتعلق بحركته، وسندع الحديث الموسع عن هذا البعد إلى الفصول اللاحقة إن شاء الله، ولكن لا بأس بإشارة سريعة هنا لطبيعة المطلوب.

وبادئ ذي بدء لا بُـدّ أن نلتفت إلى أن الأئمة السابقون للإمام صلوات الله عليه

وعليهم كانوا قد أكّدوا وحثّوا على الالتزام بهذا البعد، ابتداءً من العاطفة الخاصة له، وانتهاءً بكلّ ما يتعلّق بالتعامل مع إمام الزمان (روحي فداه)، وقد نقل لنا سدير الصيرفي (رحمه الله) صورة وجدانية تتوقد ألماً وتفجّعاً، ويتشظى منها القلب لوعة وأسىً لدى الإمام الصادق عليه السلام حين مرّت به ذكرى ولده الإمام المنتظَر صلوات الله عليه..

يقول سدير: دخلت أنا والمفضّل بن عمر[١] وأبو بصير وأبان بن عثمان على مولانا أبي عبد الله عليه السلام، فرأيناه جالساً على التراب، عليه مسح خيبري[٢] مطوّق بلا جيب، مقصّر الكمّين وهو يبكي بكاء الواله الثكلى ذات الكبد الحرّى، وقد نال الحزن من وجنتيه، وشاع التغيير في عارضيه، وأبلى الدموع عارضيه، وهو يقول: "سيدي غيبتك نفت رقادي، وضيّقت عليَّ مهادي، وابتزّت مني راحة فؤادي! سيدي غيبتك أوصلت مصابي بفجايع الأبد، وفقد الواحد بعد الواحد، يفنى الجمع والعدد، فما أُحس بدمعة ترقى من عيني، وأنين يفتر من صدري..." والحديث طويل[٣].

هذا، وستمرّ بنا لاحقاً جملة من الروايات التي تشير هي الأُخرى إلى عميق شوقهم صلوات الله عليهم إليه عليه السلام، وشديد توجّعهم له، ولا أحسب أن هذا الشوق المعبّر عنه في رواياتهم عليهم السلام ضمن أبعاده الأولية منحصر بهم، وإنما هو دعوة للمؤمنين لكي يتأسّوا بذلك، ويأخذوا من هذه المنهجية مسلكاً لهم.

نعم، لن يستطيع أحد من المؤمنين أن يبلغ المدى الذي يبلغه واحدهم صلوات الله عليهم، ولكن هي على طريقة التمثّل بهم، على شاكلة قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه: "إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليه، ولكن أسألكم أن تعينوني بالورع والاجتهاد"[٤].

وأعتقد أن الغرض من هذه العلاقة ـ بعد أن نكون قد فرغنا من الالتزامات التشريعية والعقائدية الخاصة بهذا الأمر ـ هي إيجاد ارتباط وجداني ومعنوي خاص بيننا وبين الإمام صلوات الله عليه بنحو من الأنحاء، بصورة يجعل فيها المنتظِر يتيقن

١ أضاف في نسخة الشيخ الطوسي إليهم بعد ذلك: وداود بن كثير الرقّي.
٢ رداء يتخذ من الشعر.
٣ كمال الدين وتمام النعمة: ٢٥٢ . ٢٥٣ ب٣٣ ح٥٠ وغيبة الشيخ الطوسي: ١٦٨ ح١٢٩ .
٤ شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٧ .

أن كلّ ما يعترضه وما يعترض ما حوله من المشاكل ناجم عن غيبة الإمام صلوات الله عليه، ثم ليبتدئ بالتدرج في مسار التعلّق بالإمام، ليس لأنه المنقذ والمخلّص من كدر الدنيا وغصصها، بل لأنه هو الإمام الذي يجسّد جمال الملكوت ويقوم بمقام الخلافة الربانية على هذه الأرض، وبالنتيجة ليتحوّل هذا المرء في علاقته مع الإمام عليه السلام إلى حالة إخلاص الطاعة والتسليم التام والانقياد الكامل، وهو كلّما تدرّج في ذلك كلّما نال من صفاء القلب الذي يمكّنه من جعل قلبه أكثر قابلية لحمل هذا النور، وأكثر بعداً من أن يحتجب بالظلام.

ويحكى هنا أن أحد العلماء ـ الّذي لا أشك بصدقه ـ قد تشرف برؤية الإمام (روحي فداه)، فقال له الإمام عيه السلام: أوصِ شيعتي بأن لا ينسوني من الدعاء؛ يقول: فقلت له: سيدي يا بن رسول الله إن شيعتك دائمي الدعاء لك؛ فقال له صلوات الله عليه: بلى، إنهم يدعون بالفرج واليسر، ولكن هذه الدعوات لهم وليست لي![1] فتأمّل!

ولا شك أن الإمام صلوات الله عليه في طلبه هذا، إنما يتوخى هذا النمط من العلاقة، علاقة الحب الخالص والولاء الخالص، فالعلاقة الخالصة تنشأ بعيداً عن العوارض واللواحق، فالمطلوب منّا هو أن نؤمّن هذه العلاقة، ليس لأنه صلوات الله عليه يؤمّن لنا مصلحة الإنقاذ والخلاص، وهذه مع عظمتها إلا أنها تبقى مخلّة بالإخلاص المنشود هنا.. وللحديث صلة إن شاء الله تعالى.

٥ ـ الصبر والمصابرة:

الصبر أحد العناصر الأساسية التي تترافق مع كلّ البُنى السلوكية، بل لا يمكن ملاحظة تقدم في السلوك من دون أن نرى تقدماً في الصبر، فمثله مثل البنّاء إن لم يضع حجراً ثابتاً لا يتزحزح لا يمكن له أن يضع فوقه حجراً آخراً، بل إن ما يضعه يبقى مهدداً بالسقوط ما لم يعط الحجرَ الموضوع من عناصر الثبات القدر الكافي له، وعنصر الثبات هنا متأتٍ من الصبر، فهو نقطة الانطلاق نحو الأعلى، وأيّ تسامح معه، يعني زوال النقطة الحالية لما هو دونها.

ولهذا، هو بالنتيجة العنصر الذي يرافق العناصر التي مرّ ذكرها في مجالات تنمية

---

١ من المؤكد إن الإمام صلوات الله عليه ليس بحاجة لدعائنا، وإنما نحن بحاجة لأن ندعو له لأنه يعمّق الارتباط بيننا وبينه صلوات الله عليه، ويخلصنا من التبعية لغيره.

البصيرة، ومن دونه فإن هذه العناصر لا يمكن لها أن تحكي ثباتاً في شخصية المنتظِر، فقد تمرّ حالة من حالات الولاء أو التمسك أو الطاعة بشكل عرضي أو طارئ، وما لم يتم تمحيصها بالصبر على المكاره التي تعترض طريقها، والصبر على ديمومتها، والصبر على ما يناقضها، لا يمكن للمرء أن يدّعي أنه يمتلك ذلك، وأعظم الصبر هو الذي يؤدي إلى مخالفة الهوى، وعواقبه تفيض بنتائج مذهلة.

وترينا قصة الإمام الكاظم صلوات الله عليه مع الرجل البوذي ما فيه بليغ عظة في هذا المجال، فلقد ورد إلى بغداد رجل هندوسي، وكان قد بهر الناس بقدرته على المشي على الماء، فما كان إلا أن ماجت الناس وهي منبهرة بحيث كانت الخشية على دين الناس حقيقية، مما جعل الناس يضغطون على علماء السلطة العباسية أن يجدوا تفسيراً لذلك، ولم يك للسلطة من مخرج إلا الإمام الكاظم صلوات الله عليه، فاستدعاه الإمام وقال له: كيف تفعل ذلك؟ فقال له: إني ما وجدتُ نفسي رغبتْ بشيء إلا خالفتُه إلى عكسه؛ فقال له الإمام عليه السلام: والآن هل تستطيع أن تفعل ذلك؟! وهنا يُلحظ أن الإمام عليه السلام قد طالبه بأمر ترغب به نفسه، فإن خالفها لم يستطع أن يستمر بالمشي على الماء، وبالنتيجة فشل مسعاه، وإن قال: لا أقدر، بطل تأثيره على الناس، وابتلع البوذي الطعم، وأراد أن يمشي على الماء ففشل، فجاء إلى الإمام عليه السلام وسأله عن سبب عجزه، فأبلغه الإمام: إنك عملت بهواك، فعجزت عن المشي على الماء!

وغني عن البيان أن أيّ نمط من أنماط الصبر يؤدي إلى قوة الأنماط الأُخرى، وأي تراخٍ في أحدها يؤدي إلى تراخي غيره، فالصبر على المكاره إن هبط مستواه، فلا يحسبن أحدٌ أن الصبر على الطاعة أو الصبر عن المعصية سوف يبقى متماسكاً، بل هو الآخر يمكن أن يتضعضع، والعكس صحيح أيضاً.

٦ ـ الاطّلاع العام على مجريات الأحداث:

وهذا هو أحد العوامل المساعدة التي تبقي الإنسان بمنأى عن حيل القوى الظالمة وأضاليلها، وكلّما زاد اطلاع المرء على مجريات أي حدث يعترضه كلّما كان أكثر قدرة على معرفة المسار الذي يتوجّب عليه أن يسير فيه، ويتيح له خيارات أكثر سعة مما لو كان جاهلاً بهذه الأُمور، وهذا العامل وإنْ لم يك له علاقة ماسّة بشأن البصيرة، باعتبار أنّ كلّ واحد من الناس يستطيع أن ينال حظاً من ذلك بغض النظر فيما إذا كان بقلب شفاف أو غيره، ولكن سعة المعرفة في هذه المجالات تُعدّ عاملاً

مساعداً ـ ولا شك ـ في عدم الوقوع في أحابيل الظلمة، وهي بالتالي تمكّن الإنسان من رؤية الأُمور بطريقة أوضح من غيره، مثله مثل من يتناظر بأمر علمي مع زيد من الناس، فكلّما زادت إحاطته بشأن ما يتناظر به، تخلّص من إحراج الجهل به، هذا الإحراج الذي قد يسدّ عليه الآفاق ولا يدع له مناصاً دون التسليم والاستسلام.

ب: شدّة التمحيص والافتتان:

التمحيص والفتنة ضمن المصطلح الإيماني يقفان في عرض واحد، ويؤديان نفس المعنى، وهما في اللغة يقتربان جداً، وفي المنحى الاجتماعي يعملان معاً وفي كلّ الاتجاهات؛ إذ يمتحن المرء ويمحّص ويفتتن في كلّ الاتجاهات ابتداءً من شتى أُمور إقبال الدنيا، وانتهاءً بشؤون إدبارها كافة، ومواردهما قد تأتي من الله سبحانه وتعالى، وقد يبادر لها شياطين الجن والإنس، والجميع يستهدف المحتوى الداخلي للإنسان الممحَّص، كما إنّ الإنسان قد يلج إلى أتونها طواعية ورغبة منه دون دراية أو وعي بما تمثله وما تستهدفه.

قال في لسان العرب: أصل المحص: التخليص، ومحصت الذهب بالنار إذا خلصته مما يشوبه، وفي حديث علي وذكر فتنة فقال: يمحص الناس فيها كما يُمحَص ذهب المعدن أي يخلّصون بعضهم من بعض كما يخلّص ذهب المعدن من التراب، وقيل يختبرون كما يختبر الذهب لتعرف جودته من رداءته، والممحّص: الذي محّصت عنه الذنوب، وأنشد ابن بري:

رأيت فضيلاً كان شيئاً ملفّفاً فكشّفه التمحيص حتى بدا ليا[١]

والفتنة كما في "اللسان" لها نفس المعنى، قال: أصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميّز الرديء من الجيد[٢].

وقال الجوهري في "الصحاح": فتنت الذهب إذا أدخلتَه النار لتنظر ما جودته[٣].

ويعدّ التمحيص والفتنة أحد أبرز استحقاقات الانتظار، إنْ لم يكن أبرزها على الإطلاق، فلو كان الانتظار يستهدف الإعداد للقاعدة الروحية والمادية لعملية

---

١ لسان العرب ١٢: ٣٧ .

٢ لسان العرب ١٠: ١٧٩ .

٣ الصحاح: ٢١٧٥ .

الظهور، فمما لا شك فيه أن التمحيص سيرافق ذلك حذو النعل بالنعل، وقد أكثرت الروايات الشريفة من التحدّث عنه بتأكيد وقوعه وتنجيز استحقاقه، وبطرق مختلفة - كما مر في عديد منها - وسنشير هنا إلى جانب من محاور هذه الأحاديث.

ففي معتبرة علي بن رئاب، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، قال: "ألا إنّ بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بَعَثَ الله نبيّه صلى الله عليه وآله، والذي بعثه بالحق لتبلبلنّ بلبلة، ولتغربلنّ غربلة، حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقنّ سبّاقون كانوا قصّروا، وليقصّرنّ سبّاقون كانوا سبقوا"[1].

ويضرب الإمام صلوات الله عليه مثلاً بليغاً للغاية في تبيان مهام التمحيص وطبيعته، فقد قال في حديث سبق أن ذكرنا صدره، عن مالك بن ضمرة: "أما إنكم لن تروا ما تحبّون وما تأملون يا معشر الشيعة حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض، وحتى يسمّي بعضكم بعضاً كذّابين، وحتى لا يبقى منكم على هذا الأمر إلا كالكحل في العين والملح في الطعام وهو أقل الزاد، وسأضرب لكم في ذلك مثلاً: وهو كمثل رجل كان له طعام قد ذرّاه وغربله ونقّاه، وجعله في بيت وأغلق عليه الباب ما شاء الله، ثم فتح الباب عنه فإذا السوس قد وقع فيه، ثم أخرجه ونقّاه وذرّاه، ثم جعله في البيت وأغلق عليه الباب ما شاء الله، ثم فتح الباب عنه فإذا السوس قد وقع فيه وأخرجه ونقّاه وذرّاه، ثم جعله في البيت وأغلق عليه الباب، ثم أخرجه بعد حين فوجده قد وقع فيه السوس، ففعل به كما فعل مراراً حتى بقيت منه رزمة كرزمة الأندر[2] الذي لا يضره السوس شيئاً، وكذلك أنتم تمحّصكم الفتن حتى لا يبقى منكم إلا عصابة لا تضرها الفتن شيئاً"[3].

وروى الشيخ النعماني بإسناده إلى الإمام الصادق صلوات الله عليه، أنه قال: "والله لتمحّصنّ، والله لتطيرنّ يميناً وشمالاً، حتى لا يبقى منكم إلا كلّ امرئ أخذ الله ميثاقه، وأيّده بروح منه".

وفي موضع آخر قال الشيخ النعماني: وفي رواية أُخرى عنهم عليهم السلام:

---

١ غيبة النعماني: ٢٠٩ ب١٢ ح١ .

٢ الأندر على وزان الأحمر: البيدر من الطعام، وقيل: الكدس من القمح خاصة.

٣ غيبة النعماني: ٣٣ مقدمة المصنف (رحمه الله).

"حتى لا يبقى منكم على هذا الأمر إلا الأندر فالأندر"[1].

وقد روى الشيخ الطوسي (رضوان الله عليه) بإسناده عن أبي جعفر الباقر صلوات الله عليه، أنه قال: "والله لتمحّصنّ يا معشر الشيعة شيعة آل محمد كمخيض الكحل في العين؛ لأن صاحب الكحل يعلم متى يقع في العين، ولا يعلم متى يذهب، فيصبح أحدكم وهو يرى أنه على شريعة من أمرنا فيمسي وقد خرج منها، ويمسي وهو على شريعة من أمرنا فيصبح وقد خرج منها"[2].

وبإسناده عن الربيع بن محمد المسلي، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: "والله لتكسرنّ كسر الزجاج، وإنّ الزجاج يعاد فيعود كما كان، والله لتكسرنّ كسر الفخار، وإنّ الفخار لا يعود كما كان، والله لتميّزنّ، والله لتمحّصنّ، والله لتغربلنّ كما يغربل الزؤان من القمح"[3].

وروى الشيخ العيّاشي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾[4]، عن الحسن بن علي الوشّاء، بإسناد له يرسله إلى أبي عبد الله عليه السلام، قال: "والله لتمحّصنّ، والله لتميّزنّ، والله لتغربلنّ، حتى لا يبقى منكم إلا الأندر؛ قلت: وما الأندر؟ قال: البيدر، وهو أن يدخل الرجل فيه الطعام يطيّن عليه، ثم يخرجه قد أكل بعضه بعضاً، فلا يزال ينقّيه ثم يكنّ عليه ثم يخرجه حتى يفعل ذلك ثلاث مرات، حتى يبقى ما لا يضره شيء"[5].

والروايات الكريمة واضحة تماماً في تبيان شأن التمحيص وأهدافه وغاياته، وتتبدى لنا من مجموع هذه الروايات وغيرها مما ذكرناه سابقاً جملة من الحقائق، أذكر منها على عجالة:

أولاً: إنّ هذه الروايات تأتي لتؤكد المفهوم القرآني عن مبدأ التمحيص، وتضعه ضمن السياقات التطبيقية له، فلقد سبق للقرآن الكريم أن تحدّث من خلال عدة آيات عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

١ غيبة النعماني: ٣٣ - ٣٤ .
٢ غيبة الطوسي: ٣٣٩ ح٢٨٨ .
٣ غيبة الطوسي: ٣٤٠ ح٢٨٩، والزؤان: حبة تخالط القمح وهي الدنقة رديئة الطعام..
٤ سورة آل عمران: ١٤٢ .
٥ تفسير العيّاشي ١: ٢٢٢ ح١٤٦ .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [1].

وكذا قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [2].

ثانياً: إن هدف التمحيص موجّه مباشرة لكلّ مفردات الإيمان لدى الإنسان، فرداً كان أو جماعة، ولكن أعظمه وجلّه موجّه لمفردتَي الولاء والبراءة التي يلتزم بها هذا الإنسان تحديداً، ولهذا يمكن أن نجد التمحيص يحلّ في كلّ مجالات الحياة دون استثناء، مهما صغر أو كبر، فقد يأتي في مجال العلاقات الاجتماعية وكذا قد يأتي في المجال الأمني، وقد يحل في المجال الروحي كما هو في المجال الاقتصادي.

وهكذا في بقية مجالات الحياة التي يحياها هذا الإنسان، دون فرق بين أن يكون ضمن إطار اجتماعي حضاري مدني، أو أن يكون في إطار منعزل عن أي تواصل اجتماعي، كما لو أنه عاش في الصحراء أو انعزل في جزيرة نائية، وهذا ما يجب أن يجعل الإنسان المؤمن في حذر مستمر، من أنه قد ينجح في امتحانٍ ما ولا ينتبه لامتحانٍ آخر من امتحانات الحياة، فوَفق ما قلنا يمكن للمؤمن أن ينجح في أعسر الامتحانات الأمنية التي قد تجرّ عليه معاناة كبيرة وظلم فادح، ولكنه قد لا يتاح له النجاح في امتحانات العفة والتعفف مثلاً حتى لو كانت موارد الامتحان بسيطة، وهكذا في بقية المجالات، فهي بالنتيجة تبقى كلّها امتحانات، ومنها جميعاً يجب أن يحظى بدرجة الصبر والفوز.

ثالثاً: إنّ التمحيص يمكن أن يأتي من حيث المبدأ من كلّ الجهات التي لها أيّ نمط من أنماط العلاقة مع الإنسان الممتحَن، فقد يأتي من العدو الضاري، وقد يأتي من الصديق اللصيق، بل قد يأتي من ذات الإنسان، وفوق ذلك كلّه قد يأتي من الله تعالى، وقد يأتي خارجياً كعدو داهم أو بلاء نازل، وقد يأتي من داخل الإنسان عبر مرض أو ما شاكل، وحينما يكون الأمر بهذه الصورة فلا مندوحة أمام الإنسان المنتظِر إلا أن يهيّئ في ذاته كلّ الخيارات المطلوبة لمواجهة ذلك للخروج من كلّ ذلك بنجاح.

---

١ سورة آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢ .

٢ سورة العنكبوت: ٢ و ٣ .

هذا إن كان يريد أن يحظى بالفوز بمرتبة حسن العاقبة، مع ملاحظة أن السقوط ـ وإن بدا في بعض الأحيان صغيراً أو بسيطاً ـ أسهل بكثير من أيّ رقي، مما يستدعي بالمؤمن الحذر الشديد حتى من هذا المقدار؛ لأن كلّ سقوط أو خلل له آثاره الاعتبارية التي تضرب في عمق كلّ ما يرتبط به وفي شتى الاتجاهات، وبالتالي فإن المطلوب هو عدم التهاون في أيّ أمر من شأنه أن يجرّ لما هو أسوأ.

ولا أريد هنا من المؤمن أن يؤمن بالقدر الوجودي كما تسميه الفلسفة الوجودية (Existentialism)[١] التي انتشرت في أوربا في أواخر الخمسينات وبدايات ستينيات القرن الماضي[٢]، والّذين قد يرون في هذا الكلام مقاربة من أفكارهم التي تشير إلى أن الإنسان أعزل أمام القدر، وبالتالي فإن المستقبل هو سيف مسلط على رقبته دون

---

١ ظهرت الفلسفة الوجودية في القرن التاسع عشر، وتبلورت بشكل تأسيسي أكبر عبر الدنماركي سوزين كيركجارد (Soren Kierkegaard) (١٨١٣ - ١٨٥٥) وهو وجودي غير ملحد، واستقرت إلى حد كبير عند الفرنسي جان بول سارتر (J.P. Sartre) (١٩٠٥ - ١٩٨٠)، وهي اتجاهات فكرية اعتمدت على الفكر المادي الدهري القديم أكثر مما هي فلسفة متكاملة، ولكنها تتمحور أساساً بأسبقية الوجود على الماهية، مما يدعو إلى أن ماهية الإنسان إنما تستل من وجوده الحاضر، وهو بالتالي الذي يحدد خياراتها وأفعالها، مما يجعل الوجود الإلهي عرضياً.

هذا بالنسبة للمؤمنين بالله منهم، على الرغم من أن ذلك يستلزم نفي القضاء والقدر الإلهيين، مما يجعل الإنسان أسيراً وعبداً لقدره الذي يخلقه هو ولا يخلقه غيره، وبالنتيجة فإن أيّ خطأ في الخيار الفعلي عليه أن يتحمل مسؤوليته كاملة دون غيره، أو ما يعبّرون عنه بأنه كالسوط اللاهب على ظهر الإنسان، مما تدفعه إلى حرية عابثة وتقوده إلى يأس متنام من الحياة.

ومن أبرز مفكريهم - غير مَن ذكرنا - سيمون دي بورفوار وألبير كامو وهيدجر وأضرابهم، ومن أبرز الوجوديين العرب، بل لعله رأسهم بلا منازع الدكتور عبد الرحمن بدوي في غالبية حياته الفلسفية، وقد يقال إنه في أواخر كتاباته أعرض عن بعضٍ من تلكم الأفكار، ولكني لست متأكداً من صحة هذا القول؛ لأن من ينقل ذلك قد يكون ناظراً إلى كتابه "دفاع عن محمد (ص)"، وهو لا يصلح كدليل، وكذا المفكر أنيس منصور، الذي يصح القول عنه بأنه أكثر الوجوديين بساطة في طرح فلسفتهم، وتحكي كتبه كثيراً من المنهج العبثي في النظرة إلى الحياة، وتكفي إطلالة على كتابه "الكبار يضحكون أيضاً" لكي يكتشف المرء هذا النمط من التصور، ويلاحظ على نطاق مهم في أدب توفيق الحكيم عبثية تقرب من عبثية الوجوديين، وإن لم يصرح بذلك.

٢ كان للفلسفة الوجودية علاقة كبيرة بالهوس الهيبي الذي سيطر على الشباب الأوربي في الستينيات من القرن الماضي وما بعدها، ويعزى إليها نمو حركات الانتحار وصرعات الهيبيز والروك أند رول وتقليعات البانكس وتقوية دوافع الاندفاع الحاد نحو المواد المخدرة ونظيرها من الظواهر الاجتماعية العبثية.

إعانة من أحد، فهذا كلّه من هراء الغربيين، فلا عزلة مع الاتكال على الله، ولا قسوة في انتظار رحمة الله، ولا كآبة بوجود لطف الإمام صلوات الله عليه.

رابعاً: بناء على كلّ ذلك يمكن أن يكون زمن التمحيص ممتداً مع امتداد العمر؛ إذ لا يوجد أي مجال كي يتصور الإنسان المؤمن بأن تمحيصه قد انتهى حتى لو طوى أخطر أنواع التمحيص، بل تشير بعض الروايات الشريفة إلى أن درجة التمحيص تتناسب مع درجة إيمان الشخص الممتحَن، كلّما رقى إيمانُه كلّما ازداد بلاؤه، وبالتالي فإنه كلّما مرّ بتمحيص رفع درجته الإيمانية، فإنه يدخل في تمحيص آخر، ولا ضرورة في أن يكون من نفس التمحيص الذي سبقه حتى لو كان أشد منه.

هذا، ولا يفارق التمحيص الإنسان حتى آخر لحظة من حياته[١]، بل ربما يكون التمحيص الأكبر هو في أواخر العمر، وكم وكم لاحظنا مَن يفوز بالتمحيص الأخير لينطلق إلى أمجاد التزكية الكبرى، كما هو حال زهير بن القين والحر بن يزيد الرياحي (رضوان الله تعالي عليهما) في موقفهما يوم الطف، مع أنّ الأول كان عثماني الهوى حتى إنه كان يتحاشى التقرب من مخيم الإمام الحسين صلوات الله عليه، فيما كان الثاني هو الذي أجبر الإمام الحسين صلوات الله عليه على أن يتجه إلى كربلاء بعد أن بقي يجعجع بجيشه فألجأه إلى هناك، وظل ولاؤه لبني أُمية إلى قبيل ساعة أو سويعة من استشهاده بين يدي الإمام الحسين عليه السلام.

وكم وكم رأينا من نجح في تمحيصات عسيرة، ولكنه سقط في التمحيص الأخير كما هو حال عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، الذي نكث بيعته للإمام الحسن صلوات الله عليه مع أنه كان قائد جيشه، فالتحق بابن الطلقاء معاوية مع أنه قاتل زوجته وأولاده[٢]، بعد مواقف الولاء التي أبداها في حروب أمير المؤمنين صلوات

---

١ لعل واحدة من دلالات الحث على قراءة دعاء العديلة عند حيان الموت أو الاحتضار، وهكذا جملة من الأعمال التي تؤدى للمحتضر قبيل وفاته، ما يشير إلى إمكانية وقوع التمحيص حتى في تلك اللحظات، وبنفس الاتجاه يلاحظ دوام التكليف حتى في حال الغرق، مما يدخله هو الآخر في حال التمحيص واستحقاقاته؛ فلا تغفل!

٢ حينما أغار الجيش الأُموي على اليمن أقدم على قتل ولدين له صبراً أمام والدتهما، وبقر بطنها فقتل جنينها، ثم قتلها، وكان يفترض ضمن أعراف بني هاشم من جهة، وأعراف العرب من جهة أعم، أن لا يدع عبيد الله هذا أيّ مجال لنسيان الدماء التي علّق الثأر لها برقبته على وجه أخص؛ لأن العرب لا تنسى مثل هذه الثارات، ولو أضفت بُعدا الدين والقرابة مع الإمام الحسن عليه السلام لعرفت حجم السقوط والانحطاط الذي آل إليه عبيد الله بن العباس.

الله عليه، علاوة على أنه كان واليه على اليمن.

خامساً: إن التمحيص ليس انتقاماً إلهياً من العباد، بل هو مجال من مجالات التربية والتهذيب، وكذا هو مجال من مجالات إقامة الحجة على العباد..

فهو من جهة يعطي الإنسانَ مجالاً للتوقف ـ ولو مجبراً ـ ليرى نفسه في أيّ اتجاه يسير؟ بناءً على ما ينجم عنه من سلسلة الكوابح الإرادية أو المادية التي تتشكل بصورة البلاء الظاهر وتؤدي إلى ضعف القدرة أو اضمحلالها.

فكم وكم بدأ المرءُ بنيّات غاية في الحسن، وبأفعال مماثلة، ولكن استغراقه في تفاصيل الحياة يجعل هذه النيّات والأفعال تتلاشى غاياتها الحسنى، وتنحسر عنها الصورة الجمالية من دون شعور من الإنسان في بعض الأحيان، وفي أحيان أُخرى مع الانتباه والوعي لذلك بسبب التردي الحاصل لديه في القيم الجمالية إلا أنه قد لا يجد لديه ما تبقّى من القدرة على كبح عملية الانزلاق السائر فيها، كأن تكون جاذبية المصالح والمكاسب أعظم من أن يتصدى لها خزين التقوى والممانعة ـ على سبيل المثال ـ الموجود لديه.

أو قد يندفع المرء باتجاهٍ ما يعتقد أنه مصلحة له، ولكن عارضاً من العوارض القَدَرية، وبتعبير أصح عارض بلطف إلهي، يقف قبالة هذا الاندفاع ويجبره على الانصراف بتمحيصٍ ما، ثم تبدو له نعمة هذا الانصراف بسبب مصلحةٍ أهم لم تك منظورة للعبد أثناء اندفاعه لتأمين تلك المصلحة، وَفقاً للمبدأ الذي يطرحه الإمام المنتظَر صلوات الله عليه في دعاء الافتتاح: "ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأُمور".

إذ في كثير من الأحيان تتملك الإنسان رغبة مُلحّة باتجاه أمرٍ ما، ويصرف في سبيل ذلك من الجهد والإمكانات ما يوحي بأنّ الدنيا كلّها قد تعلّقت بهذا الأمر دون غيره، فيأتي ابتلاءٌ ما، أو قل: تمحيصٌ ما، يعيقه عن ذلك، ثم ليكشف للإنسان من بعد حين أنّ هذه الإعاقة وذلك التمحيص كانا رحمة إلهية كبرى له أو لغيره.

ولنا في قضية نبي الله موسى مع العبد الصالح الخضر صلوات الله على نبينا وآله وعليهما، في خرق السفينة مثال ذو عبرة بليغة، فكلّ المظاهر كانت توحي لموسى صلوات الله عليه أن خرق السفينة من قبل الخضر عليه السلام كان يمثل خطراً كبيراً وضرراً كبيراً لأصحابها، وبالنتيجة فقد اعترض اعتراضاً شديداً على الخضر عليه

السلام[1] حتى جاء توضيح الخضر عليه السلام بعد موجة الاعتراض الموسوية: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [2].

ولعل من أفضل السبل لمعالجة مثل هذه المواقف هو التعمّق في الالتزام بالمبدأين التحليليين التاليين وربطهما ببعض؛ الأول منهما هو ما سبق أن أشرنا إليه من دعاء الافتتاح: "ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأُمور"، والثاني ما طرحه الخضر عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [3]..

فكم تبدو السماء مكفهرّة وأجواء الدنيا قاتمة عند المبتلى، ولكن الصبر وتسليم الأُمور لمن نعتقد أنه ألطف وأرأف وأرحم بنا من أيّ أحد في هذه الدنيا، يجعل الأُمور في إطار الحَل دوماً، فإنْ شملنا البلاء صبرنا فكنا من الفائزين بالتمحيص، وإنْ لم يشملنا ظفرنا؛ لأننا لم نفقد ثقتنا ومرجعيتنا لله في كلّ الأُمور، مما يعطينا زخماً كبيراً في تربيتنا وفي تأهيل محتوانا الداخلي للآتي من أُمور الدنيا.

ولا شك أنّ التمحيص على صعيد آخر يأتي بمنـزلة المحطة التي يمكن أن يجدد المؤمن فيها همّته وعزمه ونيّاته في الاتجاه السليم، بعد أن أكسبه التمحيص خبرة جوهرية في مجالات تقييمه لنفسه ومحيطه، فالبلاء حينما يقبل قد يفقد الإنسان القدرة فيه على التوازن العقلي والوجداني، مما قد يعظّم على نفسه البلاء، ويعطي الشيطان القدرة والقابلية لكي يحوّل هذا البلاء إلى هول وفزع ثم إلى هلع وجزع، مما يجعله على مشارف الهاوية التي تفقده إيمانه، ولكن هدوء العاصفة التمحيصية ـ لو صح التعبير ـ سيكشف للإنسان واقعه كما هو، لا كما تزيّن له نفسه أو تزوّق له أنانيته، مما يكون سبيلاً لتقييم أكثر جدية في التعامل مع حياته المعنوية، وبالتالي سيمكّنه بقدرة

---

١ يجب أن لا يتوهمنّ أحدٌ أنّ الخضر كان أعلم من موسى عليهما السلام، بل على العكس، ولكن النبي موسى عليه السلام كان مكلّفاً بالشريعة الظاهرية، و من الواضح أنّ الشريعة الظاهرية كانت تقف مع كلّ اعتراضات موسى على الخضر عليهما السلام، ولكنّ الخضر كان مكلّفاً بالعمل على حقائق الأشياء لا على مظاهرها، مما جعل أعماله كلّها صحيحة من حيث حساب مصير هذه الأشياء، وبالتالي فلا تنافي بينهما إطلاقاً، وقد فصّلنا الحديث عن ذلك في كتابنا "عصمة المعصوم عليه السلام وَفق المعطيات القرآنية"؛ فراجع.

٢ سورة الكهف: ٧٩ .

٣ سورة الكهف: ٦٨ .

أكبر حتى لو تعاظم الامتحان القادم[1]؛ هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى، كيف يبين معدن الإنسان وجوهره؟ وكيف يتفاضل ويتمايز الناس على بعضهم من دون أن يوضعوا في ميادين الاختبار والتمحيص؟ فالنحاس والذهب ـ مثلاً ـ في الصفرة متحدين لدى كثيرين، وما من مجال للتمييز بينهما إلا بعرضهما على النار التي من شأنها أن تكشف أي المعدنَين الأصفرين هو ذهب والآخر هو نحاس.

وهذا الأمر لا يتوقف عنده مبدأ الثواب والعقاب، ولا مبدأ التحسين والتقبيح فحسب، بل تتوقف عنده آثار اجتماعية جمّة، ولا سيما بالنسبة لعملية الظهور التي تحتاج إلى أُناس صُدَّق، لا إلى واجهات دعائية إن صح التعبير، فهذه العملية ليست عملية حربية يمكن حسم موقف الإنسان فيها من خلال لحظات النـزال، وبالتالي لا تدع نتائجها مجالاً للشك والتردد؛ إذ إنّ النتائج حاسمة في مثل هذه الأُمور.

---

١ في شهر مايس/أيار من عام ١٩٧٦، خلال وجودي في زنزانات النظام المجرم في بغداد، وأثناء موجة من التعذيب الشديد الذي لا يطاق عُرِّضت له في الشعبة الثانية بعد إحالتي إليها من الشعبة الخامسة، كنت قد صرخت أكثر من مرة متألماً، وحين أُعدت إلى زنزانتي بعد انتهاء التعذيب في ذلك اليوم انتقدت نفسي كثيراً عن سبب إطلاقي تلك الصرخات في وقت كان وحوش البعث يتلذذون بذلك، وفيما جال في فكري أني في بلاء رباني وعليَّ أن أُثبت أني أقوى من هؤلاء الأوغاد، صممت على أن لا يصدر مني في الغد أي صوت حتى لو عُرِّضت لتعذيب أشد منه.

واتفق في اليوم التالي أنّ التعذيب كان أضعاف ما عُرِّضت له في اليوم الذي قبله، وبطريقة لا توصف، وأتذكر أن قدمي اليمنى كانت قد تورمت وكبر حجمها، و ارتفع ورمها إلى ما يقرب من ٢٠ سم، وكنت كلّما أردت أن أصرخ أتذكر تلك المحاسبة حتى تصور الجلادون أنه قد خرس لساني وكلّما طالبوني بالكلام كنت أكتفي بتحريك شفتي بما لا يفهمون من الكلام، ولكني كنت أدعو نفسي إلى الصبر وتجاوز الامتحان، وأُسلّي نفسي بسيرة أصحاب الأئمة عليهم السلام، وكانت صورة مِيثم التمّار ومحمد بن أبي عمير (رضوان الله عليهما) الأكثر حضوراً في ذهني.

وعلى الرغم من الآلام الرهيبة التي جعلتهم بعد انتهاء حفلة التعذيب أن يحملوني لعدم تمكّني من المشي، إلا أن مرور هذا التمحيص بنجاح قد حوّل ذلك إلى سعادة لا توصف، وقد كان غرضي من سرد الأمر من دون الاستعانة بمثل تاريخي من حياة الأئمة صلوات الله عليهم، أو كبار أصحابهم، ليس من باب السيرة الذاتية، وإنما كي أُشير إلى الإمكانية الهائلة الموجودة دائما لدى الإنسان العادي والمعضّدة دوماً بلطف الله سبحانه وتعالى والجالبة لمحبة الأئمة عليهم السلام لكي يتجاوز الامتحانات الشاقة والابتلاء العسير، فالله تعالى لا يكلّف بما يعسر على الإنسان تجاوزه، ولكنه سبحانه وتعالى يحبّ من عبده أن يتجلّى إيمانه في كلّ حين، ولذلك يختبره ويمحّصه لكي يبرز ذلك، والحمد لله أولاً وآخراً.

ولكن حينما تكون العملية بهذا الطول الزماني، ووَفق آليات التغيير الاجتماعي والذاتي المتاحة، وهي آليات قد تجعل الأُمور من الرتابة بمكان بحيث يتصور المرء أنّ شيئاً سوف لن يحصل على الإطلاق، ولكن فِعلها يكون فيه حالة من الإيغال في التعمّق باتجاه ذات ومحتوى الإنسان والجماعة، مما يحتاج المرء والجماعة ما بين مدة وأُخرى لاختبارات جدية تلاحظ فيها الاستعدادات والقابليات وما إلى ذلك، مثلها مثل التمارين العسكرية التي يحتاجها الجيش؛ لأنها تعطي صوراً تقريبية عن الواقع كما هو في ساحة المعركة، تلك الساحة التي لو دخلها الجيش فإنها لن تكون صالحة للمران أو الاختبار، بل هي ساحة فيها نتائج نهائية وحاسمة بالنسبة لمعركة وجوده وعدمه.

وهي لهذا في غاية الأهمية بالنسبة للمؤمن الذي يجد نفسه بين محطات متنافرة، فهو بين محطتي سوء العاقبة وحسنها، وبين محطتي الثبات والتخاذل، وبين محطتي النصرة والادّعاء، وبين محطات متعددة كلّها لها أهميتها الخاصة لنفس المؤمن الذي يجب عليه أن يطمئن من أن الأوضاع لو احتدّت، والأُمور لو اشتطّت يميناً أو يساراً، إقبالاً أو إدباراً، فإنه يبقى في الموضع الذي لا يختل فيه توازنه الإيماني والعملي، أو ما يتعارف عليه الأدب الديني بمسارات حسن العاقبة.

ولكن تبقى الأهمية الكبرى متعلقة بدور التمحيص في فضح الجهد المعادي وتوعية المؤمنين، فلقد وضع الله سبحانه وتعالى محق الكافرين كنتيجة لأُمور التمحيص، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، فهو إما أن ينتج قوة للمؤمنين، وإما أن يؤمّن فضيحة للكافرين حتى لو تمكّنوا من إيلام المؤمنين، ولكن هذا الإيلام ـ أو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالقُرح ـ بما أنه صفة عامة لعملية الصراع بين الحق والباطل ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[2] فالعبرة ليس بهذا الألم أو ذاك، وإنما العبرة في طبيعة ما ينجم عن ذلك من نتائج على المستوى الحضاري.

خذ مثلاً معركة كربلاء واتعظ بها، فالتمحيص كان مهولاً لمن اشترك في عرصات قتال كبرى، ولكن كم بدا من عرصات كربلاء من مواقف ومعطيات ظلت وما زالت وستبقى تشحذ الأجيال عاماً بعد آخر، وتحركها باتجاه القيم التي خرج من أجلها

---

١ سورة آل عمران: ١٤١ .

٢ سورة آل عمران: ١٤٠ .

ونادى بها الإمام الحسين صلوات الله عليه، على الرغم من أنه (بأبي وأمي) قتل يومذاك بالطريقة المفجعة المعروفة، ولكن ها هي أحداثها كأنها بادية الساعة، فكم تُحرّك مواقف العباس بن علي عليه السلام قيم الوفاء ونكران الذات في مَن يسمع بها؟ وكم تؤجج مواقف علي الأكبر عليه السلام معاني البطولة والشهامة في مَن يعرف بها؟ وكم تهتز النفوس لمعاني الفتوة والشرف التي سطّرها القاسم بن الحسن عليه السلام؟ وكم تشهق القلوب لهفة وإنبهاراً بموقف أصحاب الإمام الحسين صلوات الله عليه وعليهم في نكرانهم للذات وذودهم عن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.. وهكذا بقية المواقف التي كانت صورتها الظاهرة تمحيص هائل، ولكن محتواها عطاء عظيم في معركة الإيمان؛ فتأمّل!

وبالمحصّلة، فإننا لو نظرنا إلى التمحيص بنظرة كلّية، سنجد أنه يمثّل إحدى محطات الرحمة الإلهية، والروايات في هذا المجال متضافرة جداً، صحيح أن التمحيص قد يسقط القناع عن عدد كبير ممن يدّعون الإيمان، وبالتالي سينحسرون عن ساحة الهدى، ولكن الأصح هو أن وجود هؤلاء وهم متلبّسون بحالة الخداع أضرّ على الدين وعلى المؤمنين من وجودهم بينهم، ولهذا فإن السُنّة الربانية لا بُدّ من أن تستهدف تنقية المجتمع الرباني، وتسقط عنه أصحاب الغايات والمآرب الّذين لا يزيدون هذا المجتمع إلا خبالاً!

ومن هنا نجد أن بعض الروايات علّلت عملية التمحيص بأنها من أجل إخراج هؤلاء وفضحهم أو عزلهم؛ فضلاً عن تعزيز الولاء في قلوب المؤمنين، ولذا يروي الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن رسول الله صلوات الله عليه وآله قوله: "وسيكون بعدي فتنة صماء صيلم، يسقط فيها كلّ بطانة ووليجة"[1].

ويقول كلاً من أحمد بن زكريا، والحسن بن محبوب الزرّاد (رحمه الله) في روايتين متشابهتين: قال لي الرضا صلوات الله عليه: "يا حسن! سيكون فتنة صماء صيلم، يذهب فيها كلّ وليجة وبطانة"[2].

إنّ كلّ ذلك يوجب على الإنسان المنتظِر أن يبقى مستعداً دوماً ويقظاً تماماً لكلّ

---

١ كفاية الأثر في النص على الأئمة الإثني عشر: ١٥٨ .

والبطانة والوليجة: خاصة الرجل وبطانته، والمراد أن تظهر حقائق الرجال ويخرج منهم من كان يضمر في داخله غير ما يسرّ أهل الإيمان.

٢ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧١ ب٣٥ ح٤ وغيبة النعماني: ١٨٦ ح٢٨ .

لحظات التمحيص ووقفاته، ولعل ما في الرواية الشريفة التي وردت عن الإمام الكاظم صلوات الله عليه ما فيها بليغ عظة وعبرة لنا في هذا المجال؛ إذ يقول عليه السلام لسماعة بن مهران: يا سماعة! لا ينفكّ المؤمن من خصال أربع؛ من جار يؤذيه، وشيطان يغويه، ومنافق يقفو أثره، ومؤمن يحسده!

فقلت: جعلت فداك مؤمن يحسده؟!

قال: يا سماعة! أما إنه أشدّهم عليه.

قلت: وكيف ذاك؟!

قال: لأنه يقول فيه القول فيصدّق عليه[1].

---

١ الأمالي أو المجالس للشيخ الصدوق: ٣٩٨ م٧٤ ح٩

ولا بُدّ لي أن أشير إلى أن ما يتم التحدّث به عن المؤمن هنا، إنما يكون في اتجاهين، فهو مرة يتعمّد الإساءة ظلماً وعدواناً، عندئذ سيخرج بهذا المقدار من دائرة الإيمان، وأُخرى لا يتعمّد الظلم، وإنما هو يعتقد بينه وبين الله أن الأمر هو على هذه الشاكلة، كأن تغيب عنه مقدمات أو معلومة ما فتشكّل لديه قناعة خاطئة، وإن كان لا يتعمّد الخطأ والإساءة، فهذا معذور بهذا المقدار، وإن كان قد يلام من جهات أُخرى، كأن لا يكون قد حمل أخاه على ما أُمر بحمله على الأحسن، أو لعدم تثبّته.

ولأن الأمر كأنه ابتلاء يومي يجابه المؤمن المنتظِر، لذلك فمن المناسب أن أقتطف من سيرة العلماء الأبرار مثالين رائعين على طبيعة تعاملهما مع أُمور من هذا القبيل، وكلا المثالين سأرويهما عن الإمام الراحل السيد محسن الحكيم (قدّس الله نفسه الزكية)..

أولهما: إن الإمام الراحل كان يخرج من محل الدرس الذي يلقيه في وقت محدد ليذهب إلى الدرس الآخر في محل آخر، وفي نفس الوقت كان أُستاذ المجتهدين الشيخ حسين الحلي (طيّب الله ثراه) يخرج من محل درسه متوجهاً إلى محل درسه الآخر، وكانت طبيعته أنه ينشغل تفكيره بالدرس المقبل عليه أثناء خروجه من الدرس الأول، يقول الإمام الراحل الحكيم (قدّس سرّه): إنه ظل يلقي السلام على الشيخ الحلي طوال تسع سنوات، ولم يردّ عليه الشيخ السلام مرة واحدة! وصادف أنهما التقيا في مجلس فاتحة أقيم على روح أحد المؤمنين، فسأل الإمام الراحل الشيخ الحلي عما إذا كان قد ألحق به أذىً أو إساءة ما؟ فاستعاذ الشيخ الحلي بالله نافياً ذلك بالمرة، فتبسّم الإمام الراحل الحكيم وقال له: إذن لم لا تردّ سلامي الذي أُلقيه عليك صباح كلّ يوم منذ تسع سنوات؟! ففغر الشيخ الحلي فاهه عجباً، وأقسم للسيد بأنه لم يسمعه ولا مرة؛ لأن فكره عادة ما ينشغل بالدرس الذي هو مقبل عليه، واعتذر بشدة، ولكن الإمام الراحل لم يقابله إلا بكلّ تصديق وقبول لقوله.

ونلاحظ هنا أنه كان من الممكن أن يدخل سوء الظن بشكل شديد، ولكن الإمام الراحل لم يسمح بذلك، وحمل أخاه الشيخ الحلي على المحمل المحمود، وقد تبين أن إحدى المعلومات

يبقى عليَّ أن أُشير إلى أن البلاء والتمحيص ليسا أمراً واحداً، على الرغم من أنهما قد يشتركان في المظهر الواحد، فالبلاء أعم من التمحيص، فهو يشمل شؤون الدين والدنيا، ولكن التمحيص يكون خاصاً بشؤون الإيمان، وهو يستهدف بشكل عام التركيز على المحتوى الداخلي للإنسان؛ للتأثير على مواقفه من مختلف شؤون الدنيا، فإن كان التمحيص من الله جلّ وعلا، فإنه يستهدف هذا المحتوى؛ ليبتلي الإنسان في أيّ شأن من شؤون الدنيا ليراه أيشكر أم يكفر؟ وإن كان من الشيطان وحزبه من الإنس والجن، فإنه يستهدف هذا المحتوى ليجعله أكثر خضوعاً لشؤون الدنيا ومتطلباتها.

خفيت على الإمام الحكيم ثم ارتفعت بمجرد أن أوضح الشيخ الحلي حالته التي كان عليها، ولك أن تقيس ذلك على نفوسنا ماذا كنا نصنع لو حصل معنا مثل ما حصل للمبرورَين (رضوان الله تعالى عليهما)؟

أما القصة الثانية، فيرويها الشهيد المبرور السيد محمد مهدي الحكيم (قدّس سرّه) عن أبيه الإمام الراحل، يقول: إن المرجعية العامة حينما آلت إليه، طلب من لجنة خاصة كلّفها بالبحث عن الطلبة المنشغلين بالدرس (باعتبار أن هناك من يرتدي ملابس طلبة العلم لأسباب أُخرى غير العلم ولا يتابعون التحصيل العلمي) لكي تتم العناية المالية المناسبة بهم، وبالفعل أعدت اللجنة القائمة المطلوبة، وجاءت بها إلى الإمام الراحل، فنظر فيها فقال: إني لا أجد اسم العالم الفلاني فيها؟! فقيل له: إن هذا الرجل لا يدع محلاً أو مجالاً إلا ووقع فيك! فما كان منه إلا أن قال لهم: إني أعرف أنه يفعل ذلك، ولكني أعتقد بتدينه! وهو حينما يتعرّض لي إنما يتعرض لأنه يعتقد أن هذا هو مقتضى الدين، نتيجة لغياب المعلومة الصحيحة عنه، وهو معذور!! وأمر بالبرّ به كما يبرّ بأكثر الناس إخلاصاً له!!

ولك مرة أُخرى أن تقيس ذلك على سلوكياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية!!

ج: المشكل العقائدي:

أشارت الروايات الشريفة الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام إلى أن واحدة من المحطات المهمة في استحقاقات الظهور هي المشكلة العقائدية، وينبغي أن نلاحقها في بعدين:

أولهما يتعلق بما يدور في داخل مجتمع المنتظِرين من خلال ما يؤدي إلى تسرّب الانحراف والتشكيك إلى خط الإيمان بالإمام المنتظَر صلوات الله عليه، وهذه المشكلة وإن كانت متعلقة بالأفكار والتصورات إلا أنها تمثل في واحدة من معالمها أحد الإفرازات الطبيعية التي تترتب في العادة على شدة البلاء وطول الأمد وضراوة التمحيص التي تحدّثنا عنها في ما سبق.

وثانيهما يتعلق بطبيعة العنت العقائدي الذي سلّطته وما زالت أنظمةُ القمع الفكري والعقائدي على المنتظِرين وقواعدهم الشعبية في مجمل أفكارهم العقائدية، ولا سيما في ما يرتبط بإيمانهم المهدوي.

ونلاحظ في البداية أن الإفرازات المترتبة على شدة البلاء تأخذ وستأخذ مداها، وَفقاً لطبيعة الإعداد الفكري والروحي لدى المنتظِرين؛ وذلك ليس لأن الفكر هو نتاج الانعكاسات الاجتماعية كما تروّج لذلك عديد من الفلسفات الأوربية، ولا سيما الفلسفة الماركسية[1] التي بلغ بها الإسفاف إلى درجة ما تلفظ به فردريك أنجلز Friedrich Engels (١٨٢٠ـ١٨٩٥م) حينما تصوّر أن الفكر نتاجٌ لعضو مادي هو

١ يقول ستالين: يجب البحث عن منشأ حياة المجتمع العقلية، وعن أصل الأفكار الاجتماعية والنظريات الاجتماعية والآراء السياسية، لا في الأفكار والنظريات، ولا في الآراء والأوضاع السياسية نفسها، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع، في الموجود الاجتماعي الذي تكون هذه الأفكار والنظريات والآراء وما إليها انعكاساً له. انظر: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية: ٥٠؛ جوزيف ستالين. دار دمشق.

ومن هنا جاءت المقولة الماركسية الشهيرة: ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل على العكس فإن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم. انظر: مبادئ أولية في الفلسفة: ١٧٥؛ جورج بوليتزر. دار الفارابي. بيروت ٢٠٠١، ط٥ .

الدماغ[١] وهو مما يضحك الثكلى في عالمنا المعاصر؛ لأن الفيل سيكون آنئذ هو الأعظم فكراً من الإنسان نتيجة لحجم دماغه!!

بل لأنّ الأزمات ـ أي أزمة[٢]، ومن أي نوع ـ تلقي عادة بظلالها على جوانب متعددة في نفس الإنسان، مما يؤدي إلى تضخيم موجبات اليأس والإحباط لديه، وهذه بدورها تبحث لها عن المسوّغ الفلسفي أو الفكري الذي يمكن أن يطفئ السعير الذي يتولّد من الصراع بين قناعات الإنسان وبين شظايا الأزمة لو صح التعبير، مما يؤدي في بعض الأحيان إلى تغليب تداعيات الأزمة على تلكم القناعات، وعندئذ تبدأ عملية الشك ثم تتطور إلى الجحود والرفض لتلك القناعات.

إن هذه العملية في الغالب موضوعية، أي أنها لا تتم بطريقة اعتباطية، وإنما وفق سياقات منطقية حاكمة على حركة الشعوب وأفكارها، وغالبية الثورات الاجتماعية انطلقت نتيجة لأزمةٍ ما؛ مِن رفضٍ لأفكار كانت تسود ومصالح كانت تهيمن، وتبقى العبرة في طبيعة الفكر ومتانته من عدمه من جهة، ووعي الأُمة وحصافتها من عدمها من جهة أخرى، وثقل الأزمة وشدتها من ناحية ثالثة، فقد يكون الفكر ضحلاً مما يؤدي بالأزمة إلى أن تسحق الفكر ومن يحمله، كما رأينا في المجتمع الأوربي كمثال، ففي كل أزمة مرّ بها نجد أن هذا المجتمع يتخلّى عن الأفكار التي كان يحملها، لصالح أفكار تأتي من بعد الأزمة أو متزامنة معها.

فعلى سبيل المثال نلاحظ في أزمة الصراع بين الوثنية الرومانية والمسيحية الاختراقَ الوثني الكبير في الجسم المسيحي عبر توما الأكويني Tomas Aquinas (١٢٢٤-١٢٧٥ م) كيف أدى بوثني كبير أن يقف على أعلى سدة المؤسسة المسيحية برمّتها ومُنح درجة قديس، مما كان له أكبر الأثر في إخراج فكر مسيحي تداخلت فيه الوثنية إلى حد كبير.

---

١ يقول أنجلز: إنّ شعورنا وفكرنا مهما ظهرا لنا متعاليين ليسا سوى نتاج عضو مادي جسدي هو الدماغ، فليست المادة من نتاج الفكر، بل إن الفكر نفسه ليس سوى نتاج المادة الأعلى. انظر: لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية: ٥٣ . ٥٤، دار دمشق، والمضحك المثير هو أن هذه العبارة قد تم حذفها من الطبعات المتأخرة لدار التقدم الروسية!!

٢ ما نقصده هنا بالأزمة كل حدث اجتماعي يكون ضجيجه شديداً بحيث تكون الرؤية والبصيرة فيه مغطاة إلى حد كبير من قبل هذا الحدث، وبالتالي فإن الأزمة المشار إليها لا ضرورة في أن تكون من نمط سلبي، فقد تأتي الأزمة على شكل إيجابي، كأن تقبل الدنيا على بعضهم بشكل تفقده اتزانه لتشكّل عملية إقبال الدنيا نمط الأزمة الذي يحيق بهذا الإنسان.

وفي أزمة محاكم التفتيش نشأت الأفكار الرافضة للفكر المسيحي السائد يومذاك، وتعاظمت لنجدها تنطلق بعنف شديد قبل الثورة الفرنسية، وهي الأخرى أعطت صفارة البدء لإطلاق موجات الجحود، وحطمت سدوداً كبرى كان الفكر المسيحي قد بناها، ومع مرحلة ما بعد الثورة الفرنسية وجدنا لوناً فكرياً يتقدم مع كل أزمة وصولاً إلى عصرنا الحاضر.

ولئن شهدنا اليوم صراعاً فكرياً صاخباً بين أنصار الحداثة وما بعد الحداثة والعولمة فبسبب الأزمات التي مرّ بها المجتمع الأوربي وما زال، وأنا أعتقد أننا سنكون في كل يوم أمام نمطية فكرية جديدة تسود في أوربا ثم سرعان ما تضمحل لتحل محلها غيرها وهكذا، ولا سيما أن الفلاسفة الأوربيين منذ الصدمة التي أحدثها تشارلز داروين في الفكر الأوربي قد أسسوا لفكرة مفادها أن الفكر ما هو إلا انعكاس من الواقع الاجتماعي، مما فسح للأزمات أن تتسيّد على الفكر هناك وتلقي بظلالها عليه إلى حد كبير، أو بقول آخر سيبقى الفكر هناك خادماً لمنظومة المصالح الرأسمالية التي تسيطر على المجتمع الغربي بشكل عام، لا أن يكون الفكر قائداً لعملية تكوين المصالح ومنظّماً لها.

ولكن الفكر حينما يكون قوياً فإن الأزمات لا تشلّه، نعم قد تشلّ مؤسساته، أو تضعفها، وقد توهن في إرادة أُمته، ولكنها لا يمكن أن تنال من الفكر ذاته، ومع قدرة الفكر على البقاء يظل حراك الوعي وما يخلقه من زخم في الإرادة يعتمل في داخل الأُمة، والفكر الإسلامي بصورته الإمامية شاهد حي وسيبقى كذلك، فكم من الأزمات مرّت بالمجتمع الإسلامي، وكم كان بعضها عاتياً، إلا أن من الواضح جداً أن الفكر الإسلامي ظل يقاوم هذه الأزمات على الرغم من تضافر الجهود المتعددة، يستوعبها تارة كما حصل مع الغزو المغولي، ويقاومها تارة كما هو الحال مع الغزو البريطاني الفرنسي.

ولعل أفضل دليل على صورة المقاومة هذا الصراع الشرس بين الإسلام والعلمانية الذي نشهده اليوم، والذي لم توفّر فيه العلمانية جهداً ولا إمكانية هائلة ترتكز على الجهد الاستعماري والقدرة الغربية بشكل عام والأنظمة التي سارت على هذين النهجين إلا وسخرتها ضده، ولكنه ظل في كل يوم يطرح إحراجاً جديداً أمام العلمانية المتمثلة بالحضارة الغربية وإفرازاتها، وتقدماً أكبر في وعي الأُمة، وبعد أكثر من قرن ونصف من هذا الصراع وبعدما لاح في النصف الأول من القرن الماضي كأنّ الإسلام يتراجع أمام الزحف العلماني، إلا أن النصف الثاني منه كان مؤشراً جاداً في

انقلاب المعادلة بالصورة الذي أنتج وعياً وصحوة باتت من الواقعيات السياسية الكبرى في غالبية البلدان الإسلامية إن لم أقل جميعها، ولا أريد هنا أن أتشعب بالموضوع أكثر من ذلك لوضوحه، ولأن الحيز هنا ليس حيزه[١].

ولا شك أن هذا الأمر هو مقدمة أساسية في معالم فكر الانتظار، باعتبار أن الانتظار أحد مفردات الفكر الإسلامي ومفاهيمه؛ ولهذا فإنّ الضغوط الفكرية كلّما اقترب عصر الظهور كلّما كانت أكثر، وهذه هي الأُخرى مرتبطة بسياقات موضوعية متعددة أيضاً، فالفكر يخزّن كلّ شبهة تطلق وكلّ تجديف يُذكر، وكلّما تقدمنا في الزمن كلّما وجدنا من يحاول أن يعيد ما في خزانة الشبهات والتحريفات والتشكيكات عبر صياغة عصرية تنسجم وطبيعة المرحلة الزمنية التي يعيشها أصحاب الأراجيف، مع ما يضاف إلى ذلك من شبهات جديدة، وهذه لو لوحظت مع خصوصية ارتفاع موجات البلاء وتأخر الفرج وانعكاساتها، فإنها تشكّل بمجموعها موجة ضخمة من الضغوط النفسية والمعنوية على القاعدة الشعبية للانتظار.

ويمكن لنا أن نرقب هنا أن الضغوط ستسلط على مجتمع المنتظِرين من كلّ جانب، فالحرب الموجهة ضد الإسلام تستهدفهم، وحرب الظلم ضد المستضعفين تستهدفهم، والحرب الموجهة ضد المتدينين تستهدفهم، والحرب الموجهة ضد التشيع والشيعة هي الأُخرى تستهدفهم، وعلاوة على كلّ ذلك فإنّ لهم نصيبهم الخاص من الاستهداف بعنوانهم كمنتظِرين، هذا ناهيك عما يتأتى من هجوم أمواج التحلل الاجتماعي والخلقي عليهم، فضلاً عن نزوع النفس الإنسانية أساساً للميل باتجاه التخلص من كلّ ضابط نفسي أو أخلاقي، وعدم النـزوع إلى ما يضبط القيم والمثل في السلوكيات، ولو أضفت إلى كلّ ذلك وسوسة شياطين الجن والإنس فإنك ستجد حجم الضغوط العامة على مجتمع المنتظِرين.

وهذا الأمر يعطينا صورة قاتمة تجعل الناجين من مخاضات هذه الحروب أقرب إلى القلة منه إلى الكثرة؛ فإنه في نفس الوقت يعطي العاملين والناهضين بالمشروع المهدوي أُفقاً جوهرياً في كيفية التعامل مع المجتمع وأفراده، ومن نافل القول فإنّ طرق التعامل هنا لا تنحصر بجانب دون آخر، ولا تتقيد بسلوك ونمط واحد، ولكنها من حيث المضمون لا تختلف عن سلوكيات وضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حدودها سعة وضيقاً وَفقاً لظروف الزمان والمكان ومقدرات الإمكان

١ استوعبنا الكلام على ذلك في بحثنا: "العلمانية والإسلام".

الاجتماعي والذاتي، بل هي نفسها.

وفي هذا الصدد فقد ركّزت الروايات الشريفة على المشكل العقائدي، وتحدثت عن استحقاقات الأزمة وانعكاس هذه الاستحقاقات على البنية العقائدية للإنسان، وسنلاحظ أن هذه الروايات أشارت إلى الانحراف العقائدي تارة من جانبه الفكري بصوره العامة، سواء كانت صور الشك أو الحيرة أو حتى الابتعاد عن الإيمان بهذا الأمر والتنكّر له، وأخرى من جانبه العملي، بمعنى أن عمل بعضهم يؤدي به إلى الانحراف والابتعاد عن الطريق، بل إلى الكفر في بعض الأحيان، حتى وإن بقي - في فكره - يتحدث عن التسليم بالفكر المهدوي.

وأيّاً ما يكن، فإنّ لدينا حشداً كثيراً من الروايات التي عرضت للمشكل العقائدي وتداعياته من جوانبه المتعددة، أذكر منها كأمثلة - لا على سبيل الحصر -:

قول الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله: "تكون له غيبة وحيرة حتى تضل الخلق عن أديانهم"[1].

وقول الإمام الصادق صلوات الله عليه - على ما يرويه أبو بصير -: "مع القائم عليه السلام من العرب شيء يسير، فقيل له: إنّ من يصف هذا الأمر منهم لكثير؟! قال: لا بُـدّ للناس من أن يمحّصوا ويميّزوا ويغربلوا، وسيخرج من الغربال خلق كثير"[2].

وكذا قول الإمام موسى بن جعفر الكاظم صلوات الله عليهما: "إنه لا بُـدّ لصاحب هذا الأمر من غيبة، حتى يرجع عن هذا الأمر مَن كان يقول به، إنما هي محنة من الله امتحن بها خلقه"[3].

وفي حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام يصف حال التأزّم الناجم من الغيبة: "أمَا والله ليغيبنّ إمامكم سنين من دهركم، وليمحّصنّ حتى يقال: مات! قتل! هلك! بأيّ واد سلك؟! ولتدمعنّ عليه عيون المؤمنين، ولتكفأنّ[4] كما تكفأ السفن بأمواج البحر، فلا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه، وكتب في قلبه الإيمان، وأيّده بروح منه،

---

١ كمال الدين وتمام النعمة: ٢٧٨ ب٢٥ ح٤ .

٢ غيبة النعماني: ٢١٢ ب١٢ ح٦ ومثله ح٧ .

٣ غيبة الطوسي: ٣٣٧ ح٢٨٤ .

٤ انكفأت السفينة إذا مالت إلى الأمام.

ولترفعنّ اثنتا عشرة راية مشتبهة لا يُدرى أيٌّ من أيّ"[1].

وقال صلوات الله عليه: "والله لتكسّرنّ تكسّر الزجاج، وإنّ الزجاج ليعاد فيعود كما كان، والله لتكسّرنّ تكسّر الفخار، وإنّ الفخار ليتكسّر فلا يعود كما كان، ووالله لتغربلنّ، ووالله لتميّزنّ، ووالله لتمحّصنّ، حتى لا يبقى منكم إلا الأقل؛ وصعّر كفّه"[2].

ويجيب الإمام الصادق عليه السلام مَن سأله: فكيف أصنع بهذه الشيعة المختلفة الذين يقولون إنهم يتشيّعون؟! قال: "فيهم التمييز، وفيهم التمحيص، وفيهم التبديل، يأتي عليهم سنون تفنيهم، وسيف يقتلهم، واختلاف يبددهم"[3].

وفي حديث طويل للإمام الصادق صلوات الله عليه، يرويه سدير الصيرفي بعد أن دخل عليه وبعض أجلّة الأصحاب، ورأوه (بأبي وأُمي) يبكي شوقاً إلى الإمام القائم صلوات الله عليه، قال: "وتأملت منه مولدَ غائمنا[4]، وغيبتَـه، وإبطاءه، وطولَ عمره، وبلوى المؤمنين في ذلك الزمان، وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته، وارتداد أكثرهم عن دينهم"[5].

والروايات في هذا الشأن كثيرة كما أشرنا من قبل، وهي تؤكد وقوع الانحراف العقائدي كما تؤكد مرور المؤمنين بأجواء التأزم والتزلزل الفكري أو العقائدي، ولكنها في كل الأحوال لا تشير إلى ضعف في المبنى العقائدي، ولكنها تؤكد بواقعية أن الأزمة تلقي بظلالها على الإنسان المؤمن فتوقع عقله وفكره وقلبه تحت ضغطها، فإن استسلم للأزمة وتداعياتها من الناحية الفكرية وقع في المحذور، وإن كان صابراً ثابتاً فإنّ هذه الأزمة وغيرها لن تأخذ منه، بل تزيده إيماناً وقوة.

والتجربة التاريخية مفيدة جداً في الكشف عن قوة الفكر الإمامي التي أكسبت

---

١ غيبة الطوسي: ٣٣٧ - ٣٣٨ ح٢٨٥ .

٢ غيبة النعماني: ٢١٥ ب١٢ ح١٣، وصعّر كفه إذا أمالها زهداً بالشيء.

٣ غيبة النعماني: ٢١١ ب١٢ ح٤ .

٤ كذا في المصدر، ولو فرضنا صحة اللفظ، فهو والغائب بمؤدى عملي واحد، على الرغم من الفارق اللغوي بين الاثنين، ويحتمل أن يكون مصحّفاً، فأبدل "قائمنا" إلى "غائمنا"، أو أن الناسخ أو مَن يلقي عليه كان بلسان أعجمي، مما أبدل القاف غيناً في اللفظ، وهو أمر شائع عند الفرس، الذين يلفظون القاف غيناً، والغين قافاً، أو صُحّف من "غائبنا" إلى "غائمنا"؛ والله أعلم.

٥ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٥٣ ب٣٣ ح٥٠ .

ـ بمعية المنظومات التربوية الأخرى ـ المؤمنين كثيراً من القوة والحصانة والمنعة حتى إنّا وجدنا أنّ مصائب الدهر التي تجمعت عليهم في مرات عديدة لم تفتّ في عضدهم ولم تفلّ من عزيمتهم، وإنما زادتهم قوة وثباتاً، وما أدل على ذلك من خروج التشيّع منتصراً وقوياً من بعد كلّ معركة استئصال حاقت به، وها أنت ترى كم هو البون الشاسع؟ بين نداء بني أمية في مرحلة ما بعد كربلاء الطف: "اقتلوهم ولا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية!" ومن الوضع الحالي، فالمسيرة التي بدأت بآحاد كيف تحولت إلى مئات الملايين!! مع أن أيَّ مسيرة أخرى في التاريخ لم تعان مثل ما عانته هذه المسيرة، ومثل ما لاقته !!

وعلى ما يبدو، فإنّ هذه الروايات قد أومأت فيما أومأت إلى عنصرين أساسيين وراء هذا المشكل، وهما:

الأول: طبيعة إفرازات الأزمة، وأعني بذلك كلَّ ما تفرزه الأزمات التي تمر على مجاميع المنتظِرين، سيّان في ذلك الأزمات الخاصة بهم، أو الأزمات العامة التي تشملهم مع الجميع، ولا فرق في شكل الأزمة ومحتواها، فالأزمة تبقى أزمة، سواء أكانت فكرية أو اجتماعية أو أمنية أو اقتصادية؛ ولهذا يدخل هنا كلُّ ما يتعلق بطول المدة المتعلقة بالظهور ودوام الظلم وشدة وطأة الأزمة، وهذه الإفرازات بطبيعتها تتداخل مع البنية الوجدانية والنفسية للإنسان، وتتفاعل هذه البنية معها سلباً أو إيجاباً، مما يؤدي بدوره إلى ما سبق أن أشرنا إليه سابقاً من تأثيرات في مداخل اليأس إلى الشك ثم إلى الجحود.

والثاني: هو ما يتعلق بالمشكل العملي، ونعني به هنا أثر الأزمة على المصالح الذاتية للإنسان، ومما لا شك فيه أنّ المصالح ـ في الأعم الأغلب ـ هي أمور اعتبارية ونسبية، تختلف من إنسان إلى آخر؛ ولهذا قد نجد بعض الناس من يَعدّ اغتنام المال أو الجاه مصلحة كبرى، ويستقتل عليهما، وقد نجد لدى آخر لا أُبالية وعدم اكتراث تجاه هذا الأمر، والمشكل هنا يتعلق بتضارب المصالح التي تدفع بالإنسان إلى أن يتبع مصالحه على حساب عقيدته وموقفه العملي منها، وهنا تأتي عملية التسويغ والتعليل والتزيين لحفظ هذه المصالح لتلقي بثقلها ولو على حساب الدين والمعتقد، وهي في العادة تبتدئ بسيطة ثم تتعمق لتغلّف عادة بعملية التشكيك أو الجحود، وهكذا.

ولربما كان الأمر لا يحكي تسليماً قلبياً بهذا الجحود، كما حصل مع الواقفة أيام

الإمام الرضا صلوات الله عليه، فهؤلاء لم تك لديهم مشكلة فكرية بالتسليمَ للإمام الرضا عليه السلام، ولكن حاولوا أن يغلّفوا مصالحهم التي سيطاح بها لو قبلوا بالإقرار بإمامته عليه السلام من خلال الجحود به والتنكّر له.

وهو نفس الأمر الذي حصل مع ابن أبي الخطّاب الأسدي والمغيرة بن سعيد العجلي في عهد الإمام الصادق عليه السلام، وإن كان في صورة الغلو التي تحجّجوا بها إيثاراً لمصالحهم.

وكذا في شأن البلالي محمد بن علي بن بلال الذي تمسّك بالأموال التي كانت عنده للإمام القائم (روحي فداه)، وامتنع عن تسليمها إلى أبي جعفر محمد بن عثمان العمري (رضوان الله عليه)، وادعى أنه هو وكيل الإمام (عجل الله فرجه)، فصدر اللعن عليه والبراءة منه[١].

وكذا هو حال ابن أبي العزاقر الشلمغاني في عهد الغيبة الصغرى عبر احتجابه بأقوال الحلوليين؛ قال الشيخ محمد بن همام: إنّ محمد بن علي الشلمغاني لم يكن قطّاً باباً إلى أبي القاسم[٢]، ولا طريقاً له، وإنما كان فقيهاً من فقهائنا، وخلّط وظهر عنه ما ظهر، وانتشر الكفر والإلحاد عنه، فخرج فيه التوقيع[٣] على يد أبي القاسم بلعنه والبراءة ممن تابعه وشايعه[٤].

وجميع هؤلاء كانوا من المقربين، بل ومن المتزعمين في بعض الأحيان، ولكن المصالح الخاصة بهم لا الجانب الفكري هي التي جعلتهم يقفون موقفهم المضاد هذا الذي استلزم صدور اللعن عليهم والبراءة منهم، وهي دلالة أكيدة لنا في أن لا نتوقف عند الأسماء، ولا نطلب الأسماء، بقدر ما ننظر إلى الأعمال، فالحق لا يعرف بالرجال، ولكن الرجال يعرفون بالحقّ، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: "اعرف الحقَّ تعرف أهله"[٥]، فالأسماء المقدسة هي المعصومون عليهم السلام، ومَن سواهم يُعرف من خلال اتّباعه لهم.

ومن خلال الاستقراء العملي لما مرّ من التجربة التاريخية للتشيّع، فإنّ من المسلّم

١ غيبة الطوسي: ٤٠٠ .
٢ يعني: الحسين بن روح (رضوان الله عليه).
٣ أي الكتاب الصادر من جهة الإمام (روحي فداه).
٤ غيبة الطوسي: ٤٠٨ ح٣٨١ .
٥ أمالي الشيخ المفيد: ٥ ضمن ح ٣ .

به أن حركة ارتدادٍ فكري ذات بال لم تحصل، ولكن من الواضح أن الارتداد العملي داخل الشيعة قد وقع، ولكن هو الآخر كان محدوداً لا يتناسب مع المدى التاريخي للقضية وتعقيداتها والظروف السياسية التي مرّت بها، وأحسب أن غالبية ما أشارت إليه الروايات في هذا الصعيد ناظر إلى هذا الأمر دون الشأن الفكري، ولكن هذا لا يعني أن الارتداد العملي لن يقع ولا سيما في الزمن المقارب لظهوره صلوات الله عليه؛ إذ إنّ عدداً كبيراً من الروايات قد أكّدت حصول ذلك، كما في رواية سدير الصيرفي الطويلة، التي يؤكد الإمام الصادق صلوات الله عليه فيها وقوع الارتداد العملي، قال: "وارتداد أكثرهم عن دينهم"[1].

أمّا بالنسبة للعنت والقمع العقائدي، فقد كان شرساً وقاسياً جداً في مختلف الأدوار التي مرّ بها المنتظِرون، سواء كان ذلك في زمن الأئمة عليهم السلام أو في زمن الغيبة الكبرى، وقد اتخذ هذا العنت صوراً متعددة، ولكنها كانت تجتمع في قاسم مشترك واحد، وهو عدم القبول بمدرسة أهل البيت عليهم السلام بكل الوسائل، سيّان في ذلك الوسائل المشروعة منها وغير المشروعة.

ولو تجاوزنا صور الظلم الاجتماعي الذي سلّط على هذه المدرسة المباركة، تلك الصور التي أسهمت بشكل فاعل في زيادة الرقعة الشيعية كمّاً ونوعاً. فإن أساليب الرفض العقائدي قد اتُخذت من قبل أعداء هذه المدرسة دون التورّع من البهتان أو الكذب الصريح حتى لو كان هذا الكذب ينجر إلى تكذيب القرآن الكريم، ففي بعض الأحيان كانت بعض الأكاذيب تطلق حتى لو كانت متعارضة بوضوح مع المتسالم عليه عند جميع المسلمين، كأن يقال باستحالة طول عمر الإمام صلوات الله عليه، مع أن المتسالم قرآنياً عدم وجود هذه الاستحالة، وكيف؟ ونفس القرآن الكريم هو الذي تحدّث عن عمر نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2] بل إن المتسالم تاريخياً لدى المسلمين قاطبة طول حياة الخضر عليه السلام، وهو ليس بنبي، وإنه كان في زمن موسى صلوات الله عليه وما زال حياً لحد الآن.

وليس هذا فحسب، بل إنهم يؤكدون حياة الدجال ابن صائد من عهد رسول الله صلوات الله عليه وآله حتى أشراط الساعة!! كما مرّ سابقاً في الفصل الثاني من هذا

---

١ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٥٣ ب٣٣ ح٥٠ .

٢ سورة العنكبوت: ١٤ .

الكتاب، وقد رووا ذلك في أصح كتب أحاديثهم ومروياتهم.

والأنكى من كل ذلك إنهم رووا عن بعض من لا يتهمونه بالكذب رؤيته لكلب أصحاب الكهف كما حكى ذلك ابن أبي حاتم في تفسيره راوياً عن سفيان: قال رجل بالكوفة يقال له: عبيد وكان لا يتهم بكذب: رأيت كلب أصحاب الكهف أحمر كأنه كساء أنبجاني.[1]

وحكى السيوطي عن ابن ابي حاتم[2] عما أخرجه من طريق جويبر عن عبيد السواق قال: رأيت كلب أصحاب الكهف صغيراً باسطاً ذراعيه بفناء باب الكهف وهو يقول هكذا[3] يضرب بأذنيه.[4]

ومما يؤسف له أن باحثاً كالدكتور أحمد محمود صبحي يقول: "لا شكّ أنّ أقوى الاعتراضات الموجهة إلى عقيدة المهدي لدى الشيعة الاثني عشرية هو اعتقادهم بحياته طوال هذه المدة، ولا شك أن حياة المهدي أكثر من ألف عام موضع ارتياب وكفيل أن يهدم العقيدة من أساسها"[5].

١ تفسير ابن أبي حاتم ٧: ٢٣٥٢ ح١٢٧٤٣ .

وقد نقل السيوطي عن أبن أبي حاتم في الدر المنثور ذلك ٤ :٢١٦ .

والكساء الأنبجاني منسوب إلى منبج المدينة السورية المعروفة، وقد قال ابن قتيبة: إن ذلك لا يقال: أنبجاني لأنه منسوب إلى منبج وفتحت باؤه في النسب لأنه خرج مخرج منظراني ومخبراني. انظر أدب الكاتب: ٣٢٢ .

٢ لم أجده في تفسير ابن أبي حاتم.

٣ قال بالشيء هكذا: أي فعل.

٤ الدر المنثور ٤: ٢١٦ .

٥ نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية: ٤١١ .

أقول: لعمري ماذا يفعل بشأن عمر نوح والخضر عليهما السلام؟! هل سيقول: إن القول بها وبمثلها يهدم العقيدة الإسلامية من أساسها، بل يهدم القرآن الكريم الذي تحدّث عن عمر نوح بشكل مباشر؟!!

وماذا يقول لعمر إبليس عليه لعائن الله؟!

فمن الواضح جداً أنّ ذلك ليس بمحال عقائدياً ولا بمستحيل عقلاً، ولا هو عسير على امتحان الله واختباره للبشر، وما كان من الكاتب ليس إلا خضوعاً للمنطق المادي الذي نهاه القرآن الكريم أن يغرق في الإلتزام به، ولا يمكن أن نفسّر قوله إلا بأنه مجرد استحسان ذوقي، فذوقه وأمثاله لا يطيق حصول هذا الأمر، ولكن هذا ليس بمدعاة للقبول به ولا سيما أن الذوق لا حجية فيه ولا دخل له في طرق الاستدلال والبرهنة، ما دام أن العقل يقبل بغيره من حيث القابلية والإمكان، والواقع التاريخي يساعد عليه ويؤكّده، كما تقدم في الفصل الثاني من الكتاب؛ فراجع.

وكأن يقال بعدم ولادة الإمام (بأبي وأمي) مع أن علماءهم القريبين من تلك الفترة كانوا قد أكّدوا وجوده كما أسلفنا من قبل.

وكأن يقال بأن الإمام المنتظَر (روحي فداه) قد غاب في السرداب، وأنّ الشيعة ما زالت تنتظر خروجه من السرداب[1]، وقد مُرّرت هذه الأكذوبة بطريقة سمجة جداً حتى من قبل مَن يحملون الشهادات الأكاديمية، ومن الذين يتشدّقون بالدقة العلمية وإعمال الآليات الموضوعية في البحث، ومن ذلك قول أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحراني الحنبلي في جملة أكاذيبه الكثيرة وتقوّلاته العديدة ضد التشيّع: "ومن حماقاتهم (أي الشيعة) أنهم قد يقيمون هناك (أي عند السرداب) دابة، إما بغلة وإما فرساً وإما غير ذلك[2]، ليركبها إذا خرج، ويقيمون هناك إما في طرف النهار وإما في أوقات أُخر مَن ينادي عليه بالخروج: يا مولانا اخرج! ويشهرون السلاح ولا أحد هناك يقاتلهم! وفيهم من يقوم في أوقات الصلاة دائماً لا يصلي خشية أن يخرج وهو في الصلاة، فيشتغل بها عن خروجه وخدمته!! وهم في أماكن بعيدة عن مشهده، كمدينة النبي (ص)، إمّا في العشر الأواخر من شهر رمضان، وإمّا في غير ذلك، يتوجهون إلى المشرق وينادونه بأصوات عالية يطلبون خروجه"[3].

وقد تابع محمد بن عبد الوهّاب شيخه ابن تيمية في أكاذيبه المخجلة فقال: "إن سبب جمعهم بين الظهرين والمغربين طول الدهر، مع اختيار التأخير فيهما، هو أنهم

---

١ قصة السرداب واحدة من مهازل النواصب والمرجفين من غيرهم، فمن المعلوم أن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه اختفى من حين نزوله إلى سرداب منزله في سامراء، وطُلب هناك فلم يروه، وإمكان اختفائه ليس بغريب مع الملاحقة، فلقد سبق لرسول الله صلوات الله عليه وآله أن اختفى من أمام أعين المشركين حال هجومهم على الدار، والأمر ليس بعمل معجز بقدر ما هو تفعيل لقوانين تعمل في مجال آخر غير مجال عالم المادة، أو هي أكبر من عالم المادة، كما أوضحنا ذلك في ما تقدم، وبصرف النظر عن ذلك، فإن وجود آية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] كاف في هذا المجال؛ لأنها من المجربات عند المؤمنين العاديين، فما بالك بإمام معصوم أو ولي من أولياء الله تعالى؟!

أما موضوع زيارته في السرداب؛ فلأنه مقام من مقامات وجود الإمام السابقة، والناس تطلب الزيارة في مواضع الآثار ومحلات الإقامة؛ فلا تغفل!

وللقوم أكاذيب عجيبة هنا، وأراجيف رخيصة نتعفف عن ذِكرها.

٢ ترى هل يثبت هذا حمق ابن تيمية أم كذبه أم نصبه، لدى من يعلم أن هذا كذب صريح ومحض اختلاق؟!

٣ منهاج السنة النبوية ١: ٢٨ - ٢٩ .

ينتظرون القائم المختفي في السرداب ليقتدوا به، فيؤخّرون الظهر إلى العصر إلى قريب غروب الشمس، فإذا يئسوا من الإمام واصفرّت الشمس وصارت بين قرني الشيطان نقروا عند ذلك كنقر الديك، فصلّوا الصلاتين من غير خشوع ولا طمأنينة!!"[1].

ومن مضحكات التكفيري محمد بن عبد الوهّاب قوله: "وقد صاروا بذلك بوقوفهم بالجبل على ذلك السرداب وصياحهم بأن يخرج إليهم ضحكة لأولي الألباب"[2]!!

---

١ رسالة في الرد على الرافضة: ٨٦ .

من المضحكات المبكيات أذكر حادثة جرت معي لأحد من صدّق أمثال ابن تيمية وابن عبد الوهاب هذا، فلقد تأخرت علينا الطائرة السورية عام ١٩٩٨ ونحن قافلون من الحج، ولذلك كان تأخيرنا في مطار جدة وحلّت صلاة المغرب، وصلى الناس وكنت قد بدأت بصلاة العشاء وإذا برجل ستيني عرفت لاحقاً إنه من أهل حلب ويعمل في العقارات بيعاً وتملكاً، فلما رأى حال الصلاة عندنا وما فيها من تأنٍّ وسكينة بقي واقفاً ينظر إلي إلى أن انتهيت من تسبيح الزهراء صلوات الله عليها فتقدم لي قائلاً وعليه مسحة من وجل أو خجل: يبدو إن الحاج من الجعفرية؟ فقلت له: بلى أتشرف، فقال متعجباً: وتتشرّف؟ قلت له: كيف لا أتشرّف بما أعتبره ديني المفترض عليّ من الله سبحانه وتعالى؟ فقال: لدي سؤال وأخجل أن أطرحه عليك، فطمأنته وأجبته: لا حياء في الدين وكنت أتصور أنه سيسألني في ما يخجل منه بعض الناس عادة في مسائل الطهارة أو الجنس أو ما إلى ذلك، ولكنه باغتني بشدة حينما قال لي: هل صحيح إن لدى الشيعة ذنب كما هو ذنب الحيوانات، وفي غمرة مباغتني بمثل هكذا سؤال لم أمتلك نفسي إلا وانفجرت ضاحكاً وهو خلاف سجيتي في بيتي فما بالك لو كان في مطار يعجّ بالآلاف؟ فقلت له وأنا في هذا الحال: وما رأيك أنت ونحن في أواخر القرن العشرين؟ فخجل الرجل أيّما خجل: وقال: يبدو لي إن شيخي كذب عليّ، ثم سألني على مدى أكثر من ساعة عن قصة تخوين جبرئيل الأمين بعد كل صلاة، وقصة تحريف القرآن وقصة عبادتنا لأمير المؤمنين صلوات الله عليه وأننا كلما نظرنا إلى السحاب سلمنا على أمير المؤمنين ومصحف فاطمة صلوات الله عليها وقصة أننا لا نأكل الشاة إذا كانت حمراء بل نضربها لأنها كعائشة وقصة يوم الطفية وهي التي يقول الوهابية بأن الشيعة يطفؤون الضوء ليل العاشر من المحرم ويقعون على بعضهم زنا وفجوراً فيقع الرجل منهم على كل من تلمسه يداه حتى لو كان ابنه أو كانت بنته أو أخته أو أمه، وأمثال هذه الأكاذيب الفاحشة والشنيعة، ثم دعا ابنه وكان شاباً مؤدباً للغاية وقال له بلهجته السورية الحلبية: اسمع يا بني ماذا يقول؟ حتى لا تخدع كما خدع أبوك كل هذه الفترة؟ وقضيت فترة الرحلة بعد أن جاء الأب وجلس إلى جنبي في الطائرة يستقصي الحال وهو يعتذر، وكم كان كريماً حينما عرض عليّ أن آتي إلى حلب وأقيم على أرض سيجعلها ملكي لكي أعلّم الناس حقيقة الجهل الذي يرتعون به!! فشكرت له ذلك ووعدته بأن أزوره بين الفينة والأخرى، إلا إن التوفيق لم يحالفني في البر بما وعدت.

٢ رسالة في الرد على الرافضة: ٨٦ .

ولعمري ما كان إلا قوله الذي يضحك منه عوام الناس فضلاً عن أُولي الألباب؛ لوضوح عدم وجود جبل أصلاً في سامراء!!

وهكذا لك أن تعرف حال عشرات، بل مئات الأكاذيب التي دبجتها مخيلة القوم وأحقادهم.

وعلى أي حال، فإنّ الروايات الشريفة أكّدت وقوع النمط الثاني من الارتداد، وأعني بذلك الارتداد العملي في زمن ما قبل الظهور، وفي أيام الإمام صلوات الله عليه الأُولى، فعدا ما يلقى من مارقة الناس ونواصبهم، فإنه عليه السلام يلقى حال إقباله إلى الكوفة معارضة ممن يطلق عليهم بالبترية، كما في رواية الشيخ المفيد بسنده إلى أبي الجارود، عن الإمام الباقر عليه السلام، في حديث طويل، قال: "إذا قام القائم عليه السلام سار إلى الكوفة، فيخرج منها بضعة عشر ألف نفس يدعون البترية عليهم السلاح، فيقولون له: ارجع من حيث جئت، فلا حاجة لنا في بني فاطمة! فيضع فيهم السيف حتى يأتي على آخرهم، ويدخل الكوفة فيقتل بها كلّ منافق مرتاب، ويهدم قصورها، ويقتل مقاتلتها"[١].

ورواها بلفظ مقارب في "دلائل الإمامة" المحدّثُ الطبري الإمامي، قال: "ويسير إلى الكوفة، فيخرج منها ستة عشر ألفاً من البترية، شاكِين[٢] في السلاح، قرّاء القرآن، فقهاء في الدين، قد قرّحوا جباههم، وسمّروا ساماتهم[٣]، وعمّهم النفاق، وكلّهم يقولون: يا بن فاطمة! ارجع لا حاجة لنا فيك"[٤].

ويروي إبراهيم بن عبد الحميد، قال: أخبرني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: "إذا خرج القائم عليه السلام خرج من هذا الأمر من كان يرى أنه من أهله"[٥].

وقد ذكرنا هذه الروايات هنا دون ذكرها في أبحاث ما بعد الظهور الشريف لأنّ انحراف هؤلاء لا بُدّ أنه كان مؤسساً له قبل ظهور الإمام عجل الله فرجه.

---

١ الإرشاد ٢: ٣٨٤ .

٢ أي مدجّجين به.

٣ في نسخة: وشمّروا ثيابهم؛ ولعله الأصح.

٤ دلائل الإمامة: ٢٣٩ .

٥ غيبة النعماني: ٣٣٢ ب٢١ ح١ .

وكيفما يكن، فإنّ الفتنة والتمحيص سيكون من الشدة العقائدية بمكان بحيث لا يلبث على هذا الأمر صحيحاً معافىً في عقيدته إلا المؤمنين الخلّص، وهو قول الإمام الصادق عليه السلام: "لو خرج القائم لقد أنكره الناس، يرجع إليهم شابّاً موفقاً، فلا يلبث عليه إلا كلّ مؤمن أخذ الله ميثاقه في الذرّ الأول"[1].

---

١. غيبة الطوسي: ٤٢٠ ح٣٩٨ .

د: التداعيات النفسية والوجدانية:

نحن معنيون هنا بملاحقة التداعيات النفسية والوجدانية التي تتخلف من عملية الانتظار، وذلك بصورتيها الإيجابية والسلبية، وقد أشارت الروايات الشريفة إلى بعض من هذه التداعيات، ويمكن لنا تلمّس جانباً آخر من هذه التداعيات التي تتخلف بشكل موضوعي من جراء السياسات الظالمة، أو من خلال حصول الأزمات الاجتماعية، أو من خلال طول الفترة التي تفصل بين المنتظِر وبين الفرج المنتظَر.

ولا يمكن لنا أن نلاحق هذه التداعيات إلا من خلال ملاحظة العوامل التي عايشها المنتظِرون في مجتمعهم، كأوضاع الظلم والعنت العقائدي والعزل الاجتماعي، وما يترتب على ذلك من أوضاع اقتصادية متردية، وكذا طبيعة العلاقات الاجتماعية التي يتسم بها المجتمع عامة، ومجتمعهم خاصة؛ إذ لكلّ هذه العوامل تأثيراتها الطبيعية والموضوعية على الأوضاع النفسية والوجدانية للإنسان المنتظِر، وقد تقدّم في ما ذكرنا من الروايات وجود كلّ هذه العوامل، واستفحالها فترة، وتراجعها فترة أُخرى، ولكنّ القدر المتيقن أنّ هاجس الانتظار وطوله وترقبه له آثاره الطاغية حكماً بمعية هذه العوامل، ولا سيما إذا ما دهمت مجتمع المنتظِرين أوضاعٌ سياسية أو أمنية تضيّق الخناق عليهم.

وحتى نستطيع أن نرسم الخطوط البيانية على هذا الصعيد، لا بُـدّ من استحضار العوامل التالية وأثرها في التركيب النفسي للفرد والمجتمع، مع ملاحظة أن هذه العوامل يجب أن ترقب كلّها معاً؛ إذ لكلّ منها أثره على الآخر، وهي تصبّ جميعاً ـ بقضّها وقضيضها ـ على هذا التركيب:

أ: **طول الغَيبة**: إذ إنّ طول الغيبة يرتدّ على الإنسان المنتظِر بجملة من العوامل النفسية والوجدانية، منها ما هو سلبي، كالشك والحيرة ولربما الضياع من جهة، والاستهزاء والتهريج من جهة المتربصين بهم من أعدائهم، وكذا ما يرتسم من غموض وشك في سلامة موقفهم واتهام من قبل الناظر إليهم من غير أعدائهم، ومنها ما يرتبط بالصورة الإيجابية التي تنعكس في مجالات الإعداد والتمهيد، تارة من خلال الأمل المنبعث من خلال أصل وجود المنتظَر (روحي فداه) وحفظه، وأُخرى

من خلال النمو العقائدي نتيجة لطبيعة ما ينتجه طول المدة من تراكم التجربة وتفاقم الوعي واتضاح الرؤية في المسائل الفكرية وكذا في مجريات الأحداث، وذلك ضمن تفصيل قد مرّ غالبه، وسيأتي مزيد منه لاحقاً.

ولعل مجمل ذلك يتلخص في قول الإمام الرضا عليه السلام: "كم من حرّى مؤمنة، وكم من مؤمن متأسّف حرّان[١] عند فقدان الماء المعين، كأني بهم آيس ما كانوا قد نودوا نداء يُسمع من بعد، كما يُسمع من قرب"[٢].

وكذا قول الإمام الجواد صلوات الله عليه: "لأنّ له غيبة يكثر أيامها، ويطول أمدها، ينتظر خروجه المخلصون، وينكره المرتابون، ويستهزئ بذكره الجاحدون، ويكذّب فيها الوقاتون"[٣].

ب: **الظلم الاجتماعي**: وهذا العامل الذي تحدّثت عنه الروايات كثيراً، كما في قول الإمام الصادق عليه السلام: "إنّ هذا الأمر لا يأتيكم إلا بعد إياس، لا والله لا يأتيكم حتى تميّزوا، لا والله لا يأتيكم حتى تمحّصوا"[٤] له ارتدادات نفسية كبيرة؛ إذ إنّ قسماً منها ينشأ بشكل موضوعي من خلال كلّ ظلم، وقسم منه موجّه أساساً من قبل الظلَمة أنفسهم لإيجاد الإسقاطات النفسية السلبية في نفوس المنتظِرين، وهذه الارتدادات تحصل على شاكلة الإحباط واليأس واللامبالاة وسرعة الملل وفقدان الثقة بالنفس وافتعال المشاكل الجانبية والانشغال بها، فضلاً عن إسهامها بشكل تلقائي بتوليد الزخم لموجات الشك والحيرة في النفوس، ولا سيما في وقت موجات الظلم الاجتماعي الكبيرة، ومع ولادة هذه الحيرة، ينشأ التشتت في الموقف الواحد، وتضعف حالة الطاعة نتيجة لكثرة الآراء التي سينهض بها كلّ من له قابلية التحلل من منظومة الرجوع إلى المرجعيات الخاصة بهذا الموضوع.

ولعل هذا هو ما يشير إليه حديث الصادق من آل محمد صلوات الله عليه للمفضّل ابن عمر وهو يصف الحالة الاجتماعية للمنتظِرين: "أمَا والله ليغيبنّ إمامكم سنيناً من دهركم، ولتمحّصنّ حتى يقال: مات، قُتل، هلك، بأيّ واد سلك؟! ولتدمعنّ عليه عيون المؤمنين، ولتكفأنّ كما تكفأ السفن في أمواج البحر، فلا ينجو إلا من أخذ الله

---

١ الحرّان: المتوجّع الشديد لشدة الظلم، أو شديد العطش، وهو الأنسب للسياق.

٢ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧١ ب٣٥ ح٣ .

٣ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٨ ب٣٦ ح٣ .

٤ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٤٦ ب٣٣ ح٣٢ .

ميثاقه، وكتب في قلبه الإيمان، وأيّده بروح منه، ولتُرفعنّ اثنتا عشرة راية مشتبهة، لا يُدرى أيٌّ من أيّ.

قال: فبكيت، ثم قلت: فكيف نصنع؟!

قال: فنظر إلى شمس داخلة في الصفة، فقال: يا أبا عبد الله! ترى هذه الشمس؟

قلت: نعم.

فقال: والله لأمرنا أبين من هذه الشمس"[1].

وقريب من ذلك مفاد ما قاله أمير المؤمنين صلوات الله عليه: "أمَا إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاتلاً، وأثرةً قبيحةً، يتخذها الظالمون عليكم سُنّة تفرّق جموعكم، وتُبكي عيونكم، وتُدخل الفقر بيوتكم"[2].

ويجب من بعد ذلك أن نلحظ الآثار الإيجابية الناجمة من الظلم الاجتماعي، التي تؤدي بشكل مهم إلى زيادة الوعي، والذي ينعكس على نفسية المؤمنين بمزيد من اليقين والطمانينة بوعد الله، ولا سيما أنّ هذه الأُمور قد سبق للأئمة صلوات الله عليهم أن تحدّثوا عنها.

ولا بُدّ لنا من أن ننبه إلى حقيقة جوهرية، وهي أن حركة النفاق السياسي والظلم الاجتماعي والعنت العقائدي والتجهيل الفكري لا يمكن فضحها إلا من خلال واقعها المتحرك من خلال صور الظلم التي تفرزها كنتيجة موضوعية لها، فهذه الحركة في العادة تغطي نفسها وظلمها بشتى البراقع والذرائع، وقد تتمكن من خداع الشارع الاجتماعي لبرهة من الزمن بهذه الذرائع، حتى قد تصل إلى تصديق ما لا يصدّق، كما فعلت مع فرعون حينما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3] لا بل ربما يناصرها هذا الشارع، ولكن واقعها الاجتماعي وتحركها يتكشّف مع الأيام الكفيلة بإسقاط البراقع والأستار.

ولك أن تتأمل في سيرة أيّ طاغية، كيف بدأت وهي منمقة ومزوّقة بشتى الذرائع والأستار، ولكن واقعها بات اليوم مفتضحاً إلى حد كبير؛ ولهذا فإنّ طول الغيبة على

---

١ الكافي ١: ٣٣٦ ح٣ .

٢ أمالي الشيخ الطوسي: ١٨٣ ج.٧، وتاريخ اليعقوبي ٢: ١٩٣ .

٣ سورة النازعات: ٢٤ .

الرغم مما يتزامن معه من بلاء وظلم، ولكنه هو كفيل بكشف كل الأكاذيب وتحطيم كل وسائل الخداع وفضحها، وكل هذا هو مقتضى ما يطرحه القرآن الكريم في شأن ارتباط تمحيص المؤمنين وصبرهم بمحق الكافرين وأصنافهم وبوارهم: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾[1].

ج: **الحرب العقائدية**: وقد مرّ الحديث عنها قبل قليل، ولكن ذِكرها هنا ضروري لملاحقة الآثار النفسية التي تنشأ من ذلك، وهذه الحرب تارة تأخذ طريقة التصدي المباشر، وأُخرى تأخذ أساليب الغزو الفكري المبطن والمستتر، والأخيرة هي الأخطر على المنتظِرين؛ لأنها في كثير من الأحيان تتوسل بأُناس من داخل البيت، أو بأُناس يغلّفون أحاديثهم بطابع العلمية والموضوعية، وبالنتيجة فإنّ هذا الجهد هو الآخر له آثاره الجمة على نفسية المنتظِرين، وبالاتجاهين السلبي والإيجابي معاً بما لا يخفى.

د: **علاقات المنتظِرين الاجتماعية**: **تحدّث عدد كبير من الروايات عن آثار الغيبة** على علاقات المنتظِرين الاجتماعية وسط أوضاع الظلم الاجتماعي والحرب العقائدية ضدهم، وقد أثارت هذه الروايات صورة موضوعية لما يمكن أن تكون عليه العلاقات الناشئة في وسط الظلم الاجتماعي والحرمان الذي يتسبب به، ففي ظل الغيبة الطويلة للإمام المنتظَر (بأبي وأمي) يمكن تلمّس نمطين من العلاقات:

أحدهما التقيّد بالتعاليم التي صدرت منه ومن آبائه عليه وعليهم السلام، أو يقترب منها، وهم بالعادة الفئة الأقل عدداً.

والثاني يتحلل من هذه القيود دفعة واحدة أو بالتدريج وَفقاً لطبيعة الأزمات التي تمر بهم، وطبيعة التمحيص الذي يشملهم.

وبالتالي، فإنّ هذين النمطين يفرزان تلقائياً علاقات تقارب وتباعد وَفقاً لطبيعة الوعي ونوعية التدافع الاجتماعي وأنساق التأثير التي تنعكس من الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يمرون بها.

وعليه، فإن من الطبيعي بمكان أن نجد صورتين من الأخلاقيات التي تتحكم بهذه

---

١ سورة آل عمران: ١٤٠ - ١٤١ .

العلاقات، فمن جهة سنجد علاقات التراحم والتكافل والتعاون والتناصر، وهي العلاقات التي تنجم من تكريس شعارهم صلوات الله عليهم المطروح في نصوص عدة، نجدها غالباً في النصوص الشعبية[١]، كقول الإمام الباقر عليه السلام في زيارة عاشوراء: "إني سِلم لمن سالمكم"، وكذا قوله عليه السلام في نفس الزيارة: "وولي لمن والاكم"[٢]، وترد أيضا في الزيارة الجامعة الكبيرة، المروية عن الإمام الهادي صلوات الله عليه[٣] وقد تأتي بألفاظ أُخرى كما في زيارة الإمام المنتظَر صلوات الله عليه في الزيارة التي يرويها محمد بن عبد الله الحميري عنه عليه السلام: "وادّاً لمن أحبكم"[٤].

وبطبيعة الحال، فإنّ الأخلاقيات المستوحاة من شعار "إني سلم لمن سالمكم" هي نفس الأخلاقيات التي ينادون بها، وهي فاعلة جداً في تنشيط أواصر العلاقات الاجتماعية في داخل الجماعة المنتظِرة والمؤمنة بهم صلوات الله عليهم، وهي في نفس الوقت نشطة في تحجيم عناصر التوتر والاحتقان والصراع في نفس هذه الجماعة، ولو على طريقة ابنَي آدم التي يعبّر عنها هابيل عليه السلام: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾[٥] أي: حتى لو حصل اعتداء من أحد أطرافها فإنّ الطرف المؤمن سيعمل بمقتضى الشعار المطروح ولا يرد على الإساءة بمثلها.

ومن جهة أُخرى سنجد أخلاقيات التنافس والصراع تتعاظم كلّما بعد الناس عن توجيهات وشرعة مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وقد أشارت جملة من الروايات الشريفة إلى ذلك، كما في قول الإمام الحسن عليه السلام الذي ترويه عمرة[٦] بنت نفيل: "لا يكون هذا الأمر الذي تنتظرون حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويلعن بعضكم

---

١ أقصد بالنصوص الشعبية هي النصوص التي صدرت منهم صلوات الله عليهم لعامة المتلقين، كما هو الحال في نصوص الزيارات أو الأدعية العامة، والتي يتم تداولها فعلاً من قِبل كلّ الشرائح الاجتماعية، سيّان في ذلك العالم المتبحر والساذج البسيط.

٢ كامل الزيارات: ١٧٧ ب٧١ ح٨ .

٣ من لا يحضره الفقيه ٢: ٦١٤ ح٣٢١٣ .

٤ المزار الكبير: ٥٧١ ب٩ .

٥ سورة المائدة: ٢٨ .

٦ في غيبة النعماني: عميرة، والصحيح على ما يبدو هو ما في غيبة الطوسي، وقد ذكرها الشيخ في أصحاب الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه. انظر: رجال الشيخ الطوسي: ٨٩ رقم ٩١٦ النساء رقم ٢ .

بعضاً، ويتفل بعضكم في وجه بعض، حتى يشهد بعضكم بالكفر على بعض! قلت: ما في ذلك خير! قال: الخير كلّه في ذلك، عند ذلك سيقوم قائمنا فيرفع ذلك كلّه "[1].

وفي نفس السياق يتحدث الإمام الصادق عليه السلام لعمر بن أبان الكلبي، فيقول: "كأني بالسفياني أو بصاحب السفياني قد طرح رحله في رحبتكم بالكوفة، فنادى مناديه: من جاء برأس رجل من شيعة علي فله ألف درهم، فيثب الجار على جاره ـ إلى أن يقول: ـ وكأني أنظر إلى صاحب البرقع؛ قلت: ومن صاحب البرقع؟ فقال: رجل منكم، يقول بقولكم، يلبس البرقع، فيحوشكم، فيعرفكم ولا تعرفونه، فيغمز بكم رجلاً رجلاً "[2].

ومثله حديث الإمام الصادق صلوات الله عليه، قال: "لا يكون ذلك الأمر حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض، وحتى يلعن بعضكم بعضاً، وحتى يسمّي بعضُكم بعضاً كذّابين "[3].

ويمكن لنا من خلال هذه الروايات ومثيلاتها أن نتبين ما تتجه إليه العلاقات الاجتماعية داخل الجماعة المنتظِرة، وهنا ننبّه إلى أمرين:

فتارة يكون الاختلاف الموجب للعلاقات السلبية ناجماً من رؤية لطبيعة المصالح، كما نلحظ في اختلاف مجموعتين سياسيتين في تشخيص المصالح، من دون أن يمسّ ذلك بنيان العقيدة وأُسسها، عندئذ فإنّ الوصول إلى هذا المنحى ما أشار إليه المعصوم عليه السلام في الحديثين آنفَي الذِكر يمثّل خللاً في الالتزامات الدينية، ويؤدي بدوره وبشكل تدريجي إلى النفاق.

وأخرى يكون الاختلاف ماساً بالمعتقد وضارّاً به، عندئذ يتجه هذا المنحى إلى الخلاف، مما قد يوجب الموقف الحازم تجاه ذلك حتى لو أدى ذلك إلى بروز السلوكيات التي تحدّث عنها الإمامين عليهما السلام، كما في حال ظهور البدع على سبيل المثال، وما يؤدي ذلك إلى نشوب حالة الاحتدام في الجدل، وقد ينجرّ إلى ما هو أكبر من ذلك، فالعالم مدعو لإظهار علمه وفقاً لمقتضى الحديث الشريف: "إذا

---

١ غيبة الطوسي: ٤٣٨ ح٤٢٩، وغيبة النعماني: ٢١٣ ب١٢ ح٩ مسنداً إلى الإمام الحسين (بأبي وأمي).

٢ غيبة الطوسي: ٤٥٠ ح٤٥٣ .

٣ غيبة النعماني: ٢١٤ ب١٢ ح١٠ .

ظهرت البدع فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله"[1]، حتى لو أدى ذلك إلى نشوء حالة الاختلاف، بل والخلاف مع هؤلاء، ولدينا أدلة صريحة ناشئة من خلال موقف الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله مع مجموعة مسجد ضرار، وكذا مواقف الأئمة عليهم السلام من أمثال المغيرة بن سعيد العجلي وابن أبي الخطّاب الأسدي والواقفة والفطحية وغيرهم، مما كان من مواقف حازمة للأئمة صلوات الله عليهم تجاههم دون تهيّب أو تردد من لعن بعض هؤلاء والبراءة منهم.

وبطبيعة الحال فإنّ الموقف المطلوب بعد تأمين الغطاء الشرعي يجب أن يتناسب مع طبيعة الخلاف وحجم تأثيره وظروفه والإمكانات المتاحة لمواجهته، وعلى الأمة والجماعة المنتظِرة أن تنسجم مع مفاد البراءة من هؤلاء وَفق ما تحدّث به صادق آل محمد صلوات الله عليهم، عن جده الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله: "إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي، فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبّهم[2]، والقول فيهم، والوقيعة، وباهتوهم، كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس، ولا يتعلمون من بدعهم"[3].

وما بين أخلاقيات التراحم والتناصر وما بين أخلاقيات الصراع والتدافع يُبتلى المؤمن في إيمانه والتزاماته ويكذَّب؛ لأنّ أخلاقيات التدافع ستؤدي إلى نشوء شريحة تتجه إلى التسلّط والتزلّف عبر وسائل الخداع والمكر، وكذا ستضعف فيه ضوابط المعايير الأخلاقية حتى يكون الالتزام بها من الأُمور المحرجة؛ لأن الالتزام بها سيؤدي إلى زوال الفرص، فيكون المؤمن ما بين مطرقة الالتزام بالمعايير وبين سندان تفويت الفرص، ويشير حديث الأصبغ بن نباتة، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: إنّ بين يدي القائم سنين خدّاعة، يكذّب فيها الصادق، ويصدّق فيها الكاذب، ويقرّب فيها الماحل؛ وفي حديث: وينطق فيها الرويبضة؛ فقلت: وما الرويبضة؟[4] وما الماحل؟ قال: أَوَما تقرأون القرآن؟! قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ

---

١ الكافي ١: ٥٤ ح٢.

٢ المراد التشنيع بهم وفضحهم.

٣ الكافي ٢: ٣٧٥ ح٤.

٤ من المظنون به إن هنا سقطاً في الرواية لأنه لا يجيب عن معنى الرويبضة، وفي حديث سلمان الفارسي (رضوان الله عليه) عن الرسول صلوات الله عليه وآله، في حديث طويل عن أشراط الساعة، قال: عندها يتكلم الرويبضة؛ فقال: وما الرويبضة يا رسول الله؟ فداك أبي وأمي، قال صلى الله عليه وآله وسلم: يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم. انظر: تفسير القمي ٢: ٢٨٢ وفي مسند أحمد قال: السفيه يتكلّم في أمر العامة. انظر: مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٩١

﴿ٱلْمِحَالِ﴾ [1]، قال: يريد المكر؛ فقلت: وما الماحل؟ قال: يريد المكّار[2]

وإشارة إلى هذه الأخلاقيات وأنساق العلاقات الاجتماعية يأتي حديث أمير المؤمنين عليه السلام في "نهج البلاغة": "يأتي على الناس زمان لا يُقرّب فيه إلا الماحل[3]، ولا يظرّف[4] فيه إلا الفاجر، ولا يضعّف فيه إلا المنصف، يَعدّون الصدقة فيه غرماً، وصلة الرحم منّاً، والعبادة استطالة على الناس"[5].

وقال الشريف الرضي: هو امرؤ السوء التافه، وقالوا: هو الفويسق الخامل. انظر: المجازات النبوية: ١٥٠ .

١ سورة الرعد: ١٣ .

٢ غيبة النعماني ٢٨٦ - ٢٨٧ ب١٤ ح٦٢ .

٣ الماحل: المتزلّف بالوشاية بالناس.

٤ أيْ لا يعدّ ظريفاً، والظرف هنا يعود إلى أعمال الفجور التي يتم استحسانها.

٥ نهج البلاغة: ٣٦٧ ق.ح: ١٠٢ .

هـ: الاستبدال:

وهو أحد استحقاقات الانتظار الأساسية، ومن خلاله سنجد تحولاً في المؤتمنين على حركة الانتظار والمنتمين إليها، وقد ورد ذِكره في الروايات الشريفة التي تحدثت عن هذه الاستحقاقات كما سنشير إليها في محله.

ومن الواضح أن المفهوم ليس بجديد، ولا هو من مختصات عملية الانتظار، إذ إنه رافق الحركة الإيمانية منذ القدم، وسيبقى يرافقها ويلازمها ما دام الإنسان يتمتع بإرادته التي تتيح له أن يلتزم إيمانياً وأن لا يلتزم؛ ولهذا فإنه ينتقل من مواضع الإيمان إلى نقيضها، والعكس صحيح أيضاً، ولكن كون الإنسان ذو إرادة، لا يعني أن هذه الإرادة يمكنها أن تتلاعب بمقدرات العملية الربانية المتوخاة من خلق الكون؛ إذ إنّ ثمة غاية ربانية من وراء كلّ ذلك، ولهذا فإنّ الله تعالى مع تقديره لحرية الإرادة الإنسانية، إلا أنه ـ كذلك ـ فرض سنناً تاريخية متعددة من شأنها أن تبقي مسارات العملية الربانية نافذة ضمن آليات متعددة، أحدها الاستبدال.

إنّ مفهوم الاستبدال في القرآن الكريم تم طرحه عدّة مرات، وقد طرحه القرآن الكريم بعنوانه أحد السنن التاريخية التي تتحكم بحركة المجتمع، وذلك من خلال عدة آيات قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [1] ونظيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [2] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [3] وكذلك هو قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾ [4].

---

١ سورة المائدة: ٥٤ .

٢ سورة التوبة: ٣٩ .

٣ سورة محمد (صلوات الله عليه وآله): ٣٨ .

٤ سورة المعارج: ٤٠ - ٤١ .

وطَرْح موضوعِ الاستبدال تارة في محيط الكافرين، وأُخرى في محيط الذين آمنوا، لا يشير إلى موضوع القدرة الإلهية من حيث إثباتها أو نفيها فحسب، وإنما يشير إلى السُنّة التاريخية التي تؤدي إلى عملية الاستبدال في الأوساط الاجتماعية؛ إذ إنّ ثمة معايير من شأن الالتزام بها أو التخلف عنها أن يحدد حصول عملية الاستبدال من عدمها، وهي من أنماط السُنّة المشروطة التي يتوقف حصولها على حصول الشرط المعلّل لها، ولكن جزاءها دوماً يفضي إلى وجود البديل الأفضل.

وبادئ ذي بدء لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ مفهوم الاستبدال إنما يستبطن الإشارة إلى ما يتم الاستبدال عنه، كما لا بُدّ من أن يثير أمامنا الموضوع المستبدَل من أجله، فالتحرك من هذا الموقع إلى ذاك لا يتم جزافاً، وإنما لا بُدّ من وجود مركز ثابت هو الذي يجري الاستبدال عنه أو له، وحينما تكون جهة الفعل في الاستبدال هي السُنّة الإلهية في التاريخ، فإنّ من البداهة بمكان أنّ موضوع الاستبدال سيكون لأغراض الإرادة الربانية من هذا التاريخ، وبعبارة أُخرى فإنّ مفهوم الاستبدال يَطرح فاعلاً هو الله تعالى عبر سُننه، ومفعولاً به هو الإنسان ـ جماعة أو فرداً ـ الذي تناط به مهمة ثم يُصرف عنها ويُعزل، ومفعولاً له هو هدف الاستبدال وغايته.

ولـمّا كان حيز الكتاب لا يتسع للتفصيل في بحث هذا المفهوم، لذلك سنقتصر على ما يتصل بالبحث، وليس من العسير عندئذ أن نجد أن موضوع الاستبدال سيتعلق بالقرب والبعد عن القضية المهدوية ومتعلقاتها، فإذا كان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [2] يمثلان الإرادة الإلهية التي ستنتهي إليها السنن التاريخية الحاكمة على المجتمع، فإنّ ما من ريب أن الاستبدال المتحدَّث عنه سيكون على صلة جوهرية بالمشروع الإلهي في هذا الصدد، وبالنتيجة فإنّ مَن سيتم استبداله، ومَن سيحل محله إنما سيكون محوره هو القرب والبعد من تحقيق هذه الإرادة.

ولنا هنا أن نستحضر في أذهاننا جانباً من أحاديثنا السابقة بشأن الانحراف وبشأن البلاء والتمحيص والفتنة والغربلة وما إلى ذلك؛ إذ إننا سنجد أنّ نتائجها ستفضي إلى الاستبدال، فهناك من ستعركه الفتنة فيسمو نجمه ويعلو شأنه في فضاء العملية

---

١ سورة الأنبياء: ١٠٥ .

٢ سورة القصص: ٥ .

الربانية، وهناك ـ كذلك ـ من سيسقطه الابتلاء فيخبو نجمه ويضمحلّ شأنه في هذه العملية؛ ولهذا يأتي الاستبدال هنا في وجهتيه، فهناك الاستبدال الإيجابي الذي بموجبه سيتقدم أُناس كانوا قد تأخروا، وهناك الاستبدال السلبي الذي بمقتضاه سيتأخر أُناس كانوا قد تقدّموا، وهذا يسري على الإنسان كفرد وكجماعة، وبذا يقول الإمام الصادق صلوات الله عليه: "إذا خرج القائم عليه السلام خرج من هذا الأمر مَن كان يرى أنه مِن أهله، ودخل فيه شبه عبدة الشمس والقمر"(١).

وكذا ما رواه أبو بصير، عنه عليه السلام، قال: "لينصرنّ اللهُ هذا الأمر بمن لا خلاقَ له، ولو قد جاء أمرُنا لقد خرج منه من هو اليوم مقيم على عبادة الأوثان"(٢).

ومثله كان الإمام الباقر صلوات الله عليه قد قال: "لتمحّصن يا شيعة آل محمد تمحيص الكحل في العين، وإنّ صاحب العين يدري متى يقع الكحل في عينه ولا يعلم متى يخرج منها، وكذلك يصبح الرجل على شريعة من أمرنا، ويمسي وقد خرج منها، ويمسي على شريعة من أمرنا، ويصبح وقد خرج منها"(٣).

وللتمثيل أقول: لقد كان زهير بن القين (رضوان الله عليه) عثماني الهوى، وكان يتمنّع من لقاء الإمام الحسين عليه السلام على الرغم من أنّ رحله كان قريباً من رحل الإمام (بأبي وأمي) حتى لحظاته الأخيرة، وأعظم من أمر زهير كان أمر الحر بن يزيد الرياحي (رضوان الله عليه)، فلقد كان أمير الجيش الذي جعجع بالإمام الحسين صلوات الله عليه حتى ألجأه إلى كربلاء، ولكن انتهى أمراهما ـ كما هو معروف ـ إلى أن تحولا إلى المنزلة العظمى في أنصار الحسين عليه السلام.

وما ينبغي التنويه به هو أنّ الاستبدال لا يفضي إلى مقام الأبدال المشار إليه بنحوين من الأخبار:

فالنحو الأول هو الإشارة بهذا المقام إلى الأئمة صلوات الله عليهم، والبدلية المطروحة هي بدلية الرسالة والتبليغ، وفيه حديث الإمام الباقر عليه السلام عن لوح فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، في الحديث القدسي: "ألا إنّ خيط فرضي لا ينقطع، وحجّتي لا تخفى، وإنّ أوليائي بالكأس الأوفى يُسقون؛ أبدال الأرض..."

---

١ غيبة النعماني: ٣٣٢ ب٢١ ح١ .
٢ غيبة الطوسي: ٤٥٠ ح٤٥٤ .
٣ غيبة النعماني: ٢١٤ ب١٢ ح١٢ .

الحديث[1].

أمّا النحو الثاني فهو ما يتعلق بأبدال الشام الذين يرد ذِكرهم في روايات العامة بكثرة، ومنها انسابَ الحديثُ إلى كتب الخاصة[2]، وهي بدلية الموقف مع فرض صحة الأحاديث المروية هنا[3]؛ إذ ينتقلون من جيش السفياني إلى جيش الإمام المنتظَر (بأبي وأمي).

---

١ غيبة النعماني: ٧١ ب٤ ح٥ .

٢ كان الشيخ ابن البطريق الحلي (رضوان الله عليه) قد نقله عن "الجمع بين الصحاح" لرزين العبدري [العمدة: ٤٣٣ ح٩١١] وتابعه السيد ابن طاووس (رضوان الله عليه) وقد نقله عن كتاب "الفتن" لنعيم بن حماد [الملاحم والفتن: ٦٢ ب١٤٣] ومنه على ما يبدو انساب إلى الثقافة العامة؛ إذ يجري الحديث عنه بشكل موسّع وكأنه من أحاديث أهل البيت عليهم السلام؛ ولذا اقتضى التنويه.

٣ مسند أحمد بن حنبل ٦: ٣١٦، وسنن أبي داود ٢: ٣١٠ ح٤٢٨٦ ومسند ابن راهويه ٤: ١٧٠ ح١٩٥٤ والفتن لنعيم بن حماد -: ٢٠٠ .

و: التفرّق والتشتّت:

تقدّم الحديث عن الفُرقة والوحدة أثناء بحثنا عن السياسات الظالمة، ولكن التفرّق والتشتت لا يتأتى - بالضرورة - من السياسات الظالمة؛ ولهذا فإنّ بحثنا يرتبط بطبيعة الاستحقاقات المترتبة على الانتظار، سواء كان التفرق مرتبطاً بالسياسات الظالمة أو بطبيعة التنافس والتدافع داخل القواعد الشعبية للانتظار.

وعلى الرغم من توفر المقومات الأساسية للوحدة في قواعد الانتظار، إلا أنّ ما لا شك فيه أنّ أسباب التفرّق والتشتت داخل هذه القواعد هي الأُخرى متوفرة ومتعددة، ويساهم طول الانتظار، وغيبة الإمام عجل الله فرجه، وفقدان القائد الواحد، وكذا المشروع التغييري المتصدي[1] بشكل جدي، في إثراء وتعميق هذه الأسباب.

فمن حيث المبدأ تمتلك هذه القواعد جملة من العناصر الأساسية التي تحفظ الوحدة الاجتماعية فيها، وهي في نفس الوقت تلعب دور الكابح أمام كثيرٍ من إثارات التفرقة وبواعثها، فالتشيّع بمنظومته العقائدية والتشريعية والاجتماعية، وكذا الولاء للإمام (روحي فداه)، عاملان أساسيان في هذه الوحدة، فكلّما قويا في وعي الإنسان وتكرّسا في إرادته كلّما أمكن تمتين بقية الأواصر، والعكس صحيح أيضاً، إلا أنّ هذين العاملين بصورتهما العامة لا يمنعان من التفرّق؛ لأنّ الدخول في التفاصيل الحياتية المختلفة ستؤدي إلى جملة من العوامل التي من شأنها أن تزيد الهوّة بين الشرائح المختلفة في هذه القواعد؛ لأننا يمكن أن نشهد تفاوتاً في تقييم المصالح وأولوياتها، وكذا في تشخيص المضار وأسبابها، وهذا التفاوت يؤدي إلى اختلاف الرؤى، ثم إلى الاختلاف في المواقف، مما يؤسس للتفرقة والتشتت.

---

١ لا شك أنّ التشيع هو المشروع المتصدي للتغيير، ولكن ما نقصده في المتن هو أن المشروع المعلن والمجاهر في عملية التغيير يوحّد الطاقات في العادة، ويسمح للتراكمات الكمية بالتحول إلى التغيير النوعي، مما يحدّ من مظاهر التشتت والتفرق الاجتماعي، ولكن هذا المشروع لا يطلق على علاته، بل يحتاج إلى مقومات النجاح، وإلا تحوّل إلى مشروع انتحار.

ومع تأكيد الروايات الشريفة على تنجّز هذا الاستحقاق، فإننا في عين الوقت نلمس أنّ منهجية أهل البيت صلوات الله عليهم عملت من أجل تخفيف حدّة هذه الحالات، وأبقت كثيراً من الكوابح التي من شأنها إعادة الترابط ما بين الشرائح المختلفة في الساعات الجدية والمواقف الحاسمة، وهذا ما يعزى إليه أن الشيعة بشكل عام لم تحدث فيهم ما يؤدي إلى التشتت والتفرق الكبير الذي يستولي على المجتمع برمته، بل بقيت الأُمور في حدودها المقبولة بالتناسب مع حجم الهجمة الظالمة وبُعد المدة عن الفرج وتنوّع التوجهات الذاتية.

ولو استبعدنا الجانب التشريعي الذي يلزم الإنسان الموالي بعدم الخروج عن الجماعة، فإنه يمكن لنا أن نشير إلى عاملين أساسيين لعبا أخطر الأدوار في مجال حفظ وحدة القواعد المنتمية إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام بصورة عامة:

فمن جهة لعبت المرجعية الدينية التي انتُدِبت للعمل في غياب المعصوم صلوات الله عليه الدورَ الجامع للمتفرقات، والقاسم المشترك الذي يمكن أن تقف أمامه حدّة الخلافات الداخلية، فالأفراد والجماعات يمكن أن يختلفوا في الأوساط الاجتماعية المختلفة، ولأسباب عدة، ولكن تبعية كلّ واحد منهم إلى مرجعية محددة يفضي إلى تقليص حدّة الخلافات وردّها إلى الحدود المقبولة.

ومن جهة أُخرى كان لممارسات الولاء، المتمثلة بالشعائر الدينية وزيارات الأئمة عليهم السلام وإحياء مناسباتهم أثراً كبيراً في كبح جماح التفرّق والتشتت، ولعلّنا حينما نلاحظ ظاهرة الشعائر الحسينية والقدرة الفذة التي تمتلكها في تذويب الخلافات من أجل الحسين صلوات الله عليه، نجد ما يعطينا رؤية سريعة حول طبيعة عمل هذه الآليات.

ولكن لو أضفنا إلى هذين العاملين الجانبَ التشريعي والالتزامَ بمعايير الولاء، فإننا سنشهد كثيراً من العناصر التي تدعم توحيد الأواصر والعلائق ما بين الافراد والجماعات وتجسّر العلاقات ما بين المختلفين.

ولا أريد أن أرسم خارطة وردية لذلك، فالساحة الاجتماعية فيها كثيرٌ من الأُمور التي تحزن المرء لِما يرى من تشتت الإرادات وتفرق الجهود وتبعثر الإمكانات، وهو أمر أشارت إليه أقوالهم في ما روي عنهم صلوات الله عليهم بطرق عدة كما مرّ بنا غير واحد منها، ولكن مع كلّ ذلك فإنّ الأُمور ـ كذلك ـ ليست بتلك الصورة المأساوية التي يعمد بعضهم إلى تصويرها، والعبرة أننا نجد أن كثيراً من اللحظات

الحاسمة والمواقف الجدية ـ بمحضها ـ تنهي كثيراً من الخلافات، وتقضي على كثير من صور التشتت، وتدفع بالمرء إلى الاندماج ضمن الوحدة الاجتماعية، وتجربة التشيع التاريخية خير شاهد على ذلك.

ولعل في حديث أمير المؤمنين صلوات الله عليه لمالك بن ضمرة دلالة واضحة بأنّ التفرّق الذي نلحظه بين الشرائح الاجتماعية إنما هو تفرّق لا يمسّ البنية الأساسية، وإنما هو في التفاصيل، وناجم في الأعم الأغلب من طبيعة التباين في تقييم المصالح والمفاسد، ولو قدّر لهم قيادةٌ تدخل ضمن قناعاتهم، فإن هذا سيزول؛ يقول صلوات الله عليه: "يا مالك بن ضمرة! كيف أنت إذا اختلفت الشيعة هكذا؟ ـ وشبك أصابعه وأدخل بعضها في بعض ـ فقلت: يا أمير المؤمنين! ما عند ذلك من خير! قال: الخير كلّه عند ذلك يا مالك، عند ذلك يقوم قائمنا فيقدّم سبعين رجلاً يكذبون على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وآله فيقتلهم، ثم يجمعهم الله على أمر واحد"[1].

ومواجهة هذا الاستحقاق بوعي من أشد المسؤوليات المناطة بالمنتظِرين، وقد أكّد الأئمة صلوات الله عليهم ذلك، ففي وصية أمير المؤمنين للإمام الحسن عليهما السلام يَرِدُ التأكيد على ذلك بقوله: "عليكم يا بني بالتواصل والتباذل والتبارّ[2]، وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرّق، وتعاونوا على البر والتقوى"[3].

وفي دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين صلوات الله عليه، قال: "ولا مجامعة من تفرّق عنك، ولا مفارقة من اجتمع إليك"[4].

وفي النصّين يطرح الإمام صلوات الله عليه الوحدة بإطارها الواعي، فهي وحدة من أجل الحق والهدى، ولهذا عبّر أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن ذلك في نص آخر بقوله: "لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل"[5]؛ ولهذا على المنتظِر أن يحذر الدعوات التي تتستر بالوحدة لكي تخفي الباطل، فالأصل في التوحّد هو الحق، مع أننا قد أُمرنا

---

١ غيبة النعماني: ٢١٤ ب١٢ ح١١ .

٢ إعمال البر.

٣ من لا يحضره الفقيه ٤: ١٩١ ح٥٤٣٣ .

٤ الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق.

٥ نهج البلاغة: ٢٣٣ خ٢٠١ .

بالمداراة والتلطّف للناس، لا على سبيل النفاق والتصنع على حساب الحق، وإنما على سبيل التعاون وعدم النـزوع للصراع والصدام.

ومن الواضح أن عوامل التوحّد والتفرّق لا يمكن أن تتكامل إلا من خلال وجود مجموعة من العناصر التي من شأنها أن توجد البيئة الكفيلة بتعايش المصالح العامة للأفراد، ففي تعبير أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الناس يجمعها الرضا والغضب، ولذلك من شأن إيجاد هذه البيئة أن تجعل الإنسان يركن إلى الطمأنينة والسكينة، وفي هذا الصدد فإنّ الناس ثلاثة أصناف، أحدها متلهّف لطلب المصالح، والآخر خامل في طلبها، والثالث قانع بما لديه؛ ولهذا فإنّ تأمين الرضا ومنع الغضب منوط بالناظم الذي يرجع إليه المتقدم والمتأخر ويتبعه المعتدل، وهذا الناظم يتشكّل من خلال العناصر التالية التي نذكرها على وجه العجالة:

أ: **القوة التشريعية** التي تضمن العدالة، وبالنسبة للمنتظِر فإنّ القوة التشريعية تتمثل بالمنظومة الفقهية، ولأنّ هذه المنظومة مرتبطة بأعلم الفقهاء، فإنّ الرجوع إلى الفقيه العادل يؤمّن للمنتظِر الغطاء التشريعي الذي يحتاجه، ولا سيما في دقائق القضايا وحاسم الأُمور، التي تكون وحدة المنتظرين فيها ـ عادةً ـ على المحك.

ويضاف إلى القوة التشريعية ما يرتبط بها من معايير وتوجيهات أخلاقية تدفع لخدمة المنظومة التشريعية وتعزز من قوتها، كأخلاقيات التعاون والتكافل، التي يمكن أن نطلق عليها عنوان: أخلاقيات الأمانة الربانية على الأرض.

ب: **الرقابة الموضوعية**، فالقوة التشريعية من دون الرقيب على تنفيذها وتطبيقها، تكون كالقانون الذي يطرح من دون وجود وسائل الضبط التنفيذية من قبيل الشرطة وأمثالهم، وبالنسبة للمنتظِر فإنّ تعميق التقوى في محتواه الداخلي يمكن أن يؤمّن هذا الرقيب، ويدفع به باتجاه التورّع والتعفف إزاء الأُمور الحادثة، ويجب أن ينتبه المنتظِرون بأنّ وتيرة الإغراء والهلع بالنسبة لهذه المصلحة أو تلك متفاوتة، مما يستدعي من المرء أن يكون حذراً دائماً من مغبة الركون إلى إحدى حالتيها، فالإغراء يُنسي، والهلع يُذهل، وبالنتيجة يمكن للإنسان أن يسقط، ومن شأن تعميق حالة التقوى الفردية والاجتماعية أن تحول دون ذلك أو تخفّفه.

ج: **المؤسسة الراعية**: فمثل هذا الأمر لا يتم تأمينه من خلال الأعمال الفردية؛ لأنّ تداخل عديد من العوامل فيه من شأنه أن يطيح بالأعمال الفردية؛ ولذلك لا بُـدّ من وجود المؤسسة التي ترعى هذه العملية وتجعل همّها معالجة كلّ هذا التداخل

والمشاكل الناجمة عنه، وبطبيعة التشيّع وواقعيته، لم يعلّق الأُمور على الدولة الحاكمة، بل عمل على إيجاد المنظومة التي تتناسب مع طبيعة المرحلة التي يعيشها؛ إذ إنّه أقرّ - في البداية - كلَّ المنظومات الاجتماعية التي لها دور في عوامل الانضباط الاجتماعي ولا تتقاطع مع منظومته التشريعية والعقائدية؛ ولهذا اعتمد التشيعُ تكتيكياً على المحاور الاجتماعية سواء كانوا قادة محليين، أو زعماء قبائليين، وهو مع ذلك وضع نظام الوكالات التي يلعب فيها الوكيل الديني في المناطق دور الموجّه لمنطقته، فيما جعل مؤسسة الجوامع والحسينيات والمواكب الحسينية وأمثالها تلعب الدور المتمم، ولذلك فإنّ التشيع أوجد مؤسسات راعية مناطقية وفقاً للظروف التي عاشها التشيع، ولكن هذا لم يمنع حينما تواتي الظروف أن يبادر إلى إنشاء المؤسسات ذات الشمولية الأكبر، وهو فوق كلّ ذلك أوجد مؤسسة المرجعية التي لعبت وما زالت أخطر الأدوار من أجل تأمين عوامل الوحدة والقضاء على عوامل التفرّق والتشتت.

ولكن على الرغم من ذلك فإننا يجب أن لا نستغرق في هذا التفاؤل، ولا سيما أنّ الواقع المعاصر يكشف أن الأُمور تتجه إلى التعقيد في هذا المجال، ومن دون قيادة واعية وحكيمة يمكن إيجاد الإجماع عليها فإنّ الواقع يبقى يقدّم إفرازاً من بعد آخر نحو التشظّي والتشتت الاجتماعي؛ ولهذا نجد أن الأئمة صلوات الله عليهم حينما يتحدثون عن الإمام المنتظَر عجل الله تعالى فرجه الشريف فإنهم يشيرون إلى هذه الخصلة، فهو الوحيد القادر على إنهاء هذه الحالة وتخليص الواقع الاجتماعي منها.

فهذا يزيد بن سليط يتحدث عن الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام بحديث واحد في موضعين، عن الإمام المهدي (بأبي وأُمّي)، قال يزيد: "لقينا أبا عبد الله عليه السلام في طريق مكة ونحن جماعة، فقلت له: بأبي أنت وأُمّي أنتم الأئمة المطهرون، والموت لا يعرى منه أحد، فأحدِث إلي شيئاً أُلقيه إلى من يخلفني؟

فقال لي: نعم، هؤلاء ولدي، وهذا سيّدهم - وأشار إلى موسى عليه السلام ابنه - وفيه علم الحكم، والفهم، والسخاء، والمعرفة بما يحتاج الناس إليه في ما اختلفوا من أمر دينهم، وفيه حسن الخلق، وحسن الجوار، وهو باب من أبواب الله. وفيه أُخرى هي خير من هذا كلّه.

فقال أبي: ما هي بأبي أنت وأُمّي؟

قال: يُخرج اللهُ منه غوث هذه الأُمّة وغياثها، وعلمها ونورها، وفهمها

وحكمتها، خير مولود، خير ناشئ، يحقن الله به الدماء، ويصلح به ذات البين، ويلمّ به الشعث، ويشعب به الصدع، ويكسو به العاري، ويُشبع به الجائع، ويؤمن به الخائف، ويُنـزل به القطر، ويؤمن به العباد"[1].

وفي الحديث الآخر، قال يزيد ـ ضمن حديث طويل ـ: "لقيت أبا إبراهيم[2] عليه السلام ـ ونحن نريد العمرة ـ في بعض الطريق، فقلت: جعلت فداك، هل تثبت هذا الموضع الذي نحن فيه؟

قال: نعم، فهل تثبته أنت؟

قلت: نعم، إني أنا وأبي لقيناك ههنا وأنت مع أبي عبد الله عليه السلام ومعه إخوتك.

فقال له أبي: بأبي أنت وأُمّي أنتم كلّكم أئمّة مطهَّرون، والموت لا يعرى منه أحد، فأحدِث إلي شيئاً أُحدّث به من يخلفني من بعدي فلا يضلّ؟

قال: نعم يا أبا عبد الله، هؤلاء وُلدي وهذا سيدهم ـ وأشار إليك ـ وقد عَلِم الحكم والفهم والسخاء، والمعرفة بما يحتاج إليه الناس، وما اختلفوا فيه من أمر دينهم ودنياهم، وفيه حسن الخلق وحسن الجواب، وهو باب من أبواب الله عز وجل، وفيه أُخرى خير من هذا كلّه.

فقال له أبي: وما هي بأبي أنت وأُمّي؟

قال عليه السلام: يُخرج اللهُ عز وجل منه غوث هذه الأُمّة وغياثها، وعلمها ونورها، وفضلها وحكمتها، خير مولد وخير ناشئ، يحقن الله عز وجل به الدماء، ويصلح به ذات البين، ويلمّ به الشعث[3]، ويشعب به الصدع[4]، ويكسو به العاري، ويُشبع به الجائع، ويؤمن به الخائف، وينـزل الله به القطر، ويرحم به العباد"[5].

وهنا نجد مفردات كإصلاح البين ولمّ الشعث وشعب الصدع، بعنوانها أحد

---

١ الإمامة والتبصرة من الحيرة: ٧٧ - ٧٨ ب١٧ ح٦٨ .

٢ أي: الإمام الكاظم عليه السلام.

٣ التشعّث: التفرّق.

٤ أي: الجمع ما بين المتفرق.

٥ الكافي ١: ٣١٣ - ٣١٤ ب١٣٠ ح١٤ .

الموضوعات التي لا يمكن تأمينها بشكل كامل إلا من خلال وجود الإمام (روحي فداه)، وإلى ذات الموضوع يشير الإمام المنتظَر صلوات الله عليه نفسه في خاتمة دعاء الافتتاح: "اللهم المم به شعثنا، واشعب به صدعنا، وارتق به فتقنا." الدعاء[1].

1 مصباح المتهجد وسلاح المتعبد: ٥٢٤ دعاء الافتتاح.

ز: الإعداد للمشروع الحضاري[1]

هذا هو أحد أهم الاستحقاقات التي تترتب على الانتظار الطويل للإمام المنتظَر (روحي فداه)، إنْ لم يكن أهمها على الإطلاق؛ لأنّ الانتظار ليس عملاً عبثياً خالياً من الهدفية، وإنما هو سبيل لتحقيق الوصول إلى أحد مراحل الهدف المطلوب من الانتظار، وهو إعداد الأُمّة للمشروع الحضاري الذي سيتصدى الإمام (بأبي وأُمّي) لتحقيقه.

والمشروع الحضاري هو البرنامج المؤدي إلى تكوين الحضارة وهو الإطار الأيديولوجي والمعنوي لعملية التكوين هذه، ولذلك لا نقصد بالحضارة كما يعرّفها أمثال ابن خلدون بأنها: أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأُمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر[2].

كما ولا نعني به ذلك التعبير الذي أطلقه كروزيه Maurice Crouzet بأنها مجموعة الخطط والنظم القمينة بإشاعة النظام والسلام والسعادة وبتأمين انتصار الأنوار[3].

ولا ما تحدّث عنه وِل ديورانت Will Durant بأنها: نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي[4].

وإنما هي في تصورنا مجموعة القيم والنظم التي تدفع المجتمع لتحقيق الأهداف والغايات التي يتطلع إليها[5]، أما المظاهر المادية والفنية وما إلى ذلك فهي من إفرازات المدنية؛ لأنها تتوافر في كثير من الأحيان دون أن نجد تبلوراً حضارياً يَسِم

---

١ هذا الموضوع هو خلاصة لبحث قادم ضمن سلسلة دراساتنا في القضية المهدوية إن شاء الله تعالى.

٢ موسوعة ابن خلدون، المقدمة ٢: ٦٥٦ .

٣ تاريخ الحضارات العام ١: ١٧ موريس كروزيه.

٤ قصة الحضارة ١: ٣ وِل ديورانت.

٥ ناقشنا تفاصيل هذه التعريفات وغيرها في ما نعده لكتابنا القادم عن الحضارة في القضية المهدوية.

المجتمع بسماته، وقد يطلق عليها حضارة، لأنّ الباحثين في هذا الموضوع في كثير من الأحيان لا يفرّقون بين المدنية والحضارة والثقافة[1]، وفي تصوّرنا، فإن المائز

[1] هناك جدل كبير بين الباحثين في شأن دلالة هذه المصطلحات، وفيما يتوزع غالبية الباحثين العرب بين تقليد ابن خلدون في اعتباره الحضارة والمدنية واحدة، وبين ما ذهبت إليه المدارس الغربية؛ إذ إنّ كثيراً من الباحثين الغربيين، ولا سيما في المدرستين الفرنسية والإنكليزية، يرون عدم التمييز بين الثقافة والحضارة والمدنية، بل يعدّون المدنية هي الحضارة، ولا سيما أنّ الجذر الإنكليزي للكلمة واحد (civil)؛ ولهذا يستخدم الغالبية كلمة (civilization) للدلالة على المدنية والحضارة معاً.

ونتيجة لموجة التغريب التي عصفت بالعالم العربي والإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد تم استعارة المفهوم الغربي ووضعه بدلاً من المفهوم العربي ودلالاته للمصطلح المشار إليها، وربما كان سلامة موسى هو رأس الأفعى في الترويج لهذا الخلط كما يشير إلى ذلك في كتابه الثقافة والحضارة: ١٧١، شأنه شأن بقية مسعاه ودوره في الدفع باتجاه تغريب المجتمع العربي والإسلامي، ولعل عدداً من الباحثين الألمان كانوا هم المميزين المبكرين ما بين اللفظين؛ إذ أطلقوا مقولتهم الشهيرة: "الحضارة هي ما نحن، والمدنية هي ما نستعمل".

ولكن يلاحظ عليهم انتفاء المستقبل في طرحهم هذا؛ لأنّ اكتفاء النظر إلى الحاضر والماضي وعدم التقنين للمستقبل يجعل الحضارة بلا أُفق، وهذا خطأ بليغ.

وعلى الرغم من أنّ الإسلام استخدم كلمة الحضارة بمعنيَيها المكاني والزماني، فلقد شخّص القرآن الكريم ثلاثة أمثلة كنماذج لتجمّع الأُمم التي تنشأ منها الحضارات، وفي كلّ الأحوال استخدم جذر "حضر"، ففي قوله تعالى: ﴿حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقـرة: ١٩٦] وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ [البقـرة: ٢٨٢]، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ [الأعراف: ١٦٣]، نجد أنه استخدم مادة الحاضرة والحضور لأقوام تجمعت بسبب رمز عبادي جمعها، أو تجارة جذبتهم للتجمّع، أو وسيلة نقل، أو رزق معينة.

ثم أشار في غير موضع إلى أن الأعمال وتراكماتها هي التي تحضر في النهاية، لتفضي إلى النتيجة المترتبة عليها، فإمّا أعمال الخير فإنها تؤدي إلى مآل الخير، وإمّا أعمال الشر فمآلها إلى عواقب الشر، معتبراً أنّ ذلك إنما يتم وَفق سياقات موضوعية، ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عِمـران: ٣٠]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ومثله قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التّكوير: ١٤]، ففي كلّ هذه النصوص لا يخالنّ أحداً أنها مقتصرة في وصفها الموضوعي على الآخرة، فالحديث هنا خاص أُريد به ما هو أعم؛ إذ إنّ تراكم الأعمال الحسنة وغيرها له أثران موضوعيان، أحدهما في الدنيا، والآخر في الآخرة، ومن الواضح أن الحضارات لا تتكون إلا من خلال تراكم الأعمال الحاضرة، ولكن طبيعة ما يحضر من عمل في الواقع الاجتماعي هو الذي يعطي للتاريخ حركته، إن

كان سيئاً فسيئاً، والعكس صحيح.

ومهما يكن، فإنّ الإسلام لم يحدد موقفاً أيديولوجياً محدداً تجاه هذه المصطلحات؛ لأنه ركّز على مصطلح الأُمّة في مقابل ما يتم التحدّث بشأنه اليوم، ولكنه في حديثه عن الأُمّة وكذا عن الحضارة أشار إلى اللونين معاً، فإزاء أُمّة الخير هناك أُمّة السوء، وإزاء حضارة الخير هناك حضارة الشر، وبيّن أن التاريخ هو صراع هذين اللونين، ورأى أن مشاريع هذين اللونين تتأثر وتوظّف في نفس الوقت كلّ العوامل التي تدخل كطرف في التأثير على العقلية الاجتماعية وطريقة تعاملها مع الطبيعة؛ ولهذا لا يمنع من استخدام مصطلح الحضارة بالمعنى الأيديولوجي لنجمع بين ما نحيا به وبين ما نريد تحقيقه، لا بعنوانها بديلاً عن مصطلح الأُمّة، ولكن يمكن لهذا المصطلح أن يشير إلى الأُمّة المتحركة نحو الهدف، فهناك أُمم خذلت أهدافها، وهناك العكس، ولنسمّي ذلك بالأُمم ذات الحضارة.

إنّ ما نريده في المشروع الحضاري إذاً مستلهَم من مادة (حضر) في اللغة العربية، وفي هذه المادة نجد استيعاب المكان والزمان بشكل بليغ، فالحضر هو ما يخالف البدو، والحاضر هو المقيم في المدن، وهذا ما نعنيه بالمكان، والحاضرة هم الحي العظيم أو القوم، وهي صفة طائفة أو جماعة، وهذه تعني الأُمّة وزمانيها الماضي والحاضر؛ لأنه لا جماعة من دون ماض لها تجمعت من خلاله، ولها حاضر تحياه وتعيشه، ويقال: رجل حَسَنُ الحضرة والمحضر، إذا حضر بخير، وإذا كان ممن يذكر الغائب بخير، وهذا ما يوحي لقيم الأُمّة ومستقبلها، فالخير هو عنوان القيم والمعنويات، وإنما يطلب الخير لغاية مادية أو معنوية في المستقبل.

ولذلك، فإننا نعتقد أنّ أيّ تعريف للحضارة يتجنب الإشارة إلى المكان، والأزمنة الثلاثة، والأُمّة التي ترتاد المكان وتعيش الزمان وطبيعة المعايير التي تحرك الأزمنة الثلاث وتقنن العلاقة مع المكان، يبقى تعريفاً ناقصاً ويؤدي إلى نتائج كارثية في تفسير حركة التاريخ.

ومن هنا يمكن لنا أن نفهم الإخفاق الذي عانت منه تعريفات الفلاسفة والباحثين المعاصرين ومن سبقهم لحركة التاريخ، فجلّهم إمّا تحدّث عن نهاية التاريخ وتوقفه عند أُفق محدد، كما هو الحال لدى فوكوياما وغالبية فلاسفة الحداثة وما بعد الحداثة المعاصرين، الذين يرون في الرأسمالية المحور الذي تنتهي إليه حركة التاريخ، أو عند ابن خلدون في "المقدمة"، الذي يرى أن الحضارة هي غاية العمران ونهاية لعمره ومؤدية لفساده، وكأنها تعيش لتنتهي.

أو دورانه، كما هو الحال عند توينبي ونظرائه، أو عند مفكّري الداروينية الاجتماعية، الذين أسسوا لفكرة التطور الحضاري الصاعد الذي لا يتراجع، متغافلين عن أبسط الحقائق التاريخية، وكأن الحربين العالميتين الأولى والثانية كانتا تقدماً في الحركة الحضارية لا نكسة هائلة فيها!

أو أنهم حكّموا عاملاً واحداً في حركته، كما هو حال ماركس، الذي وجد في الاقتصاد العامل الأوحد في تحريك التاريخ، وفرويد الذي رأى في الجنس العامل الوحيد الذي يتحكم في الحركة التاريخية.

أو عبثيته، كما هو الحال لدى فلاسفة الوجودية سارتر وألبير كامو وسيمون دي بوفوار وهيدجر وأندريه جيد.

بين الاثنين هو أنّ المدنية لا موضوع عقائدي أو فكري أو معنوي ينشئها، بل هي تلبية لحاجات الإنسان المادية، ولأنّ الإنسان اجتماعي بطبعه؛ ولهذا فإنّ نشأة المدن أو ما يسمى سابقاً بالحضر مرتبطة في كثير من الأحيان بدواعي الأمن أو الزراعة والتجارة، وهذه أُمور لا تنشئ لوحدها الحضارات، بينما الحضارة على العكس لا تنشأ إلا من خلال البنية الفكرية والمعنوية التي تطلقها، وتكون المدنية خادمة لهذا المشروع وملبّية لأغراضه؛ فتأمل!

وهذا المشروع لا يتحقق بطريقة اعتباطية ولا بطريقة الصدفة، وكذا لا يتكوّن في يوم وليلة، وإنما هو عمل موضوعي جاد، ويحتاج إلى مقوّمات أساسية من دونها لا يمكن له أن يشهد النور، بل من دونه تتحول الأُمّة إلى شبح من الأمم، وبالتالي تكون عرضة لسيطرة الآخرين عليها أو تبعيتها لهم وذلّها بين أيديهم.

وأذكر هذه المقومات هنا بعجالة، وهي:

أولاً: المنظومة الفكرية والمعنوية المحرّكة، فالمجتمع لا يتحرك بزخم لتكوين حضارةٍ مِن دون وجود مجموعة من الأفكار والقيم التي من شأنها أن تصنع مُثُلاً عليا تستطيع توليد الطاقة المحرّكة له، وهذه الـمُثُل كلّما كانت حيوية أكثر كلّما استطاعت أن تبقي الزخم في حراكه التصاعدي، مما يعطي للحضارة أثراً أكبر وديمومة أكثر، والعكس صحيح أيضاً، وما روّج له بعض الباحثين الهولنديين من أن الإنسان مع المادة مع الوقت يعطي ناتجاً حضارياً يمثّل وصفاً أبترَ للموقف الحضاري، فهذه الأُمور كانت دائماً موجودة، ولكنها تستطيع أن تنتج مدنية تتشابه مع أية مدنية أُخرى أوجدت نفس المظاهر الحضارية دون أن يعني ذلك أنها أنتجت حضارة[1]؛ لأنّ

أو متمرداً على أحد الأزمنة، كما هو الحال في بعض مفكّري الحداثة.

أو متجرّداً من ضوابط الأُفق المستقبلي من خلال التعامل مع الواقع ومعطياته واتّباع حركة الواقع، كما هو الحال لدى الاتجاهات البراغماتية.

أو أُولئكم الذين أرغموا المستقبل أن يتشكّل وَفق مسار واحد لا يتزحزح، كما هو حال كلّ الّذين قالوا بتقدمية الحركة التاريخية، متأثرين بذلك بما أوحاه العالم البيولوجي تشارلز داروين من خلال نظريته عن تطور الأنواع.

ولا أزيد على ذلك، فكلّه مما نسأل الله تعالى أن نتوسع في الحديث عنه في كتابنا القادم في هذه السلسلة.

١ خذ اليابان مثلاً على ذلك؛ فهي التي استعارت، بل تفوقت على المظهر الحضاري الغربي في عوالم التكنولوجيا والاقتصاد والثقافة الاجتماعية وما إلى ذلك، ولكن هذه الاستعارة وهذا التفوّق لا

الحضارة لا يمكن أن تنشأ إلا من خلال المنظومة الفكرية والمعنوية التي تلعب فيها دور الجهاز (الداينمو) المحرّك.

ثانياً: **القاعدة الشعبية** التي تحمل همّ هذا المشروع، وتتبناه، وتعمل من أجل تحقيقه، فمن دون هذه القاعدة لا يمكن لأعظم مشروع حضاري أن يرى النور، وهذه القاعدة هي التي تؤمن ـ ولو ارتكازياً ـ بالمنظومة الفكرية والمعنوية التي أشرنا إليها أعلاه.

ثالثاً: **الإطار الجغرافي** الذي يتم تنفيذ المشروع فيه، فلا حضارة دونما أرض ما، بل إن الرقعة الجغرافية وطبيعتها البيئية والتضاريسية تلقي بظلال مهمة على شكل الحضارة وأنماطها.

رابعاً: **الوقت**، فالحضارات لا تنشأ فجأة أو بعجالة من الزمن، وإنما هي مجموعة من الأعمال التراكمية المنظّمة في محتواها[1]، وهذا التراكم يحتاج إلى زمن لتنمو فيه القدرات والإمكانات بالمقدار الذي تحتاجه العملية الحضارية، وتتبلور بوضوح أمام قواعدها الشعبية الأهدافُ التي يجب أن تحققها وتنشدها بالشكل الذي ينسجم مع المشروع الحضاري.

ولو أردنا تشخيص موضع ذلك كلّه من القضية المهدوية، فإننا مدعوّون أولاً إلى ملاحقة الموضوع من خلال العملية التنظيرية والتشريعية له؛ إذ يبدو واضحاً من خلال مراجعة بسيطة للقرآن الكريم أنْ نفهم أنّ هذا الموضوع مقنن له إلهياً، فإنّ هذه

يعبّر عن حضارتها بقدر ما يعبّر عن حضارة الغرب، وعلى الرغم من تنفيذ الصين لسياسة صارمة في شأن الثورة الثقافية في فترة ماو تسي تونغ إلا أننا نجد أن الحضارة الغربية اكتسحت بالتدريج الحضارة الصينية، وعلى الرغم من التقدم التكنولوجي والاقتصادي الكبير الذي حصل في الصين إلا أنّ زحف الحضارة الغربية واندثار الحضارة الصينية هو أحد أبرز المظاهر المعاصرة.

١ لا بُدّ من أن نشير إلى أنّ محض التراكم لا ينتج حضارة ولا يحيي حضارة، وما تفعله كثيرٌ من الأنظمة العربية من تكديس في بعض المظاهر الحضارية في الاقتصاد والأمن والتعليم والاجتماع بدواعي إعادة الحياة في الحضارة العربية إنما هو وهم كبير، بل ضحك على الذقون، فهذا التكديس قد ينفع في ديمومة نظام، ولكنه لا يوجِد ولا يحيي حضارة؛ إذ إنّ الحضارة لا تنشأ من استعارة المظاهر من حضارات أُخرى، فكلّ المجتمعات والحضارات تستعير التجربة الإنسانية ولكن الاستعارة لا تنشئ الحضارة، وإنما الإنسان المؤدلج وقدراته المعنوية والفكرية هو الذي ينتجها، ومن دون ذلك فإنّ الاستعارات ستكون مجرد محاكاة في البداية، ثم سرعان ما تسيطر الحضارة الأقوى في إنتاج هذه المظاهر.

المراجعة ترينا أنّ القرآن الكريم لم يتعامل مع الموضوع بشكل عفوي أو ثانوي، وإنما نجد التعامل الجدي معه بالشكل الذي يوصله إلى الإرادة الإلهية؛ إذ إنّ مما لا شك فيه أنّ الحديث الإلهي عن دولة الوارثين الصالحين الحاكمة على الأرض يعني الحديث عن إرادة ربانية في إيجاد مشروع حضاري شامل بعد انتشار الظلم والاستضعاف في الأرض، وفي هذا الحديث نجد التزاماً جازماً بتحقق ذلك.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [١]، ويطرح هذا الالتزام من خلال التحدث عن كتابة الله تعالى لذلك، فكتابته لأمرٍ ما إنما هو التزام بتحققه.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [٢] فإن الإرادة المطروحة هنا لا يمكن أن تتخلّف عن التحقق، وهي بالنتيجة تشير إلى ذلك الالتزام وآلياته.

ولا أُريد أن أستطرد هنا في الحديث عن هذه الإرادة، وهل هي تشريعية أو تكوينية، فلها محلها الخاص في بحث قادم إن شاء الله، ولكن من المتيقن أنّ الله تعالى قد أودع هذه الإرادة في السنن التاريخية التي تتحكم في حركة التاريخ البشري.

كما إنّ الهدف الرباني المعلن من خلق الخليقة والمتجلي بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [٣] لا بُـدّ أن نجد له تحققاً شمولياً بعد أن تحقق مبدئياً بخلق الأنوار الطاهرة لرسول الله وعترته صلوات الله عليه وعليهم على النحو الذي بيّنّاه في بحث سابق[٤]، وبما أنّ التأريخ لم يرينا لحد الآن مثل هذا التحقق بالشكل الذي نجد فيه عبودية لله حاكمة على الأرض، فلا بُـدّ إذاً من أن نربط ما بين هذا الهدف وما بين تلك الإرادة التي أشارت إليها الآيات الكريمة التي سلفت.

ونفس الأمر يجري في التطبيقات الشمولية لآية الاستخلاف ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [٥]، وكذا في آية الأمانة الربانية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

١ سورة الأنبياء: ١٠٥ .

٢ سورة القصص: ٥ .

٣ سورة الذاريات: ٥٦ .

٤ انظر بحث الخلافة الربانية.

٥ سورة البقرة: ٣٠ .

﴿وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[١].

فهذه الآيات وإن كانت واردة لما هو أشمل من القضية المهدوية، ولكن تطبيقاتها التاريخية الشاملة يدخل فيها المشروع الحضاري المهدوي في الصميم.

من كلّ ذلك نستنتج أنّ هناك حتمية تاريخية تستدعي تحقق المشروع المهدوي وفق منطوق القرآن الكريم، وقد جاء الحديث النبوي يؤكد نفس السياق؛ إذ إنّ حديث الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله في شأن الوعد المهدوي صريح جداً، وقد تقدّم تواتر هذا الحديث لدى جميع المسلمين وبألفاظ مختلفة، ولكن ما يهمّنا هنا هو الثنائية المتعارضة المطروحة في هذا الحديث، ففي حديث أبي سعيد الخدري (رضوان الله عليه) يقول: "فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً"[٢]، فإذا كانت الأرض لا تُملأ قسطاً وعدلاً إلا بعد أن تمتلئ ظلماً وجوراً، فهي تطرح النتيجة الحتمية للصراع بين الظلم والعدل، وانتهاء الصراع بظفر العدل على يد الإمام المهدي صلوات الله عليه.

وحينما يحدّث الحديث عن انتشار الظلم والجور، فإنه يتحدّث في الوقت عينه بأنّ نُظُم الظلم والجور وأدواته لن تستسلم لمشروع العدل والقسط بطريقة طوعية، كما يجب الإذعان إلى أنّ هذه النتيجة لن تتحقق بطريقة الإعجاز أو المصادفة والاعتباط، وإنما تحصل نتيجة جهد الإرادة البشرية المنقادة للإمام عجل الله فرجه، وتحمّلها لمكابدة الظلم وتجرّع الجور وأساليبهما، ومن هنا فإنّ الحتمية التي نتحدث عنها لا تعني تكبيل الإرادة البشرية، ولكن طبيعة ما أُودع في القوانين التاريخية يجعل هذه الإرادة تلبي هذا الهدف أو تقبل به.

ولـمّا كان المشروع المتعلق بهذا العدل والقسط شاملاً لكل الدنيا، ولا سيما أنّ الظلم والجور يملآن كلّ الدنيا، فإنّ إعداد القاعدة المادية والاجتماعية التي ستنهض بهذا المشروع ومستلزماته سيحتاج إلى مدىً زماني كبير يتم من خلاله تنمية الوعي الكفيل بإيجاد هذه القاعدة التي لو انطلق زخم المظلومين والمستضعَفين المبني على شدّة تجرّع الظلم والمعاناة منه، فإنها لن تنكص على أعقابها كما رأينا ما حصل من بعد وفاة رسول الله صلوات الله عليه وآله.

---

١ سورة الأحزاب: ٧٢ .

٢ مسند أحمد بن حنبل ٣: ٣٧ ح١١٣٤٤، وسنن أبي داود ٤: ١٠٧ ح٤٢٨٥ .

ففي زمن الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم كان المشروع الحضاري الرباني قد انطلق، ولكن تم إعاقته سريعاً بعد رحلة الرسول الأكرم (بأبي وأمي)، ولا أُريد هنا أن أستطرد في طبيعة الذي جرى، ولكن من المجزوم به أنّ الزخم الحضاري الذي انطلق عنفوانه في عهد الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله سرعان ما ذوى لصالح زخم اللهاث وراء الدنيا؛ ولهذا رأينا كيف أنّ هذا الزخم ـ الذي كان مستعداً في فترة الرسول صلوات الله عليه وآله للذود عن المشروع الرسالي ـ يقف ضد هذا المشروع في معارك عـدة.

ولئن شخّص المفكّر الجزائري مالك بن نبي ذلك في معركة صِفّين التي عَدّها الانطلاقة نحو التردي الحضاري[1]، فإننا نعلم يقيناً أنّ ما جرى في صِفّين لم يك إلا إفرازاً للفترة التي سبقته، وإلا كيف يمكن لنا أن نفسّر التردّي الحضاري والقيمي الجسيم في حرب الجمل؟! والذي بموجبه تم قتل ما يقرب من ١٨ ألف إنسان من داخل صفٍ يُفترض أنه هو الناهض بهذه الحضارة، وكان بإمكان ابن نبي وأمثاله أن يرى في ما قيل بأنه حروب الردة[2] في عهد الخليفة الأول نموذجاً من نماذج هذا

---

١ شروط النهضة: ٥٢ .

٢ سمّوها ردة، وهي ليست كذلك في أعمّها الأغلب، فلو استثنينا قصة سجاح ومسيلمة الكذّاب وبعض المناطق الأخرى، والتي ربما تم المبالغة بها لغرض تعميمها على بقية حروب السيطرة والاستيلاء، وليس أدل على ذلك من قول أبي بكر المشهور: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه. (انظر موطا مالك: ١٦٥ رقم٦٠٥).

ولعمري متى كان الامتناع عن اعطاء المسلم حق الزكاة يحتاج إلى قتال؟ فأين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ بل أين التعزير وسائر العقوبات المفترضة في مثل مسائل العصيان على أداء العبادة؟ وسيأتيك لاحقاً تصرف الخليفة إزاء جريمة أعظم من جريمة عدم دفع الزكاة، وحدّها وعقوبتها من مسلّمات التشريع القرآني! لتعرف إن الأمر برمته لا علاقة له بالتشريع.

وفي الحقيقة فإن المسالة لم تك مسألة امتناع عن دفع الزكاة بقدر ما كانت تتعلق بطبيعة ما تصرف عليه الزكاة ومن تصرف له، إذ إنّ غالبية المناطق الأخرى كانت قد رفضت الواقع السياسي الناشئ بعد وفاة الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله، وبالتالي إصرارها على عدم دفع الزكاة لكي تؤخذ إلى المدينة المنورة، وإنما جلّ طلبهم أن يكون توزيع الزكاة على فقراء هذه المناطق نفسها.

وما جرى في حادثة قتل الصحابي مالك بن نويرة (رضوان الله عليه) والي رسول الله صلوات الله عليه وآله على صدقات بني تميم من قِبل خالد بن الوليد وتمثيله الشنيع بمالك وأصحابه من بعد قتلهم؛ إذ جعل رؤوسهم أثافي للقدور!! ثم نزوه في نفس الليلة على زوجته الصحابية النوار!!

ذلك ما عدّوه فاتحة ما سمّوه بحروب الردة دليلٌ عملي على ماهية هذه الحروب، على الرغم من مطالبة عمر بن الخطّاب من أبي بكر بأن يقتص من خالد لأنه قتل مسلماً! وأن يرجمه لأنه زنى بمسلمة

التردي والانعطاف الكبير عن مشروع رسول الله صلوات الله عليه وآله الحضاري.

بل كان بإمكانه أن يرى ذلك بوضوح في مجريات سقيفة بني ساعدة وكواليسها، التي يشهد الجميع بغياب النص الديني عنها تماماً، وركون أبطال السقيفة لقيم مناطقية وعشائرية واجتماعية، وكلّها بعيدة عن الدين، مع أنه هو الذي يقول بأنّ الحضارة لا يمكن أن تنشأ إلا من خلال العقيدة الدينية، وما من ريب فإنّ كلّ التداعيات التي حصلت من بعد السقيفة كانت انعكاساً لها ونتيجة لها.

وقد أشارت روايات عديدة إلى طبيعة استحقاقات الانتظار في هذا الجانب، ويمكن تصنيف هذه الاستحقاقات في جانبين، هما:

الأول: لقد اختص الجانب الأول بطبيعة الإعداد لهذا المشروع على المستوى العالمي أجمع، ومن الواضح أنّ الأحاديث التي تحدّثت عن ملء الأرض ظلماً وجوراً إنما تتحدّث في عين الوقت عن طبيعة التداعيات النفسية والوجدانية وطبيعة التأثيرات السياسية الناجمة من جراء هذا الظلم والجور، وما نلاحظه اليوم من كثرة مظاهر الغليان الشعبي في أنحاء عديدة من دول العالم شاهد حي على طبيعة هذه التداعيات[1]، وستستمر هذه التداعيات في التفاقم والتعاظم لتجعل الناس تطلب الخلاص وتتعلّق بأيّ مشروع يخلّصها من نير الظلم والجور الذي يخيّم عليها، ولا سيما أنّ كثيراً من الظلم الذي تعاني منه الناس حالياً هو نفس العدل الذي خطبت ودّه يوم أمس!

وعلى سبيل المثال نرى أنّ كثيراً من الدول الأوربية كانت قد هلّلت لاتجاه الشركات الأوروبية نحو العولمة، وحين أُطلقت صيحة الشركات المتعددة الجنسية تفاءل كثيرون من نخبتها بمآل ذلك اقتصادياً، ولكن لم تمض على هذه الفكرة إلا سنيناً قليلة حتى وجدنا أوروبا تنتفض بمرارة ضد مظاهر العولمة وتدعو إلى تقييد

وهو محصن! أو أن يعزله في الأقل، فما كان من أبي بكر إلا أن طلب من عمر أن يكفت ويسكت!!
انظر: تاريخ الطبري ٢: ٢٧٣ - ٢٧٤، تاريخ أبي الفداء ١: ١٥٧ .

ومن بعد ذلك مضت السلطة لتحول خالد بن الوليد الى سيف الله المسلول وأفضت عليه كل مظاهر التجليل والتكريم.

١ هناك دراسات وأبحاث جادة تشير إلى إمكانية حصول غليان شعبي في أمريكا وبريطانيا أوسع مما شهدته فرنسا في الآونة الأخيرة، هذا ناهيك عن الغليان الذي تشهده المنطقة الحاسمة في معركة الإمام المنتظَر (روحي فداه)، وأعني بذلك الشرق الأوسط.

رحلة الشركات الأجنبية ووفودها من وإلى بلدانها؛ لما في ذلك من عظيم الأثر على واقع العمالة والبطالة فيها.

ومثل ذلك يمكن أن نراه في بهجة الأوروبيين والأمريكيين من امتلاك القدرة النووية في بدايتها، ثم تحوُّل هذه البهجة إلى الموقف المناهض من جراء الوعي الناجم من تداعيات هذه القدرة وشأنية امتلاكها.

والأمثلة في هذا الصدد كثيرة جداً حتى انجرّت إلى التطرف في رفض كلّ مظاهر الحداثة، كما هو الحال في التيار الأمريكي الصاعد والذي يعمل على رفض التلفزيون وسائر وسائل الاتصال الجمعي!

وهكذا نجد أن مشاعر الظلم والجور بدأت تطغى بشكل متعاظم حتى من خلال ما تفرزه ما حسبه الناس في البداية أنها بوابات السعادة، ولهذا ينتشر القول ـ وعلى نطاق واسع ـ بأن الحضارة الغربية أنتجت تكنولوجيا وتقنيات عالية المستوى لم تحلم به البشرية من قبل، ولكنها سلبت السعادة من الناس!! وبقول آخر: قدّمت لنا الرفاه وسلبت منا السعادة!! وهو أمر يدعونا للقول: بأنّ الحضارة الغربية أضحت تأكل نفسها!!

وهذا مما يجرّنا إلى القول بأنّ انتظار المخلّص ما عاد مسألة مقتصرة على مساحة فكرية أو وجدانية أو مكانية معينة، بل يمكن لنا أن نتلمّس ـ بجدية ـ انتشار الفكرة على نطاق عالمي وفي كلّ المناخات الفكرية والدينية، ولئن لم يشخّص بعضهم هوية المخلّص، أو تاه عنه بعضهم الآخر لتسمية مخلّصين آخرين، أو تعلّق ثالث بمشروع آخر للخلاص، أو غير ذلك، فإنّ كلّ ذلك إنما يُعزى لعملية إنشاء البيئة الراغبة بالخلاص، بالشكل الذي لو انطلق المشروع المهدوي فإنّ شعوب العالم ستُقبل عليه بلهفة، أو أنها سترضى به، أو لا تمانعه، ولعل هذا هو ما عنته الروايات الشريفة التي تحدثت عن حزن أهل الأرض لفقد الإمام صلوات الله عليه[1]، ولا يتنافى ذلك مع رواية أبان بن تغلب عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سمعت أبا عبد الله جعفر ابن محمد عليه السلام يقول: إذا ظهرت راية الحق لعنها أهل المشرق وأهل المغرب، أتدري لم ذلك؟ قلت: لا، قال: للذي يلقى الناس من أهل بيته قبل خروجه.[2]

١ غيبة النعماني: ١٨٦ ب١٠ ح٢٨، ومختصر بصائر الدرجات: ٤٩٧ ح٥٦١ .
٢ غيبة النعماني: ٣٠٨ ب١٧ ح٤ .

وكذا رواية منصور بن حازم، عن الإمام الصادق صلوات الله عليه قال: إذا رفعت راية الحق لعنها أهل المشرق و المغرب قلت له: مم ذاك؟ قال: مما يلقون من بني هاشم.[1]

فهذه الأحاديث ناظرة على ما يبدو إلى الحكام الظلمة من أهل المشرق والمغرب، وليس إلى الشعوب، التي قد لا تعرف ماذا يجري في البلدان الأخرى لتكره أو تحب.

ومن هنا نجد أنّ الروايات الشريفة أكّدت على أنّ الحروب التي سيخوضها الإمام صلوات الله عليه لن تشمل كلّ العالم، وإنما غالبية الدول ستستسلم له أو تذعن له بشكل طوعي أو تحت رغبة شعوبها بالتخلّص من واقع الظلم، ولا سيما أنّ مشروع الإمام (روحي فداه) العسكري ومن خلال حركته الأولى في منطقة الشرق الأوسط سيستهدف مواطن الطاقة والمواصلات العالمية ومكامنها بالدرجة الأولى[2]، مما يجعله أكثر القدرة التكنولوجية في مختلف المجالات خاضعة له أو تحت تأثيره؛ فتأمّل!

ومن الواضح أنّ انتظار المخلّص يعني اشتداد حالة اليأس في النفوس، وانحسار القناعة في النظام العام، ونمو حالة التناقض بين الشرعية والسلطة، فالعلاقة بين هذه الحالات والانتظار تتعاظم كلّما ازداد الظلم، وتنحسر كلّما ازداد العدل، ومن الواضح أنّ هذه الحالات تمثّل أحد أهم العوامل التي تدفع بالإنسان إلى التمرّد والرفض، بل والثورة على الواقع الذي يحياه، ولا سيما مع إمكانية توفر البديل، الأمر الذي يوجد الإمكانية الكبرى لكي تكون القواعد الشعبية مهيّأة للانتفاض على الواقع الذي تعيشه بمجرد رؤيتها لبصيص الأمل.

ويساعد على ذلك ما في الروايات الشريفة التي تؤكد أنّ النظم الإدارية للدول

---

١ غيبة النعماني: ٣٠٩ ب١٧ ح٥ .

٢ إذ إنّ حركته الأولى صلوات الله عليه ستستهدف في أشهرها الأولى العربية السعودية والعراق وتكون أغلب إيران موالية له سلفاً، مما يعني وضع أكثر من ٧٥٪ من الوقود العالمي تحت السيطرة، ولا سيما إذا ما عرفنا أنّ هذا الاستهداف سيتيح له (بأبي وأمّي) السيطرة على أهم منفذين بحريين في العالم، وأعني بذلك الخليج ومضيق هرمز شرقاً والبحر الأحمر غرباً، ثم يتعاقب بعد ذلك مباشرة استهداف الشام ومصر، مما يضع الملاحة الدولية تحت تأثيره مباشرة من خلال السيطرة على قناة السويس، وستكون الحرب التي ستدور في فلسطين وجنوبي لبنان قاصمة الظهر بالنسبة لمنظومة الظلم العالمي؛ وسيأتي تفصيل ذلك في كتابنا اللاحق عن المشروع المهدوي الحضاري.

تكون في طور الانحلال الشديد، حتى إنّ بعضها يصف الحال بانحسار حكم السنين المديدة للملوك والحكام وتحوّلها إلى حكم الأشهر والأيام، وهذا الانحلال هو أحد إفرازات هذه الحالات، بل تذهب الروايات إلى انحلال الولاءات بشكل عام وانتفاض الناس بوجه أنظمتهم، ففي عديد من الروايات الشريفة التي تتحدث عن سقوط البطانات والولائج[1] يشار فيها إلى أنّ الفتن في عهد الغيبة ستؤدي إلى إسقاط الولاءات الاجتماعية والسياسية، كما في قول الإمام الباقر صلوات الله عليه: "إنه لا بُدّ من أن تكون فتنة يسقط فيها كلّ بطانة ووليجة، حتى يسقط فيها مَن يشقّ الشعرة بشعرتين[2]، حتى لا يبقى إلا نحن وشيعتنا"[3].

وفي نفس السياق يجري الحديث عن انتفاض الناس وتمرّدهم على واقعهم لا سيما في المنطقة العربية وشعوبها، ولعلّ هذا هو المستوحى من الرواية المروية عن الإمام الصادق صلوات الله عليه، التي يُسأل فيها من قبل يعقوب السرّاج: متى فرج شيعتكم؟ قال: فقال: "إذا اختلف وُلد العباس[4]، ووهى[5] سلطانهم، وطمع فيهم من لم يكن يـ طمع فيهم، وخلعت العرب أعنّتها[6]، ورفع كلّ ذي

---

١ البطانة والوليجة: خاصة القوم والجماعة، وقد يراد به النفاق والتحلل من الالتزام بوليّ الأمر عليه السلام، وفي أيّ اتجاه وُجّهت الكلمة فإنّ المراد هنا هو توجّهات ولاء الإنسان.

٢ إشارة إلى مدى حذاقته ودقّته.

٣ غيبة النعماني: ٢١٠ ب١٢ ح٣ .

٤ أشرنا في غير مرة سابقاً إلى أنّ المراد ببني العباس في مثل هذه الروايات ليس هم أُولئك العباسيون الذين حكموا في التاريخ حكمهم المعروف، وإنما هم الأنظمة التي سارت على منوالهم وكانت امتدادا لخطهم واستوطنت مناطق قصورهم، ولا سيما أنّ الرواية تتحدث عن عصر التمهيد المباشر؛ لاشتمالها على حركات اليماني والسفياني والحسني.

٥ وهى: وهن وضعف.

٦ العنان - والأعنّة جمعُه -: السير الذي يلجم الخيل، وقد فسّرها بعضهم بخروج العرب من عهدة الاستعمارين البريطاني والفرنسي!!

ولا ينقضي العجب من هذه التفسيرات وأمثالها، فأمثال هذه التفسيرات لها ما يترتب عليها، والروايات في هذا الصدد تحدثت عن تزامن الحدث مع العلامات النهائية، وبالتالي يجعل المرء يتساءل عن بقية العلامات، ولا يجد غير رجيع الصدى!!

وقد قلنا في بحثنا عن اليماني الموعود إنّ ذلك يؤدي إلى الشك، وقد يؤدي إلى الجحود، ليس بهذه العلامات فحسب، وإنما بكل القضية المهدوية..

والمؤلم أنّ من يتحدث ويصوّر الأنظمة التي تعاقبت من بعد الاستعمار المباشر كأنها كانت منتفضة على الاستعمار حقيقة، وأنها هي التي خلعت أعنّتها، وقد بات من الواضح أنّ الاستعمار

صيصية[1] صيصيته، وظهر الشامي، وأقبل اليماني، وتحرّك الحسني، وخرج صاحب هذا الأمر»[2].

وما من سبب لذلك في تصوري غير اليأس من أيّ منظومة يتم وَفقها حشد الولاء، فإذا كانت الحربان العالميتان قد قامتا بناءً على الدوافع الوطنية والعرقية والقومية، فإنّ نتائج حرب فيتنام أظهرت سقوط البعد القومي لدى الأمريكان، فيما كانت حرب العراق قد أكدت هذا السقوط من خلال نزوع أمريكا لتعبئة القوى وَفق منطق الارتزاق لا منطق المصالح القومية كما كانت تفعل، وقد كادت حرب أفغانستان أن تحيي جانباً من النوازع الوطنية الأمريكية بسبب حماقة الوهّابية في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١[3]، ولكنها سرعان ما ذوت؛ لأنّ الأمم بدأت تملّ من المنظومات القيادية والإدارية وجدوى اتباعها، ولأنّ المثل العليا لهذه الأُمم ـ كالوطنية والقومية، فضلاً عن العرقية ـ قد تساقطت فكرياً وسياسياً، وما عادت تجتذب العواطف والأفكار كما كانت تفعل في القرون الثلاثة المنصرمة[4].

استعاض عن عملية الاستيلاء على الدول واحتلالها بواسطة جيوشه وأمواله الخاصة، والتي تسمى بالاستعمار المباشر، واستبدلها بعملية الاستعمار غير المباشر، من خلال إحلال منظومات سياسية تابعة له، أو موالية له، أو في أحسن التقادير لا تشكّل خطراً عليه، وبذا يضمن السيطرة ليس مجاناً فحسب، بل مع ضمان مصالحه وتدفق الثروات عليه، وقد جرى ذلك تحت شعارات الثورة وما إلى ذلك، وبلعت الشعوب الطعم وهتفت للقادة الجدد الذين لم يزيدوهم إلا دماراً.

وإني أرى أنّ الرواية الشريفة تتحدث عن الشعوب التي تخلع أعنّتها من ربقة الأنظمة التي حكمتها، وإلا لما قرن ذلك بالفرج من جهة، وبسقوط وانحلال سلطة الأنظمة من جهة أُخرى.

ولهذا، فإنّ من المؤكد أنّ المقصود لا علاقة له بالأنظمة، وإنما بالشعوب التي تجد أن ما يربطها بالطاعة لهذه الأنظمة قد تحلل مع دوام زحف الظلم وممارساته عليها، ولذلك تخلع أعنّة الخوف والتبعية.

١ الصيصية: شوكة الحائك وشوكة الديك وقرن البقر، والمقصود أنّ كلّ ذي قدرة ومكنة سيظهرها ويستخدمها لإثبات وجوده وتثبيت قوته.

٢ الكافي ٨: ٢٢٤ - ٢٢٥ ح٢٨٥، وغيبة النعماني: ٢٧٨ ب١٤ ح٤٢ .

٣ هناك تفسيرات عديدة لها جانب من المعقولية والقرائن الجادة بأنّ ما دُبّر في أيلول/ سبتمبر كان بإغراء مخابراتي خادم لمصالح الولايات المتحدة، والصهاينة من ورائهم، فأفغانستان المحاذية لروسيا والصين والهند وإيران ما كان ليتم مباركة الدخول إليها وبسط النفوذ الأمريكي فيها من قبل عدد من هذه الدول إلا عبر حالة دراماتيكية خاصة، تكون على شاكلة حماقة أيلول/ سبتمبر التي أسقطت أفغانستان تحت براثن الأمريكان وبمباركة دولية عارمة.

٤ واحدة من الأزمات المعاصرة ذات الدلالة العميقة هي قدرات التعبئة في الحروب؛ إذ إنّ ما

الثاني: أمّا في الجانب الثاني، فإنّ الاستحقاقات تختص بالجماعة المنتظِرة والإنسان المنتظِر، فمع ملاحظة أنّ المشروع الحضاري حينما يكون بهذا الحجم وبهذه الجدية فإنّ الإعداد والاستعداد لهذه الجماعة وهذا الإنسان سيكون هو الآخر جدياً وبكلّ ما للكلمة من معنى، وهذه الجدية تارة تتعلّق بالإمام نفسِه (روحي فداه) وبخططه في هذا المجال، وأُخرى بالفرد والجماعة المعنيّين بهذا المشروع.

ومع أنّ ما جرى الحديث عنه في الجانب الأول يسري تأكيده هنا بشكل أخص، ولكن خصوصية المنتظِرين تتطلب المزيد، فهم النواة التي ستحمل المشروع على أكتافها، وهم الذين سيكونون في طلائعه الأُولى، ولا يمكن أن ينضوي في هذا المقام مَن لا يحمل في ذاته المتطلبات المعنوية والفكرية المنسجمة مع طبيعة المهمة والموقع؛ ولهذا يكون الارتقاء بالمحتوى الداخلي للمنتظِرين وإعدادهم الإعداد العالي لهذه المهمة ستكون في باكورة الاستحقاقات المترتبة على عملية الانتظار.

ويمكن لنا أن نتلمّس ذلك من خلال عدد من الروايات المباركة، ففي رواية ـ مرّ بعضها ـ يقول الإمام الصادق صلوات الله عليه في وصف المنتظِرين الذين سينالون كرامة التمهيد المباشر والاشتراك الفعلي في زمن الظهور، بعد أن سأله سائل بأن يصفهم: "أمَا لو كملت العدة الموصوفة ثلاثمئة وبضعة عشر كان الذي تريدون[1]، ولكن شيعتنا مَن لا يعدو صوتُه سمعَه، ولا شحناؤه بدنَه، ولا يمدح بنا معلناً، ولا يخاصم بنا قالياً، ولا يجالس لنا عائباً، ولا يحدّث لنا ثالباً، ولا يحب لنا مبغضاً،

كان يدعو الناس لأنْ تضحّي بنفوسها وتدخل في معركة الحياة والموت طواعية قد اضمحل في نفوسها إلى حد كبير، ولك أن تتأمل في مشاهد الموت الهائلة في الحربين العالميتين الأُولى والثانية، ثم تتساءل: هل بات الناس لهم ذلك الاعتقاد الذي يدفع بهم لكي يضعوا حياتهم ومصيرهم بيد جنرالات الحروب؟!

لقد تمكّن نابليون بونابرت من تحشيد الزخم المنبثق من الثورة الفرنسية لكي ينجح في التعبئة التي أودت بحياة مئات الآلاف، ثم كانت لمقولات الوطنية اللاهثة وراء الكعكة العثمانية أن تحيي قدرة التعبئة لدى الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين، ثم جاءت قوة التعبئة العرقية الألمانية المتأثرة بفكر نيتشه وأمثاله من أن تحيي الروح في النمساويين والألمان، وقد تعاضدت معها قدرة الشيوعية في التعبئة السوفياتية، وقدرة الديمقراطية والمال والبحث عن الوقود في أمريكا على إحياء متبادل في روح هذه الأُمم، ثم قدرة الغطرسة الناجمة من وجود السلاح النووي في خلق حربَي كوريا وفيتنام.

ولكن الفشل الذريع من بعد ذلك وتنامي وعي الأُمم بأغراض ساستها أعطى صدقية كبرى للذين يجدون أنّ هذه الدوافع قد انحسرت إلى حد كبير.

١ أي ظهور الإمام عجل الله تعالى فرجه.

ولا يبغض لنا محباً.

فقلت: فكيف أصنع بهذه الشيعة المختلفة الذين يقولون إنهم يتشيعون؟!

فقال: فيهم التميز، وفيهم التمحيص، وفيهم التبديل، يأتي عليهم سنون تفنيهم، وسيف يقتلهم، واختلاف يبدّدهم، إنما شيعتنا من لا يهرّ هرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولا يسأل الناس بكفه وإن مات جوعاً.

قلت: جعلت فداك، فأين أطلب هؤلاء الموصوفين بهذه الصفة؟

فقال: اطلبهم في أطراف الأرض؛ أُولئك الخفيض عيشهم، المنتقلة دارهم، الذين إنْ شَهدوا لم يُعرفوا، وإنْ غابوا لم يُفتقدوا، وإنْ مرضوا لم يعادوا، وإنْ خطبوا لم يزوَّجوا، وإنْ ماتوا لم يُشهدوا، أُولئك الذين في أموالهم يتواسون، وفي قبورهم يتزاورون، ولا تختلف أهواؤهم وإن اختلفت بهم البلدان»[1].

ويمكن النظر إلى هذه الرواية وأمثالها في الاتجاهين معاً، وأعني اتجاه المنتظِر واتجاه الجماعة المنتظِرة، وكلّ الأوصاف تشير إلى طبيعة محتواهم الداخلي واستحقاقات عمليات الانتظار في تربيتهم ووعيهم.

كما ويمكن النظر إلى هذه المواصفات باعتبارها الآليات الناظمة لتشكُّل الجماعة المنتظِرة وطبيعة العلاقات المتبادلة بين الفرد والجماعة، والعكس صحيح أيضاً، وهنا لا بُدّ لي من أن أُشدد على مسألةٍ منهجيةٍ في التعامل مع هذا النمط من الروايات، وهي ما يحسب بعضهم من أنّ هذه الروايات مجموعة من التعليمات الأخلاقية التي لا تنتظم ضمن رؤية متكاملة ومتناسقة لبناء المجتمع، وقد فات هؤلاء أنّ الروايات صيغت في بيئة ثقافية مؤسسة وَفق رؤية فلسفية متكاملة لكلّ ما تتحدث به في عالم المعايير والقيم.

ولهذا، فإنّ القراءة المعاصرة حينما تأخذ النص مجرداً من بيئته الثقافية وخلفياته الاجتماعية، وتسلب صاحب النص الخصوصية التي يتميز بها، كما هو حال المدارس الحداثوية المعاصرة وعديد من العلمانيين، فإنها لا تشوّه النص فحسب، بل تتآمر عليه وتنقلب ضده؛ وعليه فإنّ ما يجب علينا فعله في تفسير هذه النصوص هو إنزالها في القوالب والنظم التي تراعي ظروف الناص والمنصوص له الفكرية

---

١ غيبة النعماني: ٢١١ ب١٢ ح٤ .

والاجتماعية، مما يعني أننا لسنا إزاء نصوص أخلاقية فحسب، بل هي تفاصيل لمنظومة اجتماعية واحدة؛ لأن حقيقة هذه النصوص هي إنها حينما تطرح في واقع يؤمن بها سرعان ما تتحول إلى فعل اجتماعي، وهذا الفعل هو الذي يسهم في صياغة تلك المنظومة. فتأمّل!

وتدخل في هذه المواصفات ـ كذلك ـ مسألة تحرير الولاء للإمام الحجة المنتظَر صلوات الله عليه ومشروعه من كلّ القيود والارتباطات والالتزامات التي تجعل هؤلاء يترددون ما بينها وبين غيرها من نظم الولاء المتعارفة في عصرهم.

ويتضح ذلك من رواية الوليجة والبطانة، وقد مرّت بنا سابقاً.

ومثلها ما في قول الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: "ستكون بعدي فتنة صمّاء صيلم، يسقط فيها كلّ وليجة وبطانة، وذلك عند فقدان شيعتك الخامس من وُلد السابع من وُلدك، تحزن لفقده أهل الأرض والسماء، فكم من مؤمن ومؤمنة متأسّف متلهّف حيران عند فقده"[1].

ويَظهر لنا ذلك من رواية بشير النبال، قال: "لما قدمت المدينة قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنهم يقولون: إنّ المهدي لو قام لاستقامت له الأُمور عفواً، ولا يهريق محجمة دم؛ فقال: كلا والذي نفسي بيده، لو استقامت لأحد عفواً لاستقامت لرسول الله صلى الله عليه وآله حين أُدميت رباعيته، وشجّ[2] في وجهه، كلا والذي نفسي بيده، حتى نمسح نحن وأنتم العرق والعلق"[3].

ومن رواية المفضّل بن عمر الجعفي، قال: "سمعت أبا عبد الله عليه السلام وقد ذكر القائم عليه السلام، فقلت: إني لأرجو أن يكون أمره في سهولة؛ فقال: لا يكون ذلك حتى تمسحوا العلق والعرق"[4].

وفي رواية أُخرى قال عليه السلام للمفضّل: "فلو كان ذلك لكم لكنّا فيه معكم؛

---

١ كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ٢٥١ - ٢٥٢ ح٩٧ .

٢ الشج: هو الكسر في الرأس او الجبين.

٣ غيبة النعماني: ٢٩٤ - ٢٩٥ ب١٥ ح٢ .

والحديث عن مسح العرق والعلق إشارة إلى ما يلاقونه من تعب شديد في الجهاد في سبيل الله تعالى، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن كثرة ما يشتبكون مع العدو وما ينزف من دم في ساحات المواجهة من أجل إقامة دولة الحق.

٤ غيبة النعماني: ٢٩٥ ب١٥ ح٣ .

فقال: يا مفضّل! أمَا لو كان ذلك لم يكن إلا سياسة الليل، وسباحة[1] النهار، وأكل الجشب[2]، ولبس الخشن"[3].

أقول: في هذه الروايات وغيرها نجد تأكيداً قاطعاً بأنّ عملية النصرة لن تكون عفوية خالية من العناء والنصب الشديد، وإنما هي حينما تتم بصعوبة وجهد فلأنّ القائمين عليها مع الإمام صلوات الله عليه يتّسمون بتربية عالية لمحتواهم الداخلي، وإلى التزام شديد بالولاء، ولا سيما أنّ فتناً أُخرى ستأتي حال الظهور، وقسم منها يتم فيها قتل كثير ممن يعدّهم الناس أنهم منهم ومن الموالين، حتى يصل الأمر إلى وقوف هؤلاء ضد الإمام، كما في الرواية عن الإمام الباقر صلوات الله عليه، قال: "ويسير إلى الكوفة، فيخرج منها ستة عشر ألفاً من البترية، شاكين في السلاح، قراء القرآن، فقهاء في الدين، قد قرّحوا جباههم، وشمّروا ثيابهم، وعمّهم النفاق، وكلّهم يقولون: يا بن فاطمة! ارجع لا حاجة لنا فيك"[4]، مما يستدعي جاهزية تامة في الولاء وفي المحتوى الداخلي؛ فلا تغفل!

ونخلص من كلّ ذلك إلى أنّ المجتمع العالمي سواء أكان ممن يؤمن بالإمام المنتظر (روحي فداه) وينتظره بشكل مشخّص، أو مَن لا يؤمن بالإمام (بأبي وأمي) ولكنه يعيش حالة الترقّب والانتظار لأيّ مشروع للإنقاذ حينما يكون الوضع العام عشية الظهور بالصورة التي يصوّرها الإمام الباقر صلوات الله عليه بقوله: "لا يقوم القائم عليه السلام إلا على خوف شديد، وزلازل، وفتنة، وبلاء يصيب الناس، وطاعون قبل ذلك، وسيف قاطع بين العرب، واختلاف شديد بين الناس، وتشتت في دينهم، وتغيّر من حالهم، حتى يتمنى المتمني الموت صباحاً ومساءً من عِظم ما يرى من كَلَب الناس، وأكل بعضهم بعضاً، وخروجه إذا خرج عند الإياس والقنوط"[5]، فإنّ مما لا ريب فيه أنّ الإقبال على تبني مشروع الإمام (روحي فداه) والالتزام به سيكون من العنفوان والجدية بمكان بحيث يغدو تحقيقه أمراً ممكناً حتى لو كانت الدنيا قد ادلهمّت بأنظمة الظلم، وأطبق عليها الجور من كلّ مكان.

---

١ في بعض النسخ: سياحة، وأيّاً كانت فإنّ المراد هو الكناية عن الخوض في أعمال الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ الجشب من الطعام ما لا يستطاب منه.

٣ غيبة النعماني: ٢٩٧ ب١٥ ح٥ .

٤ دلائل الإمامة: ٢٣٩ .

٥ غيبة النعماني: ٢٦٣ ب١٢ ح١٣ .

* * * * *

إلى هنا نكون قد انتهينا من استعراض أهم الاستحقاقات المترتبة على الانتظار، وبه ينتهي الفصل الخامس، وقد كان جلّ اهتمامي أن أتطرق في ذِكر هذه الاستحقاقات إلى الواجبات العملية، وأن أُنبّه إلى المخاطر العملية التي لا شك أنها لحظت الواقع المعاصر في ما لحظته، لا لأننا نريد أن نعطي إيحاءً بأنّ هذا العصر هو عصر التمهيد المباشر، فقد يكون كذلك ان شاء الله وإمارات ذلك واضحة، وقد لا يكون، فهذه من الأُمور التي لا علم لأحد بها إلا للإمام (صلوات الله عليه)، ولكن لأننا حرصنا على أن نبذل الوسع في تنبيه القراء، والمساهمة في تخليصهم من أحد أهم الأمراض التي ابتلنيا بها حينما نقرأ أهل البيت عليهم السلام، حينما يتم التلقي منهم وكأنّ حديثهم موجّه إلى غيرنا، بالشكل الذي بات كثير من العاملين يتجنّب الخوض في هذه التعليمات لأنها بزعمه لعصر لم يأت بعد!!

وهنا أشير الى حقيقة عملية هي ان الاستعدادات التي يجب أن تتخذ لمواجهة استحقاقات عالم الظهور الشريف تواجه احتمالين، فإما ان يكون عصرنا هو عصر الظهور عندئذ لن يحظى أولئكم الذين تعاملوا مع هذا الأمر باهمال بظنينة ان هذا العصر ليس هو بشرف النصرة الحقيقي ولا بوقفة عز للدفاع عن حياض عقيدتهم ويتامى آل محمد ﷺ، وإما أن يكون العصر ليس هو عصر الظهور عندئذ ماذا سيخسر المستعدون؟!

وأعتقد أنّ من نافلة القول التنويه به هنا هو أنّ عملية الاستعراض لم تتوخّ استقصاء كلّ هذه الاستحقاقات، ولكنها كانت جادة في التنبيه إلى المخاطر والمصالح الأساسية التي يجب توخّيها أو تجنبها في مرحلة ما قبل الظهور الشريف.[1]

*****

١ إلى هنا تم الجزء الأول من الكتاب ويليه الجزء الثاني وأوله الفصل السادس وهو يتعلق بالإعداد لعالم الظهور مع لفت الانتباه الى ان الفصل السابع قد اختص بالتحدث عن علامات الظهور الممهدة وعن شرائط الظهور، وسيرسل الى المطبعة عما قريب ان شاء الله، وقد قطّعنا الكتاب إلى جزئين لكي يسهل الاطلاع على محتوياته والله الموفق للصواب.

خلاصة العلامات الممهدة وشرائط الظهور

تحدّثتُ مفصّلاً عن العلامات الممهّدة وعن شرائط الظهور في الفصل السابع في الجزء الثاني من الكتاب، وقد رجاني بعض الإخوة أن أُجمل هنا هذه العلامات دون تفصيل؛ لكي تكون بين يدي الناس بشكل مبكر، ولا سيّما أنّ هناك من يحاول أن يضلّل الناس في مثل هذه الأمور، أو أنه يقدّم لهم ثقافة تبعدهم عن الخريطة الحقيقية التي رسمها أهل بيت العصمة والطهارة صلوات الله عليهم.

وقد ساعد على كتابة هذه الصفحات أنه بقي في نهاية هذا الجزء من الكتاب فسحة، فاستعنت بالله تعالى على ذلك، وأُجمل هنا ذِكر العلامات بالتسلسل الذي ذكرته روايات أهل البيت عليهم السلام، أما جهة الاستدلال ومصادر ذلك فأترك تفصيلها للفصل السابع من هذا الكتاب، والذي آمل أن يرى النور قريباً بفضل الله تعالى.

وأُشير هنا أولاً إلى الفَرق بين العلامات وبين الشرائط، فالشرائط حتمية الوقوع ولا بُـدّ من حدوثها، بينما العلامات لا حتمية في حدوثها، بمعنى أنها يمكن أن تقع ويمكن أن لا تقع، وهي تدخل في حيّز قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

وكذا فإنّ هناك فرقاً بين العلامات الممهّدة والعلامات غير الممهّدة؛ إذ إنّ العلامات الممهّدة هي التي تكون قريبة جداً من الشرائط، أو مسببة لوجودها، أو مؤذِنة بوجودها بالصورة التي تستدعي من الإنسان المنتظِر أن يستعد لاستحقاقات عملية الظهور، بينما غير الممهّدة يمكن أن تكون قد حدثت قبل مئات السنين من الظهور الشريف؛ ولهذا لا طائل من متابعة العلامات غير الممهّدة في عصرنا هذا، ولكن من المهم جداً متابعة العلامات الممهّدة بدقة، والتي نسأل الله أن يجعل عصرنا ممن يشهد حصول ذلك، وأن يوفقنا للنوء بمسؤولية ما يترتب على ذلك، وأن يشرفنا بِـدَرْك أيام الظهور المباركة، ويجعلنا ممن يوفق لحسن العاقبة على نهج الإمام

---

١ سورة الرعد: ٣٩.

المنتظَر عجّل الله تعالى فرجه الشريف، ولا أعتقد أنّ بالإمكان نيل هذا المقام إلا من خلال الانصياع التام للمرجعية الدينية الرشيدة، التي هي حجة صاحب العصر والزمان صلوات الله عليه علينا.

العلامات الممهدة:

ما سألخّصه هنا مستلّ من عدد كبير من الروايات، ولكنه معتمد بالدرجة الأُولى على رواية غَيبة النعماني عن الإمام الباقر عليه السلام، وقوله لجابر بن يزيد الجعفي رضوان الله عليه: "يا جابر! إلزم الأرض ولا تحرك يداً ولا رجلاً حتى ترى علامات أذكرها لك إن أدركتها"[١]، واستخدام كلمة (حتى) هي التي تضع حداً فاصلاً بين العلامات الممهّدة وغيرها من العلامات، مع التأكيد على أنّ العلامات الممهّدة والشرائط إنما هي "نظام كنظام الخرز، يتبع بعضه بعضاً" وَفقاً لحديث الإمام الباقر عليه السلام[٢]..

١: **(اختلاف بني العباس، وخلع العرب أعنّتهم)** اختلاف الأنظمة العربية فيما بينها[٣]، وما بينها وبين شعوبها.

٢: **(مناد ينادي من السماء، صوت على سور دمشق: ويل للعرب من شر قد اقترب)** وهو تهديد غير عربي على حدود سوريا بالشر الشديد يكون قبيل شهر رمضان أو في بدايته، والمظنون أنه تهديد إسرائيلي لسوريا.

٣: **(صوت من ناحية دمشق بالفتح)** وهذا الصوت هو تنفيذ التهديد، وفي روايات متعددة يشار إلى أن التنفيذ يكون في حرستا، وما استفدناه من مجموع الروايات أن الصوت الذي يسمى في الروايات بالهدة أو الرجفة أو الصعقة أو الصيحة، إنما هو ضربة نووية محدودة توجه إلى دمشق، ويسقط صاروخ الضربة في منطقة حرستا، وهي من ضواحي دمشق الشمالية، وقتلى الضربة مئة ألف، وهذه الضربة تحصل في زمن السفياني الثاني.

٤: **(توقّعوا أصحاب الرايات الصفر من المغرب، والبراذين الشهباء المحذوفة)**

---

١ غيبة النعماني: ٢٨٩ ب١٤ ح٦٧.

٢ غيبة النعماني: ٢٦٤ ب١٤ ح١٣.

٣ ويدل عليه قول الإمام الباقر عليه السلام: "لا يقوم القائم إلا على... وسيف قاطع بين العرب" انظر: غيبة النعماني: ٢٦٤ ب١٤ ح١٣.

ومغرب سوريا هو لبنان، والبراذين هي الدوابّ، والشهباء أي التي تلقي باللهب أو التي تكون مدججة بالسلاح، كما نقول كتيبة شهباء، والمتحصّل هو أنّ أصحاب الرايات الصفراء يأتون من جهة لبنان وينزلون في دمشق بدباباتهم ومدرعاتهم.

٥ : **(خسف في قرية من قرى الشام تسمى الجابية)** والمظنون هو أنّ الخسف ـ وهو الزلزال أو ما شاكل ـ سيكون بتأثير الضربة النووية في حرستا، والجابية في الرواية ـ في أغلب الظن ـ هي المنطقة التي تقابل سوق مدحت باشا الموازي لسوق الحميدية في مقابل مقبرة باب الصغير في دمشق، وهذه تسمى بباب الجابية، وما يليها هو الجابية.

٦ : **(سقوط طائفة من مسجد دمشق الأيمن)** وهو المسجد الأُموي، وعملية السقوط هذه كأنها من آثار الخسف بالجابية.

٧ : **(مارقة تمرق من ناحية الترك)** وما أراه هو إعلان أكراد محافظة الحسكة والقامشلي المجاورة لتركيا انفصالهم عن سوريا، أو إعلانهم الحكم الذاتي فيها.

٨ : **(هرج الروم)** والهرج هو الفتنة الشديدة والاضطراب، وفي بعض الروايات يشار إلى مرج الروم، وهو القتال فيما بينهم، والروم هم الدول الغربية وأمريكا، وهذا الاضطراب يأتي عقب ما يحصل في سوريا.

٩ : **(وسيقبل إخوان الترك حتى ينزلوا الجزيرة)** سيؤدي ضعف الحكومة السورية وإعلان أكراد سوريا انفصالهم عن سوريا، أو استقلالهم، إلى اجتياح تركي لمناطق الأكراد، ليشمل غالبية محافظة دير الزور أيضاً؛ لقوله عليه السلام: "وتشرب خيلهم من الفرات"، وأول نقاط التقاء الأتراك بالفرات هي مدينة البصيرة الحالية، التي تقع على مصب نهر الخابور بالفرات، وهي على أعتاب مدينة قرقيسياء، وسيتحالف معه بنو قيس الذين يستوطنون منطقة الجزيرة.

١٠ : **(وسيقبل مارقة الروم حتى ينزلوا الرملة)** ومارقة الروم هم الأمريكيون وحلفاؤهم، والرملة هي المدينة الفلسطينية المعروفة، وسيأتي هذا النزول نتيجة للمواقف التي تهدد أمن إسرائيل.

١١ : **(خراب الشام وراياتها)** وأول خرابها سابق لهذه الأحداث، وتسبقه فتنة واختلاف في الشام يبتدئ بلعب كلعب الصبيان، ولكنه يتطور بالتدريج ليأخذ الخلاف وضعاً عسكرياً متفجراً ما بين رايتين، هما راية الأصهب، وهو الشديد

البياض، والظبي الوحش بين غيره من الظباء، وراية الأبقع، وهو من حمل جسمه ألواناً متعددة، وتقال للأحمر الذي يخدم قصور الشام، فلقد كان بنو أُمية يلقّبون خدّامهم من الروم بـ "الأبقع" للونهم الأحمر بين الألوان السمر أو الشديدة السمرة لمخدوميهم.

عندئذ ينتهي دور العلامات الممهّدة، ويحلّ عهد شرائط الظهور.

شرائط الظهور:

١: (ظهور السفياني) وهو من الشرائط المتفق عليها بين الفريقين، السُنّة والشيعة، وهو يظهر بعد ضربة حرستا بعشرة أشهر، أي في شهر رجب، ويأتي من خارج سوريا مدعوماً من قبل الروم ومتحالفاً معهم ويدخلها من درعا من جهة الوادي اليابس، فيخرج من بعدها براية يسير الرعب أمامها ثلاثين ميلاً، فيقتل الأبقع أولاً، ثم الأصهب ثانياً في دمشق، ثم يستولي على محافظات الشام الخمس (الكور الخمس) سوى محافظة دير الزور ومحافظة الحسكة المحتلتين من قبل الأتراك، وذلك في مدة لا تزيد على الستة أشهر، فإذا ما استولى على محافظات الشام لا يبقى بينه وبين ظهور الإمام المنتظَر روحي فداه إلا تسعة أشهر؛ ومراحل حركته كالتالي:

أ: (مأدبة الله لوحوش الأرض في قرقيسياء) وتكون أول حركته ـ من بعد استيلائه على المحافظات الشامية الخمس ـ أنه يسير إلى قتال الأتراك، فيهزمهم في قرقيسياء، وقتلى المعركة سيكون مئة ألف من الجبارين وَفق الروايات، والمقتولون هم من الأتراك ومن يتحالف معهم من بني قيس، بالإضافة إلى عدد من جند السفياني.

ب: (اقتحام العراق وحرب بني قيس) من بعد قرقيسياء القريبة من ألبو كمال سيقتحم السفياني العراق من جهة بني قيس، وبنو قيس هم قبيلة الجبور، وينتمون إلى قيس عيلان، ومضاربهم تمتد من حماة وحلب إلى شماليّ الأردن غرباً، ومن جنوب الموصل إلى شماليّ الأنبار شرقاً، ومعهم أولادُ عمهم من الكبيسات وحلفاؤهم ممن يسمّون ببني جيس أو القيسيّين، وتكون ساحة الحرب هي منطقة الأنبار وتكريت والموصل، ويتم الفتك ببني قيس، ويؤسر قائدهم المسمى كنائياً بـ (عوف السلمي) وبنو سلمة هم فخذ من الجبور أيضاً، وهو من أهل جزيرة الموصل، ومأواه ومقره يكون في تكريت، ويعدم في دمشق.

ج: ثم يعقب ذلك مجزرة يرتكبها السفياني ما بين الدجيل وعقرقوف، وهما

شماليّ بغداد، والدجيل تمثل ـ حالياً ـ منطقة يثرب والضلوعية والإسحاقي والزيدان وتمتد إلى الطارمية والمشاهدة، وعقرقوف شماليّ مدينة أبي غريب، وهذه المجزرة هي تكملة لمجازره في بني قيس؛ إذ إنّ عشائر هذه المنطقة تنصر حلفاءها من بني قيس، علاوة على أنّ فيهم من بني قيس خلقٌ كثير.

د: اقتحامه بغداد؛ والروايات متضاربة بين مكثر في وصف مجازره فيها، فيبلغ بها عدد ١٢٠ ألف قتيل، وبين مقلٍّ يوصل قتلاه إلى ٣٠٠٠ آلاف قتيل، ولكنها متفقة على أنه يقتل ثلاثمئة كبش ـ أي ٣٠٠ قائد ـ في المدينة الملعونة، أو البقعة الخبيثة، في منطقة الزوراء، التي سيخرّبها حتى يقول القائل: ها هنا كانت الزوراء!

هـ: اقتحامه الكوفة ومجزرته فيها وقتله لرجل من أسيادها وأعلامها وشيعته؛ والروايات تكثر من قتلاه في الكوفة، والمراد بها النجف الأشرف وضواحيها، ولكنها تصف أن قتلاه في سواد الكوفة أكثر من قتلاه في داخل الكوفة، ومدة مكوثه في النجف وما يليها لا تتجاوز ـ في الروايات ـ الأسابيع الثلاثة، وينجو من يغيّب وجهه عنه من الرجال ويلتحق بجيش اليماني.

٢: **(الخراساني)**؛ وخروجه إلى العراق من إيران في نفس وقت خروج السفياني إليه، وتصف الروايات تسابقهما كفرسَي الرهان، والخراساني من سادة بني هاشم، في يده اليمنى خال، أي علامة، وعلى رأس جيشه شعيب بن صالح، وهو من عرب إيران، من بني تميم، وجيوشه المسماة بأصحاب الرايات السود تصل بالتدريج إلى ضفاف نهر دجلة أثناء اختراق واقتحام السفياني للحدود العراقية من جهة ألبو كمال وما يوازيها ويحاذيها، ويستمر تقدّم جيش السيد الخراساني حتى يصل إلى العمارة وشماليّ البصرة ومحافظة واسط (الكوت) أثناء وجود السفياني في الكوفة.

وتجمع روايات الشيعة والسُنّة أنّ السيد الخراساني يبعث بالبيعة إلى الإمام المنتَظَر حال ظهورة بأبي وأمي، ويكون قائد جيش السيد الخراساني هو قائد جيوش الإمام روحي فداه لاحقاً.

وسوف يكون جيش الخراساني أحد المنجِدَين الأساسيين لأهل الكوفة، وعلى يديه وعلى يد اليماني ستكون هزيمة جيش السفياني الهارب من الكوفة، وذلك على مشارف بغداد.

٣: **(اليماني)** وظهوره في نفس وقت خروج السفياني، وهو أحد أفراس الرهان

مع السفياني والخراساني، وهو في تحليلنا راية عراقية، أصل قائدها النسبي من اليمن، وقبائل العراق وعشائره في المحافظات الجنوبية والوسطى هم من أصول يمنية، وهو أهدى الرايات في ذلك الزمن، ولا يدعو إلى نفسه، وإنما يدعو للإمام صلوات الله عليه، ورايته توصف بالحق، وفي زمنه لا يجوز الالتواء عليه، وهو المنجد الرئيس لأهل الكوفة، والعنصر الأساس في هزيمة السفياني، ولا صحة لكونه يأتي من اليمن، وهو المعنيّ براية الهدى التي تخرج من الكوفة.

وبناء على التوجيه الصادر من الأئمة عليهم السلام بعدم مواجهة السفياني أثناء إقباله بزخم جيشه، فإنّ اليماني يتحرك مستنهضاً عشائر الوسط والجنوب لمواجهة هذا الخبيث؛ ولهذا حينما يدهم السفياني الكوفة يأتي اليماني ومعه من ينصره من هذه العشائر، وتشير إحدى الروايات إلى أنه يأتي ومعه نفر من أهل البصرة، إشارة إلى أن اكثر من ينصره هم أهل البصرة، ويراد بالبصرة هنا المنطقة الجنوبية.

٤: **(طلوع الشمس من المغرب إلى المشرق)** وهذه العلامة من المتفق عليه بين المسلمين جميعاً، والتحليلات العالمية الفلكية المعاصرة تجعل هذا الحدث متوقعاً في زمننا هذا، ولا علاقة للمعجزة بهذه القضية، وتستمر هذه الحالة يوماً واحداً فقط.

٥: **(الكسوف والخسوف في شهر رمضان)** بشكل متعاكس؛ فيكون الكسوف قبل الخسوف، ولم تحصل هذه الحالة منذ بدء الخليقة، وبينها وبين الإمام المنتظَر عجّل الله تعالى فرجه نحو أربعة أشهر.

والشرائط الثلاثة الأخيرة ستجعل العالم متسمّراً في انتظار حدثٍ كوني غريب، ولكن يأتيه حدث من عالم الملكوت يسمى بصيحة جبرئيل عليه السلام.

٦: **(الصيحة الجبرئيلية)** وتحصل في ليلة القدر الكبرى، وهذه الصيحة هي نداء باسم الإمام المنتظَر عجل الله تعالى فرجه والتنويه بشيعته، ويُسمع في كلّ العالم، ويسمعه كلّ أهل لغة بلغتهم، وذلك بلسان جبرئيل عليه السلام، ثم تعقبها عملية تكذيب عالمية واسعة النطاق للتعمية على هذا الصوت، وليقال: إنّ هذا من سحر الشيعة؛ وبين الصيحة وبين ظهور الإمام صلوات الله عليه ٣ أشهر ونصف الشهر.

٧: **(قتل النفس الزكية)** وهو آخر الشرائط وأمره متفق عليه بين السُنّة والشيعة،

ويقتل هو وأخوه ما بين الركن والمقام قبل ظهور الإمام روحي فداه بخمسة عشر يوماً، أي ما بين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من ذي الحجة، وَفقاً لطبيعة أوضاع الهلال.

ثم يحصل الظهور الشريف المبارك في يوم عاشوراء من تلك السنة، على مشرّفه آلاف الصلاة والسلام، في مكة المكرّمة، وما يؤكد حصوله أن يعقبه حصول الخسف بجيش ابن آكلة الأكباد في الصحراء التي تلي مسجد الشجرة ومنطقة أبيار الإمام علي صلوات الله عليه، في المدينة المنوّرة، بعد مجزرة مريعة يرتكبها هذا اللعين بحق شيعة أهل البيت عليهم السلام هناك.

هذه خلاصة قدّمتها بين أيديكم أحبتي لما يمكن أن يكون خارطة زمانية ومكانية للمنتظرين أعزّهم الله، إن التزمتم بها فلن تضلّكم الفتن الكبيرة التي ستتزامن مع هذه العلامات، وأملي من الجميع أن يكونوا على حذر بالغ من إسقاط هذه العلامات على مصاديق غير حقيقية، فإنّ الضلال في تلك الفترة سيكون من الصعب تداركه؛ سائلاً العلي القدير أن يعصمنا وإياكم من مضلّات الفتن.

والحمد لله ربّ العالمين أولاً وآخراً، وصلاته وسلامه على رسوله وآله أبداً.

فهرست الهوامش المهمة

الفهرست

ملاحظة: المصادر والمراجع سوف تدرج في نهاية الجزء الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى